



لجامع
احكام القرآن

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء التاسع عشر

يطلب من
المكتبة الإسلامية
طهران

فهرس الجزء التاسع عشر

سورة الجن

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « قل أوحى إلى أنه أسمع نقر من الجن ... » الآيات . فيه مسائل : أوجه القراءات في « أوحى » . هل رأى النبي صلى الله عليه وسلم الجن في ليثهم أم لم يرهم ؟ الأحاديث الواردة في قصة أستماعهم للقرآن . حديث النهى عن الاستنجاء بالعظم والبعر . اختلاف أهل العلم في أصل الجن . الكلام على أن الجن يأكلون خلافا للأطباء والفلاسفة . الجن يتصوّرون لنا في صور الحيات لحديث « الموطأ » . مشركو مكة لم يدركوا ما أدركته الجن بتدبرها للقرآن . اختلاف القراء في فتح همزة « أن » وكسرها في السورة . معنى « جد ربنا » والقراءات فيها ... ١
- تفسير قوله تعالى : « وأنه كان يقول سفيها على الله شططا ... » الآيات . معنى الشطط وأصله . تعوذ العرب بالجن في الجاهلية ... ٨
- تفسير قوله تعالى : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا ... » الآيات . الكلام على حراسة السماء من الشياطين . اختلاف السلف في أن الحراسة كانت قبل البعثة أو بعدها ... ١٠
- تفسير قوله تعالى : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ... » الآيات . الكلام على أن الجن منهم المؤمن والكافر . لم يبعث الله قط رسولا من الجن ولا من أهل البادية ولا من النساء ... ١٤
- تفسير قوله تعالى : « وأن لو أستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ... » الآية من قول الله تعالى . أينما كان المال كانت الفتنة . معنى الصعد في اللغة ... ١٦

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « وأن المساجد لله ... » الآية . فيه مسائل : بيان المراد بالمساجد . إضافة المساجد لله تشریف . يجوز إضافة المساجد لغير الله تعريفا . يجوز اتخاذ المساجد لغير الصلاة مما يمس مصالح المسلمين . لا تتخذ المساجد هزوا ومتجرا ومجلسا . آداب دخول المساجد ١٩
- تفسير قوله تعالى : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه ... » الآيات . « عبد الله » هنا محمد صلى الله عليه وسلم . قوله : « لبدا » فيه أربع لغات وقراءات . سبب نزول قوله تعالى : « قال إنما أدعوربي » ٢١
- تفسير قوله تعالى : « قل إني لن يجيرني من الله أحد » الآيات ٢٤
- تفسير قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ... » الآيات . فيه مسئلتان : معنى الغيب . المراد بالرسول في قوله : « إلا من أرتضى من رسول » جبريل أو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . لا يعلم الغيب أحد سوى الله ومن أرتضاه من الرسل . ليس المنجم ومن ضاهاه ممن أرتضاه بل هو كافر بالله مفر عليه . رد بعض العلماء على المنجمين . رد الإمام على رضى الله عنه على أحد المنجمين أيضا لما أراد لقاء الخوارج ٢٦

سورة المزمل

تفسير قوله تعالى : « يأياها المزمل . قم الليل إلا قليلا ... » الآيات . فيه مسائل : أصل « المزمل » والقراءات فيه . « يأياها المزمل » خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم . أقوال العلماء في معنى « المزمل » وحديث السيدة عائشة رضى الله عنها . ليس المزمل من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم . في خطابه بهذا الاسم فائدتان : الملاطفة ، والتنبيه لكل راقد ليله . حركة الميم في « قم » الكسر أو الضم وحكى الفتح . الكلام على حد الليل . اختلاف العلماء في فرضية قيام الليل . هل كان أمر القيام خاصا به صلى الله عليه وسلم أوله وللأنبياء قبله ، أوله

صفحة

- ولأتمه . الأحاديث الواردة في فضل قيام الليل . اختلاف العلماء في النسخ
 للأمر بالقيام . الكلام على معنى ترتيب القرآن وفضل قارئه ٣٠
- تفسير قوله تعالى : « إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً » . الأقوال في معنى ثقل القرآن ٣٧
 تفسير قوله تعالى : « إن ناشئة الليل هي أشد وطأ ... » الآيتين . فيه مسائل :
 معنى « ناشئة الليل » . ليس في القرآن ما ليس في لغة العرب . في هذه الآية
 دليل على فضل صلاة الليل على صلاة النهار . اختلاف العلماء في وقت ناشئة
 الليل . صلاة الليل أنقل على المصلى . رد ابن الأنباري على من قال : من قرأ
 بحرف يوافق معنى حرف من القرآن فهو مصيب . القراءات في « سبحا » وبيان
 معناها ٣٨
- تفسير قوله تعالى : « وأذكر اسم ربك ... » الآية . فيه مسائل : بيان الأقوال
 في المراد بذكر الله في الآية . الكلام على معنى التبتل ، والتبتل المأمور به والمنهى عنه ٤٢
- تفسير قوله تعالى : « رب المشرق والمغرب ... » الآيات . الكلام على نسخ
 قوله تعالى : « وأصبر على ما يقولون » بآية القتال . قوله : « وذرنى والمكذبين »
 نزلت في صناديد قريش ٤٤
- تفسير قوله تعالى : « إن لدينا أنكالا وجمها ... » الآيات . بيان معنى الأنكال .
 بركة الطعام في كيله لحديث النبي صلى الله عليه وسلم ٤٥
- تفسير قوله تعالى : « إنا أرسلنا إليك رسولا ... » الآيات . الكلام على تعليق
 « يوما » في قوله تعالى : « فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا »
 والفرع في ذلك اليوم ٤٧
- تفسير قوله تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ... » الآية .
 فيه مسائل : هذه الآية ناسخة لفرضية قيام الليل . الكلام على المراد بقراءة
 ما تيسر من القرآن . المشهور أن نسخ قيام الليل كان في حق الأمة ، وبقيت

صفحة

- الفرضية في حق النبي صلى الله عليه وسلم . بيان علة تخفيف قيام الليل . كسب المال بمنزلة الجهاد . صلاة الليل نسخت بإيجاب الصلوات الخمس . اختلاف العلماء في قدر ما يلزم أن يقرأ به في الصلاة . بيان معنى القرض الحسن في قوله تعالى : « وأقرضوا الله قرضاً حسناً » ٥٠

سورة المدثر

- تفسير قوله تعالى : « يا أيها المدثر . قم فأندر ... » الآيات . فيه مسائل : بيان الأقوال في سبب تدثر النبي صلى الله عليه وسلم . في الخطاب بالمدثر ملاطفة من الكريم إلى الحبيب . قوله تعالى : « وربك فكبر » يقتضى بعمومه تكبير الصلاة ، ومراد فيه أيضاً تكبير التنزيه . في قوله تعالى : « وثيابك فطهر » ثمانية أقوال ٥٨
- تفسير قوله تعالى : « والرجز فأهجر » الآية . بيان القراءات في « والرجز » ومعناها تفسير قوله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » الآية . فيه مسائل : في الآية أحد عشر تأويلاً . ترجيح أحد الأقوال . القراءات في « ولا تمنن » ٦٥
- تفسير قوله تعالى : « فإذا نقر في الناقور ... » الآيات . معنى النقر في كلام العرب . إعراب « يومئذ » ٦٦
- تفسير قوله تعالى : « ذرني ومن خلقت وحيداً ... » الآيات . « ذرني » كلمة وعيد . المفسرون على أن الوحيد هو الوليد بن المغيرة . الأقوال في سبب تسميته بالوحيد . الكلام على مال الوليد وأولاده . « صعوداً » جبل من نار أو صحرة في جهنم ٦٨
- تفسير قوله تعالى : « إنه فكر وقدر ... » الآيات . وصف الوليد للقرآن بأنه ليس من قول البشر . تعبير قرئش له بأنه صعباً . تفكيره في وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالساحر والقرآن بالسحر ٧٢

- ٧٥ « الآيات » « ما أصله مقر ... » تفسير قوله تعالى : « ما أصله مقر ... » الآيات
- ٧٧ « تسعة عشر » القراءات في « تسعة عشر » تفسير قوله تعالى : « عليها تسعة عشر ... » الآيتين . الكلام على عدد خزنة جهنم وتعذيبهم لأهلها . القراءات في « تسعة عشر »
- ٨٢ « كلاً والقمر ... » الآيات . الكلام على « كلاً » وهل يجوز الوقف عليها أولاً . يجوز قراءة « أدبر » بألف و « دبر » بغير ألف ، و « أسفر » و « سفر » كذلك . « إحدى » بنى ابتداءً للتأنيث . « رهينة » أسم بمعنى الرهن وليس مؤنثاً . اختلاف العلماء في تعيين أصحاب اليمين . بيان صحة الشفاعة للذنين من أهل التوحيد
- ٨٧ « فما لهم عن التذكرة معرضين ... » الآيات . المعرضون هم أهل مكة . بيان المراد بالإعراض عن القرآن . اختلاف المفسرين في تفسير الفسورة . طلب جماعة من كفار قريش صحفاً من الله برسالة محمد

سورة القيامة

- ٨٩ « لا أقسم بيوم القيامة ... » الآيات . الكلام على « لا » في الآية . اختلاف المفسرين في المراد بالنفس اللوامة . بيان سبب نزول قوله تعالى : « أيحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه » . الكلام على المراد بتسوية البنان
- ٩٤ « فإذا برق البصر ... » الآيات . بيان القراءات في « برق » ومعناها . الكلام على جمع الشمس والقمر يوم القيامة . أوجه القراءات في « المفر » . معنى الوزر في اللغة . بيان الأعمال التي تنفع الإنسان بعد موته
- تفسير قوله تعالى : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ... » الآيتين . بيان المراد بالبصيرة ومعنى الهاء فيها . الآية فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه . حكم

صفحة	
٩٨	إقرار المرء على الغير بوارث أو دين . لا يصح الإقرار إلا من مكلف غير محجور عليه . الاعتذار بعد الإقرار لا يقبل . حكم إقرار المملوك... ..
١٠٤	تفسير قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ... » الآيات
١٠٥	تفسير قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة ... » الآيات . الكلام على رؤية الباري جل وعلا يوم القيامة... ..
١٠٩	تفسير قوله تعالى : « كلا إذا بلغت التراقي ... » الآيات
١١١	تفسير قوله تعالى : « فلا صدق ولا صلى ... » الآيات . بيان أن الآية نزلت في أبي جهل . « أولى لك فأولى » تهديد ووعيد
١١٤	تفسير قوله تعالى : « يحسب الإنسان أن يترك سدى ... » الآيات

سورة الإنسان

١١٦	تفسير قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر ... » الآيات . الكلام معنى « هل » في الآية . بيان الأطوار التي مرت على خلق آدم عليه السلام . أطوار خلق الإنسان . سؤال حبر من اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم عن ماء الرجل وماء المرأة... ..
١٢١	تفسير قوله تعالى : « إنا أعتدنا للكافرين سلاسل ... » الآية . الكلام على معنى « سلاسل » وإعراجهها
١٢٢	تفسير قوله تعالى : « إن الأبرار يشربون من كأس ... » الآيتين . الكلام على عيون الجنة
١٢٥	تفسير قوله تعالى : « يوفون بالنذر ... » الآيات . بيان معنى النذر وما يندرج فيه . الأقوال في المراد بالمسكين واليتيم والأسير . الكلام على من نزلت فيهم الآية . الرد على من قال إنها نزلت في علي وفاطمة رضي الله عنهما

صفحة	
١٣٣	تفسير قوله تعالى : « إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ... » الآيات ...
١٣٨	تفسير قوله تعالى : « ويطاف عليهم بأنية من فضة ... » ...
	تفسير قوله تعالى : « ويطوف عليهم ولدان مخلدون ... » الآيات . الكلام على نعيم أهل الجنة . بيان إعراب « إمتبرق » وأنه معزب . حديث النبي صلى الله عليه وسلم في شأن الرجل الحبشى ...
١٤١	تفسير قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا عليك القرآن ... » الآيات . الأقوال في سبب نزول قوله تعالى : « ولا تطع منهم آثما أو كفورا » ، ومعنى « أو » في الآية
١٤٦	تفسير قوله تعالى : « إن هذه تذكرة ... » الآيات ...
١٥٠	

سورة المرسلات

	تفسير قوله تعالى : « والمرسلات عرفا ... » الآيات . أقوال المفسرين في المراد بالمرسلات . الكلام على الهمزة في « أقت » ...
١٥٢	
١٥٧	تفسير قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين ... » الآيات ...
	تفسير قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض كفاتا ... » الآيات . فيه مسئلتان : في الآية دليل على وجوب دفن الميت . النباش تقطع يده ...
١٥٨	
	تفسير قوله تعالى : « أنطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ... » الآيات . الأمر للكفار يوم القيامة . الكلام على الظل ذى الشعب الثلاث . جواز آذخار الحطب والفحم والقوت ...
١٦٠	
١٦٤	تفسير قوله تعالى : « هذا يوم لا ينطقون ... » الآيات . قراءة يوم بالنصب والرفع
	تفسير قوله تعالى : « إن المتقين في ظلال وعيون ... » الآيات . الظلال للؤمنين في مكان الظل ذى الشعب للكفار ...
١٦٥	
	تفسير قوله تعالى : « وإذا قيل لهم أركعوا لا يركعون ... » الآيات . الآية نزلت في ثقيف أو يقال ذلك في الآخرة . هذه الآية حجة على أن الركوع ركن في الصلاة
١٦٦	

صفحة

سورة عم

- تفسير قوله تعالى : « عم يتساءلون ... » الآيات . الكلام على أصل « عم »
 ١٦٧
 والتأستفهام بها ومعناها . بيان المراد بالنبا العظيم فى الآفة
 ١٦٩
 تفسير قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهادا ... » الآيات
 تفسير قوله تعالى : « إن يوم الفصل كان ميقاتنا ... » الآيات . حديث النبي صلى
 ١٧٣
 الله عليه وسلم فى حشر الناس على صور مختلفة
 تفسير قوله تعالى : « إن جهنم كانت مرصادا ... » الآيات . الكلام على معنى
 الرصد ، وأن على النار رصدا . بيان معنى الأحقاب ومدة الحقب . الأقوال
 فى أن الآفة تدل على الخلود أو لا تدل عليه
 ١٧٤
 تفسير قوله تعالى : « إن للتقين مفازا ... » الآيات
 ١٨٠
 تفسير قوله تعالى : « رب السموات والأرض ... » الآيات . أختلاف المفسرين
 فى المراد بالروح فى الآفة . بيان المراد بالكافر فى قوله تعالى : « ويقول الكافر
 يا ليتنى كنت ترابا »
 ١٨٣

سورة النازعات

- تفسير قوله تعالى : « والنازعات غرقا ... » الآيات . أقوال المفسرين فى معنى
 النازعات . بيان معنى تدبير الملائكة للأمر فى قوله : « فالمدبرات أصرا » .
 ١٨٨
 الكلام على الحافرة والساهرة فى الآفة
 تفسير قوله تعالى : « هل أتاك حديث موسى ... » الآيات . حديث موسى تسلية
 للنبي صلى الله عليه وسلم . فى « طوى » ثلاث قراءات
 ١٩٨
 تفسير قوله تعالى : « أاتم أشد خلقا أم السماء بناها ... » الآيات . معنى الآفة
 التقريع . بيان معنى سمك السماء ودحو الأرض
 ٢٠١

صفحة	
٢٠٤	تفسير قوله تعالى : « فإذا جاءت الطامة الكبرى ... » الآيات
	تفسير قوله تعالى : « فأما من ظنى ... » الآيات . بيان سبب نزولها : إشار
٢٠٥	الدنيا على الآخرة سبب في الهلاك
	تفسير قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة ... » الآيات . بيان سبب نزولها .
٢٠٧	تقوم الساعة بغضب الله تعالى على عباده

سورة عبس

	تفسير قوله تعالى : « عبس وتولى . أن جاءه الأعمى ... » الآيات . فيه مسائل :
	مارواه أهل التفسير في سبب النزول . الآية عتاب من الله تعالى لنبيه صلى الله
	عليه وسلم . المؤمن الفقير خير من الغنى . ما فعله ابن أم مكتوم كان فيه نوع
٢٠٩	جفاء . الآية لها نظائر من القرآن في عتاب النبي صلى الله عليه وسلم
٢١٢	تفسير قوله تعالى : « أما من أستغنى . فانت له تصدى ... » الآيات
	تفسير قوله تعالى : « قتل الإنسان ما أكفره ... » الآيات . سبب نزول الآية .
٢١٥	دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على عتبة بن أبي لهب وتمزيق الأسد له
	تفسير قوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ... » الآيات . ما يصير إليه طعام
٢١٨	الإنسان مثل للدنيا . الأقوال في معنى الأب
	تفسير قوله تعالى : « فإذا جاءت الصاخة ... » الآيات . الصاخة النفخة الثانية .
٢٢١	الكلام على فرار الإنسان من أهله في المحشر

سورة التكوير

	تفسير قوله تعالى : « إذا الشمس كورت ... » الآيات . الكلام على أصل
	التكوير ومعناه . بيان ما يحدث يوم القيامة من خراب الدنيا . سبب وأد العرب
٢٢٥	في الجاهلية للبنات والكلام طيه

صفحة

تفسير قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس ... » الآيات . « الخنس »

الكواكب أو بقر الوحش . لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته . الكلام على

معنى « عسعس » ٢٣٤

تفسير قوله تعالى : « ولقد رآه بالأفق المبين ... » الآيات . أقوال العلماء في رؤية

النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام في صورته ٢٣٩

سورة الأنفطار

تفسير قوله تعالى : « إذا السماء أنفطرت ... » الآيات . من أشرط الساعة أن

تخرج الأرض ذهبها وفضتها ٢٤٢

تفسير قوله تعالى : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ... » الآيات . الأقوال

في المراد بالإنسان هنا وسبب غروره ٢٤٣

تفسير قوله تعالى : « وإن عليكم لحافظين ... » الآيات . فيه مسائل : الآثار

الواردة في إكرام الكرام الكاتبين . اختلاف العلماء في الكفار هل عليهم حفظة

أم لا ؟ كيف تعلم الملائكة أن العبد قد هم بحسنة أو سيئة ٢٤٥

تفسير قوله تعالى : « إن الأبرار لفي نعيم ... » الآيات ٢٤٧

سورة المطففين

تفسير قوله تعالى : « ويل للمطففين ... » الآيات . فيه مسائل : بيان سبب

النزول . لكل شيء وفاء وتطفيف . أقوال أهل اللغة في مأخذ المطفف .

هل يجوز الوقف على « كالوا » و « وزنوا » أولا ؟ الأحاديث الواردة في شدة

عذاب المطففين ٢٤٨

تفسير قوله تعالى : « كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ... » الآيات . الكلام على

معنى « سجين » وموضعه . الأحاديث الواردة في خبث أرواح الكفار ورد أعمالهم ٢٥٤

- منفعة
- تفسير قوله تعالى : « كلاب وان على قلوبهم ما كانوا يكسبون ... » الآيات . بيان
 معنى الرين . في قوله تعالى : « انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » دليل رؤية
 ٢٥٧
 الله عز وجل يوم القيامة
 تفسير قوله تعالى : « كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ... » الآيات . الكلام على أن
 روح المؤمن إذا قبضت نلقها الملائكة بالبشرى . « عليون » أسم موضوع
 ٢٦٠
 على صفة الجمع ولا واحد له
 تفسير قوله تعالى : « إن الأبرار لفي نعيم ... » الآيات . بيان معنى « رحيق »
 ٢٦٢
 في الآية و « مختوم »
 تفسير قوله تعالى : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ... » الآيات .
 ٢٦٥ بيان سبب النزول . إن بين الجنة والنار كوى ينظر منها المؤمن إلى عدوه في النار

سورة الأنشاق

- تفسير قوله تعالى : « إذا السماء أنشقت ... » الآيات . أنشاق السماء من أشراط
 الساعة . أقوال العلماء في جواب « إذا » في الآية . الجمهور على أن قوله :
 ٢٦٧
 « إذا السماء أنشقت » خبر وليس بقسم
 تفسير قوله تعالى : « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا ... » الآيات .
 الأقوال في المراد بالإنسان ومعنى الكدح في كلام العرب . من نوقش الحساب
 ٢٦٩
 عذب
 تفسير قوله تعالى : « وأما من أوتى كتابه وراء ظهره ... » الآيات . الآية نزلت
 ٢٧٠ في الأسود بن عبد الأسد ثم هي عامة . « يحور » كلمة بالحشية ومعناها يرجع
 تفسير قوله تعالى : « فلا أقسم بالشفق ... » الآيات . « لا » صلة . اختلاف العلماء
 في « الشفق » وهل هو الحمرة أو البياض ؟ معنى الوسق في اللغة وفي الآية .

صفحة

- بيان معنى « لتركبن طبقا عن طبق » . تغير أحوال الإنسان دليل على حدوث العالم وإثبات الصانع . هل قوله تعالى : « وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون » من عزائم السجود أولا ؟ ٢٧٢
- تفسير قوله تعالى : « بل الذين كفروا يكذبون ... » الآيات . بيان سبب التزول . « إلا الذين آمنوا » استثناء منقطع أو هو بمعنى الواو ٢٧٩

سورة البروج

- تفسير قوله تعالى : « والسماء ذات البروج ... » الآيات . الأقوال في معنى « البروج » . اختلاف أهل التأويل في معنى « وشاهد ومشهود » . يشهد المال على صاحبه والأرض بما عمل عليها ٢٨١
- تفسير قوله تعالى : « قتل أصحاب الأخدود ... » الآيات . الكلام على الذين خددوا الأخاديد وقعدوا عليها . قصة الغلام الذي صبر على أذى قومه ولم يرجع عن دينه . في الآية تأنيس للمؤمنين . هل الآية منسوخة أولا ؟ ٢٨٤
- تفسير قوله تعالى : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ... » الآيات ٢٩٣
- تفسير قوله تعالى : « هل أتاك حديث الجنود ... » الآيات . في الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم . خص فرعون وثمود لشهرتهما في بلاد العرب ٢٩٥
- تفسير قوله تعالى : « والله من وراءهم محيط ... » الآيات . القرآن به بيان ما بالناس حاجة إليه من أحكام الدين والدنيا . الكلام على اللوح المحفوظ ٢٩٦

آستدراك

ورد في الجزء الخامس عشر من هذا التفسير صفحة ٢٥٩ البيت الآتي محرفاً :

الضاريون عميراً عن بيوتهم * بالليل يوم عمير ظالم عادى

وصوابه :

الضاريون عميراً عن بيوتهم * بالليل يوم عمير ظالم عادى

والبيت للقطامي وأسمه عمير بن شيم من قصيدة يمدح بها زفر بن الحرث الكلابي ؛ وكان زفر أسره في الحرب ، فن عليه ، ووهب له مائة ناقة ، وردّه إلى قومه . وقد ساق ابن الشجري البيت في كتابه (الأمل) شاهداً على إضافة « يوم » إلى جملة الأبتداء ما

محمد محمد حسين

المصحح بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

سورة الجن

مكية في قول الجميع . وهي ثمان وعشرون آية

قوله تعالى : قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا
سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا
أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ) أى قل يا محمد لأمتك أوحى الله إلىّ على
لسان جبريل (أَنَّهُ اسْتَمَعَ) إلى (نَفَرٍ مِّنَ الْجِنِّ) وما كان عليه السلام عالماً به قبل أن
أوحى إليه . هكذا قال ابن عباس وغيره على ما يأتى . وقرأ ابن أبى عبّلة « أُوحى » على الأصل ؛
يقال : أوحى إليه ووحى فقلبت الواو همزة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِذَا الرُّسُلُ أُقَاتَتْ » وهو
من القلب المطلق جواره في كل واو مضمومة . وقد أطلقه المازنى في المكسورة أيضاً
كإشاح وإسادة و « إِعَاءِ أَخِيهِ » ونحوه .

الثانية - وأختلف هل رآهم النبي صلى الله عليه وسلم أم لا؟ فظاهر القرآن يدل على
أنه لم يرههم ؛ لقوله تعالى : « اسْتَمَعَ » وقوله تعالى : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ
الْقُرْآنَ » وفي صحيح مسلم والترمذى عن ابن عباس قال : ماقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) اللفظ لمسلم وأما الترمذى ففي لفظه زيادة .

على الجن وما رآهم، أنطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم؛ فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ماذا إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فأنظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء؟ فأنطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فتر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا «إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدي إلى الرشيد فأمانا به ولن نشرك ربنا أحدا» فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم «قل أوحى إلي أنه أسمع نفرا من الجن». رواه الترمذي عن ابن عباس قال: قول الجن لقومهم «لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا» قال: لما رآه يصلي وأصحابه يصلون بصلاته فيسجدون بسجوده قال: فعجبوا من طواعية أصحابه له قالوا لقومهم «لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا» قال: هذا حديث حسن صحيح؛ ففي هذا الحديث دليل على أنه عليه السلام لم يرا الجن ولكنهم حضروه وسمعوا قراءته، وفيه دليل على أن الجن كانوا مع الشياطين حين تجسسوا الخبر بسبب الشياطين لما رموا بالشهب. وكان المرميون بالشهب من الجن أيضا. وقيل لهم شياطين كما قال: «شياطين الإنس والجن» فإن الشيطان كل متمرد وخارج عن طاعة الله. وفي الترمذي عن ابن عباس قال: كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون إلى الوحي فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعا، فاما الكلمة فتكون حقا وأما ما زاد فيكون باطلا، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا مقاصدهم، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا من أمر قد حدث في الأرض! فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يصلي بين جبلين — أراه قال بمكة — فاتوه فأخبروه فقال: هذا الذي حدث في الأرض. قال: هذا حديث حسن صحيح. فدل

هذا الحديث على أن الجن رموا كما رميت الشياطين . وفي رواية السدي : أنهم لما رموا أتوا إبليس فأخبروه بما كان من أمرهم فقال : آيتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها فاتوه فشم فقال : صاحبكم بمكة . فبعث نفرا من الجن قيل : كانوا سبعة . وقيل : تسعة منهم زوبعة . وروى عاصم عن زرق قال : قدم رهط زوبعة وأصحابه على النبي صلى الله عليه وسلم . وقال الثمالي : بلغني أنهم من بني الشيصبان ، وهم أكثر الجن عددا ، وأقوام شوكة ، وهم عامة جنود إبليس . وروى أيضا عاصم عن زرق أنهم كانوا سبعة نفر ؛ ثلاثة من أهل حران وأربعة من أهل نصيبين . وحكى جوير عن الضحاك أنهم كانوا تسعة من أهل نصيبين ؛ قرية باليمن غير التي بالعراق . وقيل : إن الجن الذين أتوا مكة جن نصيبين ، والذين أتوه بنخلة جن ينوي . وقد مضى بيان هذا في سورة «الأحقاف» . قال عكرمة : والسورة التي كان يقرؤها رسول الله صلى الله عليه وسلم «أقرأ باسم ربك» وقد مضى في سورة «الأحقاف» التعريف باسم النفر من الجن فلا معنى لإعادة ذلك . وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الجن ليلة الجن وهو أثبت ؛ روى عامر الشعبي قال : سألت علقمة هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب ، فقلنا أستطير أو أغتيل ، قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبح إذا هو يحيىء من قبل حراء ، فقلنا : يا رسول الله ! فقدناك وطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ؛ فقال : «أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن» فأطلق بنا فأرانا آناهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة ؛ فقال : «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل برة علف لدوابكم» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن» قال ابن العربي : وابن مسعود أعرف من ابن عباس ؛ لأنه شاهده وابن عباس سمعه

(١) راجع ج ١٦ ص ٢١١ فابدها .

وليس الخبر كالمعاينة . وقد قيل : إن الجحّ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعتين إحداهما بمكة وهي التي ذكرها ابن مسعود، والثانية بنخلة وهي التي ذكرها ابن عباس . قال البيهقي : الذي حكاه عبد الله بن عباس إنما هو في أول ما سمعت الجحّ قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وصلت بحاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرحم كما حكاه ، ثم أتاه داعي الجحّ مرة أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القرآن كما حكاه عبد الله بن مسعود . قال البيهقي : والأحاديث الصحاح تدل على أن ابن مسعود لم يكن مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجحّ ، وإنما سار معه حين انطلق به وبغيره يريه آثار الجحّ وآثار نيرانهم . قال : وقد روى من غير وجه أنه كان معه ليلئذ ، وقد مضى هذا المعنى في سورة «الأحقاف» والحمد لله . روى عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «أمرت أن أتلو القرآن على الجحّ فمن يذهب معي» فسكتوا ، ثم قال الثانية ، ثم قال الثالثة ، ثم قال عبد الله بن مسعود : أنا أذهب معك يا رسول الله ، فأنطلق حتى جاء المَجُون عند شِعْب أَبِي دُبٍ نَخَطٌ عَلَى خَطِّ فَقَالَ : «لا تجاوزه» ثم مضى إلى المَجُون فأنحدر عليه أمثال الجمل يحدرون الحجارة بأقدامهم ، يمشون يقرعون في دُفوفهم كما تَقْرَع النَّسُوة في دُفوفها حتى غَشَوْه فلا أراه ، فقامت فأومى إلى بيده أن اجلس ، فتلا القرآن فلم يزل صوته يرتفع ، ولصقوا بالأرض حتى ما أراهم ، فلما أنفتل إلى قال : «أردت أن تأتيني» قلت : نعم يا رسول الله . قال : «ما كان ذلك لك هؤلاء الجحّ أتوا يستمعون القرآن ثم ولّوا إلى قومهم منذرين فسألوني الزاد فزودتهم العظم والبعر فلا يستطيعون أحدكم بعظم ولا بعر» قال عكرمة : وكانوا اثني عشر ألفا من جزيرة الموصل . وفي رواية : أنطلق بي عليه السلام حتى إذا جئنا المسجد الذي عند حائط عوف خط لي خطا ، فاتاه نفر منهم فقال أصحابنا كأنهم رجال الزط^(٢) وكان وجوههم المكاكي^(٣) ، فقالوا : ما أنت ؟ قال : «أنا نبي الله» قالوا : فن

(١) شعب أبي دب يقال فيه مدفن آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) الزط : جنس من السودان والهنود .

(٣) المكاكي : جمع مكوك وهو طاس يشرب فيه أعلاه ضيق ووسطه واسع ، ومكّال معروف لأهل العراق

بهذه الصفة أيضا . ولعله من باب قول المهب : ضرب مكوك رأسه على التشبيه .

يشهد لك على ذلك؟ قال: "هذه الشجرة" فقال: "يا شجرة" بفاء تجز عروقها لها فقامت حتى أتصبت بين يديه، فقال: "على ماذا تشهدين" قالت: أشهد أنك رسول الله. فرجعت كما جاءت تجز بعروقها المجارة، لها قعاقع حتى عادت كما كانت. ثم روى أنه عليه السلام لما فرغ وضع رأسه على حجر ابن مسعود فرقد ثم استيقظ فقال: "هل من وضوء" قال: لا، إلا أن معي إداوة فيها نبيذ. فقال: "هل هو إلا تمر وماء" فتوضأ منه. الثالثة - قدمضى الكلام في الماء في سورة «المجر»^(١) وما يستنجى به في سورة «براءة»^(٢) فلا معنى للإعادة.

الرابعة - وأختلف أهل العلم، في أصل الجن، فروى إسماعيل عن الحسن البصرى: أن الجن ولد إبليس والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثواب والعقاب، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان. وروى الضحاك عن ابن عباس: أن الجن هم ولد الجنان وليسوا بشياطين وهم يؤمنون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، والشياطين هم ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس. وأختلفوا في دخول مؤمنى الجن الجنة على حسب الاختلاف في أصلهم؛ فمن زعم أنهم من الجنان لا من ذرية إبليس قال: يدخلون الجنة بإيمانهم. ومن قال: إنهم من ذرية إبليس فلهم فيه قولان: أحدهما - وهو قول الحسن يدخلونها. الثانى - وهو رواية مجاهد لا يدخلونها وإن صرفوا عن النار. حكاها الماوردى، وقد مضى في سورة «الرحمن»^(٣) عند قوله تعالى: «لَمْ يَطْمِئِنُّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» بيان أنهم يدخلونها.

الخامسة - قال البيهقى في روايته: وسأله الزاد وكانوا من جن الجزيرة فقال: "لكم كل عظم" دليل على أنهم يأكلون ويأطعمون. وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجن، وقالوا: إنهم بسائط ولا يصح طعامهم. أجتراء على الله وأقتراء القرآن والسنة ترد عليهم،

(٢) راجع ج ٨ ص ٢٥٩ فابعدا.

(١) راجع ج ١٠ ص ١٥ فابعدا.

(٣) راجع ج ١٧ ص ١٨١

وليس في المخلوقات بسيط مركب مزدوج إنما الواحد الواحد سبحانه ، وغيره مركب ليس بواحد كيفما تصرف حاله . وليس يمتنع أن يراهم النبي صلى الله عليه وسلم في صورهم كما يرى الملائكة . وأكثر ما يتصوّرون لنا في صور الحيات ؛ ففي الموطأ أن رجلا حديث عهد بعرس استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار أن يرجع إلى أهله . الحديث ، وفيه : فإذا حية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرح فانتظمتها . وذكر الحديث . وفي الصحيح أنه عليه السلام قال : ” إن لهذه البيوت عوامر فإذا رأيتم منها شيئا فخرجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فآقتلوه فإنه كافر“ وقال : ”أذهبوا فادفنوا صاحبكم^(١)“ وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة»^(٢) وبيان التحريم عليهن . وقد ذهب قوم إلى أن ذلك مخصوص بالمدينة ؛ لقوله في الصحيح : ” إن بالمدينة جنا قد أساموا“ وهذا لفظ مختص بها فيختص بحكمها . قلنا : هذا يدل على أن غيرها من البيوت مثلها ؛ لأنه لم يعلل بجرمة المدينة فيكون ذلك الحكم مخصوصا بها ، وإنما علل بالإسلام ، وذلك عام في غيرها ، ألا ترى قوله في الحديث مخبرا عن الجن الذي لقي : وكانوا من جن الجزيرة ؛ وهذا بين يعضده قوله : ” ونهى عن عوامر البيوت“ وهذا عام . وقد مضى في سورة «البقرة» القول في هذا فلا معنى للإعادة . قوله تعالى : (فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا) أي في فصاحة كلامه . وقيل : عجبا في بلاغة مواعظه . وقيل : عجبا في عظم بركته . وقيل : قرآنا عزيزا لا يوجد مثله . وقيل : يعنون عظيما . (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ) أي إلى مرشد الأمور . وقيل : إلى معرفة الله تعالى . و « يَهْدِي » في موضع الصفة أي هاديا . (فَأَمَّا بِهِ) أي فأهتدينا به وصدقنا أنه من عند الله (وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) أي لا نرجع إلى إبليس ولا نطيعه ؛ لأنه الذي كان بعثهم ليأتوه بالخبر ثم رمى الجن بالشهب . وقيل : لا نتخذ مع الله إلها آخر ؛ لأنه المتفرد بالربوبية . وفي هذا تعجيب المؤمنين بذهاب مشركي قريش عما أدركته الجن بتدبرها القرآن . وقوله

(١) هذا ينبغي أن يكون قبل الحديث السابق له كما في ابن العربي .

(٢) راجع ج ١ ص ٣١٥ فما بعدها طبعة ثانية .

تعالى : « أَسْمَعُ نَفْرٍ مِّنَ الْجَنِّ » أى أستمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاعلموا أن ما يقرؤه كلام الله . ولم يذكر المستمع إليه لدلالة الحال عليه . والنفر الرهط ، قال الخليل : ما بين ثلاثة إلى عشرة . وقرأ عيسى الثقفى « يَهْدِي إِلَى الرَّشْدِ » بفتح الراء والشين .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ۗ كَانَ عَلْقَمَةٌ وَيَجِي وَالْأَعْمَشُ وَحَمِزَةٌ وَالْكَسَانِي وَأَبْنُ عَامِرٍ وَخَلْفٌ وَحَفْصٌ وَالسَّلْمِيُّ يَنْصَبُونَ » أن « فى جميع السورة فى آثنى عشر موضعا وهو « أَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا » « وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ » « وَأَنَا ظَنَّنَا » « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ » « وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا » « وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ » « وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ » « وَأَنَا لَا نَدْرِي » « وَأَنَا مِنَ الصَّالِحُونَ » « وَأَنَا ظَنَّنَا أَنَّ لَن نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ » « وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ » « وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمُونَ » عطفًا على قوله : « أَنَّهُ أَسْمَعُ نَفْرٍ » و « أَنَّهُ أَسْمَعُ » لا يجوز فيه إلا الفتح ؛ لأنها فى موضع اسم فاعل « أَوْحَىٰ » فما بعده معطوف عليه . وقيل : هو محمول على الهاء فى « آمَنَّا بِهِ » أى و ب « أَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا » و جاز ذلك وهو مضمَر مجرور لكثرة حرف الجار مع « أن » . وقيل : المعنى أى و صدقنا أنه جد ربنا . وقرأ الباقر كلها بالكسر وهو الصواب ، وأختره أبو عبيدة وأبو حاتم عطفًا على قوله : « فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا » لأنه كله من كلام الجن . وأما أبو جعفر وشيبة فإنهما فتحا ثلاثة مواضع ؛ وهى قوله تعالى : « وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا » « وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ » « وَأَنَّهُ كَانَتْ رِجَالٌ » قالوا : لأنه من الوحي وكسرا ما بقى ؛ لأنه من كلام الجن . وأما قوله تعالى : « وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ » فكلهم فتحوا إلا نافعًا وشيبة ويزر بن حبيش وأبو بكر والمفضل عن عاصم فإنهم كسروا لا غير . ولا خلاف فى فتح همزة « أَنَّهُ أَسْمَعُ نَفْرٍ مِّنَ الْجَنِّ » « وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا » « وَأَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ » و « أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا » وكذلك لا خلاف فى كسر ما بعد القول ؛ نحو قوله تعالى : « فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا » و « قَالَ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي » و « قُلْ إِنْ أَدْرِي » و « قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ » وكذلك لا خلاف فى كسر ما كان بعد فاء الجزاء ؛ نحو قوله تعالى : « فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ » و « فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ » لأنه موضع ابتداء .

(١) كذا فى الأصل على قراءة نافع . وقراءة حفص « قل » .

قوله تعالى : « جَدُّ رَبَّنَا » الجَدُّ في اللغة العظمة والجلال ؛ ومنه قول أنس : كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جَدَّ في عيوننا . أى عَظُمَ وجَلَّ ؛ فمعنى « جَدُّ رَبَّنَا » أى عظمته وجلاله ؛ قاله عكرمة ومجاهد وقتادة . وعن مجاهد أيضا : ذكروه . وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمة أيضا : غناه . ومنه قيل للحظ جَدُّ ورجل مجدود أى محظوظ ؛ وفي الحديث : « ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ » قال أبو عبيدة والحليل : أى ذا الغنى ، منك الغنى إنما تنفعه الطاعة . وقال ابن عباس : قدرته . الضحاك : فعله . وقال القرظي والضحاك أيضا : آلاؤه ونعمه على خلقه . وقال أبو عبيدة والأخفش : ملكه وسلطانه . وقال السدي : أمره . وقال سعيد بن جبیر : « وَأَنَّ تَعَالَى جَدُّ رَبَّنَا » أى تعالى ربنا . وقيل : إنهم عنوا بذلك الجَدَّ الذى هو أب الأب ويكون هذا من قول الجن . وقال محمد بن علي بن الحسين وأبوه جعفر الصادق والربيع : ليس لله تعالى جَدُّ ، وإنما قالته الجن للجهاالة فلم يؤخذوا به . وقال القشيري : ويجوز إطلاق لفظ الجَدِّ في حق الله تعالى ؛ إذ لو لم يجر لما ذكر في القرآن ، غير أنه لفظ موهوم فتجنبه أولى . وقراءة عكرمة « جَدُّ » بكسر الجيم على ضد الهزل . وكذلك قرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمِيع . ويروى عن ابن السَّمِيع أيضا وأبي الأشهب « جَدَّ رَبَّنَا » وهو الحدوى والمنفعة . وقرأ عكرمة أيضا « جَدَّ » بالتنوين « رَبَّنَا » بالرفع على أنه مرفوع بـ « تعالى » و « جَدَّ » منصوب على التمييز . وعن عكرمة أيضا « جَدُّ » بالتنوين والرفع « رَبَّنَا » بالرفع على تقدير : تعالى جَدُّ جَدُّ رَبَّنَا ، بخد الثاني بدل من الأول وحذف وأقيم المضاف إليه مقامه . ومعنى الآية ؛ وأنه تعالى جلال ربنا أن يتخذ صاحبة وولدا للاستئناس بهما والحاجة إليهما ، والرب يتعالى عن ذلك كما يتعالى عن الأنداد والنظراء .

قوله تعالى : وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤١﴾ وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَن تَقُولَ الْإِنْسُ وَأَلْحِنُ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ آلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ الهاء في « أنه » للامر أو الحديث ، وفي « كان » اسمها وما بعدها الخبر . ويجوز أن تكون « كان » زائدة . والسفيه هنا إبليس في قول مجاهد وابن جريج وقتادة . ورواه أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : المشركون من الجن ؛ قال قتادة : عصاه سفیه الجن كما عصاه سفیه الإنس . والشطط والأشتطاط الغلو في الكفر . وقال أبو مالك : هو الجور . الكلي : هو الكذب . وأصله البعد فيعبر به عن الجور لبعده عن العدل ، وعن الكذب لبعده عن الصدق ؛ قال الشاعر :

بأية حال حكوا فيك فاشتطوا * وما ذاك إلا حيث يممك^(١) الوخط

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا ﴾ أي حسبنا ﴿ أَنَّ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فلذلك صدقناهم في أن الله صاحبة وولدا حتى سمعنا القرآن وتبيننا به الحق . وقرأ يعقوب والمجدي وابن أبي إسحق « أَنَّ لَنْ تَقُولَ^(٢) » . وقيل : أنقطع الإخبار عن الجن ها هنا فقال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ فمن فتح وجعله من قول الجن ردها إلى قوله : « أَنَّهُ أَسْمَعَ » ومن كسر جعلها مبتدأ من قول الله تعالى . والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بوادٍ : أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه ؛ فببيت في جواره حتى يصبح ؛ قاله الحسن وابن زيد وغيرهما . قال مقاتل : كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ، ثم من بني حنيفة ، ثم فشا ذلك في العرب ، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم . وقال كردم بن أبي السائب : خرجت مع أبي إلى المدينة أول ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما أنتصف الليل جاء الذئب فحمل حملا من الغنم ، فقال الراعي : يا عامر الوادي [أنا] جارك . فنادى مناد يأسرحان أرسله ، فأتى الحمل يشند^(٤) . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ

(١) يممك قصدك . والوخط الطعن بالرمح ، ومن نعمائه أيضا الشيب .

(٢) قال الأوسى : « تَقَوْلَ » أصله تنقول بناء من غذفت إحداهما ، فكذبا مصدر مؤكد لأن الكذب هو التقول .

(٣) الزيادة من الدر المشور لسبوطي . (٤) يشند : يعدو .

الْجَنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) أى زاد الجنُّ الإنسانَ «رَهَقًا» أى خَطِيئَةً وَإِثْمًا؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . والرهق الإثم فى كلام العرب وغشيان المحارم ؛ ورجلٌ رَهَقٌ إذا كان كذلك . ومنه قوله تعالى : « وَتَرَهَقَهُمْ ذِلَّةٌ » وقال الأعشى :

لا شىءَ ينفعنى من دونِ رؤيتِها * هل يَسْتَفِي وَاِمِقُّ ما لم يُصِبْ رَهَقًا

يعنى إثما، وأضيفت الزيادة إلى الجنِّ إذ كانوا سببا لها . وقال مجاهد أيضا : « فَزَادُوهُمْ » أى إن الإنسان زادوا الجنَّ طغيانا بهذا التعمُّد، حتى قالت الجنُّ سدننا الإنسان والجنَّ . وقال قتادة أيضا وأبو العالية والربيع وابن زيد : أزداد الإنسان بهذا فرقا وخوفا من الجنِّ . وقال سعيد ابن جبير : كفرا . ولا خفاء أن الاستعاذة بالجنِّ دون الاستعاذة بالله كفر وشرك . وقيل : لا يطلق لفظ الرجال على الجنِّ ؛ فالمعنى : وأنه كان رجال من الإنسان يعوذون من شر الجنِّ برجال من الإنسان، وكان الرجل من الإنسان يقول مثلا : أعوذ بحذيفة بن بدر من جنِّ هذا الوادى . قال القشيري : وفى هذا تحمُّمٌ إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرجال على الجنِّ .

قوله تعالى : (وَأَنْتُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا) هذا من قول الله تعالى للإنس ، أى وأن الجنَّ ظنوا أن لن يبعث الله الخلق كما ظننتم . الكاى : المعنى ظنت الجنُّ كما ظنت الإنسان أن لن يبعث الله رسولا إلى خلقه يقيم به الحججة عليهم . وكل هذا توكيد للحجة على قريش ؛ أى إذا آمن هؤلاء الجنُّ بمحمد فأنتم أحق بذلك .

قوله تعالى : (وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا) وَأَنَا كَمَا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا) وَأَنَا لَا نَدْرِي أَسْرُّ أُرِيدَ يَمُنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِرَبِّهِمْ رَشَدًا)

قوله تعالى : (وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ) هذا من قول الجنِّ أى طلبنا خبرها كما جرت عادتنا (فَوَجَدْنَاهَا) قد (مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا) أى حَفَظَةً يعنى الملائكة والحرس جمع حارس

(وَشُهَبًا) جمع شهاب وهو أنقضاض الكواكب المحرقة لهم عن استراق السمع . وقد مضى القول فيه في سورة « الحجر »^(١) « والصفات »^(٢) و « وجد » يجوز أن يقدر متعديا إلى مفعولين فالأول الهاء والألف ، و « مُلِثَّتْ » في موضع المفعول الثاني . ويجوز أن يتعدى إلى مفعول واحد ويكون « مُلِثَّتْ » في موضع الحال على إضمار قد و « حَرَسًا » نصب على المفعول الثاني بـ « مُلِثَّتْ » و « شديدا » من نعت الحرس أى ملثت ملائكة شدادا . ووحد الشديد على لفظ الحرس ؛ وهو كما يقال : السلف الصالح بمعنى الصالحين ، وجمع السلف أسلاف وجمع الحرس أحراس ؛ قال :

« تجاوزتُ أحراسًا وأهوالَ معشِرٍ »

ويجوز أن يكون « حَرَسًا » مصدرا على معنى حُرست حراسة شديدة .

قوله تعالى : (وَأَنَا كَمَا تَقَعُدُّ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا) « منها » أى من السماء و « مَقَاعِدَ » مواضع يقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء ؛ يعنى أن مرده الجن كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبار السماء حتى يلقوها إلى الكهنة على ما تقدم بيانه ، فحرسها الله تعالى حين بعث رسوله بالشهب المحرقة ، فقالت الجن حينئذ : « فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » يعنى بالشهاب الكواكب المحرقة ؛ وقد تقدم بيان ذلك . ويقال : لم يكن أنقضاض الكواكب إلا بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو آية من آياته . وأختلف السلف هل كانت الشياطين تُقذف قبل المبعث ، أو كان ذلك أمرا حدث لمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال الكلبي : وقال قوم لم تكن تحرس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وسلامه نحو سبعمائة عام ، وإنما كان من أجل بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها وحرست بالملائكة والشهب .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٠ فا بعدها . (٢) راجع ج ١٥ ص ٦٦ فا بعدها .

(٣) هو أمرؤ القيس ويرى : * تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا * وتعام البيت وهو من معلقته :

* على حراسا لو يشررون . يقتلى *

قلت : ورواه عطية العوفي عن ابن عباس ؛ ذكره البيهقي . وقال عبد الله بن عمر : لما كان اليوم الذي نُبئ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنعت الشياطين ورُموا بالشُّهب . وقال عبد الملك بن سَابور : لم تكن السماء تحرس في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم حُرست السماء ، ورُميت الشياطين بالشُّهب ، ومُنعت عن الدنو من السماء . وقال نافع بن جبیر : كانت الشياطين في الفترة تسمع فلا تُرمى ، فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رُميت بالشُّهب . ونحوه عن أبي بن كعب قال : لم يُرمَ بنجم منذ رُفع عيسى حتى نُبئ رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُمي بها . وقيل : كان ذلك قبل المبعث ، وإنما زادت بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إنذارا بحاله ؛ وهو معنى توله تعالى : « مُلِئَتْ » أي زيد في حرسها ؛ وقال أوس بن حجر وهو جاهلي :

فَأَنْقَضَ كَالدَّرِيِّ يَتَّبِعُهُ * نَقَعٌ يَشُورُ تَحَالَهُ طُنْبًا

وهذا قول الأكثرين . وقد أذكر الجاحظ هذا البيت وقال : كل شعر روى فيه فهو مصنوع ، وأن الرمي لم يكن قبل المبعث . والقول بالرمي أصح ؛ لقوله تعالى : « فَوَجَدْنَاَهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا » . وهذا إخبار عن الجن ، أنه زيد في حرس السماء حتى امتلات منها ومنهم ؛ ولما روى عن ابن عباس قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم فقال : « ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية » قالوا : كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنها لا تُرمى لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا سبحانه وتعالى إذا قضى أمرا في السماء سبَّح حملة العرش ثم سبَّح أهل كل سماء حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ويستخبر أهل السماء حملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه فتتخطف الجن فيرون فما جاءوا به فهو حق ولكنهم يزيدون فيه » وهذا يدل على أن الرجم كان قبل المبعث . وروى الزهري نحوه عن علي بن الحسين عن علي بن أبي طالب عن ابن عباس . وفي آخره قيل للزهري : أكان يُرمى في الجاهلية ؟ قال : نعم . قلت : أفرايت قوله سبحانه « وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ

مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا» قال : غُلِظَتْ وَشُدَّتْ أَسْرُهَا حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَنَحْوَهُ قَالَ الْقَتَبِيُّ . قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ : كَانَ وَلَكِنْ أَشْتَدَّتْ الْحِرَاسَةُ بَعْدَ الْمَبْعُثِ ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَرْقُونَ وَيُرْمُونَ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنِعَتْ مِنْ ذَلِكَ أَصْلًا . وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ هَذَا فِي سُورَةِ « وَالصَّافَاتِ » عِنْدَ قَوْلِهِ : « وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » قَالَ الْحَافِظُ : فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ كَيْفَ تَتَعَرَّضُ الْجَنُّ لِإِحْرَاقِ نَفْسِهَا بِسَبَبِ اسْتِمَاعِ خَبَرٍ بَعْدَ أَنْ صَارَ ذَلِكَ مَعْلُومًا لَهُمْ ؟ فَاجْلُوبِ أَنْ اللَّهُ تَعَالَى يَنْسِيهِمْ ذَلِكَ حَتَّى تَعْظُمَ الْمُحْنَةُ ، كَمَا يَنْسِي إبْلِيسَ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنَّهُ لَا يَسْلَمُ ، وَأَنَّ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ لَهُ : « وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ » وَلَوْلَا هَذَا لَمَا تَحَقَّقَ التَّكْلِيفُ . وَالرَّصَدُ قِيلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ؛ أَيْ وَرَصَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ . وَالرَّصَدُ الْحَافِظُ لِلشَّيْءِ وَالْجَمْعُ أَرْصَادٌ ، وَفِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَمْعًا كَالْحِرْسِ وَالْوَاحِدُ رَاصِدٌ . وَقِيلَ : الرَّصَدُ هُوَ الشَّهَابُ أَيْ شِهَابًا قَدْ أَرْصَدَ لَهُ لِيَرْجُمَ بِهِ ؛ فَهُوَ فَعَلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَالْحَبِطِ وَالنَّفْضِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَأَنَا لَأَنْدَرِي أَشْرًا أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ » أَيْ هَذَا الْحِرْسُ الَّذِي حَرَسَتْ بِهِ السَّمَاءَ (أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبَّهُمْ رَشَدًا) أَيْ خَيْرًا . قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : قَالَ إبْلِيسُ لَا نَدْرِي هَلْ أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا الْمَنْعِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عَذَابًا أَوْ يَرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا . وَقِيلَ : هُوَ مِنْ قَوْلِ الْجَنِّ فِيمَا بَيْنَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعُوا قِرَاءَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَيْ لَا نَدْرِي أَشْرًا أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ بِإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمْ يَكْذِبُونَهُ وَيَهْلِكُونَ بِتَكْنِيهِهِ كَمَا هَلَكَ مَنْ كَذَّبَ مِنَ الْأُمَّمِ ، أَمْ أَرَادَ أَنْ يُؤْمِنُوا فَيَهْتَدُوا ؛ فَالشَّرُّ وَالرَّشْدُ عَلَى هَذَا الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ؛ وَعَلَى هَذَا كَانَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِمَبْعُثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمَّا سَمِعُوا قِرَاءَتَهُ طَمَعُوا أَنَّهُمْ مَنَعُوا مِنَ السَّمَاءِ حِرَاسَةَ اللَّوْحِ . وَقِيلَ : لَا ؛ بَلْ هَذَا قَوْلٌ قَالُوهُ لِقَوْمِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَنْصَرَفُوا إِلَيْهِمْ مُنْذِرِينَ ؛ أَيْ لَمَّا آمَنُوا أَشْفَقُوا أَلَّا يُؤْمِنَ كَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْأَرْضِ فَقَالُوا : إِنَّا لَا نَدْرِي أَيْكْفُرُ أَهْلُ الْأَرْضِ بِمَا آمَنَّا بِهِ أَوْ يُؤْمِنُونَ .

قوله تعالى : **وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا**
طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾ **وَإِنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن**
نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : **(وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ)** هذا من قول الجن ؛ أى قال بعضهم لبعض لما دعوا أصحابهم إلى الإيمان بحمد صلى الله عليه وسلم ، وإنا كنا قبل آستماع القرآن منا الصالحون ومنا الكافرون . وقيل : **« وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ »** أى ومن دون الصالحين فى الصلاح ، وهو أشبه من حمله على الإيمان والشرك . **(كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا)** أى فرقا شتى ؛ قاله السدى . الضحاك : أديانا مختلفة . قتادة : أهواء متباينة ، ومنه قول الشاعر :

الْقَائِضُ الْبَاسِطُ الْهَادِي بِطَاعَتِهِ * فِي فِتْنَةِ النَّاسِ إِذْ أَهْوَأُوهُمْ قِدْدُ

والمعنى : أى لم يكن كل الجن كفارا بل كانوا مختلفين ، منهم كفار ومنهم مؤمنون صلحاء ، ومنهم مؤمنون غير صلحاء . وقال المسيب : كنا مسلمين ويهود ونصارى ومجوس . وقال السدى فى قوله تعالى : **« طَرَائِقَ قِدْدًا »** قال : فى الجن مثلكم قَدْرِيَّةٌ ومَرْجِيَّةٌ وخَوَارِجٌ ورافضة وشيعة وسنية . وقال قوم : أى وأنا بعد آستماع القرآن مختلفون منا المؤمنون ومنا الكافرون . أى ومنا الصالحون ومنا مؤمنون لم يتناهوا فى الصلاح . والأقول أحسن ؛ لأنه كان فى الجن من آمن بموسى وعيسى وقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا : **« إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ »** وهذا يدل على إيمان قوم منهم بالتوراة ، وكان هذا مبالغة منهم فى دعاء من دعوهم إلى الإيمان . وأيضا لا فائدة فى قولهم : نحن الآن منقسمون إلى مؤمن وإلى كافر . والطرائق جمع الطريقة وهى مذهب الرجل ؛ أى كذا فرقا مختلفة . ويقال : القوم طرائق أى على مذاهب شتى . والقِدْدُ نحو من الطرائق وهو توكيد لها واحدها قِدَّة . يقال : لكل طريق قِدَّةٌ وأصلها من قَدَّ السبور وهو قطعها ؛ قال لبيد يرثى أخاه أربد :

لم تَبْلُغِ العَيْنُ كُلَّ نَهْمَتِهَا * لَيْلَةٌ تُمَسِّي الجِيَادُ كَالْقَدَدِ^(١)

وقال آخر :

وَلَقَدْ قُلْتُ وَزَيْدٌ حَامِرٌ * يَوْمَ وَلَّتْ خَيْلُ عَمْرٍو قَدَدًا

والقَد بالكسر سير يُقَد من جلد غير مدبوغ ؛ ويقال : ماله قَدٌ ولا يَحْفُفُ فالقَدُ إناء من جلد والقحف من خشب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ نُنْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الظن هنا بمعنى العلم واليقين وهو خلاف الظن في قوله تعالى : « وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ نَقُولَ » « وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا » أى علمنا بالاستدلال والتفكر في آيات الله أنا في قبضته وسلطانه لن نفوته بهرب ولا غيره . و (هَرَبًا) مصدر في موضع الحال أى هارين .

قوله تعالى : وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ^ط فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ^ط فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِمُونَ^ط فَمَنْ أَسْلَمَ فَأَوْلَىٰكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِمُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ﴾ يعنى القرآن ﴿ آمَنَّا بِهِ ﴾ وبالله وصدقنا محمدًا صلى الله عليه وسلم على رسالته . وكان صلى الله عليه وسلم مبعوثًا إلى الإنس والجن . قال الحسن : بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى الإنس والجن ، ولم يبعث الله تعالى قط رسولًا من الجن ولا من أهل البادية ولا من النساء ؛ وذلك قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ »^(٢) وقد تقدم هذا المعنى . وفي الصحيح : « وبعثت إلى الأحمر والأسود »

(١) يقول : لم تبلغ العين من البكاء على أربد كل ماتريد في هذه الليلة التي فيها الخيل كالقدد من شدة السير

والإنصاب . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٤

أى الإنسان والجن . (فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا) قال ابن عباس : لا يخاف أن ينقص من حسناته ولا أن يزداد في سيئاته ؛ لأن البخس النقصان والرهق العدوان وغشيان المحارم ؛ قال الأعشى :

لَا شَيْءَ يَنْفَعُنِي مِنْ دُونِ رُؤْيَيْهَا * هَلْ يَشْتَفِي وَامِقٌ مَا لَمْ يُصِبْ رَهَقًا

الوامق المحب ؛ وقد ومقه يمهقه بالكسر أى أحبه فهو وامق . وهذا قول حكاه الله تعالى عن الجن ؛ لقوة إيمانهم وصحة إسلامهم . وقراءة العامة « فَلَا يَخَافُ » رفعا على تقدير فإنه لا يخاف . وقرأ الأعمش ويحيى وإبراهيم « فَلَا يَخْفُ » جزما على جواب الشرط وإلغاء الفاء .

قوله تعالى : (وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ) أى وأنا بعد أستماع القرآن مختلفون فنا من أسلم ومنا من كفر . والقاسط الجائر ؛ لأنه عادل عن الحق والمقسط العادل ؛ لأنه عادل إلى الحق ؛ [يقال :] قسط أى جار وأقسط إذا عدل ؛ قال الشاعر :

قَوْمٌ هُمْ قَتَلُوا ابْنَ هِنْدٍ عَنُودَ * عَمْرًا وَهُمْ قَسَطُوا عَلَى النَّعْمَانِ

(فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرُّوا رَشَدًا) أى قصدوا طريق الحق وتوخوه ومنه تحزى القبلة (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ) أى الجائرون عن طريق الحق والإيمان (فَكَانُوا لِيَجَهَنَّمَ حَطَبًا) أى وقودا . وقوله : « فَكَانُوا » أى فى علم الله تعالى .

قوله تعالى : وَاللَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ) هذا من قول الله تعالى . أى لو آمن من هؤلاء الكفار لومعنا عليهم فى الدنيا وبسطنا لهم فى الرزق . وهذا محمول على الوحي ؛ أى أوحى إلى أن لو استقاموا . ذكر ابن بحر : كل ما فى هذه السورة من « إن » المكسورة المنقلة فهى حكاية لقول الجن الذين أستمعوا القرآن فرجعوا إلى قومهم منذرين ، وكل ما فيها من

أن المفتوحة المخففة فهي وحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابن الأنباري : ومن كسر الحروف وفتح « وَأَنَّ لَوْ أَسْتَقَامُوا » أضمر يمينا تاما تأويلها : والله أن لو استقاموا على الطريقة ؛ كما يقال في الكلام : والله أن قمت لقمتم والله لو قمت قمت ؛ قال الشاعر :

أَمَا وَاللَّهِ أَنَّ لَوْ كُنْتَ حُرًّا • وَمَا بِالْحُرِّ أَنْتَ وَلَا الْعَبِيْقُ

ومن فتح ما قبل المخففة نسقها - أعني الخفيفة - على « أُوحِيَ إِلَى أَنَّهُ » « وَأَنَّ لَوْ أَسْتَقَامُوا » أو على « آمَنَّا بِهِ » وبأن لو استقاموا . ويجوز لمن كسر الحروف كلها إلى « أن » المخففة أن يعطف المخففة على « أُوحِيَ إِلَى » أو على « آمَنَّا بِهِ » ويستغنى عن إضمار اليمين . وقراءة العامة بكسر الواو من « لَوْ » لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن وثاب والأعمش بضم الواو . و (مَاءً غَدَقًا) أي وإسعا كثيرا، وكانوا قد حبس عنهم المطر سبع سنين ؛ يقال : غَدَقْتُ العَيْنُ تَغْدَقُ فِيهِ غَدِيقَةٌ إِذَا كَثُرَ مَائُهَا . وقيل : المراد الخلق كلهم أي « لَوْ أَسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ » طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين « لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا » أي كثيرا (لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) أي لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم . وقال عمر في هذه الآية : أينما كان الماء كان المال وأينما كان المال كانت الفتنة . فمغنى « لَأَسْقِيَنَّهُمْ » لوسعنا عليهم في الدنيا، وضرب الماء الغدق الكثير لذلك مثلا ؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون فأقيم مقامه ؛ كقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » وقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجَائِهِمْ » أي بالمطر . والله أعلم . وقال سعيد بن المسيب وعطاء بن أبي رباح والضحاك وقتادة ومقاتل وعطية وعبيد بن عمير والحسن : كان والله أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصرو والمقوقس والنجاشي ففتنوا بها ، فوثبوا على إمامهم فقتلوه . يعني عثمان بن عفان . وقال الكلبي وغيره : « وَأَنَّ

(١) وفي حاشية المل نقلا عن القرطبي « قال ابن الأنباري : ومن قرأ بالكسر فيما تقدم وفتح « وَأَنَّ لَوْ أَسْتَقَامُوا » أضمر قسما تقديره : والله « أن لو استقاموا على الطريقة ، أو عطفه على « أَنَّهُ أَسْمَعُ » أو على « آمَنَّا بِهِ » وعلى هذا يكون جميع ما تقدم معترضا بين المعطوف والمعطوف عليه » .

لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ » التي هم عليها من الكفر فكانوا كلهم كفارا لوسعنا أرزاقهم مكرامهم وأستدراجا لهم ، حتى يفتنوا بها فنعذبهم بها في الدنيا والآخرة . وهذا قول قاله الربيع ابن أنس وزيد بن أسلم وأبنة والكلبي والثمالى ويمان بن رباب وابن كيسان وأبو مجلز ؛ وأستدلوا بقوله تعالى : « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ » الآية ؛ وقوله تعالى : « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ » الآية ؛ والأول أشبه ؛ لأن الطريقة معروفة بالألف واللام فالأوجب أن تكون طريقته طريقة الهدى ؛ ولأن الاستقامة لا تكون إلا مع الهدى . وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا » قالوا : وما زهرة الدنيا؟ قال : « بركات الأرض » وذكر الحديث . وقال عليه السلام : « فوالله ما الفقر أخشى عليكم وإنما أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا [كما بسطت على من قبلكم] فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » .

قوله تعالى : (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ) يعنى القرآن ؛ قاله ابن زيد . وفي إعراضه عنه وجهان : أحدهما عن القبول إن قيل إنها في أهل الكفر . الثانى عن العمل إن قيل إنها في المؤمنين . وقيل : « وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ » أى لم يشكر نعمه (يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا) قرأ الكوفيون وعياش عن أبي عمرو « يَسْلُكُهُ » بالياء وأختره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لذكر اسم الله أولا فقال : « وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ » . الباقون « نَسْلُكُهُ » بالنون . وروى عن مسلم بن جندب ضم النون وكسر اللام . وكذلك قرأ طلحة والأعرج وهما لغتان سلكه وأسلكه بمعنى أى ندخله . « عَذَابًا صَعَدًا » أى شاقا شديدا . قال ابن عباس : هو جبل في جهنم كلما جعلوا أيديهم عليه ذابت . وعن ابن عباس : أن المعنى مشقة من العذاب . وذلك معلوم في اللغة أن الصعد المشقة ، تقول : تصعدنى الأمر إذا شق عليك ؛ ومنه قول عمر : ما تصعدنى شيء ، ما تصعدتنى خطبة النكاح . أى ما شق على .

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .

وعذاب صَعْدٌ أى شديد . والصَّعْدُ مصدر صَعِدَ ؛ يقال : صَعِدَ صَعْدًا وصُعُودًا فوصف به العذاب ؛ لأنه يتصعد المَعْدَبُ أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه . وقال أبو عبيدة : الصَّعْدُ مصدر أى عذابا ذا صَعْدٍ ، والمشى فى الصُّعُودِ يَشُقُّ . والصُّعُودُ العقبة الكؤُود . وقال عكرمة : هو صحرة ملساء فى جهنم يُكَلَّفُ صعودها فإذا انتهى إلى أعلاها حُدِرَ إلى جهنم . وقال الكلبي : يكلف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبلا فى النار من صحرة ملساء ، يجذب من أمامه بسلاسل ، ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها ، ولا يبلغ فى أربعين سنة ، فإذا بلغ أعلاها أُحْدِرَ إلى أسفلها ، ثم يكلف أيضا صعودها ، فذلك دأبه أبدا ، وهو قوله تعالى : « سَأْرِهْقُهُ صُعُودًا » .

قوله تعالى : **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴿١٨﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ)** « أَنَّ » بالفتح قيل : هو مردود إلى قوله تعالى : **« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ »** أى قل أوحى إلى أن المساجد لله . وقال الخليل : أى ولأن المساجد لله . والمراد البيوت التى تبنيتها أهل الملل للعبادة . وقال سعيد بن جبیر : قالت الجن كيف لنا أن نأتى المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن نأون عنك ؟ فنزلت **« وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ »** أى بنيت لذكر الله وطاعته . وقال الحسن : أراد بها كل البقاع ؛ لأن الأرض كلها مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم ، يقول : **« أينما كنتم فصلوا »** **« فأينما صليتم فهو مسجد »** وفى الصحيح : **« وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا »** . وقال سعيد بن المسيب وطائفة ابن حبيب : أراد بالمساجد الأعضاء التى يسجد عليها العبد ، وهى القدمان والركبتان واليدين والوجه ؛ يقول : هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك فلا تسجد لغيره بها فتجحد نعمة الله . قال عطاء : مساجدك أعضاؤك التى أمرت أن تسجد عليها لا تذللها لغير خالقها . وفى الصحيح عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **« أمرت أن أسجد على سبعة أعظم الجبهة - وأشار بيده إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين »** . وقال العباس قال النبي .

صلى الله عليه وسلم : " إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب^(١) " . وقيل : المساجد هي الصلوات : أى لأن السجود لله . قاله الحسن أيضا ؛ فإن جعلت المساجد المواضع فواحدتها مسجدا بكسر الجيم ، ويقال بالفتح ؛ حكاة الفراء . وإن جعلتها الأعضاء فواحدتها مسجدا بفتح الجيم . وقيل : هو جمع مسجدا وهو السجود ، يقال : سجدت سجدوا ومسجدا ؛ كما تقول : ضربت فى الأرض ضربا ومضربا بالفتح إذا سرت فى ابتغاء الرزق . وقال ابن عباس : المساجد هنا مكة التى هى القبلة وسميت مكة المساجد ؛ لأن كل أحد يسجد إليها . والقول الأول أظهر هذه الأقوال إن شاء الله ، وهو مروى عن ابن عباس رحمه الله .

الثانية — قوله تعالى : «لله» إضافة تشريف وتكريم ، ثم خص بالذكر منها البيت العتيق فقال : «وَوَطَّهَرْتُ بَيْتِي» وقال عليه السلام : " لا تُعَمَلُ الْمَطْيُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ " الحديث نرجه الأئمة . وقد مضى الكلام فيه . وقال عليه السلام : " صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام " قال ابن العربى : وقد روى من طريق لا بأس بها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام فإن صلاة فيه خير من مائة صلاة فى مسجدى " ولو صح هذا لكان نصا .

قلت : هو صحيح بنقل العدل عن العدل حسب ما بيناه فى سورة « إبراهيم »^(٣) .

الثالثة — المساجد وإن كانت لله ملكا وتشريفا فإنها قد تنسب إلى غيره تعريفا فيقال : مسجد فلان . وفى صحيح الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم سابق بين الخليل التى أضمرت من الحيفاء وأمدتها ثنية الوداع ، وسابق بين الخليل التى لم تضم من الثنية إلى مسجد بنى زريق . وتكون هذه الإضافة بحكم المحلية كأنها فى قلوبهم ، وقد تكون بتحييمهم ، ولا خلاف بين الأمة فى تحييم المساجد والقناطر والمقابر وإن اختلفوا فى تحييم غير ذلك .

(١) آراب : أعضاء واحدتها « آرب » بالكسر والسكون .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٢١١ والرواية المشهورة فى الصحاح " لا تُشَدُّ الرِّجَالُ " كما مر للقرطبي .

(٣) راجع ج ٩ ص ٣٧١ فما بعدها .

الرابعة - مع أن المساجد لله لا يذكر فيها إلا الله فإنه تجوز القسمة فيها للأموال . ويجوز وضع الصدقات فيها على رسم الاشتراك بين المساكين وكل من جاء أكل . ويجوز حبس الغريم فيها، وربط الأسير والنوم فيها، وسكنى المريض فيها، وفتح الباب للجار إليها، وإنشاد الشعر فيها إذا عيرى عن الباطل . وقد مضى هذا كله مبينا في سورة « براءة »^(١) . « والنور »^(٢) وغيرهما .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ هذا توبيخ للشركين في دعائهم مع الله غيره في المسجد الحرام . وقال مجاهد : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كتائبهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيه والمؤمنين أن يخلصوا لله الدعوة إذا دخلوا المساجد كلها . يقول : فلا تشركوا فيها صنما وغيره مما يعبد . وقيل : المعنى أفردوا المساجد لذكر الله ، ولا تتخذوها هزوا ومتجرا ومجلسا، ولا طرقا، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيبا . وفي الصحيح : « من نسد ضالة في المسجد فقولوا لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تُبن لهذا » وقد مضى في سورة « النور » ما فيه كفاية من أحكام المساجد والحمد لله .

السادسة - روى الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : كان إذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى . وقال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » اللهم أنا عبدك وزائرُك وعلى كل مزور حق وأنت خير مزور فأسألك برحمتك أن تفك رقبتى من النار» فإذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى ؛ وقال : « اللهم صُبَّ عَلَى الْخَيْرِ صَبًّا وَلَا تَنْزِعْ عَنِّي صَالِحَ مَا أُعْطَيْتَنِي أَبَدًا وَلَا تَجْعَلْ مَعِيشَتِي كَدًّا وَأَجْعَلْ لِي فِي الْأَرْضِ جَدًّا » أى غنى .

قوله تعالى : **وَأَنْتَهُرُ لِمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** ﴿١٩﴾ **قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا** ﴿٢٠﴾ **قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا** ﴿٢١﴾

(١) راجع ج ٨ ص ١٠٤ فأبعدها . (٢) راجع ج ١٢ ص ٢٦٥ فأبعدها .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ يجوز الفتح أى أوحى الله إليه أنه . ويجوز الكسر على الاستئناف . و « عبد الله » هنا محمد صلى الله عليه وسلم حين كان يصلى ببطن نخلة ويقرأ القرآن ، حسب ما تقدم أول السورة . ﴿ يَدْعُوهُ ﴾ أى يعبده . وقال ابن جريج : « يَدْعُوهُ » أى قام إليهم داعيا إلى الله تعالى . ﴿ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال الزبير بن العوام : هم الجن حين أستمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم . أى كاد يركب بعضهم بعضا أزدحاما ويسقطون حرصا على سماع القرآن . وقيل : كادوا يركبونه حرصا ؛ قاله الضحاك . ابن عباس : رغبة فى سماع الذكر . وروى بُرد عن مكحول : إن الجن بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الليلة وكانوا سبعين ألفا ، وفرغوا من بيعته عند أنشاق الفجر . وعن ابن عباس أيضا : إن هذا من قول الجن لَمَّا رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وآنتمهم به فى الركوع والسجود . وقيل : المعنى كاد المشركون يركب بعضهم بعضا حردا على النبي صلى الله عليه وسلم . وقال الحسن وقتادة وابن زيد : يعنى « لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ » مجد بالدعوة تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه وأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره . وأختار الطبرى أن يكون المعنى : كادت العرب يجتمعون على النبي صلى الله عليه وسلم ويتظاهرون على إطفاء النور الذى جاء به . وقال مجاهد : قوله « لِبَدًا » جماعات وهو من تلبد الشيء على الشيء أى تجمع ، ومنه اللبّد الذى يفرش لتراكم صوفه ، وكل شيء أصفته إصافا شديدا فقد لبده ، وجمع البدة لبّد مثل قربة وقرب . ويقال للشعر الذى على ظهر الأسد لبدة وجمعها لبّد ؛ قال زهير :

لدى أسد شاكي السلاح مُقَدِّفٌ * له لبّد أظفاره لم تُقَلِّمُ

ويقال للجراد الكثير لبّد . وفيه أربع لغات وقراءات ؛ فتح الباء وكسر اللام ، وهى قراءة العامة . وضم اللام وفتح الباء ، وهى قراءة مجاهد وابن محيصن وهشام عن أهل الشام واحدها لبّدة . وبضم اللام والباء ، وهى قراءة أبى حنيفة ومحمد بن السَّمِيعِ وأبى الأشهب العُقَيْلِ

والمجذرى واحدها لَبْدٌ مثل سَقْفٍ وَسُقْفٍ وَرَهْنٌ وَرُهْنٌ . وبضم اللام وشدة الباء وفتحها ،
وهي قراءة الحسن وأبي العالبة والأعرج والمجذرى أيضا واحدها لا يَدٌ مثل رَاكِعٌ وَرُكْعٌ
وساَجِدٌ وَسُجْدٌ . وقيل : اللَّبْدُ بضم اللام وفتح الباء الشيء الدائم ؛ ومنه قيل لنسر لقمان لَبْدٌ
لدوامه وبقائه ؛ قال النابغة :

* أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لَبْدٍ *

القشيري : وقرئ «أبدا» بضم اللام والباء وهو جمع لَبِيدٍ وهو الجوّالِقُ الصغير . وفي الصحاح :
[وقوله تعالى] « أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا » أي جمًّا . ويقال أيضا : الناس لَبِيدٌ أي مجتمعون ،
واللبد أيضا الذي لا يسافر ولا يبرح [منزله] . قال الشاعر :

مِنْ أَمْرِي ذِي سَمَاجٍ لَا تَزَالُ لَهُ * بَزْلَاءُ يَبِيهَا الْجَنَامَةُ اللَّبِيدُ

ويروى اللَّبِيدُ . قال أبو عبيد : وهو أشبه . والبزلاء ذو الرأي الجيد وفلان نهاض بزلاء إذا كان
ممن يقوم بالأمر العظيم ؛ قال الشاعر :

إِنِّي إِذَا سَغَلْتُ قَوْمًا فُرُوجُهُمْ * رَحْبُ الْمَسَالِكِ نَهَاضٌ بِبَزْلَاءِ

ولَبْدٌ آخر نسور لقمان وهو ينصرف ؛ لأنه ليس بمعدول . وتزعم العرب أن لقمان هو الذي
بعثته عاد في وفدتها إلى الحرم يستسقى لها ، فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بعرات^(٣)
سُمُرٍ مِنْ أَطْبِ عُقْرِ فِي جَبَلٍ وَعَيْرٍ لَا يَمْسُهَا الْقَطْرُ أَوْ بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف
بعده نسر فأختار النُّسُورَ ، وكان آخر نُسُوره يسمى أَبْدًا ، وقد ذكرته الشعراء ؛ قال النابغة :

أَضْحَتْ خَلَاءً وَأَمْسَى أَهْلُهَا أَحْتَمَلُوا * أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لَبِيدِ

واللَّبِيدُ الجوّالِقُ الصغير ؛ يقال : ألبدت القربة جعلتها في لَبِيدٍ . ولَبِيدٌ اسم شاعر من بني عامر .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي ﴾ أي قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي »
﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ وكذا قرأ أكثر القراء « قَالَ » على الخبر . وقرأ حمزة وعاصم « قُلْ » على

(١) الزيادة من اللسان مادة « لبد » . (٢) هو الراعي ؛ والبزلاء أيضا الحاجة التي أحكم أمرها ،
والجنامة الذي لا يبرح من محله وبلده . (٣) قال شارح القاموس : هو بالعين المهملة ، ويوجد في بعض نسخ
الصحاح « بقرات » بالقاف والذي في نسخ القاموس هو الأشبه إذ لا تنولد البقر من النظباء .

الأمر . وسبب نزولها أن كفار قريش قالوا له : إنك جئت بأمر عظيم وقد عادت الناس كلهم فأرجع عن هذا فنحن نجيرك فنزلت .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أى لا أقدر أن أدفع عنكم ضرا ولا أسوق لكم خيرا . وقيل : « لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا » أى كفرا « وَلَا رَشَدًا » أى هدى أى إنما على التبليغ . وقيل : الضر العذاب والرشد النعيم . وهو الأقول بعينه . وقيل : الضر الموت والرشد الحياة .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِيَّ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَّاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي- أَقْرِبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أى لا يدفع عذابه عنى أحد إن أستحفظته ؛ وهذا لأنهم قالوا أترك ما تدعو إليه ونحن نجيرك . وروى أبو الجوزاء عن ابن مسعود قال : أنطلقت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجحش حتى أتى الجحش فخط على خطا ، ثم تقدم إليهم فأزدحموا عليه فقال سيبد لهم يقال له وردان : أنا أزجلهم عنك ؛ فقال : "إني لن يجيرني من الله أحد" ذكره الماوردي . قال : ويحتمل معنيين أحدهما لن يجيرني مع إجارة الله لى أحد . الثانى لن يجيرني مما قدره الله تعالى على أحد . ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ أى ملتجأ الجأ إليه ؛ قاله قتادة . وعنه : نصيرا ومولى . السدى : حرزا . الكلبي : مدخلا فى الأرض مثل السرب . وقيل : وليا ولا مولى . وقيل : مذهبا ولا مسلكا . حكاه ابن شجرة والمعنى واحد ؛ ومنه قول الشاعر :

(١) أزجلهم أى أذهبهم وفى نسخة أزحلهم بالحاء أى انخبهم .

يَلْهَفُ نَفْسِي وَلَهْفِي غَيْرُ مُجِدِيَةِ * عَنِّي وَمَا مِن قَضَاءِ اللَّهِ مُلْتَحِدٌ

(إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ) فَإِنَّ فِيهِ الْأَمَانَ وَالنَّجَاةَ ؛ قَالَ الْحَسَنُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : «إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ» فَذَلِكَ الَّذِي أَمَلَكَهُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ ، فَأَمَّا الْكُفْرَ وَالْإِيمَانَ فَلَا أَمَلِكُهُمَا . فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مُرَدُّوهُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : «قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا» أَيْ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ إِلَّا أَنْ أَبْلَغَكُمْ . وَقِيلَ هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ مِنْ قَوْلِهِ : «لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا» أَيْ إِلَّا أَنْ أَبْلَغَكُمْ أَيْ لَكِنْ أَبْلَغَكُمْ مَا أُرْسَلْتُ بِهِ ؛ قَالَ الْفَرَاءُ . وَقَالَ الزَّجَاجُ : هُوَ مُنْصَوَّبٌ عَلَى الْبَدَلِ مِنْ قَوْلِهِ : «مُلْتَحِدًا» أَيْ «وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا» إِلَّا أَنْ أَبْلَغَ مَا يَأْتِينِي مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ؛ أَيْ وَمِنْ رِسَالَاتِهِ الَّتِي أَمَرَنِي بِتَبْلِيغِهَا . أَوْ إِلَّا أَنْ أَبْلَغَ عَنِ اللَّهِ وَأَعْمَلَ بِرِسَالَتِهِ فَآخَذَ نَفْسِي بِمَا أَمَرَ بِهِ غَيْرِي . وَقِيلَ هُوَ مُصَدَّرٌ «لَا» بِمَعْنَى لَمْ وَ «إِنْ» لِلشَّرْطِ وَالْمَعْنَى لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا أَيْ إِنْ لَمْ أَبْلَغْ رِسَالَاتِ رَبِّي بَلَاغًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) فِي التَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ . (فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ) كَسَرَتْ إِنْ ؛ لِأَنَّ مَا بَعْدَ فَاءِ الْجُزْءِ مَوْضِعُ أَبْتِدَاءٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ . (خَالِدِينَ فِيهَا) نَصَبَ عَلَى الْحَالِ ، وَجَمَعَ «خَالِدِينَ» لِأَنَّ الْمَعْنَى لِكُلِّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ، فَوَحَّدَ أَوَّلًا لِلْفِظِ «مَنْ» ثُمَّ جَمَعَ لِلْمَعْنَى . وَقَوْلُهُ (أَبَدًا) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَصِيَانَ هُنَا هُوَ الشَّرْكَ . وَقِيلَ : هُوَ الْمَعَاصِي غَيْرَ الشَّرْكَ ، وَيَكُونُ مَعْنَى «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» إِلَّا أَنْ أَعْفُوا وَتَلْحَقَهُمْ شَفَاعَةٌ وَلَا مَحَالَةَ إِذَا خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِيمَانِ يَلْحَقَهُمُ الْعَفْوُ . وَقَدْ مَضَى هَذَا الْمَعْنَى مَبِينًا فِي سُورَةِ «النِّسَاءِ» (١) وَغَيْرِهَا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ) «حَتَّىٰ» هُنَا مُبْتَدَأٌ أَيْ «حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ» مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ أَوْ مَا يُوعَدُونَ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا ، وَهُوَ الْقَتْلُ بِسِدْرٍ (فَسَيَعْلَمُونَ) حِينَئِذٍ (مَنْ أضعفُ ناصِرًا) أَهْمُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ . (وَأَقْلُ عَدَدًا) مَعْطُوفٌ .

(١) راجع ج ٥ ص ٢٢٢ فأجدها .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ ﴾ يعني قيام الساعة . وقيل : عذاب الدنيا أى لا أدرى فد «إن» بمعنى «ما» أو «لا» ؛ أى لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا الله ، فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفه الله . و « ما » فى قوله « مَا يُوعَدُونَ » يجوز أن تكون بمعنى الذى ويقدر حرف العائد . ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾ أى غاية وأجلا .
وقرأ العامة بإسكان الياء من ربى . وقرأ الحريمان وأبو عمرو بالفتح .

قوله تعالى : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن
أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾
فيه مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ « عالم » رفعا نعتا لقوله « رَبِّي » . وقيل :
أى هو « عالم الغيب » والغيب ما غاب عن العباد . وقد تقدم بيانه فى أول سورة « البقرة »
﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه ؛
لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات ، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات ؛ وفى التنزيل « وَأَنبِئُكُمْ
بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدْرِيُونَ فِي بُيُوتِكُمْ » . وقال ابن جبير : « إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ » هو
جبريل عليه السلام . وفيه بعد والأولى أن يكون المعنى ؛ أى لا يظهر على غيبه إلا من أرتضى
أى أصطفى للنبوّة فإنه يطلع على ما يشاء من غيبه ؛ ليكون ذلك دالا على نبوته .

الثانية - قال العلماء رحمة الله عليهم : لما تمدح سبحانه بعلم الغيب وأستأثر به دون خلقه ،
كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم أستثنى من أرتضاه من الرسل ، فأودعهم
ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم . وليس
المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر فى الكتب ويزجر بالطير ممن أرتضاه من

(١) راجع ج ١ ص ١٦٣ فابدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع ج ٤ ص ٩٥

رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخيئه وكذبه . قال بعض العلماء : وليت شعري ما يقول المنجم في سفينة ركب فيها ألف إنسان على اختلاف أحوالهم ، وتباين رتبهم ، فيهم الملك والسوقة ، والعالم والجاهل ، والغني والفقير ، والكبير والصغير ، مع اختلاف طوالهم ، وتباين مواليدهم ، ودرجات نجومهم ، فعمهم حكم الغرق في ساعة واحدة؟ فإن قال المنجم قبحه الله : إنما أغرقهم الطالع الذي ركبوا فيه ، فيكون على مقتضى ذلك أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوائع كلها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم ، وما يقتضيه طالعه المخصوص به فلا فائدة أبدا في عمل المواليد ، ولا دلالة فيها على شقي ولا سعيد ، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم . وفيه استحلال دمه على هذا التنجيم ، ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

حُكْمُ الْمُنْجِمِ أَنَّ طَالِعَ مَوْلِيدِي * يَقْضِي عَلَيَّ بِمَيْتَةِ الْغَرَقِ
قُلْ لِلْمُنْجِمِ صَبْحَةُ الطُّوفَانِ هَلْ * وُلِدَ الْجَمِيعُ بِكُوكَبِ الْغَرَقِ

وقيل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أراد لقاء الخوارج : أتلقاهم والقمر في العقرب ؟ فقال رضي الله عنه : فأين قمرهم ؟ وكان ذلك في آخر الشهر . فأنظر إلى هذه الكلمة التي أجاب بها ، وما فيها من المبالغة في الرد على من يقول بالتنجيم ، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم . وقال له مسافر بن عوف : يا أمير المؤمنين ! لا تسرف في هذه الساعة وسرف في ثلاث ساعات يمضين من النهار . فقال له علي رضي الله عنه : ولم ؟ قال : إنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضر شديد ، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت وأصبت ما طلبت . فقال علي رضي الله عنه : ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم منجم ولا لنا من بعده - في كلام طويل محتج فيه بآيات من التنزيل - فمن صدقك في هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن آخذ من دون الله ندا أوضدا ، اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك . ثم قال للتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير في الساعة التي تنهانا عنها . ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون

به في ظلمات البر والبحر ؛ وإنما المنجم كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار ، والله
لئن بلغني أنك تنظر في النجوم وتعمل بها لأخلدنك في الحبس ما بقيت وبقيت ، ولأحرمك
العطاء ما كان لي سلطان . ثم سافر في الساعة التي نهاه عنها ، واتي القوم فقتلهم وهي وقعة
النهر وان الثابتة في الصحيح لمسلم . ثم قال : لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها وظفرنا وظهرنا
لقال قائل سار في الساعة التي أمر بها المنجم ، ما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم منجم
ولا لنا من بعده ، فتح الله علينا بلاد كسرى وقبصر وسائر البلدان — ثم قال : يا أيها الناس !
توكلوا على الله وثقوا به ، فإنه يكفى ممن سواه . (فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا)
يعنى ملائكة يحفظونه عن أن يقرب منه شيطان ، فيحفظ الوحي من استراق الشياطين
والإلقاء إلى الكهنة . قال الضحاك : ما بعث الله نبيا إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين
عن أن يتشبهوا بصورة الملك ، فإذا جاء شيطان في صورة الملك قالوا : هذا شيطان فأحذره .
وإن جاءه الملك قالوا : هذا رسول ربك . وقال ابن عباس وابن زيد : « رَصَدًا » أى
حفظه يحفظون النبي صلى الله عليه وسلم من أمامه وورائه من الجن والشياطين . قال قتادة
وسعيد بن المسيب : هم أربعة من الملائكة حفظه . وقال الفراء : المراد جبريل ، كان
إذا نزل بالرسالة نزلت معه ملائكة يحفظونه من أن تستمع الجن الوحي فيلقوه إلى كهنتهم
فيسبقوا به الرسول . وقال السدي : « رَصَدًا » أى حفظه يحفظون الوحي ، فما جاء من
عند الله قالوا إنه من عند الله ، وما ألقاه الشيطان قالوا إنه من الشيطان . و « رَصَدًا »
نصب على المفعول . وفي الصحاح : والرصد القوم يرصدون كالحرس يستوى فيه الواحد
والجمع والمذكر والمؤنث وربما قالوا أرصادا والرصد للشئ الرقيب له ؛ يقال : رصده يرصده
رَصَدًا ورَصَدًا . والرصد الرقب والمرصد موضع الرصد .

(١) هذا الكلام يناق قول صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد عصمني من الإنس والجن » (الحديث ج ٦ ص ٢٤٤)

وأن الشياطين لا يمكن أن يناووا منه عليه السلام ، فكيف يلقون إليه حتى لا يفرق بين ما يلقونه وبين الوحي إلى أن
تبينه له الملائكة .

قوله تعالى : لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ
وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿لِيَعْلَمَ﴾ قال قتادة ومقاتل : أى ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة . وفيه حذف يتعلق به اللام ؛ أى أخبرناه بحفظنا الوحي ليعلم أن الرسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحق والصدق . وقيل : ليعلم محمد أن قد أبلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه ؛ قاله ابن جبير . قال : ولم ينزل الوحي إلا ومعه أربعة حفظة من الملائكة عليهم السلام . وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة بلغوا رسالات ربهم . وقيل : ليعلم الرسول أى رسول كان أن الرسل سواه بلغوا . وقيل : أى ليعلم إبليس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم سليمة من تخليطه وأستراق أصحابه . وقال ابن قتبية : أى ليعلم الجن أن الرسل قد بلغوا ما أنزل عليهم ولم يكونوا هم المبلغين بأستراق السمع عليهم . وقال مجاهد : ليعلم من كذب الرسل أن المرسلين قد بلغوا رسالات ربهم . وقراءة الجماعة «لِيَعْلَمَ» بفتح الياء وتأويله ما ذكرناه . وقرأ ابن عباس ومجاهد وحמיד ويعقوب بضم الياء أى ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا . وقال الزجاج : أى ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته بفتح الياء ؛ كقوله تعالى : «وَمَا يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ» المعنى ؛ ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيبا . ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أى أحاط علمه بما عندهم ؛ أى بما عند الرسل وما عند الملائكة . وقال ابن جبير : المعنى ؛ ليعلم الرسل أن ربهم قد أحاط علمه بما لديهم فيبلغوا رسالاته . ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أى أحاط بعدد كل شيء وعرفه وعلمه فلم يخف عليه منه شيء . و «عددا» نصب على الحال ؛ أى أحصى كل شيء في حال العدد ، وإن شئت على المصدر ؛ أى أحصى وعد كل شيء عددا ، فيكون مصدر الفعل المحذوف . فهو سبحانه المحصى المحيط العالم الحافظ لكل شيء . وقد بينا جميعه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنی . والحمد لله وحده .

سورة المزمل

وهي سبع وعشرون آية مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر .

وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها « وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ » والتي تليها ؛ ذكره الماوردي . وقال الثعلبي : قوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ » إلى آخر السورة فإنه نزل بالمدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ ﴿١﴾ قُمْ أَلَيْسَ إِلَّا قَائِلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ
أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَائِلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾
فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ) قال الأخفش سعيد : « المزمل » أصله المتزمل فأدغمت التاء في الزاي وكذلك « المدثر » . وقرأ أبو بن كعب على الأصل « المتزمل » و « المتدثر » . وسعيد « المزمل »^(١) . وفي أصل « المزمل » قولان : أحدهما أنه المتحمل ؛ يقال : زمل الشيء إذا حمله ، ومنه الزاملة ؛ لأنها تحمل القماش^(٢) . الثاني أن المزمل هو الملقف ؛ يقال : تزمل وتدثر بثوبه إذا تغطى وزمل غيره إذا غطاه ، وكل شيء لُفِّفَ فقد زُمِلَ ودُثِرَ ؛ قال امرؤ القيس :

كبير أناس في مجادٍ مزملٍ^(٣)

(١) لعل هذا ما أراده بعض المفسرين بقولهم : قرأ بعض السلف « المزمل » بفتح الزاي وتخفيفها وفتح الميم

وشدّها . (٢) فماش البيت مناعه .

(٣) صدر البيت : كان أبانا في أفانين رديه *

الثانية - قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وفيه ثلاثة أقوال : الأول قول عكرمة « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » بالنبوة والمقترن للرسالة . وعنه أيضا : يا أيها الذي زُمَّلَ هذا الأمر أي حمله ثم فتر؛ وكان يقرأ « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » بتخفيف الزاي وفتح الميم وتشديد يدها على حذف المفعول، وكذلك « الْمُدَّثَرُ » والمعنى المزمل نفسه والمدثر نفسه ، أو الذي زَمَّله غيره . الثاني « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » بالقرآن ؛ قاله ابن عباس . الثالث المزمل بثيابه ؛ قاله قتادة وغيره . قال النخعي : كان مترملا بقطيفة . عائشة : يرمط طولها أربعة عشر ذراعا ، نصفه على وأنا نائمة ، ونصفه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، والله ما كان خزا ولا قزا ولا مِرْعَزَاءً ولا إِبْرِيْسَاءً ولا صوفا ؛ كان سداه شعرا ولحمته وبراً ؛ ذكره الثعالبي .

قلت : وهذا القول يدل على أن السورة مدنية ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بها إلا في المدينة . وما ذكر من أنها مكية لا يصح . والله أعلم . وقال الضحاك : زمّل بثيابه لمنامه . وقيل : بلغه من المشركين سوء قول فيه ، فأشد عليه فتزمل في ثيابه وندثر فتزلت : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » و « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثَرُ » . وقيل : كان هذا في ابتداء ما أوحى إليه ، فإنه لما سمع قول الملك ونظر إليه أخذته الرعدة فأتى أهله فقال : « زملوني دثروني » روى معناه عن ابن عباس . وقالت الحكماء : إنما خاطبه بالمزمل والمدثر في أول الأمر ؛ لأنه لم يكن بعد آثر شيئا من تبليغ الرسالة . قال ابن العربي : وأختلف في تأويل « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » فمنهم من حمله على حقيقته ، قيل له : يا من تلفف في ثيابه أو في قطيفته قم ؛ قاله إبراهيم وفتادة . ومنهم من حمله على المجاز كأنه قيل له : يا من زمّل بالنبوة ؛ قاله عكرمة . وإنما يسوغ هذا التفسير لو كانت الميم مفتوحة مشددة بصيغة المفعول الذي لم يسم فاعله ، وأما وهو بلفظ الفاعل فهو باطل .

قلت : وقد بينا أنها على حذف المفعول ، وقد قرئ بها فهي صحيحة المعنى . قال :
وأما من قال إنه زمّل القرآن فهو صحيح في المجاز لكنه قد قدمنا أنه لا يحتاج إليه .

(١) المرعزاء بكسر الميم والعين : الزغب الذي نمحت شعر العنز .

الثالثة - قال السهيلي : ليس المزمل بأسم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرف به كما ذهب إليه بعض الناس وعدوه في أسمائه ، وإنما المزمل أسم مشتق من حالته التي كان عليها حين الخطاب ، وكذلك المدثر . وفي خطابه بهذا الأسم فائدتان : إحداهما الملاطفة فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه بأبسم مشتق من حالته التي هو عليها ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي حين غاضب فاطمة رضي الله عنهما ، فأتاه وهو نائم وقد لصق بجانبه التراب فقال له : " قم يا أبا تراب " إشعاراً له أنه غير عاتب عليه وملاطفة له . وكذلك قوله عليه السلام لحذيفة : " قم يا نومان " وكان نائماً ملاطفة له وإشعاراً لترك العتب والتأنيب . فقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلِ . قم » فيه تأنيس وملاطفة ، ليستشعر أنه غير عاتب عليه . والفائدة الثانية التنبيه لكل متزمل راقداً ليلته ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله تعالى فيه ؛ لأن الأسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك العمل وأتصف بتلك الصفة .

الرابعة - قوله تعالى : (قُمِ اللَّيْلَ) قراءة العامة بكسر الميم لالتقاء الساكنين . وقرأ أبو السَّمَّال بضم الميم إتباعاً لضمة القاف . وحكى الفتح لحفته . قال عثمان بن جنى : الغرض بهذه الحركة التبليغ بها هرباً من ألتقاء الساكنين ، فبأى حركة تحركت فقد وقع الغرض . وهو من الأفعال القاصرة غير المتعدية إلى مفعول ، فأما ظرف الزمان والمكان فسائق فيه إلا أن ظرف المكان لا يتعدى إليه إلا بواسطة ؛ لانقول : قمت الدار حتى تقول قمت وسط الدار وخارج الدار . وقد قيل : إن « قم » هنا معناه صلِّ ؛ عبر به عنه وأستعير له حتى صار عرفاً بكثرة الاستعمال .

الخامسة - « اللَّيْلَ » حدّ الليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . وقد تقدم بيانه في سورة « البقرة »^(١) وأختلف هل كان قيامه فرضاً وحتماً ، أو كان ندباً وحصاً ، والدلائل تقوى أن قيامه كان حتماً وفرضاً ؛ وذلك أن الندب والحص لا يقع على بعض الليل

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٢ طبعة ثانية .

دون بعض ؛ لأن قيامه ليس مخصوصا به وقتا دون وقت . وأيضا فقد جاء التوقيت بذلك عن عائشة وغيرها على ما يأتي . واختلف أيضا هل كان فرضا على النبي صلى الله عليه وسلم وحده ، أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء ، أو عليه وعلى أمته ؛ ثلاثة أقوال : الأول قول سعيد بن جبير لتوجه الخطاب إليه خاصة . الثاني قول ابن عباس ، قال : كان قيام الليل فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الأنبياء قبله . الثالث قول عائشة وابن عباس أيضا وهو الصحيح ؛ كما في صحيح مسلم عن زرارة بن أوفى أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يزوفى سبيل الله ؛ الحديث . وفيه فقلت لعائشة : أنبئيني عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : ألسنتَ تقرأ « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » قلت : بلى ! قالت : فإن الله عز وجل أفترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا ، وأمسك الله عز وجل خاتمها آتني عشر شهرا في السماء ، حتى أنزل الله عز وجل في آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة . وذكر الحديث . وذَكَرَ وكيع ويعلَى قالا : حدثنا مسعر عن سماك الحنفي قال : سمعت ابن عباس يقول لما أنزل أول « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » كانوا يقومون نحو من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها ، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة . وقال سعيد بن جبير : مكث النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل فنزل بعد عشر سنين « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ » نخفف الله عنهم .

السادسة - قوله تعالى : (إِلَّا قَلِيلًا) استثناء من الليل ، أي صلّ الليل كله إلا يسيرا منه ؛ لأن قيام جميعه على الدوام غير ممكن ، فامتننى منه القليل لراحة الجسد . والقليل من الشيء ما دون النصف ؛ فحكى عن وهب بن منبه أنه قال : القليل ما دون العشار والسدس . وقال الكلبي ومقاتل : الثالث . ثم قال تعالى : (نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا) فكان ذلك تخفيفا إذ لم يكن زمان القيام محدودا ، فقام الناس حتى ورمت أقدامهم ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ » . وقال الأخفش : « نِصْفَهُ » أي أو نصفه ؛ يقال : أعطه درهما درهمين ثلاثة يريد أو درهمين أو ثلاثة . وقال الزجاج : « نِصْفَهُ » بدل من الليل

و «إِلَّا قَلِيلًا» استثناء من النصف ، والضمير في « منه » و « عليه » للنصف . المعنى :
قم نصف الليل أو أنقص من النصف قليلا إلى الثلث أو زد عليه قليلا إلى الثلثين ؛ فكأنه
قال : قم ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه . وقيل : إن « نصفه » بدل من قوله « قليلا » وكان
مخيرا بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه ، وبين الناقص منه ، وبين قيام الزائد عليه ، كأن
تقدير الكلام : قم الليل إلا نصفه ، أو أقل من نصفه ، أو أكثر من نصفه . وفي صحيح مسلم
عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا
كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب
له من ذا الذي يسألني فأعطيته من ذا الذي يستغفري فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يضيء
الفجر “ ونحوه عن أبي هريرة وأبي سعيد جميعا وهو يدل على ترغيب قيام ثلثي الليل .
وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا مضى شطر
الليل – أو ثلثاه – ينزل الله “ الحديث . رواه من طريقين عن أبي هريرة هكذا على الشك .
وقد جاء في كتاب النسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : ” إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول ثم يأمر مناديا
يقول هل من داع يستجاب له هل من مستغفر يغفر له هل من سائل يعطى “ صححه أبو محمد
عبد الحق فبين هذا الحديث مع صحته معنى النزول ، وأن ذلك يكون عند نصف الليل .
وخرج ابن ماجه من حديث ابن شهاب ، عن أبي سلمة وأبي عبد الله الأغر ، عن أبي هريرة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يبقى ثلث الليل الآخر
كل ليلة فيقول من يسألني فأعطيته من يدعوني فأستجيب له من يستغفري فأغفر له حتى
يطلع الفجر “ فكانوا يستحبون صلاة آخر الليل على أوله . قال علماؤنا : وبهذا الترتيب
أنتظم الحديث والقرآن فإنهما يبصران من مشكاة واحدة . وفي الموطأ وغيره من حديث
أبن عباس : بث عند خالتي ميمونة حتى إذا أنتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل
استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام إلى شئ معلق فتوضأ وضوءا خفيفا . وذكر الحديث .

السابعة - اختلف العلماء في الناسخ للأمر بقيام الليل ؛ فعن ابن عباس وعائشة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ » إلى آخر السورة . وقيل قوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ » . وعن ابن عباس أيضا : هو منسوخ بقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ » . وعن عائشة أيضا والشافعي ومقاتل وابن كيسان : هو منسوخ بالصلوات الخمس . وقيل الناسخ لذلك قوله تعالى : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ » . قال أبو عبد الرحمن السلمي : لما نزلت « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » قاموا حتى ورمت أقدامهم وسوفهم ، ثم نزل قوله تعالى : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ » . قال بعض العلماء : وهو فرض نسخ به فرض ؛ كان على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة لفضله ؛ كما قال تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ » .

قلت : القول الأول يعم جميع هذه الأقوال ، وقد قال تعالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » فدخل فيها قول من قال إن الناسخ للصلوات الخمس . وقد ذهب الحسن وآبن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قدر حلب شاة . وعن الحسن أيضا أنه قال في هذه الآية : الحمد لله تطوع بعد الفريضة . وهو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ لما جاء في قيامه من الترغيب والفضل في القرآن والسنة . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أجعل للنبي صلى الله عليه وسلم حصيرا يصلي عليه من الليل ، فتسامع الناس به ، فلما رأى جماعتهم كره ذلك ، وخشى أن يكتب عليهم قيام الليل ، فدخل البيت كالمغضب ، فجعلوا يتحننون ويتفلون فخرج إليهم فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ آكَلَفُوا^(١) مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ مِنَ الثَّوَابِ حَتَّىٰ تَمَلُّوا مِنَ الْعَمَلِ وَإِنْ خَيْرَ الْعَمَلِ أَدُومُهُ وَإِنْ قَلَّ » فنزلت « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » فكتب عليهم ، فأنزل بمنزلة الفريضة حتى أن كان أحدهم ليربط الحبل فيتعلق به ، فكشوا ثمانية أشهر فرحمهم الله وأنزل « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ » فردهم الله إلى الفريضة ، ووضع عنهم قيام الليل إلا ما تطوعوا به .

(١) آكفوا : هو من كلفت بالأمر إذا أولمت به وأحيت .

قلت : حديث عائشة هذا ذكره الثعلبي ، ومعناه ثابت في الصحيح إلى قوله : ” وإن قل “ وبقية يدل على أن قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ » نزل بالمدينة وأنهم مكثوا ثمانية أشهر يقومون . وقد تقدم عنها في صحيح مسلم : حولاً . وحكى الماوردي عنها قولاً ثالثاً وهو ستة عشر شهراً لم يذكر غيره عنها . وذكر عن ابن عباس أنه كان بين أول المزمّل وآخرها سنة ؛ قال : فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان فرضاً عليه ؛ وفي نسخه عنه قولان : أحدهما — أنه كان فرضه عليه إلى أن قبضه الله تعالى . الثاني — أنه نسخ عنه كما نسخ عن أمته . وفي مدة فرضه إلى أن نسخ قولان : أحدهما — المدة المفروضة على أمته في القولين الماضيين يريد قول ابن عباس حولاً وقول عائشة ستة عشر شهراً . الثاني — أنها عشر سنين إلى أن خفف عنه بالنسخ زيادةً في التكليف ليميزه بفعل الرسالة ؛ قاله ابن جبير .

قلت : هذا خلاف ما ذكره الثعلبي عن سعيد بن جبيرة حسب ما تقدم فتأمله . وسيأتي لهذه المسئلة زيادة بيان في آخر السورة إن شاء الله تعالى .

الثامنة — قوله تعالى : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) أى لاتعجل بقراءة القرآن بل اقرأه في مهل وبيان مع تدبر المعاني . وقال الضحاك : اقرأه حرفاً حرفاً . وقال مجاهد : أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه . والترتيل التنضيد والتنسيق وحسن النظام ؛ ومنه تفر رَتَّلَ وَرَتَّلَ بكسر العين وفتحها إذا كان حسن التنضيد . وقد تقدم بيانه في مقدمة الكتاب .^(١) وروى الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل يقرأ آية ويبكى فقال : ” ألم تسمعوا إلى قول الله عز وجل « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً » هذا الترتيل “ . وسمع علقمة رجلاً يقرأ قراءة حسنة فقال : لقد رتل القرآن فداه أبي وأمي . وقال أبو بكر بن طاهر : تدبر في لطائف خطابه ، وطالب نفسك بالقيام بأحكامه ، وقلبك بفهم معانيه ، وسرك بالإقبال عليه . وروى عبد الله بن عمرو قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” يؤتى بقارئ القرآن يوم القيامة فيوقف في أول درج الجنة ويقال له اقرأ وأرتقي ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر

(١) راجع ج ١ ص ١٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

آية تقرأها " خرجه أبو داود وقد تقدم في أول الكتاب ^(١) . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمد صوته بالقراءة مدا .

قوله تعالى : **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا** ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : **(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)** هو متصل بما فرض من قيام الليل أى سناق عليك بافتراض صلاة الليل قولاً ثقيلاً يثقل حمله ؛ لأن الليل للنوم ، فمن أمر بقيام أكثره لم يتعباً له ذلك إلا بجمل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان ، فهو أمر يثقل على العبد . وقيل : إنا سنوحى إليك القرآن وهو قول ثقيل يثقل العمل بشرائعه . قال قتادة : ثقيل والله فرائضه وحدوده . مجاهد : حلاله وحرامه . الحسن : العمل به . أبو العالية : ثقيلاً بالوعد والوعيد والحلال والحرام . محمد بن كعب : ثقيلاً على المنافقين . وقيل : على الكفار ؛ لما فيه من الاحتجاج عليهم ، والبيان لضلالتهم وسب آلهتهم ، والكشف عما حرفة أهل الكتاب . السدى : ثقيل بمعنى كريم ؛ مأخوذ من قولهم : فلان ثقيل على أى يكرم على . الفراء : « ثَقِيلًا » رزينا ليس بالخفيف السفساف لأنه كلام ربنا . وقال الحسين بن الفضل : ثقيلاً لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ، ونفس مزينة بالتوحيد . وقال ابن زيد : هو والله ثقيل مبارك كما ثقل في الدنيا يثقل في الميزان يوم القيامة . وقيل « ثَقِيلًا » أى ثابتاً كثبوت الثقيل في محله ، ويكون معناه أنه ثابت الإعجاز لا يزول إعجازه أبداً . وقيل : هو القرآن نفسه ؛ كما جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته وضعت جرائها — يعنى صدرها — على الأرض فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى ^(٢) عنه . وفي الموطأ وغيره أنه عليه السلام سئل كيف يأتيك الوحي؟ فقال : " أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول " . قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيتته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . قال ابن العربي : وهذا أولى ؛ لأنه الحقيقة ، وقد جاء

(١) راجع ج ١ ص ٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) أى الوحي .

« وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وقال عليه السلام : « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ »
وقيل : القول في هذه السورة هو قول لا إله إلا الله ؛ إذ في الخبر : خفيفة على اللسان ثقيلة
في الميزان ؛ ذكره القشيري .

قوله تعالى : **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً** ﴿٦١﴾
إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٦٢﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ)** قال العلماء : ناشئة الليل أى أوقاته وساعاته
لأن أوقاته تنشأ أولاً فأولاً ؛ يقال : نشأ الشيء ينشأ إذا ابتدأ وأقبل شيئاً بعد شيء فهو ناشئ
وأنشأه الله فنشأ ، ومنه نشأت السحابة إذا بدأت وأنشأها الله ؛ فناشئة فاعلة من نشأت
تنشأ فهى ناشئة ، ومنه قوله تعالى : **« أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ »** والمراد
أن ساعات الليل الناشئة ، فأكتفى بالوصف عن الاسم فالتأنيث للفظ ساعة ، لأن كل ساعة
تحدث . وقيل : الناشئة . مصدر بمعنى [قيام الليل] كالحاطئة والكاذبة ؛ أى إن نشأة الليل هى
أشد وطأ . وقيل : إن ناشئة الليل قيام الليل . قال ابن مسعود : الحبشة يقولون نشأ
أى قام . فاعله أراد أن الكلمة عربية ولكنها شائعة في كلام الحبشة غالباً عليهم ، وإلا فليس
في القرآن ما ليس في لغة العرب . وقد تقدم بيان هذا في مقدمة الكتاب مستوفى .^(١)

الثانية — بين تعالى في هذه الآية فضل صلاة الليل على صلاة النهار ، وأن الاستحباب
من صلاة الليل بالقراءة فيها ما أمكن أعظم للأجر ، وأجلب للشواب .
وآختلف العلماء في المراد بناشئة الليل ؛ فقال ابن عمر وأنس بن مالك : هو ما بين
المغرب والعشاء ، تمسكاً بأن لفظ نشأ يعطى الابتداء فكان بالأولية أحق ؛ ومنه قول الشاعر :

(١) زيادة تقنضها العبارة ؛ وهى كذلك في كتب التفسير .

(٢) راجع ج ١ ص ٦٨ فا بعدها طبعة ثانية أورثت .

ولولا أن يُقال صَبَا نُصِيبُ * لَقَلْتُ بِنَفْسِي النَّشَأَ الصَّغَارُ

وكان علي بن الحسين يصل بين المغرب والعشاء ويقول: هذا ناشئة الليل. وقال عطاء وعكرمة: إنه بدء الليل. وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: هي الليل كله؛ لأنه ينشأ بعد النهار وهو الذي اختاره مالك بن أنس. قال ابن العربي: وهو الذي يعطيه اللفظ وتقتضيه اللغة. وقالت عائشة وابن عباس أيضا ومجاهد: إنما الناشئة القيام بالليل بعد النوم. ومن قام أول الليل قبل النوم فما قام ناشئة. فقال يمان وابن كيسان: هو القيام من آخر الليل. وقال ابن عباس: كانت صلاتهم أول الليل. وذلك أن الإنسان إذا نام لا يدري متى يستيقظ. وفي الصباح: وناشئة الليل أول ساعاته. وقال القتيبي: إنه ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة بعد ساعة. وعن الحسن ومجاهد: هي ما بعد العشاء الآخرة إلى الصبح. وعن الحسن أيضا: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة. ويقال: ما ينشأ في الليل من الطاعات؛ حكاها الجوهري.

الثالثة - قوله تعالى: ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ﴾ قرأ أبو العالية وأبو عمرو وابن أبي إسحق ومجاهد وحيد وابن محيصن وابن عامر والمغيرة وأبو حنيفة « وِطَاءً » بكسر الواو وفتح الطاء والمد، واختاره أبو عبيد. الباقيون « وَطْأً » بفتح الواو وسكون الطاء مقصورة، واختاره أبو حاتم؛ من قولك: أشدت على القوم وطأة سلطانهم. أي ثقل عليهم ما حملهم من المؤن ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: « اللهم أشدد وطأتك على مضر » فالمعنى أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار. وذلك أن الليل وقت منام وتودع وإجمام، فمن شغله بالعبادة فقد تحمل المشقة العظيمة. ومن مذ فهو مصدر واطأت وِطَاءً ومواطاة أي وافقته. ابن زيد: واطأته على الأمر مواطاة إذا وافقته من الوفاق، وفلان يواطئ اسمه آسمى، وتواطؤوا عليه أي توافقوا؛ فالمعنى أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان؛ لأنقطاع الأصوات والحركات؛ قاله مجاهد وابن أبي مليكة وغيرهما. وقال ابن عباس بمعناه أي يواطئ السمع القلب؛ قال الله تعالى: « لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » أي ليوافقوا. وقيل: المعنى أشد ميهاذا للتصرف في التفكير والتدبر. والوَطَاءُ خلاف الْفِطَاءِ. وقيل: « أَشَدُّ وَطْأً » بسكون الطاء وفتح

الواو أى أشد ثباتاً من النهار ؛ فإن الليل يخلو فيه الإنسان بما يعمله فيكون ذلك أثبت للعمل وأنقى^(١) لما يلهى ويشغل القلب . والوطء الثبات تقول : وطئت الأرض بقدمي . وقال الأخفش : أشد قياماً . الفراء : أثبت قراءة وقياماً . وعنه : « أَشَدُّ وَطْأً » أى أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت فراغ عن اشتغال المعاش ، فعبادته تدوم ولا تنقطع . وقال الكلبي : « أَشَدُّ وَطْأً » أى أشد نشاطاً للمصلي ؛ لأنه في زمان راحته . وقال عبادة : « أَشَدُّ وَطْأً » أى نشاطاً للمصلي وأخف ، وأثبت للقراءة .

الرابعة — قوله تعالى : (وَأَقْوَمُ قِيلاً) أى القراءة بالليل أقوم منها بالنهار ، أى أشد استقامة واستمراراً على الصواب ؛ لأن الأصوات هادئة ، والدنيا ساكنة ، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه . قال قتادة ومجاهد : أى أصوب للقراءة وأثبت للقول ؛ لأنه زمان التفهم . وقال أبو علي : « أَقْوَمُ قِيلاً » أى أشد استقامة لفراغ البال بالليل . وقيل : أى أعجل لإجابة للدعاء . حكاه ابن شجرة . وقال عكرمة : عبادة الليل أتم نشاطاً ، وأتم إخلاصاً ، وأكثر بركة . وعن زيد ابن أسلم : أجدر أن يتفقه في القرآن . وعن الأعمش قال : قرأ أنس بن مالك « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَصْوَبُ قِيلاً » فقيل له : « وَأَقْوَمُ قِيلاً » فقال : أقوم وأصوب وأهياً سواء . قال أبو بكر الأنباري : وقد ترمى ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال : من قرأ بحرف يوافق معنى حرف من القرآن فهو مصيب إذا لم يخالف معنى ولم يأت بغير ما أراد الله وقصد له ، واحتجوا بقول أنس هذا ، وهو قول لا يعرج عليه ولا يلتفت إلى قائله ؛ لأنه لو قرأ بالفاظ تخالف ألفاظ القرآن إذا قاربت معانيها واشتملت على عامتها لحاز أن يقرأ في موضع « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » الشكر للباري ملك المخلوقين ، ويتسع الأمر في هذا حتى يبطل لفظ جميع القرآن ، ويكون التالي له مفترياً على الله عز وجل ، كاذباً على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا حجة لهم في قول ابن مسعود : نزل القرآن على سبعة أحرف ، إنما هو كقول أحدكم : هُلم وتعال وأقبل ، لأن هذا الحديث يوجب أن القراءات الماثورة المنقولة بالأسانيد

(١) في نسخة : وأنقى .

الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا اختلفت ألفاظها، وآتفت معانيها، كان ذلك فيها بمنزلة الخلاف في هلم وتعال وأقبل، فأما ما لم يقرأ به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعوه رضي الله عنهم فإنه من أورد حرفاً منه في القرآن بهت ومال وخرج عن مذهب الصواب . قال أبو بكر: والحديث الذي جعلوه قاعدتهم في هذه الضلالة حديث لا يصح عن أحد من أهل العلم؛ لأنه مبنى على رواية الأعمش عن أنس، فهو مقطوع ليس بمتصل فيؤخذ به من قبل أن الأعمش رأى أنسا ولم يسمع منه .

الخامسة - قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قراءة العامة بالحاء غير معجمة أى تصرفاً في حواجبك، وإقبالا وإدباراً وذهاباً ومجيئاً . والسبح الجرى والدوران، ومنه السابح في الماء؛ لتقلبه بيديه ورجليه . وفرس سابح شديد الجرى؛ قال امرؤ القيس:

مِسْحٌ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَتَى • أَثْرَنَ الْغُبَارَ بِالْكَدِيدِ الْمُرْكَلِ^(١)

وقيل: السبح الفراغ، أى إن لك فراغاً للحاجات بالنهار . وقيل: « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا » أى نوما والتسبح التمدد؛ ذكره الخليل . وعن ابن عباس وعطاء: « سَبْحًا طَوِيلًا » يعنى فراغاً طويلاً لنومك وراحتك، فأجعل ناشئة الليل لعبادتك . وقال الزجاج: إن فأتك في الليل شيء، فلك في النهار فراغ الاستدراك .

وقرأ يحيى بن يعمر وأبو وائل « سَبْحًا » بالخاء المعجمة . قال المهدوى: ومعناه النوم؛ روى ذلك عن القارئين بهذه القراءة . وقيل: معناه الخفة والسعة والأستراحة؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد دعت على سارق رداؤها: « لَا تُسَبِّحِي عَنْهُ بِدَعَائِكَ عَلَيْهِ » أى لا تخففى عنه إثمه؛ قال الشاعر:

(١) مسح: معناه يصب الجرى صبا . والوتى: الفتور والكلال . والكديد: الموضع الغليظ . والمركل: الذى يركل بالأرجل . ومعنى البيت: إن الخيل السريعة إذا فترت فأنارت الغبار بأرجلها من التعب جرى هذا الفرس جريا سهلا كما يسح السحاب المطر .

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَأَعْلَمْ أَنَّهُ * إِذَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ شَيْئًا فَمَا كَانَ

الأصمعي : يقال سَبَّخَ اللهُ عَنْكَ الحُمَّى أَي خَفَّفَهَا . وَسَبَّخَ الحَرُّ قَدْرًا وَخَفَّ . وَالتَّسْبِيحُ النوم الشديد . وَالتَّسْبِيحُ أَيضًا تَوْسِيعُ القَطَنِ وَالتَّكْثَانِ وَالتَّصَوُّفِ وَتَنْفِيثِهَا ؛ يُقَالُ لِلرَّأَةِ : سَبَّخِي قَطَنَكَ . وَالتَّسْبِيحُ مِنَ القَطَنِ مَا يُسَبَّخُ بَعْدَ النَّدْفِ أَي يُلْفُ لِيُنْزِلَهُ الرِّمَاءُ ، وَالتَّقِطَةُ مِنْهُ سَبِيخَةٌ ، وَكَذَلِكَ مِنَ الصَّوْفِ وَالبُورِ ، وَيُقَالُ لِقِطْعِ القَطَنِ سَبَّخٌ ؛ قَالَ الأَخْطَلُ يَصِفُ القُنَاصَ وَالكَلَابَ :

فَأَرْسَلُوهُنَّ يَذْرِيْنَ التَّرَابَ كَمَا * يَذْرِي سَبَّخَ قَطَنِ نَدْفٍ أَوْتَارِ

وقال ثعلب : السَّبِّخُ بِالحَاءِ التَّرْدُدُ وَالأَضْطْرَابُ ؛ وَالتَّسْبِيحُ أَيضًا السُّكُونُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الحُمَّى مِنْ قَيْحِ جَهَنَّمَ فَسَبِّخُوهَا بِالمَاءِ » أَي سَكَّنُوهَا ؛ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو : السَّبِّخُ النُّومُ وَالفِرَاقُ .

قلت : فعلى هذا يكون من الأضداد ، وتكون بمعنى السَّبِّحِ بِالحَاءِ غير المعجمة .

قوله تعالى : **وَإِذْ كَرَّمْنَا نَسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً** ﴿٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(وَإِذْ كَرَّمْنَا نَسْمَ رَبِّكَ)** أَي أَدَمَهُ بِأَسْمَائِهِ الحَسَنِي لِيَحْصَلَ لَكَ مَعَ الصَّلَاةِ مَحْمُودُ العَاقِبَةِ . وَقِيلَ : أَي أَفْصَدَ بِعَمَلِكَ وَجْهَ رَبِّكَ . وَقَالَ سَهْلٌ : أَقْرَأَ بِاسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أِبْتِدَاءِ صَلَاتِكَ تَوْصِيْلَكَ بِرُكْعَةِ قِرَاءَتِهَا إِلَى رَبِّكَ ، وَتَقَطْعَكَ عَمَّا سِوَاهُ . وَقِيلَ : إِذْ كَرَّمْنَا نَسْمَ رَبِّكَ فِي وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، لِتَوْفُّرِ عَمَلِ طَاعَتِهِ وَتَعَدُّلِ عَنِ مَعْصِيَتِهِ . وَقَالَ الكَلْبِيُّ : صَلِّ لِرَبِّكَ أَي بِالنَّهَارِ .

قلت : وهذا حسن فإنه لما ذكر الليل ذكر النهار؛ إذ هو قسيمه؛ وقد قال الله تعالى :

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ » ^(١) عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

(١) راجع ج ١٣ ص ٦٥ فابعدا .

الثانية - قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ التبتل الانقطاع إلى عبادة الله عز وجل .
 أى أنقطع بعبادتك إليه ولا تشرك به غيره . يقال : بتلت الشيء أى قطعتة ، ومنه قولهم :
 طَلَّقَهَا بَتَّةً بَتَّةً ، وهذه صَدَقَةٌ بَتَّةً بَتَّةً ؛ أى بائنة منقطعة عن صاحبها ؛ أى قطع ماله عنها
 بالكلية ؛ ومنه صريم البتول لأنقطاعها إلى الله تعالى ، ويقال للراهب متبتل ؛ لأنقطاعه عن
 الناس وأنفراده بالعبادة . قال :

تُضِيءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا * مَنَارَةٌ تُنْسِي رَاهِبٍ مُتَبَتِّلًا^(١)

وفي الحديث النهى عن التبتل وهو الانقطاع عن الناس والجماعات . وقيل : إن أصله
 عند العرب التفرد ؛ قاله ابن عرفة . والأول أقوى لما ذكرنا . ويقال : كيف قال
 « تبتيلا » ولم يقل تبتلا ؟ قيل له : لأن معنى تبتل بتل نفسه ، فجاء به على معناه مراعاة
 لحق الفواصل .

الثالثة - قد مضى في « المائدة » في تفسير قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ » [حال الدين في الكراهية] لمن تبتل وأنقطع وسلك سبيل
 الرهبانية بما فيه كفاية . قال ابن العربي : وأما اليوم وقد مرّجت عهد الناس ، وخفت
 أماناتهم ، وأستولى الحرام على الحطام^(٤) ، فالعزلة خير من الخلطة ، والعزلة أفضل من
 التأهل ، ولكن معنى الآية : أنقطع عن الأوثان والأصنام وعن عبادة غير الله ، وكذلك
 قال مجاهد : معناه أخلص له العبادة ، ولم يرد التبتل فصار التبتل مأمورا به في القرآن
 منيها عنه في السنة ، ومتعلق الأمر غير متعلق النهى فلا يتناقضان ، وإنما بعث ليبين للناس
 ما نزل إليهم ؛ فالتبتل المأمور به الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة كما قال تعالى :
 «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» والتبتل المنهى عنه هو سلوك مسلك النصارى

(١) البيت من معلقة امرئ القيس ومعناه : إذا أبتست بالليل رأيت لناياها بريقا وضوا ، وإذا برزت
 في الظلام أستار وجهها حتى ينل ظلة الليل . ومضى راهب أى إساؤه .

(٢) راجع ج ٦ ص ٢٦١ فابعدا . (٣) الزيادة من ابن العرب .

(٤) في نسخة : الحكام .

في ترك النكاح والترهب في الصوامع ، لكن عند فساد الزمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن .

قوله تعالى : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ
وَكَيْلًا ﴿١٠﴾ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١١﴾ وَذَرْنِي
وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) قرأ أهل الحرمين وابن محيصة ومجاهد وأبو عمرو وابن أبي إسحاق وحفص « رَبُّ » بالرفع على الابتداء والخبر (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) .
وقيل : على إضمار « هو » . الباقيون « رَبُّ » بالخفض على نعت الرب تعالى في قوله تعالى :
« وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ » « رَبُّ الْمَشْرِقِ » ومن علم أنه رب المشارق والمغارب أنقطع بعمله
وأمله إليه . (فَاتَّخِذْهُ وَكَيْلًا) أي قائما بأمورك . وقيل : كفيلا بما وعدك .

قوله تعالى : (وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) أي من الأذى والسب والاستهزاء ، ولا تجزع
من قولهم ولا تمتنع من دعائهم . (وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا) أي لا تتعرض لهم ، ولا تستغل
بمكافاتهم ، فإن في ذلك ترك الدعاء إلى الله . وكان هذا قبل الأمر بالقتال ، ثم أمر بعد بقتالهم
وقتلهم ، فذسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك ، قاله قتادة وغيره . وقال أبو الدرداء :
إِنَّا لَنَكْشِرُ فِي وُجُوهِ [أَقْوَامٍ] ^(١) وَنَضْحِكُ لِيَهُمْ وَإِنْ قُلُوبُنَا لَتَقْلِيهِمْ أَوْ لَتَلْعَنُهُمْ .

قوله تعالى : (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ) أي أرض بني أمية . نزلت في صناديد قريش
ورؤساء مكة من المستهزئين . وقال مقاتل : نزلت في الْمُطْعِمِينَ يوم بدر وهم عشرة . وقد
تقدم ذكرهم في « الأنفال » . وقال يحيى بن سلام : إنهم بنو المغيرة . وقال سعيد بن جبیر
أخبرت أنهم اثنا عشر رجلا . (أُولِي النَّعْمَةِ) أُولِي الْغِنَى وَالتَّرَفِ وَاللَّذَّةِ فِي الدُّنْيَا . (وَمَهِّلْهُمْ

(١) الزيادة من نهاية ابن الأثير . (٢) راجع ج ٨ ص ٥٣ .

قَلِيلًا) يعنى إلى مدة آجالهم . قالت عائشة رضى الله عنها : لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيرا حتى وقعت وقعة بدر . وقيل : « وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا » يعنى إلى مدة الدنيا .

قوله تعالى : **إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٣﴾** وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ
وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ
كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (**إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا**) الأنكال القيود . عن الحسن ومجاهد وغيرهما واحدها نكل وهو ما منع الإنسان من الحركة . وقيل سمي نكلا ؛ لأنه ينكل به . قال الشعبي أترون أن الله تعالى جعل الأنكال في أرجل أهل النار خشية أن يهربوا ؟ لا والله ولكنهم إذا أرادوا أن يرتفعوا استفتلت بهم . وقال الكلبي : الأنكال الأغلال . والأول أعرف في اللغة ؛ ومنه قول الخنساء :

دَعَاكَ فَقَطَّعْتَ أَنْكَالَهُ * وَقَدْ كُنَّ قَبْلَكَ لَا تُقَطِّعُ^(١)

وقيل : إنه أنواع العذاب الشديد ؛ قاله مقاتل . وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يحب النكل على النكل » بالتحريك ، قاله الجوهري . قيل : وما النكل ؟ قال : « الرجل القوي المجرب على الفرس القوي المجرب » ، ذكره الماوردي . قال : ومن ذلك سمي القيد نكلا لقوته ، وكذلك الغل وكل عذاب قوى فأشد . والجحيم النار المؤججة . (**وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ**) أى غير سائغ ؛ يأخذ بالخلق لا هو نازل ولا هو خارج ، وهو الغسيل والزقوم والضريع ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا : أنه شوك يدخل الخلق فلا ينزل ولا يخرج . وقال الزجاج : أى طعامهم الضريع ؛ كما قال : « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ » وهو شوك كالعويج . وقال مجاهد : هو الزقوم ، كما قال : « **إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ** » . والمعنى واحد وقال حمران بن أعين : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « **إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا** . **رَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ** »

(١) في ديوان الخنساء : نكز .

فصعق . وقال خلود بن حسان : أمسى الحسن عندنا صائماً ، فأتيته بطعام فعرضت له هذه الآية « إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيماً . وَطَعَامًا » فقال : أرفع طعامك . فلما كانت الثانية أتته بطعام فعرضت له هذه الآية ، فقال : أرفعه . ومثله في الثالثة ، فأنطلق أبه إلى ثابت البناني ويزيد الضبي ويحيى البكاء فحدثهم بقاءوه فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق . والغصّة الشجا وهو ما ينشأ في الحلق من عظم أو غيره وجمعها غصص . والغصص بالفتح مصدر قولك : غصصت يا رجل تغص فانت غاص بالطعام وغصان ، وأغصصته أنا ، والمنزل غاص بالقوم أى ممتلئ بهم .

قوله تعالى : (يَوْمَ تَرُجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ) أى تتحرك وتضطرب بمن عليها . وانتصب « يَوْمَ » على الظرف أى ينكل بهم ويعذبون « يَوْمَ تَرُجُفُ الْأَرْضُ » . وقيل : ينزع الخافض يعنى هذه العقوبة فى يوم ترجف الأرض والجبال . وقيل : العامل « ذرني » أى وذرني والمكذبين يوم ترجف الأرض والجبال . (وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً) أى وتكون والكثيب الرمل المجتمع ؛ قال حسان :

عَرَفْتُ دِيَارَ زَيْنَبَ بِالْكَثِيبِ * نَخَطُ الْوَحْيِ فِي الْوَرَقِ الْقَشِيبِ^(١)

والمهيل الذى يمتز تحت الأرجل . قال الضحاك والكلبى : المهيل هو الذى إذا وطئته بالقدم زل من تحتها ، وإذا أخذت أسفله أنهال . وقال ابن عباس : « مهيلاً » أى رملا سائلا متناثرا . وأصله مهبول وهو مفعول من قولك : هلت عليه التراب أهيله هيلاً إذا صببته . يقال : مهيل ومهبول ، ومكيل ومكيول ، ومدين ومدبون ، ومعين ومعيون ؛ قال الشاعر :

فَدَ كَانَ قَوْمُكَ يَحْسَبُونَكَ سَيِّدًا * وَإِخَالُ أَنْكَ سَيِّدٌ مَعِيُونَ^(٢)

وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم أنهم شكوا إليه الجذوبة ؛ فقال : « أَنْتَ كَيْلُونَ أَمْ تَهِيلُونَ »

(١) ويروى فى الرق . والوحى هنا الكتابة . والقشيب : الجديده . شبه حسان رضى الله عنه آثار الديار بالسطور .

(٢) هو عباس بن مرداس .

قالوا : نهبيل . قال : ” يكلوا طعامكم بيارك لكم فيه “ . وأهلت الدقيق لفة في هلت فهو مهال ومهيل . وإنما حذف الواو ؛ لأن الياء تنقل فيها الضمة فحذفت فسكنت هي والواو فحذفت الواو لالتقاء الساكنين .

قوله تعالى : **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِن هَذِهِ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ آتَّخِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾**

قوله تعالى : **(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا)** يريد النبي صلى الله عليه وسلم أرسله إلى قريش **(كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا)** وهو موسى **(فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ)** أى كذب به ولم يؤمن . قال مقاتل : ذكر موسى وفرعون ؛ لأن أهل مكة آزدروا محمدا صلى الله عليه وسلم وأستخفوا به ؛ لأنه ولد فيهم كما أن فرعون آزدري موسى ؛ لأنه رباه ونشأ فيما بينهم ، كما قال تعالى : **« أَلَمْ نُزَكِّبْكَ فِينَا وَلِيدًا »** . قال المهدوى : ودخلت الألف واللام في الرسول لتقدم ذكره ؛ ولذلك آختر في أول الكتب سلام عليكم وفي آخرها السلام عليكم . **(وَبِيلاً)** أى ثقيلًا شديدًا وضرب وبيل وعذاب وبيل أى شديد ، قاله ابن عباس ومجاهد . ومنه مطروابل أى شديد ؛ قاله الأخفش . وقال الزجاج : **أى ثقيلًا غليظًا** . ومنه قبيل للطروابل . وقيل : مهلكا [والمعنى عاقبناه عقوبة غليظة] قال :

أَكَلْتِ بَيْنِكَ أَكْلَ الضَّبِّ حَتَّى • وَجَدْتِ مَرَارَةَ الْكَلْبِ الْوَبِيلِ

وآستوبل فلان كذا أى لم يحمده عاقبته . وماء وبيل ؛ أى وخيم غير مرى ، وكلاً مستوبل وطعام وبيل ومستوبل إذا لم يمرى ولم يستمرأ ؛ قال زهير :

(١) الزيادة من حاشية الجمل نقلها عن القرطبي ونص بأنها عبارته .

فَقَضَوْا مَنَآيَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ أَصْدَرُوا * إِلَى كَلْبٍ مُّسْتَوْبِلٍ مُّسَوِّخٍ

وقالت الخنساء :

لَقَدْ أَكَلْتُ بِجِيلَةَ يَوْمَ لَاقَتْ * فَوَارِسَ مَالِكِ أَكْلًا وَيَسْلًا

والوبيل أيضا العصا الضخمة ؛ قال :

لَوْ أَصْبَحَ فِي يُمْنِي يَدَيَّ زِمَامُهَا * وَفِي كَفِّي الْأَنْحَرَى وَيَبِيلٌ مُّحَازِرُهُ

وكذلك الموبل بكسر الباء ، والموبلة أيضا الحزمة من الحطب ، وكذلك الويسل ؛

قال طرفة :

* عَقِيلَةُ شَيْخٍ كَالْوَبِيلِ يَلْنَدِدُ^(١) .

قوله تعالى : (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا) هو توبيخ وتقريع .
 أى كيف تتقون العذاب إن كفرتم . وفيه تقديم وتأخير ؛ أى كيف تتقون يوما يجعل
 الولدان شيبا إن كفرتم . وكذا قراءة عبد الله وعطية . قال الحسن : أى باى صلاة تتقون
 العذاب ؟ باى صوم تتقون العذاب ؟ . وفيه إضمار ؛ أى كيف تتقون عذاب يوم .
 وقال قتادة : والله ما يتقى من كفر بالله ذلك اليوم بشيء . و « يوما » مفعول بـ « تتقون »
 على هذه القراءة وليس بظرف ، وإن قدر الكفر بمعنى الجحود كان اليوم مفعول « كفرتم » .
 وقال بعض المفسرين : وقف التمام على قوله « كفرتم » والابتداء « يوما » يذهب إلى أن اليوم
 مفعول « يجعل » والفعل لله عز وجل ، وكأنه قال : يجعل الله الولدان شيبا فى يوم . قال
 ابن الأنبارى : وهذا لا يصلح ؛ لأن اليوم هو الذى يفعل هذا من شدة هوله . المهدوى :
 والضمير فى « يجعل » يجوز أن يكون لله عز وجل ، ويجوز أن يكون لليوم ، وإذا كان لليوم
 صلح أن يكون صفة له ، ولا يصلح ذلك إذا كان الضمير لله عز وجل إلا مع تقدير حذف ؛
 كأنه قال : يوما يجعل الله الولدان فيه شيبا . ابن الأنبارى : ومنهم من نصب اليوم

(١) يندد شديد الحسوة . وصدر البيت :

* فرت كهاة ذات عجب جلالة *

بـ « كفرتهم » وهذا قبيح ؛ لأن اليوم إذا علق بـ « كفرتهم » أحتاج إلى صفة . أى كفرتهم بيوم . فإن أحتاج محتج بأن الصفة قد تحذف وينصب ما بعدها ، أحتججنا عليه بقراءة عبد الله « فَكَيْفَ تَتَّقُونَ يَوْمًا » .

قلت : هذه القراءة ليست متواترة ، وإنما جاءت على وجه التفسير . وإذا كان الكفر بمعنى الجحود فـ « يوما » مفعول صريح من غير صفة ولا حذفها ؛ أى فكيف تتقون الله وتحشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء . وقرأ أبو السَّهْمَالِ قَعْنَبُ « فكيف تتقون » بكسر النون على الإضافة . و « الْوَالِدَانِ » الصبيان . وقال السدي : هم أولاد الزنى . وقيل : أولاد المشركين . والعموم أصح ؛ أى يشيب فيه الصغير من غير كبر . وذلك حين يقال : « يا آدم قم فأبعث بعث النار » . على ما تقدم في أول سورة « الحج »^(١) . قال القشيري : ثم إن أهل الجنة يغير الله أحوالهم وأوصافهم على ما يريد . وقيل : هذا ضرب مثل لشدة ذلك اليوم وهو مجاز ؛ لأن يوم القيامة لا يكون فيه ولدان ، ولكن معناه أن هيئة ذلك اليوم بحال لو كان فيه هناك صبي لشاب رأسه من الهيبة . ويقال : هذا وقت الفرع ، وقبل أن ينفخ في الصور نفخة الصعق ؛ فالله أعلم . الزمخشري : وقد مر بي في بعض الكتب أن رجلا أمسى فاحم الشعر كحكك الغراب ، فأصبح وهو أبيض الرأس والهيئة كالثغامة ، فقال : أريت القيامة والجنة والنار في المنام ، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار ، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون . ويجوز أن يوصف اليوم بالطول ، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب .

قوله تعالى : (الْمَاءُ مُنْقَطِرٌ بِهِ) أى متشقة لشدته . ومعنى « بِهِ » أى فيه ؛ أى فى ذلك اليوم لهوله . هذا أحسن ما قيل فيه . ويقال : مثقلة به إنقالا يؤدى إلى أنفطارها لعظمتها عليها وخشيتها من وقوعه ؛ كقوله تعالى : « نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » . وقيل « بِهِ » أى له أى لذلك اليوم ؛ يقال : فعلت كذا بحرمتك ولحرمتك والباء واللام وفى مقاربة فى مثل هذا الموضع ؛ قال الله تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » أى فى يوم القيامة . وقيل : « بِهِ » أى بالأمر أى السماء منقطر بما يجعل الولدان شيئا .

(١) راجع ج ١٢ ص ٢ فا بعدها .

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنْ رَبُّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ﴾ هذه الآية تفسير لقوله تعالى : « قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ » كما تقدم ، وهي النسخة لفرضية قيام الليل كما تقدم . « تَقُومُ » معناه تصلى و ﴿ أَدْنَى ﴾ أى أقل . وقرأ ابن السَّمِيعِ وَأَبُو حِيوة وهشام عن أهل الشام ﴿ تُلْتَى ﴾ بإسكان اللام . ﴿ وَنِصْفِهِ وَتُلْتَى ﴾ بالخفض قراءة العامة عطفا على « تُلْتَى » ؛ المعنى : تقوم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه وثلثه . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ كقوله تعالى : « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ » فكيف يقومون نصفه أو ثلثه وهم لا يحصونه . وقرأ ابن كثير والكوفيون « وَنِصْفَهُ وَتُلْتَى » بالنصب عطفا على « أَدْنَى » التقدير : تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه . قال الفراء : وهو أشبه بالصواب ؛ لأنه قال أقل من الثلثين ، ثم ذكر نفس القليلة لا أقل من القليلة . القشيري : وعلى هذه القراءة يحتمل أنهم كانوا يصيبون الثلث والنصف ؛ لخفة القيام عليهم بذلك القدر ، وكانوا يزيدون وفي الزيادة إصابة المقصود ، فأما الثلثان فكان يثقل عليهم قيامه فلا يصيبونه وينقصون منه . ويحتمل أنهم أمروا بقيام نصف الليل ، ورخص لهم في الزيادة والنقصان ، فكانوا يتهمون في الزيادة إلى قريب من الثلثين وفي النصف إلى الثلث . ويحتمل أنهم قدر لهم النصف وأنقص إلى الثلث والزيادة إلى الثلثين ، وكان فيهم من يفى بذلك ، وفيهم من يترك ذلك إلى أن نسخ عنهم . وقال قوم : إنما افترض الله عليهم الربع وكانوا ينقصون من الربع . وهذا القول تحكم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى يعلم مقادير الليل والنهار على حقائقها ، وأتم تعلمون بالتحزى والاجتهاد الذى يقع فيه الخطأ . ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ ﴾ أى لن تطبقوا معرفة حقائق ذلك والقيام به . وقيل : أى لن تطبقوا قيام الليل . والأقول أصح ؛ فإن قيام الليل ما فرض كله قط . قال مقاتل وغيره : لما نزلت « قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ

(١) في نسخة : قال القاسم .

أَوْ أَنْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدَ عَلَيْهِ « شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي مَتَى نِصْفُ اللَّيْلِ مِنْ ثَلَاثَةٍ ، فَيَقُومُ حَتَّى يَصْبِحَ مَخَافَةَ أَنْ يَخْطِئَ ، فَأَنْتَفِخَتْ أَقْدَامُهُمْ ، وَأَنْتَفَعَتِ أَلْوَانُهُمْ ، فَرَحِمَهُمُ اللَّهُ وَخَفَّفَ عَنْهُمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : « عِلْمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ » وَ « أَنْ » مَخْفَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ ؛ أَيْ عِلْمَ أَنَّكُمْ لَنْ تَحْصَوْهُ ؛ لِأَنَّكُمْ إِنْ زِدْتُمْ ثِقَلَ عَلَيْكُمْ ، وَأَحْتَجَمْتُمْ إِلَى تَكْلِيفِ مَا لَيْسَ فَرَضًا ، وَإِنْ نَقَصْتُمْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ .

الثالثة - قوله تعالى : (فَتَابَ عَلَيْكُمْ) أى فعاد عليكم بالعفو، وهذا يدل على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به . وقيل : أى فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم . وأصل التوبة الرجوع كما تقدم ؛ فالمعنى رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف ، ومن عسر إلى يسر . وإنما أمروا بحفظ الأوقات على طريق التحزى ، نخفف عنهم ذلك التحزى . وقيل : معنى « وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » يخلقهما مقدرين ؛ كقوله تعالى : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا » . ابن العربي : تقدير الحلقة لا يتعلق به حكم ، وإنما يربط الله به ما يشاء من وظائف التكليف .

الرابعة - قوله تعالى : (فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) فيه قولان : أحدهما أن المراد نفس القراءة ؛ أى فأقروا فيما تصلون به بالليل ما خفف عليكم . قال السدى : مائة آية . الحسن : من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجه القرآن . وقال كعب : من قرأ في ليلة مائة آية كتب من القانتين . وقال سعيد : خمسون آية .

قلت : قول كعب أصح ؛ لقوله عليه السلام : « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين »^(١) نرجه أبو داود الطيالسي في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو . وقد ذكرناه في مقدمة الكتاب^(٢) والحمد لله .

القول الثانى : (فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ) أى فصلوا ما تيسر عليكم والصلاة تسمى قرآنا ؛ كقوله تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ » أى صلاة الفجر . ابن العربي : وهو الأصح ؛ لأنه عن الصلاة أخبر وإليها يرجع القول .

(٢) راجع ج ١ ص ٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(١) أى أعطى من الأجر فنتارا .

قلت : الأول أصح حملا للخطاب على ظاهر اللفظ ، والقول الثاني مجاز فإنه من تسمية الشيء ببعض ما هو من أعماله .

الخامسة - قال بعض العلماء قوله تعالى : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّر مِنْهُ » نسخ قيام الليل ونصفه والنقصان من النصف والزيادة عليه . ثم احتمل قول الله عز وجل : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّر مِنْهُ » معنيين أحدهما أن يكون فرضا ثانيا ؛ لأنه أزيل به فرض غيره . والآخر أن يكون فرضا منسوخا أزيل بغيره كما أزيل به غيره ؛ وذلك لقوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » فأحتمل قوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ » أى يتهدد بغير الذى فرض عليه مما تيسر منه . قال الشافعى : فكان الواجب طلب الاستدلال بالسنة على أحد المعنيين ، فوجدنا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على أن لا واجب من الصلاة إلا الخمس .

السادسة - قال القشيري أبو نصر : والمشهور أن نسخ قيام الليل كان فى حق الأمة ، وبقيت الفريضة فى حق النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : نسخ التقدير بمقدار وبقى أصل الوجوب ؛ كقوله تعالى : « فَمَا اسْتيسَّرَ مِنَ الْهَدْيِ » فالهدى لا بد منه ، كذلك لم يكن بد من صلاة الليل ، ولكن فوض قدره إلى اختيار المصلى ؛ وعلى هذا فقد قال قوم : فرض قيام الليل بالليل باق . وهو مذهب الحسن . وقال قوم : نسخ بالكلية فلا تجب صلاة الليل أصلا . وهو مذهب الشافعى . ولعل الفريضة التى بقيت فى حق النبى صلى الله عليه وسلم هى هذا ، وهو قيامه ومقداره مفوض إلى خيرته . وإذا ثبت أن القيام ليس فرضا فقوله تعالى : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّر مِنْهُ » معناه أقرءوا إن تيسر عليكم ذلك وصلوا إن شئتم . وصار قوم إلى أن النسخ بالكلية تقرّر فى حق النبى صلى الله عليه وسلم أيضا ، فما كانت صلاة الليل واجبة عليه . وقوله : « نَافِلَةً لَكَ » محمول على حقيقة النفل . ومن قال : نسخ المقدار وبقى أصل وجوب قيام الليل ثم نسخ ، فهذا النسخ الثانى وقع ببيان مواقيت الصلاة ؛ كقوله تعالى : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ » وقوله : « فَسَبِّحْ أَنْ لَيْلٍ تَمْسُونَ وَحِينَ

تُصْبِحُونَ » وما في الخبر من أن الزيادة على الصلوات الخمس تطوع . وقيل : وقع النسخ بقوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ » والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة ، كما أن فرضية الصلاة وإن خوطب بها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ . قُمْ اللَّيْلَ » كانت عامة له ولغيره . وقد قيل : إن فرضية الليل أمتدت إلى ما بعد الهجرة ونسخت بالمدينة ؛ لقوله تعالى : « عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وإنما فرض القتال بالمدينة ؛ فعلى هذا بيان المواقيت جرى بمكة فقيام الليل نسخ بقوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ » . وقال ابن عباس : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نسخ قول الله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ » وجوب صلاة الليل .

السابعة - قول الله تعالى : (عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى) الآية ؛ بين سبحانه علة تخفيف قيام الليل ، فإن الخلق منهم المريض ويشق عليهم قيام الليل ، ويشق عليهم أن تفوتهم الصلاة ، والمسافر في التجارات قد لا يطيق قيام الليل ، والمجاهد كذلك تخفف الله عن الكل لأجل هؤلاء . و « أَنْ » في « أَنَّ سَيَكُونُ » مخففة من الثقيلة ؛ أي علم أنه سيكون .

الثامنة - سوى الله تعالى في هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين المال الحلال للنفقة على نفسه وعياله والإجسان والإفضال ، فكان هذا دليلا على أن كسب المال بمنزلة الجهاد ؛ لأنه جمعه مع الجهاد في سبيل الله . وروى إبراهيم عن علقمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من جالب يجلب طعاما من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهداء » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » وقال ابن مسعود : أيما رجل جاب شيئا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا ، فباعه بسعر يومه كان له عند الله منزلة الشهداء . وقرأ « وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ » الآية . وقال ابن عمر : ما خلق الله موتة أموتها بعد الموت في سبيل الله أحب إلى من الموت بين شعبي رحلي أبتغي من

فضل الله ضاربا في الأرض . وقال طاوس : الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله . وعن بعض السلف أنه كان بواسط ، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله : يبع الطعام يوم تدخل البصرة ، ولا تؤخره إلى غد ، فوافق سعة في السعر ، فقال التجار للوكيل : إن آخرته جمعة ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة فربح فيه أمثاله ، فكتب إلى صاحبه بذلك ، فكتب إليه صاحب الطعام : يا هذا ! إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وقد جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال وتصدق به على فقراء البصرة ، وليتني أنجو من الاحتكار كفافا لا على ولا لى . وروى أن غلاما من أهل مكة كان ملازما للمسجد ، فافتقده ابن عمر ، فمشى إلى بيته فقالت أمه : هو على طعام له يبيعه ، فلقبه فقال له : يا بنى ! مالك وللطعام ؟ فهلا إبلا ، فهلا بقرا ، فهلا غنما : إن صاحب الطعام يحب المحل ، وصاحب المشاة يحب الغيث .

التاسعة - قوله تعالى : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسر مِنْهُ » أى صلوا ما أمكن ، فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسر ، ثم نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس على ما تقدم . قال ابن العربي : وقد قال قوم إن فرض قيام الليل سن في ركعتين من هذه الآية ، قاله البخارى وغيره ، وعقد بابا ذكر فيه حديث " يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ فَإِنْ آسْتَيْقِظَ فَذَكَرَ اللَّهَ آنَحَلَتْ عُقْدَةٌ فَإِنْ تَوَضَّأَ آنَحَلَتْ عُقْدَةٌ فَإِنْ صَلَّى آنَحَلَتْ عُقْدَهُ كُلَّهَا فَأَصْبَحَ نَشِيْطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانَ " وذكر حديث سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم في الرؤيا قال : " أما الذى يُثَلِّغُ رَأْسَهُ بِالْحَجْرِ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ " وحديث عبد الله بن مسعود قال : ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل ينام الليل كله فقال : " ذلك رجل بال الشيطان في أذنيه " فقال ابن العربي : فهذه أحاديث مقتضية حمل مطلق الصلاة على المكتوبة فيحمل المطلق على المقيد ، لأحتماله له ، وتسقط الدعوى ممن عينه

(١) قافية الرأس مؤخره ، وقيل : وسطه ؛ أراد تنقيه في النوم وإطائه .

(٢) التلغ : وهو ضربك الشيء الرطب بالشيء اليابس حتى ينشخ . (٣) يرفضه : يتركه .

لقيام الليل . وفي الصحيح واللفظ للبخاري : قال عبد الله بن عمرو ، قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل “ ولو كان فرضا ما أقره النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه ، بل كان يذمه غاية الذم . وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر قال : كان الرجل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى رؤيا قصها على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكنت غلاما شابا عزبا ، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار ، فإذا هي مطوية كطى البئر ، وإذا لها قرنان ، وإذا فيها ناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار . قال : ولقينا ملك آخر ، فقال لي : لم ترع^(١) . فقصصتها على حفصة ، فقصصتها حفصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ” نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل “ فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلا ، فلو كان ترك القيام معصية لما قال له الملك : لم ترع . والله أعلم .

العاشرة - إذا ثبت أن قيام الليل ليس بفرض ، وأن قوله : « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » . « فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ » محمول على ظاهره من القراءة في الصلاة ، فأختلف العلماء في قدر ما يلزمه أن يقرأ به في الصلاة ، فقال مالك والشافعي : فاتحة الكتاب لا يجزئ العدول عنها ولا الأقتصار على بعضها ، وقدره أبو حنيفة بآية واحدة من آي القرآن كانت . وعنه ثلاث آيات ، لأنها أقل سورة . ذكر القول الأول الماوردي والثاني ابن العربي . والصحيح ما ذهب إليه مالك والشافعي على ما بيناه في سورة « الفاتحة^(٢) » أول الكتاب والحمد لله . وقيل : إن المراد به قراءة القرآن في غير الصلاة ، قال الماوردي : فعلى هذا يكون مطلق هذا الأمر محمولا على الوجوب ، أو على الاستحباب دون الوجوب . وهذا قول الأكثرين ، لأنه لو وجب عليه أن يقرأه لوجب عليه أن يحفظه . الثاني أنه محمول على الوجوب ، ليقف بقراءته على إعجازه ، وما فيه من دلائل التوحيد وبعث الرسل ، ولا يلزمه إذا قرأه وعرف إعجازه ودلائل

(١) لم ترع : لا روع ولا خوف عليك بعد ذلك . (٢) راجع ج ١ ص ١٢٢ طبعة ثانية أمانة .

التوحيد منه أن يحفظه؛ لأن حفظ القرآن من القرب المستحبة دون الواجبة . وفي قدر ما تضمنه هذا الأمر من القراءة خمسة أقوال : أحدها جميع القرآن؛ لأن الله تعالى يسره على عباده؛ قاله الضحاك . الثاني ثلث القرآن؛ حكاه جويبر . الثالث مائتا آية؛ قاله السدي . الرابع مائة آية؛ قاله ابن عباس . الخامس ثلاث آيات كأقصر سورة؛ قاله أبو خالد الكناfi . الحادية عشرة – قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ يعني المفروضة وهي الخمس لوقتها . ﴿ وَأَتُوا الزَّكَاةَ ﴾ الواجبة في أموالكم؛ قاله عكرمة وقتادة . وقال الحرث العكلى : صدقة الفطر لأن زكاة الأموال وجبت بعد ذلك . وقيل : صدقة التطوع . وقيل : كل أفعال الخير . وقال ابن عباس : طاعة الله والإخلاص له .

الثانية عشرة – قوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ القرض الحسن ما قصد به وجه الله تعالى خالصاً من المال الطيب . وقد مضى في سورة « الحديد »^(١) بيانه . وقال زيد بن أسلم : القرض الحسن النفقة على الأهل . وقال عمر بن الخطاب : هو النفقة في سبيل الله . الثالثة عشرة – ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ تقدم في سورة « البقرة »^(٢) . وروى عن عمر بن الخطاب أنه أخذ حيساً – يعني تمرًا بلبن – فجاءه مسكين فأخذه ودفعه إليه . فقال بعضهم : ما يدري هذا المسكين ما هذا؟ فقال عمر : لكن رب المسكين يدري ما هو . وكأنه تأول « وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ » أي مما تركتم وخلقتم ، ومن الشح والتقصير . ﴿ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ قال أبو هريرة : الجنة؛ ويحتمل أن يكون أعظم أجراً؛ لإعطائه بالحسنة عشرًا . ونصب « خيراً وأعظم » على المفعول الثاني لـ « تَجِدُوهُ » و « هو » فصل عند البصريين ، وعماد في قول الكوفيين لا محل له من الإعراب . و « أجراً » تمييز . ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ أي سلوه المغفرة لذنوبكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لما كان قبل التوبة ﴿ رَجِيمٌ ﴾ لكم بعدها؛ قاله سعيد بن جبير . ختمت السورة .

(١) راجع ج ١٧ ص ٢٥٢

(٢) راجع ٢ ص ٧٣ طبعة ثانية .

سورة المدثر

مكية في قول الجميع وهي ست وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾
وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى ؛ (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) أى يا ذا الذى قد تدثر بثيابه ، أى تغشى بها
ونام ، وأصله المتدثر فأدغمت التاء في الدال لتجانسهما . وقرأ أبى « المتدثر » على الأصل .
وقال مقاتل : معظم هذه السورة في الوليد بن المغيرة . وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله
وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدث — قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي — قال في حديثه : ” فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من
السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بجراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض “
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” بَقِيْتُ مِنْهُ فَرَقًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمَلُونِي زَمَلُونِي
فَدَثَرُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ” (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ . وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّحْزَ
فَأَنْجُرْ) “ في رواية — قبل أن تفرض الصلاة — وهى الأوثان قال : ” ثم تتابع الوحي “
نحجه الترمذى أيضا وقال : حديث حسن صحيح . قال مسلم : وحدثنا زهير بن حرب ،
قال : حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدثنا الأوزاعي قال : سمعت يحيى يقول : سألت
أبا سلمة أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » فقلت : أو « اقرأ » فقال :

(١) جثت أى فرغت وخفت وفي رواية جثت بناءً على معناه .

سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبل ؟ قال : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » فقلت : أو « أقرأ » فقال جابر : أحدثكم ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « جاورت بحراء شهرا فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادي فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحدا ثم نوديت فنظرت فلم أر أحدا ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء - يعني جبريل صلى الله عليه وسلم - فأخذتني رجفة شديدة فأبيت خديجة فقلت دثروني فدثروني فصبوا علي ماء فأنزل الله عز وجل « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ . وَيَا بَيْتَكَ فَطَهِّرْ » خرجه البخاري وقال فيه : « فأبيت خديجة فقلت دثروني وصبوا علي ماء باردا فدثروني وصبوا علي ماء باردا فنزلت « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ . وَيَا بَيْتَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ تَسْتَكْبِرُ » . ابن العربي : وقد قال بعض المفسرين إنه جرى على النبي صلى الله عليه وسلم من عقبه [بن ربيعة] ^(١) أمر فرجع إلى منزله مغموما ، فقلق وأضطجع فنزلت : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » وهذا باطل . وقال القشيري أبو نصر : وقيل بلغه قول كفار مكة أنت ساحر فوجد من ذلك غما وحما فدثر بتيابه ، فقال الله تعالى : « قُمْ فَأَنْذِرْ » أي لا تفكر في قولهم وبلغهم الرسالة . وقيل : أجمع أبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وأميمة بن خلف والعاص بن وائل ومطيم بن عدى وقالوا : قد اجتمعت وفود العرب في أيام الحج ، وهم يتساءلون عن أمر محمد وقد اختلفتم في الإخبار عنه ؛ فمن قائل يقول مجنون ، وآخر يقول كاهن ، وآخر يقول شاعر ، وتعلم العرب أن هذا كله لا يجتمع في رجل واحد ، فسموا محمدا بأسم واحد يجتمعون عليه وتسميه العرب به ، فقام منهم رجل فقال : شاعر ؛ فقال الوليد : سمعت كلام ابن الأبرص وأميمة بن أبي الصلت ، وما يشبه كلام محمد ككلام واحد منهما ؛ فقالوا : كاهن . فقال : الكاهن يصدق ويكذب وما كذب محمد قط ؛ فقام آخر فقال : مجنون ؛ فقال الوليد : المجنون يخفق الناس وما خفق محمد قط . وأنصرف الوليد إلى بيته فقالوا : صبا الوليد بن المغيرة ؛ فدخل عليه أبو جهل وقال : مالك يا أبا عبد شمس !

(١) الزيادة من ابن العربي .

هذه قريش تجمع لك شيئاً يعطونك، زعموا أنك قد آحجت وصبأت . فقال الوليد : مالى إلى ذلك حاجة، ولكنى فكرت فى عهد، فقلت : ما يكون من الساحر؟ فقيل : يفرق بين الأب وأبنة ، وبين الأخ وأخيه، وبين المرأة وزوجها، فقلتُ : إنه ساحر . شاع هذا فى الناس وصاحوا يقولون : إن عهدا ساحر . ورجع رسول الله صلى عليه وسلم إلى بيته محزوناً فتدثر بقطيفة، ونزلت : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » . وقال عكرمة : معنى « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » أى المدثر بالنبوة وأنقالها . آبن العربى : وهذا مجاز بعيد؛ لأنه لم يكن تنبأ بعد . وعلى أنها أول القرآن لم يكن تمكن منها بعد أن كانت ثانى ما نزل .

الثانية - قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ » ملاطفة فى الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذا ناداه بحاله ، وعبر عنه بصفته، ولم يقل يا عهد ويا فلان ليستشعر اللين والملاطفة من ربه كما تقدم فى سورة « المزمل » . ومثله قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلى إذ نام فى المسجد : « قم أبا تراب » وكان نرج مغاضباً لفاطمة رضى الله عنها فسقط رداءه وأصابه ترابه؛ خرج مسلم . ومثله قوله عليه الصلاة والسلام لحذيفة ليلة الخندق : « قم يا نومان » وقد تقدم .

الثالثة - قوله تعالى : « قُمْ فَأَنْذِرْ » أى خوف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا . وقيل : الإنذار هنا إعلامهم بنبوته؛ لأنه مقدمة الرسالة . وقيل : هو دعائهم إلى التوحيد؛ لأنه المقصود بها . وقال الفراء : قم فصل وأمر بالصلاة .

الرابعة - قوله تعالى : « وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ » أى سيدك ومالكك ومصالح أمرك فعظم، ووصفه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد . وفى حديث أنهم قالوا : بم تفتح الصلاة؟ فنزلت « وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ » أى وصفه بأنه أكبر . قال ابن العربى : وهذا القول وإن كان يقتضى بعمومه تكبير الصلاة ، فإنه مراد فيه تكبير التقديس والتنزيه بخلع الأنداد والأصنام دونه، ولا تتخذ ولياً غيره ، ولا تعبد سواه ، ولا ترى لغيره فعلاً إلا له ، ولا نعمة إلا منه ؛ وقد روى أن أبا سفيان قال يوم أحد : أعلُّ هبل ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قولوا الله أعلُّ وأجلُّ » وقد صار هذا اللفظ يعرف الشرع فى تكبير العبادات كلها أذانا

وصلاة وذكره بقوله : « الله أكبر » وحمل عليه لفظ النبي صلى الله عليه وسلم الوارد على الإطلاق في مواردها ؛ منها قوله : « تحريمها التكبير وتحليلها التسليم » والشرع يقتضى بعرفه ما يقتضى بعمومه ، ومن موارد الإهلال بالذبايح لله تخلصاً له من الشرك ، وإعلاناً باسمه في النسك ، وإفراداً لما شرع منه لأمره بالسفك .

قلت : قد تقدّم في أول سورة « البقرة »^(١) أن هذا اللفظ « الله أكبر » هو المتعبد به في الصلاة ، المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم . وفي التفسير : إنه لما نزل قوله تعالى « وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ » قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « الله أكبر » فكبرت خديجة وعلمت أنه الوحي من الله تعالى ؛ ذكره القشيري .

الخامسة - الفاء في قوله تعالى : « وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ » دخلت على معنى جواب الجزاء كما دخلت في « فَأَنْذِرْ » أى قم فانذر وقم فكبر ربك ؛ قاله الزجاج . وقال ابن جنى : هو كقولك زيدا فأضرب ؛ أى زيدا أضرب ، فالفاء زائدة .

السادسة - قوله تعالى : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » فيه ثمانية أقوال : أحدها أن المراد بالثياب العمل . الثانى القلب . الثالث النفس . الرابع الجسم . الخامس الأهل . السادس الخلق . السابع الدين . الثامن الثياب الملبوسات على الظاهر . فمن ذهب إلى القول الأول قال : تأويل الآية وعملك فأصلح ؛ قاله مجاهد وابن زيد . وروى منصور عن أبي رزين قال : يقول وعملك فأصلح ؛ قال : وإذا كان الرجل خبيث العمل قالوا إن فلانا خبيث الثياب ، وإذا كان حسن العمل قالوا إن فلانا طاهر الثياب ؛ ونحوه عن السدى . ومنه قول الشاعر :

لاهُمَّ إِنَّ عَامِرَ بْنَ جَهْمٍ * أَوْذَمَ حَجًّا فِي ثِيَابٍ دُسِمِ^(٢)

(١) راجع ج ١ ص ١٧٥ .

(٢) ثياب دسم : ومخنة ؛ ونمى البيت : أنه حج وهو متدنس بالذنوب . وأوذم الحج أوجب .

ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يُحْشَرُ الْمَرْءُ فِي تَوْبِهِ الَّذِينَ مَاتَ عَلَيْهِمَا " يعني عمله الصالح والطالح ؛ ذكره الماوردي . ومن ذهب إلى القول الثاني قال : إن تأويل الآية وقلبك فطهر ؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ؛ دليله قول امرئ القيس :

* فَسَلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِي ^(١) *

أى قلبي من قلبك . قال الماوردي : ولهم في تأويل الآية وجهان ؛ أحدهما - معناه وقلبك فطهر من الإثم والمعاصي ؛ قاله ابن عباس وقتادة . الثاني - وقلبك فطهر من الغدر ؛ أى لا تغدر فتكون دنس الثياب . وهذا مروى عن ابن عباس ، وأستشهد بقول غيلان بن سلمة الثقفي :

فإني بحمد الله لا توبَ فاجر * لِبِسْتُ وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

ومن ذهب إلى القول الثالث قال : تأويل الآية ونفسك فطهر ؛ أى من الذنوب . والعرب تكنى عن النفس بالثياب ؛ قاله ابن عباس . ومنه قول عنترة :

فَشَكَّكْتُ بِالرَّيْحِ الطَّوِيلِ ثِيَابَهُ * لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَاءِ بِمُحَرَّمِ

وقال امرؤ القيس :

* فَسَلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِي *

وقال ^(٢) :

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ * وَأَوَجُّهُمُ بِيضُ الْمَسَافِرِ غُرَانُ

أى أنفس بني عوف . ومن ذهب إلى القول الرابع قال : تأويل الآية وجسمك فطهر ؛ أى عن المعاصي الظاهرة . ومما جاء عن العرب في الكناية عن الجسم بالثياب قول ليلى ، وذكرت إبلا :

رَمَوْهَا بِأَثْيَابٍ خِفَافٍ فَلَا تَرَى * لَهَا شَبَهَا إِلَّا النَّعَامَ الْمُتَفَرِّا

(١) صدر البيت : * وإن كنت قد ساءت من خلقة *

(٢) نسب المؤلف هذا البيت فيما سبأني لابن أبي كبشة مرة ولأمرئ القيس مرة أخرى ، وفي « اللسان »

و « شرح القاموس » أنه لأمرئ القيس ولم نعثر عليه في ديوانه ، وقد نسب ابن العربي لابن أبي كبشة .

أى ركبوها فرموها بأنفسهم . ومن ذهب إلى القول الخامس قال : تأويل الآية وأهلك فطهرهم من الخطايا بالوعظ والتأديب ؛ والعرب تسمى الأهل ثوبا ولباسا وإزارا ؛ قال الله تعالى : «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ» . الماوردي : ولهم في تأويل الآية وجهان ؛ أحدهما - معناه ونساءك فطهر باختيار المؤمنات العفائف . الثانى - الاستمتاع بهن فى القبل دون الدبر، فى الطهر لا فى الحيض . حكاه ابن بحر . ومن ذهب إلى القول السادس قال : تأويل الآية وخلقك فحسن . قاله الحسن والقرطبي ؛ لأن خلق الإنسان مشتمل على أحواله أشتمال ثيابه على نفسه . وقال الشاعر :

وَيَجِيءُ لَا يُلَامُ بِسُوءِ خُلُقِي * وَيَجِيءُ طَاهِرُ الْأَثْوَابِ حُرُّ

أى حسن الأخلاق . ومن ذهب إلى القول السابع قال : تأويل الآية ودينك فطهر . وفى الصحيحين عنه عليه السلام قال : «ورأيت الناس وعليهم ثياب منها ما يبلغ الثدى ومنها ما دون ذلك ورأيت عمر بن الخطاب وعليه إزار يجزئه» . قالوا : يا رسول الله فما أقلت ذلك ؟ قال : الدين . وروى ابن وهب عن مالك أنه قال : ما يعجبني أن أقرأ القرآن إلا فى الصلاة والمساجد لا فى الطرق، قال الله تعالى : «وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ» يريد مالك أنه كنى عن الثياب بالدين . وقد روى عبد الله بن نافع عن أبى بكر بن عبد العزيز بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب عن مالك بن أنس فى قوله تعالى : «وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ» أى لا تلبسها على غدره ؛ ومنه قول أبى كبشة :

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى تَقِيَّةٌ * وَأَوْجُهُهُمْ بِيضُ الْمَسَافِرِ غُرَانُ

يعنى بطهارة ثيابهم سلامتهم من الدناءات، ويعنى بغيره وجوههم تنزيههم عن المحرمات، أو جمالهم فى الحلقة أو كليهما؛ قاله ابن العربى . وقال سفيان بن عيينة : لا تلبس ثيابك على كذب ولا جور ولا غدر ولا إثم ؛ قاله عكرمة . ومنه قول الشاعر :

* أَوْدَمَ حَجًّا فى ثِيَابِ دُمِيمٍ *

أى قد دنسها بالمعاصى . وقال النابغة :

رِقَاقُ النَّعَالِ طَيِّبٌ مُجْزَأَتُهُمْ * يُحْيُونَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ^(١)

ومن ذهب إلى القول الثامن قال : إن المراد بها الثياب الملبوسات فلهم في تأويله أربعة أوجه ؛ أحدهما — معناه وثيابك فأنقى ؛ ومنه قول امرئ القيس :

* ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى قِيَّةً *

الثاني — وثيابك فشمرو وقصّر ؛ فإن تقصير الثياب أبعدهم من النجاسة ، فإذا أنجرت على الأرض لم يؤمن أن يصيبها ما ينجسها ؛ قاله الزجاج وطاوس . الثالث — « وَثِيَابَكَ فَطَهَّرْ » من النجاسة بالماء ؛ قاله محمد بن سيرين وابن زيد والفقهاء . الرابع — لا تلبس ثيابك إلا من كسب حلال لتكون مطهرة من الحرام . وعن ابن عباس : لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طاهر . ابن العربي وذكر بعض ما ذكرناه : ليس بممتنع أن تحمل الآية على عموم المراد فيها بالحقيقة والمجاز ، وإذا حملناها على الثياب المعلومة الطاهرة فهي نتناول معنيين : أحدهما — تقصير الأذيال ؛ لأنها إذا أرسلت تدنست ، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغلام من الأنصار وقد رأى ذيله مسترخيا : أرفع إزارك فإنه أتقى وأنقى وأبقى . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ لَا جَنَاحَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ وَمَا كَانَ أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ فَفِي النَّارِ » فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الغاية في لباس الإزار الكعب وتوعد ما تحته بالنار ، فما بال رجال يرسلون أذيالهم ويطلقون ثيابهم ، ثم يتكفون رفعها بأيديهم ، وهذه حالة الكبر ، وقائدة العجب ، [وأشد ما في الأمر أنهم يعصون وينجسون ويلحقون أنفسهم]^(٢) بمن لم يجعل الله معه غيره ولا ألحق به سواه . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا » ولفظ الصحيح : « مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ خِيَلًا » لم ينظر الله إليه يوم القيامة . قال أبو بكر : يا رسول الله ! إن أحد

(١) البيت من قصيدة مدح بها عمرو بن الحرث النساني . وأراد برقاق النعال أنهم ملوك لا يخضعون نعالهم ، وبطييب مجزأتهم عفتهم . والسباسب يوم « المعانين » وهو يوم عيد عند النصارى وكان المدوح نصرانيا .

(٢) الإزرة بالكسر : الحالة وهبة الأتزار .

(٣) الزيادة من ابن العربي .

شقي إزارى يسترخى إلا أنى أتعاهد ذلك منه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لست ممن يصنعه خيلاء " فعم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنهى وأستثنى الصديق ، فأراد الأديباء إلحاق أنفسهم بالرفعاء^(١) ، وليس ذلك لهم . والمعنى الثانى - غسلها من النجاسة وهو ظاهر منها صحيح فيها . المهديون : وبه أستدل بعض العلماء على وجوب طهارة الثوب ؛ قال ابن سيرين وابن زيد : لا تصل إلا فى ثوب طاهر . وأحتج بها الشافعى على وجوب طهارة الثوب . وليست عند مالك وأهل المدينة بفرض ، وكذلك طهارة البدن ، ويدل على ذلك الإجماع على جواز الصلاة بالاستحجار من غير غسل . وقد مضى هذا القول فى سورة « براءة »^(٢) مستوفى .

قوله تعالى : وَالرَّجْزَ فَأَهْجُرَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : (وَالرَّجْزَ فَأَهْجُرَ) قال مجاهد وعكرمة : يعنى الأوثان ؛ دليله قوله تعالى : « فَأَجْتَنَّبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » وقاله ابن عباس وابن زيد . وعن ابن عباس أيضا : والمأثم فأهجر؛ أى فأنزك . وكذا روى مغيرة عن إبراهيم النخعى قال : الرجز الإثم . وقال قتادة : الرجز إساءة ونائلة صمنان كانا عند البيت . وقيل : الرجز العذاب على تقدير حذف المضاف ؛ المعنى وعمل الرجز فأهجر ، أو العمل المؤدى إلى العذاب . وأصل الرجز العذاب ، قال الله تعالى : « لئن كَشَفْتِ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ » وقال تعالى : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ » فسميت الأوثان رجزا ؛ لأنها تؤدى إلى العذاب . وقراءة العامة « الرَّجْزَ » بكسر الراء . وقرأ الحسن وعكرمة ومجاهد وابن محيصن وحفص عن عاصم . « وَالرَّجْزَ » بضم الراء وهما لغتان مثل الذك والذكور . وقال أبو العالية والربيع والكسائى : الرجز بالضم الصنم وبالكسر النجاسة والمعصية . وقال الكسائى أيضا : بالضم الوثن وبالكسر العذاب . وقال السدى : الرجز بنصب الراء الوعيد^(٣) .

(١) فى ابن العربى : بالأفصاء . (٢) راجع ج ٨ ص ٢٦١ فابعدا .

(٣) قوله بنصب الراء ... كذا فى نسخ الأهل ولم يظفر به فى المراجع التى بأيدينا .

قوله تعالى : وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْثِرُ ﴿١٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْثِرُ) فيه أحد عشر تأويلاً؛ الأول — لا تمنن على ربك بما تتحمله من أثقال النبوة ، كالذي يستكثر ما يتحمله بسبب الغير . الثاني — لا تعط عطية تلمس بها أفضل منها ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة . قال الضحاك : هذا حرمه الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق ، وأباحه لأمته ؛ وقاله مجاهد . الثالث — عن مجاهد أيضاً : لا تضعف أن تستكثر من الخير ؛ من قولك حبل متين إذا كان ضعيفاً ؛ ودليله قراءة ابن مسعود « وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْثِرُ مِنَ الْخَيْرِ » . الرابع — عن مجاهد أيضاً والربيع : لا تعظم عملك في عينك أن تستكثر من الخير فإنه مما أنعم الله عليك . قال ابن كيسان : لا تستكثر عملك فتراه من نفسك ، إنما عملك منة من الله عليك ؛ إذ جعل الله لك سبيلاً إلى عبادته . الخامس — قال الحسن : لا تمنن على الله بعملك فتستكثره . السادس — لا تمنن بالنبوة والقرآن على الناس فتأخذ منهم أجراً تستكثره . السابع — قال القرظي : لا تعط مالك مصانعة . الثامن — قال زيد بن أسلم : إذا أعطيت عطية فأعطها لربك . التاسع — لا تقل دعوت فلم يستجب لي . العاشر — لا تعمل طاعة وتطلب ثوابها ، ولكن أصبر حتى يكون الله هو الذي يشيك عليها . الحادي عشر — لا تفعل الخير لترأى به الناس .

الثانية — هذه الأقوال وإن كانت مرادة فأظهرها قول ابن عباس : لا تعط لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال ؛ يقال : مننت فلانا كذا أى أعطيته . ويقال للعطية المنّة ؛ فكأنه أمر بأن تكون عطاياها لله لا لأرتقاب ثواب من الخلق عليها ؛ لأنه عليه السلام ما كان يجمع الدنيا ؛ ولهذا قال : ” ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم ” وكان ما يفضل من نفقة عياله مصروفاً إلى مصالح المسلمين ؛ ولهذا لم يورث ؛ لأنه كان لا يملك لنفسه الآذخار والافتناء ، وقد عصمه الله تعالى عن الرغبة في شيء من

الدنيا ؛ ولذلك حرمت عليه الصدقة وأباحت له الهدية ، فكان يقبلها ويشيب عليها . وقال :
 « لو دعيت إلى كراع^(١) لأجبت ولو أهدى إلى ذراع لقبلت » ابن العربي : وكان يقبلها
 سنة ولا يستكثرها شرعة ، وإذا كان لا يعطى عطية يستكثرها فالأغنياء أولى بالاجتناب ؛
 لأنها باب من أبواب المذلة ، وكذلك قول من قال : إن معناها لا تعطى عطية تنتظر ثوابها ،
 فإن الانتظار تعلق بالأطعام ، وذلك في حيزه بحكم الامتناع ، وقد قال الله تعالى له :
 « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ
 خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » وذلك جائز لسائر الخلق ؛ لأنه من متاع الدنيا ، وطلب المكسب والتكاثر بها .
 وأما من قال أراد به العمل أي لا تمنن بعملك على الله فتستكثره فهو صحيح ؛ فإن ابن آدم
 لو أطاع الله عمره من غير فتور لما بلغ لنعم الله بعض الشكر .

الثالثة - قوله تعالى : « وَلَا تَمُنُّ » قراءة العامة بإظهار التضعيف . وقرأ أبو السَّمَّالِ
 العدوي وأشهب العقيلي والحسن « وَلَا تَمُنُّ » مدغمة مفتوحة . « تَسْتَكْثِرُ » قراءة العامة
 بالرفع وهو في معنى الحال ، تقول : جاء زيد يركض أي راكضا ؛ أي لا تعط شيئا مقدرا
 أن تأخذ بدله ما هو أكثر منه . وقرأ الحسن بالجزم على جواب النهي وهو رديء ؛ لأنه
 ليس بجواب . ويجوز أن يكون بدلا من « تَمُنُّ » كأنه قال : لا تستكثر . وأنكره أبو حاتم
 وقال : لأن المن ليس بالاستكثار فيبدل منه . ويحتمل أن يكون سكن تخفيفا كعضد .
 أو أن يعتبر حال الوقف . وقرأ الأعمش ويحيى « تَسْتَكْثِرَ » بالنصب توهم لام كي كأنه
 قال : ولا تمنن لتستكثر . وقيل : هو بإضمار « أن » كقوله^(٢) :

« أَلَا أَيُّهَا الرَّاحِرِيُّ أَحْضِرِ الْوَعَىٰ »

ويؤيده قراءة ابن مسعود « وَلَا تَمُنُّ أَنْ تَسْتَكْثِرَ » . قال الكسائي : فإذا حذف « أن »
 رفع وكان المعنى واحدا . وقد يكون المن بمعنى التعداد على المنعم عليه بالنعم ، فيرجع إلى

(١) الكراع بوزان غراب وهو مستدق الساق من الرجل . وهو من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الفرس والبعير .

(٢) البيت لطرفة بن العبد من معلقته وتماهه :

* وأن أشهد الذات هل أنت مخلدى *

القول [الثاني] ^(١)، وَيَعُضِدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى» وقد يكون مراداً في هذه الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

قوله تعالى : (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) أى ولسيدك ومالكك فأصبر على أداء فرائضه وعبادته . وقال مجاهد : على ما أوديت . وقال ابن زيد : حلت أمراً عظيماً ؛ محاربة العرب والمعجم فأصبر عليه لله . وقيل : فأصبر تحت موارد القضاء لأجل الله تعالى . وقيل : فأصبر على البسوى ؛ لأنه يمتحن أولياءه وأصفياه . وقيل : على أوامره ونواهيه . وقيل : على فراق الأهل والأوطان .

قوله تعالى : فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ

عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ) إذا نفخ في الصور . والناقور فاعول من النقر ؛ كأنه الذى من شأنه أن ينقر فيه للتصويت ، والنقر في كلام العرب الصوت ؛ ومنه قول امرئ القيس :

أَخْفَضُهُ بِالنَّقْرِ لَمَّا عَـلَوْتُهُ • وَرَفَعُ طَرْفًا غَيْرَ خَافٍ غَضِيضٍ

وهم يقولون : نقر بأسم الرجل إذا دعاه مختصاً له بدعائه . وقال مجاهد وغيره : هو كهيئة البوق ويعنى به النفخة الثانية . وقيل : الأولى ؛ لأنها أول الشدة الهائلة العامة . وقد مضى الكلام في هذا مستوفى في «النمل» و «الأنعام» وفي كتاب «التذكرة» والحمد لله . وعن أبي حبان قال : أمنا زراًة بن أوفى فلما بلغ «فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ» نحرمتنا . (فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ) أى فذلك اليوم يوم شديد (عَلَى الْكَافِرِينَ) أى على من كفر

(١) زيادة يقتضها المعنى . (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٣٩ فأهداها . (٣) راجع ج ٧ ص ٢٠

بالله وبأبيائه صلى الله عليهم (غير يسير) أى غير سهل ولا هين؛ وذلك أن عقدهم لا تنحل إلا إلى عقدة أشد منها، بخلاف المؤمنين الموحدين المذنبين فإنها تنحل إلى ما هو أخف منها حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى . و «يومئذ» نصب على تقدير فذلك يوم عسير يومئذ . وقيل : جرّ بتقدير حرف جرّ مجازه : فذلك فى يومئذ . وقيل : يجوز أن يكون رفعا إلا أنه جى على الفتح لإضافته إلى غير متمكن .

قوله تعالى : ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) «ذَرْنِي» أى دعنى ؛ وهى كلمة وعيد وتهديد . «وَمَنْ خَلَقْتُ» أى دعنى والذى خلقته وحيدا ؛ فد«وَحِيدًا» على هذا حال من ضمير المفعول المحذوف ؛ أى خلقته وحده لا مال له ولا ولد، ثم أعطيته بعد ذلك ما أعطيته . والمفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، وإن كان الناس خلقوا مثل خلقته . وإنما خص بالذكر لأختصاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول عليه السلام، وكان يسمى الوحيد فى قومه . قال ابن عباس : كان الوليد يقول أنا الوحيد بن الوحيد ليس لى فى العرب نظير، ولا لأبى المغيرة نظير، وكان يسمى الوحيد؛ فقال الله تعالى : «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ» بزعمه «وَحِيدًا» لا أن الله تعالى صدقه بأنه وحيد . وقال قوم : إن قوله تعالى «وَحِيدًا» يرجع إلى الرب تعالى على معنيين ؛ أحدهما - ذرنى وحدى معه فأنا أجزيك فى الانتقام منه عن كل منتقم . والثانى - أنى أتفردت بخلقته ولم يشركنى فيه أحد، فأنا أهلكه ولا أحتاج إلى ناصر فى إهلاكه ؛ فد«وَحِيدًا» على هذا حال من ضمير الفاعل وهو التاء فى «خَلَقْتُ» والأول قول مجاهد ؛ أى خلقته وحيدا فى بطن أمه لا مال له ولا ولد فأنعمت عليه فكفر ؛ فقوله «وَحِيدًا» على هذا يرجع إلى الوليد ؛ أى لم يكن له شىء فملكته . وقيل : أراد بذلك ليدله على أنه يبعث وحيدا

كما خلق وحيدا . وقيل : الوحيد الذي لا يُعرف أبوه وكان الوليد معروفا بأنه دعى به كما ذكرنا في قوله تعالى : « عُنْتُ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ » وهو في صفة الوليد أيضا .

قوله تعالى : (وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا) أى خولته وأعطيته مالا ممدودا ، وهو ما كان للوليد بين مكة والطائف من الإبل والحجور والنعم والحنان والعييد والجوارى ؛ كذا كان ابن عباس يقول . وقال مجاهد : غلة ألف دينار ؛ وقاله سعيد بن جبيرة وابن عباس أيضا . وقال قتادة : ستة آلاف دينار . وقال سفيان الثوري وقتادة : أربعة آلاف دينار . الثوري أيضا : ألف ألف دينار . مقاتل : كان له بستان لا ينقطع خيره شتاء ولا صيفا . وقال عمر رضى الله عنه : « وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا » غلة شهر بشهر . النعمان بن سالم : أرضا يزرع فيها . الفشيري : والأظهر أنه إشارة إلى ما لا ينقطع رزقه ، بل يتوالى كالزرع والضرع والتجارة .

قوله تعالى : (وَبَيْنَ شُهُودًا) أى حضورا لا يغيبون عنه في تصرف . قال مجاهد وقتادة : كانوا عشرة . وقيل : آثنا عشر ؛ قاله السدي والضحاك . قال الضحاك : سبعة ولدوا بمكة ونحسة ولدوا بالطائف . وقال سعيد بن جبيرة : كانوا ثلاثة عشر ولدا . مقاتل : كانوا سبعة كلهم رجال ؛ أسلم منهم ثلاثة ؛ خالد وهشام والوليد بن الوليد . قال : فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك . وقيل : شهودا ؛ أى إذا ذكر ذكروا معه ؛ قاله ابن عباس . وقيل : شهودا ؛ أى قد صاروا مثله في شهود ما كان يشهده ، والقيام بما كان يباشره . والأول قول السدي ؛ أى حاضرين مكة لا يظعنون عنه في تجارة ولا يغيبون . قوله تعالى : (وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا) أى بسطت له في العيش بسطا حتى أقام ببلدته مطمئنا مترفها يرجع إلى رأيه . والتمهيد عند العرب التوطئة والتهيئة ومنه مهَّد الصبي . وقال ابن عباس : « وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » أى وسعت له ما بين اليمن والشام ؛ وقاله مجاهد . وعن مجاهد أيضا في « مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا » أنه المال بعضه فوق بعض كما يمهد الفراش .

(١) في نسخة : لا يتبين .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ أى ثم إن الوليد يطمع بعد هذا كله أن أزيده في المال والولد . ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس يكون ذلك مع كفره بالنعم . وقال الحسن وغيره : أى ثم يطمع أن أدخله الجنة ، وكان الوليد يقول : إن كان مجد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لي ؛ فقال الله تعالى رداً عليه وتكذيباً له « كَلَّا » أى لست أزيده ، فلم يزل يرى نقصان في ماله وولده حتى هلك . و « ثُمَّ » في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ ﴾ ليست بتم التي للنسق ولكنها تعجيب ؛ وهى كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدُونَ ﴾ وذلك كما تقول : أعطيتك ثم أنت تجفوني كالمعجب من ذلك . وقيل : يطمع أن أترك ذلك في عقبه ؛ وذلك أنه كان يقول : إن مجداً مبتوراً أى أبترو وينقطع ذكره بموته . وكان يظن أن ما رزق لا ينقطع بموته . وقيل : أى ثم يطمع أن أنصره على كفره . و « كَلَّا » قطع للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة ؛ فيكون متصلاً بالكلام الأول . وقيل : « كَلَّا » بمعنى حقاً ويكون ابتداءً . ﴿ إِنَّهُ ﴾ يعنى الوليد ﴿ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى معانداً للنبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به ؛ يقال : عانده فهو عنيده مثل جالس فهو جالس ؛ قاله مجاهد . وعنده يعنيد بالكسر أى خالف ورد الحق وهو يعرفه فهو عنيده وعانده . والعانيد البعير الذى يجور عن الطريق ويمدل عن القصد والجمع عند مثل راكع وركع ؛ وأنشد أبو عبيدة قول الحارثي :

إِذَا رَكِبْتُ فَأَجْعَلَانِي وَسَطًا * إِنِّي كَبِيرٌ لَا أُطِيقُ الْعُنْدَا

وقال أبو صالح : « عَنِيدًا » معناه مباعداً ، قال الشاعر :

أَرَانَا عَلَى حَالٍ تَفَرَّقُ بَيْنَنَا * نَوَى غَرَبَةً^(٢) إِنِّ الْفِرَاقُ عُنُودٌ

قناة : جاحداً . مقاتل : معرضاً . ابن عباس : جحوداً . وقيل : إنه المجاهر بعدوانه . وعن مجاهد أيضاً قال : مجانباً للحق معانداً له معرضاً عنه . والمعنى كله متقارب . والعرب تقول : عند الرجل إذا عتا وجاوز قدره . والعنود من الإبل الذى لا يخالط الإبل إنما هو في ناحية . ورجل عنود إذا كان يحل وحده لا يخالط الناس . والعنيد من التجبر . وعرق

(١) رواية لسان العرب : * إذا رحلت فاجعلوني وسطاً *

(٢) نوى غربة : بعيدة .

عاند إذا لم يرقأ دمه ، كل هذا قياس واحد وقد مضى في سورة « إبراهيم ^(١) » . وجمع العنيد عند مثل رفيف ورغف .

قوله تعالى : (سَأَرْهِقُهُ) أى سأكلفه . وكان ابن عباس يقول : سألجئه ، والإرهاق فى كلام العرب أن يُحمل الإنسان على الشيء . (صَعُودًا) « الصُّعُودُ جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفًا ثم يهوى به كذلك فيه أبداً » رواه أبو سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أخرجه الترمذى وقال فيه حديث غريب . وروى عطية عن أبي سعيد قال : صخرة فى جهنم إذا وضعوا عليها أيديهم ذابت فإذا رفعوها عادت ، قال : فيبلغ أعلاها فى أربعين سنة يجذب أمامه بسلاسل و يضرب من خلفه بمقامع ، حتى إذا بلغ أعلاها رمى به إلى أسفلها ، فذلك دأبه أبداً . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « قُلْ أُوحِيَ » . وفى التفسير : إنه صخرة ملساء يكاف صعودها فإذا صار فى أعلاها حدر فى جهنم ، فيقوم يهوى ألف عام من قبل أن يبلغ قرار جهنم ، يحترق فى كل يوم سبعين مرة ثم يعاد خلقاً جديداً . وقال ابن عباس : المعنى سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيه . ونحوه عن الحسن وقتادة . وقيل : إنه تصاعد نفسه للزرع وإن لم يتعقبه موت ، ليعذب من داخل جسده كما يعذب من خارجه .

قوله تعالى : إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَأَسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ) يعنى الوليد فكر فى شأن النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن . و « قَدَرَ » أى هيا الكلام فى نفسه ، والعرب تقول : قدرت الشيء إذا هيأته ، وذلك أنه لما نزل « حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » إلى قوله « إليه المصير » سمعه الوليد يقرؤها فقال : والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ،

(١) راجع ج ٩ ص ٣٤٩ (٢) راجع ص ١٨ فابعداً من هذا الجزء .

وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أملاه لثمير ، وإن أسفله لمغديق ، وإنه ليعلو ولا يُعلّى عليه ، وما يقول هذا بشر . فقالت قريش : صبا الوليد لتصبون قريش كلها . وكان يقال للوليد ربحانة قريش ؛ فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه فمضى إليه حزينا ؟ فقال له : مالي أراك حزينا . فقال له : ومالي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي شحافة لتنال من فضل طعامهما ، فغضب الوليد وتكبر وقال : أنا أحتاج إلى كسر محمد وصاحبه ، فأتم تعرفون قدر مالي ، والآلات والعزى ما بي حاجة إلى ذلك ، وإنما أتم تزعمون أن محمدا مجنون ، فهل رأيتموه قط يخنق ؟ . قالوا : لا والله . قال : وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه نطق بشعر قط ؟ قالوا : لا والله . قال : فتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه كذبا قط ؟ قالوا : لا والله . قال : فتزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط ، ولقد رأينا للكهنة أسجاءا وتخالجا فهل رأيتموه كذلك ؟ قالوا : لا والله . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسمى الصادق الأمين من كثرة صدقه . فقالت قريش للوليد : فما هو ؟ ففكر في نفسه ، ثم نظر ، ثم عبس ، فقال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ ! فذلك قوله تعالى : « إِنَّهُ فَكَّرَ » أي في أمر محمد والقرآن « وَقَدَّرَ » في نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما . (فَقْتَلَ) أي لعن . وكان بعض أهل التأويل يقول : معناها فقهر وغلب ، وكل مُدَّللٌ مُقْتَلٌ ؛ قال الشاعر :

وما ذرّفت عينك إلا لتقدحني * بسهميك في أعشار قلبٍ مُقتلٍ

وقال الزهري : عُدْبٌ ؛ وهو من باب الدعاء . (كَيْفَ قَدَّرَ) قال ناسٌ : « كيف » تعجب ؛ كما يقال للرجل تتعجب من صنيعه : كيف فعلت هذا ؟ وذلك كقوله : « أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ » . (ثُمَّ قُتِلَ) أي لعن لعنا بعد لعن . وقيل : فقتل بضرب من العقوبة ، ثم قتل بضرب آخر من العقوبة (كَيْفَ قَدَّرَ) أي على أي حال قدر . (ثُمَّ نَظَرَ) أي شئء يرد الحق ويدفعه . (ثُمَّ عَبَسَ) أي قَطَبَ بين عينيه في وجوه المؤمنين ؛ وذلك

(١) هو أمرؤ القيس .

أنه لما حمل قريشا على ما حملهم عليه من القول في محمد صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر مرت على جماعة من المسلمين فدعوه إلى الإسلام فعبس في وجوههم . وقيل : عبس وبسر على النبي صلى الله عليه وسلم حين دعاه . والعبس مصدر عَبَسَ يَعْبَسُ عَبَسًا وَعُبُوسًا إِذَا قَطَبَ . والعبس ما يتعلق بأذنان الإبل من أبعارها وأبوالها ؛ قال أبو النجيم :

كَانَتْ فِي أَذْنَيْهِ الشُّوْلُ * مِنْ عَبَسِ الصَّيْفِ قُرُونِ الْأَيْلِ

(وبسر) أى كَلَحَ وجهه وتغير لونه ؛ قاله قتادة والسدي ؛ ومنه قول بشر بن أبي خازم :

صَبَحْنَا تَمِيمًا غَدَاةَ الْجِفَارِ ^(١) * بِشَبَاءٍ مَلْمُومَةٍ بِاسِرَةٍ

وقال آخر ^(٢) :

وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْهَا صُدُودَ رَأَيْتُهُ * وَإِعْرَاضُهَا عَنْ حَاجَتِي وَبُسُورُهَا

وقيل : إن ظهور العبوس في الوجه بعد المحاورة ، وظهور البسور في الوجه قبل المحاورة . وقال قوم : بسر وقف لا يتقدم ولا يتأخر . قالوا : وكذلك يقول أهل اليمن إذا وقف المركب فلم يبحى ولم يذهب قد بسر المركب وأبسر أى وقف وقد أبسرنا . والعرب تقول : وجه باسر بين البسور إذا تغير وأسود . (ثُمَّ أَدْبَرَ) أى ولى وأعرض ذاهبا إلى أهله . (وَأَسْتَكْبَرَ) أى تعظم عن أن يؤمن . وقيل : أدبر عن الإيمان وأستكبر حين دعى إليه . (فَقَالَ إِنَّ هَذَا) أى ما هذا الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم (إِلَّا سِحْرٌ يُوَثَّرُ) أى يآثره عن غيره . والسحر الخديعة وقد تقدم بيانه في سورة « البقرة » . وقال قوم : السحر إظهار الباطل في صورة الحق . والأثر مصدر قولك : أثرت الحديث آثره إذا ذكرته عن غيرك ؛ ومنه قيل : حديث مأثور أى ينقله خلف عن سلف ؛ قال امرؤ القيس :

(١) الجفار : موضع . وقيل هو ماء لبني تميم . (٢) هو توبة بن الحرير . وزاد بعض النسخ بعد هذا

البيت ما يأتي كحاشية : « قوله بشباء أراد بكنية شباء ومنه قول عنزة :

وكنيبة لبسها بكنيبة * شباء باسلة يخاف رداها

و يقال : كنيبة ملهبة وملهومة أيضا أى مجتمعة مضموم بعضها إلى بعض . وصخرة ملهومة وملهبة أى مستديرة

صلبة ، قاله الجوهري . (٣) راجع ج ٢ ص ٤٣ فابدها .

ولو عن نسا غيره جاءني * وجرح اللسان بجرح اليد

لقلت من القول ما لا يزا * ل يؤثر عني يد المسند^(١)

يريد آخر الدهر . وقال الأعشى :

إن الذي فيه تماريما^(٢) * بين السامع والآثر

ويروى بين . (إن هذا إلا قول البشر) أي ما هذا إلا كلام المخلوقين يخندع به القلوب كما تخندع بالسحر . قال السدي : يعنون أنه من قول سيار عبد لبي الحضرمي ، كان يجالس النبي صلى الله عليه وسلم فنسبوه إلى أنه تعلم منه ذلك . وقيل : أراد أنه تلقنه من أهل بابل . وقيل : عن مسيلمة . وقيل : عن عدى الحضرمي الكاهن . وقيل : إنما تلقنه ممن ادعى النبوة قبله فنسج على منوالهم . قال أبو سعيد الضرير : إن هذا إلا سحر يؤثر أي يورث .

قوله تعالى : سَأْصَلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (سَأْصَلِيهِ سَقَرَ) أي سأدخله سقر كي يصلح حرما . وإنما سميت سقر من سقرته الشمس إذا أذابتة ولوحته وأحرقته جلدة وجهه . ولا ينصرف للتعريف والتأنيث . قال ابن عباس : هي الطبقة السادسة من جهنم ، وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "سأل موسى ربه فقال أي رب أي عبادك أفقر فقال صاحب سقر" ذكره الثعلبي : (وما أدراك ما سقر) هذه مبالغة في وصفها ، أي وما أعلمك أي شيء هي ، وهي كلمة تعظيم ، ثم فسر حالها فقال : (لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ) أي لا تترك لهم عظام ولا لحما ولا دما إلا أحرقته .

(١) يقول : لو أتاني هذا النبا عن حديث غيره لقلت قولا يشيع في الناس و يؤثر عن آخر الدهر . والناس ما يحدث به من خروثر . والمسند الدهر .

(٢) الذي في ديوان الأعشى طبع أوربا : تداريما .

(٣) في بعض النسخ : من قول أبي اليسر سيار .

وكرر اللفظ تأكيذا . وقيل : لا تبق منهم شيئا ، ثم يعادون خلقا جديدا ، فلا تذر أن تعاود
إحراقهم هكذا أبدا . وقال مجاهد : لا تبق من فيها حيا ولا تذرهم ميتا تحرقهم كلما جددوا .
وقال السدي : لا تبق لهم لحما ولا تذر لهم عظام . (لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ) أى مُغَيَّرَةٌ من لآحه إذا غيَّره .
وقراءة العامة « لَوْاحَةٌ » بالرفع نعت لـ «سَقَرُ» فى قوله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ » .
وقرأ عطية العوفى ونصر بن عاصم وعيسى بن عمير « لَوْاحَةٌ » بالنصب على الاختصاص
للتهويل . وقال أبو رزين : تلفح وجوههم لفحة تدعها أشد سوادا من الليل ؛ وقاله مجاهد .
والعرب تقول : لآحه البرد والحرق والسقم والحزن إذا غيَّره ؛ ومنه قول الشاعر :

تَقُولُ مَا لآحَكَ يَا مُسَافِرٌ * يَا بِنْتَ عَمِّى لآحَنِى الْهَوَاجِرُ^(١)

وقال آخر :

وَتَعْجَبُ هِنْدٌ أَنْ رَأَتْنى شَاحِبًا * تَقُولُ لَشَيْءٍ لَوْحَتُهُ السَّمَائِمُ^(٢)

وقال رؤبة بن العجاج :

لَوْحٌ مِنْهُ بَعْدَ بَدْنٍ وَسَنَقٌ * تَلْوِيحَكَ الضَّامِرُ يَطْوَى لِلْسَّبَقِ^(٣)

وقيل : إن اللوح شدة العطش ؛ يقال : لآحه العطش ولوَّحه أى غيَّره . والمعنى أنها مُعْطِشَةٌ
للشئ أى لأهلها ؛ قاله الأخفش ، وأنشد :

سَقَنى عَلَى لَوْحٍ مِنَ الْمَاءِ شَرِبَةً * سَقَاها بِهَا اللهُ الرَّهَامَ الْغَوادِيا

يعنى باللوح شدة العطش ، والتاح أى عطش . والرَّهَامُ جمع رِهْمَةٍ بالكسروهى المطرة الضعيفة ،
وأرهمت السحابة أنت بالرَّهَامِ . وقال ابن عباس : «لَوْاحَةٌ» أى تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة
عام . الحسن وابن كيسان : تلوح لهم جهنم حتى يروها عيانا ؛ نظيره : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ »

(١) الهواجر جمع هاجرة وهى شدة الحر عند منتصف النهار .

(٢) السائم جمع سموم وهى الريح الحارة .

(٣) لوحه السفر غيره وأضره والبدن السمن واكنزاز اللحم . والسبق التسبغ حتى يكون كالنخمة . الضامر :

الفرس . يطوى يجوع لأجل السباق .

وفي البشر وجهان : أحدهما - أنه الإنس من أهل النار ؛ قاله الأخفش والأكثرون .
الثاني - أنه جمع بشرة وهي جلدة الإنسان الظاهرة ؛ قاله مجاهد وقتادة . وجمع البشر أبتشار
وهذا على التفسير الأول ، وأما على تفسير ابن عباس فلا يستقيم فيه إلا الناس لا الجلود ؛
لأنه من لاح الشيء يُلوح إذا لمع .

قوله تعالى : عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ
إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى
لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) أي على سقر تسعة عشر من الملائكة يلقون فيها أهلها .
ثم قيل : على حملة النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها ؛ مالك وثمانية عشر ملكا .
ويحتمل أن تكون التسعة عشر نقيبا ، ويحتمل أن يكون تسعة عشر ملكا بأعيانهم .
وعلى هذا أكثر المفسرين . الثعلبي : ولا ينكر هذا ، فإذا كان ملك واحد يقبض أرواح
جميع الخلائق كان أحرى أن يكون تسعة عشر على عذاب بعض الخلائق . وقال ابن جريج :
نعت النبي صلى الله عليه وسلم خزنة جهنم . فقال : ” فكأن أعينهم البرق وكان أفواههم
الصياصي يجزون أشعارهم لأحدهم من القوة مثل قوة الثقلين يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته
جبل فيرميهم في النار ويرى فوقهم الجبل ” .

قلت : وذكر ابن المبارك قال حدثنا حماد بن سلمة ، عن الأزرق بن قيس ، عن رجل من بني تميم قال : كنا عند أبي العوام فقرا هذه الآية « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوْ آحَاةٌ لِلْبَشِيرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » فقال ما تسعة عشر ؟ تسعة عشر ألف ملك أو تسعة عشر ملكا ؟ قال قلت : لا بل تسعة عشر ملكا . فقال : وأنى تعلم ذلك ؟ فقلت : لقول الله عز وجل : « وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » قال : صدقت هم تسعة عشر ملكا بيد كل ملك منهم مرزبة لها شعبتان فيضرب الضربة فيهوى بها في النار سبعين ألفا . وعن عمرو بن دينار : كل واحد منهم يدفع بالدفع الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر . وخرج الترمذي عن جابر بن عبد الله قال : قال ناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم ؟ قالوا : لا ندرى حتى نسأل نبينا . فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد غلب أصحابك اليوم ، فقال : « وبم غلبوا » قال : سألمهم يهود هل يعلم نبيكم عدد خزنة جهنم قال : « فماذا قالوا » قال : قالوا لا ندرى حتى نسأل نبينا . قال : « أفغلب قوم سألوا عما لا يعلمون فقالوا لا نعم حتى نسأل نبينا لكنهم قد سألوا نبيهم فقالوا أرنا الله جهرة على بأعداء الله إني سألهم عن تربة الجنة وهي الدرهمك » فلما جاءوا قالوا : يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم ؟ قال : « هكذا وهكذا » في مرة عشرة وفي مرة تسعة . قالوا : نعم . قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « ما تربة الجنة » قال : فسكنوا هنية ثم قالوا : أخبزة يا أبا القاسم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الخبز من الدرهمك » قال أبو عيسى : هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد عن الشعبي عن جابر . وذكر ابن وهب قال : حدثنا عبد الرحمن بن زيد ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خزنة جهنم : « ما بين منكب أحدهم كما بين المشرق والمغرب » . وقال ابن عباس : ما بين منكب الواحد منهم مسيرة سنة ، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم .

(١) المرزبة عصبة من حديد والمطرقة الكبيرة التي للحداد .

قلت: والصحيح إن شاء الله أن هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء، وأما جملتهم فالعبارة تعجز عنها كما قال الله تعالى: «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ». وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى عليه وسلم: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجزونها». وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: لما نزل «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة جهنم تسعة عشر، وأنتم الدّهم - أي العدد - والشجعان، فيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم! قال السدي: فقال أبو الأشد بن كلدة الجُمحى لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرّون إلى الجنة. يقولها مستهزئاً. في رواية: إن الحرث بن كلدة قال أنا أكفيكم سبعة عشر وأكفوني أتم اثنين. وقيل: إن أبا جهل قال أيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي لم نجعلهم رجالاً فتعاطون مغالبتهم. وقيل: جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعدّين من الجن والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرفقة ولا يستروحون إليهم، ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له فتؤمن هوادتهم، ولأنهم أشد خلق الله بأساً وأقواهم بطشاً. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي بلية. وروى عن ابن عباس من غير وجه قال: ضلالة للذين كفروا يريد أبا جهل وذويه. وقيل: إلا عذاباً، كما قال تعالى: «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ. ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ» أي جعلنا ذلك سبب كفرهم وسبب العذاب. وفي «تِسْعَةَ عَشَرَ» سبع قراءات: قراءة العامة «تِسْعَةَ عَشَرَ». وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وطلحة بن سليمان «تِسْعَةَ عَشَرَ» بإسكان العين. وعن ابن عباس «تِسْعَةُ عَشَرَ» بضم الهاء.

(١) ورد في الأصول ست قراءات فقط ولعل السابعة قراءة سليمان بن قنة «تسعة عشر» بضم التاء وهمزة مفتوحة وسكون العين وضم الشين وجر الراء. وتعقب السمين هذه القراءات فقال: «في هذه الكلمة قراءات شاذة وتوجيهات نساكها».

وعن أنس بن مالك « تِسْعَةٌ وَعَشْرٌ » وعنه أيضا « تِسْعَةٌ وَعَشْرٌ » . وعنه أيضا « تِسْعَةٌ
 أَعْشُرٌ » ذكرها المهدوي وقال : من قرأ « تِسْعَةَ عَشَرَ » أسكن العين لتوالي الحركات .
 ومن قرأ « تِسْعَةَ وَعَشْرَ » جاء به على الأصل قبل التركيب ، وعطف عشرا على تسعة ،
 وحذف التنوين لكثرة الاستعمال ، وأسكن الراء من عشر على نية السكوت عليها . ومن قرأ
 « تِسْعَةَ عَشْرَ » فكأنه من التداخل ؛ كأنه أراد العطف وترك التركيب فرفع هاء التانيث
 ثم راجع البناء وأسكن . وأما « تِسْعَةُ أَعْشُرَ » فغير معروف ، وقد أنكرها أبو حاتم .
 وكذلك « تِسْعَةٌ وَعَشْرٌ » لأنها محمولة على « تِسْعَةُ أَعْشُرَ » والواو بدل من الهمزة وليس
 لذلك وجه عند النحويين . الزمخشري : وقرئ « تِسْعَةُ أَعْشُرَ » جمع عَشِيرٍ مثل يَمِينٍ
 وَأَيْمَنُ .

قوله تعالى : (لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) أى ليوثقن الذين أعطوا التوراة والإنجيل
 أن عدد خزنة جهنم موافقة لما عندهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك ومجاهد وغيرهم .
 ثم يحتمل أنه يريد الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام . ويحتمل أنه يريد الكل .
 (وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا) بذلك ؛ لأنهم كلما صدقوا بما فى كتاب الله آمنوا ، ثم أزدادوا
 إيمانا لتصدقهم بعدد خزنة جهنم . (وَلَا يَرْتَابَ) أى ولا يشك (الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ)
 أى أعطوا الكتاب (وَالْمُؤْمِنُونَ) أى المصدقون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى أن
 عدد خزنة جهنم تسعة عشر . (وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) أى فى صدورهم شك
 ونفاق من منافق أهل المدينة ، الذين ينجُمون فى مستقبل الزمان بعد الهجرة ، ولم يكن بمكة
 نفاق وإنما نجم بالمدينة . وقيل : المعنى ؛ أى وليقول المنافقون الذين ينجُمون فى مستقبل
 الزمان بعد الهجرة . (وَالْكَافِرُونَ) أى اليهود والنصارى (مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا) يعنى
 بعدد خزنة جهنم . وقال الحسين بن الفضل : السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق ؛ فالمرض
 فى هذه الآية الخلاف و « الْكَافِرُونَ » أى مشركو العرب . وعلى القول الأول أكثر المفسرين .
 ويجوز أن يراد بالمرض الشك والارتياب ؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم

قاطعين بالكذب، وقوله تعالى إخباراً عنهم : «مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ» أى ما أراد الله «بِهَذَا» العدد الذى ذكره حديثاً أى ما هذا من الحديث ؛ قال الليث : المثل الحديث ؛ ومنه «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ» أى حديثها والخبر عنها (كَذَلِكَ) أى كإضلال الله أبا جهل وأصحابه المنكرين لخزنة جهنم (يُضِلُّ اللَّهُ) أى ينجزى ويعمى (مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي) أى ويرشد (مَنْ يَشَاءُ) كإرشاد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : «كذلك يضل الله» عن الجنة «مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي» إليها «مَنْ يَشَاءُ» . (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) أى وما يدري عدد ملائكة ربك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار «إِلَّا هُوَ» أى إلا الله جل ثناؤه . وهذا جواب لأبي جهل حين قال : أما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر؟! وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم غنائم حنين ، فاتاه جبريل بفلس عنده ، فأتى ملك فقال : إن ربك يأمرك بكذا وكذا، فخشى النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون شيطانا، فقال : «يا جبريل أتعرفه» فقال : هو ملك وما كل ملائكة ربك أعرف . وقال الأوزاعي قال موسى : «يا رب من فى السماء قال ملائكتي قال كم عدتهم يا رب قال اثني عشر يسبوا قال كم عدّة كل يسبوا قال عدد التراب» . ذكرهما الثعلبي . وفى الترمذى عن النبي صلى الله عليه وسلم : «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَيْسَطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعَ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جِهَتَهُ لِهَذَا سَاجِدًا» .

قوله تعالى : (وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشِيرِ) يعنى الدلائل والحجج والقرآن . وقيل : «وَمَا هِيَ» أى وما هذه النار التى هى سقر «إِلَّا ذِكْرَى» أى عظة «لِلْبَشِيرِ» أى للخلق . وقيل : نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة . قاله الزجاج . وقيل : أى ما هذه العدة «إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشِيرِ» أى ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله تعالى ، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار ؛ فالكتابة على هذا فى قوله تعالى : «وَمَا هِيَ» ترجع إلى الجنود ؛ لأنه أقرب مذكور .

قوله تعالى : كَلَّا وَالْقَمَرَ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ
 إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ
 مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾
 إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾
 مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ
 نُنْطَعِ الْمَسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ
 بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّفَاعِينَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : (كَلَّا وَالْقَمَرَ) قال الفراء : « كَلَّا » صلة للقسم ، التقدير أى والقمر .
 وقيل : المعنى ؛ حقا والقمر فلا يوقف على هذين التقديرين على « كَلَّا » وأجاز الطبري الوقف
 عليها ، وجعلها ردا للذين زعموا أنهم يقاومون خزنة جهنم ؛ أى ليس الأمر كما يقول من زعم
 أنه يقاوم خزنة النار . ثم أقسم على ذلك جل وعز بالقمر وبما بعده فقال : (وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ)
 أى ولى وكذلك « دبر » . وقرأ نافع وحمزة وحفص « إِذَا أَدْبَرَ » الباقون « إذا » بألف و« دبر »
 بغير ألف وهما لغتان بمعنى ؛ يقال : دبر وأدبر ، وكذلك قبل الليل وأقبل . وقد قالوا أمس
 الدابر والمدبر ، قال صخر بن عمرو بن الشريد السلمي :

وَلَقَدْ قَتَلْنَاكُمْ شَاءَ وَمَوْحَدًا * وَتَرَكْتُ مِرَّةً مِثْلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

ويروى المدبر . وهذا قول الفراء والأخفش . وقال بعض أهل اللغة : دبر الليل إذا مضى
 وأدبر أخذ في الإدبار . وقال مجاهد : سألت ابن عباس عن قوله تعالى « وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ »
 فسكت حتى إذا دبر قال : يا مجاهد ! هذا حين دبر الليل . وقرأ محمد بن السميع « وَاللَّيْلِ
 إِذَا أَدْبَرَ » بالفين ، وكذلك في مصحف عبد الله وأبيّ بالفين . وقال قطرب من قرأ « دبر »
 فبمعنى أقبل ، من قول العرب دبر فلان إذا جاء من خلفي . قال أبو عمرو : وهى لغة قريش .

وقال ابن عباس في رواية عنه : الصواب « أدبر » إنما يدبر ظهر البعير . وأختار أبو عبيد « إذا أدبر » قال : لأنها أكثر موافقة للحروف التي تليه ؛ ألا تراه يقول (وَالصُّبْحُ إِذَا اسْفَرَ) فكيف يكون أحدهما « إذ » والآخر « إذا » وليس في القرآن قسم تعقبه « إذ » وإنما يتعقبه « إذا » . ومعنى « أسفر » أضاء . وقراءة العامة « أسفر » بالألف . وقرأ ابن السميع « سَفَرَ » . وهما لغتان . يقال : سَفَر وجهُ فلان وأسفر إذا أضاء . وفي الحديث : « أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر » أي صلوا صلاة الصبح مسافرين ، ويقال : طَوَّلُوها إلى الإسفار والإسفار الإنارة . وأسفر وجهه حسنا أي أشرق ، وسَفَرَت المرأة كشفت عن وجهها فهي سافرة . ويجوز أن يكون [من] سَفَر الظلام أي كمنه كما يُسَفَر البيت أي يُكنس ، ومنه السَّفِير لما سقط من ورق الشجر وتحات ؛ يقال : إنما سمي سفيرا لأن الريح تَسْفِرُه أي تَكْنُسُه . والمِسْفَرَةُ المِكنَسَةُ .

قوله تعالى : (إِنَّهَا لِإِحْدَى الكُبَرِ) جواب القسم ؛ أي إن هذه النار « لِإِحْدَى الكُبَرِ » أي لإحدى الدواهي . وفي تفسير مقاتل « الكُبر » أسم من أسماء النار . وروى عن ابن عباس « إِنَّهَا » أي إن تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم « لِإِحْدَى الكُبَرِ » أي لكبيرة من الكبائر . وقيل : أي إن قيام الساعة لإحدى الكُبر . والكُبر هي العظام من العقوبات ؛ قال الرازي :
يا بن المعلِّ نزلت لإحدى الكُبر * داهية الدهر وصمء الغير

وواحدة « الكُبر » كُبرى مثل الصُغرى والصُغَر والعُظمى والعُظم . وقرأ العامة « لِإِحْدَى » وهو أسم بنى ابتداء للتأنيث وليس مبنيًا على المذكور ؛ نحو عقي وأخرى وألفه ألف قطع لا تذهب في الوصل . وروى جرير بن حازم عن ابن كثير « إِنَّهَا لِحَدَى الكُبر » بحذف الهمزة . (نَذِيرًا لِلْبَشَرِ) يريد النار أي إن هذه النار الموصوفة « نَذِيرًا لِلْبَشَرِ » فهو نصب على الحال من المضمر في « إِنَّهَا » قاله الزجاج . وذُكِرَ ؛ لأن معناه معنى العذاب ، أو أراد ذات إنذار على معنى النسب ؛ كقولهم امرأة طالق وطاهر . وقال الخليل : النذير مصدر كالنكير ولذلك يوصف به المؤنث . وقال الحسن : والله ما أنذر الخلائق بشيء أدهى منها . وقيل : المراد بالنذير محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي قم نذيرا للبشر أي مخوفا لهم

ف « نذيرا » حال من « قُمْ » في أول السورة حين قال : « قُمْ فَأَنْذِرْ » قاله أبو علي الفارسي وأبن زيد، وروى عن ابن عباس وأنكره الفراء . ابن الأنباري : وقال بعض المفسرين معناه « يأيها المدثر قم نذيرا للبشر . وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال فيما بينهما . وقيل : هو من صفة الله تعالى . روى أبو معاوية الضرير : حدثنا إسماعيل بن سميع عن أبي رزين « نذيرا للبشر » قال يقول الله عز وجل : أنا لكم نذير فاتقوها . و « نذيرا » على هذا نصب على الحال ؛ أي « وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً » منذرا بذلك البشر . وقيل : هو حال من « هو » في قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » . وقيل : هو في موضع المصدر كأنه قال : إنذارا للبشر . قال الفراء : يجوز أن يكون النذير بمعنى الإنذار أي أنذر إنذارا ؛ فهو كقوله تعالى : « فَكَيْفَ كَانَ نَذِيرٍ » أي إنذارى ؛ فعلى هذا يكون راجعا إلى أول السورة أي « قم فأنذر » أي إنذارا . وقيل : هو منصوب بإضمار فعل . وقرا ابن أبي عبلة « نذيرٌ » بالرفع على إضمار هو . وقيل : أي إن القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد .

قوله تعالى : (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ) اللام متعلقة بـ « نذيرا » ؛ أي نذيرا لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الخير والطاعة ، أو يتأخر إلى الشر والمعصية ؛ نظيره : « وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ » أي في الخير « وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » عنه . قال الحسن : هذا وعيد وتهديد وإن خرج مخرج الخبر ، كقوله تعالى : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » . وقال بعض أهل التأويل : معناه لمن شاء الله أن يتقدم أو يتأخر ؛ فالمشيئة متصلة بالله جل ثناؤه ، والتقديم الإيمان والتأخير الكفر . وكان ابن عباس يقول : هذا تهديد وإعلام أن من تقدم إلى الطاعة والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم جوزى بشواب لا ينقطع ، ومن تأخر عن الطاعة وكذب محمدا صلى الله عليه وسلم عوقب عقابا لا ينقطع . وقال السدي : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ » إلى النار المتقدم ذكرها « أَوْ يَتَأَخَّرَ » عنها إلى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أى مرتبنة بكسبها ، مأخوذة بعملها ، إما خلصها وإما أوبقها وليست « رهينة » تأنيث رهين فى قوله تعالى : « كُلُّ أَمْرٍ يُرَىٰ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » لتأنيث النفس ؛ لأنه لو قصدت الصفة لقبيل رهين ؛ لأن فعلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث . وإنما هو أسم بمعنى الرهن كالشئمة بمعنى الشتم ؛ كأنه قيل : كل نفس بما كسبت رهين ؛ ومنه بيت الحماسة :

أبعد الذى بالنَّفِ نَعْفٍ كَوَيْكِبٍ * رَهِينَةٌ رَمْسٌ ذِي تُرَابٍ وَجَنَدِلٍ^(١)

كأنه قال رهن رمس . والمعنى : كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم . وأختلف فى تعيينهم ؛ فقال ابن عباس : الملائكة . على بن أبى طالب : أولاد المسلمين لم يكتسبوا فیرتهنوا بكسبهم . الضحاك : الذين سبقت لهم من الله الحسنی ، ونحوه عن ابن جريح ؛ قال : كل نفس بعملها محاسبة « إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » وهم أهل الجنة فإنهم لا يحاسبون . وكذا قال مقاتل أيضا : هم أصحاب الجنة الذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق حين قال الله لهم : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى . وقال الحسن وأبن كيسان : هم المسلمون المخلصون ليسوا بمرتبهين ؛ لأنهم أدوا ما كان عليهم . وعن أبى ظبيان عن ابن عباس قال : هم المسلمون . وقيل : إلا أصحاب الحق وأهل الإيمان . وقيل : هم الذين يعطون كتبهم بأيمانهم . وقال أبو جعفر الباقر : نحن وشيعتنا أصحاب اليمين ، وكل من أبغضنا أهل البيت فهم المرتهنون . وقال الحكم : هم الذين آخثارهم الله لخدمته فلم يدخلوا فى الرهن ؛ لأنهم خدام الله وصفوته وكسبهم لم يضرهم . وقال القاسم : كل نفس مأخوذة بكسبها من خير أو شر إلا من أعتمد على الفضل والرحمة دون الكسب والخدمة ، فكل من أعتمد على الكسب فهو مرهون ، وكل من أعتمد على الفضل فهو غير مأخوذ به .

﴿ فِي جَنَاتٍ ﴾ أى فى بسائين ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أى يسألون ﴿ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى المشركين

(١) النعف من الأرض المكان المرتفع فى أعراض . والبيت من قول عبد الرحمن بن زيد العذرى وقد قتل أخوه ومرضت عليه الدية فأبى أن يأخذها وأخذ بثأره .

(مَا سَلَكَكُمْ) أى أدخلكم (فِي سَقَرٍ) كما تقول : سلكت الخيط في كذا أى أدخلته فيه . قال الكلبي : فيسأل الرجل من أهل الجنة الرجل من أهل النار باسمه ، فيقول له : يا فلان . وفي قراءة عبد الله بن الزبير « يا فلان ما سَلَكَكَ فِي سَقَرٍ » . وعنه قال : قرأ عمر بن الخطاب « يا فلان ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ » وهي قراءة على التفسير لا أنها قرآن كما زعم من طعن في القرآن ؛ قاله أبو بكر بن الأنباري . وقيل : إن المؤمنين يسألون الملائكة عن أقربائهم فتسأل الملائكة المشركين فيقولون لهم « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ » . قال الفراء : في هذا ما يقوى أن أصحاب اليمن الولدان ؛ لأنهم لا يعرفون الذنوب . (قَالُوا) يعنى أهل النار (لَمْ تَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) أى المؤمنين الذين يصلون . (وَلَمْ تَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ) أى لم تك تتصدق . (وَكُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْحَائِضِينَ) أى كنا نخالط أهل الباطل في باطلهم . وقال ابن ريد : نحوض مع الحائضين في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو قولهم - لعنهم الله - كاهن مجنون شاعر ساحر . وقال السدي : أى وكنا نكذب مع المكذبين . وقال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه . وقيل معناه : وكنا أتباعا ولم نكن متبوعين . (وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ) أى لم تك نصدق بيوم القيامة يوم الجزاء والحكم . قوله تعالى : (حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ) أى جاءنا ونزل بنا الموت ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » .

قوله تعالى : (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) هذا دليل على صحة الشفاعة للذنين ؛ وذلك أن قوما من أهل التوحيد عذبوا بذنوبهم ثم شُفِعَ فيهم فرحمهم الله بتوحيدهم والشفاعة فأخرجوا من النار ، وليس للكفار شفيع يشفع فيهم . وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : يشفع نبيكم صلى الله عليه وسلم رابع أربعة ؛ جبريل ثم إبراهيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم صلى الله عليه وسلم ثم الملائكة ثم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ، ويبقى قوم في جهنم فيقال لهم : « مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ » . قَالُوا لَمْ تَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ تَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ » إلى قوله : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » قال عبد الله بن مسعود : فهؤلاء هم الذين يقون في جهنم . وقد ذكرنا إسناده في كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : **فَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ حَمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَتَتْ مِنْ قَسُورَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾**

قوله تعالى : **(فَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ)** أى فما لأهل مكة قد أعرضوا وولوا عما جنتهم به . وفى تفسير مقاتل : الإعراض عن القرآن من وجهين ؛ أحدهما الجحود والإنكار ، والوجه الآخر ترك العمل بما فيه . و « مُعْرِضِينَ » نصب على الحال من الهاء والميم فى « لَهُمْ » وفى اللام معنى الفعل ؛ فانتصاب الحال على معنى الفعل . **(كَانَهُمْ)** أى كأن هؤلاء الكفار فى فرارهم من محمد صلى الله عليه وسلم **(حَمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ)** قال ابن عباس : أراد الحمر الوحشية . وقرأ نافع وابن عامر بفتح الفاء أى مُنْفِرَةٌ مذعورة ؛ وأختره أبو عبيد وأبو حاتم . الباقيون بالكسر أى نافرة . يقال : تَفَرَّتْ وَأَسْتَنْفَرَتْ بمعنى ؛ مثل عَجِبْتُ وَأَسْتَعَجَبْتُ وَسَخَّرْتُ وَأَسْتَسَخَّرْتُ ؛ وأنشد الفراء :

أَمْسِكْ حِمَارَكَ إِنَّهُ مُسْتَنْفِرٌ * فى إِثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدَنْ لِعُزْبِ (١)

قوله تعالى : **(فَتَتْ)** أى تفرت وهربت **(مِنْ قَسُورَةٍ)** أى من رماة يرمونها . وقال بعض أهل اللغة : إن القسور الرامى وجمعه القسورة . وكذا قال سعيد بن جبيرة وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك وابن كيسان : القسورة هم الرماة والصيداؤون ، ورواه عطاء عن ابن عباس وأبو [ظبيان] (٢) عن أبى موسى الأشعري . وقيل : إنه الأسد . قاله أبو هريرة وابن عباس أيضا . ابن عرفة : من القسر بمعنى القهر أى إنه يقهر السباع والحمر الوحشية تهرب من السباع . وروى أبو جمره عن ابن عباس قال : ما أعلم القسورة الأسد فى لغة أحد من العرب ولكنها عُصَبُ الرجال ؛ قال : فالقسورة جمع الرجال وأنشد :

(١) غرب كسكر أسم موضع وجبل دون الشام فى بلاد بنى كلاب .

(٢) فى الأصول : أبو حيان وهو تحريف والتصحيح من تفسير الثعلبى « والتهديب » .

يا بنت كوني خيرةً خيرةً * أخوالها الجن وأهل القسورة

وعنه : رَكَزَ الناسَ أى حَسَمَ وأصواتهم . وعنه أيضا : « فَزَتْ مِنْ قَسَوْرَةٍ » أى من حبال الصيادين . وعنه أيضا القسورة بلسان العرب الأسد، وبلسان الحبشة الرماة؛ وبلسان فارس شير، وبلسان النبط أريا . وقال ابن الأعرابي : القسورة أول الليل؛ أى فزت من ظلمة الليل . وقاله عكرمة أيضا . وقيل : هو أول سواد الليل، ولا يقال لآخر سواد الليل قسورة . وقال زيد بن أسلم : من رجال أقوياء، وكل شديد عند العرب فهو قسورة وقسور . وقال لبيد بن ربيعة :

إذا ما هتفتا هتفةً في ندينا * أتانا الرجال العائدون القساور

قوله تعالى : (بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً) أى يعطى كتابا مفتوحة ، وذلك أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا : يا محمد ! آيتنا بكتب من رب العالمين مكتوب فيها أنى قد أرسلت إليك محمدا ؛ صلى الله عليه وسلم ؛ نظيره : « وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْبِكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ » . وقال ابن عباس : كانوا يقولون إن كان محمد صادقا فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار . قال مطر الوراق : أرادوا أن يعطوا بغير عمل . وقال الكلبي : قال المشركون بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح عند رأسه مكتوبا ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك . وقال مجاهد : أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب فيه من الله عز وجل إلى فلان بن فلان . وقيل : المعنى أن يذكر بذكر جميل ؛ بفعلت الصحف موضع الذكر مجازا . وقالوا : إذا كانت ذنوب الإنسان تكتب عليه فما بالناس لا نرى ذلك . (كَلَّا) أى ليس يكون ذلك . وقيل : حقا . والأول أجود ؛ لأنه رد لقولهم . (بَلْ لَا يَخَافُونَ الآخِرَةَ) أى لا أعطيهم ما يتمنون لأنهم لا يخافون الآخرة أغترارا بالدنيا . وقرأ سعيد بن جبير « صُحُفًا مُنشَرَةً » بسكون الحاء والنون ؛ فأما تسكين الحاء فتخفيف ، وأما النون فشاذ . إنما يقال : نشرت الثوب وشبهه ولا يقال أنشرت . ويموز أن يكون شبه الصحيفة بالميت كأنها ميتة بطيها ، فإذا نشرت حيت ، بفاء على أنشر الله الميت كما شبه إحياء الميت بنشر الثوب ؛ فقيل فيه نشر الله الميت فهي لغة فيه .

قوله تعالى : **كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ** ﴿٥٤﴾ **فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ** ﴿٥٥﴾
وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾
قوله تعالى : **(كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ)** أى حقا إن القرآن عظة . **(فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ)** أى أنعظ
به . **(وَمَا يَذْكُرُونَ)** أى وما يتعظون **(إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ)** أى ليس يقدرّون على الاعتراض
والتذكر إلا بمشيئة الله ذلك لهم . وقراءة العامة « يَذْكُرُونَ » بالياء وأختره أبو عبيد؛ لقوله
تعالى : **« كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ »** . وقرا نافع ويعقوب بالتاء، وأختره أبو حاتم لأنه أعم
وأنفقوا على تخفيفها . **(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ)** فى الترمذى وسنن ابن ماجه عن أنس
ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فى هذه الآية « **هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ
الْمَغْفِرَةِ** » قال : **« قال الله تبارك وتعالى أنا أهل أن أتقى فمن اتقانى فلم يجعل معى إلهاً فأنا
أهل أن أغفرله »** لفظ الترمذى وقال فيه : حديث حسن غريب . وفى بعض التفسير : هو
أهل المغفرة لمن تاب إليه من الذنوب الكبار، وأهل المغفرة أيضا للذنوب الصغار باجتناب
الذنوب الكبار . وقال محمد بن نصر : أنا أهل أن يتقبنى عبدى ، فإن لم يفعل كنت أهلا
أن أغفرله وأرحمه ، وأنا الغفور الرحيم .

سورة القيامة

مكية وهى تسع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : **لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴿١﴾ **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴿٢﴾
أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ **بَلَى قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوِّىَ
بَنَانَهُ** ﴿٤﴾ **بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ** ﴿٥﴾ **يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ
الْقِيَامَةِ** ﴿٦﴾

قوله تعالى : (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) قيل : إن « لا » صلة وجاز وقوعها في أول السورة ؛ لأن القرآن متصل بعبئه ببعض فهو في حكم كلام واحد ؛ ولهذا قد يذكر الشيء في سورة ويحییء جوابه في سورة أخرى ؛ كقوله تعالى : « وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » وجوابه في سورة أخرى : « مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ » ومعنى الكلام أقسم بيوم القيامة ؛ قاله ابن عباس وابن جبیر وأبو عبيدة ؛ ومثله قول الشاعر :

تَذَكَّرْتُ لَيْلِي فَأَعْتَرَنِي صَبَابَةٌ * فَكَادَ صَمِيمُ الْقَلْبِ لَا يَتَقَطَّعُ

وحكى أبو الليث السمرقندي : أجمع المفسرون أن معنى « لَا أُقْسِمُ » أقسم ، وأختلفوا في تفسير « لا » قال بعضهم : « لا » زيادة في الكلام للزينة ويجرى في كلام العرب زيادة « لا » كما قال في آية أخرى : « قَالَ مَا مَنَّكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ » يعني أن تسجد ، وقال بعضهم : « لا » ردُّ لكلامهم حيث أنكروا البعث فقال : ليس الأمر كما زعمتم .

قلت : وهذا قول الفراء ؛ قال الفراء : وكثير من النحويين يقولون « لا » صلة ولا يجوز أن يبدأ بحمد ثم يجعل صلة ؛ لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه بحمد من خبر لا بحمد فيه ، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار ، بغناء الإقسام بالرد عليهم [في كثير من الكلام المبتدأ منه وغير المبتدأ^(١)] وذلك كقولهم لا والله لا أفعل فـ«لا» ردُّ لكلام قد مضى ، وذلك كقولك : لا والله إن القيامة لحق ، كأنك أكذبت قوما أنكروه . وأنشد غير الفراء لأمرئ القيس :

فلا وأبيك أبنة العامري * لا يدعي القوم أنني أفر

وقال غوية بن سلمى :

ألا نادى أمانةً بأحتمال * لتحزني فلا بك ما أبالي

وفائدتها توكيد القسم في الرد . قال الفراء : وكان من لا يعرف هذه الجهة يقرأ «لأقسم» بغير ألف ؛ كأنها لام تأكيد دخلت على أقسم وهو صواب ؛ لأن العرب تقول : لأقسم بالله

(١) الزيادة من تفسير الفراء .

وهي قراءة الحسن وابن كثير والزهرى وابن هُرْمِز . (**بِیَوْمِ الْقِیَامَةِ**) أى بیوم يقوم الناس فيه لربهم، والله عز وجل أن يقسم بما شاء . (**وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**) لاختلاف في هذا بين القراء وهو أنه أقسم سبحانه بیوم القيامة تعظيما لشأنه [ولم يقسم بالنفس^(١)] . وعلى قراءة ابن كثير أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية . وقيل : « **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** » رد آخر وأبتداء قسم بالنفس اللوامة . قال الثعلبي : والصحيح أنه أقسم بهما جميعا . ومعنى « **بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** » أى بنفس المؤمن الذى لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول : ما أردتُ بكذا ؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . قال الحسن : هى والله نفس المؤمن ما يرى المؤمن إلا يلوم نفسه : ما أردتُ بكلامى ؟ ما أردتُ بأكلى ؟ ما أردتُ بحديث نفسى ؟ والفاجر لا يحاسب نفسه . وقال مجاهد : هى التى تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته، وعلى الخير لم لا تستكثر منه . وقيل : إنها ذات اللوم . وقيل : إنها تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها ؛ فعلى هذه الوجوه تكون اللوامة بمعنى اللائمة وهو صفة مدح ؛ وعلى هذا يجيء القسم بها سائغا حسنا . وفى بعض التفسير أنه آدم عليه السلام لم يزل لائما لنفسه على معصيته التى أخرج بها من الجنة . وقيل : اللوامة بمعنى الملوامة المذمومة — عن ابن عباس أيضا — فهى صفة ذم وهو قول من نفى أن يكون قسما ؛ إذ ليس للعاصي خطر يقسم به، فهى كثيرة اللوم . وقال مقاتل : هى نفس الكافر يلوم نفسه، ويتحسر فى الآخرة على ما فترط فى جنب الله . وقال الفراء : ليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا وهى تلوم نفسها، فالمحسن يلوم نفسه أن لو كان أزداد إحسانا، والمسيء يلوم نفسه ألا يكون أرعوى عن إساءته .

قوله تعالى : (**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَنَّ عِظَامَهُ**) فنعيدها خلقا جديدا بعد أن صارت رفاتا . قال الزجاج : أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة ليجمعن العظام للبعث، فهذا جواب القسم . وقال النحاس : جواب القسم محذوف أى لتبعثن ؛ ودل عليه قوله تعالى : « **أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَنَّ عِظَامَهُ** » للإحياء والبعث . والإنسان هنا الكافر

(١) الزيادة من تفسير ابن عطية وزيه .

المكذب للبعث . والآية نزلت في عدی بن ربیعۃ قال للنبي صلى الله عليه وسلم : حدثني عن يوم القيامة متى تكون ، وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ؛ فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد ولم أومن به ، أو يجمع الله العظام ؟ ! ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : «اللهم أكفني جاري السوء عدی بن ربیعۃ والأخنس بن شريق» . وقيل نزلت في عدو الله أبي جهل حين أنكر البعث بعد الموت . وذكر العظام والمراد نفسه كلها ؛ لأن العظام قالب الخلق . (بلى) وقف حسن ثم ابتدئ (قَادِرِينَ) . قال سيبويه : على معنى نجمعها قادرين فـ «قَادِرِينَ» حال من الفاعل المضمر في الفعل المحذوف على ما ذكرناه من التقدير . قيل : المعنى بلى نقدر قادرين . قال الفراء : « قَادِرِينَ » نصب على الخروج من « تَجَمَّع » أى نقدر ونقوى « قَادِرِينَ » على أكثر من ذلك . وقال أيضا : يصلح نصبه على التكرير أى « بلى » فليحسبنا قادرين . وقيل : المضمر كما أى كما قادرين في الابتداء ، وقد اعترف به المشركون . وقرأ ابن أبي عبلة وابن السميع « بلى قَادِرُونَ » بتأويل نحن قادرون . (عَلَى أَنْ نُسَوَّى بِنَانَهُ) البنان عند العرب الأصابع واحدها بنانة ؛ قال النابغة :

مُخَضَّبٌ رَخِصٌ كَأَنَّ بِنَانَهُ * عَمَّ يَكَادُ مِنَ اللِّطَافَةِ يُعْقَدُ

وقال عنتره :

وَأَنَّ المَوْتَ طَوَّعَ يَدِي إِذَا مَا * وَصَلْتُ بِنَانَهَا بِالْهِنْدُوَانِي

فنبه بالبنان على بقية الأعضاء . وأيضا فإنها أصغر العظام فخصها بالذكر لذلك . قال الفتي والزجاج : وزعموا أن الله لا يبعث الموتى ولا يقدر على جمع العظام ؛ فقال الله تعالى : بلى قادرين على أن نعيد السُّلَامِيَّاتِ على صفرها ، ونؤلف بينها حتى تستوى ، ومن قدر على هذا فهو على جمع الكبار أقدر . وقال ابن عباس وعامة المفسرين : المعنى « عَلَى أَنْ نُسَوَّى بِنَانَهُ » أى نجعل أصابع يديه ورجليه شيئا واحدا نحف البعير أو تكافر الحمار أو كظف الخنزير ، ولا يمكنه أن يعمل به شيئا ، ولكنا فرقنا أصابعه حتى يأخذ بها ما شاء . وكان الحسن

يقول : جعل لك أصابع فانت تبسطهن ، وتقبض بهن ، ولو شاء الله لجمعهن فلم لتق الأرض إلا بكفيك . وقيل : أى تقدر أن نعبد الإنسان فى هيئة البهائم ، فكيف فى صورته التى كان عليها ، وهو كقوله تعالى : « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِيهَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قلت : والتأويل الأول أشبه بمساق الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : (بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) قال ابن عباس : يعنى الكافر يكذب بما أمامه من البعث والحساب . وقاله عبد الرحمن بن زيد ، ودليله (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) أى يسأل متى يكون ؟ على وجه الإنكار والتكذيب . فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب ، ولكن ياتم لما بين يديه . وما يدل على أن الفجور التكذيب ما ذكره الفتى وغيره : أن أعرابيا قصده عمر بن الخطاب رضى الله عنه وشكا إليه نقب إبله ودبرها ، وسأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله ، فقال الأعرابي :

أَقْسَمَ بِاللَّهِ أَبُو حَفِصٍ عُمَرُ * مَا مَسَّهَا مِنْ نَقَبٍ وَلَا دَبْرٍ
* فَأَغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ جَفْرًا *

يعنى إن كان كذبنى فيما ذكرت ، وعن ابن عباس أيضا : يعجل المعصية ويسوف التوبة . وفى بعض الحديث قال : يقول سوف أتوب ولا يتوب ، فهو قد أخلف فكذب . وهذا قول مجاهد والحسن وعكرمة والسدى وسعيد بن جبیر يقول : سوف أتوب ، سوف أتوب حتى يأتيه الموت على أشتر أحواله . وقال الضحاک : هو الأمل يقول سوف أعيش وأصيب من الدنيا ولا يذكر الموت . وقيل : أى يعزم على المعصية أبدا وإن كان لا يعيش إلا مدة قليلة . فالهاء على هذه الأقوال للإنسان . وقيل : الهاء ليوم القيامة . والمعنى بل يريد الإنسان ليكفر بالحق بين يدي يوم القيامة ، والفجور أصله الميل عن الحق . « يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ » أى متى يوم القيامة .

قوله تعالى : فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ
 الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجُ ﴿١٠﴾ كَلَّا
 لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ
 بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ) قرأ نافع وأبان عن عاصم « بَرِقَ » بفتح الراء معناه لمع
 بصره من شدة شخوصه فتراه لا يَطْرِيف . قال مجاهد وغيره : هذا عند الموت . وقال الحسن :
 هذا يوم القيامة . وقال فيه معنى الجواب عما سأل عنه الإنسان كأنه يوم القيامة « إِذَا بَرِقَ
 الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ » . والباقون بالكسر « بَرِقَ » ومعناه تحير فلم يَطْرِيف ؛ قاله أبو عمرو
 والزجاج وغيرهما . قال ذو الرمة :

ولو أن نُفَمَانَ الحكيم تَعَرَّضْتُ * لِعَيْنِيهِ مَيَّ سَافِرًا كَادَ يَبْرِقُ

الفراء والخليل : « بَرِقَ » بالكسر فزَع وُبَيْت . والعرب تقول للإنسان المتحير المبهوت :
 قد بَرِقَ فهو بَرِيقٌ ؛ وأنشد الفراء :

(١)
 فَنَفْسِكَ فَأَنْعَ وَلَا تَنْعِنِي * وَدَاوِ الْكُلُومَ وَلَا تَبْرِقِ

أى لا تَفَزَع من كثرة الكلوم التى بك . وقيل : بَرِقَ يَبْرِقُ بالفتح شق عينيه وفتحهما . قاله
 أبو عبيدة ؛ وأنشد قول الكلابى :

(٢)
 لما أَنَانِي أَبْنُ عُمَيْرٍ رَاغِبًا * أُعْطِيَتْهُ سِيسًا صِهَابًا فَبَرِقَ

أى فتح عينيه . وقيل : إن كسر الراء وفتحها لغتان بمعنى .

(١) قاله طرفة .

(٢) فى غير القرطبي : لما أَنَانِي أَبْنُ صَبِيح . والعيس الصهاب هى الإبل التى خالط بياضها حمرة وهى تعد عند

العرب من أشرفها .

قوله تعالى : (وَخَسَفَ الْقَمَرُ) أى ذهب ضوؤه . والخسوف فى الدنيا إلى أنجلاء بخلاف الآخرة فإنه لا يعود ضوؤه . ويحتمل أن يكون بمعنى غاب ، ومنه قوله تعالى : « نَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وقرأ ابن أبى إسحق وعيسى والأعرج . « وَخُسِفَ الْقَمَرُ » بضم الخاء وكسر السين يدل عليه « وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » . وقال أبو حاتم محمد بن إدريس : إذا ذهب بعضه فهو الكسوف ، وإذا ذهب كله فهو الخسوف . (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) أى جمع بينهما فى ذهاب ضوءهما فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه ، قاله الفراء والزجاج . قال الفراء : ولم يقل جمعت ؛ لأن المعنى جمع بينهما . وقال أبو عبيدة : هو على تغليب المذكر . وقال الكسائى : هو محمول على المعنى كأنه قال الضوءان . المبرد : التانيت غير حقيقى . وقال ابن عباس وأبن مسعود : جمع بينهما أى قرن بينهما فى طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين مُقَرَّنِينَ كأنهما ثوران عقيران . وقد مضى الحديث بهذا المعنى فى آخر سورة « الأنعام »^(١) . وفى قراءة عبد الله « وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ » وقال عطاء بن يسار : يجمع بينهما يوم القيامة ثم يقذفان فى البحر فيكون نار الله الكبرى . وقال على وأبن عباس : يجعلان فى [نور]^(٢) المحجب . وقد يجتمعان فى نار جهنم ؛ لأنهما قد عُبِدَا من دون الله ولا تكون النار عذابا لهما لأنهما جماد ، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة فى تبييت الكافرين وحسرتهم . وفى مسند أبى داود الطيالسى ، عن يزيد الرقاشى ، عن أنس بن مالك يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر ثوران عقيران فى النار » وقيل : هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفتقان ، ويقربان من الناس فيلحقهم العرق لشدة الحر ، فكان المعنى يجمع حرهما عليهم . وقيل : يجمع الشمس والقمر فلا يكون ثم تعاقب ليل ولا نهار .

قوله تعالى : (يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ) أى يقول ابن آدم ، ويقال أبو جهل ؛ أى ابن المهرب . قال الشاعر :

(١) راجع ج ٧ ص ١٤٦ فا بعدها . (٢) الزيادة من كتب التفسير .

أين المفرُّ والكِبَاشُ تَنْطِخُ * وأى كَبِشٍ حاد عنها يَفْتَضِخُ

المأوردى : ويحتمل وجهين ؛ أحدهما « أين المفرُّ » من الله أستجيا منه . الثانى « أين المفرُّ » من جهنم حذرا منها . ويحتمل هذا القول من الإنسان وجهين : أحدهما - أن يكون من الكافر خاصة فى عَرَصَةِ الْقِيَامَةِ دون المؤمن ؛ لثقة المؤمن بشرى ربه . الثانى - أن يكون من قول المؤمن والكافر عند قيام الساعة هول ماشاهدوا منها . وقراءة العامة « المفرُّ » بفتح الفاء وأختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنه مصدر . وقرأ ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة بكسر الفاء مع فتح الميم ؛ قال الكسائى : هما لغتان مثل مَدَبَ ومَدَبَ ومَصَّحَ ومَصَّحَ . وعن الزهرى بكسر الميم وفتح الفاء . المهودى : من فتح الميم والفاء من « المفرُّ » فهو مصدر بمعنى الفرار ، ومن فتح الميم وكسر الفاء فهو الموضع الذى يفر إليه . ومن كسر الميم وفتح الفاء فهو الإنسان الجيد الفرار ؛ فالمعنى أين الإنسان الجيد الفرار وإن ينجو مع ذلك .

قلت : ومنه قول امرئ القيس :

* مَكْتَرِ مَفْتَرٍ مُقْبِلٍ مُدْرِمِعًا ^(١)

يريد أنه حسن الكثر والفر جوده . (كَلَّا) أى لا مفتر فـ «كلا» رد وهو من قول الله تعالى ، ثم فسر هذا الرد فقال : (لَا وَزَرَ) أى لا ملجأ من النار . وكان ابن مسعود يقول : لا حصن . وكان الحسن يقول : لا جبل . وابن عباس يقول : لا ملجأ . وابن جبير : لا محيص ولا منعة . والمعنى فى ذلك كله واحد . والوزر فى اللغة ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو غيرهما ؛ قال الشاعر :

لَعَمْرِي مَا لِلْفَتَى مِنْ وَزْرٍ * مِنَ الْمَوْتِ يُدْرِكُهُ وَالْكَبْرِ

قال السدى : كانوا فى الدنيا إذا فزعوا تحصنوا فى الجبال ، فقال الله لهم : لا وزر

يعصمكم يومئذ منى ؛ قال طرفة :

وَلَقَدْ تَعَلَّمْتُ بَكْرًا أَنْتَا ۖ فَاضْلُؤْ الرَّأْيَ فِي الرَّوْعِ وَزَرَ

* بكهولود صخر حطه السهل من عل *

(١) تمام البيت :

أى ملجأ للخائف . و يروى : وَقُرَّ . (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) أى المنتهى ؛ قاله قتادة . ونظيره : «وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى» . وقال ابن مسعود : إلى ربك المصير والمرجع . وقيل : أى المستقر فى الآخرة حيث يقتره الله تعالى ؛ إذ هو الحاكم بينهم . وقيل : إن «كَلَّا» من قول الإنسان لنفسه إذا علم أنه ليس له مفر قال لنفسه : «كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ» .

قوله تعالى : (يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ) أى يخبر ابن آدم برا كان أو فاجرا (بِمَا قَدَّمَ وَآخَرَ) أى بما أسلف من عمل سيء أو صالح ، أو أخر من سنة سيئة أو صالحة يُعمل بها بعده ؛ قاله ابن عباس وابن مسعود . وروى منصور عن مجاهد قال ينبأ بأقول عمله وآخره . وقاله النخعي . وقال ابن عباس أيضا : أى بما قدم من المعصية وأخر من الطاعة . وهو قول قتادة . وقال ابن زيد : «بِمَا قَدَّمَ» من أمواله لنفسه «وَأَخَرَ» خلف للورثة . وقال الضحاك : ينبأ بما قدم من فرض وأخر من فرض . قال القشيري : وهذا الإنباء يكون فى القيامة عند وزن الأعمال . ويجوز أن يكون عند الموت .

قلت : والأقول أظهر ؛ لما خرج ابن ماجه فى سننه من حديث الزهري ؛ حدثني أبو عبد الله الأغر عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّمَا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَيْهِ وَنَشْرُهُ وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ أَوْ مَصْحَفًا وَرَثَهُ أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّةٍ وَحَيَاتِهِ تَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ» وخرجه أبو نعيم الحافظ بمعناه من حديث قتادة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «سَبْعٌ يَجْرِي أَجْرُهُنَّ لِلْعَبْدِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا أَوْ أَجْرَى نَهْرًا أَوْ حَفَرَ بئرًا أَوْ غَرَسَ نَخْلًا أَوْ بَنَى مَسْجِدًا أَوْ وَرَّثَ مَصْحَفًا أَوْ تَرَكَ وَرَثًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ» فقوله : «بعد موته وهو فى قبره» نص على أن ذلك لا يكون عند الموت ، وإنما يخبر بجميع ذلك عند وزن عمله ، وإن كان يبشر بذلك فى قبره . ودل على هذا أيضا قوله الحق : «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ» وقوله تعالى : «وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضَلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ» وهذا لا يكون إلا فى الآخرة بعد وزن الأعمال . والله أعلم .

وفي الصحيح : " من سنّ في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " .

قوله تعالى : **بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٦﴾**

قوله تعالى : (**بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**) قال الأخفش : جعله هو البصيرة ، كما تقول للرجل أنت حجة على نفسك . وقال ابن عباس : « **بَصِيرَةٌ** » أي شاهد وهو شهود جوارحه عليه : يده بما بطش بهما ، ورجلاه بما مشى عليهما ، وعيناه بما أبصر بهما . والبصيرة الشاهد ، وأنشد الفراء :

كَأَنَّ عَلَى ذِي الْعَقْلِ عَيْنًا بَصِيرَةً * بِمَقْعَدِهِ أَوْ مَنظَرِهِ هُوَ نَاطِرُهُ
يُجَادِرُ حَتَّى يَحْسَبَ النَّاسَ كُلَّهُمْ * مِنَ الْخَوْفِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِمْ سَرَائِرُهُ

ودليل هذا التأويل من التزويل قوله تعالى : « **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** » . وجاء تأنيث البصيرة لأن المراد بالإنسان هاهنا الجوارح ، لأنها شاهدة على نفس الإنسان ، فكأنه قال : بل الجوارح على نفس الإنسان بصيرة ، قال معناه القتي وغيره . وناس يقولون هذه الهاء في قوله : « **بَصِيرَةٌ** » هي التي يسميها أهل الإعراب هاء المبالغة كالهاء في قولهم : داهية وعلامة وراوية . وهو قول أبي عبيد . وقيل المراد بالبصيرة الكاتبان اللذان يكتبان ما يكون منه من خير أو شر ، يدل عليه قوله تعالى : « **وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ** » فيمن جعل المعاذير السُّتور . وهو قول السدي والضحاك . وقال بعض أهل التفسير : المعنى بل على الإنسان من نفسه بصيرة ، أي شاهد فحذف حرف الجر . ويجوز أن يكون بصيرة نعنا لاسم مؤنث فيكون تقديره : بل الإنسان على نفسه عين بصيرة ، وأنشد الفراء :

* كَأَنَّ عَلَى ذِي الْعَقْلِ عَيْنًا بَصِيرَةً *

وقال الحسن في قوله تعالى : « بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بِصِيرَةٌ » يعني بصير بعيوب غيره جاهل بعيوب نفسه . (وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) أى ولو أرخى ستوره . والستر بلغة أهل اليمن معذار؛ قاله الضحاك؛ وقال الشاعر :

ولكنها ضنّت بمنزل ساعة * علينا وأطت فوقها بالمعاذير

قال الزجاج : المعاذير الستور والواحد معذار ؛ أى وإن أرخى ستره ؛ يريد أن يخفى عمله فنفسه شاهدة عليه . وقيل : أى ولو أعتذر فقال لم أفعل شيئا لكان عليه من نفسه من يشهد عليه من جوارحه ، فهو وإن أعتذر وجادل عن نفسه فعليه شاهد يكذب عذره ؛ قاله مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد وأبو العالية وعطاء والفتراء والسدى أيضا ومقاتل . قال مقاتل : أى لو أدلى بعذر أو حجة لم ينفعه ذلك ، نظيره قوله تعالى : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ » وقوله : « وَلَا يُؤْذِنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ » فالمعاذير على هذا مأخوذ من العذر ؛ قال الشاعر :

وإياك والأمر الذى إن توسعت * مواردُه ضاقت عليك المصادرُ

فما حسن أن يعذر المرء نفسه * وإيس له من سائر الناس عاذرُ

وأعتذر رجل إلى إبراهيم النخعي فقال له : قد عذرتك غير معتذر ، إن المعاذير يشوبها الكذب . وقال ابن عباس : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » أى لو تجرد من ثيابه . حكاه الماوردي .

قلت : والأظهر أنه الإدلاء بالحجة والاعتذار من الذنب ؛ ومنه قول النابغة :

ها إن ذى عذرة إلا تكن نفعت * فإن صاحبها مشارك النكد

والدليل على هذا قوله تعالى فى الكفار : « وَاللّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » وقوله تعالى فى المنافقين : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ » . وفى الصحيح أنه يقول : « يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكَتَابِكَ وَبِرَسُولِكَ وَصَلَيْتُ وَصَمْتُ وَتَصَدَّقْتُ وَبِئْتَى بِخَيْرِ

ما استطاع^(١) الحديث . وقد تقدم في « حم السجدة » وغيرها . والمعاذير والمعاذير جمع معذرة ؛ ويقال : عذرته فيما صنع أعذره عذرا وعذرا والاسم المعذرة والعذرى ؛ قال الشاعر :

* إِنِّي حُدِّدْتُ وَلَا عُدْرِي لِمَحْدُودِ *

وكذلك العذرة وهي مثل الركبة والجلسة ؛ قال النابغة :

هَإِنِّ تَاعِدْرَةٌ إِلَّا تَكُنْ نَفَعَتْ * فَإِن صَاحِبَهَا قَدْ تَاهَ فِي الْبَلَدِ^(٢)

وتضمنت هذه الآية خمس مسائل :

الأولى - قال القاضي أبو بكر بن العربي قوله تعالى : « بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » : فيها دليل على قبول إقرار المرء على نفسه ؛ لأنها شهادة منه عليها ؛ قال الله سبحانه وتعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ولا خلاف فيه ؛ لأنه إخبار على وجه تنفي التهمة عنه ؛ لأن العاقل لا يكذب على نفسه ، وهي المسئلة :

الثانية - وقد قال سبحانه في كتابه الكريم : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَإِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » ثم قال تعالى : « وَأَخْرَجْنَا مَنَّا عِزْرًا بِذُنُوبِهِمْ فَحَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » وهو في الآثار كثير ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَعْدُ يَا أُيُّسُ عَلَىٰ أَمْرَاءَ هَذَا فَإِنِ اعْتَرَفْتَ فَأَرْجَمَهَا » . فأما إقرار الغير على الغير بوارث أو دين فقال مالك : الأمر المجتمع عليه عندنا في الرجل يهلك وله بنون ، فيقول أحدهم : إن أبي قد أقر أن فلانا أبنه أن ذلك النسب لا يثبت بشهادة إنسان واحد ،

(١) راجع ج ١ ص ٣٥٠ ففيه معنى ما أشار إليه القرطبي وأما الحديث فقد أوردته في سورة الأنعام ج ٦ ص ٤٠٢

(٢) فأنه الجموح الطفري . وقيل : هو راشد بن عبد ربه . وعذرى مفسور . وفي اللسان : صواب إنشاده ؛ لولا

حددت . على إرادة أن ، تقديره : لولا أن حددت لأن لولا التي معناها امتناع الشيء لوجود غيره هي مخصوصة بالأسماء وقد تقع بعدها الأفعال على تقدير أن . (٣) تقدم البيت برواية : ها إن ذى - مشارك الكلد . وهما روايتان .

ولا يجوز إقرار الذي أقتر إلا على نفسه في حصته من مال أبيه ، يعطى الذي شهد له قدر الذي يصيبه من المال الذي في يده . قال مالك : وتفسير ذلك أن يهلك الرجل ويترك أبين ويترك ستمائة دينار ، ثم يشهد أحدهما بأن أباه الهالك أقتر أن فلانا أبنه ، فيكون على الذي شهد للذي استلحق مائة دينار ، وذلك نصف ميراث المستلحق لو لحق ، وإن أقتر له الآخر أخذ المائة الأخرى فأستكمل حقه وثبت نسبه . وهو أيضا بمنزلة المرأة تقتر بالدين على أبيها أو على زوجها وينكر ذلك الإرثة ، فعليها أن تدفع إلى الذي أقترت له قدر الذي يصيبها من ذلك الدين لو ثبت على الورثة كلهم ، إن كانت امرأة فورثت الثمن دفعت إلى الغريم ثمن دينه ، وإن كانت أبنه ورثت النصف دفعت إلى الغريم نصف دينه ، على حساب هذا يدفع إليه من أقتر له من النساء .

الثالثة - لا يصح الإقرار إلا من مكلف لكن بشرط ألا يكون محجورا عليه ؛ لأن الحجر يسقط قوله إن كان لحق نفسه ، فإن كان لحق غيره كالمريض كان منه ساقط ومنه جائز . وبيانه في مسائل الفقه . وللعبد حالتان في الإقرار إحداهما في ابتدائه ولا خلاف فيه على الوجه المتقدم . والثانية في انتهائه وذلك مثل إبهام الإقرار ، وله صور كثيرة وأمهاها ست : الصورة الأولى - أن يقول له عندي شيء ؛ قال الشافعي : لو فسره بتمرة أو كسرة قبل منه . والذي تقتضيه أصولنا أنه لا يقبل إلا فيما له قدر ، فإذا فسره به قبل منه وحلف عليه . الصورة الثانية - أن يفسر هذا بخمر أو خنزير أو مالا يكون مالا في الشريعة لم يقبل باتفاق ولو ساعده عليه المقتر له . الصورة الثالثة - أن يفسره بمختلف فيه مثل جلد الميتة أو سرقين أو كلب ، فإن رده لم يحكم عليه حاكم آخر غيره بشيء ؛ لأن الحكم قد نفذ بإبطاله . وقال بعض أصحاب الشافعي : يلزم الخمر والخنزير وهو قول باطل . وقال أبو حنيفة : إذا قال له على شيء لم يقبل تفسيره إلا بمكيل أو موزون ؛ لأنه لا يثبت في الذمة بنفسه إلا هما . وهذا ضعيف فإن غيرهما يثبت في الذمة إذا وجب ذلك إجماعا . الصورة الرابعة - إذا قال له : عندي مال قبل تفسيره بما لا يكون مالا في العادة كالدرهم والدرهمين ما لم يبيح من قرينة

الحال ما يحكم عليه بأكثر منه . الصورة الخامسة — أن يقول له : عندي مال كثير أو عظيم ؛ فقال الشافعي : يقبل في التوبة . وقال أبو حنيفة : لا يقبل إلا في نصاب الزكاة . وقال علماءنا في ذلك أقوالا مختلفة ؛ منها نصاب السرقة والزكاة والدية وأقله عندي نصاب السرقة ؛ لأنه لا يُبَيَّنُ عضو المسلم إلا في مال عظيم . وبه قال أكثر الحنفية . ومن يعجب فيتعجب لقول الليث بن سعد : إنه لا يقبل في أقل من اثنين وسبعين درهما . فقيل له : ومن أين تقول ذلك ؟ قال ؛ لأن الله تعالى قال : « لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ » وغزواته وسراياه كانت اثنتين وسبعين . وهذا لا يصح ؛ لأنه أخرج حُنيَّنا منها ، وكان حقه أن يقول يُقْبَلُ في أحد وسبعين ، وقد قال الله تعالى : « أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا » وقال : « لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ » وقال : « وَلَعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا » . الصورة السادسة — إذا قال له عندي عشرة أو مائة أو ألف فإنه يفسرها بما شاء ويقبل منه ، فإن قال ألف درهم أو مائة وعبد أو مائة وخمسون درهما فإنه يُفسَّرُ المبهم ويُقْبَلُ منه . وبه قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : إن عطف على العدد المبهم مكيلا أو موزونا كان تفسيرا ؛ كقوله : مائة وخمسون درهما ؛ لأن الدرهم تفسير للخمسين ، والخمسين تفسير للمائة . وقال ابن خيران الأصبخري من أصحاب الشافعي : الدرهم لا يكون تفسيرا في المائة والخمسين إلا للخمسين خاصة ويُفسَّرُ هو المائة بما شاء .

المسئلة الرابعة — قوله تعالى : « وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ » ومعناه لو اعتذر بعد الإقرار لم يقبل منه . وقد اختلف العلماء فيمن رجع بعد ما أقر في الحدود التي هي خالص حق الله ؛ فقال أكثرهم منهم الشافعي وأبو حنيفة : يقبل رجوعه بعد الإقرار . وقال به مالك في أحد قوليهِ ، وقال في القول الآخر : لا يقبل إلا أن يذكر لرجوعه وجهها صحيحا . والصحيح جواز الرجوع مطلقا ؛ لما روى الأئمة منهم البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم رد المقترب بالزنى مرارا أربعا كل مرة يعرض عنه ، ولما شهد على نفسه أربع مرات دعاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « أَبَيْكَ جَنُونَ » قال : لا . قال : « أَحْصَيْتَ » قال : نعم . وفي حديث البخاري : « لَعَلَّكَ قَبَاتٌ أَوْ غَمَزَتْ أَوْ نَظَرَتْ » . وفي النسائي وأبي داود : حتى قال له في الخامسة

(١) "أجامعتها" قال : نعم . قال : "حتى غاب ذلك منك في ذلك منها" قال : نعم . قلل :
 "كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر". قال : نعم . ثم قال : "هل تدري ما الزنى"
 قال : نعم ؛ أتيت منها حراما مثل ما يأتي الرجل من أهله حلالا . قال : "فما تريد مني"
 قال : أريد أن تطهرني . قال : فأمر به فرُجِم . قال الترمذى وأبو داود : فلما وجد مَسَّ
 الحجارة فرُيشتد فضربه رجل بلحِي جمل وضربه الناس حتى مات . فقال النبي صلى الله عليه
 وسلم : "هَلَّا تَرَكَتُمُوهُ" وقال : أبو داود والنسائي ؛ ليتنبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 فأما لترك حدّ فلا . وهذا كله طريق للرجوع وتصريح بقبوله . وفي قوله عليه السلام :
 "لعلك قبلت أو عمزت" إشارة إلى قول مالك : إنه يقبل رجوعه إذا ذكر وجهها .

الخامسة - وهذا في الحر المالك لأمر نفسه ، فأما العبد فإن إقراره لا يخلو من أحد
 قسمين : إما أن يقتر على بدنه ، أو على ما في يده وذمته ، فإن أقتر على بدنه فيما فيه عقوبة من
 القتل فما دونه نفذ ذلك عليه . وقال محمد بن الحسن : لا يقبل ذلك منه ؛ لأن بدنه مستغرق
 لحق السيد ، وفي إقراره إتلاف حقوق السيد في بدنه ؛ ودليلنا قوله صلى الله عليه وسلم :
 "من أصاب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله فإن من يُبد لنا صفحته نُقم عليه الحد"
 المعنى أن محل العقوبة أصل الحلقة وهي [الدِّمِيَّة] (٣) في الآدمية ولا حق للسيد فيها ، وإنما حقه
 في الوصف والتبع وهي المالية الطارئة عليه ، ألا ترى أنه لو أقتر بمال لم يقبل حتى قال
 أبو حنيفة : إنه لو قال سرفت هذه السلعة أنه لم تقطع يده وأخذها المقتزله . وقال علماؤنا :
 السلعة للسيد ويُتبع العبد بقيمتها إذا عتق ؛ لأن مال العبد للسيد إجماعا ، فلا يقبل قوله فيه
 ولا إقراره عليه ، لا سيما وأبو حنيفة يقول : إن العبد لا ملك له . ولا يصح أن يملك
 ولا يملك ، ونحن وإن قلنا إنه يصح تملكه ، ولكن جميع ما في يده لسيدته بإجماع على
 القولين . والله أعلم .

(١) اللفظ في رواية لأبي داود . (٢) يشند : بعدو .

(٣) الصحيح من ابن العربي وفي الأصول «الدِّمِيَّة» .

قوله تعالى : لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۗ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ
 وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)
 كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) .

قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) في الترمذی عن سعید بن جبیر عن
 ابن عباس قال : كان رسول الله صلى عليه وسلم إذا نزل عليه القرآن يحرك به لسانه ، يريد أن
 يحفظه ، فأنزل الله تبارك وتعالى : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » قال : فكان يحرك به
 شفثيه . وحرك سفيان شفثيه . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . ولفظ مسلم عن
 ابن جبیر عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، كان يحرك
 شفثيه ، فقال لي ابن عباس : أنا أحركهما كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما ، فقال
 سعید : أنا أحركهما كما كان ابن عباس يحركهما بخرك شفثيه ، فأنزل الله عز وجل (لَا تُحَرِّكْ
 بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) قال جمعه في صدره ثم قرأه (فَإِذَا قَرَأْتَهُ
 فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) قال فاستمع له وانصت . ثم إن علينا أن نقرأه ، قال : فكان رسول الله صلى
 الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليهما السلام استمع ، وإذا أنطلق جبريل عليه السلام
 قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما أقرأه ، خرجه البخاري أيضا . ونظير هذه الآية قوله تعالى :
 « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ » وقد تقدم^(١) . وقال حاصر الشعبي : إنما
 كان يعجل بذكره إذا نزل عليه من حبه له ، وحلاوته في لسانه ، فنهى عن ذلك حتى يهتتمع ؛
 لأن بعضه مرتبط ببعض . وقيل : كان عليه السلام إذا نزل عليه الوحي حرك لسانه
 مع الوحي مخافة أن ينساه فنزلت « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ »
 ونزل « سُنُّرُوكُ فَلَا تَمَسُّهُ » ونزل « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ » قاله ابن عباس . « وَقُرْآنَهُ » أي
 وقراءته عليك . والقراءة والقرآن في قول الفراء مصدران . وقال قتادة : « فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ »

(١) راجع ج ١١ ص ٢٥٠

أى فأتبع شرائعه وأحكامه . وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَّانَهُ ﴾ أى تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام ؛ قاله قتادة . وقيل : ثم إن علينا بيان ما فيه من الوعد والوعيد وتحقيقهما . وقيل : أى إن علينا أن نبينه بلسانك . قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ قال ابن عباس : أى إن أبا جهل لا يؤمن بتفسير القرآن وبيانه . وقيل : أى « كَلَّا » لا يُصَلُّون ولا يزكون يريد كفار مكة . ﴿ بَلْ يُحِبُّونَ ﴾ أى بل يحبون يا كفار أهل مكة ﴿ الْعَاجِلَةَ ﴾ أى الدار الدنيا والحياة فيها ﴿ وَتَذَرُونَ ﴾ أى تدعون ﴿ الْآخِرَةَ ﴾ والعمل لها . وفى بعض التفسير قال : الآخرة الجنة . وقرأ أهل المدينة والكوفيون « بَلْ يُحِبُّونَ » « وَتَذَرُونَ » بالتاء فهما على الخطاب واختاره أبو عبيد ؛ قال : ولولا الكراهة لخلاف هؤلاء القراء لقرأتها بالياء ؛ لذكر الإنسان قبل ذلك . الباقيون بالياء على الخبر وهو اختيار أبي حاتم ، فمن قرأ بالياء فردا على قوله تعالى : « نَبَأُ الْإِنْسَانِ » وهو بمعنى الناس . ومن قرأ بالتاء فعلى أنه واجههم بالتفريع ؛ لأن ذلك أبلغ فى المقصود ؛ نظيره : « إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا » .

قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (الأول من النضرة التى هى الحسن والنعمه . والثانى من النظر أى وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة ؛ يقال : نَضَرَهُمُ اللهُ يَنْضُرُهُمْ نَضْرَةً وَنَضَارَةً وهو الإشراق والعيش والعتى ؛ ومنه الحديث " نَضَرَ اللهُ أُمَّرَاءَ سَمِيعِ مِقَالَتِي فَوَعَاها " . « إِلَىٰ رَبِّهَا » إلى خالقها ومالكها « نَاظِرَةٌ » أى تنظر إلى ربها ؛ على هذا جمهور العلماء . وفى الباب حديث ضُهِيبٌ نَحْرَهُ مَسْلَمٌ وَقَدْ مَضَىٰ فِي « يُونُسَ » عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » . وكان ابن عمر يقول : أكرم أهل الجنة

(١) نضره ونضره بالتشديد وأنضره أى نعمه ، بروى الحديث بالتخفيف والتشديد من النضارة وهى فى الأصل حسن

الوجه والبريق . (٢) راجع ج ٨ ص ٢٣٠

على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية . ثم تلا هذه الآية « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » . وروى يزيد النحوي عن عكرمة قال : تنظر إلى ربها نظرا . وكان الحسن يقول : نضرت وجوههم ونظروا إلى ربهم .

وقيل : إن النظر هنا أنتظار ما لهم عند الله من الثواب . وروى عن ابن عمر ومجاهد . وقال عكرمة : تنتظر أمر ربها . حكاه الماوردي عن ابن عمر وعكرمة أيضا . وليس معروفا إلا عن مجاهد وحده . واحتجوا بقوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » وهذا القول ضعيف جدا ، خارج عن مقتضى ظاهر الآية والأخبار . وفي الترمذي عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه وسريره مسيرة ألف سنة وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » قال هذا حديث غريب . وقد روى عن ابن عمر ولم يرفعه . وفي صحيح مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « جنتان من فضة آنتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جلّ وعزّ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » . وروى جرير بن عبد الله قال : كما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوسا ، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ » متفق عليه . وخرجه أيضا أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وخرج أبو داود عن أبي رزين العقيلي قال : قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه ؟ قال ابن معاذ : محليا به يوم القيامة ؟ قال : « نعم يا أبا رزين » قال : وما آية ذلك في خلقه ؟ قال « يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر » قال ابن معاذ : ليلة البدر محليا به . قلنا : بلى . قال : « فالله أعظم » [قال ابن معاذ قال] :

(١) الزيادة من مسند أبي داود .

” فإنما هو خلق من خلق الله – يعني القمر – فالله أجل وأعظم “ . وفي كتاب النسيان عن صهيب قال : ” فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر ولا أفتر لأعينهم “ وفي التفسير لأبي إسحق الثعلبي عن الزبير عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يتجلى ربنا عز وجل حتى ينظروا إلى وجهه فيخزون له سُجَّداً فيقول أرفعوا رؤوسكم فليس هذا بيوم عبادة “ قال الثعلبي : وقول مجاهد أنها بمعنى تنتظر الثواب من ربها ولا يراه شيء من خلقه فتأويل مدخول ؛ لأن العرب إذ أرادت بالنظر الانتظار قالوا نظرت به كما قال تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ » « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ » و « مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً » وإذا أرادت به التفكير والتدبر قالوا نظرت فيه ، فأما إذا كان النظر مقروناً بذكر إلى وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعيان . وقال الأزهري : إن قول مجاهد تنتظر ثواب ربها خطأ ؛ لأنه لا يقال نظر إلى كذا بمعنى الانتظار ، وإن قول القائل نظرت إلى فلان ليس إلا رؤية عين ، كذلك تقوله العرب ؛ لأنهم يقولون نظرت إليه إذا أرادوا نظر العين ، فإذا أرادوا الانتظار قالوا نظرت به ؛ قال : —

فَإِنَّمَا إِنِّي تَنْظُرَانِي سَاعَةً * مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جَنْدَبٍ

لما أراد الانتظار قال تنظراني ولم يقل تنظران إلى ؛ وإذا أرادوا نظر العين قالوا نظرت إليه ؛ قال : —

نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَالنُّجُومُ كَأَنَّهَا * مَصَابِيحُ رُهْبَانٍ تُشَبُّ لِقْفَالِ^(١)

وقال آخر : —

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مَنِي * وَبِإِذَا نَظَرْتُ لَوْلَا التَّجْرِجُ عَارِمُ^(٢)

وقال آخر :

إِنِّي إِلَيْكَ لِمَا وَعَدْتَ لِنَظَرِي * نَظَرَ الْفَقِيرِ إِلَى الْغَنِيِّ الْمُوَسِّرِ

(١) تشب : توقد . والقفال جمع قافل وهو الراجع من السفر . والبيت من قصيدة لأمرئ القيس .

(٢) في نسخ الأصل نظرة ، والصواب ما ذكرنا كما في ديوان قائله وهو عمر بن ربيعة .

أى إني أنظر إليك بذل ؛ لأن نظر الذل والخضوع أرق لقلب المسئول ؛ فأما ما
استدلوا به من قوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » فإنه ذلك
في الدنيا . وقد مضى القول فيه في موضعه مستوفى . وقال عطية العوفى : ينظرون
إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظامته ، ونظره يحيط بهم ، يدل عليه « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ
وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » قال القشيري أبو نصر : وقيل : «إلى» واحد الآلاء أى نعمه متظرة .
وهذا أيضا باطل ؛ لأن واحد الآلاء يكتب بالألف لا بالياء ، ثم الآلاء نعمه الدفع ، وهم
في الجنة لا ينتظرون دفع نقمة عنهم ، والمتنظر للشيء مُتَنَفِّص العيش فلا يوصف أهل الجنة
بذلك . وقيل : أضاف النظر إلى الوجه ؛ وهو كقوله تعالى : « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ »
والماء يجري في النهر لا النهر . ثم قد يذكر الوجه بمعنى العين ؛ قال الله تعالى : « فَأَلْقُوهُ عَلَى
وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا » أى على عينه . ثم لا يبعد قلب العادة غدا حتى يخلق الرؤية والنظر
في الوجه ؛ وهو كقوله تعالى : « أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ » فقيل : يارسول الله ! كيف
يمشون في النار على وجوههم؟ قال : «الذى أمشاهم على أقدامهم قادر أن يشيهم على وجوههم» .
(وَوَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ بِأَسْرَةٍ) أى وجوه الكفار يوم القيامة كالحلة كاسفة عابسة . وفي الصحاح :
وَبَسَرَ الْفَحْلُ النَّاقَةَ وَأَبْتَسَرَهَا إِذَا ضَرَبَهَا مِنْ غَيْرِ ضَبَعَةٍ ، وَبَسَرَ الرَّجُلُ وَجْهَهُ بِسُورٍ أَوْ كَلْحٍ
يَقَالُ : عَبَسَ وَبَسَرَ . وقال السدي : « بِأَسْرَةٍ » أى متغيرة والمعنى واحد . (تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا
فَاقِرَةٌ) أى توقن وتعلم ، والفاقرة الداهية والأمر العظيم ؛ يقال : فقرته الفاقرة أى كسرت
فقار ظهره . قال معناه مجاهد وغيره . وقال قتادة : الفاقرة الشر . السدي : الهلاك . ابن
عباس وابن زيد : دخول النار . والمعنى متقارب . وأصلها الوسم على أنف البعير بحديدة أو
نار حتى يخاص إلى العظم ؛ قاله الأصمعي . يقال : فقرت أنف البعير إذا حزته بحديدة
ثم جعلت على موضع الحز الجبرير وعليه وتر ملوى^(٣) لتدليله بذلك وتروضه ؛ ومنه قولهم : قد
عُجِّلَ بِهِ الْفَاقِرَةُ . وقال النابغة :

(١) راجع ج ٧ ص ٥٤ (٢) هكذا في كل الأصول . (٣) الجبرير جبل من آدم يخلم به البعير .

أَبَى لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي * وَضَرْبَةٌ فَأَسُ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَةٌ

أى كاسرة .

قوله تعالى : كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالتَّتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ « كَلَّا » رَدْعٌ وَزَجْرٌ أَيْ بَعِيدٌ أَنْ يُؤْمِنَ الْكَافِرُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ فَقَالَ : « إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أَيْ بَلَغَتِ النَّفْسُ أَوْ الرُّوحُ التَّرَاقِيَ ، فَأَخْبَرَ عَمَّا لَمْ يَجْرُلْهُ ذَكَرَ لِعَلِّمِ الْمَخَاطِبَ بِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ » وَقَدْ تَقَدَّمَ ^(١) وَقِيلَ : « كَلَّا » مَعْنَاهُ حَقًّا أَيْ حَقًّا إِنْ الْمَسَاقُ إِلَى اللَّهِ « إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أَيْ إِذَا آرْتَقَتِ النَّفْسُ إِلَى التَّرَاقِي . وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ : إِذَا بَلَغَتِ نَفْسَ الْكَافِرِ التَّرَاقِيَ . وَالتَّرَاقِي جَمْعُ تَرْقُوعٍ وَهِيَ الْعِظَامُ الْمَكْتَنَفَةُ لِنُقْرَةِ النَّحْرِ ، وَهِيَ مَقْدَمُ الْخَلْقِ مِنْ أَعْلَى الصُّدْرِ ، وَهِيَ مَوْضِعُ الْحَشْرَجَةِ ، قَالَ دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَةِ ^(٢) .

وَرُبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعَتْ عَنْهُمْ * وَقَدْ بَلَغَتْ نَفْسُهُمُ التَّرَاقِيَ

وقد يكتفى عن الإشفاء على الموت ببلوغ النفس التراقي ، والمقصود تذكيرهم بشدة الحال عند نزول الموت .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ اختلف فيه فقيل : هو من الرقية ، عن ابن عباس وعكرمة وغيرهما . روى سماك عن عكرمة قال : مَنْ رَاقٍ يَرْقِي أَيْ يَشْفِي . وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس : أَيْ هَلْ مِنْ طَبِيبٍ يَشْفِيهِ ، وَقَالَ أَبُو فَلَابَةَ وَقَتَادَةَ ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ : هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ رَاقٍ * أَمْ هَلْ لَهُ مِنْ جَمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقٍ

(١) راجع ج ١٥ ص ١٩٥ وج ١٧ ص ٢٣٠ فابدها .

(٢) كذا في الأصل والبيت لابنته عمرة من قصيدة لها ترقى بها أباها كما في شعراء النصرانية .

وكان هذا على وجه الاستبعاد والياس ؛ أى من يقدر أن يرقى من الموت . وعن ابن عباس أيضا وأبى الجوزاء أنه من رقى يرقى إذا صعد ، والمعنى : من يرقى بروحه إلى السماء ؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ وقيل : إن ملك الموت يقول من راقى ؟ أى من يرقى بهذه النفس ؛ وذلك أن نفس الكافر تكره الملائكة قريبا ، فيقول ملك الموت : يا فلان أصعد بها . وأظهر عاصم وقوم النون فى قوله تعالى : « مَنْ رَاقٍ » واللام فى قوله : « بَلْ رَانَ » لئلا يشبه مرآق وهو بائع المرقة ، وبرآن فى تثنية البر . والصحيح ترك الإظهار ، وكسرة القاف فى « مَنْ رَاقٍ » وفتحة النون فى « بَلْ رَانَ » تكفى فى زوال اللبس . وأمثلة مما ذكره : قصد الوقف على « مَنْ » و « بَلْ » فأظهرهما ؛ قاله الفشيري .

قوله تعالى : (وَظَنَّ) أى أيقن الإنسان (أَنَّهُ الْفِرَاقُ) أى فراق الدنيا والأهل والمال والولد ، وذلك حين عين الملائكة . وقال الشاعر :

فِرَاقٌ لَيْسَ يُشَبَّهُهُ فِرَاقٌ * قَدْ أَنْقَطَعَ الرَّجَاءُ عَنِ التَّلَاقِ

(وَأَلْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) أى فأصلت الشدة بالشدة ؛ شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة ؛ قاله ابن عباس والحسن وغيرهما . وقال الشعبي وغيره : المعنى ألتفت ساقا الإنسان عند الموت من شدة الكرب . وقال قتادة : أما رأيت إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجله على الأخرى . وقال سعيد بن المسيب والحسن أيضا : هما ساقا الإنسان إذا التفتا فى الكفن . وقال زيد بن أسلم : ألتفت ساق الكفن بساق الميت . وقال الحسن أيضا : ماتت رجلاه ، ويبست ساقاه فلم تحملاه ، ولقد كان عليهما جؤالا . قال النحاس : القول الأول أحسنها . وروى على ابن أبى طلحة عن ابن عباس : « وَأَلْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ » قال آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة ، فتلقى الشدة بالشدة إلا من رحمه الله ؛ أى شدة كرب الموت بشدة هول المطع ؛ والدليل على هذا قوله تعالى : « إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ » وقال . مجاهد : بلاء بلاء . يقول : تناهت عليه الشدائد . وقال الضحاك وابن زيد : أجمع عليه أمران شديدان الناس يُجهزون جسده والملائكة يُجهزون رُوحه ، والعرب لا تذكر الساق إلا فى المهن

والشدائد العظام ؛ ومنه قولهم : قامت الدنيا على ساق ، وقامت الحرب على ساق .
قال الشاعر :

« وقامت الحربُ بنا على ساق ^(١) *

وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة « ن وَالْقَلَمِ » ^(٢) . وقال قوم : الكافر تُعَذِّبُ رُوحَهُ عند خروج نفسه فهذه الساق الأولى ، ثم يكون بعدهما ساق البعث وشدائده . (إِلَى رَبِّكَ) أى إلى خالقك (يَوْمئِذٍ) أى يوم القيامة (الْمَسَاقُ) أى المرجع . وفي بعض التفاسير قال : يسوقه ملكه الذى كان يحفظ عليه السيئات . والمساق المصدر من ساق يسوق ، كالمقال من قال يقول .

قوله تعالى : فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ^(٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ^(٣٢)
ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمِطُّ ^(٣٣) أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ^(٣٤) ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ
فَأُولَىٰ ^(٣٥)

قوله تعالى : (فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى) أى لم يصدق أبو جهل ولم يُصَلِّ . وقيل : يرجع هذا إلى الإنسان في أول السورة وهو أسم جنس . والأول قول ابن عباس . أى لم يصدق بالرسالة « وَلَا صَلَّى » ودعا لربه وصلى على رسوله . وقال قتادة : فلا صدق بكتاب الله ولا صلى لله . وقيل : ولا صدق بماله ذخراله عند الله ، ولا صلى الصلوات التى أمره الله بها . وقيل : فلا آمن بقلبه ولا عمل بيده . قال الكسائى : « لا » بمعنى لم ولكنه يقرن بغيره ؛ تقول العرب : لا عبد الله خارج ولا فلان ، ولا تقول : مررت برجل لا مُحْسِن حتى يقال ولا يُجْمَل ، وقوله تعالى : « فَلَا أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ » ليس من هذا القبيل ؛ لأن معناه أفلا أقتحم ؛ أى فهلا أقتحم فحذف ألف الاستفهام . وقال الأخفش : « فَلَا صَدَقَ » أى لم يصدق ؛ كقوله : « فَلَا أَقْتَحَمَ » أى لم يقتحم ولم يشترط أن يعقبه

(١) صدر البيت : • صبرا أمام إنه شرباق •

(٢) راجع ج ١٨ ص ٢٤٨ وما بعدها .

بشيء آخر، والعرب تقول : لاذهب أى لم يذهب ، فحرف النفي ينفي الماضى كما ينفي المستقبل ؛ ومنه قول زهير :

• فَلَا هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَقَدَّمْ ^(۱) •

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ أى كذب بالقرآن وتولى عن الإيمان ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِي ﴾ أى يتبختر افتخارا بذلك ، قاله مجاهد وغيره . مجاهد : المراد به أبو جهل . وقيل : « يَمْتَطِي » من المَطَا وهو الظُّهْر والمعنى يَلْوِي مَطَاه . وقيل : أصله يَمْتَطِط وهو التمدد من التكسل والتناقل ، فهو يتناقل عن الداعى إلى الحق ؛ فأبدل من الطاء ياء كراهة التضعيف والتمطى يدل على قلة الآكثرات وهو التمدد ، كأنه يمد ظهره ويلويه من التبخر . والمَطِيطَةُ الماء الخائر فى أسفل الحوض ؛ لأنه يَمْتَطِط أى يمتد ؛ وفى الخبر " إذا مشت أمتى المَطِيطَاء ^(۲) وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم " والمَطِيطَاء التبخر ومد اليدين فى المشى .

قوله تعالى : ﴿ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ . ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ ﴾ تهديد بعد تهديد ، ووعيد بعد وعيد ، أى فهو وعيد أربعة لأربعة ؛ كما روى أنها نزلت فى أبى جهل الجاهل بربه فقال : « فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى . وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى » أى لاصدق رسول الله ، ولا وقف بين يديّ فصلّى ، ولكن كذب رسولى وتولى عن التصلية بين يديّ . فترك التصديق خصلة ، والتكذيب خصلة ، وترك الصلاة خصلة ، والتولى عن الله تعالى خصلة ، بخاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربعة . والله أعلم . لايقال : فإن قوله « ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِي » خصلة خامسة ؛ فإننا نقول : تلك كانت عادته قبل التكذيب والتولى فأخبر عنها . وذلك بين فى قول قتادة على ما ذكره . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المسجد ذات يوم ، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد مما يل باب بنى مخزوم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم

(۱) صدر البيت : • وكان طوى كشعا على مستكنة •

(۲) المَطِيطَاء يمدد بقصر فالأثر : وهى من المصغرات التى لم يستعمل لها مكبر .

(۳) فى نسخة ذات ليلة .

بيده ، فهزه مرة أو مرتين ثم قال له : ” أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى “ فقال له أبو جهل : أتهددني؟ فوالله إني لأعزُّ أهل الوادي وأكرمه . ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال لأبي جهل . وهي كلمة وعيد . قال الشاعر :

فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى * وَهَلْ لِلدَّرِّ يُحْلِبُ مِنْ مَرَدِّ

قال قتادة : أقبل أبو جهل بن هشام يتبختر فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيده فقال : ” أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى “ فقال : ما تستطيع أنت ولا ربك لي شيئا ، إني لأعزُّ من بين جليها . فلما كان يوم بدر أشرف على المسلمين فقال : لا يُعبد الله بعد هذا اليوم أبدا . فضرب الله عنقه وقتله شريقتة . وقيل : معناه الويل لك ، ومنه قول الخنساء :

هَمَمْتُ بِنَفْسِي كُلِّ الْهُمُومِ * فَأَوْلَى لِنَفْسِي أَوْلَى لَهَا
سَأَحْمِلُ نَفْسِي عَلَى آلَةٍ * فَإِمَّا عَلَيْهَا وَإِمَّا لَهَا

الآلة الحالة والآلة السرير أيضا الذي يحمل عليه الميت ؛ وعلى هذا التأويل قيل : هو من المقلوب ؛ كأنه قيل : أويل ، ثم أخر الحرف المعتل ، والمعنى الويل لك حيا والويل لك ميتا ، والويل لك يوم البعث ، والويل لك يوم تدخل النار ؛ وهذا التكرير كما قال ^(٢) :

* لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي *

أى لك الويل ثم الويل ثم الويل ، وضَعَفَ هذا القول . وقيل : معناه الذم لك أولى من تركه إلا أنه كثير في الكلام فحذف . وقيل : المعنى أنت أولى وأجدر بهذا العذاب . وقال أبو العباس أحمد بن يحيى : قال الأصمعي أَوْلَى في كلام العرب معناه مُقَارَبَةُ الْهَلَاكِ ، كأنه يقول : قد وَلَيْتَ الْهَلَاكَ ، قد دَانَيْتَ الْهَلَاكَ ؛ وأصله من الْوَلَى وهو الْقُرْبُ ؛ قال الله

(١) في نسخ من الأصل على آلة بفتح نشد وهي الحربة وصوابه آلة أى حالة .

(٢) هو أمرؤ القيس ، والبيت بتمامه :

ويوم دخلت الخدر خدر عذبة * فقالت لك الويلات إنك مرجلي

تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ » أى يَقْرُبُونَ مِنْكُمْ ؛ وَأَنْشُدِ الْأَصْمَعِيَّ :

* وَأَوْلَىٰ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْوَلَاءُ *

أى قارب أن يكون له ؛ وَأَنْشُدِ أَيْضًا :

* أَوْلَىٰ لِمَنْ هَاجَتْ لَهُ أَنْ يَكْدَا *

أى قد دنا صاحبها الكمد . وكان أبو العباس ثعلب يستحسن قول الأصمعي ويقول : ليس أحد يفسر كتفسير الأصمعي . النحاس : العرب تقول أولى لك كدت تهلك ثم أفلت ، وكان تقديره : أولى لك وأولى بك الهلكة . المهدي قال : ولا تكون أولى أفعل منك ، وتكون خبر مبتدأ محذوف ، كأنه قال : الوعيد أولى له من غيره ؛ لأن أبا زيد قد حكى : أَوْلَاةُ الْآنَ إِذَا أَوْعَدُوا . فدخول علامة التانيث دليل على أنه ليس كذلك . و«لَكَ» خبر عن «أولى» . ولم ينصرف «أولى» لأنه صار علما للوعيد فصار كرجل اسمه أحمد . وقيل : التكرير فيه على معنى ألزم لك على عمك السىء الأول ، ثم على الثانى والثالث والرابع كما تقدم .

قوله تعالى : **أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نَظْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَتْ عَلَقَةً نَّخْلًا فَسَوَىٰ ﴿٣٨﴾ فَعَمَلٍ مِّنْهُ** **الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخَيَّرَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾**

قوله تعالى : **(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ)** أى يظن ابن آدم **(أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)** أى أن يُخَلَّى مُهْمَلًا فَلَا يُؤَمَّرُ وَلَا يُنْهَى ؛ قاله ابن زيد ومجاهد ، ومنه إبل سُدَى تَرعى بلا راع . وقيل : يحسب أن يترك فى قبره كذلك أبدا لا يُبْعَث . وقال الشاعر :

فَأَقِمْ بِاللَّهِ جِهَدَ الْيَمِينِ • مَا تَرَكَ اللَّهُ شَيْئًا سُدًى

قوله تعالى : (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْتَنَى)^(١) أى من قطرة ماء تُمنَى في الرَّحِمِ أى تُراق فيه ؛ ولذلك سميت مَنِيٍّ لإِراقَةِ الدَّماءِ . وقد تقدّم . والنطفة الماء القليل ؛ يقال : نطف الماء إذا قطر . أى ألم يك ماء قليلا فى صُلب الرجل وترائب المرأة . وقرأ حفص « مِنْ مَنِيٍّ يُنْتَنَى » بالياء وهى قراءة ابن محيصن ومجاهد ويعقوب وعياش عن أبى عمرو وأختره أبو عبيد لأجل المنيّ . الباقون بالنساء ؛ لأجل النطفة وأختره أبو حاتم . (ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً) أى دما بعد النطفة ، أى قد رَبَّه تعالى بهذا كله على خِسة قدره . ثم قال : (نَخَلَقَ) أى فقدر (فَسَوَى) أى فسوّاه تسوية وعدله تعديلا يجعل الروح فيه (بِفَعْلٍ مِنْهُ) أى من الإنسان . وقيل : من المنيّ . (الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى) أى الرجل والمرأة . وقد أحتج بهذا من رأى إسقاط الخنثى . وقد مضى فى سورة « الشورى »^(٢) أن هذه الآية وقرينتها إنما نخرجنا مخرج الغالب . وقد مضى فى أول سورة « النساء »^(٣) أيضا القول فيه ، وذكرنا فى آية الموارد حكمة فلا معنى لإعادته (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ) أى أليس الذى قدر على خلق هذه النَّسْمَةِ من قطرة من ماء (بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) أى على أن يعيد هذه الأجسام كهيئتها للبعث بعد البلى . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها قال : « سبحانك اللهم وبلى » وقال ابن عباس : من قرأ « سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » إماما كان أو غيره فليقل : « سبحان ربى الأعلى » ومن قرأ « لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » إلى آخرها إماما كان أو غيره فليقل : « سبحانك اللهم بلى » ذكره الثعلبى من حديث أبى إسحق السَّبَّيْعَى عن سعيد ابن جبیر عن ابن عباس . ختمت السورة والحمد لله .

(١) راجع ج ١٧ ص ١١٨ و ص ٢١٦

(٢) راجع ج ١٦ ص آية ٥٢

(٣) راجع ج ٥ ص ٢

سورة الانسان

وهي إحدى وثلاثون آية

مكية في قول ابن عباس ومقاتل والكلبي . وقال الجمهور : مدنية . وقيل : فيها مكي ، من قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا » إلى آخر السورة وما تقدمه مدني .

وذكر ابن وهب قال : وحدثنا ابن زيد قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقرأ « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ » وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود كان يسأل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له عمر بن الخطاب : لا تُثقل على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « دَعَا يَا بَنِي الْخَطَابِ » قال : فنزلت عليه هذه السورة وهو عنده ، فلما قرأها عليه وبلغ صفة الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَخْرَجَ نَفْسٌ صَاحِبِكُمْ - أَوْ أَخِيكُمْ - الشُّوقُ إِلَى الْجَنَّةِ » وروى عن ابن عمر بخلاف هذا اللفظ وسيأتي . وقال القشيري : إن هذه السورة نزلت في علي بن طالب رضي الله عنه . والمقصود من السورة عام . وهكذا القول في كل ما يقال إنه نزل بسبب كذا وكذا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَاهُ الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

قوله تعالى : (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا) « هَلْ » بمعنى قد ، قاله الكسائي والفراء وأبو عبيدة . وقد حكى عن سيبويه « هل » بمعنى قد . قال الفراء : هل تكون بحمدا وتكون خبرا فهذا من الخبر ، لأنك تقول : هل أعطيتك؟ تُقرره

بأنك أعطيته، والمجد أن تقول : هل يقدر أحد على مثل هذا . وقيل : هي بمنزلة الاستفهام ، والمعنى أتى . والإنسان هنا آدم عليه السلام ، قاله قتادة والثوري وعكرمة والسدي . وروى عن ابن عباس « حِينَ مِنَ الدَّهْرِ » قال ابن عباس في رواية أبي صالح : أربعون سنة مرت به ، قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملق بين مكة والطائف . وعن ابن عباس أيضا في رواية الضحاك أنه خلق من طين ، فأقام أربعين سنة ، ثم من حمي مسنون أربعين سنة ، ثم من صلصال أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة . وزاد ابن مسعود فقال : أقام وهو من تراب أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وستين سنة ، ثم نفخ فيه الروح . وقيل : الحين المذكور هاهنا لا يُعرف مقداره . عن ابن عباس أيضا . حكاه الماوردي . « لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكَورًا » قال الضحاك عن ابن عباس : لا في السماء ولا في الأرض . وقيل : أى كان جسدا مصورا ترابا وطينا لا يُذكر ولا يُعرف ولا يُدرى ما اسمه ولا ما يراد به ، ثم نُفخ فيه الروح فصار مذكورا ؛ قاله الفراء وقطرب وثلعب . وقال يحيى بن سلام : لم يكن شيئا مذكورا في الخلق وإن كان عند الله شيئا مذكورا . وقيل : ليس هذا الذكر بمعنى الإخبار فإن إخبار الرب عن الكائنات قديم ، بل هذا الذكر بمعنى الخطر والشرف والقدر ؛ تقول : فلان مذكور أى له شرف وقدر . وقد قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » أى قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قدر عند الخليفة . ثم لما عرّف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة ، وحمله الأمانة التي عجز عنها السموات والأرض والجبال ، ظهر فضله على الكل فصار مذكورا . قال القشيري : وعلى الجملة ما كان مذكورا للخلق وإن كان مذكورا لله . وحكى محمد بن الجهم عن الفراء : « لَمْ يَكُنْ شَيْئًا » قال : كان شيئا ولم يكن مذكورا . وقال قوم : النفي يرجع إلى الشيء ؛ أى قد مضى مُدَد من الدهر وآدم لم يكن شيئا يذكر في الخليفة ؛ لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليفة ، والمعدوم ليس بشيء حتى يأتي عليه حين . والمعنى قد مضت عليه أزمانه وما كان آدم شيئا ولا مخلوقا ولا مذكورا لأحد من الخليفة . وهذا معنى قول قتادة ومقاتل . قال قتادة : إنما خلق الإنسان حديثا ما نعلم من خليفة الله جل ثناؤه خليفة

كانت بعد الإنسان . وقال مقاتل : في الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً ؛ لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله ، ولم يخلق بعده حيواناً . وقد قيل : « الإنسان » في قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حينٌ » عنى به الجنس من ذرية آدم ، وأن الحين تسعة أشهر مدة حمل الإنسان في بطن أمه « لم يكن شيئاً مذكوراً » إذ كان علقه ومضغه ؛ لأنه في هذه الحالة جماد لا خطر له . وقال أبو بكر رضى الله عنه لما قرأ هذه الآية : ليتها تمت فلا يُبتلى . أى ليت المدة التي أتت على آدم لم تكن شيئاً مذكوراً تمت على ذلك فلا يلد ولا يُبتلى أولاده . وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً يقرأ « هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » فقال ليتها تمت .

قوله تعالى : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ) أى ابن آدم من غير خلاف (مِنْ نُطْفَةٍ) أى من ماء يقطر وهو المنى ، وكل ماء قليل في وعاء فهو نطفة ؛ كقول عبد الله بن رَوَاحَةَ يعاتب نفسه :
مَالِي أَرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ * هل أنتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شِنَةِ^(۱)

وجمعها نُطْفٌ وَنُطَافٌ . (أَمْشَاجٌ) أخلاط واحدها مِشْجٌ وَمِشِيجٌ مثل خِذْنٌ وَخِذِينٌ ؛ قال رؤبة :

يَطْرَحْنَ كُلُّ مُعْجَلٍ نَشَاجٍ * لَمْ يُكْسَ جِلْدًا فِي دَمِ أَمْشَاجٍ

ويقال : مَشَجْتُ هذا بهذا أى خلطته فهو مَمْشُوجٌ وَمِشِيجٌ مثل مَخْلُوطٌ وَخَلِيطٌ . وقال المبرد : واحد الأَمْشَاجِ مَشِيجٌ يقال مَشِجَ يَمْشِجُ إذا آخَلَطَ وهو هنا آخَلَطَ النُطْفَةَ بِالدَّمِ ؛ قال الشَّيْخُ :

طَوْتُ أَحْشَاءَ مُرْتَبِجَةٍ لَوْقَتٍ * عَلَى مَشِجٍ سُلَالَتُهُ مَهِينٌ

وقال الفراء : أَمْشَاجٌ أخلاط ماء الرجل وماء المرأة والدَّمُ وَالْعَلَقَةُ ، ويقال للشئ من هذا إذا خُلِطَ مِشِيجٌ كَقَوْلِكَ خَلِيطٌ ، وَمَمْشُوجٌ كَقَوْلِكَ مَخْلُوطٌ . وروى عن ابن عباس رضى الله عنه

(۱) الشنة : القرية .

قال : الأمشاج الحمرة في البياض والبياض في الحمرة . وهذا قول يختاره كثير من أهل اللغة ؛ قال الهدلي^(١) :

كَانَ الرَّيْسَ وَالْفُوقَيْنِ مِنْهُ * خِلَافَ النَّصْلِ سَيْطَ بِهِ مَشِيحُ

وعن ابن عباس^(٢) أيضا قال : يختلط ماء الرجل وهو أبيض غليظ بماء المرأة وهو أصفر رقيق فيخلق منهما الولد ، فما كان من عصب وعظم وقوة فهو من ماء الرجل ، وما كان من لحم ودم وشعر فهو من ماء المرأة . وقد روى هذا مرفوعا ؛ ذكره البزار . وروى عن ابن مسعود : أمشاجها عروق المضغة . وعنه : ماء الرجل وماء المرأة وهما لونان . وقال مجاهد : نطفة الرجل بيضاء وحمراء ونطفة المرأة خضراء وصفراء . وقال ابن عباس : خلق من ألوان ؛ خلق من تراب ، ثم من ماء الفرج والرحم ، وهي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظم ثم لحم ونحوه . قال قتادة : هي أطوار الخلق ؛ طور علقة وطور نطفة وطور عظاما ثم يكسو العظام لحما ؛ كما قال في سورة «المؤمنين» «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» الآية . وقال ابن السكيت : الأمشاج الأخلاط ؛ لأنها ممتزجة من أنواع لخلق الإنسان منها ذا طبائع مختلفة . وقال أهل المعاني : الأمشاج ما جمع وهو في معنى الواحد ؛ لأنه نعت للنطفة ؛ كما يقال : برمة أعشار^{ووردت} وثوب أخلاق . وروى عن أبي أيوب الأنصاري : قال جاء خبر من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرني عن ماء الرجل وماء المرأة ؛ فقال : «ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فإذا علا ماء المرأة آنتت وإذا علا ماء الرجل أذكرت» فقال الخبر : أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله . وقد مضى هذا القول مستوفى في سورة «البقرة» . (نَبْتِيهِ) أي نختبره . وقيل : نقدر فيه الابتلاء وهو الاختبار . وفيما يختبر به وجهان ؛ أحدهما —

(١) هو عمرو بن الداخل الهدلي : سيط به أي نرج قذذ من الريس مختلط من الدم والماء .

(٢) وفي حاشية الجمل نقلا عن القرطبي ما يأتي :

والمعنى : «من نطفة قد آتتج فيها المسمان وكل منهما مختلف الأجزاء . تباين الأوصاف في الرقة والنعن والذوام ، والحواس تجتمع من الأخلاط وهي العناصر الأربعة ، ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان الشبه له .»

نختبره بالخير والشر؛ قاله الكاظمي . الثاني — نختبر شكره في السراء وصبره في الضراء؛ قاله الحسن .
وقيل : « نَبْتَلِيهِ » نُكَلِّفُهُ . وفيه أيضا وجهان ؛ أحدهما — بالعمل بعد الخلق ؛ قاله مقاتل .
الثاني — بالدين ليكون مأمورا بالطاعة ومنهيا عن المعاصي . وروى عن ابن عباس : « نَبْتَلِيهِ »
نصرفه خلقا بعد خلق ؛ لنبتليه بالخير والشر . وحكى محمد بن الجهم عن الفراء قال : المعنى
والله أعلم (جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) لنبتليه وهي مُقَدِّمَةٌ معناها التأخير .

قلت : لأن الأبتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلق . وقيل : « جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا » يعني
جعلنا له سمعا يسمع به الهدى وبصرا يبصر به الهدى .

قوله تعالى : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) أى بينا له وعرفناه طريق الهدى والضلال
والخير والشر يبعث الرسل فآمن أو كفر ؛ كقوله تعالى : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » . وقال
مجاهد : أى بينا له السبيل إلى الشقاء والسعادة . وقال الضحاك وأبو صالح والسدي :
السبيل هنا خروج من الرحم . وقيل : منافعه ومضاره التى يهتدى إليها بطبعه وكمال عقله .
(إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) أى أيهما فعل فقد بينا له . قال الكوفيون : « إِنْ » ها هنا
تكون جزاء و « مَا » زائدة أى بينا له الطريق إن شَكَرَ أو كَفَرَ . وأختره الفراء ولم يجزه
البصريون ؛ إذ لا تدخل « إِنْ » للجزاء على الأسماء إلا أن يضم بعدها فعل . وقيل :
أى هديناه الرشداً أى بينا له سبيل التوحيد بنصب الأدلة عليه ؛ ثم إن خلقنا له الهداية أهتدى
وآمن ، وإن خذلناه كَفَرَ . وهو كما تقول : قد نصحت لك إن شئت فاقبل وإن شئت
فأترك ؛ أى فإن شئت فتحذف الفاء وكذا « إِمَّا شَاكِرًا » والله أعلم . ويقال : هديته السبيل
وللسبيل وإلى السبيل . وقد تقدم فى « الفَائِضَةُ ^(١) » وغيرها . وجمع بين الشاكر والكفور
ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما فى معنى المبالغة ؛ نفيًا للمبالغة فى الشكر وإثباتًا لها
فى الكفر ؛ لأن شكر الله تعالى لا يُؤدَّى فأنتفت عنه المبالغة ، ولم تنتف عن الكفر المبالغة ،
فقلَّ شكره لكثرة النعم عليه وكثُر كفره وإن قلَّ مع الإحسان إليه . حكاه الماوردى .

(١) راجع ج ١ ص ١٤٧ و ص ١٦٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا** ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : **(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا)** بين حال الفريقين ، وأنه تعبّد العقلاء وكلفهم ومكّنهم مما أمرهم فمن كفر فله العقاب ، ومن وحّد وشكر فله الثواب . والسلاسل القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعاً كما مضى في «الحاقّة» .
وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم وهشام عن ابن عامر «سَلَاسِلًا» متوناً . الباقون بغير تنوين . ووقف قُبُلْ وابن كثير وحمزة بغير ألف . الباقون بالألف . فأما «قَوَارِير»
الأول فنونه نافع وابن كثير والكسائي وأبو بكر عن عاصم ، ولم يتون الباقون . ووقف فيه يعقوب وحمزة بغير ألف . والباقون بالألف . وأما «قَوَارِير» الثانية فنونه أيضاً نافع والكسائي وأبو بكر ، ولم يتون الباقون ، فمن تون قرأها بالألف ، ومن لم يتون أسقط منها الألف ، وأختار أبو عبيد التنوين في الثلاثة ، والوقف بالألف أتباعاً لخط المصحف ، قال :
رأيت في مصحف عثمان «سَلَاسِلًا» بالألف و«قَوَارِيرًا» الأول بالألف وكان الثاني مكتوباً بالألف فكُتبت فرأيت أثرها هناك بيّناً . فمن صرف فله أربع حجج : أحدها — أن المجموع أشبهت الآحاد بجمعت جمع الآحاد ، فجعلت في حكم الآحاد فصرفت . الثانية — أن الأخفض حكى عن العرب صرف جميع ما لا ينصرف إلا أفعل منك ، وكذا قال الكسائي والفراء هو على لغة من يُجْر الأسماء كلها إلا قولهم هو أظرف منك فإنهم لا يُجْرُونه ؛ وأنشد ابن الأنباري في ذلك قول عمرو بن كلثوم :

كَأَنَّ سَيْفَنَا فِينَا وَفِيهِمْ * نَحَارِيقُ بِأَيْدِي لَاعِينَا

وقال لبيد :

وَجُرُورِ أَيْسَارِ دَعْوَتِ لِحْفِهَا * بِمَغَالِقِي مُتَشَابِهٍ أَجْسَامِهَا

وقال لبيد أيضاً :

فَضْلًا وَذُو كَرِيمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى * سَمْعٌ كَسُوبِ رَغَائِبِ غَنَامِهَا

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٧٢

فصرف مخاريق ومغالق ورغائب وسبيلها ألا تُصرف . والحجة الثالثة - أن يقول تونت قوارير الأول لأنه رأس آية، ورءوس الآي جاءت بالنون؛ كقوله جل وعز: «مذكورا». سَمِعًا بَصِيرًا» فنونا الأول ليوقف بين رءوس الآي، وتونا الثاني على الجوارر للأول . والحجة الرابعة - أتباع المصاحف وذلك أنهما جميعا في مصاحف مكة والمدينة والكوفة بالألف . وقد أحتج من لم يصرفهن بأن قال : إن كل جمع بعد الألف منه ثلاثة أحرف أو حرفان أو حرف مشدد لم يُصرف في معرفة ولا نكرة، فالذي بعد الألف منه ثلاثة أحرف قولك : قناديل ودنانير ومناديل ، والذي بعد الألف منه حرفان قول الله عز وجل : «لَهُدَّتْ صَوَامِعُ» لأن بعد الألف منه حرفين، وكذلك قوله : «وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا» والذي بعد الألف منه حرف مُشَدَّدٌ شَوَابٌ ودَوَابٌ . وقال خلف : سمعت يحيى بن آدم يحدث عن ابن إدريس قال : في المصاحف الأول الحرف الأول بالألف والثاني بغير ألف؛ فهذا حجة لمذهب حمزة . وقال خلف : رأيت في مصحف ينسب إلى قراءة ابن مسعود الأول بالألف والثاني بغير ألف . وأما أفعل منك فلا يقول أحد من العرب في شعره ولا في غيره هو أفعل منك متونا؛ لأن من تقوم مقام الإضافة فلا يجمع بين تنوين وإضافة في حرف؛ لأنهما دليلان من دلائل الأسماء ولا يجمع بين دليلين؛ قاله الفراء وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وَأَغْلَالًا ﴾ جمع غُلُّ تُغْلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم . وعن جبير بن نفير عن أبي الدرداء كان يقول : أرفعوا هذه الأيدي إلى الله جل ثناؤه قبل أن تُغْلُّ بالأغلال . وقال الحسن : إن الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار ؛ لأنهم أعجزوا الرب سبحانه ولكن إذلالا . (وسَمِعًا) تقدم القول فيه .

قوله تعالى : إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥٠﴾
عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٥١﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ) الأبرار أهل الصدق واحدهم برّ، وهو من أمثل أمر الله تعالى . وقيل : البر الموحد والأبرار جمع بار مثل شاهد وأشهد، وقيل : هو جمع برّ مثل نهر وأنهار، وفي الصحاح : وجمع البر الأبرار وجمع البار البررة، وفلان يبرّ خالقه ويتبرّه أى يطيعه والأم برّة بولدها . وروى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إنما سماهم الله أجل شأوه الأبرار لأنهم برّوا الآباء والأبناء كما أن لوالدك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حقاً “ . وقال الحسن : البرّ الذى لا يؤذى الذرّ . وقال قتادة : الأبرار الذين يؤذون حق الله ويوفون بالنذر . وفي الحديث : ” الأبرار الذين لا يؤذون أحدا “ . (يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ) أى من إناء فيه الشراب . قال ابن عباس : يريد الخمر . والكأس فى اللغة الإناء فيه الشراب ، وإذا لم يكن فيه شراب لم يُسمّ كأساً . قال عمرو بن كلثوم :

صَبَّنتِ الكَأْسَ عَنَّا أُمُّ عَمْرٍو * وكان الكأسُ مجراها اليميناً^(١)

وقال الأصمى : يقال صَبَّنتَ عَنَّا الهديةَ أو ما كان من معروف تصبُّنُ صبنا بمعنى كَفَفْتَ ؛ قاله الجوهري . (كَانَتْ مِرْأَجُهَا) أى شوبها وخلطها ؛ قال حسان :

كَانَتْ سَيْبَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ * يَكُونُ مِرْأَجُهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ^(٢)

ومنه مزاج البدن وهو ما يمازجه من الصفراء والسوداء والحرارة والبرودة . (كَافُورًا) قال ابن عباس : هو أسم عين ماء فى الجنة يقال له عين الكافور . أى يمازجه ماء هذه العين التى تسمى كافورا . وقال سعيد عن قتادة : مُمَزَّجٌ لَمْ بِالْكَافُورِ وَنُحْتَمَ بِالْمَسْكِ . وقاله مجاهد . وقال عكرمة : مِرْأَجُهَا طَعْمُهَا . وقيل : إنما الكافور فى ریحها لا فى طعمها . وقيل : أراد كالكافور فى بياضه وطيب رائحته وبرده ؛ لأن الكافور لا يشرب ؛ كقوله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا » أى نكار . وقال ابن كيسان : طُيِّبَ بِالْمَسْكِ وَالْكَافُورِ وَالزَّنْبَجِيلِ . وقال

(١) الرواية المشهورة فى الملقات : صددت الكأس .

(٢) السبيطة : الخمر . وسميت بذلك لأنها تشبى أى تشتبى لتشرب ؛ وفى بعض النسخ : كان خبيثة ، وهى المصونة

المضنون بها لغاستها . وبيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر .

مقاتل : ليس بكافور الدنيا ولكن سمي الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدى لها القلوب، وقوله :
« كَان مِزَاجُهَا » « كَان » زائدة أى من كأس مِزَاجُهَا كَافُورٌ . (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ)
قال الفراء : إن الكافور اسم لعين ماء في الجنة ؛ فـ«عَيْنًا» بدل من كافور على هذا . وقيل :
بدل من كأس على الموضع . وقيل : هى حال من المضمرة في مِزَاجُهَا . وقيل : نصب على
المدح ؛ كما يُذَكَّرُ الرَّجُلُ فتقول : العاقل اللبيب أى ذكرت العاقل اللبيب فهو نصب بإضمار
أعنى . وقيل : يشربون عينا . وقال الزجاج : المعنى من عين . ويقال : كافور وقافور .
والكافور أيضا وعاء طلع النخل وكذلك الكُفُورُ . قاله الأصمعي .

وأما قول الراعى :

تَكْسُو المَفَارِقَ وَاللَّبَاتِ ذَا أَرَجٍ * مِ ن قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكَافُورِ دَرَاَجِ

فإن الظبي الذى يكون منه المسك إنما يرعى سُنبُلَ الطَّيْبِ بفعله كافورا . (يَشْرَبُ بِهَا)
قال الفراء : يشرب بها ويشربها سواء في المعنى ، وكأن يشرب بها يروى بها وينقع ؛ وأنشد :
شَرِبْنَ بِمَاءِ البَحْرِ ثُمَّ تَرَفَعَتْ * مَتَى بُلُحْجِ خُضِرٍ هَلُنَّ نَبِيحٌ^(١)

قال : ومثله فلان يتكلم بكلام حسن ويتكلم كلاما حسنا . وقيل : المعنى يشربها والباء
زائدة . وقيل : الباء بدل « من » تقديره يشرب منها ؛ قاله القتيبي . (يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا)
فيقال : إن الرجل منهم يمشى في بيوتاته ويصعد إلى قصوره ، ويده قضيب يشير به إلى
الماء فيجرى معه حينما دار في منازل على مستوى الأرض في غير أخدود ، ويتبعه حينما صعد
إلى أعلى قصوره ؛ وذلك قوله تعالى : « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا »
أى يُشَقِّقُونَهَا شَقًّا كما يفجر الرجل النهر ها هنا وها هنا إلى حيث يريد . وعن ابن أبي نجيح عن
مجاهد « يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا » يقودونها حيث شاءوا ، وتتبعهم حينما مالوا مالت معهم . وروى

(١) قاله أبو ذؤيب يصف السحابات ، والباء في « بقاء » بمعنى « من » و« متى » معناها « في » في لغة هذيل

[ونبيح : أى مرمر يع مع صوت .

ابو مقاتل عن أبي صالح عن سعد عن أبي سهل^(١) عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع عيون في الجنة عينان تجريان من تحت العرش إحداهما التي ذكر الله « يُفَجَّرُونَهَا تَفْجِيرًا » [والأخرى الزنجبيل^(٢)] والأخرى نَضَاخَتَانِ من فوق العرش إحداهما التي ذكر الله [عيناً فيها تسمى^(٣)] « سَلْسِيلًا » والأخرى التَّسْنِيمُ » ذكره الترمذى الحكيم في « نواذر الأصول » . وقال : فَالتَّسْنِيمُ للمقربين خاصة شرباً لهم ، والكافور للأبرار شرباً لهم ؛ يمزج للأبرار من التَّسْنِيمِ شربهم ، وأما الزنجبيل والسلسبيل فللأبرار منها مزاج هكذا ذكره في التنزيل وسكت عن ذلك لمن هي شرب ، فما كان للأبرار مزاج فهو للمقربين صرف وما كان للأبرار صرف فهو لسائر أهل الجنة مزاج ، والأبرار هم الصادقون ، والمقربون هم الصَّادِقُونَ .

قوله تعالى : يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾
وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ
لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾

قوله تعالى : (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ) أى لا يخلفون إذا نذروا . وقال معمر عن قتادة : بما فرض الله عليهم من الصلاة والزكاة والصوم وال الحج والعمرة وغيره من الواجبات . وقال مجاهد وعكرمة : يوفون إذا نذروا فى حق الله جل ثناؤه . وقال الفراء والجرجاني : وفى الكلام إضمار ؛ أى كانوا يوفون بالنذر فى الدنيا . والعرب قد تزيد مرة « كان » وتحذف أخرى . والنذر حقيقة ما أوجبه المكلف على نفسه من شىء يفعله . وإن شئت قلت فى حدّه : النذر هو إيجاب المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه لم يلزمه . وقال الكلبي : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ » أى يتممون العهود والمعنى واحد ؛ وقد قال الله تعالى :

(١) هذا السند فى الأصول : أبو مقاتل عن صالح بن سعيد عن أبي سهل الخ وصوبناه من التذكرة للقرطبي .

(٢) الزيادة من الدر المنثور . (٣) الزيادة من التذكرة والدر المنثور .

« ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ » أى أعمال نسكهم التى ألزموها أنفسهم بإحرامهم بالبح . وهذا يقوى قول قتادة . وإن النذر يندرج فيه ما ألزمه المرء بإيمانه من أمثال أمر الله ؛ قاله القشيري . وروى أشهب عن مالك أنه قال : « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ » هو نذر العتق والصيام والصلاة . وروى عنه أبو بكر بن عبد العزيز قال مالك « يُوفُونَ بِالنَّذْرِ » قال : النذر هو اليمين .

قوله تعالى : (وَيَخَافُونَ) أى يَحَذَرُونَ (يَوْمًا) أى يوم القيامة . (كَانَتْ شَرَّهُ مُسْتَطِيرًا) أى عاليا داهيا فاشيا وهو فى اللغة ممتدا ؛ والعرب تقول : أستطار الصَّدْعُ فى القارورة والزجاجة وأستطال إذا امتد ؛ قال الأعشى :

وَبَانَتْ وَقَدْ أَسَارَتْ^(۱) فى الفؤا * دِ صَدْعًا عَلَى نَاهَا مُسْتَطِيرًا

ويقال : أستطار الحريق إذا أنتشر . وأستطار الفجر إذا أنتشر الضوء .

وقال حسان :

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بِنَى لُؤَى * حَرِيقٌ بِالبُورَةِ مُسْتَطِيرٌ^(۲)

وكان قتادة يقول : أستطار والله شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض . وقال

مقاتل : كان شره فاشيا فى السموات فأنشقت ، وتناثرت الكواكب ، وفزعت الملائكة ، وفى الأرض نُسِفَتِ الجبالُ وغارت المياه .

قوله تعالى : (وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ) قال ابن عباس ومجاهد : على قِلْتِهِ

وحبهم إياه وشهوتهم له . وقال الداراني : على حب الله . وقال الفضيل بن عياض : على

حب إطعام الطعام . وكان الربيع بن خيثم إذا جاءه السائل قال : أطمعوه سُكْرًا فإن الربيع

يحب السُّكْرَ . (مِسْكِينًا) أى ذا مسكنة . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هو

الطواف يسألك مالك (وَيَتِيًّا) أى من يتامى المسلمين . وروى منصور عن الحسن : أن

(۱) وروى : أوردت .

(۲) سراة بنى لؤى أى خهارم . والبويرة : موضع بين فرخلة ؛ بشير إلى ما ضله المسلمون بين فرخلة .

ينما كان يحضر طعام ابن عمر ، فدعا ذات يوم بطعامه ، وطلب اليتيم فلم يجده ، وجاءه بعد ما فرغ ابن عمر من طعامه فلم يجده الطعام ، فدعا له بسويق وعسل ؛ فقال : دونك هذا فوالله ما عُثِنْتَ ؛ قال الحسن وابن عمر : والله ما عُيِنَ . (وَأَسِيرًا) أى الذى يؤسر فيحبس . فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : الأسير من أهل الشرك يكون فى أيديهم . وقاله قتادة . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : الأسير هو المحبوس . وكذا قال سعيد ابن جبير وعطاء : هو المسلم يُحبَس بحق . وعن سعيد بن جبير مثل قول قتادة وابن عباس . قال قتادة : لقد أمر الله بالأسرى أن يُحَسِّن إليهم ، وأن أسراهم يومئذ لأهل الشرك ، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه . وقال عكرمة : الأسير العبد . وقال أبو حمزة الثمالي : الأسير المرأة ، يدل عليه قوله عليه السلام : «أستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوانٌ عندكم» أى أسيرات . وقال أبو سعيد الخدرى : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » فقال : « المسكين الفقير واليتيم الذى لا أب له والأسير المملوك والمسجون » ذكره الثعلبي . وقيل : نسخ إطعام المسكين آية الصدقات ، وإطعام الأسير [آية] السيف ؛ قاله سعيد بن جبير . وقال غيره : بل هو ثابت الحكم ، وإطعام اليتيم والمسكين على التطوع ، وإطعام الأسير لحفظ نفسه إلى أن يتخير فيه الإمام . الماوردى : ويحتمل أن يريد بالأسير الناقص العقل ؛ لأنه فى أسر خبله وجنونه ، وأسر المشرك أنتقام يقف على رأى الإمام ؛ وهذا ير وإحسان . وعن عطاء قال : الأسير من أهل القبلة وغيرهم .

قلت : وكان هذا القول عام يجمع جميع الأقوال ، ويكون إطعام الأسير المشرك قرينة إلى الله تعالى ، غير أنه من صدقة التطوع ، فأما المفروضة فلا . والله أعلم . ومضى القول فى المسكين واليتيم والأسير وأشتقاق ذلك من اللغة فى « البقرة »^(١) مستوفى والحمد لله .

(١) راجع ج ٢ ص ١٤ فابدأ ص ٢١

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾ أى يقولون بالسنتهم للسكين واليتيم والأسير « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ » فى الله جل ثناؤه فزما من عذابه وطمعا فى ثوابه . ﴿ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً ﴾ أى مكافأة . ﴿ وَلَا شُكُورًا ﴾ أى ولا أن تثنوا علينا بذلك ؛ قال ابن عباس : كذلك كانت نياتهم فى الدنيا حين أطعموا . وعن سالم عن مجاهد قال : أما إنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله جل ثناؤه منهم فأثنى به عليهم ؛ ليرغب فى ذلك راغب . وقاله سعيد بن جبیر حكاة عنه القشيري . وقيل : إن هذه الآية نزلت فى مُطْعِمِ بن ورقاء الأنصارى نذر نذرا فوفى به . وقيل : نزلت فىمن تكفل بأسرى بدر وهم سبعة من المهاجرين ؛ أبو بكر وعمر وعلى والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وأبو عبيدة رضى الله عنهم ؛ ذكره الماوردى . وقال مقاتل : نزلت فى رجل من الأنصار أطعم فى يوم واحد مسكينا ویتیا وأسيرا . وقال أبو حمزة الثمالي : بلغنى أن رجلا قال يا رسول الله أطعمنى فإنى والله مجهود ؛ فقال : «والذى نفسى بيده ما عندى ما أطعمك ولكن أطلب» فأتى رجلا من الأنصار وهو يتعشى مع امرأته فسأله وأخبره بقول النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت المرأة : أطعمه وأسقه . ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم يتيم فقال : يا رسول الله ! أطعمنى فإنى مجهود . فقال : « ما عندى ما أطعمك ولكن أطلب» فاستطعم ذلك الأنصارى فقالت المرأة : أطعمه وأسقه ، فأطعمه ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم أسير فقال : يا رسول الله ! أطعمنى فإنى مجهود . فقال : «والله ما معى ما أطعمك ولكن أطلب» . فجاء الأنصارى فطلب ، فقالت المرأة : أطعمه وأسقه . فنزلت : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » ذكره الثعلبي . وقال أهل التفسير : نزلت فى على وفاطمة رضى الله عنهما وجارية لهما اسمها فضة .

قلت : والصحيح أنها نزلت فى جميع الأبرار ، ومن فعل فعلا حسنا ؛ فهى عامة . وقد ذكر النقاش والثعلبي والقشيري وغير واحد من المفسرين فى قصة على وفاطمة وجاريتهما حديثا لا يصح ولا يثبت ، رواه ليث عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله عز وجل : « يُؤْفُونَ بِالنَّذِيرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » قال :

مرض الحسن والحسين فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعادهما عامة العرب ؛ فقالوا : يا أبا الحسن - ورواه جابر الجعفي - عن قنبر مولى علي قال : مرض الحسن والحسين حتى عادهما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا أبا الحسن - رجع الحديث إلى حديث ليث بن أبي سليم - لو نذرت عن ولدك شيئاً ، وكل نذر ليس له وفاء فليس بشيء . فقال رضي الله عنه : إن برأ ولداي صمت لله ثلاثة أيام شكراً . وقالت جارية لهم نوبية . إن برأ سيدي صمت لله ثلاثة أيام شكراً . وقالت فاطمة مثل ذلك . وفي حديث الجعفي - فقال الحسن والحسين : علينا مثل ذلك فأليس الغلامان العافية ، وليس عند آل محمد قليل ولا كثير ، فأنطلق علي - إلى شمعون بن حاريا الخيبري وكان يهودياً فاستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير ، فجاء به فوضعه ناحية البيت ، فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته وأختبرته ، وصلى علي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين يديه . وفي حديث الجعفي : فقامت الجارية إلى صاع من شعير فخبزت منه خمسة أقراص لكل واحد منهم قرص ، فلما مضى صيامهم الأول وضع بين أيديهم الخبز والملح الجريش ؛ إذ أتاهم مسكين فوقف بالباب وقال : السلام عليكم أهل بيت محمد - في حديث الجعفي - أنا مسكين من مساكين أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وأنا والله جائع ؛ أطمعوني أطمعكم الله من موائد الجنة . فسمعه علي رضي الله عنه فأنشأ يقول :^(١)

فاطم ذات الفضل واليقين * يا بنت خير الناس أجمعين
أما ترين البائس المسكين * قد قام بالباب له حنين
يشكو إلى الله ويستكين * يشكو إلينا جائع حزين
كل أمرئ بكسيه رهين * وفاعل الحيرات يستين

(١) هذه الأبيات والتي بعدها كل النسخ مجمعة على نحر بعضها ، واقد أحسن أبو حيان إذ يقول فيها : وذكر النقاش في ذلك حكاية طويلة جداً ، ظاهرة الأخلاق ، وفيها أشعار للمسكين واليتم والأسير يخاطبون بها بيت النبوة ، وأشعار لفاطمة رضي الله عنها تخاطب كل واحد منهم ، ظاهرها الأخلاق لسفاسف ألقاظها وكمرأبياتها وسفاطة معانيها . وصياتي لتؤلف رحمه الله ما يضعف هذا الحديث ويزينه .

مَوْعِدُنَا جَنَّةٍ عَلِيَّيْنِ * حَرَمَهَا اللَّهُ عَلَى الضَّالِّينَ
وَاللَّبِخِيلِ مَوْقِفٍ مِهِينٍ * تَهْوَى بِهِ النَّارُ إِلَى سَجِينٍ
شَرَابُهُ الْحَمِيمُ وَالغَسِيلِينَ * مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ يَقْمِ سَمِينٍ
* وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَيَّ حِينٍ *

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول :

أَمْرُكَ عِنْدِي يَا بَنَ عَمِّ طَاعَةٌ * مَا بِي مِنْ لُؤْمٍ وَلَا وَضَاعَةٌ
غَدَيْتُ فِي الْخَبْزِ لَهُ صِنَاعَةٌ * أَطْعِمَهُ وَلَا أَبَالِي السَّاعَةَ
أَرْجُو إِذَا أَشْبَعْتُ ذَا الْمَجَاعَةَ * أَنْ الْحَقَّ الْأَخْيَارَ وَالْمَجَاعَةَ
* وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ لِي شَفَاعَةٌ *

فأطعموه الطعام، ومكثوا يومهم ولياتهم لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح، فلما أن كان في اليوم الثاني قامت إلى صاع فطحتته وأختبرته، وصلى على مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم فوقف بالباب يتيم فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد: يتيم من أولاد المهاجرين أستشهد والدي يوم العقبة^(۱)، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة. فسمعه على فأنشأ يقول :

فَاطِمَةُ بِنْتُ السَّيِّدِ الْكَرِيمِ * بِنْتُ نَبِيِّ لَيْسَ بِالزَّنِيمِ
لَقَدْ أَتَى اللَّهُ يَدِي الْيَتِيمِ * مَنْ يَرْحَمُ الْيَوْمَ يَكُنْ رَحِيمِ
وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَيَّ سَلِيمِ * فَدَحْرَمَ الْخَلْدُ عَلَى اللَّئِيمِ
أَلَّا يَجُوزُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمِ * يَزُلُّ فِي النَّارِ إِلَى الْحَمِيمِ
* شَرَابُهُ الصَّدِيدُ وَالْحَمِيمِ *

فأنشأت فاطمة رضي الله عنها تقول :

أَطْعِمَهُ الْيَوْمَ وَلَا أَبَالِي * وَأَوْثِرِ اللَّهُ عَلَى عِيَالِي
أَمْسَوْا جِياعاً وَهُمْ أَشْبَالِي * اصْغَرُهُمْ يُقْتَلُ فِي الْقِتَالِ

(۱) كذا في الأصل .

بِكَرْبَلَا يُقْتَلُ بِأَغْيَالٍ * ياويل للقَاتِلِ مِن وَبَالٍ
تَهَوَّى بِهِ النَّارِ إِلَى سِفَالٍ * وفي يَدِيهِ الْغُلُّ وَالْأَغْلَالُ
* كَبُولَةٌ زَادَتْ عَلَى الْأَكْبَالِ *

فأطعموه الطعام ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح ، فلما كانت في اليوم الثالث قامت إلى الصاع الباقي فطحته وأخبزته ، وصلى علي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى المنزل فوضع الطعام بين أيديهم ، إذ أتاهم أسير فوقف بالباب فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد تأسروننا وتُسُدُّوننا ولا تُطعموننا ! أطعموني فإني أسير محمد . فسمعه علي فأنشأ يقول :

فاطم يا بنت النبي أحمد * بنت نبي سيد مسود
وسماه الله فهو محمد * قد زانه الله بحسين أغيد
هذا أسير للنبي المهتد * مُثَقَّلٌ فِي غَلَّةٍ مُقَيَّدُ
يَشْكُو إِلَيْنَا الْجُوعَ قَدْ تَمَدَّدَ * من يُطْعِمُ الْيَوْمَ يَجِدْهُ فِي غَدٍ
عِنْدَ الْعَلِيِّ الْوَاحِدِ الْمَوْحِدِ * ما يزرع الزارعُ سوف يحصدُ
* أعطيه لالا تجعليه أقعد *

فأنشأت فاطمة رضي الله تعالى عنها تقول :

لم يَبْقَ مِمَّا جَاءَ غَيْرُ صَاعٍ * قد ذهبت كَفِّي مع الذراع
أبنائى والله هُمَا جَبَاعُ * يارب لا تتركهما ضياع
أبوهما للخير ذواصطناع * يصطنع المعروف يابتداع
عَبْلُ الذَّرَاعِينَ شَدِيدُ الْبَاعِ * وما على رأسي من قِنَاعِ
* إِلَّا قِنَاعًا نَسَجُهُ أَنْسَاعُ *

فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام ولياليها لم يذوقوا شيئاً إلا الماء القراح ، فلما أن كان في اليوم الرابع ، وقد قضى الله النذر أخذ بيده النبي الحسن وبيده اليسرى الحسين وأقبل نحو

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع ، فلما أبصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” يا أبا الحسن ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم أنطلق بنا إلى أبتى فاطمة “ فأطلقوا إليها وهي في محرابها ، وقد لصق بطنها بظهرها ، وغارت عيناها من شدة الجوع ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف المجاعة في وجهها بكى وقال : ” واغوثاه يا الله أهل بيت محمد يموتون جوعا “ فهبط جبريل عليه السلام وقال : السلام عليك ربك يقرئك السلام يا محمد خذ هنيئا في أهل بيتك . قال : ” وما آخذ يا جبريل “ فأقرأه « هَلْ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ » إلى قوله : « وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا » قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول : فهذا حديث مُزَوَّقٌ مُزَيَّفٌ قد تطرّف فيه صاحبه حتى تشبهه على المستمعين ، فالجاهل بهذا الحديث يعصّ شفتيه تلهفا ألا يكون بهذه الصفة ، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم ، وقد قال الله تعالى في تنزيهه : « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ » وهو الفضل الذي يفضل عن نفسك وعيالك ، ووجرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متواترة بأن ” خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى “ . ” وأبدأ بنفسك ثم بمن تعول “ وأفترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت “ أفيحسب عاقل أن عليا جهل هذا الأمر حتى أجهد صببانا صفارا من أبناء خمس أوست على جوع ثلاثة أيام ولياليهن ؟ ! حتى تضوروا من الجوع ، وغارت العيون منهم ؛ لخلاء أجوافهم ، حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهم من الجهد . هب أنه آثر على نفسه هذا السائل ، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك ؟ ! وهب أن أهله سمحت بذلك لعلّ فهل جاز له أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام ولياليهن ؟ ! ما يروج مثل هذا إلا على حمق جهال ؛ أبي الله لقلوب متذمبة أن تظن بعلى مثل هذا . وليت شعري من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن علي وفاطمة ، وإجابة كل واحد منهما صاحبه ، حتى أذاه إلى هؤلاء الرواة ؟ ! فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى ؛ بلغني أن قوما

يُخَلِّدُونَ فِي السَّجُونَ فَيَبْقُونَ بِلا حيلة ، فيكتبون أحاديث في السَّمَرِ وأشباهه ، ومثل هذه الأحاديث مفتعلة ، فإذا صارت إلى الجهابذة رموا بها وزيفوها ، وما من شيء إلا وله آفة ومكيدة ، وآفة الدين وكيدته أكثر .

قوله تعالى : **إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴿١٠﴾ **فَوْقَهُمْ**
اللَّهُ شَرٌّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾

قوله تعالى : **(إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا)** «عبوسا» من صفة اليوم ، أى يوما تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته ، فالمعنى نخاف يوما ذا عبوس . وقال ابن عباس : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل منه عرق كالقطران . وعن ابن عباس : العبوس الضيق والقمطير الطويل ، قال الشاعر :

* شَدِيدًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا *

وقيل : القمطير الشديد ، تقول العرب : يوم قمطير وقماطر وعصيب بمعنى ، وأنشد
الفرّاء :

بَنِي عَمَّنَا هَلْ تَذْكُرُونَ بَلَاءَنَا * عَلَيْكُمْ إِذَا مَا كَانَ يَوْمٌ قَمَاطِرُ

بضم القاف . وأقمطر إذا أشتد . وقال الأخفش : القمطير أشد ما يكون من الأيام وأطولها في البلاء ، قال الشاعر :

فَفَرُّوا إِذَا مَا الْحَرْبُ نَارُ غُبَارُهَا * وَجَّحَ بِهَا الْيَوْمُ الْعَبُوسُ الْقَمَاطِرُ

وقال الكسائي : يقال أقمطر اليوم وأزمهر أقمطارا وأزمهـرارا وهو القمطير والزمهير ،
ويوم مقمطر إذا كان صعبا شديدا ، قال الهذلي^(١) :

بَنُو الْحَرْبِ أَرْضَعْنَا لَهُمْ مَقْمِطَرَةً * وَمَنْ يَلْقَ مِنَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ يَهْرَبُ

(١) البيت لحذيفة بن أنس الهذلي والذي في ديوان الهذليين :

بنو الحرب أرضعنا بها مقمطرة * ومن يلق منا يلق سيد مدرب

أرضعنا مبنى للجھول . مقمطرة من أقطرت الناقة إذا لقت . ويلق بنى للجھول في اللفظين . والسيد عند هذيل الأسد . والمدرب الضارى .

وقال مجاهد : إن العُوس بالشفتين والقمطيرير بالجهة والحاجبين بفعلها من صفات الوجه المتغير من شدائد ذلك اليوم؛ وأنشد ابن الأعرابي :

يَغْدُو عَلَى الصَّيْدِ يَعُودُ مِنْ كَيْسِرٍ * وَيَقْمَطِرُ سَاعَةً وَيَكْفَهْرُ

وقال أبو عبيدة : يقال رجل قَمَطِرير أى متقبض ما بين العينين . وقال الزجاج : يقال أَقْمَطِرَتِ الناقةُ إِذَا رَفَعَتْ ذَنْبَهَا وَجَمَعَتْ قَطْرِيهَا وَزَمَّتْ بِأَنْفِهَا ؛ فَأَشْتَقُهُ مِنَ الْقَطْرِ وَجَعَلَ الْمِيمُ مَزِيدَةً . قال أسد بن ناعصة :

وَأَصْطَلَبْتُ الْحُرُوبَ فِي كُلِّ يَوْمٍ * بِإِسْلِ الشَّرِّ قَمَطِرِيرِ الصَّبَاحِ

قوله تعالى : (فَوَقَّاهُمْ اللَّهُ) أى دفع عنهم (شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ) أى بأسه وشدته وعذابه (وَلَقَّاهُمْ) أى أتاهاهم وأعطاهم حين لقوه أى رأوه (نَضْرَةً) أى حسنا (وَسُرُورًا) أى حبورا . قال الحسن ومجاهد : « نَضْرَةٌ » فى وجوههم « وَسُرُورًا » فى قلوبهم . وفى النضرة ثلاثة أوجه : أحدها أنها البياض والنقاء ؛ قاله الضحاك . الثانى الحسن والبهاء ؛ قاله ابن جبير . الثالث أنها أثر النعمة ؛ قاله ابن زيد .

قوله تعالى : وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١١٢﴾ مَتَّكِعِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : (وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا) على الفقر . وقال القرظى : على الصوم . وقال عطاء : على الجوع ثلاثة أيام وهى أيام النذر . وقيل : بصبرهم على طاعة الله ، وصبرهم على معصية الله ومحارمه . و « ما » مصدرية وهذا على أن الآية نزلت فى جميع الأبرار ومن فعل فعلا حسنا . وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر فقال : « الصبر أربعة أولها الصبر عند الصدمة الأولى والصبر على أداء الفرائض والصبر على اجتناب محارم الله والصبر على المصائب » . (جَنَّةٌ وَحَرِيرًا) أى أدخلهم الجنة والبسمم الحرير . أى يسمى

بحرير الدنيا وكذلك الذي في الآخرة [وفيه] ما شاء الله عز وجل من الفضل . وقد تقدم أن^(١) من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، وإنما ألبسه من ألبسه في الجنة عوضاً عن حبسهم أنفسهم في الدنيا عن الملابس التي حرم الله فيها .

قوله تعالى : ﴿ مُتَكِبِّينَ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ؛ ونصب « مُتَكِبِّينَ » على الحال من الهاء والميم في « جَزَاهُمْ » والعامل فيها جزي ولا يعمل فيها « صَبَرُوا » ؛ لأن الصبر إنما كان في الدنيا والآخرة في الآخرة . وقال الفراء . وإن شئت جعلت « مُتَكِبِّينَ » تابعا كأنه قال جزاهم جنة « مُتَكِبِّينَ فِيهَا » . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ السرر في المجال وقد تقدم . وجاءت عن العرب أسماء تحتوي على صفات : أحدها الأريكة لا تكون إلا في حجلة على سرير ، ومنها السجل وهو الدلو الممتلئ ماء فإذا صَفِرَتْ لم تُسَمَّ سَجَلًا ، وكذلك الذنوب لا تُسَمَّى ذُنُوبًا حتى تُمَلَأَ ، والكأس لا تُسَمَّى كأسًا حتى تُتْرَعَ من الخمر ، وكذلك الطَّبَق الذي تُهْدَى عليه الهدية مهدي ، فإذا كان فارغا قيل طَبَقٌ أَوْ خَوَانٌ ؛ قال ذو الرمة :

خُدُودٌ جَفَّتْ فِي السَّيْرِ حَتَّى كَأَنَّهَا * يُبَايَسِرْنَ بِالْمَعْرَاءِ مَسَّ الْأَرَائِكِ^(٢)

أي الفرش على السرر . ﴿ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا ﴾ أي لا يرون في الجنة شدة حرِّ حرِّ الشمس ﴿ وَلَا زَمَهْرِيرًا ﴾ أي ولا بردا مفرطاً ؛ قال الأعشى :

مَنْعَةً طِفْلَةً كَالْمَهَا * لَمْ تَرَشَّمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا^(٤)

وعن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آشتكت النار إلى ربها عز وجل قالت يا رب أكل بعضي بعضاً فجعل لها نفسين نفساً في الشتاء ونفساً في الصيف فشدة ما تجدون من البرد من زمهريها وشدة ما تجدون من الحر في الصيف

(١) راجع : ج ١٢ ص ٢٩ (٢) راجع : ج ١٠ ص ٣٩٨

(٣) المعزاء الأرض الصلبة يقول : من شدة الحاجة إلى النوم يرون الأرض الصلبة ذات الحجارة مثل الفرش على

الأرائك وهي السرر . ويروى : خدودا على أنه مفعول لفعل في البيت قبله .

(٤) الذي في ديوان الأعشى طبع أوردبا : مبتلة الخلق مثل المهامة ... الخ .

من سُمومها“ . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ”إن هواء الجنة سَجَسَجٌ لا حَرٌّ ولا بَرْدٌ“
والسَّجَسَجُ الظِّلُّ الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس . وقال مُرَّةُ الهَمْدَانِي : الزمهرير
البرد القاطع . وقال مقاتل بن حيان : هو شيء مثل رءوس الإبر ينزل من السماء في غاية
البرد . وقال ابن مسعود : هو لون من العذاب وهو البرد الشديد ، حتى إن أهل النار إذا
ألقوا فيه سألوا الله أن يعذبهم بالنار ألف سنة أهون عليهم من عذاب الزمهرير يوماً واحداً .
قال أبو النجم :

* أو كنت ریحاً كنت زمهرياً *

وقال نعلب : الزمهرير القمر بلغة طيء ، قال شاعرهم :

وايلة ظلامها قد اعتكر * قطعتها والزمهري مازهر

ويروى : ما ظهر ؛ أى لم يطالع القمر . فالمعنى لا يرون فيها شمساً كشمس الدنيا ولا قمرًا
كقمر الدنيا ؛ أى إنهم في ضياء مستديم لا ليل فيه ولا نهار ؛ لأن ضوء النهار بالشمس
وضوء الليل بالقمر . وقد مضى هذا المعنى مجوداً في سورة « مريم » عند قوله تعالى :
« وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيَاءٌ » . وقال ابن عباس : بينما أهل الجنة إذ رأوا نوراً
ظنوه شمساً قد أشرقت بذلك النور الجنة ، فيقولون : قال ربنا « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا
وَلَا زَمَهْرِيْرًا » فما هذا النور ؟ فيقول لهم رضوان : ليست هذه شمس ولا قمر ، ولكن هذه
فاطمة وعلي ضحكا فأشرقت الجنان من نور ضحكهما ، وفيهما أنزل الله تعالى « هَلْ أَتَى عَلَى
الْإِنْسَانِ » . وأنشد :

أنا مولى لفتى * أنزل فيه هل أتى

ذاك على المرتضى * وابن عم المصطفى

قوله تعالى : (وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا) أى ظل الأشجار فى الجنة قريبة من الأبرار ، فهى
مُظَلَّةٌ عليهم زيادة فى نعيمهم وإن كان لا شمس ولا قمر ثم ؛ كما أن أمشاطهم الذهب والفضة

وإن كان لا وسخ ولا شعث ثم . ويقال : إن ارتفاع الأشجار في الجنة مقدار مائة عام ، فإذا أشتى ولي الله ثمرتها دانت حتى يتناولها . وانتصبت « دانية » على الحال عطفاً على « متكئين » كما تقول : في الدار عبد الله متكئاً ومرسلة عليه المجال . وقيل : أنتصبت نعنا للجنة ؛ أي وجزاهم الجنة دانية فهي صفة لموصوف محذوف . وقيل : على موضع « لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً » ويرون دانية . وقيل : على المدح أي دنت دانية . قاله الفراء . « ظللاًها » الظلال مرفوعة بدانية ، ولو قرئ برفع دانية على أن تكون الظلال مبتدأ ودانية الخبر لحاز ، وتكون الجملة في موضع الحال من الهاء والميم في « جزاهم » وقد قرئ بذلك . وفي قراءة عبد الله « ودانياً عليهم » لتقدم الفعل . وفي حرف أبي « ودان » رفع على الاستئناف . (ودللت) أي سُخِّرَتْ لهم (قُطُوفُهَا) أي ثمارها . (تدليلاً) أي تسخيراً فبتناولها القائم والقاعد والمضطجع لا يرد أيديهم عنها بعد ولا شوك ، قاله قتادة . وقال مجاهد : إن قام أحد ارتفعت له ، وإن جلس تدلت عليه ، وإن اضطجع دنت منه فأكل منها . وعنه أيضاً : أرض الجنة من ورق ، وترابها الزعفران ، وطيبها مسك أذفر ، وأصول شجرها ذهب وورق ، وأفنانها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، والثمر تحت ذلك كله ؛ فمن أكل منها قائماً لم تؤذ به ، ومن أكل منها قاعدا لم تؤذ به ، ومن أكل منها مضطجعا لم تؤذ به . وقال ابن عباس : إذا هم أن يتناول من ثمارها تدلت إليه حتى يتناول منها ما يريد ، وتذليل القطوف تسهيل التناول . والقطوف الثمار الواحد قطف بكسر القاف سمي به لأنه يُقَطَفُ ، كما سمي الجنى لأنه يجنى . « تدليلاً » تأكيد لما وصف به من الدل ؛ كقوله تعالى : « وَزَلَّناهُ تَدْلِيلًا » « وكلم الله موسى تكليماً » . الماوردي : ويحتمل أن يكون تذليل قطوفها أن تبرز لهم من أكمامها ، وتخلص لهم من نواها .

قلت : وفي هذا بعد ؛ فقد روى ابن المبارك ، قال أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر ، وكرهها ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل الجنة ، منها مقطعاتهم وحلهم ، وثمرها أمثال القلال والدلاء ، أشد

بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ليس فيه عجم . قال أبو جعفر النحاس :
ويقال المذلل الذي قد ذلله الماء أى أرواه . ويقال المذلل الذى يُفَيِّئُهُ أدنى ریح لنعته ،
ويقال المذلل المسوى ؛ لأن أهل الحجاز يقولون : ذلل نخلك أى سَوَّه ، ويقال المذلل
القريب المتناول ؛ من قولهم : حائط ذليل أى قصير . قال أبو حنيفة : وهذه الأقوال التى
حكيناها ذكرها أهل العلم باللغة وقالوها فى قول امرئ القيس :
* وساق كانبوب السقي المذلل^(١) *

قوله تعالى : وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِعَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ
قَوَارِيرًا ﴿١٦﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٧﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا
كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٨﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِعَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ) أى يدور على هؤلاء الأبرار
الخدم إذا أرادوا الشراب « بِعَانِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ » قال ابن عباس : ليس فى الدنيا شئ مما
فى الجنة إلا الأسماء ؛ أى ما فى الجنة أشرف وأعلى وأبقى . ثم لم تنف الأوانى الذهبية بل المعنى
يسقون فى أوانى الفضة ، وقد يسقون فى أوانى الذهب . وقد قال تعالى : « يُطَافُ عَلَيْهِمْ
بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ » . وقيل : نبه بذكر الفضة على الذهب ؛ كقوله : « سَرَابِيلَ
تَقِيكُمُ الْحَرَّ » أى والبرد فنبه بذكر أحدهما على الثانى . والأكواب الكيزان العظام التى
لا آذان لها ولا عرى ، الواحد منها كُوب ؛ وقال عدي :

مُتَّكِئًا تَفْرَعُ^(٢) أَبْوَابُهُ * يَسْعَى عَلَيْهِ الْعَبْدُ بِالْكُوبِ

وقد مضى فى « الزخرف » . (كَانَتْ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ) أى فى صفاء القوارير
وبياض الفضة ؛ فصفاؤها صفاء الزجاج وهى من فضة . وقيل : أرض الجنة

(١) الأنبوب : البردى . والسق : النخل المسق . شبه ساق المرأة بردى قد بنت تحت نخل ، فالنخل يظله

من الشمس وذلك أحسن ما يكون منه . وصدر البيت : وكشح لطيف كالجديل منحصر .

(٢) بروى : تخفق . بدل تفرع . (٣) راجع ج ١٦ ص ١١١ فابعدا .

من فضة ، والأواني تتخذ من تربة الأرض التي هي منها . ذكره ابن عباس وقال : ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا القوارير من فضة . وقال : لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى تجعلها مثل جناح الذباب لم ترمن ورائها الماء ، ولكن قوارير الجنة مثل الفضة في صفاء القوارير . (قَدَّرُوها تَقْدِيرًا) قراءة العامة بفتح القاف والذال ؛ أي قَدَّرها لهم السقاة الذين يطوفون بها عليهم . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : أتوا بها على قدر ربيهم بغير زيادة ولا نقصان . الكلبي : وذلك ألد وأشهبى ؛ والمعنى قَدَّرتها الملائكة التي تطوف عليهم . وعن ابن عباس أيضا : قَدَّروها على ملء الكف لا تزيد ولا تنقص حتى لا تؤذيهم بثقل أو بإفراط صغر . وقيل : إن الشاربين قَدَّرُوا لها مقادير في أنفسهم على ما آسَتهوا وقَدَّرُوا . وقرأ عبيد بن عمير والشَّعْبِيُّ وابن سيرين « قَدَّرُواها » بضم القاف وكسر الدال أي جعلت لهم على قدر إرادتهم . وذكر هذه القراءة المهدوي عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهما ؛ وقال : ومن قرأ « قَدَّرُواها » فهو راجع إلى معنى القراءة الأخرى ، وكان الأصل قَدَّرُوا عليها فحذف حرف الجر ؛ والمعنى قُدِّرَتْ عليهم ؛ وأنشد سيبويه :

آلَيْتَ حَبَّ الْعِرَاقِ الذَّهْرَ آكُلُهُ * وَالْحَبُّ يَأْكُلُهُ فِي الْقَرْيَةِ السُّوسُ

وذهب إلى أن المعنى على حَبِّ العراق . وقيل : هذا التقدير هو أن الأقداح تطير فتغترف بمقدار شهوة الشارب ؛ وذلك قوله تعالى : « قَدَّرُواها تَقْدِيرًا » أي لا يفضل عن الرى ولا ينقص منه ، فقد أُلِّمَت الأقداح معرفة مقدار رى المشتبهى حتى تغترف بذلك المقدار . ذكر هذا القول الترمذى الحكيم في « نواذر الأصول » .

قوله تعالى : (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا) وهي الخمر في الإناء . (كَان مِرْأَجُها زَنْجَبِيلًا) « كان » صلة أي مزاجها زنجبيل أو كان في حكم الله زنجبيل . وكانت العرب تستلذ من

(١) أي في بياضها .

(٢) قاله المنلس . ويروى : أطعمه . والرواية الصحيحة في « آليت » بالفتح لأنه يخاطب عمرو بن هند الملك ، وكان قد أقسم ألا يطعم المنلس حب العراق . فقال له المنلس مستهزئًا آليت هل حب العراق لا أطعمه ، وقد وجدت منه بالشام ما يفنى عما عندك فهناك كثير بحيث يأكله السوس . وأراد بالقرية الشام .

الشراب ما يزوج بالزنجبيل لطيب رائحته ؛ لأنه يحدو اللسان ، ويهضم المأكول ، فرغبوا في نعيم الآخرة بما اعتقدوه نهاية النعمة والطيب . وقال المسيب بن علس يصف ثغر المرأة :

وَكَاثُ طَعْمِ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ * إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلَافَةَ الْخَمْرِ

ويروى : الكرم . وقال آخر^(١) :

كَانَتْ جَنِيًّا مِنَ الزَّنْجَبِي * لِي بَاتَ فِيهَا وَأَرِيًّا مُشَارًا

ونحوه قول الأعشى :

كَانَ الْقَرْنُفُلَ وَالزَّنْجَبِي * لِي بَاتًا فِيهَا وَأَرِيًّا مَشُورًا .

وقال مجاهد : الزنجبيل اسم للعين التي منها مزاج شراب الأبرار . وكذا قال قتادة : والزنجبيل اسم العين التي يشرب بها المقربون صرفًا وتمزج لسائر أهل الجنة . وقيل : هي عين في الجنة يوجد فيها طعم الزنجبيل . وقيل : إن فيه معنى الشراب الممزوج بالزنجبيل .

والمعنى كأن فيها زنجبيلًا . (عَيْنًا) بدل من كأس . ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل أي يسقون عينا . ويجوز نصبه بإسقاط الخافض أي من عين على ما تقدم في قوله تعالى : « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ » . (فِيهَا) أي في الجنة (تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا) السلسبيل الشراب اللذيذ وهو فعيل من السَّلَاسَة ؛ تقول العرب : هذا شراب سَلِسٌ وسَلْسَالٌ وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيلٌ بمعنى أي طيب الطعم لذيقه . وفي الصحاح : وتسلسل الماء في الحلق جرى ، وسلسلته أنا صببته فيه ، وماء سَلْسَلٌ وسَلْسَالٌ سهل الدخول في الحلق لعدو بته وصفائه ، والسلسل بالضم مثله . وقال الزجاج : السلسبيل في اللغة اسم لما كان في غاية السلاسة فكانت العين سميت بصفتها . وعن مجاهد قال : سلسبيل حديدة البحرى تسيل في حلقهم أنسلالا . ونحوه عن ابن عباس : إنها الحديدة البحرى . ذكره الماوردي ؛ ومنه قول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

(١) الذي في ديوان الأعشى هذا البيت لا الذي بعده ، وفيه : خالط فاها ... الخ والظاهر أن البيتين واحد

وأختلفت الرواية .

يَسْقُونَ مِنْ وَرْدٍ الْبَرِيصِ عَلَيْهِمْ * بَرْدِي يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسِلِ^(١)

وقال أبو العالية ومقاتل : إنما سميت سلسبيلاً ؛ لأنها تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم ، تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنة . وقال قتادة : سلسلة منقاد ماؤها حيث شاءوا . ونحوه عن عكرمة . وقال الفَقَّال : أي تلك عين شريفة فسَلَّ سَيْبِلًا إليها . وروى هذا عن علي رضي الله عنه . وقوله : « تُسَمَّى » أي إنها مذكورة عند الملائكة وعند الأبرار وأهل الجنة بهذا الاسم . وصرف سلسبيل ؛ لأنه رأس آية ؛ كقوله تعالى : « الْفُلُؤْنَا » و « السَّيْبِلَا » .

قوله تعالى : وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَّوهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ) بَيْنَ مِنَ الَّذِي يَطُوفُ عَلَيْهِمْ بِالْآيَةِ ؛ أي ويخدمهم ولدان مُخَلَّدُونَ لأنهم أخف في الخدمة . ثم قال : « مُخَلَّدُونَ » أي باقون على ما هم عليه من الثياب والغضاضة والحسن ، لا يهرمون ولا يتغيرون ويكونون على سن واحدة على مر الأزمنة . وقيل : مُخَلَّدُونَ لا يموتون . وقيل : مُسَوَّرُونَ مُقَرَّطُونَ ؛ أي مُحْمَلُونَ والتخليد التحلية . وقد تقدم هذا . (إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا) أي ظننتهم من حسنهم وكثرتهم وصفاء ألوانهم لؤلؤًا مفرقا في عرصة المجلس ، واللؤلؤ إذا نُثِرَ بساطا كان أحسن منه منظوما . وعن المأمون أنه ليلة زُفَّت إليه بوران بنت الحسن بن سهل ، وهو

(١) البريص : نهر بدمشق . وبردِي نهر آخر بدمشق أيضا أي ماء بردِي . ويصفق : يمزج . والرحيق : الخمر البيضاء . (٢) راجع ج ١٧ ص ٢٠٢ فما بعدها .

على بساط منسوج من ذهب، وقد تّرت عليه نساء دار الخليفة اللؤلؤ، فنظر إليه منشورا على ذلك البساط فأستحسن المنظر وقال : لله درّ أبي نُوّاس كأنه أبصر هذا حيث يقول :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَقَاقِعِهَا * حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وقيل : إنما شبههم بالمشور ، لأنهم سراع في الخدمة ، بخلاف الحور العين إذ شبههن باللؤلؤ المكنون المخزون لأنهن لا يمتنّ بالخدمة .

قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا) « ثمَّ » ظرف مكان أى هناك فى الجنة ، والعامل فى « ثمَّ » معنى « رَأَيْتَ » أى وإذا رأيت ببصرك « ثمَّ » . وقال الفراء : فى الكلام « ما » مضمرة أى وإذا رأيت ما ثمَّ ، كقوله تعالى : « لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ » أى ما بينكم . وقال الزجاج : « ما » موصولة بتمَّ على ما ذكره الفراء ، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة ، ولكن « رَأَيْتَ » يتعدى فى المعنى إلى « ثمَّ » والمعنى إذا رأيت ببصرك « ثمَّ » ويعنى بتمَّ الجنة ، وقد ذكر الفراء هذا أيضا . والنعم سائر ما يتنعم به . والمُلك الكبير آستئذان الملائكة عليهم ، قاله السُّدى وغيره . قال الكلبي : هو أن يأتى الرسول من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولى الله وهو فى منزله فيستأذن عليه ، فذلك المُلك العظيم . وقاله مقاتل بن سليمان . وقيل : المُلك الكبير هو أن يكون لأحدهم سبعون حاجبا ، حاجبا دون حاجب ، فبينما ولى الله فيما هو فيه من اللذة والسرور إذ يستأذن عليه ملك من عند الله ، قد أرسله الله بكتاب وهدية وتُحفة من رب العالمين لم يرها ذلك الولى فى الجنة قط ، فيقول للحاجب الخارج : آستأذن على ولى الله فإن معى كتابا وهدية من رب العالمين . فيقول هذا الحاجب للحاجب الذى يليه : هذا رسول من رب العالمين ، معه كتاب وهدية يستأذن على ولى الله ، فيستأذن كذلك حتى يبلغ إلى الحاجب الذى يلي ولى الله فيقول له : يا ولى الله ! هذا رسول من رب العالمين يستأذن عليك ، معه كتاب وتُحفة من رب العالمين أفيؤذن له ؟ فيقول : نعم ! فأذنوا له . فيقول ذلك الحاجب الذى يليه : نعم فأذنوا له . فيقول الذى يليه للآخر كذلك حتى يبلغ

الحاجب الآخر، فيقول له : نَمَّ أيها الملك ؛ قد أذن لك ، فيدخل فيسلم عليه ويقول : السَّلَامُ يقرئك السَّلَام ، وهذه مُخْفَةٌ وهذا كِتَابٌ من رَبِّ العالمين إليك . فإذا هو مكتوب عليه : من الحى الذى لا يموت إلى الحى الذى لا يموت . فيفتحه فإذا فيه : سلام على عبدى ووليى ورحمتى وبركاتى يا وليى أما أن لك أن تشاق إلى رؤية ربك؟ فيستخفه الشوق فيركب البراق فيطير به البراق شوقاً إلى زيارة علام الغيوب ، فيعطيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال سفيان الثورى : بلغنا أن الملك الكبير تسليم الملائكة عليهم ؛ دليله قوله تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » . وقيل : الملك الكبير كون التيجان على رؤوسهم كما تكون على رأس ملك من الملوك . وقال الترمذى الحكيم : يعنى ملك التكوين فإذا أرادوا شيئاً قالوا له كُنْ . وقال أبو بكر الوراق : ملك لا يتعقبه هُلك . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الملك الكبير هو [أن] أدناهم منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألفى عام يرى أقصاه كما يرى أدناه " قال : " وإن أفضلهم منزلة من ينظر في وجه ربه تعالى كل يوم مرتين " سبحان المنعم .

قوله تعالى : (عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ) قرأ نافع وحزمة وآبن محيصن « عَلَيْهِمْ » ما كنهه الباء ، وأختره أبو عبيد اعتباراً بقراءة آبن مسعود وآبن وثاب وغيرهما « عَلَيْهِمْ » وبتفسير آبن عباس : أما رأيت الرجل عليه ثيابٌ يملوها أفضل منها . الفراء : وهو مرفوع بالابتداء وخبره « ثِيَابٌ سُنْدُسٌ » وأسم الفاعل يراد به الجمع . ويجوز في قول الأخفش إفراده على أنه أسم فاعل متقدم و « ثِيَابٌ » مرتفعة به وسدت مسد الخبر والإضافة فيه في تقدير الانفصال لأنه لم يُخَصَّ ، وأبتدى به لأنه أختص بالإضافة . وقرأ الباقون « عَلَيْهِمْ » بالنصب . وقال الفراء : هو كقولك فوقهم ، والعرب تقول : قومك داخل الدار فينصبون داخل على الظرف لأنه محل . وأنكر الزجاج هذا وقال : هو مما لا نعرفه في الظروف ، ولو كان ظرفاً لم يجز إسكان الباء ولكنه نصب على الحال من شيئين : أحدهما الهاء والميم في قوله :

(١) زيادة يقتضها المعنى .

« يَطُوفُ عَلَيْهِمْ » أى على الأبرار « وِلْدَانٌ » عاليا الأبرار ثيابٌ سندس؛ أى يطوف عليهم فى هذه الحال ، والثانى أن يكون حالا من الولدان أى « إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّشُورًا » فى حال علو الثياب أبدانهم . وقال أبو على : العامل فى الحال إما « لَقَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا » وإما « جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا » قال : ويجوز أن يكون ظرفا فصيرف . المهدوى : ويجوز أن يكون اسم فاعل ظرفا ؛ كقولك هو ناحية من الدار، وعلى أن عاليا لما كان بمعنى فوق أجرى مجراه بفعل ظرفا . وقرأ ابن محيصة وابن كثير وأبو بكر عن عاصم « خُضِرَ » بالجر على نعت السندس « وَإِسْتَبْرَقٌ » بالرفع نسقا على الثياب ، ومعناه عاليهم [ثيابٌ] سندس وإستبرق . وقرأ ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب « خُضِرَ » رفعا نعتا للثياب « وَإِسْتَبْرَقٌ » بالخفض نعتا للسندس ، وأختره أبو عبيد وأبو حاتم بلجودة معناه ؛ لأن الخضر أحسن ما كانت نعتا للثياب فهى مرفوعة ، وأحسن ما عطف الإستبرق على السندس عطف جنس على جنس ، والمعنى عاليهم ثيابٌ خُضِرَ من سندس وإستبرق أى من هذين النوعين . وقرأ نافع وحفص كلاهما بالرفع ويكون « خُضِرَ » نعتا للثياب ؛ لأنهما جميعا بلفظ الجمع « وَإِسْتَبْرَقٌ » عطفا على الثياب . وقرأ الأعمش وابن وثاب وحزرة والكسائى كلاهما بالخفض ويكون قوله « خُضِرَ » نعتا للسندس ، والسندس اسم جنس وأجاز الأخفش وصف اسم الجنس بالجمع على استقباح له ؛ وتقول : أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض ؛ ولكنه مستبعد فى الكلام . والمعنى على هذه القراءة : عاليهم ثيابٌ سندس خُضِرَ وثيابٌ إستبرق . وكلهم صرف الإستبرق إلا ابن محيصة فإنه فتحه ولم يصرفه فقرأ « وَإِسْتَبْرَقٌ » نصبا فى موضع الجر على منع الصرف لأنه أعجمى وهو غلط ؛ لأنه نكرة يدخله حرف التعريف ؛ تقول الإستبرق إلا أن يزعم أنه قد يجعل عاها لهذا الضرب من الثياب . وقرئ « وَأَسْتَبْرَقٌ » بوصل الهمزة والفتح على أنه سُمى بأستفعل من البريق وليس بصحيح أيضا ؛ لأنه مُعْرَبٌ مشهور تعريبه وأن أصله أَسْتَبْرَقُ^(٢) والسندس ما رَقَّ من الديباج والإستبرق ما غلظ منه . وقد تقدّم .

(١) زيادة تفضيها العبارة . (٢) فى الأصل إستبرق وهو تحريف والتصويب من القاموس الفارسى .

وفى الألفاظ الفارسية وشرح القاموس أصله : « أستبر » . (٣) راجع به ١٠ ص ٣٩٧ و به ١٧ ص ١٧٩

قوله تعالى : ﴿ وَحُلُّوا ﴾ عطف على « وَيَطُوفُ » . ﴿ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ وفي سورة فاطر « يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ » وفي سورة الحج « يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَوَلُؤْلُؤًا » فقيل : حُلِّيَّ الرجل الفضة وحلِّي المرأة الذهب . وقيل : تارة يلبسون الذهب وتارة يلبسون الفضة . وقيل : يجمع في يد أحدهم سواران من ذهب وسواران من فضة وسواران من لؤلؤ ليجمع لهم محاسن الجنة ، قاله سعيد بن المسيب . وقيل : أى لكل قوم ما تميل إليه نفوسهم . ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ قال علي رضي الله عنه في قوله تعالى : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » قال : إذا توجه أهل الجنة إلى الجنة مروا بشجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيشربون من إحداهما ، فتجري عليهم بنصرة النعيم ، فلا تتغير أبقارهم ، ولا تتشعث أشعارهم أبداً ، ثم يشربون من الأخرى فيخرج ما في بطونهم من الأذى ، ثم تستقبلهم خزنة الجنة فيقولون لهم : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبِّمُوا فَاَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ » . وقال النخعي وأبو قلابة : هو إذا شربوه بعد أكلهم طهرهم ، وصار ما أكلوه وما شربوه رَشْحَ مِسْكٍ ، وَضُمَّتْ بَطُونُهُمْ . وقال مقاتل : هو من عين ماء على باب الجنة ، تنبع من ساق شجرة ، من شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غلٍ وغشٍ وحسد ، وما كان في جوفه من أذى وقذر . وهذا معنى ما روى عن علي إلا أنه في قول مقاتل عين واحدة وعليه فيكون فعولاً للمبالغة ، ولا يكون فيه حجة للخفي أنه بمعنى الطاهر . وقد مضى بيانه في سورة « الفرقان » ^(١) والحمد لله . وقال طيب الجبال : صَلَّيْتُ خَلْفَ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْعَتَمَةِ فَقَرَأَ « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا » وجعل يُحَرِّكُ شَفْتَيْهِ وَفَمَهُ كَأَنَّهُ يَمُصُّ شَيْئًا ، فلما فرغ قيل له : أتشرب أم تقرأ ؟ فقال : والله لو لم أجد لذته عند قراءته كلذته عند شربه ما قرأته .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً ﴾ أى يقال لهم إنما هذا جزاء لكم أى ثواب . ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ ﴾ أى عملكم ﴿ مَشْكُورًا ﴾ أى من قبل الله ، وشكره للعبد قبول طاعته ، وثناؤه عليه ، وإثابته إياه . وروى سعيد عن قتادة قال : غَفَّرَ لَهُمُ الذَّنْبَ وَشَكَرَهُمُ الْحُسْنَى . وقال

(١) راجع ج ١٣ ص ٣٩ فابدها .

مجاهد : « مَشْكُورًا » أى مقبولاً والمعنى متقارب ؛ فإنه سبحانه إذا قبل العمل شكره ، فإذا شكره أثاب عليه بالجزيل ؛ إذ هو سبحانه ذو الفضل العظيم . روى عن ابن عمر : أن رجلاً حبشياً قال : يا رسول الله ! فضلتُم علينا بالصُّور والألوان والنبوة ، أفرأيت إن آمنتُ بما آمنتَ به ، وعملتُ بما عملتُ أكاثن أنا معك في الجنة ؟ قال : ” نعم والذي نفسى بيده إنه ليُرى بياضُ الأسود في الجنة وضيأؤه من مسيرة ألف عام ” ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” من قال لا إله إلا الله كان له بها عند الله عهد ومن قال سبحان الله والحمد لله كان له بها عند الله مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ” فقال الرجل : كيف نهلك بعدها يا رسول الله ؟ فقال : ” إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضعه على جبل لأثقله فتجىء النعمة من نعم الله فتكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يُلطف الله برحمته ” قال : ثم نزلت « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ » إلى قوله : « وَمَلَكًا كَبِيرًا » قال الحبشى : يا رسول الله ! وإن عيني لترى ما ترى عينك في الجنة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” نعم ” فبكى الحبشى حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدليه في حضرتيه ويقول : « إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيكُمْ مَشْكُورًا » قلنا : يا رسول الله وما هو ؟ قال : ” والذي نفسى بيده لقد أوقفه الله ثم قال أى عبدى لأبيضن وجهك ولأبوتنك من الجنة حيث شئت فنعم أجر العاملين ” .

قوله تعالى : **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٢﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٣﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٤﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٥﴾**

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ ما أفتريته ولا اجئت به من عندك ولا من تلقاء نفسك كما يدعيه المشركون ، ووجه اتصال هذه الآية بما قبل أنه سبحانه لما ذكر أصناف الوعد والوعد بين أن هذا الكتاب يتضمن ما بالناس حاجة إليه ، فليس بسحر

(١) فى نسخة : يتعطف .

ولا كهانة ولا شعر وأنه حق . وقال ابن عباس : أنزل القرآن متفرقا آية بعد آية ولم ينزل جملة واحدة؛ فلذلك قال « نزلنا » وقد مضى القول في هذا مبينا والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أي لقضاء ربك . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : أصبر على أذى المشركين؛ هكذا قضيت . ثم نسخ بآية القتال . وقيل : أي أصبر لما حكم به عليك من الطاعات ، أو أنتظر حكم الله إذ وعدك أنه ينصرك عليهم ولا تستعجل فإنه كائن لا محالة . ﴿ وَلَا تَطِيعُ مِنْهُمْ آيْمًا ﴾ أي ذا إثم ﴿ أَوْ كُفُورًا ﴾ أي لا تطع الكفار . فروى معمر عن قتادة قال قال أبو جهل : إن رأيت مجداً يصلي لأطان على عنقه . فأنزل الله عز وجل : « وَلَا تَطِيعُ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كُفُورًا » . ويقال : نزلت في عتبة بن ربيعة والوليد ابن المغيرة ، وكانا أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضان عليه الأموال والتزويج على أن يترك ذكر النبوة ، ففيهما نزلت « وَلَا تَطِيعُ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كُفُورًا » . قال مقاتل : الذي عرض التزويج عتبة بن ربيعة؛ قال : إن بناتي من أجل نساء قريش ؛ فإنا أزوجك ابنتي من غير مهر ، وأرجع عن هذا الأمر . وقال الوليد : إن كنت صنعت ما صنعت لأجل المال ، فإنا أعطيك من المال حتى ترضى وأرجع عن هذا الأمر؛ فنزلت . ثم قيل « أو » في قوله تعالى : « آيْمًا أَوْ كُفُورًا » أوكد من الواو؛ لأن الواو إذا قلت : لا تطع زيدا وعمرا فأطاع أحدهما كان غير عاص؛ لأنه أمره ألا يطيع الآئنين ، فإذا قال : « لَا تَطِيعُ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كُفُورًا » فـ « أو » قد دللت على أن كل واحد منهما أهل أن يعصى؛ كما أنك إذا قلت : لا تخالف الحسن أو ابن سيرين ، أو أتبع الحسن أو ابن سيرين فقد قلت : هذان أهل أن يتبعا وكل واحد منهما أهل لأن يتبع؛ قاله الزجاج . وقال الفراء : « أو » هنا بمنزلة « لا » كأنه قال : ولا كفورا؛ قال الشاعر :

لَا وَجَدَ ثَمَلِي كَمَا وَجَدْتُ وَلَا * وَجَدَ عَجُولٍ أَضَلَّهَا رُبْعُ
أَوْ وَجَدَ شَيْخٍ أَضَلَّ نَاقَتَهُ * يَوْمَ تَوَافَى المَجِيحُ فَأَندَفَعُوا

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٩ (٢) العجول من النساء والإبل الواله التي فقدت ولدها ، سميت بذلك لعجلتها في جبتها وذهاها جزعا ، وهي هنا الناقة . والرابع كضم الفصيل يخرج في الربيع .

أراد ولا وجد شيخ . وقيل : الآثم المنافق ، والكفور الكافر الذي يظهر الكفر ؛ أى لا تطع منهم آثماً ولا كفوراً . وهو قريب من قول الفراء .

قوله تعالى : (وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) أى صلّ لربك أول النهار وآخره ، ففي أوله صلاة الصبح وفي آخره صلاة الظهر والعصر . (وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ) يعنى صلاة المغرب والعشاء الآخرة (وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا) يعنى التطوع فى الليل ؛ قاله ابن حبيب .

وقال ابن عباس وسفيان : كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة . وقيل : هو الذكر المطلق سواء كان فى الصلاة أو فى غيرها . وقال ابن زيد وغيره : إن قوله « وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا » منسوخ بالصلوات الخمس . وقيل : هو نذب . وقيل : هو مخصوص بالنبي صلى الله عليه وسلم . وقد تقدم القول فى مثله فى سورة « المزمل » وقول ابن حبيب حسن . وجمع الأصيل الأصائل والأصل ؛ كقولك سفائن وسفن ؛ قال :

* ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل *

وقال فى الأصائل وهو جمع الجمع :

لَعَمْرِي لَأَنْتَ الْبَيْتُ أَكْرَمُ أَهْلُهُ * وَأَقْعُدُ فِي أَيْمَانِهِ بِالْأَصَائِلِ

وقد مضى هذا فى آخر « الأعراف » مستوفى . ودخلت « مِنْ » على الظرف للتبويض ، كما دخلت على المفعول فى قوله تعالى : « يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » .

قوله تعالى : إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أُمَّثْلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ) توبيع وتقرير ، والمراد أهل مكة . والعاجلة الدنيا (وَيَذُرُونَ) أى ويدعون (وَرَاءَهُمْ) أى بين أيديهم (يَوْمًا ثَقِيلًا)

(١) قاله أبو ذؤيب الهذلى . (٢) راجع ج ٧ ص ٣٥٥ وما بعدها .

أى عسيرا شديدا كما قال : « ثَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى يتركون الإيمان بيوم القيامة . وقيل : « وَرَاءَهُمْ » أى خلفهم ، أى ويذرون الآخرة خلف ظهورهم فلا يعملون لها . وقيل : نزلت في اليهود فيما كتموه من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته . وحبهم العاجلة أخذهم الرشا على ما كتموه . وقيل : أراد المنافقين ، لاستبطنهم الكفر وطلب الدنيا . والآية تعم . واليوم الثقل يوم القيامة . وإنما سمي ثقيلًا لشدائده وأهواله . وقيل : للقضاء فيه بين عباده .

قوله تعالى : ﴿ تَخُنُّ خَلْقَانَهُمْ ﴾ أى من طين . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ أى خلقهم ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل وغيرهم . والأسر الخلق ؛ قال أبو عبيد : يقال فرس شديد الأسر أى الخلق . ويقال : أسره الله جل ثناؤه إذا شدد خلقه ؛ قال لبيد :
سَاهِمُ الْوَجْهِ شَدِيدِ اسْرِهِ * مُشْرِفُ الْحَارِكِ مَجْبُوكِ الْكَلْبِ^(١)
وقال الأخطل :

مِنْ كُلِّ مُجْتَنِبٍ شَدِيدِ اسْرِهِ * سَلِسِ الْقِيَادِ تَخَالُهُ مَحْتَالًا^(٢)

وقال أبو هريرة والحسن والربيع : شددنا مفاصلهم وأوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب . وقال مجاهد في تفسير الأسر : هو الشرج ، أى إذا خرج الغائط والبول تقبض الموضع . وقال ابن زيد : الأسر القوة . وقال ابن أحمريصف فرسا :

يَمْشِي بِأَوْظْفِيَةِ شِدَادِ اسْرِهِ * صُمَّ السَّنَائِكِ لَا تَقِي بِالْجَدِيدِ^(٣)

وأشتقاقه من الإسار وهو القيد الذى يشده بالأقتاب ؛ يقال : أسرت القتب أسرا أى شدته وربطته ؛ ويقال : ما أحسن أسر قتيبه أى شدته وربطه ؛ ومنه قولهم : خذه

(١) ورد في اللسان مادة (حبك) : أنشد بيت لبيد على هذه الصورة : مشرف الحارك مجبوك الكفل (وكذلك هو في ديوانه) ، ومجبوك الكفل : مدحجه . وفي مادة حرك أنشد الشطر :
* مغبط الحارك مجبوك الكفل *

أما الشطر الذى في التفسير هنا فهو لأبي دؤاد وقد مر في ج ١٧ ص ٣٢ .

(٢) مجتبى . فتعل من الجنبية وهى الفرس تقاد ولا تركب ، وكانوا يركبون الإبل ويجنبون الخيل فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل . (٣) الجدجد : الأرض الصلبة . ولا تقى : لا تنوق ولا تهيب .

بأسره إذا أرادوا أن يقولوا هو لك كله ؛ كأنهم أرادوا تعكيمة وشده لم يفتح ولم ينقص منه شيء . ومنه الأسير لأنه كان يُكْتَف بالأسار . والكلام خرج نخرج الامتنان عليهم بالنعم حين قابلوها بالمعصية . أى سَوَّيْتُ خَلْقَكَ وَأَحْكَمْتَهُ بِالْقَوَى ثُمَّ أَنْتَ تَكْفُرْ بِي . (وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا) قال ابن عباس : يقول لو نشاء لأهلكاهم وجئنا بأطوع لله منهم . وعنه أيضا : لغيرنا محاسنهم إلى أسمى الصور وأقبحها . كذلك روى الضحاك عنه . والأول رواه عنه أبو صالح .

قوله تعالى : **إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا** ﴿٢٩﴾
وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ **يُدْخِلُ**
مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (**إِنَّ هَذِهِ**) أى السورة (**تَذْكِرَةٌ**) أى موعظة (**فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا**) أى طريقا موصلا إلى طاعته وطلب مرضاته . وقيل : « سَبِيلًا » أى وسيلة . وقيل : وجهة وطريقا إلى الجنة . والمعنى واحد . (**وَمَا تَشَاءُونَ**) أى الطاعة والاستقامة واتخاذ السبيل إلى الله (**إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**) فأخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم ، وأنه لا تنفذ مشيئة أحد ولا تتقدم إلا أن تتقدم مشيئته . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « **وَمَا يَشَاءُونَ** » بالياء على معنى الخبر عنهم . والباقون بالتاء على معنى المخاطبة لله سبحانه . وقيل : إن الآية الأولى منسوخة بالثانية . والأشبه أنه ليس بنسخ بل هو تبيين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته . قال الفراء : « **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** » جواب لقوله : « **فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا** » ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقال : « **وَمَا تَشَاءُونَ** » ذلك السبيل « **إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** » لكم . (**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا**) بأعمالكم (**حَكِيمًا**) فى أمره ونهيه لكم . وقد مضى فى غير موضع .

(١) عكمت المناع شددته ، والمكام الحبط الذى يعك به ، وعكمت البعير شددت طيه العك .

(٢) فى نسخة : إلى الخير .

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ) أى يدخله الجنة راحمًا له (وَالظَّالِمِينَ) أى ويعذب الظالمين فنصبه بإضمار يعذب . قال الزجاج : نصب الظالمين لأن قبله منصوب ؛ أى يدخل من يشاء في رحمته ويعذب الظالمين أى المشركين ويكون (أَعَدَّ لَهُمْ) تفسيرًا لهذا المضمرة كما قال الشاعر :

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السَّلَاحَ وَلَا * أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَقَرَا
وَالذُّبَّ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَّرْتُ بِهِ • وَحَدِي وَأَخْشَى الرِّيَّاحَ وَالْمَطْرَا

أى أخشى الذئب أخشاه . قال الزجاج : والأختيار النصب وإن جاز الرفع ؛ تقول : أعطيت زيدًا وعمرا أعددت له يترًا فيختار النصب ؛ أى وبررت عمرا أو أتر عمرا . وقوله في « حم عسق » : « يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ » أرتفع لأنه لم يذكر بعده فعل يقع عليه فينصب في المعنى ؛ فلم يجز العطف على المنصوب قبله فأرتفع بالابتداء . وها هنا قوله : « أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا » يدل على ويعذب بفاز النصب . وقرأ أبان بن عثمان « وَالظَّالِمُونَ » رفعًا بالابتداء والخبر (أَعَدَّ لَهُمْ) . (عَذَابًا أَلِيمًا) أى مؤلمًا موجعًا . وقد تقدم هذا في سورة « البقرة » وغيرها والحمد لله . ختمت السورة .

سورة المرسلات

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها وهى قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ » مدينة . وقال ابن مسعود : نزلت « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرفًا » على النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ونحن معه نسير حتى أويننا إلى غار بمنى فنزلت ، فبينما نحن نتلقاها منه ، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت حية فوثبنا عليها لنقتلها فذهبت ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وَقِيمَ شَرَّهَا كَمَا وَقِيمَ شَرِّكُمْ » . وعن كريب مولى ابن عباس قال : قرأت سورة « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرفًا » فسمعتنى أم الفضل امرأة العباس فبكت وقالت : والله يا بنى لقد أذكرتنى بقراءتك هذه السورة أنها لآخر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في صلاة المغرب . والله أعلم . وهى خمسون آية .

(١) راجع ج ١ ص ١٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : **وَأَلْمَسْتَ عُرْفًا ۝۱** **فَالعَصْفَ عَصْفًا ۝۲**
وَالنَّشْرَ نَشْرًا ۝۳ **فَالفَرْقَ فَرْقًا ۝۴** **فَالْمُلْقِيَ ذِكْرًا ۝۵**
عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ۝۶ **إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝۷** **فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝۸**
وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝۹ **وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ۝۱۰** **وَإِذَا الرَّسُلُ**
أُتِقَتْ ۝۱۱ **لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝۱۲** **لِيَوْمِ الْفَضْلِ ۝۱۳** **وَمَا أَدْرَاكَ**
مَا يَوْمِ الْفَضْلِ ۝۱۴ **وَيْلٌ لِّيَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝۱۵**

قوله تعالى : **(وَأَلْمَسْتَ عُرْفًا)** جمهور المفسرين على أن المرسلات الرياح . وروى مسروق عن عبد الله قال : هي الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله تعالى ونهيه والخبر والوحي . وهو قول أبي هريرة ومقاتل وأبي صالح والكلبي . وقيل : هم الأنبياء أرسلوا بلا إله إلا الله ؛ قاله ابن عباس . وقال أبو صالح : إنهم الرسل تُرسل بما يُعرفون به من المعجزات . وعن ابن عباس وابن مسعود : إنها الرياح ؛ كما قال تعالى : **« وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ »** وقال : **« وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ »** . ومعنى **« عُرْفًا »** يتبع بعضها بعضها كعُرف الفرس ؛ تقول العرب : الناس إلى فلان عُرفٌ واحد إذا توجهوا إليه فأكثروا . وهو نصب على الحال من **« والمرسلات »** أي والرياح التي أرسلت متتابعة . ويجوز أن تكون مصدرا أي تباعا . ويجوز أن يكون النصب على تقدير حرف الجر ، كأنه قال : والمرسلات بالعُرف والمراد الملائكة أو الملائكة والرسل . وقيل : يحتمل أن يكون المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نعمة ونقمة عارفة بما أرسلت فيه ومن أرسلت إليه . وقيل : إنها الزواجر والمواعظ . **« وَعُرْفًا »** على هذا التأويل متابعات كعُرف الفرس ؛ قاله ابن مسعود . وقيل : جاريات ؛ قاله الحسن ؛ يعني في القلوب . وقيل : معروفات في العقول .

(فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا) الرياح بغير اختلاف ؛ قاله المهدوي . وعن ابن مسعود : هي الرياح العواصف تأتي بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه ؛ كما قال تعالى : « فَيُرْسِلَ عَلَيْهِمْ^(١) عَاصِفًا » . وقيل : العاصفات الملائكة الموكلون بالرياح يعصفون بها . وقيل : الملائكة تعصف بروح الكافر؛ يقال : عصف بالشيء أى أباده وأهلكه ، وناقاة عَصُوف أى تعصف براكبها فتعضى كأنها ريج في السرعة ، وعصفت الحرب بالقوم أى ذهبت بهم . وقيل : يحتمل أنها الآيات المهلكة كالزلازل والحسوف . (وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا) الملائكة الموكلون بالسحب ينشرونها . وقال ابن مسعود ومجاهد : هي الرياح يرسلها الله تعالى نشرا بين يدي رحمته ؛ أى تنشر السحاب للغيث . وروى ذلك عن أبي صالح . وعنه أيضا : الأمطار ؛ لأنها تنشر النبات فالنشر بمعنى الإحياء ؛ يقال : نشر الله الميت وأنشره أى أحياه . وروى عنه السدي : أنها الملائكة تنشر كتب الله عز وجل . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بنى آدم . الضحاك : إنها الصحف تنشر على الله بأعمال العباد . وقال الربيع : إنه البعث للقيامة تنشر فيه الأرواح . قال : « وَالنَّاشِرَاتِ » بالواو ؛ لأنه استئناف قسم آخر . (فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا) الملائكة تنزل بالفارق بين الحق والباطل ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وأبو صالح . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : ما تفرق الملائكة من الأقوات والأرزاق والآجال . وروى ابن أبي نجيع عن مجاهد قال : الفارقات الرياح تفرق بين السحاب وتبدده . وعن سعيد عن قتادة قال : « الفارقات فرقا » الفرقان فرق الله فيه بين الحق والباطل والحرام والحلال . وقاله الحسن وابن كيسان . وقيل : يعنى الرسل فرقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه أى بينوا ذلك . وقيل : السحابات المطرة تشبها بالناقاة الفارق وهي الحامل التي تخرج وتند في الأرض حين تضع ، ونوق

(١) كذا في الأصول ؛ ولعل المناسب الاستشهاد بقوله تعالى : « جاءت بها ریح عاصف » كما أشار إليه أبو حيان بقوله : وأن العصف من صفات الريح ... الخ .

فَوَارِقُ وَفُرُقٌ . [وربما ^(١)] شبهوا السحابة التي تنفرد من السحاب بهذه الناقة ؛ قال ذو الرمة :

أَوْ مُزْنَةٌ فَارِقٌ يَجْلُو غَوَارِبَهَا * تَبْجُجُ الْبَرْقِ وَالظُّلْمَاءُ عُلْجُومٌ ^(٢)

(فَالْمَلَقِيَّاتِ ذِكْرًا) الملائكة بإجماع ؛ أي تلقى كتب الله عز وجل إلى الأنبياء عليهم السلام ؛ قاله المهدوي . وقيل : هو جبريل وسمى بأسم الجمع ؛ لأنه كان ينزل بها . وقيل : المراد الرسل يلقون إلى أمهم ما أنزل الله عليهم ؛ قاله قطرب . وقرأ ابن عباس « فالملقيات » بالتشديد مع فتح القاف ؛ وهو كقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ » . (عُذْرًا أَوْ نَذْرًا) أي تلقى الوحي إعدارا من الله أو إنذارا إلى خلقه من عذابه ؛ قاله الفراء . وروى عن أبي صالح قال : يعنى الرسل يعذرون وينذرون . وروى سعيد عن قتادة « عُذْرًا » قال : عذرا لله جل ثناؤه إلى خلقه ، ونذرا للمؤمنين ينتفعون به ويأخذون به . وروى الضحاك عن ابن عباس . « عُذْرًا » أي ما يلقبه الله جل ثناؤه من معاذير أوليائه وهي التوبة « أَوْ نَذْرًا » ينذر أعداءه . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص « أَوْ نَذْرًا » بإسكان الذال وجميع السبعة على إسكان ذال « عُذْرًا » سوى ما رواه الجعفي والأعشى عن أبي بكر عن حاصم أنه ضم الذال . وروى ذلك عن ابن عباس والحسن وغيرهما . وقرأ إبراهيم التيمي وقاتدة « عُذْرًا وَنَذْرًا » بالواو العاطفة ولم يجعل بينهما ألفا . وهما منصوبان على الفاعل له أي للإعذار أو للإنذار . وقيل : على المفعول به . وقيل : على البديل من « ذِكْرًا » أي فالملقيات عذرا أو نذرا . وقال أبو علي : يجوز أن يكون العذر والنذر بالتثقيب على جمع عاذر وناذر ؛ كقوله تعالى : « هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى » فيكون نصبا على الحال من الإلقاء ؛ أي يلقون الذكر في حال العذر والإنذار . أو يكون مفعولا لـ « مذكرا » أي « فالملقيات » أي تُذَكَّرُ « عُذْرًا أَوْ نَذْرًا » . وقال المبرد : هما بالتثقيب جمع والواحد عَذِيرٌ وَنَذِيرٌ . (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) هذا جواب ما تقدم من القسم ؛ أي ما توعدون من أمر القيامة لواقع بكم ونازل عليكم .

(١) الزيادة من اللسان عن الجوهرى مادة « فرق » .

(٢) تبجج البرق : تفنعه وتكشفه . علجوم شديد السواد .

ثم بين وقت وقوعه فقال: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أى ذهب ضوءها ومجى نورها كطمس الكتاب؛ يقال: طمس الشيء إذا درس وطمس فهو مطموس، والريح تطمس الآثار فتكون الريح طامسة والأثر طامسا بمعنى مطموس. ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ أى فُتِحَتْ وَشُقَّتْ؛ ومنه قوله تعالى: « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ». وروى الضحاك عن ابن عباس قال: فُرِجَتْ لِلطِّيِّ. ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ ﴾ أى ذُهِبَ بِهَا كُلُّهَا بِسُرْعَةٍ؛ يقال: نَسَفْتُ الشَّيْءَ وَأَنْسَفْتُهُ إِذَا أَخَذْتَهُ كُلَّهُ بِسُرْعَةٍ. وكان ابن عباس والكاتب يقول: سُوِّيتُ بِالْأَرْضِ، والعرب تقول: فَرَسَ نَسُوفٌ إِذَا كَانَ يُؤَخِّرُ الْحِزَامَ بِمَرْفَاقِهِ؛ قال بشر:

* نَسُوفٌ لِلْحِزَامِ بِمَرْفَاقِهِ *

وَنَسَفَتِ النَّاقَةُ الْكَلَاءَ [إِذَا قَلَعَتْهُ مِنْ أَصْلِهِ] ^(١). وقال المبرد: نُسِفَتْ قُلِعَتْ مِنْ مَوْضِعِهَا؛ يقول الرجل للرجل يقتلع رجله من الأرض: أُنْسَفَتْ رِجْلَاهُ. وقيل: النَّسْفُ تَفْرِيقُ الْأَجْزَاءِ حَتَّى تَذَرُوهَا الرِّيحَ. ومنه نَسَفَ الطَّعَامُ؛ لِأَنَّهُ يُجْرَكُ حَتَّى يَذْهَبَ الرِّيحُ بِبَعْضِ مَا فِيهِ مِنَ التَّنْبِنِ. ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْتَّتْ ﴾ أى جَمَعَتْ لَوَقْتِهَا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْوَقْتُ الْأَجَلُ الَّذِي يَكُونُ عِنْدَهُ الشَّيْءُ الْمُؤَخَّرُ إِلَيْهِ؛ فَالْمَعْنَى: جَعَلَ لَهَا وَقْتًا وَأَجَلَ لِلْفَصْلِ وَالْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأُمَّمِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ». وقيل: هَذَا فِي الدُّنْيَا أَيْ جَمَعَتْ الرُّسُلَ لِمَبَقَاتِهَا الَّذِي ضَرَبَ لَهَا فِي إِنْزَالِ الْعَذَابِ بِمَنْ كَذَبَهُمْ بِأَنَّ الْكُفَّارَ مُمَهَّلُونَ. وَإِنَّمَا تَزُولُ الشُّكُوكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ؛ لِأَنَّ التَّوْقِيتَ مَعْنَاهُ شَيْءٌ يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَالطَّمْسِ وَنَسْفِ الْجِبَالِ وَتَشْقِيقِ السَّمَاءِ وَلَا يَلِيقُ بِهِ التَّأْقِيتُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: أَيْ جَعَلَ يَوْمَ الدِّينِ وَالْفَصْلَ لَهَا وَقْتًا. وَقِيلَ: أَقْتَّتْ وَعِدَّتْ وَأُجِّلَتْ. وَقِيلَ: « أَقْتَّتْ » أَيْ أُرْسِلَتْ لِأَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ وَأَرَادَ، وَالْهَمْزَةُ فِي « أَقْتَّتْ » بَدَلٌ مِنَ الْوَاوِ؛ قَالَه الْفَرَّاءُ وَالزَّجَّاجُ. قَالَ الْفَرَّاءُ: وَكُلُّ وَاوٍ ضُمَّتْ وَكَانَتْ ضَمَّتْهَا لِأَزْمَةِ جَازٍ أَنْ يَبْدَلَ مِنْهَا هَمْزَةً؛ تَقُولُ: صَلَّى الْقَوْمَ إِحْدَانًا تَرِيدُ وَحْدَانًا، وَيَقُولُونَ هَذِهِ وَجُوهٌ حَسَانٌ وَ [أَجُوهٌ] ^(٢). وَهَذَا

(١) الزيادة من كتب اللغة؛ وفي الأصول: إذا رعت. (٢) زيادة يفتضها المقام.

لأن ضمة الواو ثقيلة . ولم يجوز البديل في قوله : « وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ » لأن الضمة غير لازمة . وقرأ أبو عمرو وحيد والحسن ونصر عن عاصم ومجاهد « وَقَتَّتْ » بالواو وتشديد القاف على الأصل . وقال أبو عمرو : وإنما يقرأ « أُقَتَّتْ » من قال في وجوه أجوه . وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج « وَقَتَّتْ » بالواو وتخفيف القاف . وهو فُعِلت من الوقت ومنه « كِتَابًا مَوْقُوتًا » . وعن الحسن أيضا : « وَوَقَتَّتْ » بواو ين وهو فُوعِلت من الوقت أيضا مثل عُوهِدَت . ولو قلبت الواو في هاتين القراءتين ألفا لجاز . وقرأ يحيى وأيوب وخالد بن إلياس وسلام « أُقَتَّتْ » بالهمزة والتخفيف ؛ لأنها مكتوبة في المصحف بالألف . (لِأَيِّ يَوْمٍ أَجَلْتُمْ) أى أخرت وهذا تعظيم لذلك اليوم فهو آستفهام على التعظيم . أى (لِيَوْمِ الْفَضْلِ) أجلت . وروى سعيد عن قتادة قال : يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة أو إلى النار . وفي الحديث : « إِذَا حُشِرَ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَامُوا أَرْبَعِينَ عَامًا عَلَى رءُوسِهِمُ الشَّمْسُ شَاخِصَةً أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ الْفَصْلَ » . (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَضْلِ) أتبع التعظيم تعظيما ؛ أى وما أعلمك ما يوم الفصل . (وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) أى عذاب ونزى لمن كذب بالله وبرسله وكتبه ويوم الفصل فهو وعيد . وكرره في هذه السورة عند كل آية لمن كذب ؛ لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذب بشيء عذاب سوى تكذيبه بشيء آخر، ورب شيء كذب به هو أعظم جرما من تكذيبه بغيره ؛ لأنه أقبح في تكذيبه ، وأعظم في الرد على الله ، وإنما يقسم له من الويل على قدر ذلك ، وعلى قدر وفاقه وهو قوله : « جَزَاءً وَفَاقًا » . وروى عن النعمان بن بشير قال : وَيَلُّ وَاِدٍ فِي جَهَنَّمَ فِيهِ أَلْوَانُ الْعَذَابِ . وقاله ابن عباس وغيره . قال ابن عباس : إِذَا خَبَّتْ جَهَنَّمُ أَخَذَ مِنْ جَمْرِهِ فَالَقَى عَلَيْهَا فَيَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا . وروى أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عُرِضَتْ عَلَى جَهَنَّمَ فُلْمُ أَرْفِهَا وَادِيَا أَعْظَمَ مِنَ الْوَيْلِ » وروى أنه يجمع ما يسيل من قيح أهل النار وصديدهم ، وإنما يسيل الشيء فيما سفلى من الأرض وأنفطر ، وقد علم العباد في الدنيا أن شر المواضع في الدنيا ما آستنقع فيها مياه الأدناس والأقذار والفسالات من الحيف وماء الجمامات ، فذكر أن ذلك

الوادي مستنقع صديد أهل الكفر والشرك ؛ ليعلم ذوو العقول أنه لا شيء أقدر منه قذارة ، ولا أتن منه نتنا ، ولا أشد منه مرارة ، ولا أشد سوادا منه ؛ ثم وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما تضمن من العذاب ، وأنه أعظم وادٍ في جهنم ، فذكره الله تعالى في وعيده في هذه السورة .

قوله تعالى : **الْمَ نُهَلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾**

قوله تعالى : **(الْمَ نُهَلِكِ الْأَوَّلِينَ)** أخبر عن إهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم . **(ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ)** أى نلحق الآخرين بالأولين . **(كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)** أى مثل ما فعلناه بمن تقدم نفعل بمشركي قريش إما بالسيف وإما بالهلاك . وقرأ العامة **«ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ»** بالرفع على الاستئناف وقرأ الأعرج **«نُنَبِّئُهُمُ»** بالجزم عطفا على **«نُهَلِكِ الْأَوَّلِينَ»** كما تقول : ألم تزرني ثم أكرمك . والمراد أنه أهلك قوما بعد قوم على اختلاف أوقات المرسلين . ثم استأنف بقوله : **«كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ»** يريد من يهلك فيما بعد . ويجوز أن يكون الإسكان تخفيفا من **«نُنَبِّئُهُمُ»** لتوالى الحركات . وروى عنه الإسكان للتخفيف . وفي قراءة ابن مسعود **«ثُمَّ سُنَبِّئُهُمُ»** والكاف من **«كَذَلِكَ»** في موضع نصب أى مثل ذلك الهلاك نفعله بكل مشرك . ثم قيل : معناه التحويل لهلاكهم في الدنيا اعتبارا . وقيل : هو إخبار بعذابهم في الآخرة .

قوله تعالى : **الْمَ نَخْلُقُكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾**

قوله تعالى : **(الْمَ نَخْلُقُكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ)** أى ضعيف حقير وهو النطفة وقد تقدم . وهذه الآية أصل لمن قال إن خلق الجنين إنما هو من ماء الرجل وحده . وقد مضى القول فيه .

(١) راجع ج ١٢ ص ٧ فابدها .

(بِجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ) أى فى مكان حريز وهو الرحم . (إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ) قال مجاهد : إلى أن نصوره . وقيل : إلى وقت الولادة . (فَقَدَرْنَا) وقرأ نافع والكسائى « فَعَدَرْنَا » بالتشديد . وخفف الباقون وهما لغتان بمعنى . قاله الكسائى والفراء والقُتبي . قال القُتبي : قَدَرْنَا بمعنى قَدَرْنَا مشددة : كما تقول : قَدَرْتُ كَذَا وَقَدَرْتَهُ ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم فى الهلال : « إِذَا غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَقْدِرُوا لَهُ » أى قَدَرُوا لَهُ المسير والمنازل . وقال محمد بن الجهم عن الفراء : « فَعَدَرْنَا » قال : وذكر تشديدها عن على رضى الله عنه وتخفيفها ؛ قال : ولا يبعد أن يكون المعنى فى التشديد والتخفيف واحداً ؛ لأن العرب تقول : قَدَرْتُ عَلَيْهِ الْمَوْتَ وَقَدَّرْتُ : قال الله تعالى : « نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ » قرئ بالتخفيف والتشديد ، وَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ وَقَدَّرَ قَالَ : وَأَحْتَجِ الَّذِينَ خَفَّفُوا فَقَالُوا ؛ لو كانت كذلك لكانت فنعم المقدرون . قال الفراء : وتجمع العرب بين اللغتين ؛ قال الله تعالى : « فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْمَلَهُمْ رُؤُودًا » قال الأعشى : وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكَرْتُ * من الحوادثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَاةَ

وروى عن عكرمة « فَعَدَرْنَا » مخففة من القدرة وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم والكسائى لقوله : (فِنِعْمَ الْقَادِرُونَ) ومن شدد فهو من التقدير أى فقَدَرْنَا الشقى والسعيد فنعم المقدرون . رواه أبى مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : المعنى قدرنا قصيراً أو طويلاً . ونحوه عن أبى عباس : قَدَرْنَا مَلَكًا . المهدي : وهذا التفسير أشبه بقراءة التخفيف .

قلت : هو صحيح فإن عكرمة هو الذى قرأ « فَعَدَرْنَا » مخففاً قال : معناه فلما فنعم المالكون ، فأفادت الكلمتان معنيين متغايرين ؛ أى قَدَرْنَا وقت الولادة وأحوال النطفة فى التنجيل من حالة إلى حالة حتى صارت بشراً سوياً ، أو الشقى والسعيد ، أو الطويل والقصير ، كله على قراءة التشديد . وقيل : هما بمعنى كما ذكرنا .

قوله تعالى : أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْاسِيَ شِمْخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلُّ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

فيه مسئلتان :

الأولى – قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ أي ضامة تضم الأحياء على ظهورها والأموات في بطنها . وهذا يدل على وجوب مواراة الميت ودفنه ، ودفن شعره وساثر ما يزيله عنه . وهو قوله عليه السلام : « قُصُوا أَظْفَارَكُمْ وَأَدْفِنُوا قُلَامَاتِكُمْ » وقد مضى في « البقرة » بيانه . يقال : كَفَّتْ الشئَ أَكْفَيْتَهُ إِذَا جَمَعْتَهُ وَضَمَمْتَهُ ، وَالكَفَّتِ الضم والجمع ؛ وَأَنْشَدَ مَبْيُوتَهُ .

كِرَامٌ حِينَ تَنْكَفُتُ الْأَفَاعِي * إِلَى أَبْحَارِهِنَّ مِنَ الصُّبْحِ

وقال أبو عبيد : « كِفَاتًا » أوعية ويقال لِلنَّحْيِ كَفَّتْ وَكَفَيْتَ لِأَنَّهُ يَحْوِي اللَّبَنَ وَيَضُمُّهُ قَالَ :

فَأَنْتَ الْيَوْمَ فَوْقَ الْأَرْضِ حَيًّا * وَأَنْتَ غَدًا تَضُمَّكَ فِي كِفَاتِ

ونخرج الشَّعْبِيَّ فِي جَنَازَةِ فَنظُرُ إِلَى الْجَبَّانِ فَقَالَ : هَذِهِ كِفَاتِ الْأَمْوَاتِ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْبُيُوتِ فَقَالَ : هَذِهِ كِفَاتِ الْأَحْيَاءِ .

و[الثانية] – روى عن ربيعة في النَّبَاشِ قَالَ تُقَطَّعُ يَدُهُ فَيُقِيلُ لَهُ : لِمَ قُلْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا » فَالْأَرْضُ حَرْزٌ . وَقَدْ مَضَى هَذَا فِي سُورَةِ « الْمَائِدَةِ » وَكَانُوا يَسْمُونُ بِقَبْرِ الْغُرَقَدِ كَفْتَةً ، لِأَنَّهُ مَقْبَرَةٌ تَضُمُّ الْمَوْتَى ، فَالْأَرْضُ تَضُمُّ الْأَحْيَاءَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ وَالْأَمْوَاتِ فِي قُبُورِهِمْ . وَأَيْضًا اسْتَقْرَارُ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ اضْطِجَاعُهُمْ عَلَيْهَا ، أَنْضَامٌ مِنْهُمْ إِلَيْهَا . وَقِيلَ : هِيَ كِفَاتِ الْأَحْيَاءِ يَعْنِي دَفْنُ مَا يُنْجِخُ مِنَ الْإِنْسَانِ مِنَ الْفَضَلَاتِ فِي الْأَرْضِ ؛ إِذَا لَاضَمَّ فِي كَوْنِ النَّاسِ عَلَيْهَا ، وَالضَّمُّ يُشِيرُ إِلَى الْاِحْتِفَافِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ . وَقَالَ الْأَخْفَشُ وَأَبُو عَبِيدَةَ وَمَجَاهِدٌ فِي أَحَدِ قَوْلِيهِ : الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ يَرْجِعُ إِلَى الْأَرْضِ أَيْ الْأَرْضُ مُنْقَسِمَةٌ إِلَى حَيٍّ وَهُوَ الَّذِي يَنْبَتُ ، وَإِلَى مَيِّتٍ

(١) راجع ج ٢ ص ١٠٢ فابعدا . (٢) لم يذكر في الأصول لفظ المسئلة الثانية والمتبادر أن هنا موضعها كما يستفاد من أحكام القرآن لابن العربي . (٣) راجع ج ٦ ص ١٦٨ فابعد .

وهو الذي لا ينبت . وقال الفراء : أنتصب « أَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتًا » بوقوع الكيفات عليه ؛ أى
 ألم يجعل الأرض كيفات أحياء وأموات . فإذا نوتت نصبت ؛ كقوله تعالى : « أَوْ إِطْعَامٌ
 فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيًّا » . وقيل : نصب على الحال من الأرض أى منها كذا ومنها
 كذا . وقال الأخفش : « كِفَاتًا » جمع كافئة والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع . وقال
 الخليل : التكفيت قلب الشيء ظهرا لبطن أو بطننا لظهر . ويقال : أنكفت القوم إلى
 منازلهم أى أنقلبوا . فمعنى الكيفات أنهم يتصرفون على ظهرها وينقلبون إليها ويدفنون
 فيها . (وَجَعَلْنَا فِيهَا) أى فى الأرض (رَوَاسِيَ شَاخِحَاتٍ) يعنى الجبال ، والرواسي
 الثوابت ، والشاخحات الطوال ؛ ومنه يقال : شمخ بأنفه إذا رفعه كبيرا . قال : (وَأَسْقَيْنَاكُمْ
 مَاءً فُرَاتًا) أى وجعلنا لكم سقيا والفرات الماء العذب يشرب ويسقى منه الزرع . أى خلقنا
 الجبال وأنزلنا الماء الفرات . وهذه الأمور أعجب من البعث . وفى بعض الحديث قال
 أبو هريرة : فى الأرض من الجنة الفرات والتجلة ونهر الأردن . وفى صحيح مسلم : سبخان
 وجبخان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة .

قوله تعالى : أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى
 ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا
 تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : (أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) أى يقال للكفار سيروا « إلى ما كنتم به
 تكذبون » من العذاب يعنى النار فقد شاهدتموها عيانا . (أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ) أى دخان
 (ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ) يعنى الدخان الذى يرتفع ثم يتشعب إلى ثلاث شعب . وكذلك شأن
 الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب . ثم وصف الظل فقال : (لَا ظَلِيلٍ) أى ليس كالظل
 الذى يبق حر الشمس (وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهَبِ) أى لا يدفع من لهب جهنم شيئا . واللهب

ما يعلو على النار إذا اضطربت من أحمر وأصفر وأخضر . وقيل : إن الشعب الثلاثة هي الضريع والزقوم والغسلين ؛ قاله الضحاك . وقيل : اللهب ثم الشرر ثم الدخان ؛ لأنها ثلاثة أحوال هي غاية أوصاف النار إذا اضطربت وأشتدت . وقيل : عنق يخرج من النار فيتشعب ثلاث شعب . فأما النور فيقف على رؤوس المؤمنين ، وأما الدخان فيقف على رؤوس المنافقين ، وأما اللهب الصافي فيقف على رؤوس الكافرين . وقيل : هو السرادق وهو لسان من نار يحيط بهم ثم يتشعب منه ثلاث شعب فتظللهم حتى يفرغ من حسابهم إلى النار . وقيل : هو الظل من يحوم ؛ كما قال تعالى : « فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ » على ما تقدم^(١) . وفي الحديث : « إن الشمس تدنو من رؤوس الخلائق وليس عليهم يومئذ لباس ولا لهم أكفان فتلحقهم الشمس وتأخذ بأنفاسهم ومد ذلك اليوم ثم ينجي الله برحمته من يشاء إلى ظل من ظله فهناك يقولون « فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ » « ويقال للكاذبين « أَنْظِفُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ » من عذاب الله وعقابه « أَنْظِفُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ » فيكون أولياء الله جل ثناؤه في ظل عرشه أو حيث شاء من الظل إلى أن يفرغ من الحساب ثم يؤمر بكل فريق إلى مستقره من الجنة والنار . ثم وصف النار فقال : « إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ » الشرر واحدة شررة . والشَّرَارُ واحدة شرارة وهو ما تطاير من النار في كل جهة ، وأصله من شَرَرْتُ الثوب إذا بسطته للشمس ليحفف . والقصر البناء العالى . وقراءة العامة « كَالْقَصْرِ » بإسكان الصاد أى الحصون والمدائن فى العظم وهو واحد القصور . قاله ابن عباس وابن مسعود . وهو فى معنى الجمع على طريق الجنس . وقيل : القصر جمع قصرية ساكنة الصاد مثل جمره وجمرة وتمرة وتمرة . والقصره الواحدة من جزل الحطب الغليظ . وفى البخارى عن ابن عباس أيضا : « تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ » قال كما نزع الحشب بقصر^(٢) ثلاثة أذرع أو أقل فزفعه للشتاء فنسميه القصر . وقال سعيد بن جبير والضحاك : هي

(١) راجع ج ١٧ ص ٢١٣ (٢) كذا فى الأصول ولعل اللفظ تلفحهم .

(٣) نصب ثلاثة ويجوز إضافة قصر إليها أى بقدر ثلاثة أذرع .

أصول الشجر والنخل العظام إذا وقع وقُطِع . وقيل : أعناقه . وقرأ ابن عباس ومجاهد
وحميد والسلمي « كَالْقَصْرِ » بفتح الصاد أراد أعناق النخل . والقَصْرَة العنق جمعها قَصْر
وقصرات . وقال قتادة : أعناق الإبل . وقرأ سعيد بن جبیر بكسر القاف وفتح الصاد ،
وهي أيضا جمع قَصْرَة مثل بَدْرَة وبيدر وقَصْعَة وقِصْع وحَلْقَة وحِلْق الحلق الحديد . وقال
أبو حاتم : ولعله لغة كما قالوا حاجة وحِجَج . وقيل : القَصْر الجبل فشبّه الشرر بالقصر
في مقاديره ، ثم شبهه في لونه بالجمالات الصُّفْر وهي الإبل السود ، والعرب تسمى السود من الإبل
صُفْرًا ، قال الشاعر :^(١)

تِـ لَكَ خَيْلٍ مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي * هُنَّ صُفْرٌ أَوْلَادُهَا كَالزُّبَيْبِ

أي هن سود . وإنما سميت السود من الإبل صُفْرًا لأنه يشوب سوادها شيء من
صُفْرَة ، كما قيل لبيض الظباء : الأدم ، لأن بياضها تعلوه كُدْرَة : والشرر إذا تطاير وسقط
وفيه بقية من لون النار أشبه الإبل السود لما يشوبها من صُفْرَة . وفي شعرِ عُمَرَان بن حَطَّان
الخارجي :

دَعْتَهُمْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا وَرَمْتَهُمْ * بِمِثْلِ الْجَمَالِ الصُّفْرِ نَزَاعَةُ الشُّوَى

وضعف الترمذي^(٢) هذا القول فقال : وهذا القول محال في اللغة أن يكون شيء يشوبه
شيء قليل فنسب كله إلى ذلك الشائب ، فالعجب لمن قد قال هذا ، وقد قال الله تعالى :
« جَمَالَاتٌ صُفْرٌ » فلا نعلم شيئًا من هذا في اللغة ، ووجهه عندنا أن النار خلقت من النور
فهى نار مضيئة ، فلما خلق الله جهنم وهي موضع النار حشا ذلك الموضع بتلك النار وبعث
إليها سلطانها وغضبه ، فأسودت من سلطانه وأزدادت حِدَّة ، وصارت أشد سوادا من
النار ومن كل شيء سوادا ، فإذا كان يوم القيامة وجرى بهم في الموقف رمت بشررها على
أهل الموقف غضبا لغضب الله ، والشرر هو أسود لأنه من نار سوداء ، فإذا رمت النار
بشررها فإنها ترمي الأعداء به فهن سود من سواد النار ، لا يصل ذلك إلى الموحدين ؛ لأنهم

(٢) في نسخة : اليزيدي .

(١) هو الأمتى .

في سرائق الرحمة قد أحاط بهم في الموقف، وهو الغمام الذي يأتي فيه الرب تبارك وتعالى ولكن يعاينون ذلك الرمي، فإذا عاينوه نزع الله ذلك السلطان والغضب عنه في رأي العين منهم حتى يروها صفراء؛ ليعلم الموحدون أنهم في رحمة الله لا في سلطانه وغضبه. وكان ابن عباس يقول: الجمالات الصُّفْرُ حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال. ذكره البخاري. وكان يقرؤها «جَمَالَاتٌ» بضم الجيم، وكذلك قرأ مجاهد وحيد «جَمَالَاتٌ» بضم الجيم وهي الحبال الغلاظ وهي قُلُوس السفينة أي حبالها. وواحد القُلُوس قلس. وعن ابن عباس أيضا على أنها قطع النحاس. والمعروف في الحبل الغليظ جُمَّل بتشديد الميم كما تقدم في «الأعراف»^(١). «وجَمَالَاتٌ» بضم الجيم جمع جَمَالَة بكسر الجيم موحدًا كأنه جمع جَمَل نحو حَجَرٍ وحجارة وذَكَرٍ وذِكَارَةٌ. وقرأ يعقوب وابن أبي إسحق وعيسى والمجذرى «جَمَالَةٌ» بضم الجيم موحدًا وهي الشيء العظيم المجموع بضمه إلى بعض. وقرأ حفص وحمزة والكسائي «جَمَالَةٌ» وبقية السبعة «جَمَالَاتٌ» قال الفراء: يجوز أن تكون الجمالات جمع جَمَالٍ كما يقال رجل ورجال ورجالات. وقيل: شبهها بالجمالات لسرعة سيرها. وقيل: لمتابعة بعضها بعضًا. والقَصْرُ واحد القصور. وقصر الظلام اختلاطه. ويقال: أتيتَه قَصْرًا أي عَشِيًّا فهو مشترك؛ قال:^(٢)

كَأَنَّهُمْ قَصْرًا مَصَابِيحُ رَاهِبٍ * مَمُوزَنَ رَوَى بِالسَّلِيطِ ذُبَالَهَا

مسئلة - في هذه الآية دليل على جواز آذخار الحطب والفحم وإن لم يكن من القوت، فإنه من مصالح المرء ومعاني مفاقره. وذلك مما يقتضى النظر أن يكتسبه في غير وقت حاجته؛ ليكون أرخص وحالة وجوده أمكن، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتدخر القوت في وقت عموم وجوده من كسبه وماله، وكل شيء محمول عليه. وقد بين ابن عباس هذا بقوله: كنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وتدخره للشقاء وكنا نسميه القصر. وهذا أصح ما قيل في ذلك والله أعلم.

(١) راجع ج ٧ ص ٢٠٧

(٢) فائله كثير عزة. وموزن كقعد بلد بالجزيرة.

قوله تعالى : هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾

وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : (هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ) أى لا يتكلمون (وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) أى

إن يوم القيامة له مواطن ومواقيت ، فهذا من المواقيت التى لا يتكلمون فيها ولا يؤذن لهم فى الاعتذار والتنصل ، وعن عكرمة عن ابن عباس قال : سأل ابن الأزرق عن قوله تعالى : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ » و « لَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » وقد قال تعالى : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » فقال له : إن الله عز وجل يقول : « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَنَّ سَنَةً مِمَّا تَعُدُّونَ » فإن لكل مقدار من هذه الأيام لونا من هذه الألوان ، وقيل : لا ينطقون بحجة نافعة ومن نطق بما لا ينفع ولا يفيد فكأنه ما نطق ، قال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون ، وقيل : إن هذا وقت جوابهم « أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ » وقد تقدم . وقال أبو عثمان : أسكتهم رؤية الهيبة وحياء الذنوب ، وقال الجنيدي : أى حذر لمن أعرض عن منعمه ومحمده وكفر أياديه ونعمه . و « يوم » بالرفع قراءة العامة على الابتداء والخبر ، أى تقول الملائكة « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ » ، ويجوز أن يكون قوله « أَنْطِقُوا » من قول الملائكة ، ثم يقول الله لأوليائه : هذا يوم لا ينطق الكفار ، ومعنى اليوم الساعة والوقت . وروى يحيى بن سليمان عن أبي بكر عن عاصم « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ » بالنصب ورويت عن ابن هرمز وغيره ، بخاز أن يكون مبنيًا لإضافته إلى الفعل وموضعه رفع . وهذا مذهب الكوفيين . وجاز أن يكون فى موضع نصب على أن تكون الإشارة إلى غير اليوم . وهذا مذهب البصريين ؛ لأنه إنما بنى عندهم إذا أضيف إلى مبنى والفعل هاهنا معرب . وقال الفراء فى قوله تعالى « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » الفاء نسق أى عطف على « يُؤْذَنُ » وأجيز ذلك ؛ لأن أواخر الكلام بالنون . ولو قال : فاعتذروا لم يوافق الآيات . وقد قال :

(١) راجع ج ١٢ ص ١٥٣

« لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا » بالنصب وكله صواب ؛ ومثله : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ » بالنصب والرفع .

قوله تعالى : هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : (هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ) أى يقال لهم هذا اليوم الذى يفصل فيه بين الخلائق ، فيتبين المحق من المبطل . (جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ) قال ابن عباس جمع الذين كذبوا محمدا والذين كذبوا النبيين من قبله . رواه عنه الضحاك . (فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ) أى حيلة فى الخلاص من الهلاك (فَكِيدُونِي) أى فأحتالوا لأنفسكم وقاؤونى ولن تجدوا ذلك . وقيل : أى « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ » أى قدرتم على حرب « فَكِيدُونِي » أى حاربونى . كذا روى الضحاك عن ابن عباس . قال : يريد كنتم فى الدنيا تحاربون محمدا صلى الله عليه وسلم ومحاربونى فاليوم حاربونى . وقيل : أى إنكم كنتم فى الدنيا تعملون بالمعاصى وقد عجزتم الآن عنها وعن الدفع عن أنفسكم . وقيل : إنه من قول النبي صلى الله عليه وسلم فىكون كقول هود « فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ » .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ) أخبر بما بصير إليه المتقون غدا ، والمراد بالظلال ظلال الأشجار وظلال القصور مكان الظل فى الشعب الثلاث . وفى سورة يس « هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ » . (وَفَوْكَهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ) أى يتمنون . وقراءة العامة « ظلال » . وقرأ الأعرج والزهرى وطلحة « ظليل » جمع ظلة يعنى

في الجنة . (كَلُوا وَاشْرَبُوا) أى يقال لهم غدا هذا بدل ما يقال للمشركين « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا » . ذ « كَلُوا وَاشْرَبُوا » في موضع الحال من ضمير « المتقين » في الظرف الذى هو « فِي ظِلَالٍ » أى هم مستقرون « فِي ظِلَالٍ » مقولا لهم ذلك . (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) أى نثيب الذين أحسنوا في تصديقهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأعمالهم في الدنيا .

قوله تعالى : كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ

لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : (كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا) هذا مردود إلى ما تقدم قبل المتقين ، وهو وعيد وتهديد وهو حال من « المكذبين » أى الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم : « كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا » . (إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ) أى كافرون . وقيل : مكتسبون فعلا يضركم في الآخرة من الشرك والمعاصي .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ

لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ) أى إذا قيل لهؤلاء المشركين « آركعوا » أى صلوا « لا يركعون » أى لا يصلون ؛ قاله مجاهد . وقال مقاتل : نزلت في ثقيف آمتنعوا من الصلاة فنزل ذلك فيهم . قال مقاتل : قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم « أسلموا » وأمرهم بالصلاة فقالوا : لا ننحنى فإنها مسبة علينا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود » . يذكر أن مالكا رحمه الله دخل المسجد بعد صلاة العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع ، فقال له صبي : يا شيخ قم فاركع . فقام فركع ولم يحاجه بما يراه مذهبا ، فقيل له في ذلك فقال : خشيت أن أكون من الذين « إِذَا قِيلَ لَهُمْ آرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ » . وقال ابن عباس : إنما يقال لهم هذا في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون . فتادة : هذا في الدنيا . ابن العربي : هذه الآية

حجة على وجوب الركوع وإنزاله ركناً في الصلاة وقد انعقد الإجماع عليه ، وظن قوم أن هذا إنما يكون في القيامة وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويل وعقاب ، وإنما يدعون إلى السجود كشفاً لحال الناس في الدنيا ، فمن كان يسجد له ^(١) يمكن من السجود ، ومن كان يسجد رياء لغيره صار ظهره طبقاً واحداً . وقيل : أى إذا قيل لهم أخضعوا لله لا يخضعون ، فهو عام في الصلاة وغيرها وإنما ذكر الصلاة ، لأنها أصل الشرائع بعد التوحيد . وقيل : الأمر بالصلاة أمر بالإيمان ؛ لأنها لا تصح من غير إيمان .

قوله تعالى : ﴿ قَبَائِلَ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى إن لم يصدقوا بالقرآن الذى هو المعجز والدلالة على صدق الرسول عليه السلام قبائيل أى شىء يصدقون . وكرر « وَيَلُومُنَّ الْكَاذِبِينَ » لمعنى تكرير التخويف والوعيد . وقيل : ليس بتكرار ، لأنه أراد بكل قول منه غير الذى أراد بالآخر ، كأنه ذكر شيئاً فقال : ويل لمن يكذب بهذا ، ثم ذكر شيئاً آخر فقال : ويل لمن يكذب بهذا ، ثم ذكر شيئاً آخر فقال : ويل لمن يكذب بهذا . ثم كذلك إلى آخرها . ختمت السورة والله الحمد .

سورة « عم » مكية وتسمى سورة « النبأ » وهى أربعون أو إحدى وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ « عم » لفظ استفهام ، ولذلك سقطت منها ألف « ما » ، لتمييز الخبر عن الاستفهام . وكذلك فيم ومم إذا استفهمت . والمعنى عن أى شىء
(١) فى نسخة : تمكن من السجود .

يسأل بعضهم بعضاً . وقال الزجاج : أصل « عم » عن ما فادغمت النون في الميم ؛ لأنها تشاركها في الغنة . والضمير في « يَتَسَاءَلُونَ » لقريش . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتحدث فيما بينها فمنهم المصدق ومنهم المكذب به فنزلت « عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ » . وقيل : « عم » بمعنى فيم يتشدد المشركون ويختصمون .

قوله تعالى : (عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ) أى يتساءلون « عن النبي العظيم » فمن ليس تتعلق بـ « يتساءلون » الذى فى التلاوة ؛ لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فىكون « عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ » كقولك : كم مالك أثلاثون أم أربعون؟ فوجب لما ذكرناه من امتناع تعلقه بـ « يتساءلون » الذى فى التلاوة ، وإنما يتعلق يتساءلون آخر مضمرة . وحسن ذلك لتقدم يتساءلون ؛ قاله المهدوى . وذكر بعض أهل العلم أن الاستفهام فى قوله : « عن » مكرر إلا أنه مضمرة كأنه قال عم يتساءلون عن النبي العظيم . فعلى هذا يكون متصلاً بالآية الأولى . والنبا العظيم أى الخبر الكبير . (الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ) أى يخالف فيه بعضهم بعضاً فيصدق واحد ويكذب آخر ؛ فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هو القرآن ؛ دليله قوله : « قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ . أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ » فالقرآن نبأ وخبر وقصص وهو نبأ عظيم الشأن . وروى سعيد عن قتادة قال : هو البعث بعد الموت صار الناس فيه رجلين مصدق ومكذب . وقيل : أمر النبي صلى الله عليه وسلم . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : وذلك أن اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء كثيرة ، فأخبره الله جل ثناؤه باختلافهم ثم هددهم فقال : (كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) أى سيعلمون عاقبة القرآن ، أو سيعلمون البعث أحق هو أم باطل . و « كَلَّا » رد عليهم فى إنكارهم البعث أو تكذيبهم القرآن فيوقف عليها . ويجوز أن يكون بمعنى حقا أو « ألا » فيبدأ بها . والأظهر أن سؤالهم إنما كان عن البعث ؛ قال بعض علمائنا : والذى يدل عليه قوله عز وجل « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا » يدل على أنهم كانوا يتساءلون عن البعث . (ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ) أى حقا يعلمون صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن وما ذكره لهم من البعث بعد الموت . وقال الضحاك : « كَلَّا

سَيَعْلَمُونَ» يعنى الكافرين عاقبة تكذيبهم «ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ» يعنى المؤمنين عاقبة تصديقهم .
وقيل : بالعكس أيضا . وقال الحسن : هو وعيد بعد وعيد . وقراءة العامة فيهما بالياء
على الخبر ؛ لقوله تعالى : « يَتَسَاءَلُونَ » وقوله : « هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ » . وقرأ الحسن
وأبو العالية ومالك بن دينار بالتاء فيهما .

قوله تعالى : أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٧﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٨﴾
وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ
لِبَاسًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١٢﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٣﴾
وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٤﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَمَّاجًا ﴿١٥﴾
لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٦﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا) دلم على قدرته على البعث ؛ أى قدرتنا
على إيجاد هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة . والمهاد الوطاء والفراش . وقد قال
تعالى : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا » وقرئ « مَهْدًا » ومعناه أنها لهم كالمهد للصبي وهو
ما يمهده له فينوم عليه . (وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) أى لتسكن ولا تتكفا ولا تميل بأهلها . (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا)
أى أصنافا ذكرا وأنثى . وقيل : ألوانا . وقيل : يدخل فى هذا كل زوج من قبيح وحسن
وطويل وقصير ؛ لتختلف الأحوال فيقع الاعتبار فيشكر الفاضل ويصبر المفضول . (وَجَعَلْنَا
نَوْمَكُمْ) « جعلنا » معناه صيرنا ؛ ولذلك تعدت إلى مفعولين . (سُبَاتًا) المفعول الثانى أى
راحة لأبدانكم ، ومنه يوم السبت أى يوم الراحة ؛ أى قيل لبنى إسرائيل : أستريحوا فى هذا
اليوم فلا تعملوا فيه شيئا . وأنكر ابن الأنبارى هذا وقال : لا يقال للراحة سبات . وقيل :
أصله التمدد ؛ يقال : سبتت المرأة شعرها إذا حلتها وأرسلته ، فالسبات كالممدود ورجل
مسبوت الخلق أى ممدود . وإذا أراد الرجل أن يستريح تمدد فسميت الراحة سبتا .

ونيل : أصله القطع ؛ يقال : سبت شعره سبتا حلقه ؛ وكأنه إذا نام أتقطع عن الناس وعن الأثقال فالسبات يشبه الموت إلا أنه لم تفارقه الروح . ويقال : سير سبت أى سهل لين ؛ قال اعر :^(١)

وَمَطْوِيَّةُ الْأَقْرَابِ أَمَا يَهَارُهَا * فَسَبْتُ وَأَمَا لِيَلْمَا فَذَمِيلُ

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ إِبَاسًا) أى تلبسكم ظلمته وتغشاكم ؛ قاله الطبرى . وقال ابن جبير والسدى : أى سكننا لكم . (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) فيه إضمار أى وقت معاش أى متصرفا لطلب المعاش وهو كل ما يعاش به من المطعم والمشرب وغير ذلك فـ « مَعَاشًا » على هذا أسم زمان ليكون الثانى هو الأزل . ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى العيش على تقدير حذف المضاف . (وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) أى سبع سموات محكمات ؛ أى محكمة الخلق وثيقة البنيان . (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا) أى وقادا وهى الشمس . وجعل هنا بمعنى خلق ؛ لأنها تعدت لمفعول واحد والوهاج الذى له وهج ؛ يقال : وهج يهيج وهجا ووهجا ووهجانا . ويقال للجوهر إذا تلا لأ توهج . وقال ابن عباس : وهاجا منيرا متلا لنا . (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا) قال مجاهد وقتادة : المعصرات الرياح . وقاله ابن عباس . كأنها تعصر السحاب . وعن ابن عباس أيضا أنها السحاب . وقال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك : أى السحاب التى تنعصر بالماء ولما تمطر بعد ؛ كالمراة المعصر التى قد دنا حيضها ولم تحض ؛ قال أبو النجم :

[تَمَشَى الْهُوَيْنَا مَائِلًا نَحَارُهَا * قَدْ أَعْصَرَتْ أَوْقَدَدَنَا [عَصَارُهَا]]^(٢)

[وقال آخر] :

فَكَانَ مَجْنَى دُونَ مَنْ كُنْتُ أَنْتَى * ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَأَعْبَانٍ وَمُعْصَرُ

(١) هو حميد بن نور . والسبت السير السريع والذميل السير اللين .

(٢) هذه الزيادة من أبي حيان دل عليها إجماع نسخ الأصل على ذكر أبي النجم وأما البيت الذى بعده فلمعربى

أبو ربيعة .

وقال آخر:

وَذِي أُشْرٍ كَالْأَقْوَانِ يَزِينُهُ * ذَهَابُ الصَّبَا وَالْمُعْصِرَاتُ الرِّوَائِحُ

فالرياح تسمى معصرات؛ يقال: أعصرت الريح تعصرا إعصارا إذا أثارت العجاج وهي الأعصار، والسحب أيضا تسمى المعصرات لأنها تمطر. وقال قتادة أيضا: المعصرات السماء. النحاس: هذه الأقوال صحاح؛ يقال للرياح التي تأتي بالمطر معصرات والرياح تلتفح السحاب فيكون المطر والمطر ينزل من الريح على هذا. ويجوز أن تكون الأقوال واحدة ويكون المعنى وأنزلنا من ذوات الرياح المعصرات «ماءً مُجَاجًا» وأصح الأقوال أن المعصرات السحاب كذا المعروف أن الغيث منها، ولو كان بالمعصرات لكان الريح أولى. وفي الصحاح: والمعصرات السحاب تعصرت بالمطر وأعصر القوم أي أمطروا؛ ومنه قرأ بعضهم «وَفِيهِ يُعْصَرُونَ» والمُعْصِر الجارية أول ما أدركت وحاضت؛ يقال: قد أعصرت كأنها دخلت عصر شبابها أو بلغته؛ قال الراجز:

جَارِيَةٌ بِسَفْوَانَ دَارُهَا * تَمْشِي الْمُهَوِّنَا سَاقِطًا نَحَارُهَا

* قَدْ أَعْصَرَتْ أَوْ قَدَدْنَا إِعْصَارُهَا *

والجمع معاصر، ويقال: هي التي قاربت الحيض؛ لأن الإعصار في الجارية كالمراهقة في الغلام. سمعته من أبي الفوث الأعرابي. قال غيره: والمعصر السحابة التي حان لها أن تمطر؛ يقال أجنّ الزرع فهو مجنّ أي صار إلى أن يجنّ وكذلك السحاب إذا صار إلى أن يمطر فقد أعصر. وقال المبرد: يقال سحاب معصر أي ممسك للساء ويعتصر منه شيء بعد شيء، ومنه العَصْر بالتحريك للملجأ الذي يلجأ إليه، والعُصْرَة بالضم أيضا الملجأ. وقد مضى هذا المعنى في سورة «يوسف»^(٣) والحمد لله. وقال أبو زيد:^(٤)

(١) هو البيت كما في اللسان وروايته للبيت:

وَذِي أُشْرٍ كَالْأَقْوَانِ تَشْرُفُ * ذَهَابُ الصَّبَا وَالْمُعْصِرَاتُ الدَّوَالِحُ

والدوالح السحاب التي أفلحها الماء. الذهاب بكسر الهمزة: الأمطار الضعيفة. (٢) هو منصور بن مرثد الأسدي.

(٣) راجع ج ٩ ص ٢٠٥ (٤) قاله في رثاء ابن أخته وكان مات عطشا في طريق مكة.

صَادِيًا يَسْتَنِيفُ غَيْرَ مُغَاثٍ * وَلَقَدْ كَانَ عَصْرَةَ الْمَنْجُودِ
 ومنه الْمُعْصِرُ لِلجَّارِيَةِ التي قد قربت من البلوغ يقال لها مُعْصِرٌ؛ لأنها تمحس في البيت فيكون
 اليَتُّ لها عَصْرًا . وفي قراءة ابن عباس وعكرمة « وَأَنْزَلْنَا بِالْمُعْصِرَاتِ » والذي في المصاحف
 « مِنْ الْمُعْصِرَاتِ » قال أبي بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان
 « مِنْ الْمُعْصِرَاتِ » أي من السموات . « مَاءٌ ثَجَّاجًا » صَبَابًا متتابعًا، عن ابن عباس ومجاهد
 وغيرهما . يقال : ثَجَّجْتُ دَمَهُ فَأَنَا ثَجَّجُهُ ثَجًّا وَقَدْ ثَجَّ الدَّمُ يَثْجُ ثَجْجًا وكذلك الماء فهو لازم
 ومتعد . والثَجَّاجُ في الآية المنصَبُ . وقال الزجاج : أي الصَّبَابُ وهو متعد كأنه يَثْجُ نفسه
 أي يَصُبُ . وقال عبيد بن الأبرص :^(١)

فَثَجَّ أَغْلَاهُ ثُمَّ أَرْجَحَّ أَسْفَلَهُ * وَضَاقَ ذَرْعًا يَحْمِلُ الْمَاءِ مُنْصَاحَ

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن الحج المبرور فقال : « الْعَجُّ وَالثَّجُّ » فالعج رفع
 الصوت بالتلبية والثج إراقة الدماء وذبح الهدايا، وقال ابن زيد : ثَجَّاجًا كثيرا . والمعنى واحد .
 قوله تعالى : ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ ﴾ أي بذلك الماء (حَبًّا) كالحنطة والشعير وغير ذلك (وَنَبَاتًا)
 من الأَبِّ وهو ما تأكله الدواب من الحشيش . (وَجَنَاتٍ) أي بساتين (أَلْفَافًا) أي ملتفة
 بعضها ببعض لتشعب أغصانها ولا واحد له كالأوزاع والأخفاف . وقيل : واحد الألفاف لِفَ
 بالكسر ولف بالضم . ذكره الكسائي ؛ قال :

جَنَّةٌ لَفٌّ وَعَيْشٌ مُفْدِقٌ * وَنَدَامَى كُكُلُهُمْ بِيضٌ زُهْرٌ

وعنه أيضا وأبي عبيدة : لفيف كشريف وأشراف . وقيل : هو جمع الجمع حكاة الكسائي .
 يقال : جنة لفاء ونبت لِفَ والجمع لُف بضم اللام مثل حُرْمٍ يجمع اللُف أَلْفَافًا . الزمخشري :
 ولو قيل جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان وجيها . ويقال : شجرة لفاء وشجر لِفَ وأمرأة

(١) البيت في وصف المطر ومنصاح : منشق بالماء .

(٢) قوله : والجمع لف بضم اللام راجع إلى جنة لفاء . بدليل قوله : مثل حمر لأنه جمع لفاء . وأما لف بالكسر

والفتح لفاء ألفاف .

لغاء أى غليظة الساق مجتمعاً اللحم . وقيل : التقدير ونخرج به جنات ألفافا فحذف لدلالة الكلام عليه . ثم هذا الألفاف والأنضمام معناه أن الأشجار فى البساتين تكون متقاربة^(١) ، فالأغصان من كل شجرة متقاربة لقوتها .

قوله تعالى : **إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا** ﴿١٧﴾ **يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا** ﴿١٨﴾ **وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا** ﴿١٩﴾ **وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا** ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : **(إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا)** أى وقتاً ومجمعاً وميعاداً للأولين والآخرين ؛ لما وعد الله من الجزاء والثواب . وسمى يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه . قوله تعالى : **(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ)** أى للبعث **(فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا)** أى إلى موضع العرض **(أَفْوَاجًا)** أى أمم كل أمة مع إمامهم . وقيل : زمراً وجماعات الواحد فوج . ونصب يوماً بدلاً من اليوم الأول . وروى من حديث معاذ بن جبل قلت : يا رسول الله ! رأيت قول الله تعالى **«يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا»** فقال النبي صلى الله عليه وسلم : **«يامعاذ لقد سألت عن أمر عظيم»** ثم أرسل عينيه بايكأثم قال : **«يحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتا قد ميزهم الله تعالى من جماعات المسلمين وبذل صورهم فمنهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون أرجلهم أعلامهم ووجوههم يسحبون عليها وبعضهم عمى يترددون وبعضهم صم بكم لا يعللوا وبعضهم يمضفون ألسنتهم فهى مدلاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم لعاباً يتقذروهم أهل الجمع وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلبون على جذوع من النار وبعضهم أشد نتناً من الجيف وبعضهم مابسون جلايب سابعة من القطران لاصقة بجلودهم فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس - يعنى النمام - وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت والحرام والمكس وأما المنكسون**

(٢) فى نسخة من الأصل : متقاربة الأغصان ... الخ .

رءوسهم ووجوههم فأكلة الربا والعمى من يمحور في الحكم والضم البكم الذين يعجبون بأعمالهم والذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين يخالف قولهم فعلهم والمقطعة أيديهم وأرجلهم فالذين يؤذون الحيران والمصلوبون على جذوع النار فالسعاة بالناس إلى السلطان والذين هم أشد تناساً من الخيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق الله من أموالهم والذين يلبسون الجلابيب فأهل الكبر والفخر والخيلاء“ .

قوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ أي لنزول الملائكة ؛ كما قال تعالى : « وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » . وقيل : تقطعت فكانت قطعاً كالأبواب . فانتصاب الأبواب على هذا التأويل بمحذوف الكاف . وقيل : التقدير فكانت ذات أبواب ؛ لأنها تصير كلها أبواباً . وقيل : أبوابها طرقها . وقيل : تنحل وتنثر حتى تصير فيها أبواباً . وقيل : إن لكل عبد باين في السماء باباً لعمله وباباً لرزقه فإذا قامت القيامة أُنْفِثَتْ الأبواب . وفي حديث الإسراء : ” ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا “ . ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أي لا شيء كما أن السراب كذلك يظنه الرائي ماء وليس بماء . وقيل : « سُيِّرَتِ » نسفت من أصولها . وقيل : أزيلت عن مواضعها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَعَابًا ﴿٢٢﴾ لَيْسَ فِيهَا فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

(١) وفي الدر المنثور: حق الله والفقراء . الخ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ مِفْعَالٌ مِنَ الرَّصْدِ وَالرُّصْدِ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ أَمَامَكَ . قَالَ الْحَسَنُ : إِنَّ عَلَى النَّارِ رَصْدًا لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْتَازَ عَلَيْهِ ، فَمَنْ جَاءَ بِجَوَازٍ جَازٍ وَمَنْ لَمْ يَجِئْ بِجَوَازٍ حُبْسٍ . وَعَنْ سَفِيَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : عَلَيْهَا ثَلَاثُ قَنَاطِرٍ . وَقِيلَ : « مِرْصَادًا » ذَاتُ أَرْصَادٍ عَلَى النَّسَبِ أَيْ تَرْصِدُ مِنْ يَمْزِجُهَا . وَقَالَ مِقَاتِلُ : مَحْبَسًا . وَقِيلَ : طَرِيقًا وَمَمْرًا فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ حَتَّى يَقْطَعَ جَهَنَّمَ . وَفِي الصَّحَاحِ : وَالْمِرْصَادُ الطَّرِيقُ . وَذَكَرَ الْقَشِيرِيُّ : أَنَّ الْمِرْصَادَ الْمَكَانَ الَّذِي يَرْصُدُ فِيهِ الْوَاحِدُ الْعَدُوَّ ، نَحْوَ الْمِضْمَارِ الْمَوْضِعِ الَّذِي تُضَمَّرُ فِيهِ الْخَيْلُ . أَيْ هِيَ مَعْدَةٌ لَهُمْ ، فَالْمِرْصَادُ بِمَعْنَى الْمَحَلِّ ؛ فَالْمَلَائِكَةُ يَرْصُدُونَ الْكُفْرَانَ حَتَّى يَنْزِلُوا بِجَهَنَّمَ . وَذَكَرَ الْمَآوِرِيُّ عَنْ أَبِي سَنَانَ أَنَّهَا بِمَعْنَى رَاصِدَةٍ تَجَازِيهِمْ بِأَفْعَالِهِمْ . وَفِي الصَّحَاحِ : الرَّاصِدُ الشَّيْءُ الرَّاقِبُ لَهُ ؛ تَقُولُ : رَصَدَهُ يَرْصُدُهُ رَصْدًا وَرَصْدًا ، وَالرَّصْدُ . التَّرْقُبُ وَالْمَرْصُدُ ، وَوَضْعُ الرَّصْدِ . الْأَصْمَعِيُّ : رَصَدْتَهُ أَرْصُدُهُ تَرْقِبْتَهُ وَأَرْصُدْتَهُ أَعَدَدْتَهُ لَهُ . وَالْكَسَائِيُّ مِثْلَهُ .

قلت : بِجَهَنَّمَ مَعْدَةٌ مَرَّصُدَةٌ مَتَّفَعٌ مِنَ الرَّصْدِ وَهُوَ التَّرْقُبُ ؛ أَيْ هِيَ مُتَطَلِّعَةٌ لِمَنْ يَأْتِي . وَالْمِرْصَادُ مِفْعَالٌ مِنَ أَبْنِيَةِ الْمَبَالِغَةِ كَالْمِعْطَارِ وَالْمِغْيَارِ فَكَأَنَّهُ يَكْثُرُ مِنْ جَهَنَّمَ أَنْتَظَارُ الْكُفْرَانِ . ﴿ لِلطَّاغِينَ مَأْبَأً ﴾ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : « مِرْصَادًا » وَالْمَأْبَأُ الْمَرْجِعُ أَيْ مَرَجَعًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا ؛ يُقَالُ : آبَ يَأُوبُ أَوْبَةً إِذَا رَجَعَ . وَقَالَ قَتَادَةُ : مَأْوَى وَمَنْزَلًا . وَالْمَرَادُ بِالطَّاغِينَ مَنْ طَغَى فِي دِينِهِ بِالْكَفْرِ أَوْ فِي دُنْيَاهُ بِالظُّلْمِ .

قوله تعالى : ﴿ لَا بَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أَيْ مَا كَثُرْنَ فِي النَّارِ مَا دَامَتِ الْأَحْقَابُ وَهِيَ لَا تَنْقَطِعُ ، فَكَلِمَا مَضَى حُقْبٌ جَاءَ حُقْبٌ . وَالْحُقْبُ بضم الحاءِ وَهَمْزُ الدَّهْرِ وَالْأَحْقَابُ الدَّهْرُ . وَالْحَقْبَةُ بِالْكَسْرِ السَّنَةُ وَالْجَمْعُ حِقَبٌ ؛ قَالَ مَتَمُّ بْنُ نُوَيْرَةَ التَّمِيمِيُّ :

وَكُنَّا كَعَدْمَانِيَّ جَدِيمَةَ حِقْبَةٍ * مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قَبِلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا * لَطُولِ اجْتِمَاعِ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةَ مَعَا

والْحُقُبُ بِالضَّمِّ وَالسُّكُونِ ثَمَانُونَ سَنَةً . وَقِيلَ : أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلُّ عَلَى مَا يَأْتِي وَاجْتِمَاعِ أَحْقَابِ .
وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ ؛ لِابْتِهَانِ فِيهَا أَحْقَابِ الْآخِرَةِ الَّتِي لَا نِهَاطَةَ لَهَا ؛ فَحُذِفَ الْآخِرَةُ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ
عَلَيْهِ ؛ إِذْ فِي الْكَلَامِ ذِكْرُ الْآخِرَةِ وَهُوَ كَمَا يُقَالُ أَيَّامِ الْآخِرَةِ ؛ أَيَّ أَيَّامٍ بَعْدَ أَيَّامٍ إِلَى غَيْرِ نِهَاطَةٍ ،
وَإِنَّمَا كَانَ يَدُلُّ عَلَى التَّوْقِيتِ لَوْ قَالَ خَمْسَةَ أَحْقَابِ أَوْ عَشْرَةَ أَحْقَابِ وَنَحْوَهُ . وَذِكْرُ الْأَحْقَابِ لِأَنَّ
الْحُقُبَ كَانَ أَعْبَدَ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ ، فَتَكَلَّمَ بِمَا تَذَهَبُ إِلَيْهِ أَوْ هَامَهُمْ وَيَعْرِفُونَهَا ، وَهِيَ كِتَابَةٌ عَنِ
التَّابِيدِ أَيَّ يَمَكُثُونَ فِيهَا أَبَدًا . وَقِيلَ : ذِكْرُ الْأَحْقَابِ دُونَ الْأَيَّامِ ؛ لِأَنَّ الْأَحْقَابَ أَهْوَلُ
فِي الْقُلُوبِ وَأَدْلَى عَلَى الْخُلُودِ . وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ ؛ وَهَذَا الْخُلُودُ فِي حَقِّ الْمُشْرِكِينَ . وَيُمْكِنُ حَمْلُ
الْآيَةِ عَلَى الْعَصَاةِ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَحْقَابِ . وَقِيلَ : الْأَحْقَابُ وَقْتُ لَشْرِبِهِمُ الْحَمِيمِ
وَالنَّسَاقِ ، فَإِذَا أَنْقَضَتْ فَيَكُونُ لَهُمْ نَوْعٌ آخَرَ مِنَ الْعِقَابِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : «لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَابًا» .
لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا . إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا» وَ«لَا يَشِينُ» أَسْمُ فَاعِلٍ مِنْ لَبِثٍ وَيَقْوِيهِ
أَنَّ الْمَصْدَرَ مِنْهُ اللَّبِثُ بِالْإِسْكَانِ كَالشَّرْبِ . وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَاءُ «لَيْشِينُ» بِغَيْرِ الْفِ وَهُوَ
أَخْتِيَارُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبِي عُبَيْدٍ وَهُمَا لَفْتَانٌ ؛ يُقَالُ : رَجُلٌ لَابِثٌ وَلَبِثٌ مِثْلُ طَمِعٌ وَطَامِعٌ وَفِرَةٌ
وَفَارَةٌ . وَيُقَالُ : هُوَ لَبِثٌ بِمَكَانٍ كَذَا أَيَّ قَدْ صَارَ اللَّبِثُ شَأْنَهُ ، فَشُبِّهَ بِمَا هُوَ خَلْقَةٌ فِي الْإِنْسَانِ
نَحْوَ حَذِرٍ وَفَرَّقٌ ؛ لِأَنَّ بَابَ فَعِيلٍ إِنَّمَا هُوَ لَمَّا يَكُونُ خَلْقَةٌ فِي الشَّيْءِ فِي الْأَغْلَبِ وَإِسْرَافِ كَذَلِكَ
أَسْمُ الْفَاعِلِ مِنْ لَابِثٍ . وَالْحُقُبُ ثَمَانُونَ سَنَةً فِي قَوْلِ ابْنِ عَمْرٍو ابْنِ مَجِيصَنٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ ،
وَالسَّنَةُ ثَلَاثُونَ يَوْمًا وَسِتُونَ يَوْمًا وَالْيَوْمُ أَلْفُ سَنَةٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَرَوَى
ابْنُ عَمْرٍو هَذَا مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : وَالسَّنَةُ ثَلَاثُونَ يَوْمًا
وَسِتُونَ يَوْمًا كُلُّ يَوْمٍ مِثْلُ أَيَّامِ الدُّنْيَا . وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو أَيْضًا : الْحُقُبُ أَرْبَعُونَ سَنَةً .
السُّدِّيُّ : سَبْعُونَ سَنَةً . وَقِيلَ : إِنَّهُ أَلْفُ شَهْرٍ . رَوَاهُ أَبُو أَمَامَةَ مَرْفُوعًا . بِشِيرِ بْنِ كَعْبٍ :
ثَلَاثُونَ سَنَةً . الْحَسَنُ : الْأَحْقَابُ لَا يَدْرِي أَحَدٌ كَمْ هِيَ وَلَكِنْ ذَكَرُوا أَنَّهَا مِائَةٌ حُقُبٌ ، وَالْحُقُبُ
الْوَاحِدُ مِنْهَا سَبْعُونَ أَلْفَ سَنَةٍ ، الْيَوْمُ مِنْهَا كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ . وَعَنْ أَبِي أَمَامَةَ أَيْضًا
عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنَّ الْحُقُبَ الْوَاحِدَ ثَلَاثُونَ أَلْفَ سَنَةٍ» ذَكَرَهُ الْمَهْدِيُّ .
وَالْأَوَّلُ الْمَأُورِدِيُّ . وَقَالَ قُطْرُبٌ : هُوَ الدَّهْرُ الطَّوِيلُ غَيْرُ الْمَحْدُودِ . وَقَالَ عَمْرٌو بْنُ الْخَطَّابِ

رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقابا الحُقب بضع وثمانون سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما كل يوم ألف سنة مما تعدون فلا يتكلم أحدكم على أنه يخرج من النار“ . ذكره الثعلبي . القرطبي : الأحقاب ثلاثة وأربعون حُقبا كل حُقب سبعون خريفا كل خريف سبعمائة سنة كل سنة ثلثمائة وستون يوما كل يوم ألف سنة .

قلت : هذه أقوال متعارضة والتحديد في الآية للخلود يحتاج إلى توقيف يقطع العذر ، وليس ذلك بثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم . وإنما المعنى والله أعلم ما ذكرناه أولا ؛ أي لا يثنى فيها أزمانا ودهورا كلما مضى زمن يعقبه زمن ، ودهر يعقبه دهر ، هكذا أبد الآبدين من غير انقطاع . وقال ابن كيسان : معنى « لا يثنى فيها أحقاباً » لا غاية لها ولا انتهاء فكأنه قال أبدا . وقال ابن زيد ومقاتل : إنها منسوخة بقوله تعالى : « فذوقوا فلن تزيدكم إلا عذاباً » يعني إن العدد قد انقطع والخلود قد حصل .

قلت : وهذا بعيد ؛ لأنه خبر وقد قال تعالى : « ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » على ما تقدم . هذا في حق الكفار فاما العصاة الموحدون فصحيح ويكون النسخ بمعنى التخصيص . والله أعلم . وقيل : المعنى « لا يثنى فيها أحقاباً » أي في الأرض ؛ إذ قد تقدم ذكرها ويكون الضمير في « لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً » لهم . وقيل : واحد الأحقاب حُقب وحِقبة ؛ قال :

فإن تنا عنها حِقبة لا تلاقها * فانت بما أحدثته بالمجرب

وقال الكمي :^(٢)

* مر لها بعد حِقبة حِقْب *

(١) راجع ج ٧ ص ٢٠٦

(٢) صدر البيت : * ولا حول فدت ولا دمن *

قوله تعالى : (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا) أى فى الأحقاب (بَرْدًا وَلَا شَرَابًا) البرد النوم فى قول

أبى عبدة وغيره ؛ قال الشاعر^(١) :

وَلَوْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ * وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا وَلَا بَرْدًا

وقاله مجاهد والسدى والكسائى والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوى ؛ وأنشدوا قول الكندى :

بَرَدْتُ مَرَأَشْفُهَا عَلَيَّ فَصَدَّنِي * عَنْهَا وَعَنْ تَقْيِيلِهَا الْبَرْدُ

يعنى النوم . والعرب تقول : منع البرد البرد يعنى أذهب البرد النوم .

قلت : وقد جاء الحديث أنه عليه الصلاة والسلام سئل هل فى الجنة نوم . فقال :

« لا ؛ النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها » فكذلك النار ؛ وقد قال تعالى : « لَا يُقْضَى

عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا » وقال ابن عباس : البرد برد الشراب . وعنه أيضا : البرد النوم والشراب

الماء . وقال الزجاج : أى لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ولا نوىم بفعل البرد برد كل شىء

له راحة ، وهذا برد ينفعهم فأما الزمهرير فهو برد يتأذون به فلا ينفعهم فلهم منه من العذاب

ما الله أعلم به . وقال الحسن وعطاء وآبن زيد : بردا أى روحا وراحة ؛ قال الشاعر .

فَلَا الظِّلُّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَى تَسْتَطِيعُهُ * وَلَا النَّيُّ أَوْقَاتِ العَشِيِّ تَسْدُوقُ^(٢)

« لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا » جملة فى موضع الحال من الطاعين ، أو نعت للأحقاب ؛

فالأحقاب ظرف زمان والعامل فيه « لَا يَشِين » أو « لَيْشِين » على تعديفة فعل . (إِلَّا حَمِيمًا

وَعَسَاقًا) استثناء منقطع فى قول من جعل البرد النوم ، ومن جعله من البرودة كان بدلا منه .

والحميم الماء الحار ؛ قاله أبو عبدة . وقال ابن زيد : الحميم دموع أعينهم تجمع فى حياض ثم

يسقونه . قال النحاس : أصل الحميم الماء الحار ومنه أشق الحمائم ومنه الحمى ومنه « وَظِلٌّ مِنْ

(١) هو العرجى عبدالله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان . ونسب إلى العرج وهو موضع قبل الطائف كان ينزل

به . والنقاخ كغراب : الماء الطيب .

(٢) قائله حميد بن نور بصف مرحة وكفى بها عن امرأة .

(٣) كذا فى الأصل وفى كتب اللغة مادة « نيا » ولا الفى من برد العشى ... الخ .

يَجْمُومُ « إنما يراد به النهاية في الحر . وَالنَّسَاقُ صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ وَيُحِبُّهُمْ . وَقِيلَ : الزَّمْهَرِيرُ .
 وَقَرَأَ حَمْزَةَ وَالْكَسَاءِ بِتَشْدِيدِ السَّيْنِ وَقَدْ مَضَى فِي « ص » الْقَوْلُ فِيهِ . (جَزَاءٌ وَفَاقًا) أَيْ
 مُوَافِقًا لِأَعْمَالِهِمْ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِمَا ؛ فَالْوِفَاقُ بِمَعْنَى الْمَوَافَقَةِ كَالْقِتَالِ بِمَعْنَى
 الْمَقَاتِلَةِ . وَ « جَزَاءٌ » نَصَبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ أَيْ جَازِيَنَاهُمْ جَزَاءً وَافِقًا أَعْمَالِهِمْ ؛ قَالَ الْفَرَّاءُ
 وَالْأَخْفَشُ . وَقَالَ الْفَرَّاءُ أَيْضًا : هُوَ جَمْعُ الْوِفْقِ وَالْوَفْقُ وَاللَّفْقُ وَاحِدٌ . وَقَالَ مِقَاتِلُ : وَافِقُ
 الْعَذَابِ الذَّنْبِ فَلَا ذَنْبَ أَكْبَرَ مِنَ الشَّرْكِ ، وَلَا عَذَابَ أَكْبَرَ مِنَ النَّارِ . وَقَالَ الْحَسَنُ وَعُكْرَمَةُ :
 كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ سَيِّئَةً فَأَتَاهُمُ اللَّهُ بِمَا يَسُوءُهُمْ . (لِيُنْتَهَمُ كَانُوا لَا يَرْجُونَ) أَيْ لَا يَخَافُونَ (حِسَابًا)
 أَيْ مُحَاسِبَةً عَلَى أَعْمَالِهِمْ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ لَا يَرْجُونَ ثَوَابَ حِسَابٍ . الزَّجَاجُ : أَيْ لِمَنْهُمْ كَانُوا
 لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ فَيَرْجُونَ حِسَابَهُمْ . (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا) أَيْ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ .
 وَقِيلَ : بِمَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْكُتُبِ . وَقِرَاءَةُ الْعَامَّةِ « كَذَابًا » بِتَشْدِيدِ الذَّالِ وَكَسْرِ الْكَافِ عَلَى كَذَّبَ
 أَيْ كَذَّبُوا تَكْذِيبًا كَبِيرًا . قَالَ الْفَرَّاءُ : هِيَ لُغَةٌ يَمَانِيَةٌ فَصِيحَةٌ ؛ يَقُولُونَ : كَذَّبْتُ [بِهِ] كِذَابًا وَخَرَّقْتُ
 الْقَمِيصَ خِرَاقًا ؛ وَكُلُّ فِعْلٍ فِي وَزْنِ فَعَّلَ فَمَصْدَرُهُ فِعَالٌ مُشَدَّدٌ فِي لُغَتِهِمْ ؛ وَأَنْشَدَ بَعْضُ
 الْكَلَابِيِّينَ :

لَقَدْ طَالَ مَا تُبْطِنِي عَنْ صَحَابَتِي * وَعَنْ حَوْجٍ قِضَاوَهَا مِنْ شِفَائِيَا

وَقَرَأَ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « كِذَابًا » بِالتَّخْفِيفِ وَهُوَ مَصْدَرٌ أَيْضًا . وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ : التَّخْفِيفُ
 وَالتَّشْدِيدُ جَمِيعًا مَصْدَرُ الْمَكَاذِبَةِ ؛ كَقَوْلِ الْأَعْشَى :

فَصَدَّقْتُهَا وَكَذَّبْتُهَا * وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ

أَبُو الْفَتْحِ : جَاءَ جَمِيعًا مَصْدَرُ كَذَّبَ وَكَذَّبَ جَمِيعًا . الزَّمْخَشَرِيُّ : « كِذَابًا » بِالتَّخْفِيفِ
 مَصْدَرُ كَذَّبَ ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ :

فَصَدَّقْتُهَا وَكَذَّبْتُهَا * وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٢١ فابعدا .

(٢) الزيادة من الفراء . (٣) قال الشهاب : وضير صدقتها وكذبها للنفس والمراد أنه يصدق نفسه

تارة بأن يقول إن أمانها محقة وتكذيبها بخلافه أو على العكس .

وهو مثل قوله : « أَنْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » يعنى وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا . أو تنصبه بـ « كَذَّبُوا » ، لأنه يتضمن معنى كذبوا ؛ لأن كل مكذب بالحسق كاذب ؛ لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فينبهم مكاذبة . وقرأ ابن عمر « كُذِّبَا » بضم الكاف والتشديد جمع كاذب ؛ قاله أبو حاتم . ونصبه على الحال الزمخشري . وقد يكون الكُذِّاب بمعنى الواحد البليغ في الكذب ، يقال : رجل كُذِّاب كقولك حُصَانٌ وَبُحَالٌ فيجعله صفة لمصدر « كَذَّبُوا » أى تكذبا كُذِّابا مفرطاً كذبه . وفى الصحاح : وقوله تعالى : « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا » وهو أحد مصادر المُشَدِّد ؛ لأن مصدره قد يحىء على تفعيل مثل التكليم وعلى فعال مثل كَذَّبَ وعلى تفعيلة مثل توصية وعلى مُفَعِّلٍ ؛ مثل « وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » . (وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) « كُلُّ » نصب بإضمار فعل يدل عليه « أَحْصَيْنَاهُ » أى وأحصينا كل شيء أحصيناه . وقرأ أبو السَّمَّال « وَكُلُّ شَيْءٍ » بالرفع على الابتداء « كِتَابًا » نصب على المصدر ؛ لأن معنى أحصينا كتبنا أى كتبناه كتابا . ثم قيل : أراد به العلم فإن ما كتب كان أبعد من النسيان . وقيل : أى كتبناه فى اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة . وقيل : أراد ما كتب على العباد من أعمالهم . فهذه كتابة صدرت عن الملائكة الموكلين بالعباد بأمر الله تعالى إياهم بالكتابة ؛ دليله قوله تعالى : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ . كَرَامًا كَاتِبِينَ » . (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا) قال أبو برزة : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أشد آية فى القرآن فقال « قوله تعالى : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا » » أى « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » و « كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا » .

قوله تعالى : إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٢١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٢٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٢٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حَسَابًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ ذكر جزاء من أتقى مخالفة أمر الله « مَفَازًا » موضع فوز ونجاة وخلص مما فيه أهل النار . ولذلك قيل للفلاة إذا قل ماؤها مفازة تفاعلًا بالخلص منها . ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ هذا تفسير الفوز، وقيل : « إِنَّ لِلتَّقِينَ مَفَازًا » إن للتقين حدائق؛ جمع حديقة وهي البستان المحوط عليه؛ يقال أحدق به أى أحاط . والأعناب جمع عنب أى كروم أعناب فحذف . ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ كواعب جمع كاعب وهي الناهد؛ يقال : كعبت الجارية تكعب كعوبًا وكعبت تكعب تكعيبًا ونهدت تنهدنودًا . وقال الضحاك : الكواعب العذارى؛ ومنه قوله قيس بن عاصم :

وَتَمَّ مِنْ حَصَانٍ قَدْ حَوَيْنَا كَرِيمَةً * وَمِنْ كَاعِبٍ لَمْ تَدْرِ مَا الْبُؤْسُ مُعْصِرِ

والأترب الأقران فى السن . وقد مضى فى سورة « الواقعة » الواحد ترب . ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ قال الحسن وقتادة وابن زيد وابن عباس : مترعة مملوءة؛ يقال : أدهقت الكأس أى ملأتها وكأس دهاق أى ممتلئة؛ قال :

أَلَا أَسْقِنِي صِرْفًا سَقَانِي السَّاقِي * مِنْ مَائِهَا بِكَأْسِهِ الدِّهَاقِ

وقال خدّاش بن زهير :

أَنَا نَا عَامِرٌ يَبْنِي قِرَانًا * فَأَتْرَعْنَا لَهُ كَأْسًا دِهَاقًا

وقال سعيد بن جبیر وعكرمة ومجاهد وابن عباس أيضا : متتابعة يتبع بعضها بعضا؛ ومنه أدهقت الحجارة أدهاقا وهو شدة تلازبها ودخول بعضها فى بعض؛ فالمتابع كالمنداخل . وعن عكرمة أيضا وزيد بن أسلم : صافية؛ قال الشاعر :

لَأَنْتَ إِلَى الْفُؤَادِ أَحَبُّ قُرْبًا * مِنْ الصَّادِي إِلَى كَأْسِ دِهَاقِ

وهو جمع دهق وهو خشبتان [يُغْمَزُ] بهما [الساق] . والمراد بالكأس الخمر فالتقدير ونحرا ذات دهاق أى عصرت وصفيت؛ قاله القشيري . وفى الصحاح : وأدهقت الماء أى أفرغته

(٣) التصحيح من كتب اللغة

(٢) كذا فى الأصل .

(١) راجع ج ١٧ ص ٢١١

وفى الأصول : خشبتان يعصر بهما .

إفراغا شديدا . قال أبو عمرو والدّهق : بالتحريك ضرب من العذاب . وهو بالفارسية أشكنجه . المبرد : والمدهوق المَعْدَب بجميع العذاب الذي لا فرجة فيه . ابن الأعرابي : دَهَقَت الشيء كسرتَه وَقَطَعته ؛ وكذلك دَهَقْتَه ؛ وأنشد لُجُجْر بن خالد :

نُدْهِقُ بَضْعَ النَّحْمِ لِلْبَاعِ وَالنَّدَى • وَبَعْضُهُمْ تَغْلِي بِدَمِّ مَنَاقِعِهِ^(١)

ودَهَمَقْتَه بزيادة الميم مثله . وقال الأصمعي : الدّهْمَقَةُ لِينُ الطَّعَامِ وَطِيبُهُ وَرِقَّتُهُ وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ لِينٌ ؛ ومنه حديث عمر : لو شئت أن يدَهَمِقَ لِي لَفَعَلْتُ وَلَكِنْ اللَّهُ عَابَ قَوْمًا فَقَالَ : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

قوله تعالى : (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا) أى فى الجنة (لَعَنُوا وَلَا كَذَابًا) اللغو الباطل وهو ما يلغى من الكلام ويطرح ؛ ومنه الحديث : « إِذَا قَاتَ لِسَاحِبِكَ أَنْصَتَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَعَنَتْ » وذلك أن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم ولم يتكلموا بلغوا ؛ بخلاف أهل الدنيا . « وَلَا كَذَابًا » تقدم ، أى لا يكذب بعضهم بعضا ولا يسمعون كذبا . وقرأ الكسائي « كَذَابًا » بالتخفيف من كَذَبْتُ كَذَابًا أى لا يتكاذبون فى الجنة . وقيل : هما مصدران للتكذيب وإنما خففها هنا لأنها ليست بمقيد بفعل بصير مصدرا له ، وشدد قوله : « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَابًا » لأن كَذَّبُوا يقيد المصدر بالكذاب . (جَزَاءٌ مِنْ رَبِّكَ) نصب على المصدر . لأن المعنى جزاهم بما تقدم ذكره جزاء وكذلك (عَطَاءً) لأن معنى أعطاهم وجزاهم واحد . أى أعطاهم عطاء . (حِسَابًا) أى كثيرا ؛ قاله قتادة ؛ يقال : أَحْسَبْتُ فلانا أى كثرت له العطاء حتى قال حسبي . قال :

وَنُقْفِي وَوَلِيدَ الْحَيِّ إِنْ كَانَ جَائِعًا • وَنُحْسِبُهُ إِنْ كَانَ لَيْسَ بِجَائِعٍ

(١) يرى هكذا فى اللسان مادة « دهن » . وفى الأصول « مراجه » . والمناقع : القدر الصغار

واحد ما منفع ومنفعة . (٢) قاله امرأة من بنى قشير . ونقفيه أى نؤثره بالقفيه وهى ما يؤثر به

الضيف والضيء .

وقال القتيبي : وزى أصل هذا أن يعطيه حتى يقول حسبي . وقال الزجاج : « حساباً »
 أي ما يكفيهم . وقاله الأخفش . يقال : أحسبني كذا أي كفاني . وقال الكلبي : حاسبهم
 فأعطاهم بالحسنة عشرة . مجاهد : حساباً لما عملوا فالحساب بمعنى العد . أي بقدر ماوجب
 له في وعد الرب فإنه وعد للحسنة عشرة ، ووعد لقوم بسبعمائة ضعف ، وقد وعد لقوم جزاء
 لا نهاية له ولا مقدار ؛ كما قال تعالى : « إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .
 وقرأ أبو هاشم « عَطَاءً حَسَاباً » بفتح الحاء وتشديد السين على وزن فَعَالٍ أي كَفَافاً ؛ قال
 الأصمعي : تقول العرب حسبت الرجل بالتشديد إذا أكرمته ؛ وأنشد قول الشاعر :

* إِذَا أَنَا ضَيْفُهُ يَحْسِبُهُ *
 ٥٥

وقرأ ابن عباس « حَسَنًا » بالنون .

قوله تعالى : رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ
 لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ
 إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ
 اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَعَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكَ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ
 مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : (رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ) قراء ابن مسعود ونافع
 وأبو عمرو وابن كثير وزيد عن يعقوب والمفضل عن عاصم « رَبُّ » بالرفع على الاستئناف
 « الرَّحْمَنُ » خبره . أو بمعنى هو رب السموات ويكون « الرَّحْمَنُ » مبتدأ ثانياً . وقرأ ابن
 عاصم ويعقوب وابن محيصن كلاهما بالخفض نعتاً لقوله : « جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ » أي جزاء من
 ربك رب السموات الرحمن . وقرأ ابن عباس وعاصم وحمة والكسائي « رَبِّ السَّمَوَاتِ »

خفضاً على النعت « الرَّحْمَنُ ^(١) » رفعا على الابتداء أى هو الرحمن . وأختره أبو عبيد وقال :
 هذا أعدُّها ؛ خفض « رب » لقربه من قوله « مِنْ رَبِّكَ » فيكون نعتا له ورفع « الرحمن »
 لبعده منه على الاستئناف وخبره (لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا) أى لا يملكون أن يسألوا إلا فيما
 أذن لهم فيه . وقال الكسائي : « لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا » بالشفاعة إلا بإذنه . وقيل :
 الخطاب الكلام ؛ أى لا يملكون أن يخاطبوا الرب سبحانه إلا بإذنه ؛ دليله : « لَا تَكَلِّمُوا نَفْسًا ^{وَدِينًا}
 إِلَّا بِإِذْنِهِ » . وقيل : أراد الكفار « لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا » فأما المؤمنون فيشفعون .

قلت : بعد أن يؤذن لهم ؛ لقوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقوله تعالى :
 « يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا » .

قوله تعالى : (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا) « يَوْمَ » نصب على الظرف ؛ أى يوم
 لا يملكون منه خطابا يوم يقوم الروح . واختلف في الروح على أقوال ثمانية : الأول — أنه ملك من
 الملائكة . قال ابن عباس : ما خلق الله مخلوقا بعد العرش أعظم منه ، فإذا كان يوم القيامة قام هو
 وحده صفاً وقامت الملائكة كلهم صفاً فيكون عظم خلقه مثل صفوفهم . ونحو منه عن ابن
 مسعود ؛ قال : الروح ملك أعظم من السموات السبع ، ومن الأرضين السبع ، ومن الجبال . وهو
 جبال السماء الرابعة يسبح الله كل يوم أثنى عشرة ألف تسبيحة ؛ يخلق الله من كل تسبيحة ملكا ،
 فيجىء يوم القيامة وحده صفاً وسائر الملائكة صفاً . الثانى — أنه جبريل عليه السلام . قاله
 الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير . وعن ابن عباس : إن عن يمين العرش نهرا من نور مثل
 السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع ، يدخل جبريل كل يوم فيه سحرا فيغتسل
 فيزداد نورا على نوره وجمالا على جماله وعظما على عظمه ، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة

(١) هذه القراءة ذكرها القرطبي وابن عطية ولم يذكرها فراءة عاصم بالجرفينها وهي رواية حفص ، وقد ذكرها
 أبو حيان والألومي ، فتكون القراءات عن عاصم على هذا ثلاثا ؛ رفع فيهما وجرف فيهما وجر « رب » ورفع « الرحمن » .
 (٢) في نسخة : السماء السابعة .

تقع من ريشه سبعين ألف ملك ، يدخل منهم كل يوم سبعون ألفا البيت المعمور والكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليهما إلى يوم القيامة . وقال وهب : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله تعالى تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ ، يَخْلُقُ اللهُ تَعَالَى مِنْ كُلِّ رِعْدَةٍ مِائَةَ أَلْفِ مَلَكٍ ، فَالْمَلَائِكَةُ صَفُوفٌ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ تَعَالَى مُنْكَسَةً رُءُوسُهُمْ فَإِذَا أَمَرَ اللهُ لَهْمُ فِي الْكَلَامِ قَالُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَمَرَ اللهُ الرَّحْمَنُ» فِي الْكَلَامِ «وَقَالَ صَوَابًا» يَعْنِي قَوْلُ : «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» . وَالثَّالِثُ - رَوَى أَبُو عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : «الرُّوحُ فِي هَذِهِ آيَةِ جُنْدٍ مِنْ جُنُودِ اللهِ تَعَالَى أَيْسُوا مَلَائِكَةَ لَهْمُ رُءُوسُ وَأَيْدٍ وَأَرْجُلٍ يَا كُلُّونَ الطَّعَامِ» ثُمَّ قَرَأَ «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا» فَإِنَّ هَؤُلَاءِ جُنْدٌ وَهَؤُلَاءِ جُنْدٌ وَهَذَا قَوْلُ أَبِي صَالِحٍ وَمُجَاهِدٍ . وَعَلَى هَذَا هُمْ خَلْقٌ عَلَى صُورَةِ بَنِي آدَمَ كَالنَّاسِ وَلَيْسُوا بِنَّاسٍ . الرَّابِعُ - أَنَّهُمْ أَشْرَافُ الْمَلَائِكَةِ ؛ قَالَهُ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ . الْخَامِسُ - أَنَّهُمْ حَفِظَةُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ؛ قَالَهُ أَبُو نُجَيْجٍ . السَّادِسُ - أَنَّهُمْ بَنُو آدَمَ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ وَقَتَادَةَ . فَالْمَعْنَى ذَوُو الرُّوحِ . وَقَالَ الْعَوْفِيُّ وَالْقُرْطُبِيُّ : هَذَا مِمَّا كَانَ يَكْتُمُهُ أَبُو عَبَّاسٍ ؛ قَالَ : الرُّوحُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَلَى صُورَةِ بَنِي آدَمَ وَمَا نَزَلَ مِنْ مَلَكٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا وَمَعَهُ وَاحِدٌ مِنَ الرُّوحِ . السَّابِعُ - أَرْوَاحُ بَنِي آدَمَ تَقُومُ صَفًّا فَتَقُومُ الْمَلَائِكَةُ صَفًّا وَذَلِكَ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ تَرْتَدَّ إِلَى الْأَجْسَادِ ؛ قَالَهُ عَطِيَّةٌ . الثَّامِنُ - أَنَّهُ الْقُرْآنُ ؛ قَالَهُ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ وَقَرَأَ «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا» . وَ«صَفًّا» مُصَدَّرٌ أَيُّ يَقُومُونَ صَفُوفًا . وَالْمُصَدَّرُ يُنْبِئُ عَنِ الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ كَالْعَدْلِ وَالصَّوْمِ . وَيُقَالُ لِيَوْمِ الْعِيدِ : يَوْمُ الصَّفِّ . وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا» هَذَا يَدُلُّ عَلَى الصَّفُوفِ وَهَذَا حِينَ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ . قَالَ مَعْنَاهُ الْقَتَبِيُّ وَغَيْرُهُ . وَقِيلَ : يَقُومُ الرُّوحُ صَفًّا وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا فَهَمُ صَفَانٌ . وَقِيلَ : يَقُومُ الْكُلُّ صَفًّا وَاحِدًا . (لَا يَتَكَلَّمُونَ) أَيُّ لَا يَشْفَعُونَ (إِلَّا مَنْ أَمَرَ اللهُ الرَّحْمَنُ) فِي الشَّفَاعَةِ (وَقَالَ صَوَابًا) يَعْنِي حَقًّا ؛ قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَمُجَاهِدٌ . وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ . وَرَوَى الضَّحَّاكُ عَنِ أَبِي عَبَّاسٍ قَالَ : يَشْفَعُونَ لِمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .

وأصل الصواب السداد من القول والفعل وهو من أصاب يصيب إصابة ؛ كالجواب من أجاب يجيب إجابة . وقيل : « لَا يَتَكَلَّمُونَ » يعنى الملائكة والروح الذين قاموا صفًا لا يتكلمون هيبة وإجلالا « إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ » فى الشفاعة وهم قد قالوا صوابا ، وأنهم يوحدون الله تعالى ويسبحونه . وقال الحسن : إن الروح تقول يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالرحمة ولا النار إلا بالعمل . وهو معنى قوله : « وَقَالَ صَوَابًا » .

قوله تعالى : (ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ) أى الكائن الواقع (فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً) أى مرجعا بالعمل الصالح ؛ كأنه إذا عمل خيرا رده إلى الله عز وجل ، وإذا عمل شرا عده منه . وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام : ” والخير كله بيدك والشر ليس إليك ” . وقال قتادة : « مَا بَأَ » سبيلا .

قوله تعالى : (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا) يخاطب كفار قريش ومشركى العرب ؛ لأنهم قالوا : لا نبعث . والعذاب عذاب الآخرة وكل ما هو آتٍ فهو قريب ، وقد قال تعالى : « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عِشِيَّةً أَوْ صُحُوحًا » قال معناه الكلبي وغيره . وقال قتادة : عقوبة الدنيا ؛ لأنها أقرب العذابين . قال مقاتل : هى قتل قريش ببدر . والأظهر أنه عذاب الآخرة وهو الموت والقيامة ؛ لأن من مات فقد قامت قيامته فإن كان من أهل الجنة رأى مقعده من الجنة ، وإن كان من أهل النار رأى الخزى والهوان ؛ ولهذا قال تعالى : (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) بين وقت ذلك العذاب ؛ أى أنذرناكم عذابا قريبا فى ذلك اليوم وهو يوم ينظر المرء ما قدمت يده أى يراه . وقيل : ينظر إلى ما قدمت لحذف إلى . والمرء ها هنا المؤمن فى قول الحسن ؛ أى يجد لنفسه عملا فأما الكافر فلا يجسد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا . ولما قال : (وَيَقُولُ الْكَافِرُ) علم أنه أراد بالمرء المؤمن . وقيل : المرء ها هنا أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط « وَيَقُولُ الْكَافِرُ » أبو جهل . وقيل : هو عام فى كل أحد وإنسان يرى فى ذلك اليوم جزاء ما كسب . وقال مقاتل : نزلت قوله « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » فى أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى (وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ

تُرَابًا) في أخيه الأسود بن عبد الأسد . وقال الثعلبي : سمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : الكافر ها هنا إبليس وذلك أنه عاب آدم بأنه خلق من تراب وأفتخر بأنه خلق من نار ، فإذا عاين يوم القيامة ما فيه آدم وبنوه من الثواب والراحة والرحمة ، ورأى ما هو فيه من الشدة والعذاب تمنى أنه يكون بمكان آدم ف « يَقُولُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » قال : ورأيته في بعض التفاسير للفسيري أبي نصر . وقيل : أي يقول إبليس ياليتني خلقت من التراب ولم أقل أنا خير من آدم . وعن ابن عمر : إذا كان يوم القيامة مُدَّتْ الأرضُ مَدَّ الأديم ، وحشر الدواب والبهائم والوحوش ، ثم يوضع القصاص بين البهائم حتى يقتص للشاء الجماء من الشاة القرناء بنطحتها ، فإذا فرغ من القصاص بينها قيل لها : كوني ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر : « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . ونحوه عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم . وقد ذكرناه في كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة مجودا والحمد لله . ذكر أبو جعفر النحاس : حدثنا أحمد بن محمد بن نافع ، قال حدثنا سلمة بن شبيب قال حدثنا عبد الرزاق قال حدثنا معمر ، قال أخبرني جعفر بن برقان الجزري عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال : إن الله تعالى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وإنسان ثم يقال للبهائم والطيور كوني ترابا فعند ذلك « يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . وقال قوم : « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » أي لم أبعث كما قال : « يَا لَيْتَنِي لَمْ أَوْتِ كِتَابِيَه » . وقال أبو الزناد : إذا قُضِيَ بين الناس ، وأُمر بأهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، قيل لسائر الأمم وللمؤمنين الجنُّ عودوا ترابا فيعودون ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر حين يراهم « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » . وقال ليث بن أبي سليم : مؤمنوا الجنُّ يعودون ترابا . وقال عمر بن عبد العزيز والزهرى والكلبي ومجاهد : مؤمنوا الجنة حول الجنة في رَبِضٍ وَرِحَابٍ ولبسوا فيها . وهذا أصح وقد مضى في سورة « الرحمن » بيان هذا وأنها مكلفون يثابون ويعاقبون فهم كبنى آدم ، والله أعلم بالصواب .

سورة النازعات

مكية بإجماع . وهي خمس أوست وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾
 وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّيِّئَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾
 يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُنَّ الرَّادِفَةَ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمِيذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾
 أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أءِذَا
 كُنَّا عِظْمًا تَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فإِنَّمَا هِيَ
 زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا) أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها على أن القيامة حق . و «النَّازِعَاتِ» الملائكة التي تنزع أرواح الكفار ، قاله علي رضي الله عنه ، وكذا قال ابن مسعود وابن عباس ومسروق ومجاهد : هي الملائكة تنزع نفوس بني آدم . قال ابن مسعود : يريد أنفس الكفار ينزعها ملك الموت من أجسادهم ، من تحت كل شعرة ، ومن تحت الأظافر وأصول القدمين نزعًا كالسُّفود ينزع من الصوف الرطب ، ثم يُغْرِقُهَا أَي يَرْجُمُهَا فِي أَجْسَادِهِمْ ، ثُمَّ يَنْزِعُهَا ، فهذا عمله بالكفار . وقال ابن عباس . وقال سعيد بن جبير : نُزِعَتْ أَرْوَاحُهُمْ ثُمَّ غُرِّقَتْ ثُمَّ حُرِّقَتْ ثُمَّ قُدِّفَ بِهَا فِي النَّارِ . وقيل : يرى الكافر نفسه في وقت النزاع كأنها تفرق . وقال السدي : و «النَّازِعَاتِ» هي النفوس حين تفرق في الصدور . مجاهد : هي الموت ينزع النفوس . الحسن وقتادة : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق ، أي تذهب من قولهم : نزع إليه أي ذهب ، أو من قولهم : نزع الخليل أي جرت . «غَرْقًا»

أى إنها تفرق وتغيب وتطلع من أفق إلى أفق آخر . وقاله أبو عبيدة وابن كيسان والأخفش .
وقيل : النازعات القسيّ تزرع بالسهم ؛ قاله عطاء وعكرمة . و « غَرْقًا » بمعنى إغراقا ؛ وإغراق
النازع في القوس أن يبلغ غاية المد حتى ينتهي إلى النّصل . يقال : أغرق في القوس أى
أستوفى مدها ، وذلك بأن تنتهي إلى العقب الذى عند النّصل الملقوف عليه . والاستغراق
الاستيعاب . ويقال لقشرة البيضة الداخلة : « غَرْقِيء » . وقيل : هم الغزاة الرماة .

قلت : هو الذى قبله سواء ؛ لأنه إذا أقسم بالقسيّ فالمراد النازعون بها تعظيما لها ؛ وهو
مثل قوله تعالى : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » والله أعلم . وأراد بالإغراق المبالغة في التزرع وهو
سائع في جميع وجوه تأويلها . وقيل : هى الوحش تزرع^(١) من الكلا^(٢) وتنفّر . حكاه يحيى بن
سلام . ومعنى « غَرْقًا » أى إبعادا في التزرع .

قوله تعالى : (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا) قال ابن عباس : يعنى الملائكة تَنَشِطُ نَفْسُ
المؤمن فتقبضها كما يُنَشِطُ الْعِقَالُ من يد البعير إذا حُلَّ عنه . وحكى هذا القول الفراء ثم قال :
والذى سمعت من العرب أن يقولوا أَنَشِطَتْ وكَأَنَّهَا أَنَشِطَتْ من عِقَالٍ . وربطها نَشَطَهَا
والرابط الناشط ، وإذا ربطت الحبل في يد البعير فقد نَشَطْتَهُ فانت ناشط ، وإذا حلته فقد
أَنَشَطْتَهُ وأنت مُنَشِطٌ . وعن ابن عباس أيضا : هى أنفس المؤمنين عند الموت تَنَشِطُ
للمخرج ؛ وذلك أنه مامن مؤمن [يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ]^(٢) إلا وتُعْرَضُ عليه الجنة قبل أن يموت
فيرى فيها ما أعد الله له من أزواجه وأهله من الحور العين فهم يدعونه إليها فنفسه إليهم نَشِطَةٌ
أن تخرج فأتيتهم . وعنه أيضا قال : يعنى أنفس الكفار والمنافقين تَنَشِطُ كما يُنَشِطُ الْعَقَبُ ،
الذى يعقب به السهم ، والعقب بالتحريك العصب الذى تُعْمَلُ منه الأوتار ، الواحدة عَقَبَةٌ ؛
تقول منه : عَقَبَ السَّهْمَ وَالْقَدْحَ وَالْقَوْسَ عَقَبًا إذا لوى شيئا منه عليه . والنشيط الجذب بسرعة
ومنه الأُسُوطَةُ عقدة يسهل انحلالها إذا جُدِبَتْ مثل عقدة التُّكَّة . وقال أبو زيد : نشطت

(١) فى نسخ الأصل : تزرع من الكلا . وفى البحر : تزرع إلى ... الخ .

(٢) الزيادة من تفسير الطبري .

الْحَبْلَ أَنْشَطَهُ تَشْطًا عَقْدَتَهُ بِأَنْشُوطَةٍ ، وَأَنْشَطْتَهُ أَى حَالَتَهُ ، وَأَنْشَطْتَ الْحَبْلَ أَى مَدَدْتَهُ حَتَّى يَحُلَّ . وَقَالَ الْفَرَاءُ : أَنْشَطَ الْعِقَالَ أَى حُلَّ وَنَشِطَ أَى رَبَطَ الْحَبْلَ فِي يَدَيْهِ . وَقَالَ اللَّيْثُ : أَنْشَطْتَهُ بِأَنْشُوطَةٍ وَأَنْشُوطَتَيْنِ أَى أَوْثَقْتَهُ ، وَأَنْشَطْتُ الْعِقَالَ أَى مَدَدْتُ أَنْشُوطَتَهُ فَأَنْحَلَتْ . قَالَ : وَيُقَالُ تَشْطَ بِمَعْنَى أَنْشَطَ لِقَتَانِ بِمَعْنَى ؛ وَعَلَيْهِ يَصِحُّ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمَذْكُورُ أَوَّلًا . وَعَنْهُ أَيْضًا : النَّاشِطَاتُ الْمَلَائِكَةُ لِنَشَاطَتِهَا تَذْهَبُ وَتَجِيءُ بِأَمْرِ اللَّهِ حَيْثَمَا كَانَ . وَعَنْهُ أَيْضًا وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : هِيَ الْمَلَائِكَةُ تَنْشِطُ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ مَا بَيْنَ الْجِلْدِ وَالْأظْفَارِ حَتَّى تَخْرِجَهَا مِنْ أَجْوَافِهِمْ تَشْطًا بِالْكَرْبِ وَالنَّمِّ كَمَا تَنْشِطُ الصَّوْفَ مِنْ سُفُودِ الْحَدِيدِ وَهِيَ مِنَ النَّشِطِ بِمَعْنَى الْجَذْبِ ؛ يُقَالُ : تَشَطَّتُ الدَّلْوُ أَنْشَطَهَا بِالْكَسْرِ وَأَنْشَطُهَا بِالضَّمِّ أَى نَزَعْتُهَا . قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : بَثْرُ أَنْشَاطٍ أَى قَرِيبَةُ الْقَمَرِ تَخْرِجُ الدَّلْوُ مِنْهَا بِجَذْبَةٍ وَاحِدَةٍ . وَبَثْرُ تَشُوطٍ ؛ قَالَ : وَهِيَ الَّتِي لَا يَخْرِجُ مِنْهَا الدَّلْوُ حَتَّى تُنَشِطَ كَثِيرًا . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ الْمَوْتُ يَنْشِطُ نَفْسَ الْإِنْسَانِ . السَّدَى : هِيَ النَّفُوسُ حِينَ تَنْشِطُ مِنَ الْقَدَمِينَ . وَقِيلَ : النَّازِعَاتُ أَيْدِي الْغَزَاةِ أَوْ أَنْفُسَهُمْ تَنْزِعُ الْقَسِيَّ بِإِغْرَاقِ السِّهَامِ وَهِيَ الَّتِي تَنْشِطُ الْأَوْهَاقَ . عِكْرَمَةُ وَعَطَاءُ : هِيَ الْأَوْهَاقُ تَنْشِطُ السِّهَامَ . وَعَنْ عَطَاءٍ أَيْضًا وَقَتَادَةَ وَالْحَسَنَ وَالْأَخْفَشَ : هِيَ النُّجُومُ تَنْشِطُ مِنْ أَفْقٍ إِلَى أَفْقٍ أَى تَذْهَبُ . وَكَذَا فِي الصَّحَاحِ . « وَالنَّاشِطَاتُ تَشْطًا » يَعْنِي النُّجُومُ مِنْ بُرْجٍ إِلَى بُرْجٍ كَالثُّورِ النَّاشِطِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ . وَالْهَمُومُ تَنْشِطُ بِصَاحِبِهَا ؛ قَالَ هُمَيْانُ بْنُ حَفَافَةَ :

أَمَسْتُ هُمُومِي تَنْشِطُ الْمَنَاشِطَا * الشَّامَ بِي طَوْرًا وَطَوْرًا وَأَسِطَا

أَبُو عُبَيْدَةَ وَعَطَاءُ أَيْضًا : النَّاشِطَاتُ هِيَ الْوَحْشُ حِينَ تَنْشِطُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، كَمَا أَنَّ الْهَمُومَ تَنْشِطُ الْإِنْسَانَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ؛ وَأَنْشَدَ قَوْلَ هُمَيْانَ :

* أَمَسْتُ هُمُومِي ... * الْبَيْتُ

وَقِيلَ : « وَالنَّازِعَاتِ » لِلْكَافِرِينَ « وَالنَّاشِطَاتِ » لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَالْمَلَائِكَةُ يَجْذِبُونَ رُوحَ الْمُؤْمِنِ بِرَفَقٍ وَالزَّرْعُ جَذْبٌ بِشِدَّةٍ وَالنَّشِطُ جَذْبٌ بِرِفَقٍ . وَقِيلَ : هُمَا جَمِيعًا لِلْكَفَّارِ وَالْآيَاتَانِ بَعْدَهُمَا لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ فِرَاقِ الدُّنْيَا .

(١) جَمَعَ رَهَقٌ بِمَحْرَكَتَيْنِ وَقَدْ يَسْكُنُ الْحَبْلُ نَشْدًا بِهِ الْإِبِلُ وَالْحَبْلُ لثَلَاثَةٌ ، وَيُقَالُ فِي طَرَفِهِ أَنْشُوطَةٌ .

قوله تعالى : (وَالسَّابِحَاتِ مَسْبُحًا) قال علي رضي الله عنه : هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين . السكبي : هي الملائكة تقبض أرواح المؤمنين ، كالذي يسبح في الماء فأحيانا يتنفس وأحيانا يرتفع ، يسألونها سلا رفيقا بسهولة ثم يدعوها تستريح . وقال مجاهد وأبو صالح : هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله ؛ كما يقال للفرس الجواد سابح إذا أسرع في جريه . وعن مجاهد أيضا : الملائكة تسبح في نزولها وصعودها . وعنه أيضا : السابحات الموت يسبح في نفوس بني آدم . وقيل : هي الخيل الغزاة ؛ قال عنقرة :
 وَالخَيْلُ تَعْلَمُ حِينَ تَسُ * سَبَحٌ فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ سَبْحًا
 وقال امرؤ القيس :

مَسَحَ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَتَى * أَثْرَتْ غُبَارًا بِالْكَدِيدِ الْمُرَكَّلِ^(١)

قناة والحسن : هي النجوم تسبح في أفلاكها وكذا الشمس والقمر ؛ قال الله تعالى : « كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبُحُونَ » . عطاء : هي السفن تسبح في الماء . ابن عباس : السابحات أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى لقاء الله ورحمته حين تخرج .

قوله تعالى : (فَالسَّابِقَاتِ سَبِقًا) قال علي رضي الله عنه : هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء عليهم السلام . وقاله مسروق ومجاهد . وعن مجاهد أيضا وأبي روق : هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح . وقيل : تسبق بني آدم إلى العمل الصالح فتكتبه . وعن مجاهد أيضا : الموت يسبق الإنسان . مقاتل : هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة . ابن مسعود : هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها وقد عاينت السرور شوقا إلى لقاء الله تعالى ورحمته . ونحوه عن الربيع قال : هي النفوس تسبق بالخروج عند الموت . وقال قتادة والحسن ومعمّر : هي النجوم يسبق بعضها بعضها في السير . عطاء : هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد . وقيل : يحتمل أن تكون

(١) مسح : يصب الجرى . الوتى : الفتور . الكديد : الموضع الفليظ . المركل : الذي يركل بالأرجل . ومعنى البيت : إن الخيل السريعة إذا فطرت فأثارت الفبار بأرجلها من التعب جرى هذا الفرس جريا سهلا كما يسبح السحاب المطر .

السابغات ما تسبق من الأرواح قبل الأجساد إلى جنة أو نار ؛ قاله الماوردي . وقال الجرجاني : ذكر « فالسَابِغَاتِ » بالفاء لأنها مشتقة من التي قبلها ؛ أي واللأني يسبحن فيسبحن ، تقول : قام فذهب ؛ فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب ، ولو قلت : قام وذهب لم يكن القيام سببا للذهاب .

قوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ قال القشيري : أجمعوا على أن المراد الملائكة . وقال الماوردي فيه قولان : أحدهما الملائكة ؛ قاله الجمهور . والقول الثاني هي الكواكب السبعة . حكاها خالد بن معدان عن معاذ بن جبل . وفي تدبيرها الأمر وجهان : أحدهما تدبير طلوعها وأفولها . الثاني تدبير ما قضاه الله تعالى فيها من تقلب الأحوال . وحكى هذا القول أيضا القشيري في تفسيره ، وأن الله تعالى علق كثيرا من تدبير أمر العالم بحركات النجوم ، فأضيف التدبير إليها وإن كان من الله ، كما يسمى الشيء بأسم ما يجاوره . وعلى أن المراد بالمدبرات الملائكة فتدبيرها نزولها بالحلال والحرام وتفصيله ؛ قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما . وهو إلى الله جل ثناؤه ولكن لما نزلت الملائكة به سميت بذلك ؛ كما قال عز وجل : « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ » وكما قال تعالى : « فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ » يعني جبريل نزله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، والله عز وجل هو الذي أنزله . وروى عطاء عن ابن عباس : « فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا » الملائكة وكلت بتدبير أحوال الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك . قال عبد الرحمن بن سابط : تدبير أمر الدنيا إلى أربعة ؛ جبريل وميكائيل وملك الموت وأسمه عزرائيل وإسرافيل ، فأما جبريل فهوكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فهوكل بالقطر والنبات ، وأما ملك الموت فهوكل بقبض الأنفس في البر والبحر ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم ، وليس من الملائكة أقرب من إسرافيل وبينه وبين العرش مسيرة خمسمائة عام . وقيل : أي وُكِّلُوا بأمور عرفهم الله بها . ومن أول السورة إلى هنا قسم أقسم الله به ، والله أن يقسم بما شاء من خلقه وليس لنا ذلك إلا به عز وجل . وجواب القسم مضمركا أنه قال : والنازعات وكذا وكذا لتبعن وتحاسبن أخصر لمعرفة السامعين

بالمعنى ، قاله الفراء . ويدل عليه قوله تعالى : « أَيْدَا كُكَّا عِظَامًا نَخْرَةً » أليس ترى أنه كالجواب لقولهم : « أَيْدَا كُكَّا عِظَامًا نَخْرَةً » نبعث فأكتفى بقوله : « أَيْدَا كُكَّا عِظَامًا نَخْرَةً » . وقال قوم : وقع القسم على قوله : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى » وهذا اختيار الترمذى ابن على . أى فيما قصصت من ذكر يوم القيامة وذكر موسى وفرعون « لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى » ولكن وقع القسم على ما فى السورة مذكورا ظاهرا بارزا أخرى وأقن من أن يؤتى بشيء ليس بمذكور فيها . قال ابن الأنبارى : وهذا قبيح ، لأن الكلام قد طال فيما بينهما . وقيل : جواب القسم « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى » لأن المعنى قد أتاك . وقيل : الجواب (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ) على تقدير ليوم ترجف فحذف اللام . وقيل : فيه تقديم وتأخير تقديره يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة والنازعات غرقا . وقال السجستاني : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير كأنه قال : فإذا هم بالساهرة والنازعات . ابن الأنبارى : وهذا خطأ ، لأن الفاء لا يفتح بها الكلام والأول الوجه . وقيل : إنما وقع القسم على أن قلوب أهل النار تجف وأبصارهم تخشع فانتصاب « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ » على هذا المعنى ولكن لم يقع عليه . قال الزجاج : أى قلوب واجفة يوم ترجف . وقيل : أنتصب بإضمار أذكر . و « ترجف » أى تضطرب والراجفة أى المضطربة كذا قال عبد الرحمن زيد ، قال : هى الأرض ، والرادفة الساعة . مجاهد : الراجفة الزلزلة (تَتَّبِعُهَا الرَادِفَةُ) الصبيحة . وعنه أيضا وابن عباس والحسن وقتادة : هما الصبيحتان . أى النفختان أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى ، وأما الثانية فتحي كل شيء بإذن الله تعالى . وجاء فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بينهما أربعون سنة » وقال مجاهد أيضا : الرادفة حين تنشق السماء وتعمل الأرض والجبال فتدك دكة واحدة وذلك بعد الزلزلة . وقيل : الراجفة تحرك الأرض ، والرادفة زلزلة أخرى تفتى الأرضين . فالله أعلم . وقد مضى فى آخر « النمل » ما فيه كفاية فى النفخ فى الصور . وأصل الرجفة الحركة ، قال الله تعالى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ » وليست الرجفة ها هنا من

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٣٩ فابعدا .

الحركة فقط بل من قولهم : رَجَفَ الرَّعْدُ يَرْجُفُ رَجْفًا وَرَجِيفًا أَيْ أَظْهَرَ الصَّوْتُ وَالْحَرَكَةُ
وَمِنْهُ سَمِيَتِ الْأَرَاجِيفُ لِاضْطِرَابِ الْأَصْوَاتِ بِهَا وَإِفَاضَةِ النَّاسِ فِيهَا ؛ قَالَ ^(١) :

أَبَا الْأَرَاجِيفِ يَا بَنَ اللَّؤْمِ تُوعِدُنِي * فِي الْأَرَاجِيفِ خَلَّتْ اللَّؤْمُ وَالْحَوْرَا

وَعَنْ أَبِي بَنْ كَعْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا ذَهَبَ رُبِعَ اللَّيْلِ قَامَ ثُمَّ قَالَ :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا اللَّهَ جَاءَتْ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ » . (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ
وَاجِفَةٌ) أَيْ خَائِفَةٌ وَجَلَةٌ ؛ قَالَ أَبُو عَبَّاسٍ وَعَلَيْهِ عَامَّةُ الْمُفْسِّرِينَ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : زَائِلَةٌ عَنْ
أَمَّا كُنْهَا ؛ نَظِيرُهُ « إِذَا الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ » . وَقَالَ الْمُؤَرِّجُ : قَلْقَةٌ مُسْتَوْفِزَةٌ ، مَرْتَكِضَةٌ غَيْرُ
سَاكِنَةٌ . وَقَالَ الْمُبَرِّدُ : مُضْطَرِبَةٌ . وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ وَالْمُرَادُ قُلُوبُ الْكُفَّارِ ؛ يُقَالُ وَجَفَ الْقَلْبُ
يَجِفُ وَجِيفًا إِذَا خَفِقَ ؛ كَمَا يُقَالُ : وَجِبَ يَجِبُ وَجِيبًا ؛ وَمِنْهُ وَجِيفَ الْفَرَسُ وَالنَّاقَةُ
فِي الْعَدْوِ ؛ وَالْإِيْجَافُ حَمْلُ الدَّابَّةِ عَلَى السَّيْرِ السَّرِيعِ ؛ قَالَ :

بُدَّتْ بَعْدَ حِرَّةٍ صَرِيفًا * وَبَعْدَ طُولِ النَّفْسِ الْوَجِيفًا

و « قُلُوبٌ » رَفَعٌ بِالْأَبْتِدَاءِ وَ « وَاجِفَةٌ » صِفَتُهَا . وَ (أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) خَبَرُهَا ؛ مِثْلُ قَوْلِهِ :
« وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ » وَمَعْنَى « خَاشِعَةٌ » مُنْكَسِرَةٌ ذَلِيلَةٌ مِنْ هَوْلٍ مَا تَرَى ؛ نَظِيرُهُ :
« خَاشِعَةٌ أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةٌ » وَالْمَعْنَى أَبْصَارُ أَصْحَابِهَا لَحْذَفِ الْمُضَافِ . (يَقُولُونَ
أَنَّا لَمُرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ) أَيْ يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذُوبُونَ الْمُنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ إِذَا قِيلَ لَهُمْ إِنَّكُمْ
تَبْعَثُونَ قَالُوا مُنْكَرِينَ مُتَعَجِّبِينَ : أُنزِدَ بَعْدَ مَوْتِنَا إِلَى أَوَّلِ الْأَمْرِ فَنَعُودُ أَحْيَاءَ كَمَا كُنَّا قَبْلَ الْمَوْتِ ؟
وَهُوَ كَقَوْلِهِمْ : « أَنِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » يُقَالُ : رَجَعَ فُلَانٌ فِي حَافِرَتِهِ وَعَلَى حَافِرَتِهِ
أَيْ رَجَعَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ ؛ قَالَ قَتَادَةُ . وَأَنشَدَ أَبُو الْأَعْرَابِيِّ :

(١) قائله منازل بن ربيعة المنفري في هجور ربة والعجاج . والرواية المشهورة للبيت كما في كتب النحو كشرح

النصري وغيره هي :

أبا لأراجيز يا بن اللؤم توعدي * وفي الأراجيز خلت اللؤم والخور

والأراجيز جمع أرجوزة وهي القصائد الجارية على بحر الرجز . وفي الأراجيز خبر مقدم واللؤم مبتدأ مؤخر وتوسط خلت
بين المبتدأ والخبر أطل عملها ، وهو موضع الشاهد في البيت عند النحاة . وقيل لا يمنع النصب على أن يفدر مبتدأ
أى وأما خلت . (٢) مرتكضة : مضطربة .

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ * مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ سَفَهٍ وَعَارٍ

يقول : أارجع إلى ما كنتُ عليه في شبابي من الغزل والصبأ بعد أن شبتُ وصبعتُ !
ويقال : رجع على حافرته . أى الطريق الذى جاء منه . وقولهم في المثل : النَّقْدُ عِنْدَ
الْحَافِرَةِ . قال يعقوب : أى عند أول كلمة . ويقال : ألتقى القوم فاقتتلوا عند الحافرة .
أى عند أول ما ألتقوا . وقيل : الحافرة العاجلة ؛ أى أننا لمردودون إلى الدنيا فنصير أحياء
كما كنا؟ قال الشاعر :

آلَيْتُ لَا أَنْسَاكُمْ فَأَعْلَمُوا * حَتَّى يُرَدَّ النَّاسُ فِي الْحَافِرَةِ

وقيل : الحافرة الأرض التى تحفر فيها قبورهم فهى بمعنى المحفورة ؛ كقوله تعالى : « مَا مِنْ
دَافِقٍ » و « عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ » والمعنى أننا لمردودون في قبورنا أحياء . قاله مجاهد والخليل
والفراء . وقيل : سميت الأرض الحافرة ؛ لأنها مستقر الحوافر كما سميت القدم أرضاً ؛
لأنها على الأرض . والمعنى أننا لراجعون بعد الموت إلى الأرض فنمشى على أقدامنا . وقال
أبن زيد : الحافرة النار وقرأ « تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » . وقال مقاتل وزيد بن أسلم : هى
أسم من أسماء النار . وقال ابن عباس : الحافرة فى كلام العرب الدنيا . وقرأ أبو حيوه :
« الْحَفِرَةِ » بغير ألف مقصور من الحافرة . وقيل : الحفرة الأرض المنتنة بأجساد موتاها ؛
من قولهم : حفرت أسنانه إذا ركبها الوسخ من ظاهرها وباطنها . يقال : فى أسنانه حفرةٌ
وقد حفرت تحفراً حفرًا ، مثال كسر يكسر كسراً إذا فسدت أصولها . وبنو أسد يقولون :
فى أسنانه حفرةٌ بتحريك . وقد حفرت مثال تعب تعبا وهى أردأ اللغتين ؛ قاله فى الصحاح .
(أَيْدًا كُنَّا عِظَامًا نَحْرَةً) أى بالية متفتتة . يقال : نخر العظم بالكسر أى بلى وتفتت ؛ يقال :
عظام نخرت وكذا قرأ الجمهور من أهل المدينة ومكة والشام والبصرة وأختاره أبو عبيد ؛ لأن
الآثار التى تُذكر فيها العظام نظرنا فيها فرأينا نخرتة لا ناخرة . وقرأ أبو عمرو وأبى عبد الله
وأبن عباس وأبن مسعود وأبن الزبير وحمزة والكسائى وأبو بكر « نَاحِرَةٌ » بألف وأختاره
الفراء والطبرى وأبو معاذ النحوى ؛ لوفاق رءوس الآى . وفى الصحاح : والنأخر من العظام

التي تدخل الريح فيه ثم تخرج منه ولها تَخْيِيرٌ . ويقال : ما بها ناخرأى ما بها أحد . حكاة يعقوب عن الباهلي . وقال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة التي لم تنخر بعد أي لم تبل ولا بد أن تنخر . وقيل : الناخرة المجوفة . وقيل : هما لغتان بمعنى ؛ كذلك تقول العرب : نخر الشيء فهو نخر وناخر ؛ كقولهم : طَمِعَ فهو طَمِيعٌ وطامِيعٌ وحَذِرٌ وحاذِرٌ وبخِلٌ وباخلٌ وفيره وفاره ؛ قال الشاعر :

يَظَلُّ بِهَا الشَّيْخُ الَّذِي كَانَ بَادِنًا * يَدِبُّ عَلَى عُوْجٍ لَهُ تَخْرَاتِ

عُوْجٌ يعني قوائم . وفي بعض التفسير : ناخرة بالألف باليةً ونخرة تنخر فيها الريح أي تمر فيها على عكس الأول ؛ قال^(١) :

* مِنْ بَعْدِ مَا صِرْتَ عِظَامًا نَاخِرَةً *

وقال بعضهم : الناخرة التي أكلت أطرافها وبقيت أوساطها . والناخرة التي فسدت كلها . وقال مجاهد : نخرة أي مرفوثة ؛ كما قال تعالى : « عِظَامًا وَرُفَاتًا » ونخرة الريح بالضم شدة هبوبها . والناخرة أيضا والنخرة مثال الهَمْزَةِ مَقْدَمِ أَنْفِ الْفَرَسِ وَالْحِمَارِ وَالْحَنَزِيرِ ؛ يقال : هَسَمَ نَخْرَتَهُ أَي أَنْفَهُ . (قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ) أي رجعة خائبة كاذبة باطلة أي ليست كائنة ؛ قاله الحسن وغيره . الربيع بن أنس : « خَاسِرَةٌ » على من كذب بها . وقيل : أي هي كرة خسران . والمعنى أهلها خاسرون ؛ كما يقال : تجارة رابحة أي يربح صاحبها . ولا شيء أخسر من كرة تفتضي المصير إلى النار . وقال قتادة ومحمد بن كعب : أي لئن رجعنا أحياء بعد الموت لنحشركم بالنار ، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار . والكر الرجوع ؛ يقال : كَرَّهَ وَكَرَّ بِنَفْسِهِ يَتَعَدَى وَلَا يَتَعَدَى . والكرة المرة والجمع الكرات . (فَأَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ) ذكر جل ثناؤه سهولة البعث عليه فقال : « فَأَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : نفخة واحدة (فَإِذَا هُمْ) أي الخلائق أجمعون (بِالسَّاهِرَةِ) أي على وجه الأرض بعد ما كانوا في بطنها . قال الفراء : سميت بهذا الاسم ؛ لأن فيها نوم

(١) قاله الهمدان يوم القادسية .

الحيوان وسهرهم . والعرب تسمى القلاة ووجه الأرض سَاهِرَةً بمعنى ذات سهر ؛ لأنه يسهر فيها خوفاً منها فوصفها بصفة ما فيها ؛ وأستدل ابن عباس والمفسرون بقول أمية ابن أبي الصلت :

وفيها لحمٌ سَاهِرَةٌ وبَحْرٌ * وما فاهُوا بِهِ لَهُمْ مَقِيمٌ

وقال آخر يوم ذى قارٍ لفرسه :

أقدمُ محاجٍ إنَّها الأَسَاوِرَةُ * ولا يَهْوُلُنَّكَ رَجُلٌ نَادِرَةٌ

فإنَّما قَصْرُكَ تُرْبُ السَّاهِرَةِ * ثُمَّ تَعُودُ بَعْدَهَا فِي الحَافِرَةِ

* مِنْ بَعْدِ مَا صِرْتَ عِظَامًا نَاحِرَةً *

وفي الصحاح : ويقال : الساهور ظلُّ السَاهِرَةِ وهي وجه الأرض . ومنه قوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » قال أبو كبير الهذلي :

يَرْتَدُّنَ سَاهِرَةً كَأَنَّ جَمِيمَهَا * وَعَمِيمَهَا أَسْدَافٌ لَيْلٌ مُظْلَمٌ

ويقال : الساهور كالغلاف للقمر يدخل فيه إذا كسف ، وأنشدوا قول أمية بن أبي الصلت :

* قَمَرٌ وَسَاهُورٌ يَسْلُ وَيُعْمَدُ *

وأنشدوا لآخر في وصف امرأة :

كَأَنَّهَا عِرْقٌ سَامٍ عِنْدَ ضَارِبِهِ * أَوْ شِقَّةٌ نَخْرَجَتْ مِنْ جَوْفِ سَاهُورِ

يريد شقة القمر . وقيل : الساهرة هي الأرض البيضاء . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : أرض من فضة لم يعص الله جل ثناؤه عليها قط خلقها حينئذ . وقيل : أرض جددها

(١) هذه الأبيات للهذلي يوم القادسية وقد تقدم ذكرها . محاج : أمم فرس الشاعر . وفي اللسان مادة

«نخر» : أقدم أخانهم . ولا تهولنك رهوس . وفي السمين : بادره . (٢) الجميم بالميم ، النبات الذي قد نبت

وأرتفع قليلاً ولم يتم كل التمام ، والعميم المكتمل التام من النبات ، والأمداف جمع سدف بالتحريك وهو ظلمة الليل .

(٣) هذا كما تزعم العرب في الجاهلية . (٤) وصدرا البيت : * لا نقص فيه غير أن خبيثه *

(٥) كذا في نسخ الأصل التي بأيدينا والذي في اللسان مادة «سهر» أرفلقة .

الله يوم القيامة . وقيل : الساهرة أسم الأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيحاسب عليها الخلائق ، وذلك حين تبدل الأرض غير الأرض . وقال الثوري : الساهرة أرض الشام . وهب بن منبه : جبل بيت المقدس . عثمان بن أبي العاتكة : إنه أسم مكان من الأرض بعينه بالشام وهو الصقع الذي بين جبل أريحاء وجبل حسان^(١) يمده الله كيف يشاء . قتادة : هي جهنم أي فإذا هؤلاء الكفار في جهنم . وإنما قيل لها ساهرة ؛ لأنهم لا ينامون عليها حينئذ . وقيل : الساهرة بمعنى الصحراء على شفير جهنم ؛ أي يوقفون بأرض القيامة فيدوم السهر حينئذ . ويقال : الساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك ، لأن السراب يجري فيها من قوهم عين ساهرة جارية الماء وفي ضدها نائمة ؛ قال الأشعث بن قيس :
وساهرة يضحى السراب مجللاً * لإقطارها قد جثها متلثماً
أولاً لأن سالكها لا ينام خوف الهلكة .

قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ آيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) أي قد جاءك وبلغك « حَدِيثُ مُوسَى » وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم . أي إن فرعون

(١) ذكره الطبري أيضاً .

كان أقوى من كفار عسرك ثم أخذناه وكذلك هؤلاء . وقيل : « هل » بمعنى « ما » أى ما أتاك ولكن أخبرت به فإن فيه عبرة لمن يخشى . وقد مضى من خبر موسى وفرعون في غير موضع ما فيه كفاية . وفي « طوى » ثلاث قراءات : قرأ ابن محيصن وابن عامر والكوفيون « طوى » منونا وأختره أبو عبيد لخفة الأسم . الباقيون بغير تنوين ؛ لأنه معدول مثل عمر وقم ؛ قال الفراء : طوى واد بين المدينة ومصر . قال : وهو معدول عن طاو كما عدل عمر عن عامر . وقرأ الحسن وعكرمة « طوى » بكسر الطاء وروى عن أبي عمرو على معنى المقدس مرة بعد مرة ؛ قاله الزجاج ؛ وأنشد^(٢) :

أَعَاذِلَ إِنْ اللَّوْمَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ * عَلَى طَوَى مِنْ غَيْكِ الْمُتَرَدِّدِ

أى هو لوم مكرر على . وقيل : ضم الطاء وكسرها لغتان وقد مضى في « طه » القول^(٣) فيه . « أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ » أى ناداه ربه فحذف لأن النداء قول ؛ فكأنه ؛ قال له ربه « أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ » . « إِنَّهُ طَفَى » أى جاوز القدر في العصيان . وروى عن الحسن قال : كان فرعون علجاً من همدان . وعن مجاهد قال : كان من أهل إصطخر . وعن الحسن أيضاً قال : من أهل أصبهان يقال له ذو ظفر طوله أربعة أشبار . « فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزُكَّى » أى تسلم فتطهر من الذنوب . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : هل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله . « وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ » أى وأرشدك إلى طاعة ربك « فَتَخْشَى » أى تخافه وتنقيه . وقرأ نافع وابن كثير « تَزُكَّى » بتشديد الزاى على إدغام التاء فى الزاى لأن أصلها تَزُكَّى الباقيون : « تَزُكَّى » بتخفيف الزاى على معنى طرح التاء . وقال أبو عمرو : « تَزُكَّى » بالتشديد [تتصدق بـ] بالصدقة و « تَزُكَّى » تكون زكياً مؤمناً . وإنما دعا فرعون ليكون زكياً مؤمناً . قال : فلماذا اخترنا التخفيف . وقال ضحربن جويرية :

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥٦ فابعدا وج ١١ ص ٢٠٠ فابعدا وج ١٣ ص ٢٥٠ فابعدا .

(٢) فائله على بن زيد . (٣) راجع ج ١١ ص ١٧٥ .

(٤) الزيادة من الطبرى وهى لازمة .

لما بعث الله موسى إلى فرعون قال له : « أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » إلى قوله « وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ » ولن يفعل ؛ فقال : يارب وكيف أذهب إليه وقد علمت أنه لا يفعل ؟ فأوحى الله إليه أن أمض إلى ما أمرتك به فإن في السماء آثني عشر ألف ملك يطلبون علم القدر فلم يبلغوه ولا يدركوه . (فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ) أي العلامة العظمى وهي المعجزة . وقيل : العصا . وقيل : اليد البيضاء تشرق كالشمس . وروى الضحاك عن ابن عباس : الآية الكبرى قال العصا . الحسن : يده وعصاه . وقيل : فلق البحر . وقيل : الآية إشارة إلى جميع آياته ومعجزاته . (فَكَذَّبَ) أي كذب نبي الله موسى (وَعَصَى) أي عصى ربه عز وجل . (ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ) أي ولى مدبرا معرضا عن الإيمان « يَسْعَىٰ » أي يعمل بالفساد في الأرض . وقيل : يعمل في نكاية موسى . وقيل : « أَذْبَرَ يَسْعَىٰ » هاربا من الحية . (فَخَشَرَ) أي جمع أصحابه ليمنعوه منها . وقيل : جمع جنوده للقتال والمحاربة والسحرة للمعارضة . وقيل : حشر الناس للحضور . (فَتَنَادَىٰ) أي قال لهم بصوت عال (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ) أي لا رب لكم فوقى . وروى : إن إبليس تصور لفرعون في صورة الإنس بمصر في الحمام فأنكره فرعون ، فقال له إبليس : ويحك ! أما تعرفني ؟ قال : لا . قال : وكيف وأنت خلقتني ؟ ألسنت القائل أنا ربكم الأعلى . ذكره الثعلبي في كتاب العرائس . وقال عطاء : كان صنع لهم أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها فقال أنا رب أصنامكم . وقيل : أراد القادة والسادة هو ربهم وأولئك هم أرباب السفلة . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير؛ فننادى فحشر ؛ لأن النداء يكون قبل الحشر . (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ) أي نكال قوله : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ فَيْرِي » وقوله بعد : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ » قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة . وكان بين الكلمتين أربعون سنة ؛ قاله ابن عباس . والمعنى أمهله في الأولى ثم أخذه في الآخرة فمعدبه بكلمتيه . وقيل : نكال الأولى هو أن أغرقه ، ونكال الآخرة العذاب في الآخرة . قاله قتادة وغيره . وقال مجاهد : هو مذاب أول عمره وآخره . وقيل : الآخرة قوله « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ » والأولى تكذيبه لموسى . عن قتادة أيضا .

و « نَكَالَ » منصوب على المصدر المؤكد في قول الزجاج ؛ لأن معنى أخذه الله نكل الله به فأخرج [نَكَالٌ]^(١) مكان مصدر من معناه لا من لفظه . وقيل : نصب بزح حرف الصفة ، أى فأخذ الله بنكال الآخرة فلما نزع الخافض نصب . وقال الفراء : أى أخذ الله أخذا نكالا أى للنكال . والنكال اسم لما جعل نكالا للغير أى عقوبة له حتى يعتبر به . يقال : نكل فلان بفلان إذا أثنعته عقوبة . والكلمة من الأمتناع ومنه النكول عن اليمين والنكل القيد . وقد مضى في سورة « المزمل » والحمد لله . (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً**) أى اعتبارا وعظة . (**لِمَن يَخْشَى**) أى يخاف الله عز وجل .

قوله تعالى : **ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا** ﴿٢٧﴾ **رَفَعَ سَمَكَهَا** **فَسَوَّيْنَاهَا** ﴿٢٨﴾ **وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا** ﴿٢٩﴾ **وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** ﴿٣٠﴾ **أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا** ﴿٣١﴾ **وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا** ﴿٣٢﴾ **مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ** ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : (**أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا**) يريد أهل مكة أى أخلقكم بعد الموت أشد في تقديركم (**أَمِ السَّمَاءُ**) فن قدر على السماء قدر على الإعادة ؛ كقوله تعالى : « **نَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** » وقوله تعالى : « **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ** » فمعنى الكلام التفرغ والتوبيخ . ثم وصف السماء فقال : (**بَنَاهَا**) أى رفعها فوقكم كالبناء . (**رَفَعَ سَمَكَهَا**) أى أعلى سقفها في الهواء ؛ يقال : سمكت الشيء أى رفعته في الهواء وسمكت الشيء سموكا أرتفع . وقال الفراء : كل شيء حمل شيئا من البناء وغيره فهو سَمِكٌ . وبناء مَسْمُوكٌ وَسَنَامٌ سَامِكٌ تَامِكٌ أى عالٍ والمسموكات السموات . ويقال : أسمكت في الدِّيم أى أصعد في الدرجة .

(١) زيادة تقتضها العبارة . (٢) راجع ص ٤٥ من هذا الجزء . (٣) الذى فى اللغة المسمكات

ككلمات ورد كذلك فى الخبر وصحح التاج أن المسموكات لغة لالحن وبها ورد الخبر عن طريق آخر .

قوله تعالى : (فَسَوَّاهَا) أى خلقها خلقا مستويا لا تفاوت فيه ولا شقوق ولا فطور .
 (وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا) أى جعله مظلمًا ؛ غطش الليل وأغطشه الله ؛ كقولك : ظَلَمَ^(١) [الليل]
 وأظلمه الله . ويقال أيضا : أغطش الليل بنفسه وأغطشه الله ؛ كما يقال : أظلم الليل وأظلمه
 الله . والغَطَّش والغَبَّش الظلمة ورجل أغطش أى أعمى أو شبيه به وقد غَطَّش والمرأة
 غطشاء ؛ ويقال : ليلةٌ غطشاء وليل أغطش ، وفلاةٌ غطشى لا يهتدى لها ؛ قال الأعشى :
 وَيَهْمَاءُ بِاللَّيْلِ غَطَّشِي الْفَلَا * ةِ يُؤْنِسُنِي صَوْتُ فَيَّادِهَا^(٢)

وقال الأعمشى أيضا :

عَقَرْتُ لَهُمْ مَوْهِنًا نَاقَتِي * وَغَامَرَهُمْ مَدْلِهِمْ غَطَّش

يعنى بغامرهم ليلتهم لأنه غمرهم بسواده . وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب
 الشمس والشمس مضاف إلى السماء ؛ ويقال : نجوم الليل لأن ظهورها بالليل . (وَأَخْرَجَ
 ضُجَاهَا) أى أبرز نهارها وضوءها وشمسها . وأضاف الضجاء إلى السماء كما أضاف إليها
 الليل ؛ لأن فيها سبب الظلام والضياء وهو غروب الشمس وطلوعها . (وَالْأَرْضَ بَعْدَ
 ذَلِكَ دَحَاهَا) أى بسطها . وهذا يشير إلى كون الأرض بعد السماء . وقد مضى القول فيه
 فى أول « البقرة » عند قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى^(٣)
 إِلَى السَّمَاءِ » مستوفى . والعرب تقول : دحوت الشيء أدحوه دحوا إذا بسطته . ويقال
 لعش النعامة أدحى ؛ لأنه مبدسوط على وجه الأرض . وقال أمية بن أبى الصلت :

وَبَثَّ الْخَلْقَ فِيهَا إِذْ دَحَاهَا * فَهُمْ قُطَانُهَا حَتَّى التَّنَادَى^(٤)

وأنشد المبرد :

دَحَاهَا فَلَمَّا رَأَاهَا أَسْتَوَتْ * عَلَى الْمَاءِ أُرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالُ

(١) هذه الزيادة من اللسان عن الفراء قال : ظلم الليل بالكسر وأظلم بمعنى .

(٢) الفياد بفتح الفاء وضمتها ذكر اليوم . (٣) راجع ج ١ ص ٢٥٥ فابدها .

(٤) مضى هذا البيت فى ج ١٥ ص ٣١٠ بلفظ : سكانها . والمعنى واحد .

وقيل : دحاها سواها ؛ ومنه قول زيد بن عمرو :

وَأَسَمْتُ وَجْهِي لَمَنْ أَسَمْتُ * لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثَقَالًا
دَحَاها فَلَمَّا أَسْتَوَتْ شَدَّهَا * بَأَيْدٍ وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَ

وعن ابن عباس : خلق الله الكعبة ووضعها على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بالف عام ثم دحيت الأرض من تحت البيت . وذكر بعض أهل العلم أن «بعد» في موضع «م» كأنه قال : والأرض مع ذلك دحاها ؛ كما قال تعالى : «عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ» . ومنه قولهم : أنت أحق وأنت بعد هذا سيء الخلق ؛ قال الشاعر :

فَقُلْتُ لَهَا عَنِّي إِلَيْكَ فَإِنِّي * حَرَامٌ وَإِنِّي بَعْدَ ذَلِكَ لَيْبٌ

أى مع ذلك لبيب . وقيل : بعد بمعنى قبل ؛ كقوله تعالى : «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» أى من قبل الفرقان ؛ قال أبو نوح المهدلي :

حَمَدْتُ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةِ إِذْ نَجَا * نِحْرَاشٌ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وزعموا أن نحرasha نجا قبل عروة . وقيل : «دحاها» حرثها وشقها . قاله ابن زيد . وقيل : دحاها مهدها للأقوات . والمعنى متقارب . وقراءة العامة «وَالْأَرْضُ» بالنصب أى دحا الأرض . وقرا الحسن وعمرو بن ميمون «وَالْأَرْضُ» بالرفع على الابتداء ؛ لرجوع الهاء . ويقال : دحا يدحو دحوا ودحى يدحى دحيا ؛ كقولهم : طغى يطغى ويطغى ويطغى ويطغى يطغى وحا يحجو ويحجى وحى العود يلحى ويلحون فمن قال : يدحو قال دحوت ومن قال يدحى قال دحيت . «أَخْرَجَ مِنْهَا» أى أخرج من الأرض «مَاءَهَا» أى العيون المتفجرة بالماء . «وَمَرَعَاهَا» أى النبات الذى يرعى . وقال القتيبي : دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنام من العشب والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح ؛ لأن النار من العيدان والملح من الماء . «وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا» قراءة العامة «وَالْجِبَالَ» بالنصب أى وأرمى الجبال «أَرْسَاهَا» يعنى أثبتها فيها أوتادا لها . وقرا

الحسن وعمرو بن ميمون وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم « والجبَّالُ » بالرفع على الابتداء .
ويقال : هلا أدخل حرف العطف على « أخرج » فيقال : إنه حال بإضمار قد ؛ كقوله تعالى :
« حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ » . (مَتَاعًا لَكُمْ) أى منفعة لكم . (وَإِلَّا نَعَامِكُمْ) من الإبل والبقر والغنم .
و « مَتَاعًا » نصب على المصدر من غير اللفظ ؛ لأن معنى « أخرجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعَاهَا » أمتع
بذلك . وقيل : نصب بإسقاط حرف الصفة تقديره لتمتعوا به متاعا .

قوله تعالى : فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ
الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : (فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى) أى الداهية العظمى ، وهى النفخة الثانية
التي يكون معها البعث ؛ قاله ابن عباس فى رواية الضحاك عنه وهو قول الحسن . وعن
ابن عباس أيضا والضحاك أنها القيامة ؛ سميت بذلك لأنها تَطْمُ على كل شىء فتعم ماسواها
لعظم هولها ؛ أى تغلبه . وفى أمثالهم : جَرَى الْوَادِى فَطَمَّ عَلَى الْقَرَى ^(١) .

المبرد : الطامة عند العرب الداهية التى لا تستطاع ، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم :
طَمَّ الْفَرَسُ طَمِيًا إِذَا اسْتَفْرَغَ جَهْدَهُ فِي الْجَرَى ، وَطَمَّ الْمَاءُ إِذَا مَلَأَ النَّهْرُ كُلَّهُ . غيره : هى
مأخوذة من طَمَّ السَّيْلَ الرَّكْبَةَ ^(٢) أى دَفَنَهَا وَالطَّمَّ الدَّفْنَ وَالْعَلُو . وقال القاسم بن الوليد الهمداني :
الطامة الكبرى حين يساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار . وهو معنى قول مجاهد .
وقال سفيان : هى الساعة التى يسلم فيها أهل النار إلى الزبانية . أى الداهية التى طَمَّتْ
وعظمت ؛ قال :

إِنْ بَعْضَ الْحَبِّ يُعْمَى وَيُبْصَمُ • وَكَذَلِكَ الْبُغْضُ أَذْهَى وَأَطْمُ

(١) القرى مجرى الماء فى الروضة والجمع أقرية وأقراء وقربان ؛ ويضرب المثل عند مجاوز الشىء حده .

(٢) الركبة : البئر ؛ أى جرى سبل الوادى .

(يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى) أى ما عمل من خيرا أو شرا . (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ) أى ظهرت . (لِمَنْ يَرَى) قال ابن عباس : يكشف عنها تنظي فيراها كل ذى بصر . وقيل : المراد الكافر لأنه الذى يرى النار بما فيها من أصناف العذاب . وقيل : يراها المؤمن ليعرف قدر النعمة ويصلى الكافر بالنار . وجواب « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ » محذوف أى إذا جاءت الطامة دخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة . وقرا مالك بن دينار : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ » عكرمة وغيره « لِمَنْ تَرَى » بالتاء أى لمن تراه الجحيم أو لمن تراه أنت يا محمد . والخطاب له عليه السلام والمراد به الناس .

قوله تعالى : فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٢٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٢٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٣٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أى تجاوز الحد فى العصيان . قيل : نزلت فى النضر وأبنة الحرث ، وهى عامة فى كل كافر آثر الحياة الدنيا على الآخرة . وروى عن يحيى بن أبى كثير قال : من آخذ من طعام واحد ثلاثة ألوان فقد طغى . وروى جويرى عن الضحاك قال قال حذيفة : أخوف ما أخاف على هذه الأمة أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون^(١) . ويروى أنه وجد فى الكتب : إن الله جل ثناؤه قال « لا يؤثر عبد لى دنياه على آخرته إلا بثنت عليه همومه وصنيعته ثم لا أبالى فى أيها هلك » . (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) أى مأواه . والألف واللام بدل من الهاء . (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) أى حذر مقامه بين يدى ربه . وقال الربيع : مقامه يوم الحساب . وكان قتادة يقول : إن لله عز وجل مقاما قد خافه المؤمنون . وقال مجاهد : هو خوفه فى الدنيا من الله عز وجل عند موافقة الذنب

(١) فى بعض النسخ : ما يعملون . (٢) فى نسخة : وضيعته .

فيقلع؛ نظيره : « وَلَمِنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ » . (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) أى زجرها عن المعاصى والمحارم . وقال سهل : ترك الهوى مفتاح الجنة ؛ لقوله عز وجل : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى » قال عبد الله بن مسعود : أتم فى زمان يقود الحق الهوى وسيأتى زمان يقود الهوى الحق ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان . (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) أى المنزل . والآيتان نزلتا فى مصعب بن عمير وأخيه عامر بن عمير؛ فروى الضحاک عن ابن عباس قال : أما من طغى فهو أخ لمصعب بن عمير أسرىوم بدر ، فأخذته الأنصار فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا أخو مصعب بن عمير ، فلم يشدوه فى الوثاق وأكرموه وبيتوه عندهم ، فلما أصبحوا حدثوا مصعب بن عمير حديثه ؛ فقال : ما هو لى بأخ ، شدوا أسيركم فإن أمه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالا . فأوثقوه حتى بعثت أمه فى فدائه . « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » فمصعب بن عمير ؛ وقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه حتى نفذت المشاقص فى جوفه . وهى السهام ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم متشجطاً فى دمه قال : « عند الله أحسنبك » وقال لأصحابه : « لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما وإن شراك نعليه من ذهب » . وقيل : إن مصعب بن عمير قتل أخاه عامراً يوم بدر . وعن ابن عباس أيضاً قال : نزلت هذه الآية فى رجلين أبى جهل بن هشام المخزومى ومصعب بن عمير العبدرى . وقال السدى : نزلت هذه الآية « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ؛ وذلك أن أبابكر كان له غلام يأتیه بطعام ، وكان يسأله من أين أتيت بهذا ، فأتاه يوماً بطعام فلم يسأله وأكله ؛ فقال له غلامه : لِمَ لا تسألنى اليوم ؟ فقال : نسيت فمن أين لك هذا الطعام . فقال : تكهنت أقوم فى الجاهلية فأعطونيهِ . فتقايأه من ساعته وقال : يا رب ما بقى فى العروق فأنت حبسته فنزلت : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » . وقال الكلبي : نزلت فى من هم بمعصيته وقدر عايبها فى خلوة ثم تركها من خوف الله . ونحوه عن ابن عباس . يعنى من خاف عند المعصية مقامه بين يدى الله فاتهى عنها والله أعلم .

قوله تعالى : **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴿٤٦﴾**

قوله تعالى : **(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا)** قال ابن عباس : سأل مشركو مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم متى تكون الساعة أستهزاء ، فأنزل الله عز وجل الآية . وقال عروة بن الزبير في قوله تعالى : **(فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا)** لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى نزلت هذه الآية **(إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا)** . ومعنى « مُرْسَاهَا » أى قيامها . قال الفراء : رسوها قيامها كرسو السفينة . وقال أبو عبيدة : أى منتهاها ، ومرسا السفينة حيث تنتهى . وهو قول ابن عباس . الربيع بن أنس : متى زمانها . والمعنى متقارب . وقد مضى في «الأعراف»^(١) بيان ذلك . وعن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **« لا تقوم الساعة إلا بغضبة بغضبها ربك »** . **« فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا »** أى فى أى شىء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها ؟ وليس لك السؤال عنها . وهذا معنى ما رواه الزهرى عن عروة بن الزبير قال : لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة حتى نزلت **« فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا »** أى منتهى علمها ، فكأنه عليه السلام لما أكثروا عليه سأل الله أن يعرفه ذلك فقبل له : لا تسأل فلست فى شىء من ذلك . ويجوز أن يكون إنكارا على المشركين فى مسألتهم له ، أى فى من أنت من ذلك حتى يسألك بيانه ولست ممن يعلمه . روى معناه عن ابن عباس . والذكرى بمعنى الذكر . **« إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا »** أى منتهى علمها فلا يوجد عند غيره علم الساعة ، وهو كقوله تعالى : **« قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي »** وقوله تعالى : **« إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ »** . **(إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا)**

(١) قال الفراء : كقولك قام العدل وقام الحق أى ظهر وثبت .

(٢) راجع ج ٧ ص ٣٣٥ فابعدا .

أى مخوف ؛ وخص الإنذار بمن يخشى لأنهم المتشفعون به وإن كان منذرا لكل مكلف ؛ وهو كقوله تعالى : « إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ » . وقراءة العامة « مُنذِرٌ » بالإضافة غير ممنون ؛ طلب التخفيف وإلا فأصله التنوين ؛ لأنه للمستقبل وإنما لا ينون في الماضي . قال الفراء : يجوز التنوين وتركه ؛ كقوله تعالى : « بِالْبَلْغِ أَمْرُهُ » و « بِالْبَلْغِ أَمْرِهِ » و « مُؤْمِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ » و « مُؤْمِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ » والتنوين هو الأصل وبه قرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج وابن محيصن وحמיד وعياش عن أبي عمرو « مُنذِرٌ » منونا وتكون في موضع نصب والمعنى إنما ينتفع بإنذارك من يخشى الساعة . وقال أبو علي : يجوز أن تكون الإضافة للماضي نحو ضارب زيد أمس ؛ لأنه قد فعل الإنذار ، والآية رد على من قال : أحوال الآخرة غير محسومة وإنما هي راحة الروح أو تألمها من غير حس . (كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا) يعنى الكفار يرون الساعة (لَمْ يَلْبَثُوا) أى فى دنياهم (إِلَّا عَشِيَّةً) أى قدر عشية (أَوْ ضُحَاهَا) أى أو قدر الضحا الذى يلى تلك العشية ، والمراد تقليل مدة الدنيا كما قال تعالى : « لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » . وروى الضحاك عن ابن عباس : كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا يوما واحدا . وقيل : « لَمْ يَلْبَثُوا » فى قبورهم « إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » وذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم فى القبور لما عاينوا من الهول . وقال الفراء : يقول القائل وهل للعشية ضحا ؟ وإنما الضحا لصدر النهار ولكن أضيف الضحا إلى العشية وهو اليوم الذى يكون فيه على عادة العرب ؛ يقولون : آتيتك الغداة أو عشيتها ، وآتيتك العشية أو غداتها ، فتكون العشية فى معنى آخر النهار ، والغداة فى معنى أول النهار ؛ قال : وأنشدنى بعض بنى عقيل :

نَحْنُ صَبَحْنَا عَامِرًا فِي دَارِهَا • جُرْدًا تَعَادَى طَرْفَ نَهَارِهَا

• عَشِيَّةَ الْهَلَالِ أَوْ سِرَارِهَا •

أراد عشية الهلال أو عشية سرار العشية ، فهو أشد من آتيتك الغداة أو عشيتها .

سورة عبس

مكية في قول الجميع، وهي إحدى وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (عَبَسَ) أى كبح بوجهه ، يقال : عبس و بسر . وقد تقدم .
(وَتَوَلَّى) أى أعرض بوجهه (أَنْ جَاءَهُ) « أَنْ » فى موضع نصب لأنه مفعول له ، المعنى
لأن جاءه الأعمى الذى لا يبصر بعينه . فروى أهل التفسير أجمع أن قوما من أشرف
قريش كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد طمع فى إسلامهم ، فأقبل عبد الله بن
أم مكتوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع عبد الله عليه كلامه فأعرض عنه ، ففیه
نزلت هذه الآية . قال مالك : إن هشام بن عروة حدثه عن عروة أنه قال نزلت « عَبَسَ
وَتَوَلَّى » فى ابن أم مكتوم ، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : يا محمد ^(١) أستدني
وعند النبي صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعرض
عنه ويقبل على الآخر ويقول : « يا فلان هل ترى بما أقول بأسا » فيقول : لا والدمى ^(٢)
ما أرى بما تقول بأسا ، فأنزل الله « عَبَسَ وَتَوَلَّى » . وفى الترمذى مسندا قال : حدثنا سعيد
ابن يحيى بن سعيد الأموى ، حدثنى أبى ، قال هذا ما عرضنا على هشام بن عروة عن أبيه عن
عائشة ، قالت : نزلت « عَبَسَ وَتَوَلَّى » فى ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله صلى الله عليه

(١) الرواية هنا وفى ابن العربى يا محمد ، والمشهور فى التفسير يا رسول الله علمنى مما علمك الله . وفى رواية : يا رسول

أرشدنى ، كما سياتى للصف . (٢) الدمى جمع دمية وهى الصورة ، ويريد بها الأصنام .

وسلم بفعل يقول : يا رسول الله أرشدني ، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عطاء المشركين ، بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول : ” أترى بما أقول بأسا “ فيقول : لا ، ففي هذا نزلة ؛ قال هذا حديث غريب .

الثانية — الآية عتاب من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في إعراضه وتولية عن عبد الله ابن أم مكتوم . ويقال : عمرو بن أم مكتوم ، وأسم أم مكتوم عاتكة بنت عامر بن مخزوم ، وعمرو هذا هو ابن قيس بن زائدة بن الأصم ، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها . وكان قد تشاغل عنه رجل من عطاء المشركين يقال كان الوليد بن المغيرة ؛ ابن العربي : قاله المالكية من علمائنا ، وهو يكنى أبا عبد شمس . وقال قتادة : هو أمية بن خلف وعنه أبي بن خلف . وقال مجاهد : كانوا ثلاثة عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبي بن خلف . وقال عطاء : عتبة بن ربيعة . سفيان الثوري : كان النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه العباس . الزمخشري : كان عنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم . قال ابن العربي : أما قول علمائنا إنه الوليد بن المغيرة فقد قال آخرون إنه أمية بن خلف والعباس وهذا كله باطل وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا الدين ، وذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة ما حضر معهما ولا حضرا معه ، وكان موتها كافرين أحدهما قبل الهجرة والآخر ببدر ، ولم يقصد قط أمية المدينة ولا حضر عنده مفردا ولا مع أحد .

الثالثة — أقبل ابن أم مكتوم والنبي صلى الله عليه وسلم مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى ، وقد قوى طمعه في إسلامهم وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم ، بجاء ابن أم مكتوم وهو أعمى فقال : يا رسول الله علمك الله ؛ وجعل يناديه ويكثر النداء ولا يدري أنه مشغول بغيره حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقطع كلامه ، وقال في نفسه : يقول هؤلاء إنما أتباعه العميان والسفلة

والعبيد ؛ فعبس وأعرض عنه فتزلت الآية . قال الثوري : فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول : ” مرحبا بمن عاتبنى فيه ربي ” ويقول : ” هل من حاجة ” . وأستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين غزاهما . قال أنس : فرأيته يوم القادسية راجبا وعليه درع ومعه راية سوداء .

الرابعة – قال علماؤنا : ما فعله ابن أم مكتوم كان من سوء الأدب لو كان عالما بأن النبي صلى الله عليه وسلم مشغول بغيره وأنه يرجو إسلامهم ، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل الصفة ؛ أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني ، وكان النظر إلى المؤمن أولى وإن كان فقيرا أصح وأولى من الأمر الآخر، وهو الإقبال على الأغنياء طمعا في إيمانهم ، وإن كان ذلك أيضا نوعا من المصلحة، وعلى هذا يخرج قوله تعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى » الآية على ما تقدم . وقيل : إنما قصد النبي صلى الله عليه وسلم تأليف الرجل ثقة بما كان في قلب ابن أم مكتوم من الإيمان ؛ كما قال : ” إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه مخافة أن يكبه الله في النار على وجهه ” .

الخامسة – قال ابن زيد : إنما عبس النبي صلى الله عليه وسلم لابن أم مكتوم وأعرض عنه ؛ لأنه أشار إلى الذي كان يقوده أن يكفه ، فدفعه ابن أم مكتوم وأبى إلا أن يكلم النبي صلى الله عليه وسلم حتى يُعلمه ، فكان في هذا نوع جفاء منه . ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه صلى الله عليه وسلم : « عَبَسَ وَتَوَلَّى » بلفظ الإخبار عن الغائب تعظيما له ولم يقل : عبست وتوليت . ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب تأنيسا له فقال : ((وَمَا يُدْرِيكَ أَى يَعْلَمُكَ)) يعنى ابن أم مكتوم ((يَزْكِي)) بما أمتدعى منك تعليمه إياه من القرآن والدين بأن يزداد طهارة في دينه ، وزوال ظلمة الجهل عنه . وقيل : الضمير في « لَعَلَّهُ » للكافر يعنى إنك إذا طمعت في أن يتركى بالإسلام أو يذكرك فتقر به الذكرى إلى قبول الحق

(١) راجع ج ٨ ص ٤٥ فابعدا .

(٢) في نسخة : تظليما .

وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن . وقرأ الحسن « ^(۱) آآن جَاءَهُ الْأَعْمَى » بالمد على الاستفهام
ف«بأن» متعلقة بفعل محذوف دل عليه «عَبَسَ وَتَوَلَّى» التقدير آآن جاءه أعرض عنه وتولى؟
فيوقف على هذه القراءة على «وتولى» ولا يوقف عليه على قراءة الخبر وهي قراءة العامة .

السادسة — نظير هذه الآية في العتاب قوله تعالى في سورة الأنعام : « وَلَا تَطْرُدِ
الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » وكذلك قوله في سورة الكهف : « وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ
عَنْهُمْ يُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وما كان مثله ، والله أعلم . (أَوْ يَذَّكَّرُ) يتعظ بما تقول (فَتَنْفَعُهُ
الذِّكْرَى) أى العظة . وقراءة العامة «فَتَنْفَعُهُ» بضم العين عطفا على «يَزَكِّي» . وقرأ حاصم
وآبن أبى إسحق وعيسى «فَتَنْفَعُهُ» نصبا . وهى قراءة السلمي وزر بن حبيش على جواب
لعل لأنه غير موجب ، كقوله تعالى : « لَعَلَّ أَبْلَغُ الْأَسْبَابِ » ثم قال : « فَأَطْلِعَ » .

قوله تعالى : **أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴿٦﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٧﴾**
وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ﴿٨﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٩﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿١٠﴾
فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١١﴾

قوله تعالى : (**أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى**) أى كان ذا ثروة وغنى (**فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى**) أى تعرّض
له وتصغى لكلامه . والتصدى الإصغاء ؛ قال الراعى :

تَصَدَّى لِوَضَاحٍ كَأَنَّ جِنْدَهُ * سِرَاجَ الدُّجَى يَخْنِي إِلَيْهِ الْأَسَاوِرَ ^(۲)

وأصله تتصدد من الصدود وهو ما استقبلك وصار قبالتك ؛ يقال : دارى صدود داره أى قبالتها ،
نصب على الظرف . وقيل : من الصدى وهو العطش . أى تتعرض له كما يتعرض العطشان
للأاء والمصاداة المعارضة . وقراءة العامة «تَصَدَّى» بالتخفيف على طرح التاء الثانية تخفيفا .

(۱) قال الزجاج : وفى « آآن » بهمزتين وألف بينهما .

(۲) الإسوار (بكسر الهمزة وضمة) قائد الفرس ، وقيل : هو الجيد الرى بالسهام ، وقيل : هو الجيد النبات على

ظهر الفرس ، والجمع أساور وأساور .

وقرأ نافع وأبن عبيصن بالتشديد على الإدغام . ﴿ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزِيدُ ﴾ أي لا يهتدى هذا الكافر ولا يؤمن إنما أنت رسول ما عليك إلا البلاغ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ يطلب العلم لله ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ أي يخاف الله ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ أي تعرض عنه بوجهك وتشتغل بغيره . وأصله تلهى ؛ يقال : لهيت عن الشيء أهى أي تشاغت عنه . والتلهى التغافل ولهيت عنه وتلهيت بمعنى .

قوله تعالى : كَلَّا إِنَّهَا تَذِكْرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾
فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾
كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذِكْرَةٌ ﴾ « كَلَّا » كلمة ردع وزجر ؛ أي ما الأمر كما تفعل مع الفريقين ؛ أي لا تفعل بعدها مثلها من إقبالك على الغنى وإعراضك عن المؤمن الفقير . والذي جرى من النبي صلى الله عليه وسلم كان ترك الأولى كما تقدم ، ولو حمل على صغيرة لم يبعد ؛ قاله القشيري . والوقف على « كَلَّا » على هذا الوجه جائز . ويجوز أن تقف على « تَلَهَّى » ثم تبدئ « كَلَّا » على معنى حقا . ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي السورة أو آيات القرآن ﴿ تَذِكْرَةٌ ﴾ أي موعظة وتبصرة للخلق ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ أي آتعت بالقرآن . قال الجرجاني : « إِنَّهَا » أي القرآن والقرآن مذكر إلا أنه لما جعل القرآن تذكرة أخرجه على لفظ التذكرة ولو ذكره لجاز ؛ كما قال تعالى في موضع آخر : « كَلَّا إِنَّهُ تَذِكْرَةٌ » . ويدل على أنه أراد القرآن قوله : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ » أي كان حافظا له غير ناس ؛ وذكر الضمير لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ . وروى الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ » قال من شاء الله تبارك وتعالى أهمه . ثم أخبر عن جلالاته فقال : ﴿ فِي صُحُفٍ ﴾ جمع صحيفة ﴿ مُّكْرَمَةٍ ﴾ أي عند الله ؛ قاله السدي . الطبري : « مُّكْرَمَةٍ » في الدين لما فيها من العلم والحكم . وقيل : « مُّكْرَمَةٍ » لأنها نزل بها كرام الحفظة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ . وقيل : « مُّكْرَمَةٍ »

لأنها نزلت من كريم ، لأن كرامة الكتاب من كرامة صاحبه . وقيل : المراد كتب الأنبياء ؛
 دليله : « إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » . (مَرْفُوعَةٌ) رفيعه
 القدر عند الله . وقيل : مرفوعة عنده تبارك وتعالى . وقيل : مرفوعة في السماء السابعة ،
 قاله يحيى بن سلام . الطبرى : مرفوعة الذكرو والقدر . وقيل : مرفوعة عن الشبه
 والتناقض . (مُطَهَّرَةٌ) قال الحسن : من كل دنس . وقيل : مصانة عن أن يناها الكفار .
 وهو معنى قول السدى . وعن الحسن أيضا : مطهرة من أن تنزل على المشركين .
 وقيل : أى القرآن أثبت للملائكة في صحف يقرءونها فهى مكرمة مرفوعة مطهرة .
 (بِأَيْدِي سَفَرَةٍ) أى الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله فهم بررة لم يتدنسوا
 بعصية . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هى مطهرة تجعل التطهير لمن حملها
 « بِأَيْدِي سَفَرَةٍ » قال : كَتَبَةٍ . وقاله مجاهد أيضا . وهم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال
 العباد في الأسفار التى هى الكتب واحدهم سافر ، كقولك : كاتب وكتبة . ويقال :
 سفرت أى كتبت والكتاب هو السفر وجمعه أسفار . قال الزجاج : وإنما قيل للكتاب
 سَفْرٌ بكسر السين وللكتاب سافر ، لأن معناه أنه بين الشيء ويوضحه . يقال : أسفر الصبح
 إذا أضاء ، وسفرت المرأة إذا كشفت النقاب عن وجهها . قال : ومنه سفرت بين القوم
 أسفِرَ سفارة أصلحت بينهم - وقاله الفراء وأنشد :

فَا أَدْعُ السَّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي * وَلَا أَمْشِي بَغِيْشَ إِنْ مَشَيْتُ

والسفير الرسول والمصلح بين القوم والجمع سفراء مثل فقيه وفقهاء . ويقال للوزاقين سفراء
 بلغة العبرانية . وقال قتادة : السَّفَرَةُ هنا هم الفراء لأنهم يقرءون الأسفار . وعنه أيضا كقول
 ابن عباس . وقال وهب بن منبه : « بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامِ بَرَّةٍ » هم أصحاب النبي صلى الله
 عليه وسلم . قال ابن العربى : لقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرة كراما
 بررة ، ولكن ليسوا بمرادين بهذه الآية ، ولا قاربوا المرادين بها ، بل هى لفظة مخصوصة
 بالملائكة عند الإطلاق ، ولا يشاركون فيها سواهم ، ولا يدخل معهم فى تناولها غيرهم . وروى

في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « [مثل] الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة ومثل الذي يقرؤه وهو يتعاهده وهو عليه شديد فله أجران » متفق عليه واللفظ للبخاري . (كَرَامٍ) أي كرام على ربهم ، قاله الكلبي . الحسن : كرام عن المعاصي فهم يرفعون أنفسهم عنها . وروى الضحاك عن ابن عباس في « كَرَامٍ » قال : يتكلمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجه أو تبرز لغائطه . وقيل : أي يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم . (بَرَّةٍ) جمع باز مثل كافر وكفرة ، وساحر وسحرة ، وفاجر وبغرة ، يقال : برُّ وباز إذا كان أهلاً للصدق ، ومنه بَرَّ فلانٌ في يمينه أي صدق ، وفلانٌ يبرُّ خالقه ويتبرُّه أي يطيعه ، فمعنى « بَرَّةٍ » مطيعون لله صادقون لله في أعمالهم . وقد مضى في سورة « الواقعة » قوله تعالى : « إِنَّهُ لَقَرَّانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أنهم الكرام البررة في هذه السورة .

قوله تعالى : قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ أَلْسَبِيلَ يَسْرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) « قُتِلَ » أي لعن . وقيل : عُدب . والإنسان الكافر . روى الأعمش عن مجاهد قال : ما كان في القرآن « قُتِلَ الْإِنْسَانُ » وإنما عني به الكافر . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : نزلت في عتبة بن أبي لهب وكان قد آمن ، فلما نزلت « وَالنَّجْمِ » أرتد وقال آمنت بالقرآن كله إلا النجم ، فأنزل الله جل ثناؤه فيه « قُتِلَ الْإِنْسَانُ » أي لعن عتبة حيث كفر بالقرآن ، ودعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الزيادة من صحيح البخاري .

(٢) راجع ج ١٧ ص ٥٢٢

فقال : " اللهم سَلِّطْ عليه كلبك أسد الغاضرة " ^(١) نخرج من فوره بتجارة إلى الشام ، فلما
 أنتهى إلى الغاضرة تذكر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، بفعل لمن معه ألف دينار إن هو
 أصبح حياً ، بفعلوه في وسط الرفقة ، وجعلوا المتاع حوله ، فبينما هم على ذلك أقبل الأسد ،
 فلما دنا من الرجال وثب فإذا هو فوقه فمزقه ، وقد كان أبوه ندبه وبكى وقال : ما قال محمد
 شيئاً قط إلا كان . وروى أبو صالح عن ابن عباس « مَا أَكْفَرَهُ » أى شئ أكفره .
 وقيل : « ما » تعجب ، وعادة العرب إذا تعجبوا من شئ قالوا : قاتله الله ما أحسنه ،
 وأخزاه الله ما أظلمه ، والمعنى أعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا . وقيل :
 ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه على التعجب أيضاً ، قال ابن جريح :
 أى ما أشد كفره . وقيل : « ما » استفهام أى أى شئ دعاه إلى الكفر ، فهو استفهام
 توبيخ . و « ما » تحتل التعجب ، وتحتل معنى أى فتكون استفهاماً . (مِنْ أَى شَيْءٍ
 خَلَقَهُ) أى من أى شئ خلق الله هذا الكافر فيتكبر ، أى أعجبوا لخلقهم . (مِنْ نُطْفَةٍ)
 أى من ماء يسير مهين جماد (خَلَقَهُ) فلم يغلظ في نفسه ؟ ! . قال الحسن : كيف يتكبر
 من خرج من سبيل البول مرتين . (فَقَدَرَهُ) في بطن أمه . كذا روى الضحاك عن ابن عباس :
 أى قدر يديه ورجليه وعينه وسائر آراجه ، وحسنا ودمياً ، وقصيراً وطويلاً ، وشقياً وسعيداً .
 وقيل : « فَقَدَرَهُ » أى فسواه كما قال : « أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ
 سَوَّأَكَ رَجُلًا » . وقال : « الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّأَكَ » . وقيل : « فَقَدَرَهُ » أطواراً أى من
 حال إلى حال ؛ نطفة ثم علقة إلى أن تم خلقه . (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) قال ابن عباس في رواية
 عطاء وقتادة والسدى ومقاتل : يسره للخروج من بطن أمه . مجاهد : يسره لطريق الخير
 والشر ؛ أى بين له ذلك . دليله : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ » و « هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » . وقاله
 الحسن وعطاء وابن عباس أيضاً في رواية أبي صالح عنه . وعن مجاهد أيضاً قال : سبيل
 (د) كذا لفظ الحديث في الأصول ورواية أبي حيان له : " اللهم أبعث عليه كلبك يا كله " ، ثم قال :

فلما أنتهى إلى الغاضرة ... الخ .

الشقاء والسعادة . ابن زيد : سبيل الإسلام . وقال أبو بكر بن طاهر : يسر على كل أحد ما خلقه له ، وقدره عليه ؛ دليله قوله عليه السلام : « أعملوا فكل ميسر لما خلق له » .
 (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ) أى جعل له قبرا يوارى فيه إكراما ، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله الطير والعواقي ؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيدة : « أَقْبَرَهُ » جعل له قبرا ، وأمر أن يقبر . قال أبو عبيدة : ولما قتل عمر بن هبيرة صالح بن عبد الرحمن قالت بنو تميم ودخلوا عليه : أَقْبَرْنَا صَالِحًا ؛ فقال : دونكموه . وقال : « أَقْبَرَهُ » ولم يقل قبره ؛ لأن القابر هو الدافن بيده ، قال الأعشى :

لَوْ أَسْنَدْتُ مَيْتًا إِلَى نَحْرِهَا * عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ

يقال : قبرت الميت إذا دفنته ، وأقبره الله أى صيره بحيث يقبر وجعل له قبرا ؛ تقول العرب : بترت ذنب البعير وأبتره الله ، وعضبت قرن الثور وأعضبه الله ، وطردت فلانا والله أطرده أى صيره طريدا . (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ) أى أحياه بعد موته . وقراءة العامة « أَنْشَرَهُ » بالألف . وروى أبو حيوة عن نافع وشعيب بن أبي حمزة « شَاءَ نَشَرَهُ » بغير ألف لغتان فصيحتان بمعنى ؛ يقال : أنشر الله الميت ونشره ؛ قال الأعشى :

حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا * يَا عَجَبًا لِلْمَيْتِ النَّاشِرِ

قوله تعالى : (كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرَهُ) قال مجاهد وقتادة : « لَمَّا يَقِضْ » لا يقضى أحد ما أمر به . وكان ابن عباس يقول : « لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرَهُ » لم يف بالميثاق الذى أخذ عليه فى صلب آدم . ثم قيل : « كَلَّا » ردع وزجر أى ليس الأمر كما يقول الكافر ؛ فإن الكافر إذا أخبر بالنشور قال : « وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحَسَنَى » ربما يقول قد قضيت ما أمرت به ، فقال : كَلَّا لم يقض شيئا بل هو كافر بى ورسولى . وقال الحسن : أى حقا لم يقض أى لم يعمل بما أمر به . و « مَا » فى قوله : « لَمَّا » عماد للكلام ؛ كقوله تعالى : « فَيَا رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ » وقوله : « عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ »

(١) العواقي : طلاب الرزق من الإنس والدواب والطيور ؛ والمراد هنا الوحوش والبهائم .

وقال الإمام ابن فورك : أى كلاً لما يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان ، بل أمره بما لم يقض له . ابن الأنبارى : الوقف على « كلاً » قبيح ، والوقف على « أمره » و « أئسره » جيد ؛ ف « كلاً » على هذا بمعنى حقا .

قوله تعالى : فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَيْكِهِةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَمِ لَكُمْ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) لما ذكر جل ثناؤه ابتداء خلق الإنسان ذكر ما يسر من رزقه ؛ أى فلينظر كيف خلق الله طعامه . وهذا النظر نظر القلب بالفكر ؛ أى ليتدبر كيف خلق الله طعامه الذى هو قوام حياته ، وكيف هيا له أسباب المعاش ليستعد بها للعاد . وروى عن الحسن ومجاهد قالا : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ » أى إلى مدخله ومخرجه . وروى ابن أبى خيثمة عن الضحاك بن سفيان الكلبي قال قال لى النبي صلى الله عليه وسلم : « يا ضحاك ما طعامك » قلت : يا رسول الله ! اللحم واللبن ؛ قال : « ثم يصير إلى ماذا » قلت إلى ما قد علمته ؛ قال : « فإن الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا » . وقال أبى بن كعب قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن مطعم ابن آدم جعل مثلاً للدنيا وإن قزحه ^(١) ومآحه فأنظر إلى ما يصير » . وقال أبو الوليد : سألت ابن عمر عن الرجل يدخل الحلاء فينظر ما يخرج منه ؛ قال : يأتيه الملك فيقول أنظر ما بخلت به إلى ما صار .

(١) قزحه : أى نبذه من القزح وهو النابل الذى يطرح فى القدر كالكون والكزبرة ونحو ذلك . والمعنى : إن المطعم وإن تكلف الإنسان التوق فى صنعه وتطيبه فإنه مائد إلى حال بكره ويستفذر فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها ونظم أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار . « النهاية » .

قوله تعالى : ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ قراءة العامة « إنا » بالكسر على الاستئناف . وقرأ الكوفيون ورويس عن يعقوب « أنا » بفتح الهمزة و « أنا » في موضع خفض على الترجمة عن الطعام فهو بدل منه ؛ كأنه قال : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ » إلى « أَنَا صَبَبْنَا » فلا يحسن الوقف على « طَعَامِهِ » من هذه القراءة . وكذلك إن رفعت « أنا » بإضمار هو أنا صببنا ؛ لأنها في حال رفعها مترجمة عن الطعام . وقيل : المعنى لأننا صببنا الماء فأخرجنا به الطعام أي كذلك كان . وقرأ الحسين بن عليّ ^(١) « أنى » ممال بمعنى كيف . فمن أخذ بهذه القراءة قال : الوقف على « طعامه » تام . ويقال : معنى « أنى » أين إلا أن فيها كناية عن الوجوه ؛ وتأويلها : من أي وجه صببنا الماء ؛ قال الكمي :

أنى ومن أين أبك الطرب ^(٢) * من حيث لا صبوة ولا ريب

« صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا » يعنى الغيث والأمطار . (ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا) أي بالنبات (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا) أي قمحا وشعيرا وملتأ وملتأ ^(٣) وسائر ما يحصد ويدخر (وَعِنْبًا وَقَضْبًا) وهو القث والعلف ؛ عن الحسن ؛ سمي بذلك لأنه يقضب أي يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة . قال القتيبي وثعلب : وأهل مكة يسمون القث القضب . وقال ابن عباس : هو الرطب لأنه يقضب من النخل ؛ ولأنه ذكر العنب قبله . وعنه أيضا : أنه الفصفصة وهو القث الرطب . وقال الخليل : القضب الفصفصة الرطبة . وقيل : بالسین فإذا يبست فهو قث . قال : والقضب أسم يقع على ما يقضب من أغصان الشجرة ليتخذ منها سهام أو قسي . ويقال : قضا يعنى جميع ما يقضب مثل القث والكرات وسائر البقول التي تقطع فينبت أصلها . وفي الصحاح : والقضبة والقضب الرطبة وهي الإسفست بالفارسية والموضع الذي يثبت فيه مقضبة . (وَزَيْتُونًا) وهي شجرة الزيتون (وَنَخْلًا) يعنى النخيل (وَحَدَائِقَ) أي

(١) في نسخة : قرأ بعض القراء .

(٢) أبك : أناك . الرب : صروف الدهر .

(٣) السلت (بالضم) : ضرب من الشعير .

بساتين واحدها حديقة . قال الكلبي : وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة ، وما لم يحيط عليه فليس بحديقة . (غُلبًا) عظاما شجرها ، يقال : شجرة غلباء ، ويقال للأسد الأغلب ، لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جمعا ، قال العجاج :

مَا زِلْتُ يَوْمَ الْبَيْنِ الْوَيْ صُلِّي * وَالرَّأْسُ حَتَّى صِرْتُ مِثْلَ الْأَغْلِبِ

ورجل أغلب بين الغائب إذا كان غليظ الرقبة . والأصل في الوصف بالغلب الرقاب

فأستعير ، قال عمرو بن معدى كرب :

يَمْشِي بِهَا غُلْبُ الرَّقَابِ كَأَنَّهُمْ * بَزَلُ كَيْسِينَ مِنَ الْكُحَيْلِ جَلَالًا^(١)

وحديقة غلباء ملتفة وحدائق غلب . وأغلوب العشب بلغ وآلف البعض البعض .

قال ابن عباس : الغلب جمع أغلب وغلباء وهي الغلاظ . وعنه أيضا الطوال . قتادة وابن

زيد : النخل الكرام . وعن ابن زيد أيضا وعكرمة : عظام الأوساط والخذوع . مجاهد :

ملتفة . (وَفَاكِهَةٌ) أى ما تأكله الناس من ثمار الأشجار كالتين والخوخ وغيرها . (وَأَبًا)

هو ما تأكله البهائم من العشب ، قال ابن عباس والحسن : الأب كل ما أنبت الأرض

مما لا يأكله الناس ، وما يأكله الآدميون هو الحصيد ، ومنه قول الشاعر في مدح النبي صلى

الله عليه وسلم :

لَهُ دَعْوَةٌ مُمَيَّنَةٌ رِيحُهَا الصَّبَا * بِهَا يُنْبِتُ اللَّهُ الْحَصِيدَةَ وَالْأَبَا

وقيل : إنما سمي أباً ، لأنه يؤب أي يؤتم ويُنْتَجِع . والأب والام أخوان ، قال :

جِئْنَا قَيْسَ وَتَجَدُّ دَارُنَا * وَلَنَا الْأَبُّ بِهِ وَالْمَكْرَعُ^(٢)

وقال الضبعاك : الأب كل شيء ينبت على وجه الأرض . وكذا قال أبو رزين : هو

النبات ، يدل عليه قول ابن عباس قال : الأب ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام .

(١) الكحيل : نوع من الفطران تطل به الإبل للهرب ولا يستعمل إلا مصفرا . وجل الدابة : الذي تلبسه لصان

به والجمع جلال وأجلال .

(٢) الجذم (بكسر الجيم) : الأصل . والمكراع : مفعول من الكرع أراد به الماء الصالح للشرب .

ومن ابن عباس أيضا وابن أبي طلحة : الأَبُ الثَّامِرُ الرُّطْبَةُ . وقال الضحاك : هو التين خاصة . وهو محكى عن ابن عباس أيضا ؛ قال الشاعر :

فَا لَمْ مَرَّتْ لِلسَّوَا * مِ وَالْأَبِ عِنْدَهُمْ يُقَدَّرُ

الكلبي : هو كل نبات سوى الفاكهة . وقيل : الفاكهة رطب الثمار والأب يابسها . وقال إبراهيم التيمي : سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير الفاكهة والأب فقال : أى - سماء تظلتى وأى - أرض تظلتى إذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم . وقال أنس : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال : كل هذا قد عرفناه فما الأب ؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال : هذا لعمرك الله التكلف وما عليك يا ابن أُم عمر ألا تدرى ما الأب . ثم قال : أتبعوا ما بين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خَلِقْتُمْ مِنْ سَبْعٍ وَرَزَقْتُمْ مِنْ سَبْعٍ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ عَلَى سَبْعٍ " وإنما أراد بقوله : " خَلِقْتُمْ مِنْ سَبْعٍ " يعنى « مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ » الآية ، والرزق من سبع وهو قوله تعالى : « فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَنْبًا » إلى قوله : « وَفَاكِهَةً » ثم قال : « وَأَبًّا » وهو يدل على أنه ليس برزق لابن آدم وأنه مما تختص به البهائم . والله أعلم . (متاعاً لكم) نصب على المصدر المؤكد ؛ لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات . وهذا ضرب مثل ضربه الله تعالى لبعث الموتى من قبورهم ؛ كنبات الزرع بعد دثوره كما تقدم بيانه فى غير موضع . ويتضمن آمتنانا عليهم بما أنعم به وقد مضى فى غير موضع أيضا .

قوله تعالى : فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ

أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَلْحَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ

مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَوَجْهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكٌ

مُسْتَبْشِرٌ ﴿٣٩﴾ وَوَجْهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾

(١) السوام والسائمة : المال الراعى من الإبل والغنم وغيرها .

قوله تعالى : (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ) لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد ليتروا له بالأعمال الصالحة وبالإنفاق مما آتت به عليهم . والصَّاحَةُ الصيحة التي تكون عنها القيامة وهي النفخة الثانية ، تُصَيِّخُ الأَسْمَاعَ أى تُصَيِّمُهَا فلا تسمع إلا ما يدعى به للإحياء . وذكر ناس من المفسرين قالوا : تُصَيِّخُهَا الأَسْمَاعُ من قولك أصاخ إلى كذا أى أستمع إليه ؛ ومنه الحديث : "ما من دابة إلا وهي مُصَيِّخَةٌ يوم الجمعة شفقا من الساعة إلا الجن والإنس" وقال الشاعر :

يُصَيِّخُ لِلنَّبَاةِ أَسْمَاعَهُ * إِصَاخَةَ النَّاشِدِ لِلْمُنْشِدِ

قال بعض العلماء : وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء فأما اللغة فمقتضاها القول الأول ؛ قال الخليل : الصَّاحَةُ صيحة تُصَيِّخُ الأَذَانَ صَخًا أى تُصَيِّمُهَا بشدة وقعها . وأصل الكلمة في اللغة الصك الشديد . وقيل : هي مأخوذة من صخه بالجر إذا صكته ؛ قال الرازي :

يَا جَارِيَّ هَلْ لَكَ أَنْ تُجَالِدِي * جِلَادَةً كَالصَّكِّ بِالْحَلَامِدِ

ومن هذا الباب قول العرب : صختهم الصاخة وباتتهم البائثة وهي الداهية . الطبرى : وأحسبه من صخ فلان فلانا إذا أصمه . قال ابن العربي : الصاخة التي تورث الصمم ، وإنها لمُسْمِعة وهذا من بديع الفصاحة ، حتى لقد قال بعض حديثي الأسنان حديثي الأزمان :

* أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعًا *

وقال آخر :

أَصَمَّنِي سِرُّهُمْ أَيَّامَ فُرْقَتِهِمْ * فَهَلْ سَمِعْتُمْ بَيْرُ يُوْرِثُ الصَّمَا

ولعمرك الله إن صيحة القيامة أَمُسْمِعة تُصَمُّ عن الدنيا وتُسمِعُ أمور الآخرة .

قوله تعالى : (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ) أى يهرب أى تجيء الصاخة في هذا اليوم الذى يهرب فيه من أخيه ؛ أى من موالاة أخيه ومكاملته ؛ لأنه لا يتفرغ لذلك لا يشتغاله بنفسه ، كما قال بعده : (لِكُلِّ أَمْرِي مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) أى يشغله عن غيره . وقيل : إنما يفر حذرا من مطالبتهم إياه لما بينهم من التبعات . وقيل : لئلا يروا ما هو

فيه من الشدة . وقيل : لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئا ، كما قال : « يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا » . وقال عبد الله بن طاهر الأبهري : يفر منهم لما تبين له من عجزهم وقلة حيلتهم إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه ، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئا سوى ربه تعالى . (وَصَاحِبَتِهِ) أي زوجته . (وَبَنِيهِ) أي أولاده .

وذكر الضحاك عن ابن عباس قال : يفر قابيل من أخيه هابيل ، ويفتر النبي صلى الله عليه وسلم من أمه ، وإبراهيم عليه السلام من أبيه ، ونوح عليه السلام من ابنه ، ولوط من امرأته ، وآدم من سواة بنيه . وقال الحسن : أول من يفر يوم القيامة من أبيه إبراهيم ، وأول من يفر من ابنه نوح ، وأول من يفر من امرأته لوط . قال : فيرون أن هذه الآية نزلت فيهم وهذا فرار التبرؤ . (لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يُحْشِرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا » قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ » . أخرجه الترمذي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يُحْشِرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا » فقالت امرأة : أينظر بعضنا - أو بعضنا يرى - عورة بعض ؟ قال : « يَا فُلَانَةُ » « لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » قال : حديث حسن صحيح . وقراءة العامة بالفين المعجمة ؛ أي حال يشغله عن الأقرباء . وقرأ ابن محيصن وحيد « يَغْنِيهِ » بفتح الياء وعين غير معجمة ؛ أي يعنيه أمره . وقال القتيبي : يعنيه يصرفه ويصدّه عن قرابته ؛ ومنه يقال : أعن عني وجهك أي آصرفه وأعن عن السفيه ؛ قال خفاف :

سَيَعْنِيكَ حَرْبُ بَنِي مَالِكٍ * عَنْ الْفُحْشِ وَالْجَهْلِ فِي الْمَحْفَلِ

قوله تعالى : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ) أي مشرقة مضيئة قد علمت . لها من الفوز والنعيم ، وهي وجوه المؤمنين . (ضَاحِكَةٌ) أي مسرورة فرحة . (مُسْتَبْشِرَةٌ) أي بما

أناها الله من الكرامة . وقال عطاء الخراساني : « مُسْفِرَةٌ » من طول ما أغبرت في سبيل الله جل ثناؤه . ذكره أبو نعيم . الضحاك : من آثار الوضوء . ابن عباس : من قيام الليل ؛ لما روى في الحديث : « من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار » يقال : أسفر الصبح إذا أضاء . (وَوَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ) أي غبار ودخان (تَرَهَّقَهَا) أي تغشاها (قَتْرَةٌ) أي كسوف وسواد . كذا قال ابن عباس . وعنه أيضا : ذَلَّةٌ وَشِدَّةٌ . والقتر في كلام العرب الغبار جمع القتره عن أبي عبيد ؛ وأنشد الفرزدق :

مَتَّوَجٌ بِرِدَاءِ الْمُلْكِ يَتَّبِعُهُ * مَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرِّايَاتِ وَالْقَتْرَا

وفي الخبر : إن البهائم إذا صارت ترابا يوم القيامة حول ذلك التراب في وجوه الكفار . وقال زيد بن أسلم : القتره ما ارتفعت إلى السماء ، والغبرة ما انحطت إلى الأرض ، والغبار والغبرة واحد . (أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ) جمع كافر (الْفٰجِرُونَ) جمع فاجر وهو الكاذب المفتري على الله تعالى . وقيل : الفاسق ؛ [يقال] : فجر فجورا أي فسق وفجر أي كذب ، وأصله الميل والفاجر المائل . وقد مضى بيانه والكلام فيه والحمد لله وحده .

سورة التكوير

مكية في قول الجميع وهي تسع وعشرون آية

وفي الترمذي : عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة [كأنه رأى عين]^(١) فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء

أنشقت » قال : هذا حديث حسن [غريب] .

(١) الزيادة من صحيح الترمذي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾
وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ
حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾
وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ
نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٢﴾
وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخِضَتْ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) قال ابن عباس : تكويرها إدخالها في العرش .
الحسن : ذهاب ضوئها . وقاله قتادة ومجاهد ، وروى عن ابن عباس أيضا . سعيد بن
جبير : كُوِّرَتْ . أبو عبيدة : كُوِّرَتْ مثل تكوير العمامة تُلْفُ فُتْمَحَى . وقال الربيع بن خيثم :
« كُوِّرَتْ » رُمِيَ بها ، ومنه كُوِّرَتْهُ فَتَكْوَرُ أَي سَقَطَ .

قلت : وأصل التكوير الجمع مأخوذ من كار العمامة على رأسه يَكُوْرُهَا أَي لَآئِهَا وَجَمَعَهَا
فهي تُكْوَرُ وَيُحَى ضَوْءُهَا ثُمَّ يَرْمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ . والله أعلم . وعن أبي صالح : كُوِّرَتْ نَكَسَتْ .
(وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ) أي تهافتت وتناثرت . وقال أبو عبيدة : أنصبت كما ينصب
العُقَابُ إِذَا انْكَسَرَتْ . قال العجاج يصف صقرا :
أَبْصَرَ خِرْبَانَ فَضَاءٍ فَانْكَدَرَ * تَقَضَّى الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرَ

(١) هكذا البيت في نسخ الأصل التي بأيدينا والذي في ديوان العجاج رواية الأصبعي نسخة الشنقيطي : قال بمدح
عمرو بن عبد الله بن معمر : قد جبر الدين الإله بغير . إلى أن قال :

داني جناحيه من الطور فر * تقضى البازي إذا البازي كسر

أبصر خربان فضاء فانكدر * شاكي الكلاب إذا أهوى أظفر

الطور الجبل وعنى هنا الشام ، يقول : أقض ابن معمر انقضاة من الشام أنقضاض البازي ضم جناحيه . وخربان
جمع حرب وهو ذكر الحباري ، والكلاب الخالب ، وأظفر أصله أظفر فأبدلت التاء طاء فأدغمت في الظاء .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يبقى في السماء يومئذ نجم إلا سقط في الأرض حتى يفزع أهل الأرض السابعة مما لقيت وأصاب العليا " يعني الأرض . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : تساقطت ؛ وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور ، وتلك السلاسل بأيدي ملائكة من نور ، فإذا جاءت النفخة الأولى مات من في الأرض ومن في السموات فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة ؛ لأنه مات من كان يمسكها . ويحتمل أن يكون أنكدارها طمس آثارها . وسميت النجوم نجوما لظهورها في السماء بضوئها . وعن ابن عباس أيضا : أنكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها . والمعنى متقارب . ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ يعني قلعت من الأرض وسيرت في الهواء ، وهو مثل قوله تعالى : « وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » . وقيل : سيرها تحوّلها عن منزلة الحجارة فتكون كشيء مهيلاً أى رملاً سائلاً ، وتكون كالعهن ، وتكون هباءً منثوراً ، وتكون سرايا مثل السراب الذى ليس بشيء . وعادت الأرض قاعاً صافصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً . وقد تقدم في غير موضع والحمد لله . ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ أى النوق الحوامل التى فى بطونها أولادها ، الواحدة عشراء أو التى أتى عليها فى الحمل عشرة أشهر ، ثم لا يزال ذلك أسمها حتى تضع وبعد ما تضع أيضاً . ومن عادة العرب أن يسموا الشيء باسمه المتقدم وإن كان قد جاوز ذلك ؛ يقول الرجل لفرسه وقد قرح : هاتوا مهرى وقربوا مهرى يسميه بمتقدم اسمه ؛ قال عنتره :

لَا تَذْكُرِي مُهْرِي وَمَا أَطْعَمْتُهُ * فَيَكُونُ جَانِدِكَ مِثْلَ جِلْدِ الْأَجْرَبِ

وقال أيضا :

* وَحَمَلْتُ مُهْرِي وَسَطَّهَا فَمَضَاهَا ^(۱) *

وإنما خص العشار بالذكور ؛ لأنها أعز ما تكون على العرب وليس يطلها أهلها إلا حال القيامة . وهذا على وجه المثل ؛ لأن فى القيامة لا تكون ناقة عشراء ، ولكن أراد به المثل ؛ أن هول

(۱) صدره : * وضربت فرى كبشها فتجدلا *

يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها وأشتغل بنفسه . وقيل : إنهم إذا قاموا من قبورهم ، وشاهد بعضهم بعضا ، ورأوا الوحوش والدواب محشورة وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم لم يعبثوا بها ولم يهمهم أمرها . وخوطبت العرب بأمر العشار ؛ لأن ما لها وعيشها أكثره من الإبل . وروى الضحاك عن ابن عباس : عَطَّلَتْ عَطَلَهَا أَهْلِهَا لِأَشْتَغَالِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ . وقال الأعشى :

هُوَ الْوَاهِبُ الْمَائَةِ الْمُصْطَفَا * إِذَا مَخَاضًا وَإِمَّا عِشَارَا

وقال آخر :

تَرَى الْمَرْءَ مَهْجُورًا إِذَا قَلَّ مَالُهُ * وَبَيْتُ الْغَنِيِّ يُهْدَى لَهُ وَيُزَارُ
وَمَا يَنْفَعُ الزُّوَارَ مَالٌ مَزُورِيهِمْ * إِذَا سَرَّحَتْ سُؤْلُهُ^(١) لَهُ وَعِشَارُ

يقال : ناقة عشراء وناقتان عشراوان ونوق عشار وعشراوات يبدلون من همزة التانيث واوا . وقد عثرت الناقة تعشيرا أى صارت عشراء . وقيل : العشار السحاب يعطل مما يكون فيه وهو الماء فلا يطر ، والعرب تشبه السحاب بالحامل . وقيل : الديار تعطل فلا تسكن . وقيل : الأرض التي يعثر زرعها تعطل فلا تزرع . والأقول أشهر وعليه من الناس الأكثر . (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) أى جمعت والحشر الجمع . عن الحسن وقتادة وغيرهما . وقال ابن عباس : حشرها موتها . رواه عنه عكرمة . وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس فإنهما يوافقان يوم القيامة . وعن ابن عباس أيضا قال : يحشر كل شيء حتى الذباب . قال ابن عباس : تحشر الوحوش غدا ؛ أى تجمع حتى يقتص لبعضها من بعض فيقتص للجناء من القرناء ثم يقال لها كوني ترابا فتموت . وهذا أصح مما رواه عنه عكرمة ، وقد بيناه في كتاب « التذكرة » مستوفى ، ومضى في سورة « الأنعام^(٢) » بعضه . أى إن الوحوش إذا كانت هذه حالها فكيف بنى آدم . وقيل : عنى بهذا أنها مع نفرتها اليوم من الناس وتنددها

(١) في نسخة : بزل . (٢) راجع ج ٦ ص ٤٢١

في الصحارى ، تنضم فدا إلى الناس من أهوال ذلك اليوم . قال معناه أبي بن كعب .
 (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) أى ملئت من الماء ؛ والعرب تقول : سَجَّرْتُ الحوض أسجَّره
 سَجَّرًا إذا ملأته وهو مسجور ، والمسجور والساجر في اللغة الملائن . وروى الربيع بن خيثم :
 سُجِّرَتْ فاضت وملئت . وقاله الكلبى ومقاتل والحسن والضحاك . قال ابن أبي زمنين :
 سُجِّرَتْ حقيقته ملئت فيفيض بعضها إلى بعض فتصير شيئا واحدا . وهو معنى قول الحسن .
 وقيل : أرسل عذبا على مالحتها ومالحها على عذبا حتى آمتلأت . عن الضحاك ومجاهد :
 أى فجرت فصارت بحرا واحدا . القشيري : وذلك بأن يرفع الله الحاجر الذى ذكره في قوله
 تعالى : « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ » فإذا رفع ذلك البرزخ تفجرت مياه البحار فعمت
 الأرض كلها ، وصارت البحار بحرا واحدا . وقيل : صارت بحرا واحدا من الحميم لأهل
 النار . وعن الحسن أيضا وقتادة وابن حيان : تيبس فلا يبقى من ماء قطرة . القشيري :
 وهو من سَجَّرَتِ التَّنُورَ أسجَّره سَجَّرًا إذا أحمته ، وإذا سُلِّطَ عليه الإيقاد نشف ما فيه من
 الرطوبة ، وتُسِيرُ الجبال حينئذ ، وتصير البحار والأرض كلها بساطا واحدا ؛ بأن يملا مكان
 البحار بتراب الجبال . وقال النحاس : وقد تكون الأقوال متفقة ؛ يكون تيبس من الماء
 بعد أن يفيض بعضها إلى بعض فتقلب نارا .

قلت : ثم تسير الجبال حينئذ كما ذكر القشيري والله أعلم . وقال ابن زيد وشمر وعطية
 وسفيان ووهب وأبي وعلى بن أبي طالب وابن عباس في رواية الضحاك عنه : أوقدت
 فصارت نارا . قال ابن عباس : يكور الله الشمس والقمر والنجوم في البحر ، ثم يبعث
 الله عليها ريحا دُبُورا فتنفخه حتى يصير نارا . وكذا في بعض الحديث : ” يأمر الله جل ثناؤه
 الشمس والقمر والنجوم فينتثرن في البحر ثم يبعث الله جل ثناؤه الدُّبُورَ فيسجرها نارا فتلك
 نار الله الكبرى التى يُعَذَّبُ بها الكفار “ . قال القشيري : قيل في تفسير قول ابن عباس
 « سُجِّرَتْ » أوقدت يحتمل أن تكون جهنم في قعور من البحار ، فهى الآن غير مسجورة
 لقوام الدنيا ، فإذا أنقضت الدنيا سجرت فصارت كلها نارا يدخلها الله أهلها . ويحتمل أن
 تكون تحت البحر نارا ، ثم يوقد الله البحر كله فيصير نارا . وفى الخبر : البحر نار فى نار .

وقال معاوية بن سعيد : بحر الروم وسط الأرض أسفله آبار مطبقة بنحاس يسجر نارا يوم القيامة . وقيل : تكون الشمس في البحر، فيكون البحر نارا بحر الشمس . ثم جميع ما في هذه الآيات يجوز أن يكون في الدنيا قبل القيامة ويكون من أشراطها ، ويجوز أن يكون يوم القيامة ، وما بعد هذه الآيات فيكون في يوم القيامة .

قلت : روى عن عبد الله بن عمرو : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم . وقال أبي بن كعب : ست آيات من قبل يوم القيامة ؛ بينما الناس في أسواقهم ذهب ضوء الشمس وبدت النجوم فتحيروا ودهشوا ، فبينما هم كذلك ينظرون إذ تناثرت النجوم وتساقت ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحزكت وأضطربت وأحترقت فصارت هباء منثورا ، ففزعت الإنس إلى الجن والجن إلى الإنس ، وأختلطت الدواب والوحوش والهوام والطير ، وماج بعضها في بعض ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ ثم قالت الجن للإنس : نحن نأتيكم بالخبر ، فأنطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجج ، فبينما هم كذلك تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى ، وإلى السماء السابعة العليا فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتهم . وقيل : معنى « سُجِّرَتْ » هو حمرة . أي حتى تصير كالدم ، مأخوذ من قولهم : عين سجراء أي حمراء . وقرأ ابن كثير « سُجِّرَتْ » وأبو عمرو أيضا إخبارا عن حالها مرة واحدة . وقرأ الباقر بالتشديد إخبارا عن حالها في تكرير ذلك منها مرة بعد أخرى .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال النعمان بن بشير : قال النبي صلى الله عليه وسلم « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ » قال : « يُقْرَنُ كُلُّ رَجُلٍ مَعَ كُلِّ قَوْمٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ كَعْمَلِهِ » . وقال عمر بن الخطاب : يقرن الفاجر مع الفاجر ، ويقرن الصالح مع الصالح . وقال ابن عباس : ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة ، السابقون زوج — يعني صنفا — وأصحاب اليمين زوج ، وأصحاب الشمال زوج . وعنه أيضا قال : زوجت نفوس المؤمنين بالحوار العين ، وقرن الكافر بالشياطين وكذلك المنافقون . وعنه أيضا : قرن كل شكل بشكله من أهل الجنة وأهل النار ،

فيضم المبرز في الطاعة إلى مثله ، والمتوسط إلى مثله ، وأهل المعصية إلى مثله ؛ فالترويج أن يقرن الشيء بمثله ؛ والمعنى : وإذا النفوس قرنت إلى أشكالها في الجنة والنار . وقيل : يضم كل رجل إلى من كان يلزمه من ملك وسلطان ، كما قال تعالى : « أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » . وقال عبد الرحمن بن زيد : جعلوا أزواجا على أشباه أعمالهم ليس بترويج ، أصحاب اليمين زوج ، وأصحاب الشمال زوج ، والسابقون زوج ؛ وقد قال جل ثناؤه : « أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » أي أشكلهم . وقال عكرمة : « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ » قرنت الأرواح بالأجساد ؛ أي ردت إليها . وقال الحسن : ألحق كل أمرئ بشيعته ؛ اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئا من دون الله يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين والمؤمنون بالمؤمنين . وقيل : يقرن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان على جهة البغض والعداوة ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين . وقيل : قرنت النفوس بأعمالها فصارت لأختصاصها به كالترويج .

قوله تعالى : (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) الموءودة المقتولة ؛ وهي الحارية تدفن وهي حية ، سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيؤودها أي يثقلها حتى تموت ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا » أي لا يثقله ؛ وقال متم بن نويرة :

موءودة مقبورة في مفازة * بآمتها موءودة لم تمهد^(۱)

وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصنين ؛ إحداهما كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله فآلحقوا البنات به . الثانية إما مخافة الحاجة والإملاق ، وإما خوفا من السبي والأسترقاق . وقد مضى

(۱) كذا روى البيت ونسب إلى متم بن نويرة في الأصول ، ونسبه اللسان وشرح القاموس مادة (موز) إلى

حسان رضي الله عنه وروى فيهما :

وموءودة مقرورة في معارز * بآمتها مرموسة لم توسد

والآمة : ما يعلق بسرة المولود إذا سقط من بطن أمه . والمعارز : خرق ياف بها الصبي .

في سورة «النحل» هذا المعنى عند قوله تعالى : « أَمْ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ » مستوفى . وقد كان ذوو الشرف منهم يمتنعون من هذا ، ويمتنعون منه حتى آفتخر به أفرزدق ، فقال :

وَمِنَّا الَّذِي مَنَعَ الْوَأَيْدِيَّ * فَأَحْيَا الْوَيْبِدَ فَلَمْ يُوَادِّ

يعنى جده صعصعة كان يشترين من آبائهن ، بخفاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة . وقال ابن عباس : كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة وتخفضت على رأسها ، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة وردت التراب عليها ، وإن ولدت غلاما حبسته ، ومنه قول الراجز :

سَمِّيَتْهَا إِذْ وُلِدَتْ تَمُوتُ * وَالْقَبْرِ صَهْرُ ضَامِنٍ زَمِيَّتْ

الزَّمِيَّتْ الوقور ، والزَّمِيَّتْ مثال الفِسْقِ أَوْقَرُ مِنَ الزَّمِيَّتِ ، وفلان أزمى الناس أى أوقرهم ، وما أشد تَزَمَّتْهُ ، عن الفراء . وقال قتادة : كانت الجاهلية يقتل أحدهم أبنته ويغذو كلبه ، فعاتبهم الله على ذلك وتوعدهم بقوله : « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ » قال عمر في قوله تعالى « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ » قال : جاء قيس بن عاصم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إنى وأدت ثمان بنات كُنَّ لى فى الجاهلية ، قال : « فاعتق عن كل واحدة منهن رقبة » قال : يا رسول الله إنى صاحب إبل ، قال : « فأهد عن كل واحدة منهن بدنة إن شئت » . وقوله تعالى : « سُئِلَتْ » سؤال الموءودة سؤال توبيخ لقائلها ، كما يقال للطفل إذا ضرب لم ضربت وما ذنبك ؟ قال الحسن : أراد الله أن يوبخ قائلها ؛ لأنها قُتِلت بغير ذنب . وقال ابن أسلم : باى ذنب ضربت وكانوا يضربونها . وذكر بعض أهل العلم فى قوله تعالى « سُئِلَتْ » قال : طَلِبَتْ ؛ كأنه يريد كما يُطَلَّب بدم التتيل . قال : وهو كقوله : « وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا » أى مطلوبًا . فكانها طُلبت منهم ، فقيل أين أولادكم ؟ ! وقرأ الضحاك وأبو الضحا عن جابر بن زيد وأبى صالح « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ » فتعلق الجارية بأبيها فتقول : باى ذنب

(١) رجع ج ١٠ ص ١١٧

(٢) وبرى : وجدى الذى منع الراءدات ... الخ .

قتلتي؟ ! فلا يكون له عذر، قاله ابن عباس وكان يقرأ « وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سَأَلَتْ » وكذلك هو في مصحف أبي . وروى عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن المرأة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقاً ولدها بشديها ملطخاً بدمائه فيقول يا رب هذه أمي وهذه قتلتي » والقول الأول عليه الجمهور ، وهو مثل قوله تعالى لعيسى : « أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » على جهة التوبيخ والتبكيك لهم ، فكذلك سؤال الموءودة توبيخ لوائدها ، وهو أبلغ من سؤالها عن قتلها ، لأن هذا مما لا يصح إلا بذنوب ، فبأي ذنب كان ذلك ، فإذا ظهر أنه لا ذنب لها كان أعظم في البلية وظهور الحجّة على قاتلها . والله أعلم . وقرئ « قُلْتَ » بالتشديد وفيه دليل بين على أن أطفال المشركين لا يُعذّبون ، وعلى أن التعذيب لا يُستحق إلا بذنوب .

قوله تعالى : (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) أى فتحت بعد أن كانت مطوية ، والمراد صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر ، تطوى بالموت وتنشر في القيامة ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها فيقول : « مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » . وروى مرثد بن وداعة قال : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش ، فتقع صحيفة المؤمن في يده « فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » إلى قوله : « الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » وتقع صحيفة الكافر في يده « فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ » إلى قوله : « وَلَا كَرِيمٍ » . وروى عن أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُمْفَاءَ عُرَاةٍ » فقلت : يا رسول الله ! فكيف بالنساء؟ قال : « شُغِلَ النَّاسُ يَا أُمَّ سَلَمَةَ » قلت : وما شغلهم؟ قال : « نَشِرَ الصُّحُفَ فِيهَا مِثَاقِيلُ الذَّرِّ وَمِثَاقِيلُ الْحَرْدَلِ » . وقد مضى في سورة « سَبْحَانَ » قول أبي السّوّار العدوى : هما نشرتان وطية ، أما ما حبيت يا بن آدم فصحيفتك المنشورة فأمل فيها ما شئت ، فإذا ميت طويت ، حتى إذا بعثت نشرت « أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » . وقال مقاتل : إذا مات المرء طويت صحيفته عمله فإذا كان يوم القيامة نشرت . وعن عمر رضى الله عنه أنه كان إذا قرأها قال : إليك يساق

(۱) راجع ج ۱۰ ص ۲۳۰

الأمر يا بن آدم . وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو عمرو « نُشِرَتْ » مخففة على نشرها مرة واحدة لقيام الحجة . الباقون بالتشديد على تكرار النشر للبالغة في تفرغ العاصي وتبشير المطيع .
وقيل : لتكرار ذلك من الإنسان والملائكة الشهداء عليه .

قوله تعالى : (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ) الكشط قلع عن شدة التزاق ؛ فالسماء تُكشَطُ كما يُكشَطُ الجلد عن الكبش وغيره ، والقشط لغة فيه . وفي قراءة عبد الله « وَإِذَا السَّمَاءُ قُشِطَتْ » وكشطت البعير كشطاً نزع جلده ، ولا يقال سلخته ؛ لأن العرب لا تقول في البعير إلا كشطته أو جلده وأنكشط أى ذهب ؛ فالسماء تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء .
وقيل تطوى كما قال تعالى : « يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ » فكان المعنى قلعت فطويت . والله أعلم .

قوله تعالى : (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ) أى أوقدت فأضمرت للكفار وزيد في إحماؤها .
يقال : سعرت النار وأسعرتها . وقراءة العامة بالتخفيف من السعير . وقرأ نافع وابن ذكوان ورويس بالتشديد ؛ لأنها أوقدت مرة بعد مرة . قال قتادة : سعرها غضبُ الله وخطايا بني آدم . وفي الترمذى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «أوقد على النار ألف سنة حتى أحمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى أبيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى أسودت فهي سوداء مظلمة » وروى موقوفاً .

قوله تعالى : (وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ) أى أدنيت وقربت من المتقين . قال الحسن :
إنهم يقربون منها ؛ لأنها تزول عن موضعها . وكان عبد الرحمن بن زيد يقول : ^(١) زينت والزلفى في كلام العرب القربة ؛ قال الله تعالى : « وَأُنزِلَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ » وتزلف فلان تقرب .

قوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخِضَتْ) يعنى ما عملت من خير وشر . وهذا جواب « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » وما بعدها . قال عمر رضى الله عنه : لهذا أجرى الحديث . وروى

(١) في نسخة : أدنيت .

عن ابن عباس وعمر رضى الله عنهما أنهما قرأها فلما بلغا « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُحْضَرَتْ » قالا لهذا أجريت القصة ؛ فالمعنى على هذا إذا الشمس كورت وكانت هذه الأشياء علمت نفس ما أحضرت من عملها . وفي الصحيحين عن عدى بن حاتم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه وبينه ترجان فينظر أين منه فلا يرى إلا ما قدمه [وينظر أشام منه فلا يرى إلا ما قدم^(۱)] بين يديه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل » وقال الحسن : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » قسم وقع على قوله : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُحْضَرَتْ » كما يقال : إذا نفر زيد نفر عمرو . والقول الأول أصح . وقال ابن زيد عن ابن عباس في قوله تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » إلى قوله : « وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ » اثنتا عشرة خصلة ؛ ستة في الدنيا وستة في الآخرة ؛ وقد بينا الستة الأولى بقول أبي بن كعب .

قوله تعالى : فَلَا أُقْسِمُ بِالْحُنُوسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ) أى أقسم و « لا » زائدة كما تقدم . (بِالْحُنُوسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) هى الكواكب الخمسة الدرارى : زحل والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة ، فيما ذكر أهل التفسير . والله أعلم . وهو مروى عن علي كرم الله وجهه . وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان : أحدهما — لأنها تستقبل الشمس ؛ قاله بكر بن عبد الله المزني . الثانى — لأنها تقطع المجرة ؛ قاله ابن عباس . وقال الحسن وقتادة : هى النجوم التى تنحس

(۱) الزيادة من صحيح مسلم .

بالنهار وإذا غربت ، وقاله علي رضي الله عنه قال : هي النجوم تُخْنِسُ بالنهار وتظهر بالليل ؛ وتكْنِسُ في وقت غروبها ؛ أي تتأخر عن البصر خلفاً فلا تُرى . وفي الصحاح : و « الخُنْسُ » الكواكب كلها . لأنها تُخْنِسُ في المغيب ، أو لأنها تخفى نهاراً . ويقال : هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة . وقال الفراء في قوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِاللُّخْنِيسِ ، الْجَوَارِي الْكُنَّسِ » إنها النجوم الخمسة ؛ زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد ؛ لأنها تُخْنِسُ في مجراها ، وتكْنِسُ أي تستر كما تكْنِسُ الظباء في المغار وهو الكناس . ويقال : سميت خُنْسًا لتأخرها لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم ؛ يقال : خَنَسَ عنه يَخْنُسُ بالضم خنوساً تأخر ، وأخنسه غيره إذا خَلَفَهُ ومضى عنه . والخُنْسُ تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة ، والرجل أخنس والمرأة خنساء والبقر كلها خُنْسٌ . وقد روى عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِاللُّخْنِيسِ » هي بقر الوحش . روى هشيم عن زكريا عن أبي إسحق عن أبي ميسرة عمرو بن شريحيل ، قال قال لي عبد الله بن مسعود : إنكم قوم عرب فما الخُنْسُ ؟ قلت : هي بقر الوحش ؛ قال : وأنا أرى ذلك . وقاله إبراهيم وجابر بن عبد الله . وروى عن ابن عباس : إنما أقسم الله ببقر الوحش . وروى عنه عكرمة قال : « الخُنْسُ » البقر و « الكُنْسُ » هي الظباء ، فهي خُنْسٌ إذا رآين الإنسان خَنَسَنَ وَأَنْقَبَضْنَ وتأخرن ودخانن كالمهت . القشيري : وقيل على هذا « الخُنْسُ » من الخُنْسِ في الأنف وهو تأخير الأرنبة وقصر القصبة ، وأنوف البقر والظباء خُنْسٌ . والأصح الحمل على النجوم لذكر الليل والصبح بعد هذا ، فذكر النجوم أليق بذلك .

قلت : لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد ، وإن لم يُعَلِّمْ وجه الحكمة في ذلك . وقد جاء عن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وهما صحابييان والنخعي أنها بقر الوحش . وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنها الظباء . وعن الحجاج بن منذر قال : سألت جابر بن زيد عن الجوارى الكُنْسُ ، فقال : الظباء والبقر ، فلا يبعد أن يكون المراد

النجوم . وقد قيل : إنها الملائكة ؛ حكاه الماوردي . والكنس الغيب ؛ مأخوذة من الكاس وهو كاس الوحش الذي يختفى فيه . قال أوس بن حجر :

ألم تر أن الله أنزل مُرْنَةً * وَعَفْرُ الظَّبَاءِ فِي الكَاسِ تَمَعٌ^(۱)

وقال طرفة :

كَأَنَّ كَاسِي ضَالَّةً يَكْتَفِيهَا * وَأَطْرَقِي تَحْتَ صُلْبٍ مُؤَيَّدٍ^(۲)

وقيل : الكنوس أن تاوى إلى مكانها ، وهي المواضع التي تاوى إليها الوجوش والظباء . قال الأعشى :

فَلَمَّا أَتَيْنَا الحَى أَتَعَّ أَنْسُ * كَمَا أَتَلَعْتُ تَحْتَ المَكَائِسِ رَبَّابُ

يقال : تلع النهار آرتفع وأتلت الظبية من كاسها أى سمت بجيدها . وقال امرؤ القيس :

تَعَشَّى قَلِيلًا ثُمَّ انْحَى ظُلُوفَهُ * يُشِيرُ التُّرَابَ عَنِ مَبِيتٍ وَمَكْنِسِ

والكنس جمع كائس وكائسة ، وكذا الخنس جمع خائس وخائسة . والجواري جمع جارية من جرى يجرى . (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَّسَ) قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسس أدبر ؛ حكاه الجوهري . وقال بعض أصحابنا : إنه دنا من أوله وأظلم وكذلك السحاب إذا دنا من الأرض . المهدوي : « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَّسَ » أدبر بظلامه ؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وروى عنهما أيضا وعن الحسن وغيره : أقبل بظلامه . زيد بن أسلم : « عَسَّسَ » ذهب . الفراء : العرب تقول عسس وسعسع إذا لم يبق منه إلا اليسير . الخليل وغيره : عسس الليل إذا أقبل أو أدبر . المبرد : هو من الأضداد والمعنيان يرجعان إلى شئ واحد وهو ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره ؛ وقال علقمة بن قُرط :

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسًا * وَأَنْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسَّسًا

(۱) تَمَعٌ : تحرك رءوسها من القمة ؛ وهي ذباب أزرق يدخل في أنوف الدواب أو يقع عليها فيلسها .
 (۲) قال : « كَاسِي » لأن الحيوان يستكن بالفدأة في ظلها وبالعتش في فيها . والفضال : الصدر البري الواحدة ضالة . والأطر : العطف . والمؤيد : المقوى . يقول الشاعر : كان كاسي ضالة بكفان هذه الناقة لسعة ما بين مرفقها وزورها .
 (۳) تعشى : دخل في العشاء وهو أول الليل . ظلوفه : حوافره .

وقال رؤبة :

يا هِنْدُ ما أَسْرَع ما تَسْعَسَا * من بَعْدِ ما كان قَتِي سَرَعْرَعًا^(١)

وهذه حجة القراء . وقال عمرو القيس^(٢) :

عَسَسَ حتى لو نَشَأُ أَدْنَا * كان لنا مِن نارِهِ مَقْبَسُ

فهذا يدل على الدنو . وقال الحسن ومجاهد : عسس أظلم ؛ قال الشاعر :

حَتَّى إِذَا ما لَيْلُهُنَّ عَسَسَا * رَكِبَنَ مِن حَدِّ الظَّلامِ حَنَدَسَا

الموردي : وأصل العس الأمتلاء ؛ ومنه قيل للقدح الكبير عس لأمتلائه بما فيه فأطلق على إقبال الليل لأبتداء امتلائه ؛ وأطلق على إداره لانتهاؤ امتلائه على ظلامه ؛ لأستكمال امتلائه به . وأما قول امرئ القيس :

* أَلما على الربيع القديم يِعْسَسَا^(٣)

فوضع بالبادية . وعسس أيضا أسم رجل ؛ قال الراجز :

* وَعَسَسَ نِعْمَ الفَتى تَبَيَّاهُ *

أى تعتمده . ويقال للذئب العسس والعساس والعساس ؛ لأنه يعس بالليل ويطلب . ويقال للقنافذ العساعس لكثرة ترددها بالليل . قال أبو عمرو : والتعسس الشم ، وأنشد :

* كَمَنخِرِ الذَّئِبِ إِذا تَعَسَسَا *

والتعسس أيضا طلب الصيد [بالليل]^(٤) .

(١) تسعسا : أدبر وفتى ، والمرعرع : الشاب الناعم .

(٢) كذا في الأصول كلها ولم نجد في ديوانه . وفي اللسان : كان له من ضوئه مقبس . ثم قال : أنشده

أبو البلاد النحوي وقال : وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع . وأدنا أصله : إذ دنا فادغم .

(٣) تمامه : * كان أنادى أو أكلم أخرا * .

(٤) الزيادة من الصحاح .

قوله تعالى : (وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ) أى أمتد حتى يصير نهارا واضحا ؛ يقال للنهار إذا زاد تنفس . وكذلك الموج إذا تضح الماء . ومعنى التنفس خروج النسيم من الجوف . وقيل : « إِذَا تَنَفَّسَ » أى آنشق وأنفلق ؛ ومنه تَنَفَّسَتِ القوسُ أى تَصَدَّعت . (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) هذا جواب القسم . والرسول الكريم جبريل ؛ قاله الحسن وقتادة والضحاك . والمعنى « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ » عن الله « كَرِيمٍ » على الله . وأضاف الكلام إلى جبريل عليه السلام ثم عداه عنه بقوله « تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ » ليعلم أهل التحقيق فى التصديق أن الكلام لله عز وجل . وقيل : هو عهد عليه الصلاة والسلام (ذِي قُوَّةٍ) مَنْ جعله جبريل فقوته ظاهرة ؛ فروى الضحاك عن ابن عباس قال : من قوته قلعه مدائن قوم لوط بقوادم جناحه . (عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ) أى عند الله جل ثناؤه (مَكِينٍ) أى ذى منزلة ومكانة ؛ فروى عن أبى صالح قال : يدخل سبعين سرادقا بغير إذن . (مُطَاعٍ ثُمَّ) أى فى السموات ؛ قال ابن عباس : من طاعة الملائكة جبريل أنه لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام لرضوان خازن الجنان : أفتح له ففتح فدخل ورأى ما فيها ، وقال لمالك خازن النار : أفتح له جهنم حتى ينظر إليها فأطاعه وفتح له . (أَمِينٍ) أى مؤتمن على الوحي الذى يجىء به . ومن قال : إن المراد عهد صلى الله عليه وسلم فالعنى « ذِي قُوَّةٍ » على تبليغ الرسالة « مُطَاعٍ » أى يطيعه من أطاع الله جل وعز . (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ) يعنى عهدا صلى الله عليه وسلم ليس مجنون حتى يتهم فى قوله . وهو من جواب القسم . وقيل : أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يرى جبريل فى الصورة التى يكون بها عند ربه جل وعز فقال : ماذا إلى ؛ فأذن له الرب جل ثناؤه فاتاه وقد سد الأفق ، فلما نظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم خر مغشيا عليه ، فقال المشركون : إنه مجنون ، فنزلت : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » « وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ » وإنما رأى جبريل على صورته فهابه ، وورد عليه ما لم تحتمل بنيتة نخر مغشيا عليه .

(۱) فى نسخ الأصل : تنفست القوس والنفوس أى تصدعت ، واللفظ لا ذكر فيها لكلمة النفوس ولعلها زيادة من النسخ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ
بِضُنِينِ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾
وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) أى رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح
« بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ » أى بمطلع الشمس من قبل المشرق ؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه تطلع
الشمس فهو مبين . أى من جهته ترى الأشياء . وقيل : الأفق المبين أقطار السماء
ونواحيها ؛ قال الشاعر :

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ * لِنَاقِرَآهَا وَالتُّجُومِ الطَّوَالِعِ

الماوردى : فعلى هذا فيه ثلاثة أقاويل ؛ أحدها أنه رآه فى أفق السماء الشرقى ؛ قاله
سفيان . الثانى فى أفق السماء الغربى ، حكاه ابن شجرة . الثالث أنه رآه نحو أجياد وهو
مشرق مكة ؛ قاله مجاهد . وحكى الثعلبى عن ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم
لجبريل : « إني أحب أن أراك فى صورتك التى تكون فيها فى السماء » قال : لن تقدر على
ذلك . قال : « بلى » قال : فأين تشاء أن أتخيل لك ؟ قال : « بالأبطح » قال : لا يسعنى .
قال : « فبئنى » قال : لا يسعنى . قال : « فبعرفات » قال : ذلك بالحري أن يسعنى .
فواعده نخرج النبى صلى الله عليه وسلم للوقت ، فإذا هو قد أقبل بنحش خشية وكلكلة من جبال
عرفات ، قد ملا ما بين المشرق والمغرب ، ورأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض ، فلما رآه
النبى صلى الله عليه وسلم حتر مغشيا عليه ، فتحول جبريل فى صورته وضمه إلى صدره .
وقال : يا عهد لا تخف ؛ فكيف لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه فى تخوم
الأرض السابعة ، وأن العرش على كاهله ، وأنه ليتضاءل أحيانا من خشية الله حتى يصير
مثل الوصع — يعنى العصفور — حتى ما يحمل عرش ربك إلا عظمته . وقيل : إن هذا

عليه السلام رأى ربه عز وجل بالأفق المبين . وهو معنى قول ابن مسعود . وقد مضى القول في هذا في « والنجم » مستوفى فتأمله هناك . وفي « المبين » قولان : أحدهما أنه صفة الأفق ؛ قاله الربيع . الثانى أنه صفة لمن رآه ؛ قاله مجاهد . (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ)
بالطاء قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائى أى بمتهم والظنة التهمة ؛ قال الشاعر :

أَمَا وَكِتَابِ اللَّهِ لَا عَن شَنَاءَةٍ * هُجِرْتُ وَلَكِنَّ الظَّنِّينَ ظَنِينُ

وأختره أبو عبيد ؛ لأنهم لم يُخْلَوْه ولكن كَذَّبُوهُ ؛ ولأن الأكثر من كلام العرب : ما هو بكذا ، ولا يقولون : ما هو على كذا ، إنما يقولون : ما أنت على هذا بمتهم . وقرأ الباقون « بِظَنِينٍ » بالضاد أى يخيل من ضننت بالشيء أضنّ ضنناً [فهو] ضنين . فروى ابن أبى نجیح عن مجاهد قال : لا يظنّ عليكم بما يُعلم ، بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه . وقال الشاعر :

أَجُودُ بِمَكْنُونِ الْحَدِيثِ وَإِنِّي * بِسِرِّكَ عَمَّنْ سَأَلَنِي لَضَنِينُ

والغيب القرآن وخبر السماء . ثم هذا صفة محمد عليه السلام . وقيل : صفة جبريل عليه السلام . وقيل : بظنين بضعيف . حكاة الفراء والمبرد ؛ يقال : رجل ظنين أى ضعيف . وبئر ظنون إذا كانت قليلة الماء ؛ قال الأعشى :

مَا جُعِلَ الْجُدُّ الظُّنُونُ الَّذِي * جُنَّبَ صَوْبَ اللَّجْبِ الْمَاطِرِ

مِثْلَ الْفُرَاتِ إِذَا مَا طَمًا * يَقْدِفُ بِالْبُوصَى وَالْمَاهِرِ

والظنون الدين الذى لا يدري أيقضيه أخذه أم لا ؛ ومنه حديث على عليه السلام فى الرجل يكون له الدين الظنون قال : يزكبه لما مضى إذا قبضه إن كان صادقا . والظنون الرجل

(١) راجع ج ١٧ ص ٩٤ وقول ابن مسعود هناك هو أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى جبريل والذى

قال بأنه رأى ربه هو ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) الجد : البئر تكون فى موضع كثير الكلاء . الفراتى : المنسوب إلى الفرات . والبوصى : ضرب من سفن

البحر ، والملاح أيضا . والماهر : الساج .

السيء الخلق ؛ فهو لفظ مشترك . (وَمَا هُوَ) يعني القرآن (يَقُولَ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)
 أى مرجوم ملعون كما قالت قريش . قال عطاء : يريد بالشیطان الأبيض الذى كان
 يأتى النبي صلى الله عليه وسلم فى صورة جبريل يريد أن يفتنه . (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) قال
 قتادة : فإلى أين تعدلون عن هذا القول وعن طاعته . كذا روى معمر عن قتادة ؛ أى أين
 تذهبون عن كتابى وطاعتى . وقال الزجاج : فأى طريقة تسلكون أيبين من هذه الطريقة
 التى بينت لكم . ويقال : أين تذهب وإلى أين تذهب . وحكى الفراء عن العرب : ذهبت
 الشام وخرجت العراق وانطلقت السوق أى إليها . قال : سمعناه فى هذه الأحرف الثلاثة ؛
 وأنشدنى بعض بنى عقيل :

تَصِيحُ بِنَا حَنِيفَةٌ إِذْ رَأَتْهَا * وَأَى الْأَرْضِ تَذْهَبُ بِالصَّيِّ

يريد إلى أى أرض تذهب فحذف إلى . وقال الجنيدي : معنى الآية مقرون بآية أخرى وهى
 قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ » المعنى : أى طريق تسلكون أيبين من الطريق
 الذى بينه الله لكم . وهذا معنى قول الزجاج . (إِنْ هُوَ) يعنى القرآن (إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)
 أى موعظة وزجر و « إِنْ » بمعنى « ما » . وقيل : ما عهد إلا ذكر . (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)
 أى يتبع الحق ويقم عليه . وقال أبو هريرة وسليمان بن موسى : لما نزلت « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ
 يَسْتَقِيمَ » قال أبو جهل : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم — وهذا هو القدر
 وهو رأس القدرية — فنزلت : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) فبين بهذا أنه
 لا يعمل العبد خيرا إلا بتوفيق الله ولا شررا إلا بخذلانه . وقال الحسن : والله ما شاءت العرب
 الإسلام حتى شاء الله لها . وقال وهب بن منبه : قرأت فى سبعة وثمانين كتابا مما أنزل الله على
 الأنبياء من جعل إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر . وفى التنزيل : « وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » وقال
 تعالى : « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » وقال تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » والآى فى هذا كثير وكذلك الأخبار وأن الله سبحانه هدى
 بالإسلام وأضل بالكفر كما تقدم فى غير موضع . ختمت السورة والحمد لله .

(١) فى تفسير الطبرى : بضمة وثمانين .

سورة الأنفطار

مكية عند الجميع وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ
 انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾
 عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

قوله تعالى : (إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ) أى تَشَقَّقَتْ بأمر الله ؛ لنزول الملائكة ؛ كقوله :
 « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا » . وقيل : تفطرت هيبة الله تعالى .
 والفطر الشق ؛ يقال : فطرتُه فأنفطر ، ومنه فطر ناب البعير طلع فهو بعير فاطر ، وتفطر
 الشيء تَشَقَّقَ ، وسيف فطار أى فيه شقوق ؛ قال عنزة :

وَسَيْفِي كَالْعَقِيقَةِ وَهُوَ كَيْبِي * سِلَاحِي لَا أَقْلٌ وَلَا فُطَارًا^(١)

وقد تقدم في غير موضع . (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ) أى تساقطت ؛ نثرت الشيء أثره
 نثرًا فانتثر والاسم النثار . والنثار بالضم ما تثار من الشيء ، ودرُّ منثر شدد للكثرة . (وَإِذَا
 الْبِحَارُ فُجِّرَتْ) أى فجر بعضها في بعض فصارت بحرا واحدا على ما تقدم . وقال الحسن :
 فجرت ذهب ماؤها ويست ؛ وذلك أنها أولا را كدة مجتمعة ، فإذا فُجِّرَتْ تفرقت فذهب
 ماؤها . وهذه الأشياء بين يدي الساعة على ما تقدم في « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » . (وَإِذَا
 الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ) أى قلبت وأخرج ما فيها من أهلها أحياء ؛ يقال : بعثرت المناع قلبته ظهرا
 لبطن ، وبعثرت الحوض وبعثرتُه إذا هدمته وجعلت أسفله أعلاه . وقال قوم منهم الفراء :
 « بعثرت » أخرجت ما في بطنها من الذهب والفضة . وذلك من أشرط الساعة أن تخرج الأرض

(١) العقيقة : شعاع البرق الذي يبدو كالسيف . والكعب : الضجيع . (٢) راجع ج ١٦ ص ٤

ذهبها وفضتها . (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) مثل : « يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » وتقدم . وهذا جواب « إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ » لأنه قسم في قول الحسن وقع على قوله تعالى : « عَلِمَتْ نَفْسٌ » يقول : إذا بدت هذه الأمور من أشراط الساعة ختمت الأعمال فعلمت كل نفس ما كسبت ، فإنها لا ينفعها عمل بعد ذلك . وقيل : أي إذا كانت هذه الأشياء قامت القيامة فحوسبت كل نفس بما عملت ، وأوتيت كتابها بيمينها أو بشمالها فتذكرت عند قراءته جميع أعمالها . وقيل : هو خبر وليس بقسم وهو الصحيح إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ) خاطب بهذا منكرى البعث . وقال ابن عباس : الإنسان هنا الوليد بن المغيرة . وقال عكرمة : ابن بن خلف . وقيل : نزلت في أبي الأشد بن كلدة الجُمحى . عن ابن عباس أيضا : « مَا غَرَّكَ رَبُّكَ الْكَرِيمِ » أي ما الذي غرك حتى كفرت « رَبُّكَ الْكَرِيمِ » أي المتجاوز عنك . قال قتادة : غره شيطانه المسلط عليه . الحسن : غره شيطانه الخبيث . وقيل : حقه وجهله . رواه الحسن عن عمرو بن عبد الله عن وروى غالب الحنفى قال : لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ الْكَرِيمِ » قال : « غره الجهل » وقال صالح بن مسمار : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ الْكَرِيمِ » فقال : « غره جهله » . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : كما قال الله تعالى « إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » . وقيل : غره عفو الله إذ لم يعاقبه في أول مرة . قال إبراهيم بن الأشعث : قيل للفضيل بن عياض لو أقامك الله تعالى

يوم القيامة بين يديه فقال لك « مَا غَرَّكَ رَبِّكَ الْكَرِيمِ » ماذا كنت تقول ؟ قال : كنت أقول غرني ستورك المرخاة ؛ لأن الكريم هو الستار . نظمه ابن السَّيَّاح فقال :

يَا كَاتِمَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحْيِ * وَاللَّهُ فِي الْخَلْقِ تَانِيكَا

غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْهَالُهُ * وَسَثْرُهُ طَوْلُ مَسَاوِيكَا

وقال ذو النون المصري : كم من مغرور تحت السترو هو لا يشعر .

وأشده أبو بكر بن طاهر الأبهري :

يَا مَنْ غَلَا فِي الْعُجْبِ وَالتَّيِّهِ * وَغَرَّهُ طُولُ تَمَادِيهِ

أَمْ لِي لَكَ اللَّهُ فَبَارِزَتُهُ * وَلَمْ تَخَفْ غِبَّ مَعَاصِيهِ

وروى عن علي رضي الله عنه أنه صاح بغلام له مرات فلم يلبه ، فنظر فإذا هو بالباب فقال : مالك لم تجبني ؟ فقال . لثقتي بحلمك وأمني من عقوبتك . فاستحسن جوابه فأعتقه . وناس يقولون : ما غرك ما خدعك وسؤل لك حتى أضعت ما وجب عليك . وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا وسيخلو الله به يوم القيامة فيقول له : يا ابن آدم ماذا غرك بي ؟ يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ (الَّذِي خَلَقَكَ) أي قدر خلقك من نطفة (فَسْوَأَكَ) في بطن أمك وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك (فَعَدَّلَكَ) أي جعلك معتدلا سوى الخلق ؛ كما يقال : هذا شيء معتدل . وهذه قراءة العامة وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ قال الفراء وأبو عبيد : يدل عليه قوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » . وقرأ الكوفيون عاصم وحمزة والكسائي : « فَعَدَّلَكَ » مخففا أي أمالك وصرفك إلى أي صورة شاء إما حسنا وإما قبيحا ، وإما طويلا وإما قصيرا . وقال [موسى بن علي بن أبي رباح الخنمي عن أبيه عن جدّه] قال قال لي النبي صلى الله عليه وسلم : " إن النطفة

(١) الزيادة من تفسير الثعلبي والطبري والدر المنثور . والحديث كما رواه الثعلبي بعد السند : قال قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم لجدّه " ما ولد لك " قال يا رسول الله وما عسى أن يولد لي ، إما غلام أو جارية . قال " فن يشبه "

قال : فن يشبه . أمه أو أباه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم . " لا تقل هكذا إن النطفة ... الحديث " .

إذا استقرت في الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم " أما قرأت هذه الآية (في أي صورة ما شاء ربك) : " فيما بينك وبين آدم " [وقال عكرمة وأبو صالح : « في أي صورة ما شاء ربك »] إن شاء في صورة إنسان ، وإن شاء في صورة حمار ، وإن شاء في صورة قرد ، وإن شاء في صورة خنزير . وقال مكحول : إن شاء ذكرا وإن شاء أنثى . وقال مجاهد : « في أي صورة » أي في أي شبه من أب أو أم أو عم أو خال أو غيرهم . و « في » متعلقة بـ « ربك » ولا تتعلق بـ « عدلك » على قراءة من خفف ؛ لأنك تقول عدلت إلى كذا ولا تقول عدلت في كذا ؛ ولذلك منع الفراء التخفيف ؛ لأنه قدر « في » متعلقة بـ « عدلك » و « ما » يجوز أن تكون صلة مؤكدة ؛ أي في أي صورة شاء ربك . ويجوز أن تكون شرطية أي إن شاء ربك في غير صورة الإنسان من صورة قرد أو حمار أو خنزير ف « ما » بمعنى الشرط والجزاء ؛ أي في صورة ما شاء أن يربك ربك .

قوله تعالى : (كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ) يجوز أن تكون « كَلَّا » بمعنى حقا و « أَلَا » فيبتدأ بها . ويجوز أن تكون بمعنى « لا » على أن يكون المعنى ليس الأمر كما تقولون من أنكم في عبادتكم غير الله محقون . يدل على ذلك قوله تعالى : « مَا غَرَّكَ رَبَّكَ الْكَرِيمِ » وكذلك يقول الفراء : يصير المعنى ليس كما غررت به . وقيل : أي ليس الأمر كما تقولون من أنه لا بعث . وقيل : هو بمعنى الردع والزجر . أي لا تغتروا بحلم الله وكرمه فتركوا التفكير في آياته . ابن الأنباري : الوقف الجسد على « الدين » وعلى « ربك » والوقف على « كَلَّا » فيصح . (بَلْ تُكذِّبُونَ) ياهل مكة (بِالَّذِينَ) أي بالحساب و « بل » لنفي شيء تقدم وتحقيق غيره . وإنكارهم للبعث كان معلوما وإن لم يجر له ذكر في هذه السورة .

قوله تعالى : وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ) أي رقباء من الملائكة (كِرَامًا) أي على ؛ كقوله تعالى : « كِرَامٍ بَرَرَةٍ » وهنا ثلاث مسائل :

الأولى - روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين الخراءة أو الجماع فإذا أغتسل أحدكم فليستتر بجرم [حائط] أو بغيره أو ليستره أخوه " . وروى عن علي رضي الله عنه قال : " لا يزال الملك موليا عن العبد ما دام بادي العورة " وروى " إن العبد إذا دخل الحمام بغير مترر لعنه ملكاه " .

الثانية - وأختلف الناس في الكفار هل عليهم حفظة أم لا ؟ فقال بعضهم : لا ؛ لأن أمرهم ظاهر وعملهم واحد ؛ قال الله تعالى : « يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَاهُمْ » . وقيل : بل عليهم حفظة ؛ لقوله تعالى : « كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كَرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » . وقال : « وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ شِمَالِهِ » وقال : « وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ » فأخبر أن الكفار يكون لهم كتاب ويكون عليهم حفظة . فإن قيل : الذي على يمينه أى شيء يكتب ولا حسنة له ؟ قيل له : الذي يكتب عن شماله يكون بإذن صاحبه ويكون شاهدا على ذلك وإن لم يكتب . والله أعلم .

الثالثة - سئل سفيان : كيف تعلم الملائكة أن العبد قد هم بحسنة أو سيئة ؟ قال : إذا هم العبد بحسنة وجدوا منه ريح المسك ، وإذا هم بسيئة وجدوا منه ريح التن . وقد مضى في « ق » عند قوله : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » زيادة بيان لمعنى هذه الآية . وقد كره العلماء الكلام عند الفائط والجماع لمفارقة الملك العبد عند ذلك . وقد مضى في آخر « آل عمران » القول في هذا . وعن الحسن : يعلمون لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم . وقيل : يعلمون ما ظهر منكم دون ما حدثتم به أنفسكم . والله أعلم .

(۱) الزيادة من الدر المنثور وفيه سبب ورود الحديث أنه طبه السلام رأى رجلا يفتسل بفلاة من الأرض ... الخ .

(۲) راجع ج ۱۷ ص ۱۱

(۳) راجع ج ۴ ص ۳۱۰ لها بعدها .

قوله تعالى : إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) تقسيم مثل قوله : « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » وقال : « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا » الآيتين . (يَصَلُّونَهَا) أى بصيهم لها وحرها (يَوْمَ الدِّينِ) أى يوم الجزاء والحساب وكرر ذكره تعظيماً لشأنه ، نحو قوله تعالى : « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ » وقال ابن عباس فيما روى عنه : كل شيء من القرآن من قوله : « وَمَا أَدْرَاكَ » فقد أدراه ، وكل شيء من قوله : « وَمَا يُدْرِيكَ » فقد طوى عنه . (يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ) قرأ ابن كثير وأبو عمرو « يَوْمٌ » بالرفع على البدل من « يَوْمَ الدِّينِ » أو رداً على اليوم الأول فيكون صفة ونعتاً لـ « يَوْمَ الدِّينِ » . ويجوز أن يرفع بإضمار هو . الباقيون بالنصب على أنه في موضع رفع إلا أنه نصب ، لأنه مضاف غير متمكن ، كما تقول : أعجبنى يوم يقوم زيد . وأنشد المبرد :

مِنْ أَيِّ يَوْمٍ مِنَ الْمَوْتِ أَفْتَرُ * أَيُّوْمٌ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمٌ قُدِرَ

فاليو مان الثمانيان مخفوضان بالإضافة عن الترجمة عن اليومين الأولين إلا أنهما نصبا في اللفظ ، لأنهما أضيفا إلى غير محض . وهذا اختيار الفراء والزجاج . وقال قوم : اليوم الثانى منصوب على المحل كأنه قال : في يوم لا تملك نفس لنفس شيئا . وقيل : بمعنى إن هذه الأشياء تكون يوم ، أو على معنى يداون يوم ، لأن الدين يدل عليه ، أو بإضمار أذكر . (وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) لا ينازعه فيه أحد ، كما قال : « لِيَنَّ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ » تمت السورة والحمد لله .

سورة المطففين

مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل . ومدنية في قول

الحسن وعكرمة ، وهي ست وثلاثون آية

قال مقاتل : وهي أول سورة نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا ثمان

آيات من قوله : « إِنَّ الَّذِينَ أَجْرُمُوا » إلى آخرها مكي . وقال الكلبي وجابر بن زيد :

نزلت بين مكة والمدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ

يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — روى النسائي عن ابن عباس قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة

كانوا من أخبث الناس كَيْلًا فأنزل الله تعالى « وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ » فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

قال الفراء : فهم من أوفى الناس كَيْلًا إلى يومهم هذا . وعن ابن عباس أيضا قال : هي أول

سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة نزل المدينة وكان هذا فيهم ، كانوا إذا

أشتروا أستوفوا بكيل راجح ، فإذا باعوا بنحسوا المكيال والميزان ، فلما نزلت هذه السورة آتوها ،

فهم أوفى الناس كَيْلًا إلى يومهم هذا . وقال قوم : نزلت في رجل يعرف بأبي جهينة وأسمه

عمرو ، كان له صاعان يأخذ بأحدهما ويعطى بالآخر ، قاله أبو هريرة رضى الله عنه .

الثانية — قوله تعالى : « وَيَلِّ » أى شدة عذاب في الآخرة . وقال ابن عباس :

إنه وادٍ في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار ، فهو قوله تعالى : « وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ » أى الذين

ينقصون مكاييلهم وموازينهم . وروى عن ابن عمر قال : المطفف الرجل يستاجر المكيال

وهو يعلم أنه يحيف في كيله فوزره عليه . وقال آخرون : التطفيف في الكيل والوزن والوضوء والصلاة والحديث . وفي الموطأ قال مالك : ويقال لكل شيء وفاءً وتطفيف . وروى عن سالم بن أبي الجعد قال : الصلاة بمكيال فمن أوفى له ومن طُفّف فقد علمتم ما قال الله عز وجل في ذلك : « وَيَلِّ لِلْمُطَفِّينَ » .

الثالثة - قال أهل اللغة : المطفّف مأخوذ من الطّيف وهو القليل ، والمُطَفّف هو المقل حقّ صاحبه بنقصانه عن الحقّ في كيل أو وزن . وقال الزجاج : إنما قيل للفاعل من هذا مُطَفّف ؛ لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف ، وإنما أخذ من طَف الشيء وهو جانبه . وطَفّاف المَكْوِك وطَفّافه بالكسر والفتح ما ملاً أصباره وكذلك طَفّ المَكْوِك وطَفّفه ؛ وفي الحديث : «كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ طَفّ الصَّاعِ لَمْ تَمَلُّوهُ» وهو أن يقرب أن يمتلئ فلا يفعل ؛ والمعنى بعضكم من بعض قريب فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى . والطَّفّاف والطَّفّافة بالضم ما فوق المكيال . وإناء طَفّاف إذا بلغ المِلء طَفّافه ؛ تقول منه : أطففت . والتطفيف نقص المكيال وهو ألا تملأه إلى أصباره أي جوانبه ؛ يقال : أدهقت الكأس إلى أصبارها أي إلى رأسها . وقول ابن عمر حين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم سبق الخيل : كنت فارساً يومئذ فسبقت الناس حتى طَفّف بي الفرس مسجد بنى زريق حتى كاد يساوى المسجد . يعني وثب بي .

الرابعة - المطفّف هو الذي يخسر في الكيل والوزن ولا يوفى حسب ما بيناه ؛ وروى ابن القاسم عن مالك أنه قرأ « وَيَلِّ لِلْمُطَفِّينَ » فقال : لا تُطَفّف ولا تخلب^(١) ولكن أرسل وصبّ عليه صَباً حتى إذا استوفى أرسل يدك ولا تُمسك . وقال عبد الملك بن الماجشون :^(٢) نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسح الطّفّاف ، وقال : إن البركة في رأسه . قال : وبلغني أن كيل فرعون كان مسحاً بالحديدة .

(١) كذا في الأصول وفي ابن العربي (ولا تخلب) . (٢) في بعض الأصول وابن العربي «أسنوى» .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ قال للفراء : أى من الناس ؛
 يقال : آكلت منك أى أستوفيت منك ، ويقال : آكلت ما عليك أى أخذت ما عليك .
 وقال الزجاج : أى إذا آكألوا من الناس أستوفوا عليهم الكيل ؛ والمعنى : الذين إذا أستوفوا
 أخذوا الزيادة وإذا أوفوا أو وزنوا لغيرهم تقصوا ، فلا يرضون للناس ما يرضون لأنفسهم .
 الطبرى : « على » بمعنى عند .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾
 فيه مسئلتان :

الأولى - قوله تعالى : « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ » أى كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت
 اللام فتعدى الفعل فنصب ؛ ومثله نصحتك ونصحت لك وأمرتك به وأمرتكه ؛ قاله
 الأخفش والفراء . قال الفراء : وسمعت أعرابية تقول إذا صدرَ الناسُ أتينا التاجر فيكلنا
 المذَّ والمُدَّين إلى الموسم المقبل . وهو من كلام أهل الججاز ومن جاورهم من قيس . قال
 الزجاج : لا يجوز الوقف على « كَالُوا » و « وَزَنُوا » حتى تصل به « هم » قال : ومن
 الناس من يجعلها توكيدا ، ويميز الوقف على « كَالُوا » و « وَزَنُوا » والأول الاختيار ؛
 لأنها حرف واحد . وهو قول الكسائى . قال أبو عبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين
 ويقف على « كَالُوا » و « وَزَنُوا » ويتدى « هُم يُخْسِرُونَ » قال : وأحسب قراءة حمزة
 كذلك أيضا . قال أبو عبيد : والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين إحداهما الخط ؛
 وذلك أنهم كتبوهما بغير ألف ولو كانتا مقطوعتين لكانتا « كَالُوا » و « وَزَنُوا » بالألف ،
 والأخرى أنه يقال : كلتك ووزنتك بمعنى كلت لك ووزنت لك وهو كلام عربى ؛ كما يقال :
 صدتك وصدت لك وكسبتك وكسبت لك ، وكذلك شكرتك ونصحتك ونحو ذلك . قوله :
 « يُخْسِرُونَ » أى ينقصون ؛ والعرب تقول : أخسرت الميزان وخسرته ، و « هم » فى موضع
 نصب على قراءة العامة راجع إلى الناس ؛ تقديره « وَإِذَا كَالُوا » الناس « أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ »
 وفيه وجهان : أحدهما أن يراد كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل كما قال :
 وَلَقَدْ جَنَيْتَ أَكْمُوا وَصَافِلَا • وَلَقَدْ نَهَيْتَ عَنْ بَنَاتِ الْأَوْبَرِ

أراد جنيت لك ، والوجه الآخر أن يكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف هو المكيل والموزون . وعن ابن عباس رضى الله عنه : إنكم معاشر الأعاجم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم المكيال والميزان . ونخص الأعاجم لأنهم كانوا يجمعون الكيل والوزن جميعا وكانا مفرقين في الحرمين ؛ كان أهل مكة يزنون وأهل المدينة يكيلون . وعلى القراءة الثانية « هم » في موضع رفع بالابتداء ؛ أى وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم فهم يخسرون . ولا يصح ؛ لأنه تكون الأولى ملغاة ليس لها خبر ، وإنما كانت تستقيم لو كان بعدها وإذا كالوا هم ينقصون أو وزنوا هم يخسرون .

الثانية - قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : « نَحَسُّ بِخَمْسٍ مَا تَقْضِي قَوْمَ الْعَهْدِ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَذَابَهُمْ وَلَا حُكْمًا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون وما طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس الله عنهم المطر » خرجه أبو بكر البزار بمعناه ومالك بن أنس أيضا من حديث ابن عمر . وقد ذكرناه في كتاب التذكرة . وقال مالك بن دينار : دخلت على جاري قد نزل به الموت ، بفعل يقول : جبلين من نار ! جبلين من نار ! فقلت : ما تقول ؟ أم حجر ؟ قال : يا أبا يحيى كان لي مكيالان أكيل بأحدهما وأكّال بالآخر ؛ فقامت بفجعات أضرب أحدهما بالآخر حتى كسرتها ، فقال : يا أبا يحيى كلما ضربت أحدهما بالآخر آزداد عظاما ، فمات من وجعه . وقال عكرمة : أشهد على كل كَيْالٍ أو وِزَانٍ أنه في النار . قيل له : فإن آبنك كَيْالٍ أو وِزَانٍ . فقال : أشهد أنه في النار . قال الأصمعي : وسمعت أعرابية تقول لا تلتمس المروءة ممن مروءته في رهوس المكاييل ولا السنة الموازين . وروى ذلك عن علي رضى الله عنه . وقال عبد خير : مر علي رضى الله عنه على رجل وهو يزن الزعفران وقد أرجح فأكفا الميزان ، ثم قال : أقم الوزن بالقسط ؛ ثم أرجح بعد ذلك ما شئت . كأنه أمره بالتسوية أولا ليعتادها ، ويفصل الواجب من النفل . وقال نافع : كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول آتق الله وأوف الكيل

(١) حجر في نومه ومرهته بهجر مجرا : هذى .

والوزن بالقسط ، فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى إن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم ، وقد روى أن أبا هريرة قدم المدينة وقد نرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى خير وأستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطَةَ ، فقال أبو هريرة : فوجدناه في صلاة الصبح فقراً في الركعة الأولى « كَهَيْعَصَ » وقرأ في الركعة الثانية « وَيَلُّ لِلْمُطَفِّفِينَ » قال أبو هريرة : فأقول في صلاتي ويل لأبي فلان كان له مكالان إذا آكأل آكأل بالوافي وإذا كال كال بالناقص .

قوله تعالى : **أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾**

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : **(أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ)** إنكار وتعجب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف كأنهم لا يخطررون التطفيف بهالم ولا يخشون تخميناً **(أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ)** فمستولون عما يفعلون . والظن هنا بمعنى اليقين ، أى ألا يوقن أولئك ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والوزن . وقيل : الظن بمعنى التردد ؛ أى إن كانوا لا يستيقنون بالبعث فهلا ظنوه حتى يتدبروا ويبحثوا عنه ويأخذوا بالأحوط **(لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)** شأنه وهو يوم القيامة .

قوله تعالى : **(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)** فيه أربع مسائل :

الأولى - العامل في « يوم » فعل مضمردل عليه « مَبْعُوثُونَ » والمعنى يبعثون « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » . ويجوز أن يكون بدلا من يوم في « لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » وهو مبنى . وقيل : هو في موضع خفض ؛ لأنه أضيف إلى غير ممكن . وقيل : هو منصوب على الظرف أى في يوم ، ويقال : أقم إلى يوم يخرج فلان فننصب يوم ، فإن أضافوا إلى الاسم فيلنذ يخفضون ويقولون : أقم إلى يوم خروج فلان . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، التقدير أنهم مبعوثون يوم يقوم الناس لرب العالمين ليوم عظيم .

الثانية - وعن عبد الملك بن مروان أن أعرابيا قال له : قد سمعت ما قال الله تعالى في المطففين ؛ أراد بذلك أن المطففين قد توجه عليهم هذا الوعيد العظيم الذي سمعت به ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن . وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن ، ووصف اليوم بالعظيم ، وقيام الناس فيه لله خاضعين ، ووصف ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظم الذنب ، وتفاهم الإثم في التطفيف ، وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط ، والعمل على التسوية والعدل في كل أخذ وإعطاء ، بل في كل قول وعمل .

الثالثة - قرأ ابن عمر « وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ » حتى بلغ « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »

فبكى حتى سقط وأمتنع من قراءة ما بعده ثم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول " يوم يقوم الناس لرب العالمين في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فمنهم من يبلغ العرق كعبيه ومنهم من يبلغ ركبتيه ومنهم من يبلغ حنجرته ومنهم من يبلغ صدره ومنهم من يبلغ أذنيه حتى إن أحدهم ليغيب في رشحه كما يغيب الضفدع ^(١) " . وروى ناس عن ابن عباس قال : يقومون مقدار ثلثمائة سنة . قال : ويهون على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة . وروى عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقومون ألف عام في الظل " . وروى مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى إن أحدهم ليقوم في رشحه إلى أنصاف أذنيه " . وعنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم : " يقوم مائة سنة " . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم لبشير الغفاري : " كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه مقدار ثلثمائة سنة لرب العالمين لا يأتيهم فيه خبر ولا يؤمر فيه بأمر " قال بشير : المستعان الله .

قلت : قد ذكرناه مرفوعا من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا " في «سأل ^(٢) مائل » . وعن ابن عباس : يهون على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة . وقيل : إن ذلك

(١) أى في الماء . (٢) راجع ج ١٨ ص ٢٨٢ .

المقام على المؤمن كروال الشمس ؛ والدليل على هذا من الكتاب قوله الحق : « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » ثم وصفهم فقال : « الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » جعلنا الله منهم بفضلته وكرمه وجوده ومنه آمين . وقيل : المراد بالناس جبريل عليه السلام يقوم رب العالمين ؛ قاله ابن جبير . وفيه بعد ؛ لما ذكرنا من الأخبار في ذلك وهي صحيحة ثابتة ، وحسبك بما في صحيح مسلم والبخاري والترمذي من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » قال : « يقوم أحدهم في رشفه إلى نصف أذنيه » ثم قيل : هذا القيام يوم يقومون من قبورهم . وقيل : في الآخرة بحقوق عباده في الدنيا . وقال يزيد الرشك : يقومون بين يديه للقضاء .

الرابعة - القيام لله رب العالمين سبحانه حقير بالإضافة إلى عظمته وحقه ، فاما قيام الناس بعضهم لبعض فأختلف فيه الناس ؛ فمنهم من أجازته ومنهم من منعه . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قام إلى جعفر بن أبي طالب وأعتقه ، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تب عليه . وقول النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصَارِ حين طلع عليه سعد بن معاذ : « قوموا إلى سيدكم » وقال أيضا : « من سره أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار » وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيته ، فإن أنتظر ذلك وأعتقه لنفسه فهو ممنوع ، وإن كان على طريق البشاشة والوصلة فإنه جائز ، وخاصة عند الأسباب كالقدوم من السفر ونحوه . وقد مضى في آخر سورة « يوسف » ^(١) شيء من هذا .

قوله تعالى : كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لِنِي سَجِينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

(١) راجع ج ٩ ص ٢٦٥ فاهدها .

قوله تعالى : (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَنِي سَجِينٌ) قال قوم من أهل العلم بالعربية : « كَلَّا » ردع وتنبيه ؛ أى ليس الأمر على ما هم عليه من تطفيف الكيل والميزان ، أو تكذيب بالآخرة فايرتدعوا عن ذلك . فهى كلمة ردع وزجر ثم استأنف فقال : « إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ » . وقال الحسن : « كَلَّا » بمعنى حقاً . وروى ناس عن ابن عباس « كَلَّا » قال : أَلَا تُصَدِّقُونَ ؛ فعلى هذا الوقف « رَبِّ الْعَالَمِينَ » . وفى تفسير مقاتل : إن أعمال الفجار . وروى ناس عن ابن عباس قال : إن أرواح الفجار وأعمالهم « لَنِي سَجِينٌ » . وروى ابن أبي نجیح عن مجاهد قال : سجین صحرة تحت الأرض السابعة تناب فيجعل كتاب الفجار تحتها . ونحوه عن ابن عباس وقادة وسعيد بن جبیر ومقاتل وكعب ؛ قال كعب : تحتها أرواح الكفار تحت خد إبليس . وعن كعب أيضا قال : سجین صحرة سوداء تحت الأرض السابعة مكتوب فيها أسم كل شيطان تلقى أنفـس الكفار عندها . وقال سعيد بن جبیر : سجین تحت خد إبليس . يحيى بن سلام : حجر أسود تحت الأرض يكتب فيه أرواح الكفار . وقال عطاء الخراسانى : هى الأرض السابعة السفلى وفيها إبليس وذريته . وعن ابن عباس قال : إن الكافر يحضره الموت وتحضره رسل الله فلا يستطيعون لبغض الله له وبغضهم إياه أن يؤخروه ولا يعجلوه حتى تجيء ساعته ، فإذا جاءت ساعته قبضوا نفسه ورفعوه إلى ملائكة العذاب ، فأروه ما شاء الله أن يروه من الشر ، ثم هبطوا به إلى الأرض السابعة ، وهى سجین وهى آخر سلطان إبليس فأثبتوا فيها كتابه . وعن كعب الأحبار فى هذه الآية قال : إن روح الفاجر إذا قبضت يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ، ثم يهبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها ، فتدخل فى سبع أرضين حتى ينتهى بها إلى سجین وهو خد إبليس ، فيخرج لها من سجین من تحت خد إبليس رقٌّ فيُرَقَّم فيوضع تحت خد إبليس . وقال الحسن : سجین فى الأرض السابعة . وقيل : هو ضرب مثل وإشارة إلى أن الله تعالى يرد أعمالهم التى ظنوا أنها تنفعهم . قال مجاهد : المعنى عملهم تحت الأرض السابعة لا يصعد منها شيء . وقال :

سَجِّينَ صخرة في الأرض السابعة . وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «سَجِّينَ جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ وَهُوَ مَفْتُوحٌ» وقال في الفلق : «إِنَّهُ جُبٌّ مُغَطَّى» . وقال أنس : هي دركة في الأرض السفلى . وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : سَجِّينَ أَسْفَلَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ . وقال عكرمة : «سَجِّينَ خَسَارٌ وَضَلَالٌ ؛ كَقَوْلِهِمْ لَمَنْ سَقَطَ قَدْرُهُ : قَدْ زَلِقَ بِالْحَضِيضِ . وقال أبو عبيدة والأخفش والزجاج : «لَفِي سَجِّينَ» لفى حبس وضيق شديد فَعِيلٌ مِنَ السَّجْنِ ؛ كَمَا يَقُولُ : فِيسِقٌ وَشَرِيبٌ ؛ قَالَ ابْنُ مَقْبَلٍ :

وَرُقَّةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً * ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سَجِّينًا^(١)

والمعنى كتابهم في حبس ؛ جعل ذلك دليلا على خسارة منزلتهم ، أو لأنه يحل من الإعراض عنه والإبعاد له محل الزجر والهوان . وقيل : أصله سجيل فأبدلت اللام نونا . وقد تقدم ذلك . وقال زيد بن أسلم : سَجِّينَ فِي الْأَرْضِ السَّافِلَةِ وَسَجِّيلٌ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا . القشيري : سَجِّينَ مَوْضِعٌ فِي السَّافِلِينَ يَدْفَنُ فِيهِ كِتَابٌ هُوَ لَا يَظْهَرُ بَلْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ كَالْمَسْجُونِ . وهذا دليل على خبث أعمالهم وتحقير الله إياها ؛ ولهذا قال في كتاب الأبرار : «يَشْهَدُهُ الْمُقْرَبُونَ» . (وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ) أي ليس ذلك مما كنت تعلمه يا محمد أنت ولا قومك . ثم فسره له فقال : (كِتَابٌ مَرْقُومٌ) أي مكتوب كالرقم في الثوب لا ينسى ولا ينحى . وقال قتادة : مَرْقُومٌ أَي مَكْتُوبٌ رُقْمٌ لَهُمْ بَشَرًا لَا يَزَادُ فِيهِمْ أَحَدٌ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُمْ أَحَدٌ . وقال الضحاك : مَرْقُومٌ مَخْتُومٌ بِلُغَةِ حَمِيرٍ ؛ وَأَصْلُ الرُّقْمِ الْكِتَابَةُ ؛ قَالَ :

سَارِقُمْ فِي الْمَاءِ الْقَرَّاحِ إِلَيْكُمْ * عَلَى بَعْدِكُمْ إِنْ كَانَ لِلنَّاءِ رَاقِمٌ

وليس في قوله : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ » ما يدل على أن لفظ سَجِّينَ ليس عربيا كما لا يدل في قوله : « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ » بل هو تعظيم لأمر سَجِّينَ . وقد مضى في مقدمة الكتاب^(٢) - والحمد لله - أنه ليس في القرآن غير عربي . (وَبَلِّغُوا لِلنَّكَادِينَ)

(١) الذي في الناج نقلا عن الجوهري : * درجة يضربون الهام عن عرض *

(٢) راجع ج ١ ص ٦٨ .

أى شدة وعذاب يوم القيامة للكاذبين . ثم بين تعالى أمرهم فقال : ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ
الَّذِينَ ﴾ أى بيوم الحساب والجزاء والفصل بين العباد . ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾
أى فاجر جائر عن الحق ، معتد على الخلق فى معاملته إياهم وعلى نفسه ، وهو أثيم فى ترك أمر
الله . وقيل : هذا فى الوليد بن المغيرة وأبى جهل ونظرائهما ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِذَا تُتْلَى
عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ آسَاطِيرُ الْأُولِينَ ﴾ وقراءة العامة « تتلى » بتاءين وقراءة أبى حيوة وأبى سماك
وأشهب العقلى والسلمى « إِذَا يُتْلَى » بالياء . وأساطير الأولين أحاديثهم وأباطيلهم التى كتبوها
وزخرفوها . واحدها أسطورة وإسطارة وقد تقدم .

قوله تعالى : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾
كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا
الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ « كَلَّا » ردع وزجر ؛
أى ليس هو أساطير الأولين . وقال الحسن : معناها حقا « رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » . وقيل :
فى الترمذى عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا أخطأ
خطيئة نُكِّتَتْ فى قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع وأستغفر الله وتاب صُقِلَ قلبه فإن عاد زيد
فيها حتى تملو على قلبه وهو الران الذى ذكر الله فى كتابه « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ » قال : هذا حديث حسن صحيح . وكذا قال المفسرون : هو الذنب على الذنب حتى
يسود القلب . قال مجاهد : هو الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه ، ثم يذنب الذنب فيحيط
الذنب بقلبه حتى تغشى الذنوب قلبه . قال مجاهد : هى مثل الآية التى فى سورة البقرة « بَلَى
مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً » الآية . ونحوه عن الفراء ؛ قال : يقول كثرت المعاصى منهم والذنوب
فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها . وروى عن مجاهد أيضا قال : القلب مثل الكف
ورقع كفه ، فإذا أذنب العبد الذنب أنقبض وضم إصبعه ؛ فإذا أذنب الذنب أنقبض وضم

أخرى حتى ضم أصابعه كلها ، حتى يطبع على قلبه . قال : وكانوا يرون أن ذلك هو الرين ، ثم قرأ « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . ومثله عن حذيفة رضى الله عنه سواء . وقال بكر بن عبد الله : إن العبد إذ أذنب صار في قلبه كوخزة الإبرة ، ثم صار إذا أذنب ثانيا صار كذلك ، ثم إذا كثرت الذنوب صار القلب كالمُنخل أو كالغُرْبَال لا يعي خيرا ولا يثبت فيه صلاح . وقد بينا في «البقرة»^(١) القول في هذا المعنى بالأخبار الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا معنى لإعادتها . وقد روى عبد الغنى بن سعيد عن موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، وعن موسى عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس شيئا الله أعلم بصحته ؛ قال : هو الران الذى يكون على الفخذين والساق والقدم وهو الذى يلبس فى الحرب . قال : وقال آخرون الران الخاطر الذى يخطر بقلب الرجل وهذا مما لا يضمن عهدته صحته . فأنه أعلم . فأما عامة أهل التفسير فعلى ما قد مضى ذكره قبل هذا . وكذلك أهل اللغة عليه ؛ يقال : ران على قلبه ذنبه يرين رينا ورؤونا أى غلب . قال أبو عبيدة فى قوله : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى غلب ؛ وقال أبو عبيد : كل ما غلبك فقد ران بك ورائك وران عليك ؛ وقال الشاعر :

وَتَمَّ رَانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَلْبٍ فَاجِرٍ * فَمَتَابَ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِى رَانَ وَأَنْجَلَى

ورانت الخمر على عقله أى غلبته ، وران عليه النعاس إذا غطاه ؛ ومنه قول عمر فى الأسيقع — أَسِيفِعُ جُهَيْنَةَ — : فأصبح قد رين به . أى غلبته الديون وكان يدان ؛ ومنه قول أبى زبيد يصف رجلا شرب حتى غلبه الشراب سُكْرًا فقال :

ثُمَّ لَمَّا رَأَاهُ رَانَتْ بِهِ النَجْمُ * رُ وَأَلَّا تَرِينَهُ بِاتِّقَاءِ

فقوله : رانت به الخمر ، أى غلبت على عقله وقلبه . وقال الأُموي : قد أران القوم فهم مُرِينُونَ إذا هالكت مواشيتهم وهزلت . وهذا من الأمر الذى أتاهم مما يغلبهم فلا يستطيعون احتمالاه . قال أبو زيد يقال : قد رين بالرجل رينا إذا وقع فيها لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له

(١) راجع ج ١ ص ١٨٨ فأبعدها .

به . وقال أبو معاذ النحوي : الرين أن يَسْوَدَّ القلبُ من الذنوب ، والطبع أن يطبع على القلب ، وهذا أشد من الرين^(١) ، والإفقال أشد من الطبع . الزجاج : الرين هو كالصدأ يغشى القلب كالغيم الرقيق ومثله الغين ، يقال : غين على قلبه غطى . والغين شجر ملتف الواحدة غيناء أى خضراء كثيرة الورق ملتفة الأغصان . وقد تقدم قول الفراء أنه إحاطة الذنب بالقلوب . وذكر الثعلبي عن ابن عباس : « رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » أى غطى عليها . وهذا هو الصحيح عنه إن شاء الله . وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وأبو بكر والمفضل « ران » بالإمالة ؛ لأن فاء الفعل الراء وعينه الألف منقلبة من ياء فحسنت الإمالة لذلك . ومن فتح فعلى الأصل ؛ لأن باب فاء الفعل فى فَعَلَ الفتح مثل كال وباع ونحوه . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ووقف حفص « بل » ثم ابتدئ « ران » وقفا بين اللام لا للسكت .

قوله تعالى : (كَلَّا إِنَّهُمْ) أى حقاً « إنهم » يعنى الكفار (عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ) أى يوم القيامة (لَمْ يَحْجُبُونَ) . وقيل : « كَلَّا » ردع وزجر أى ليس كما يقولون بل « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمْ يَحْجُبُونَ » . قال الزجاج : فى هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى فى القيامة ، ولولا ذلك ما كان فى هذه الآية فائدة ولا خست منزلة الكفار بأنهم يُحْجَبُونَ . وقال جل ثناؤه : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » فأعلم الله جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون إليه ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه . وقال مالك بن أنس فى هذه الآية : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه . وقال الشافعى : لما حجب قوما بالسخط دل على أن قوما يرونه بالرضا . ثم قال : أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه فى المعاد لما عبده فى الدنيا . وقال الحسين بن الفضل : لما حجبهم فى الدنيا عن نور توحيده حجبهم فى الآخرة عن رؤيته . وقال مجاهد فى قوله تعالى « لَمْ يَحْجُبُونَ » : أى عن كرامته ورحمته ممنوعون . وقال قتادة : هو أن الله لا ينظر إليهم برحمته ولا يذكهم ولهم عذاب أليم . وعلى الأقل الجمهور وأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه . (ثُمَّ إِنَّهُمْ أَصَابُوا الْحَجِيمَ) أى

(١) فى اللسان : هو الختم ؛ أى الطبع على القلب هو الختم كما فى « اللسان » مادة « رين » .

ملازموها ومحترقون فيها غير خارجين منها ، « كَلَّمَ نَضَجَتْ جُلُودَهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا »
و « كَلَّمَ خَبَّتْ زِدَانُهُمْ سَعِيرًا » . ويقال : الجحيم الباب الرابع من النار . (ثُمَّ يُقَالُ) لهم
أى تقول لهم خزنة جهنم (هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ) رسل الله في الدنيا .

قوله تعالى : كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ

مَا عَلَيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيِّنَ) « كَلَّا » بمعنى حقا والوقف على
« تُكذِّبُونَ » . وقيل : أى ليس الأمر كما يقولون ولا كما ظنوا بل كتابهم في سجين وكتاب
المؤمنين في عليين . وقال مقاتل : كَلَّا أى لا يؤمنون بالعذاب الذى يصلون به . ثم استأنف
فقال : « إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ » مرفوع في عليين على قدر مرتبتهم . قال ابن عباس : أى
في الجنة . وعنه أيضا قال : أعمالهم في كتاب الله في السماء . وقال الضحاك ومجاهد وقتادة :
يعنى السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين . وروى ابن الأجلح عن الضحاك قال : هى سِدْرَةُ
المنتهى ينتهى إليها كل شىء من أمر الله لا يعدها ، فيقولون : رَبِّ ! عَبْدِكَ فلان ؛ وهو
أعلم به منهم ، فيأتيه كتاب من الله عز وجل مختم بأمانه من العذاب . فذلك قوله تعالى :
« كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ » . وعن كعب الأحبار قال : إن روح المؤمن إذا قبضت صعد
بها إلى السماء ، وفتحت لها أبواب السماء ، وتلقتها الملائكة بالبشرى ، ثم يخرجون معها حتى
ينتهوا إلى العرش ، فيخرج لهم من تحت العرش رَقٌّ فَيُرَقَّمُ وَيُخْتَمُ فِيهِ النِّجَاةُ مِنَ الْحِسَابِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَيَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ . وقال قتادة أيضا : « فِي عَلَيِّنَ » هى فوق السماء السابعة عند
قائمة العرش اليمنى . وقال البراء بن عازب قال النبي صلى الله عليه وسلم : « عَلَيُّونَ فِي السَّمَاءِ
السَّابِعَةِ تَحْتَ الْعَرْشِ » . وعن ابن عباس أيضا : هو لوح من زبرجدة خضراء معلق بالعرش
أعمالهم مكتوبة فيه . وقال الفراء : عَلَيُّونَ ارتفاع بعد ارتفاع . وقيل : عَلَيُّونَ أعلى
الأمكنة . وقيل : معناه علو في علو مضاعف كأنه لا غاية له ؛ ولذلك جمع بالواو والنون .

وهو معنى قول الطبري . قال الفراء : هو أسم موضوع على صفة الجمع ولا واحده من لفظه ؛ كقولك : عشرون وثلاثون والعرب إذا جمعت جمعا ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية قالوا في المذكر والمؤنث بالنون . وهو معنى قول الطبري . وقال الزجاج : إعراب هذا الأسم كإعراب الجمع كما تقول هذه قنّسرون ورأيت قنّسرين . وقال يونس النحوي : واحدها عِلِّيٌّ وَعِلِّيَّةٌ . وقال أبو الفتح : عِلِّيَّين جمع عِلِّيٍّ وهو فِعْلٌ من العُلُوِّ . وكان سبيله أن يقول عِلِّيَّةٌ كما قالوا للغرفة عِلِّيَّةٌ ؛ لأنها من العلوِّ ، فلما حذفت التاء من عِلِّيَّةٍ عوضوا منها الجمع بالواو والنون كما قالوا في أرضين . وقيل : إن عِلِّيَّين صفة للملائكة فإنهم الملائ الأعلَى ؛ كما يقال : فلان في بني فلان ؛ أي هو في جملتهم وعندهم . والذي في الخبر من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إن أهل عِلِّيَّين لينظرون إلى الجنة من كذا فإذا أشرف رجل من أهل عِلِّيَّين أشرفت الجنة لضياء وجهه فيقولون ما هذا النور فيقال أشرف رجل من أهل عِلِّيَّين الأبرار أهل الطاعة والصدق “ . وفي خبر آخر : ” إن أهل الجنة ليرون أهل عِلِّيَّين كما يرى الكوكب الدرّي في أفق السماء “ يدل على أن عِلِّيَّين أسم الموضع المرتفع . وروى ناس عن ابن عباس في قوله « عِلِّيَّين » قال : أخبر أن أعمالهم وأرواحهم في السماء الرابعة . ثم قال : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ) أي ما الذي أعلمك يا محمد أي شيء عِلِّيُّون على جهة التفعيم والتعظيم له في المنزلة الرفيعة . ثم فسره له فقال : (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) . وقيل : إن « كِتَابٌ مَّرْقُومٌ » ليس تفسيرا لعِلِّيَّين بل تمّ الكلام عند قوله « عِلِّيُّون » ثم ابتدأ وقال : « كِتَابٌ مَّرْقُومٌ » أي كتاب الأبرار كتاب مرقوم ؛ ولهذا عكس الرقم في كتاب الفجار ؛ قاله القشيري . وروى : أن الملائكة تصعد بعمل العبد ، فإذا آتتوا به إلى ما شاء الله من سلطانه أوحى إليهم : إنكم الحفظة على عبدى وأنا الرقيب على ما في قلبه ، وأنه أخلص لي عمله فاجعلوه في عِلِّيَّين فقد غفرت له ، وأنها لتصعد بعمل العبد فيكونه فإذا آتتوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم : أنتم الحفظة على عبدى وأنا الرقيب على ما في قلبه وأنه لم يخلص لي عمله ، فاجعلوه في سجين .

قوله تعالى : ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء من الملائكة .
وقال وهب وابن إسحاق : المقربون هنا إسرافيل عليه السلام ، فإذا عمل المؤمن عمل البر
صعدت الملائكة بالصحيفة وله نور يتلألأ في السموات كنور الشمس في الأرض حتى
ينتهى بها إلى إسرافيل فيختم عليها ويكتب فهو قوله : « يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ » أى يشهد كتابتهم .

قوله تعالى : إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٣﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٤﴾
تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٥﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٦﴾
خَتَمَهُ مِنْ مَسْكِ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٧﴾ وَمِرَاجُهُ مِنَ
تَسْنِيمٍ ﴿٢٨﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴾ أى أهل الصدق والطاعة . ﴿ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ أى نعمة والنعمة
بالفتح التنعيم ؛ يقال : نعمه الله وناعمه فتنعم وأمرأة منعمة ومناعمة بمعنى . أى إن الأبرار
في الجنات يتنعمون . ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ وهى الأسرة في المجال ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ أى إلى ما أعد
الله لهم من الكرامات ؛ قاله عكرمة وابن عباس ومجاهد . وقال مقاتل : ينظرون إلى أهل
النار . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ينظرون إلى أعدائهم في النار » ذكره المهدوى .
وقيل : على أرائك أفضاله ينظرون إلى وجهه وجلاله .

قوله تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أى بهجته وغضارته ونوره ؛ يقال :
أنضر النبات إذا أزهر وتور . وقراءة العامة « تَعْرِفُ » بفتح التاء وكسر الراء « نَضْرَةَ »
نصباً ؛ أى تعرف يا محمد . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ويعقوب وشيبة وابن أبي إسحاق :
« تَعْرِفُ » بضم التاء وفتح الراء على الفعل المجهول « نَضْرَةُ » رفعا . ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ ﴾
أى من شراب لا غش فيه . قاله الأخفش والزجاج . وقيل : الرحيق الخمر الصافية .
وفي الصحاح : الرحيق صفوة الخمر . والمعنى واحد . الخليل : أقصى الخمر وأجودها . وقال
مقاتل وغيره : هى الخمر العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة ؛ قال حسان :
(١) كذا في الأصول كلها ولعل الصواب : أقصى الخمر .

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ * بَرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسِلِ^(١)

وقال آخر:^(٢)

أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ وَذِكْرُهُ * أَشْهَى إِلَى مِنَ الرَّحِيقِ السَّلْسِلِ

(مَخْتَوْمٌ خَتَامُهُ مِسْكٌ) قال مجاهد: يختم به آخر جرعة. وقيل: المعنى إذا شربوا هذا الرحيق ففنى ما في الكأس آنختم ذلك بخاتم المسك. وكان ابن مسعود يقول: يجدون عاقبتها طعم المسك. ونحوه عن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي قالا: ختامه آخر طعمه. وهو حسن؛ لأن سبيل الأشرطة أن يكون الكدر في آخرها، فوصف شراب أهل الجنة بأن رائحة آخره رائحة المسك. وعن مسروق عن عبد الله قال: المختوم المزوج. وقيل: مختوم أى ختمت ومنعت عن أن يمسه ما س إلى أن يفك ختامها الأبرار. وقرأ على وعلقمة وشقيق والضحاك وطاوس والكسائي «خاتمه» بفتح الخاء والتاء وألف بينهما. قال علقمة: أما رأيت المرأة تقول للعطار أجعل خاتمه مسكا تريد آخره. والخاتم والختام متقاربان في المعنى إلا أن الخاتم الأعم والختام المصدر؛ قاله انصاري. وفي الصحاح: والختام الطين الذي يختم به. وكذا قال مجاهد وابن زيد: ختم إناؤه بالمسك بدلا من الطين. حكاه المهدوي. وقال الفرزدق:

* وَبِتْ أَفْضُ أَفْوَاقِ الْخِتَامِ^(٣)

وقال الأعشى:

* وَأَبْرَزَهَا وَعَلَيْهَا خَتْمٌ^(٤)

أى عليها طينة مخدومة؛ مثل نقيض بمعنى منقوض وقبض بمعنى مقبوض. وذكر ابن المبارك وابن وهب واللفظ لابن وهب عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى «خَتَامُهُ مِسْكٌ» خَلَطَهُ لَيْسَ بِخَتَامٍ يَخْتَمُ، ألا ترى إلى قول المرأة من نسائك: إن خلطه من الطيب كذا وكذا

(١) تقدم شرح البيت بهامش ص ١٤١ من هذا الجزء. (٢) هو أبو كبير الهذلي.

(٣) صدر البيت: * فبتن جنابى مصرعات

(٤) صدره: * وصباها طاف يهوديها

إنما خلطه مسك؛ قال : شراب أبيض مثل الفضة يخمون به آخر أشربتهم ، لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها . وروى أبي بن كعب قال : قيل يارسول الله ما الرحيق المختوم ؟ قال : « غُذْرَانِ الخمر » . وقيل : مختوم في الآنية وهو غير الذي يجري في الأنهار . فالله أعلم . (وفي ذلك) أى وفي الذى وصفناه من أمر الجنة (فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) أى فليرغب الراغبون ؛ يقال : تَنَسَّطُ عليه الشيء ، أَنَفَسَهُ نَفَاسَةً أى ضَيَّنْت به ولم أحب أن يصير إليه . وقيل : الفاء بمعنى إلى أى وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون في العمل ؛ نظيره : « لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ » . (وَمِزَاجُهُ) أى ومزاج ذلك الرحيق (مِنْ تَسْنِيمٍ) وهو شراب ينصب عليهم من علو وهو أشرف شراب في الجنة . وأصل التَّسْنِيمِ في اللغة الأرتفاع ، فهى عين ماء تجرى من علو إلى أسفل ؛ ومنه سنام البعير لعلوه من بدنه ، وكذلك تسنيم القبور . وروى عن عبد الله قال : تسنيم عين في الجنة يشرب بها المقربون صرفا ، ويمزج منها كأس أصحاب اليمين فتطيب . وقال ابن عباس في قوله عز وجل : « وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ » قال : هذا مما قال الله تعالى « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . وقيل : التسنيم عين تجرى في الهواء بقدره الله تعالى فتصب في أواني أهل الجنة على قدر ملئها ، فإذا امتلأت أمسك الماء فلا تقع منه قطرة على الأرض ولا يحتاجون إلى الاستقاء ؛ قاله قتادة . ابن زيد : بلغنا أنها عين تجرى من تحت العرش . وكذا في مراسيل الحسن : وقد ذكرناه في سورة « الإنسان » . (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) أى يشرب منها أهل جنة عدن وهم أفاضل أهل الجنة صرفا ، وهى لغيرهم مزاج . و « عَيْنًا » نصب على المدح . وقال الزجاج : نصب على الحال من تسنيم ، وتسنييم معرفة ليس يعرف له اشتقاق ، وإن جعلته مصدرا مشتقا من السنام فـ « عَيْنًا » نصب ؛ لأنه مفعول به ؛ كقوله تعالى : « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا » وهذا قول الفراء إنه منصوب بتسنيم . وعند الأخفش بـ « يُسْقَوْنَ » أى يسقون عينا أو من عين . وعند المبرد بإضمار أعنى على المدح .

(١) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء فابعدا .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ** ﴿٣٩﴾
وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٤٠﴾ **وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا**
فَكَهِينٌ ﴿٤١﴾ **وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ** ﴿٤٢﴾ **وَمَا أُرْسِلُوا**
عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٤٣﴾ **فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ** ﴿٤٤﴾
عَلَىٰ الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٤٥﴾ **هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : **(إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا)** وصف أرواح الكفار في الدنيا مع المؤمنين باستهزائهم بهم والمراد رؤساء قريش من أهل الشرك . روى ناس عن ابن عباس قال : هو الوليد بن المغيرة وعقبة بن أبي معيط والعاص بن وائل والأسود بن عبد يغوث والعاص ابن هشام وأبو جهل والنضر بن الحرث وأولئك **(كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا)** من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مثل عمار وخباب وصهيب وبلال **(يَضْحَكُونَ)** على وجه السخرية **(وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ)** عند إتيانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم **(يَتَغَامِرُونَ)** يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم . وقيل : أى يعيرونهم بالإسلام ويعيبونهم به ، يقال : غمزت الشيء بىدى ، قال :

وَكُنْتُ إِذَا غَمَزْتُ قَنَاةَ قَوْمٍ * كَسَرْتُ كَعُوبَهَا أَوْ تَسْتَقِيمًا

وقالت عائشة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سجد غمزنى فقبضت رجلى . الحديث ، وقد مضى فى « النساء » . وغمزته بعينى . وقيل : الغمز بمعنى العيب يقال غمزه أى عابه ، وما فى فلان غمزة أى عيب . وقال مقاتل : نزلت فى على بن أبى طالب جاء فى نفر من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلمزهم المنافقون وضحكوا عليهم وتغامزوا . **(وَإِذَا أَنْقَلَبُوا)** أى أنصرفوا إلى أهلهم وأصحابهم وذويهم **(أَنْقَلَبُوا فَكَهِينٌ)** أى معجبين منهم . وقيل : معجبون بما هم عليه من الكفر متفكّهون بذكر المؤمنين . وقرأ ابن القعقاع وحفص والأعرج والسلمى : « فَكَهِينٌ » بغير ألف . الباقرن بألف . قال الفراء : هما لغتان مثل

(١) راجع ج ٥ ص ٢٢٦ فابعدا .

طَمِعُ وَطَامِعٌ وَحَازِرٌ وَحَازِرٌ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ «الدُّخَانِ» وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . وَقِيلَ : الْفَكْهَ الْأَشْرَ
 الْبَطْرُ وَالْفَاكَةُ النَّاعِمُ الْمُنْتَعِمُ . (وَإِذَا رَأَوْهُمْ) أَي إِذَا رَأَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ) فِي أَتْبَاعِهِمْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (وَمَا أُرْسِلُوا
 عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ) لِأَعْمَالِهِمْ مُوَكَّلِينَ بِأَحْوَالِهِمْ رِقْبَاءَ عَلَيْهِمْ (فَالْيَوْمَ) يَعْنِي هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي هُوَ
 يَوْمُ الْقِيَامَةِ (الَّذِينَ آمَنُوا) بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) كَمَا ضَحِكَ
 الْكُفَّارُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا . نَظِيرُهُ فِي آخِرِ سُورَةِ « الْمُؤْمِنِينَ » وَقَدْ تَقَدَّمَ . وَذَكَرَ ابْنُ الْمُبَارَكِ :
 أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ »
 قَالَ : ذَكَرْنَا أَنَّ كَعْبًا كَانَ يَقُولُ إِنَّ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ كُوَيْ ، فَإِذَا أَرَادَ الْمُؤْمِنُ أَنْ يَنْظُرَ
 إِلَى عَدُوِّكَ كَانَ لَهُ فِي الدُّنْيَا أَطْلَعُ مِنْ بَعْضِ الْكُوَيْ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ أُخْرَى : « فَأَطَّلَعَ
 فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ » قَالَ : ذَكَرْنَا أَنَّهُ أَطَّلَعَ فَرَأَى جَمَاعِمَ الْقَوْمِ تَغْلِي . وَذَكَرَ ابْنُ الْمُبَارَكِ
 أَيْضًا : أَخْبَرَنَا الْكَلْبِيُّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى « اللَّهُ يُسْتَهْزِئُ بِهِمْ » قَالَ : يُقَالُ لِأَهْلِ
 النَّارِ وَهُمْ فِي النَّارِ أَخْرَجُوا فَتَفْتَحَ لَهُمْ أَبْوَابُ النَّارِ ، فَإِذَا رَأَوْهَا قَدْ فَتَحَتْ أَقْبَلُوا إِلَيْهَا يَرِيدُونَ
 الْخُرُوجَ وَالْمُؤْمِنُونَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ عَلَى الْأَرَائِكِ ، فَإِذَا أَتَوْهَا إِلَى أَبْوَابِهَا غَلَقَتْ دُونَهُمْ ؛ فَذَلِكَ
 قَوْلُهُ : « اللَّهُ يُسْتَهْزِئُ بِهِمْ » وَيَضْحَكُ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ حِينَ غَلَقَتْ دُونَهُمْ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :
 « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » . (عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . هَلْ تُوبَ الْكُفَّارُ
 مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) وَقَدْ مَضَى هَذَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ « الْبَقَرَةِ » . وَمَعْنَى « هَلْ تُوبَ » أَي هَلْ
 جُوزِيَ بِسُخْرِيَّتِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِالْمُؤْمِنِينَ إِذَا فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ . وَقِيلَ : إِنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِـ « يَنْظُرُونَ »
 أَي يَنْظُرُونَ هَلْ جُوزِيَ الْكُفَّارُ فَيَكُونُ مَعْنَى هَلْ [التَّقْرِيرِ] وَمَوْضِعُهَا نَصْبًا بِـ « يَنْظُرُونَ » .
 وَقِيلَ : أَسْتِثْنَاهُ لَا مَوْضِعَ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ . وَقِيلَ : هُوَ إِضْمَارٌ عَلَى الْقَوْلِ ، وَالْمَعْنَى ؛ يَقُولُ
 بِمَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ لِبَعْضِ « هَلْ تُوبَ الْكُفَّارُ » أَي أَثِيبُ وَجُوزِي . وَهُوَ مِنْ ثَابَ يَثُوبُ
 أَي رَجَعَ ؛ فَالثَّوَابُ مَا يَرْجَعُ عَلَى الْعَبْدِ فِي مَقَابَلَةِ عَمَلِهِ وَيَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ . خَتَمْتُ
 السُّورَةَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(١) راجع ج ١٦ ص ١٣٩ (٢) راجع ج ١٢ ص ١٥٥ (٣) راجع ج ١ ص ٢٠٨

سورة الانشقاق

مكية في قول الجميع وهي خمس وعشرون آية

قوله تعالى : إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾
وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَكَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا
وَحُقَّتْ ﴿٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : (إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ) أى انصدعت وتفطرت بالغمام والغمام مثل
السحاب الأبيض . وكذا روى أبو صالح عن ابن عباس . وروى عن عليّ عليه السلام
قال : تشقّ من المجرة . وقال : المجرة باب السماء . وهذا من أشرط الساعة وعلاماتها .
(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) أى سمعت وحق لها أن تسمع . روى معناه عن ابن عباس
ومجاهد وغيرهما ؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " ما أذن الله لشيء كإذنه لنبيّ يتغنى
بالقرآن " أى ما أستمع الله لشيء ؛ قال الشاعر :

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ * وَإِنْ ذُكِرْتُ سُوءًا عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

أى سمعوا . وقال قنن بن أمّ صاحب :

إِنْ يَأْذِنُوا رِيْبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا * وَمَا هُمْ أَذِنُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

وقيل : المعنى وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق . وقال الضحاك : حُقَّتْ أطاعت
وَحُقُّ لها أن تطيع ربها لأنه خلقها ؛ يقال : فلان محقوق بكذا . وطاعة السماء بمعنى أنها
لا تمتنع مما أراد الله بها . ولا يبعد خلق الحياة فيها حتى تطيع وتجب . وقال قتادة : حُقُّ لها
أن تفعل ذلك ؛ ومنه قول كثير :

فَإِنْ تَكُنِ الْعُتْبَى فَاَهْلًا وَمَرْحَبًا * وَحُقَّتْ لَهَا الْعُتْبَى لَدَيْنَا وَقَلَّتْ

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أى بسطت ودكت جبالها . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " تُمَدُّ مَدَّ الْأَدِيمِ " لأن الأديم إذا مَدَّ زال كل أنثناء فيه وأمتد وأستوى . وقال ابن عباس وابن مسعود : ويزاد في سعتها كذا وكذا ؛ لوقوف الخلائق عليها للحساب حتى لا يكون لأحد من البشر إلا موضع قدمه لكثرة الخلائق فيها . وقد مضى في سورة «إبراهيم» أن الأرض تبديل بأرض أخرى وهى الساهرة فى قول ابن عباس على ما تقدم عنه . ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أى أخرجت أمواتها وتخلت عنهم . وقال ابن جبير : أَلْقَتْ ما فى بطنها من الموتى وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء . وقيل : أَلْقَتْ ما فى بطنها من كنوزها ومعادنها وتخلت منها . أى خلا جوفها فليس فى بطنها شىء وذلك يؤذن بعظم الأمر كما تلقى الحامل ما فى بطنها عند الشدة . وقيل : تخلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها . وقيل : أَلْقَتْ ما أستودعت وتخلت مما أستحفظت ؛ لأن الله تعالى أستودعها عباده أحياء وأمواتا ، وأستحفظها بلاده مزارعة وأقواتا . ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أى فى إلقاء موتاتها ﴿ وَحَقَّتْ ﴾ أى وحق لها أن تسمع أمره . وأختلف فى جواب «إذا» فقال الفراء : «أَذِنَتْ» والواو زائدة ، وكذلك «وَأَلْقَتْ» . ابن الأنبارى : قال بعض المفسرين جواب «إذا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ» «أَذِنَتْ» وزعم أن الواو مقحمة وهذا غلط ؛ لأن العرب لاتقحم الواو إلا مع «حتى» — إذا «كقوله تعالى : «حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» ومع «لَمَّا» كقوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » معناه «نَادَيْنَاهُ» والواو لاتقحم مع غير هذين . وقيل : الجواب فاء مضمرة كأنه قال : « إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ » فأيها الإنسان إنك كادح . وقيل : جوابها ما دل عليه «فَمَلَّاقِيهِ» أى إذا السماء أنشقت لافى الإنسان كدحه . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أى « يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَّاقِيهِ » « إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ » قاله المبرد . وعنه أيضا : الجواب « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » وهو قول الكسائى ؛ أى إذا السماء أنشقت فمن أوتى كتابه يمينه فحكه كذا . قال أبو جعفر النحاس : وهذا أصح

(۱) راجع ج ۹ ص ۳۸۳ .

ما قيل فيه وأحسنه . وقيل : هو بمعنى أذكر « إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ » . وقيل : الجواب محذوف لعلم المخاطبين به ؛ أى إذا كانت هذه الأشياء علم المكذوبون بالبعث ضلالتهم وخسرانهم . وقيل : تقدم منهم سؤال عن وقت القيامة ، فقيل لهم : إذا ظهرت أشراتها كانت القيامة فرأيتم عاقبة تكذيبكم بها . والقرآن كآلية الواحدة في دلالة البعض على البعض . وعن الحسن : إن قوله « إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ » قسم . والجمهور على خلاف قوله من أنه خبر وليس بقسم .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا) المراد بالإنسان الجنس أى يابن آدم . وكذا روى سعيد عن قتادة : يابن آدم إن كدحك لضعيف فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليعمل ولا قوة إلا بالله . وقيل : هو معين ؛ قال مقاتل : يعنى الأسود بن عبد الأسد . ويقال : يعنى أبى بن خلف . ويقال : يعنى جميع الكفار ؛ يعنى يابها الكافر إنك كادح . والكدح في كلام العرب العمل والكسب ؛ قال ابن مقبل :
وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا * أَمُوتُ وَأُخْرَىٰ أَبْتغِي العَيْشَ أَكْدَحُ
وقال آخر :

وَمَضَتْ بِسَاشَةِ كُلِّ عَيْشٍ صَالِحٍ * وَبَقِيَتْ أَكْدَحُ لِلْحَيَاةِ وَأَنْصَبُ

أى أعمل . وروى الضحاك عن ابن عباس : « إِنَّكَ كَادِحٌ » أى راجع « إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا » أى رجوعاً لا محالة « فَمُلَاقِيهِ » أى ملاقي ربك . وقيل : ملاقي عمالك . القتيبي : « إِنَّكَ كَادِحٌ » أى عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك . والملافة بمعنى اللقاء أى تلقى ربك بعملك . وقيل : أى تلاقى كتاب عمالك ؛ لأن العمل قد أنقضى ولهذا قال : « فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ » .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ ﴾ وهو المؤمن ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ لا مناقشة فيه . كذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حوسب يوم القيامة عُدب " قالت : فقلت يا رسول الله أليس قد قال الله « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا » فقال : " ليس ذلك الحساب إنما ذلك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عُدب " أخرجه البخارى ومسلم والترمذى . وقال حديث حسن صحيح . ﴿ وَيُنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أزواجه فى الجنة من الحور العين « مسرورًا » أى معتبطا قرير العين . ويقال : إنها نزلت فى أبى سلمة ابن عبد الأسد وهو أول من هاجر من مكة إلى المدينة . وقيل : إلى أهله الذين كانوا له فى الدنيا ليخبرهم بخلاصه وسلامته . والأول قول قتادة . أى إلى أهله الذين قد أعدهم الله له فى الجنة .

قوله تعالى : وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿ ١٠ ﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿ ١١ ﴾ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴿ ١٢ ﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿ ١٣ ﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿ ١٤ ﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿ ١٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ نزلت فى الأسود بن عبد الأسد أخى أبى سلمة ، قاله ابن عباس . ثم هى عامة فى كل مؤمن وكافر . قال ابن عباس : يمد يده اليمنى لياخذ كتابه فيجذبه مَلَكٌ فيخلع يمينه ، فيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره . وقال قتادة ومقاتل : يفسك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك . ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴾ أى بالهلاك فيقول : يا ويلاه يا ثبوراه . ﴿ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴾ أى ويدخل النار حتى يصلى بجزها . وقرا الحرميان وأبن عامر والكسائى « وَيُصَلِّي » بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام ، كقوله تعالى : « ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوهُ » وقوله : « وَتَصَلِّيَةُ جَحِيمٍ » . الباقون « وَيَصَلِّي » بفتح الياء مخففاً فعل لازم غير متعد ؛ لقوله : « إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ » وقوله : « يُصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى » وقوله : « ثُمَّ لَهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ » . وقراءة ثالثة رواها أبان

عن عاصم وخارجة عن نافع وإسماعيل المكي عن ابن كثير « وَيُصَلِّي » بضم الياء وإسكان الصاد وفتح اللام مخففاً ؛ كما قرئ « وَيُصَلُّونَ » بضم الياء ، وكذلك في « الغاشية » قد قرئ أيضاً : « تُصَلِّي نَارًا » وهما لغتان صلي وأصلي ؛ كقوله : « نَزَلَ . وَأَنْزَلَ » . ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ ﴾ أي في الدنيا ﴿ مَسْرُورًا ﴾ قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالخفاة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة ، وقرأ قول الله تعالى : « إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السُّمُومِ » قال : ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها والتفكه فقال : « إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا » . ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ أي لن يرجع حيا مبعوثا فيحاسب ثم يثاب أو يعاقب . يقال : حار يحور إذا رجع ؛ قال لبيد :

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْئِهِ * يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ

وقال عكرمة وداود بن أبي هند : يحور كلمة بالحبشية ومعناها يرجع . ويجوز أن تتفق الكلمتان فإنهما كلمة اشتقاق ؛ ومنه الخبر الحواري ؛ لأنه يرجع إلى البياض . وقال ابن عباس : ما كنت أدري ما يحور حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها حوري حوري أي أرجعي إلي ، فالحوور في كلام العرب الرجوع ؛ ومنه قوله عليه السلام : « اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور » يعني من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة . وكذلك الحور بالضم . وفي المثل « حور في محارة » أي نقصان في نقصان يضرب للرجل إذا كان أمره يدبر ؛ قال الشاعر :^(١)

وَأَسْتَعْجَلُوا عَن خَفِيفِ الْمَضْغِ فَازْدَرَدُوا * وَالذَّمُّ يَبْقَى وَزَادُ الْقَوْمِ فِي حُورِ

والحور أيضا الأسم من قولك : طحنت الطاحنة فما أحات شيئا ؛ أي ما ردت شيئا من الدقيق . والحور أيضا الهلكة ؛ قال الراجز :^(٢)

* فِي بَيْرٍ لَا حُورَ مَسْرَى وَلَا شَعْرَ *

(١) فائله -بيع بن الخطيم ؛ يريد الأكل يذهب والنم يبق .

(٢) هو العجاج .

قال أبو عبيدة : أى بَرْحُورٍ ، و « لا » زائدة . وروى " بَعْدَ الْكُونِ " ^(١) ومعناه من
انتشار الأمر بعد تمامه . وسُئِلَ مَعْمَرٌ عَنِ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُونِ فَقَالَ : هُوَ الْكُنْتِي . فقال
له عبد الرزاق : وما الْكُنْتِي ؟ فقال : الرجل يكون صالحاً ثم يتحول رجل سوء . قال
أبو عمرو : يقال للرجل إذا شاخ كُنْتِي كأنه نسب إلى قوله : كُنْتُ فِي شِبَابِي كَذَا . قال :
فَأَصْبَحْتُ كُنْتِيًّا وَأَصْبَحْتُ عَاجِئًا * وَشَرُّ خِصَالِ الْمَرْءِ كُنْتُ وَعَاجِئٌ

عجن الرجل إذا نهض معتمدا على الأرض من الكبر . وقال ابن الأعرابي : الْكُنْتِي هُوَ الَّذِي
يقول كُنْتُ شَابًا وَكُنْتُ شَجَاعًا ، وَالْكَانِي هُوَ الَّذِي يَقُولُ : كَانَ لِي مَالٌ وَكُنْتُ أَهْبًا ، وَكَانَ
لِي خَيْلٌ وَكُنْتُ أَرْكَبًا .

قوله تعالى : (بَلَى) أى ليس الأمر كما ظن بل يحور إلينا ويرجع . (إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ
بَصِيرًا) قبل أن يخلقه عالماً بأن مرجعه إليه . وقيل : بلى ليحورن ويرجعن . ثم استأنف
فقال : « إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا » من يوم خلقه إلى أن بعثه . وقيل : عالماً بما سبق له
من الشقاء والسعادة .

قوله تعالى : فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ
إِذَا آتَقَتْ ﴿١٨﴾ لَتَرَكِبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾
وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ) أى فاقسم و « لا » صلة . (بِالشَّفَقِ) أى بالحمرة التى
تكون عند مغيب الشمس حتى تانى صلاة العشاء الآخرة . قال أشهب وعبد الله بن الحكم
ويحيى بن يحيى وغيرهم كثير عددهم عن مالك : الشَّفَقُ الحمرة التى فى المغرب ، فإذا ذهب
الحمرة فقد خرجت من وقت المغرب ووجبت صلاة العشاء . وروى ابن وهب قال : أخبرني
غير واحد عن علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وعبيدة بن الصامت وشذاد بن أوس

(١) الكون هنا : مصدر كان النامة يقال : كان يكون كونا أى وجد وأسفر . (النهاية) .

وأبي هريرة أن الشَّفَقَ الحُمْرَةَ ، وبه قال مالك بن أنس . وذكر غيرُ ابن وهب من الصحابة عُمرُ وابنُ عُمرُ وابنُ مسعودُ وابنُ عباسٍ وأنسًا وأبا قتادة وجابر بن عبد الله وابن الزبير ، ومن التابعين سعيد بن جبير وابن المسيب وطاوس وعبد الله بن دينار والزهرى ، وقال به من الفقهاء الأوزاعي ومالك والشافعي وأبو يوسف وأبو ثور وأبو عبيد وأحمد وإسحق . وقيل : هو البياض ؛ روى ذلك عن ابن عباس وأبي هريرة أيضا وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي وأبي حنيفة في إحدى الروايتين عنه . وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه . وروى عن ابن عمر أيضا أنه البياض والأختيار الأول ؛ لأن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء عليه ؛ ولأن شواهد كلام العرب والاشتقاق والسنة تشهد له . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول لثوب عليه مصبوغ كأنه الشَّفَقُ وكان أحمر فهذا شاهد للحُمْرَةِ ؛ وقال الشاعر :

* وَأَحْمَرُ اللَّوْنِ كَحُمْرِ الشَّفَقِ *

وقال آخر :

قُمْ يَا غَلَامُ أَعْنِي غَيْرَ مُرْتَبِكٍ * عَلَى الزَّمَانِ بِكَأْسِ حَشْوِهَا شَفَقُ

ويقال للغمرة الشَّفَقُ . وفي الصحاح : الشَّفَقُ بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب من العتمة . قال الخليل : الشَّفَقُ الحُمْرَةُ من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة إذا ذهب قيل غاب الشَّفَقُ . ثم قيل : أصل الكلمة من رِقَّةِ الشَّيْءِ ؛ يقال : شَيْءٌ شَفِيقٌ أى لا تماسك له لِرِقَّتِهِ . وأشفق عليه أى رَقَّ قلبه عليه ، والشَّفَقَةُ الأَسْمُ من الإشفاق وهو رِقَّةُ القلب وكذلك الشَّفَقُ ؛ قال الشاعر :

تَهَوَى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقًا * وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحُرَمِ

فالشَّفَقُ بقية ضوء الشمس وحمرتها فكان تلك الرقعة من ضوء الشمس . وزعم الحكماء أن البياض لا يغيب أصلا . وقال الخليل : صعدت منارة الإسكندرية فرمقت البياض فرأيته يتردد من أفق إلى أفق ولم أره يغيب . وقال ابن أبي أويس : رأيتَه يتمادى إلى طلوع الفجر .

(١) هو إسحق بن خلف . وقيل هو لابن المعل . اللسان .

قال علماءنا : فلما لم يتحدد وقته سقط أعتباره . وفي سنن أبي داود عن النعمان بن بشير قال :
 أنا أعلمكم بوقت صلاة العشاء الآخرة ؛ كان النبي صلى الله عليه وسلم يصليها لسقوط القمر
 لثالثة . وهذا تحديد ثم الحكم معلق بأول الأسم . لا يقال : فينتقض عليكم بالفجر الأول
 فإننا نقول الفجر الأول لا يتعلق به حكم من صلاة ولا إمساك ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم
 بين الفجر بقوله وفعله فقال : " وليس الفجر أن تقول هكذا — فرفع يده إلى فوق —
 ولكن الفجر أن تقول هكذا وبسطها " وقد مضى بيانه في آية الصيام من سورة « البقرة »^(۱)
 فلا معنى للإعادة . وقال مجاهد : الشفق النهار كله ألا تراه قال « وَاللَّيْلُ وَمَا وَسَقَ » . وقال
 عكرمة : ما بقي من النهار ، والشفق أيضا الرديء من الأشياء ؛ يقال : عطاء مُشَفَّقٌ أى مُقَلَّلٌ ؛
 قال الكُمَيْتُ :

مَلِكٌ أَغْرَثَ مِنَ الْمَلُوكِ تَحَلَّبَتْ * لِلسَّائِلِينَ يَدَاهُ غَيْرَ مُشَفَّقِي

قوله تعالى : (وَاللَّيْلُ وَمَا وَسَقَ) أى جمع وضم ولف وأصله من سورة السلطان
 وغضبه ؛ فلولا أنه خرج إلى العباد من باب الرحمة ما تمالك العباد لمجيئه ، ولكن خرج من
 باب الرحمة فمزح بها فسكن الخلق إليه ثم أذعروا وألتفوا وأنقبضوا ورجع كل إلى مأواه
 فسكن فيه من هويله وحشأ ، وهو قوله تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلْتُ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا
 فِيهِ » أى بالليل « وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » أى بالنهار على ما تقدم . فالليل يجمع ويضم ما كان
 منتشرا بالنهار فى تصرفه . هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل وغيرهم ؛ قال ضابئ
 ابن الحرث البرجمي :

فَأَنى وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقًا إِلَيْكُمْ * كَقَابِضِ مَاءٍ لَمْ تَسْقَهُ أَنَامِلُهُ

يقول : ليس فى يدي من ذلك شىء كما أنه ليس فى يد القابض على الماء شىء ؛ فإذا جَلَل
 الليلُ الجبالَ والأشجارَ والبحارَ والأرضَ فأجتمعت له فقد وَسَقَهَا . والوَسَقُ ضمك الشىء

(۱) راجع ج ۲ ص ۳۱۸ فا بعدها .

بعضه إلى بعض ، تقول : وَسَقْتَهُ أَسْقَهُ وَسَقَا . ومنه قيل : للطعام الكثير المجتمع وَسَقٌ وهو ستون صاعا . وطعام موسوق أى مجموع ، وإبلٌ مستوسقة أى مجتمعة ؛ قال الراجز ^(١) :

إِن لَنَا قَلَائِصًا حَقَائِقًا * مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ تَجِدَنَّ سَائِقًا

وقال عكرمة : « وَمَا وَسَقَ » أى وما ساق من شىء إلى حيث يأوى ؛ فالوسقُ بمعنى الطرد ؛ ومنه قيل للطريدة من الإبل والغنم والحمر وسيقة ؛ قال الشاعر ^(٢) :

* كَمَا قَافَ آثَارَ الْوَسِيقَةِ فَائِفٌ *

وعن ابن عباس : « وَمَا وَسَقَ » أى وما جَنَّ وستر . وعنه أيضا : وما حمل وكل شىء حملته فقد وَسَقْتَهُ ؛ والعرب تقول : لا أفعله ما وَسَقْت عيني الماء ؛ أى حملته . ووسقت الناقة تَسِقُ وَسَقًا أى حملت وأغلقت رَحِمها على الماء ، فهى ناقة واسق ونوق وساق مثل نائم ونيام وصاحب وصحاب ؛ قال بشر بن أبي خازم :

الظُّيُومُ يَجِدُونَهُنَّ حَتَّى * تَبَيَّنَتِ الْجِيَالُ مِنَ الْوِسَاقِ

ومواسيق أيضا . وأوسقت البعير حملته حملة وأوسقت النخلة كثر حملها . وقال يمان والضحاك ومقاتل بن سليمان : حَمَلٌ مِنَ الظُّلْمَةِ . قال مقاتل : أو حمل من الكواكب . القشيري ومعنى حَمَلٌ ضَمٌّ وجمع والليل يجمل بظلمته كل شىء فإذا جَلَّهَا فقد وَسَقَهَا . ويكون هذا الْقَسَمُ قَسَمًا بِجَمِيعِ المخلوقات ؛ لأشتمال الليل عليها ؛ كقوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ » . وقال ابن جبير : « وَمَا وَسَقَ » أى وما عمل فيه يعنى التهجيد والأستغفار بالأشجار ؛ قال الشاعر :

وَيَوْمًا تَرَانَا صَالِحِينَ وَتَارَةً * تَقُومُ بِنَا كَالْوَسَاقِ الْمُتَابِبِ

أى كالعامل .

(١) هو العجاج كما فى اللسان مادة « وسق » .

(٢) قائله الأسود بن يعفر، صدره : * كذبت عليك لا تزال تقوفى *

قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ أى تم واجتمع وأستوى . قال الحسن : اتسق أى امتلا واجتمع . ابن عباس : استوى . قتادة : استدار . الفراء : اتساقه امتلاؤه وأستواؤه ليالى البدر وهو أفتعال من الوسق الذى هو الجمع ؛ يقال : وسقته فأتسق ، كما يقال : وصلته فأتصل ، ويقال : أمر فلان مُتْسِق أى مجتمع على الصلاح منتظم . ويقال : اتسق الشيء إذا تتابع . ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قرأ أبو عمرو وابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومسروق وأبو وائل ومجاهد والنخعي والشعبي وابن كثير وحزمة والكسائي « لَتَرْكَبَنَّ » بفتح الباء خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم أى لتركبن يا محمد حالا بعد حال ؛ قاله ابن عباس . الشعبي : لتركبن يا محمد سماء بعد سماء ، ودرجة بعد درجة ، ورتبة بعد رتبة فى القربة من الله تعالى . ابن مسعود : لتركبن السماء حالا بعد حال ؛ يعنى حالاتها التى وصفها الله تعالى بها من الأشتاق والطمى وكونها مرة كالمُهْل ومرة كالدهان . وعن إبراهيم عن عبد الله : « طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » قال : السماء تقلب حالا بعد حال . قال : تكون وردة كالدهان وتكون كالمُهْل . وقيل : أى لتركبن أيها الإنسان حالا بعد حال من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حيا وميتا وغنيا وفقيرا . فالخطاب للإنسان المذكور فى قوله : « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ » وهو أسم بلجس ومعناه الناس . وقرأ الباقون « لَتَرْكَبَنَّ » بضم الباء خطابا للناس وأختره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ قال : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لما ذكر قبل هذه الآية فمن يؤتى كتابه يمينه ومن يؤتى كتابه بشماله . أى لتركبن حالا بعد حال من شدايد القيامة ، أو لتركبن سنة من كان قبلكم فى التكذيب واختلاق على الأنبياء .

قلت : وكله مراد وقد جاءت بذلك أحاديث^(١) ؛ فروى أبو نعيم الحافظ عن جعفر بن محمد بن على عن جابر رضى الله عنه ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن ابن آدم انهى غفلة عما خلقه الله عز وجل إن الله لا إله غيره إذا أراد خلقه قال للملك أكتب رزقه وأثره وأجله وأكتبه شقيا أو سعيدا ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكا

(١) راجع ج ١٧ ص ١٤ .

آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته فإذا جاءه الموت أرتفع ذاك الملكان ثم جاءه ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أدخل حفرته رَدَّ الروح في جسده ثم يرتفع ملك الموت ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة أنحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فأنشطا كتابا معقودا في عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد " ثم قال الله عز وجل « لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَك فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَتَرَكِبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » قال : " حالا بعد حال " ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن قدامكم أمرا عظيما فاستعينوا بالله العظيم " فقد أشتمل هذا الحديث على أحوال تعترى الإنسان من حين يخلق إلى حين يبعث ، وكله شدة بعد شدة ، حياة ثم موت ، ثم بعث ثم جزاء ، وفي كل حال من هذه شدائد . وقال صلى الله عليه وسلم : " لَتَرَكِبَنَّ سِنَنٌ مِنْ قَبْلِكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ " قالوا : يا رسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : " فمن " ؟ نخرجه البخارى . وأما أقوال المفسرين ؛ فقال عكرمة :

حالا بعد حال ؛ فطيما بعد رضيع وشيخا بعد شباب ؛ قال الشاعر :

كَذَلِكَ الْمَرْءُ إِنْ يُنْسَأَلَهُ أَجَلٌ * يَرَكِبُ عَلَى طَبَقٍ مِنْ بَعْدِهِ طَبَقٌ

وعن مكحول : كل عشرين عاما تجدون أمرا لم تكونوا عليه . وقال الحسن : أمرا بعد أمر ؛ رخاء بعد شدة ، وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر ، وفقرا بعد غنى ، وصحة بعد سقم ، وسقما بعد صحة . سعيد بن جبیر : منزلة بعد منزلة ؛ قوم كانوا في الدنيا متضعين فأرتفعوا في الآخرة ، وقوم كانوا في الدنيا مرتفعين فاتضعوا في الآخرة . وقيل : منزلة عن منزلة وطبقا عن طبق ؛ وذلك أن من كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه ، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه ؛ لأن كل شيء يجر إلى شكله . ابن زيد : ولتصيرن من طبق الدنيا إلى طبق الآخرة . وقال ابن عباس : الشدائد والأهوال الموت ثم البعث ثم العرض ؛

(١) رواية البخارى " لتبعن " بدل " لتركبن " . (٢) في نسخة : طبقة .

والعرب تقول لمن وقع في أمر شديد : وقع في بنات طبق وإحدى بنات طبق ؛ ومنه قيل للداهية الشديدة : أم طبق وإحدى بنات طبق . وأصلها من الحيات ؛ إذ يقال للحية أم طبق لتحويتها . والطبق في اللغة الحال كما وصفنا ؛ قال الأقرع بن حابس التميمي :

إِنِّي أَمْرٌ قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ اشْطَرَهُ * وَسَافَنِي طَبَقٌ مِنْهُ إِلَى طَبَقِ

وهذا أدل دليل على حدوث العالم وإثبات الصانع ؛ قالت الحكماء : من كان اليوم على حالة وغدا على حالة أخرى فليعلم أن تدبيره إلى سواه . وقيل لأب بكر الوراق : ما الدليل على أن لهذا العالم صانعا ؟ فقال : تحويل الحالات ، وعجز القوة ، وضعف الأركان ، وقهر المنية ، ونسخ العزيمة . ويقال : أتانا طبق من الناس وطبق من الجراد أي جماعة . وقول العباس في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِيمٍ * إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَأَ طَبَقٌ

أي قرن من الناس . يكون طباق الأرض أي ملاءها . والطبق أيضا عظم رقيق يفصل بين الفقارين . ويقال : مضى طبق من الليل وطبق من النهار أي معظم منه . والطبق واحد الأطباق فهو مشترك . وقرئ « لَتَرَكِبَنَّ » بكسر الباء على خطاب النفس و « لَيْرَكِبَنَّ » بالياء على ليركبن الإنسان . و « عن طبقٍ » في محل نصب على أنه صفة لـ « طبقا » أي طبقا مجاوزا لطبق . أو حال من الضمير في « لَتَرَكِبَنَّ » أي لتركبن طبقا مجاوزين لطبق أو مجاوزا أو مجازة على حسب القراءة .

قوله تعالى : (قَمَّ لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) يعني أي شيء يمنعهم من الإيمان بعد ما وضحت لهم الآيات وقامت الدلالات . وهذا استفهام إنكار . وقيل : تعجيب أي أعجبوا منهم في ترك الإيمان مع هذه الآيات .

قوله تعالى : (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ) أي لا يصلون . وفي الصحيح : إن أبا هريرة قرأ « إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ » فسجد فيها فلما أنصرف أخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها . وقد قال مالك : إنها ليست من عزائم السجود ؛ لأن المعنى

لا يدعون ولا يطيعون في العمل بواجباته . ابن العربي : والصحيح أنها منه وهي رواية المدنيين عنه وقد اعتضد فيها القرآن والسنة . قال ابن العربي : لما أمت بالناس تركت قراءتها ؛ لأنني إن سجدت أنكروه وإن تركتها كان تقصيرا مني فاجتنبتها إلا إذا صليت وحدي . وهذا تحقيق وعيد الصادق بأن يكون المعروف منكرا والمنكر معروفا ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم لعائشة : "أولا حديثان قومك بالكفر لهدمت البيت ولرددته على قواعد إبراهيم" . ولقد كان شيخنا أبو بكر الفهري يرفع يديه عند الركوع وعند الرفع منه ، وهو مذهب مالك والشافعي ويفعله الشيعة ، فحضر عندي يوما في محرس ابن الشواء بالثغر - موضع تدريسي - عند صلاة الظهر ودخل المسجد من المحرس المذكور فتقدم إلى الصف وأنا في مؤخره قاعدا على طاقات البحر أتسم الريح من شدة الحر ، ومعي في صف واحد أبو ثمنة رئيس البحر وقائده مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة ويتطاع على مراكب تحت الميناء ، فلما رفع الشيخ يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه : ألا ترون إلى هذا المشرق كيف دخل مسجدنا؟ فقوموا إليه فاقتلو وآرموا به إلى البحر فلا يراكم أحد . فطارقني من بين جوانحي وقلت : سبحان الله هذا الطرطوسي فقيه الوقت . فقالوا لي : ولم يرفع يديه ؟ فقلت : كذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ، وهذا مذهب مالك في رواية أهل المدينة عنه . وجعلت أسكتهم وأسكتهم حتى فرغ من صلاته وقمت معه إلى المسكن من المحرس ، ورأى تغير وجهي فأنكره وسألني فأعلمته ، فضحك وقال : ومن أين لي أن أقتل على سنة؟ فقلت له : ولا يحل لك هذا فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك وربما ذهب دمك . فقال : دع هذا الكلام وخذ في غيره .

قوله تعالى : بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكذِّبُونَ ﴾ مجدا صلى الله عليه وسلم وما جاء به .
وقال مقاتل : نزلت في بني عمرو بن عمير وكانوا أربعة فأسلم آثنان منهم . وقيل : هي
في جميع الكفار . ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أى بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب . كذا
روى الضحاك عن ابن عباس . وقال مجاهد : يكتُمون من أفعالهم . ابن زيد : يجمعون
من الأعمال الصالحة والسيئة ، مأخوذ من الوعاء الذى يجمع ما فيه ، يقال : أوعيت الزاد
والمتاع إذا جعلته في الوعاء ، قال الشاعر :

الخير أبقي وإن طال الزمان به * والشر أخبت ما أوعيت من زاد

ووعاه أى حفظه ، تقول : وعيت الحديث أعيه وعباً وأذنً واعيية . وقد تقدم . ﴿ فبشرهم
بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ أى موجع في جهنم على تكذيبهم . أى أجعل ذلك بمنزلة البشارة . ﴿ إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ استثناء منقطع ، كأنه قال : لكن الذين صدقوا بشهادة أن لا إله
إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وعملوا الصالحات أى أدوا الفرائض المفروضة عليهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ
أَي ثَوَابٌ ﴾ ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى غير منقوص ولا مقطوع ، يقال : مننت الجبل إذا قطعته .
وقد تقدم . وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قوله « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » فقال :
غير مقطوع . فقال : هل تعرف ذلك العرب ؟ قال : نعم قد عرفه أخو يشكر حيث يقول :

فترى خائفهن من سرعة الرجاء * مع منيناً كأنه أهباء

قال المبرد : المنين الغبار ، لأنها تقطعه ورائها . وكل ضعيف منين وممنون . وقيل :
« غَيْرُ مَمْنُونٍ » لا يُمن عليهم به . وذكر ناس من أهل العلم أن قوله « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ » ليس استثناء وإنما هو بمعنى الواو ، كأنه قال : والذين آمنوا . وقد مضى
في « البقرة » القول فيه والحمد لله .

(۱) راجع ج ۱۸ ص ۲۶۳ (۲) راجع ج ۱۵ ص ۳۴۱ .

(۳) تقدم هذا البيت بلفظ : ترى خائفها من الرجوع والوقد * مع منيناً ... الخ .

(۴) راجع ج ۲ ص ۱۶۹ .

سورة البروج

مكية باتفاق . وهي ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾

قَسَمٌ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ جَلَّ وَعَزَّ . وفي «البروج» أقوال أربعة : أحدها - ذات النجوم ؛ قاله الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك . الثاني - القصور ؛ قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد أيضا . قال عكرمة : هي قصور في السماء . مجاهد : البروج فيها الحرس . الثالث - ذات الخلق الحسن ؛ قاله المنهال بن عمرو . الرابع - ذات المنازل ؛ قاله أبو عبيدة ويحيى ابن سلام . وهي اثنا عشر برجا ، وهي منازل الكواكب والشمس والقمر . يسير القمر في كل برج منها يومين وثلاث يوم ؛ فذلك ثمانية وعشرون يوما ، ثم يَسْتَسِيرُ^(١) ليلتين ؛ وتسير الشمس في كل برج منها شهرا . وهي : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت . والبروج في كلام العرب : القصور ؛ قال الله تعالى : « وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ » . وقد تقدم^(٢) .

قوله تعالى : وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾

قوله تعالى : (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ) أي الموعود به . وهو قَسَمٌ آخر ، وهو يوم القيامة ؛ من غير اختلاف بين أهل التأويل . قال ابن عباس : وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه . (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) اختلف فيهما ؛ فقال عليّ وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة رضي الله عنهم : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة . وهو قول الحسن .

(١) سر الشهر (بفتحين) : آخر ليلة منه ؛ وهو مشتق من قولهم : استسر القمر ؛ أي خفي ليلة السرار ؛ وربما كان

ليلة وربما كان ليلتين . (٢) راجع ج ٥ ص ٨٢

ورواه أبوهريرة مرفوعا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة ..." "خرجه أبو عيسى الترمذى فى جامعه وقال : هذا حديث [حسن^(١)] غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى ابن عبيدة يضعف فى الحديث ، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره . وقد روى شعبة وسفيان الثورى وغير واحد من الأئمة عنه . قال القشيرى فى يوم الجمعة يشهد على كل عامل بما عمل فيه .

قلت : وكذلك سائر الأيام والليالى ؛ فكل يوم شاهد وكذا كل ليلة ؛ ودليله ما رواه أبو نعيم الحافظ عن معاوية بن قرة عن معقل بن يسار عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "ليس من يوم يأتى على العبد إلا ينادى فيه يا بن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل عليك شهيد فاعمل فى خير أشهد لك به غداً فإنى أو قد مضيت لم ترنى أبداً ويقول الليل مثل ذلك " . حديث غريب من حديث معاوية ، تفرد به عنه زيد العمى^(٢) ، ولا أعلمه مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الإسناد . وحكى القشيرى عن ابن عمر وأبن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى . وقال سعيد بن المسيب : الشاهد التروية ، والمشهود يوم عرفة . وروى إسرائيل عن أبى إسحق عن الحرث عن على رضى الله عنه : الشاهد يوم عرفة ، والمشهود يوم النحر . وقاله النخعى . وعن على أيضا : المشهود يوم عرفة . وقال ابن عباس والحسين ابن على رضى الله عنهما : المشهود يوم القيامة ؛ لقوله تعالى : « ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » .

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .

(٢) فى كتاب الأنساب للمعافى : « العمى » بفتح العين المهملة وتشديد الميم ، هذه النسبة إلى الم وهو بن من تميم ، وفى تهذيب التهذيب : « قال على بن مصعب : سمى زيد العمى لأنه كان كلما سئل عن شئ قال حتى أمال عمى » .

(٣) آية ١٠٣ سورة هود .

قلت : وعلى هذا اختلفت أقوال العلماء في الشاهد فقيل : الله تعالى ؛ عن ابن عباس والحسن وسعيد بن جبیر؛ بيانه : « وكفى بالله شهيدا ^(١) » ، « قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم ^(٢) » . وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم ؛ عن ابن عباس أيضا والحسين ابن علي ؛ قرأ ابن عباس « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ^(٣) » ، وقرأ الحسين « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ^(٤) » .

قلت : وأقرأ أنا « ويكون الرسول عليكم شهيدا ^(٥) » . وقيل : الأنبياء يشهدون على أمهم ؛ لقوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » . وقيل : آدم . وقيل : عيسى بن مريم ؛ لقوله : « وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ^(٦) » . والمشهود أمته . وعن ابن عباس أيضا ومحمد بن كعب : الشاهد الإنسان ؛ دليله : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ^(٧) » . مقاتل : أعضاؤه ؛ بيانه : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ^(٨) » . الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة ، والمشهود سائر الأمم ؛ بيانه : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ^(٩) » . وقيل : الشاهد الحفظة ، والمشهود بنو آدم . وقيل : الليالي والأيام . وقد بيناه .

قلت : وقد يشهد المال على صاحبه ، والأرض بما عمل عليها ؛ ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن هذا المال خضر حلو ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل — أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذئب يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة » . وفي الترمذي عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « يومئذ تُحَدَّثُ أَخْبَارَهَا » قال : « أتدرون ما أخبارها » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على

- | | | |
|---------------------------|---------------------------|----------------------------|
| (١) آية ٧٩ سورة النساء . | (٢) آية ١٩ سورة الأنعام . | (٣) آية ٤١ سورة النساء . |
| (٤) آية ٤٥ سورة الأحزاب . | (٥) آية ١٤٣ سورة البقرة . | (٦) آية ١١٧ سورة المائدة . |
| (٧) آية ١٤ سورة الإسراء . | (٨) آية ٢٤ سورة النور . | (٩) آية ١٤٣ سورة البقرة . |

كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا وكذا - قال - فهذه أخبارها .
قال حديث حسن غريب صحيح . وقيل : الشاهد الخلق ، شهدوا لله عز وجل بالوحدانية .
والمشهود له بالتوحيد هو الله تعالى . وقيل : المشهود يوم الجمعة ، كما روى أبو الدرداء قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أَكثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ يَوْمٌ مَشْهُودٌ
تَشْهَدُهُ الْمَلَائِكَةُ ... " وذكر الحديث . نخرجه ابن ماجه وغيره .

قلت : فعلى هذا يوم عرفة مشهود ، لأن الملائكة تشهده وتنزل فيه بالرحمة . وكذا يوم
النحر إن شاء الله . وقال أبو بكر العطار : الشاهد الحجر الأسود ، يشهد لمن لمسه بصدق
وإخلاص ويقين . والمشهود الحاج . وقيل : الشاهد الأنبياء ، والمشهود محمد صلى الله عليه
وسلم ، بيانه : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ - إِلَى قَوْلِهِ
تعالى - : وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » .^(۱)

قوله تعالى : قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿۱۰﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿۱۱﴾
إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿۱۲﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿۱۳﴾

قوله تعالى : (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) أى لعن . قال ابن عباس : كل شئ
فى القرآن « قُتِلَ » فهو لعن . وهذا جواب القسم - فى قول الفراء - واللام فيه
مضمرة ؛ كقوله : « وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا - ثم قال - قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » أى لقد أفلح .
وقيل : فيه تقديم وتأخير ؛ أى قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ؛ قاله أبو حاتم
السَّجِسْتَانِي . ابن الأنباري : وهذا غلط ؛ لأنه لا يجوز لقائل أن يقول : والله قام زيد ؛
على معنى قام زيد والله . وقال قوم : جواب القسم « إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » وهذا قبيح ؛
لأن الكلام قد طال بينهما . وقيل : « إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا » . وقيل : جواب القسم محذوف ؛
أى والسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ لَتُبْعَثُنَّ . وهذا اختيار ابن الأنباري . والأخدود : الشق العظيم

(۱) آية ۸۱ سورة آل عمران .

المستطيل في الأرض كأنه نَدَق ، وجمعه أخاديد . ومنه الخد مجازي الدموع ، والمخدة ؛ لأن الخد يوضع عليها . ويقال : تخدد وجه الرجل إذا صارت فيه أخاديد من جراح . قال طرفة :

ووجهُ كأن الشمس حلت رداءها * عليه نقيّ اللون لم يتخدد

(النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ) « النار » بدل من « الأخدود » بدل الاشتغال . و « الْوُقُودِ » بفتح الواو قراءة العامة ، وهو الحطب . وقرأ قتادة وأبو رجاء ونصر بن عاصم (بضم الواو) على المصدر ، أي ذات الأتقاد والأتهاب . وقيل : ذات الوقود بأبدان الناس . وقرأ أشهب العقيلي وأبو السَّيَالِ الْعَدَوِيّ وَأَبْنُ السَّمِيْعِ « النَّارُ ذَاتُ » بالرفع فيهما ؛ أي أحرقتهم النار ذات الوقود . (إِذْهُمْ عَلَيْهَا قُودٌ) أي الذين خددوا الأخاديد وقعدوا عليها يلقون فيها المؤمنين ، وكانوا يتجرَّان في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . وقد اختلفت الرواية في حديثهم . والمعنى متقارب . ففي صحيح مسلم عن صُهَيْبِ بْنِ أَبِي سُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ ، فَلَمَّا كَبُرَ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي قَدْ كَبُرْتُ فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمَهُ السَّحْرَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يَعْلَمُهُ ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبًا ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَاعْجَبَهُ ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرًّا بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرْبًا ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ : إِذَا خَشِيَ السَّاحِرَ فَقُلْ : حَبْسَنِي أَهْلِي . وَإِذَا خَشِيَ أَهْلَكَ فَقُلْ : حَبْسَنِي السَّاحِرَ . فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ : الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرَ أَفْضَلَ أَمْ الرَّاهِبَ أَفْضَلَ ؟ فَاخَذَ حَجْرًا فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمُضِيَ النَّاسُ ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ . فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ : أَيُّ بَيْتٍ ؟ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي ، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى ، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى ، فَإِنْ أَبْتُلَيْتَ فَلَا تَدَلَّ عَلَيَّ . وَكَانَ الْغُلَامُ يَبْرَأُ الْأَنْكَةَ وَالْأَرْصَ وَيَدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ . فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ : مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي . فَقَالَ : إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا ، إِنَّمَا

يَشْفِي اللهُ ؛ فإن أنتِ آمَنتِ باللهِ دَـصُوتُ اللهُ فَشفاكِ ؛ فأَمنِ باللهِ فَشفاهُ اللهُ . فَأَتَى المَلِكَ بِجِلسِ
إِلَيْهِ كَمَا كانَ يَجِلسُ ؛ فَقَالَ لَهُ المَلِكُ : مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ؟ قَالَ رَبِّي . قَالَ : وَلَكَ رَبٌّ
غَيْرِي ؟ ! قَالَ : رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ . فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يَعْذِبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الغَلامِ ؛ بِغِيءِ
بِالغَلامِ فَقَالَ لَهُ المَلِكُ : أَيُّ بَنِيَّ ! أَقَدَ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِي الأَكْـمَةَ والأَبْرَصَ ، وَتَفْعَلُ
وَتَفْعَلُ ؟ ! فَقَالَ : إِنِّي لا أَشْفِي أَحَدًا ، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ . فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يَعْذِبُهُ حَتَّى دَلَّ
عَلَى الرَّاهِبِ ؛ بِغِيءِ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ : أَرْجِعْ عَن دِينِكَ . فَأَبَى فَدَعَا بِالمِنشَارِ فَوَضَعَ المِنشَارَ
فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَاهُ . ثُمَّ جِئَ بِجِلسِ المَلِكِ فَقِيلَ لَهُ : أَرْجِعْ عَن دِينِكَ ؛
فَأَبَى فَوَضَعَ المِنشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاهُ . ثُمَّ جِئَ بِالغَلامِ فَقِيلَ لَهُ : أَرْجِعْ
عَن دِينِكَ ؛ فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا فَاصْعِدُوا بِهِ
الجَبَلَ ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَن دِينِهِ وَإِلا فَأَطْرَحُوهُ ؛ فَذْهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ فَقَالَ :
اللَّهُمَّ أَكْفِينِيهِمْ بِمَا شِئْتَ ؛ فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فَسَقَطُوا . وَجاءَ يَمْشِي إِلَى المَلِكِ فَقَالَ لَهُ المَلِكُ :
مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ قَالَ : كَفَّانِيهِمُ اللهُ . فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : أَذْهَبُوا بِهِ فَأَحْمِلُوهُ
فِي قُرُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ ، فَإِنْ رَجَعَ عَن دِينِهِ وَإِلا فَأَقْذِفُوهُ ؛ فَذْهَبُوا بِهِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ أَكْفِينِيهِمْ
بِمَا شِئْتَ ؛ فَأَنْكَفَتَ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَفَرِقُوا . وَجاءَ يَمْشِي إِلَى المَلِكِ فَقَالَ لَهُ المَلِكُ : مَا فَعَلَ
أَصْحَابُكَ ؟ قَالَ : كَفَّانِيهِمُ اللهُ . فَقَالَ لِلْمَلِكِ : إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ . قَالَ :
وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النِّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِدْعٍ ، ثُمَّ خُذْ مَهْمًا مِنْ كِانِي
ثُمَّ ضَعِ السِّمَّ فِي كَيْدِ القَوْسِ ثُمَّ قُلْ : بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الغَلامِ ، ثُمَّ أَرْمِنِي ؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ
قَتَلْتَنِي . بِفِجَعِ النِّاسِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبِهِ عَلَى جِدْعٍ ، ثُمَّ أَخَذَ مَهْمًا مِنْ كِانِيهِ ثُمَّ وَضَعَ
السِّمَّ فِي كَيْدِ القَوْسِ ثُمَّ قَالَ : بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الغَلامِ ؛ ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السِّمُّ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ
فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السِّمِّ فَمَاتَ ؛ فَقَالَ النِّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الغَلامِ ! آمَنَّا بِرَبِّ الغَلامِ ! آمَنَّا بِرَبِّ

(۱) الفرفور (بضم الفافين) : السفينة الصغيرة .

جلود لا خشب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .

(۲) الكائة (بالكسر) : جمعة السهام تخذ من

الغلام ! فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحَدَّرُ ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَدْرُكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ ؛ فَأَمَرَ بِالْأَخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السَّكَّكَ ، نَفَّذَتْ وَأَضْرَمَ النَّيْرَانَ وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنِ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا — أَوْ قِيلَ لَهُ أَقْتَحِمُ — ففعلوا ؛ حتى جاءت امرأة ومعهما صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام : « يَا أُمَّهُ أَصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ » . نَحَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ بِمَعْنَاهُ . وَفِيهِ : « وَكَانَ عَلَى طَرِيقِ الْغَلَامِ رَاهِبٌ فِي صَوْمَعَةٍ » قَالَ مَعْمَرٌ : أَحْسَبُ أَنَّ أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ كَانُوا يَوْمئِذٍ مُسْلِمِينَ . وَفِيهِ : « أَنَّ الدَّابَّةَ الَّتِي حَبَسَتْ النَّاسَ كَانَتْ أَسَدًا وَأَنَّ الْغَلَامَ دُفِنَ — قَالَ — فَيُذَكَّرُ أَنَّهُ أُخْرِجَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَأَصْبَعَهُ عَلَى صُدْغِهِ كَمَا وَضَعَهَا حِينَ قُتِلَ » . وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ . وَرَوَاهُ الضُّحَّاكُ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ مَلِكٌ بِبَجْرَانَ وَفِي رَعِيَّتِهِ رَجُلٌ لَهُ قَتِي فَبَعَثَهُ إِلَى سَاحِرٍ يَعْلَمُ السَّحْرَ ، وَكَانَ طَرِيقَ الْفَتَى عَلَى رَاهِبٍ يَقْرَأُ الْإِنْجِيلَ ؛ فَكَانَ يَعْجِبُهُ مَا يَسْمَعُهُ مِنَ الرَّاهِبِ ، فَدَخَلَ فِي دِينِ الرَّاهِبِ ؛ فَأَقْبَلَ يَوْمًا إِذَا حَيَّةً عَظِيمَةً قَطَعَتْ عَلَى النَّاسِ طَرِيقَهُمْ ، فَأَخَذَ حِجْرًا فَقَالَ بِأَسْمِ اللَّهِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ؛ فَقَتَلَهَا . وَذَكَرْنَا مَا تَقَدَّمَ . وَأَنَّ الْمَلِكَ لَمَّا رَمَاهُ بِالسَّهْمِ وَقَتَلَهُ قَالَ أَهْلُ مَمْلَكَةِ الْمَلِكِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ^(١) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثَامِرٍ ؛ وَكَانَ أَسْمَ الْغَلَامِ ، فَفَضِبَ الْمَلِكُ وَأَمَرَ نَفَّذَتْ أَخْدَائِدَهُ ، وَجُمِعَ فِيهَا حَطَبٌ وَنَارٌ وَعَرَضَ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ عَلَيْهَا ، فَمَنْ رَجَعَ عَنِ التَّوْحِيدِ تَرَكَهُ ، وَمَنْ ثَبَتَ عَلَى دِينِهِ قَذَفَهُ فِي النَّارِ . وَجَاءَ بِأَمْرَةٍ مَرْضِعٍ لَهَا أَرْجَمِي عَنِ دِينِكَ وَإِلَّا قَذَفْنَاكَ وَوَلَدَكَ — قَالَ — فَاشْفَقْتُ وَهَمْتُ بِالرَّجُوعِ ، فَقَالَ لَهَا الصَّبِيُّ الْمَرْضِعُ : يَا أُمِّي ، أَتَبْتِي عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ فَإِنَّمَا هِيَ تُحْمِيضَةٌ ؛ فَالْقُوْهَا وَأَبْتِنَا . وَرَوَى أَبُو صَالِحٍ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ أَنَّ النَّارَ أَرْتَفَعَتْ مِنَ الْأَخْدُودِ فَصَارَتْ فَوْقَ الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا فَأَحْرَقَتْهُمْ . وَقَالَ الضُّحَّاكُ : هُمْ قَوْمٌ مِنَ النَّصَارَى كَانُوا بَايَعْنَ قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ، أَخَذَهُمْ يَوْسُفُ بْنُ شَرَّاحِيلَ بْنِ تَبَعِ الْجُبَيْرِيِّ ، وَكَانُوا نَيْفًا وَثَمَانِينَ رَجُلًا ، وَحَفَرُوا لَهُمْ أَخْدُودًا وَأَحْرَقَهُمْ فِيهَا . حَكَاهُ الْمَسْأُورِيُّ ، وَحَكَى الثَّعْلَبِيُّ عَنْهُ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، أَخَذُوا رَجُلًا

(١) فِي الْأَصُولِ : « ... إِلَّا اللَّهُ عَبْدُ اللَّهِ ... » وَهُوَ تَحْرِيْفٌ .

ونساء نخذوا لهم الأخاديد، ثم أوقدوا فيها النار، ثم أقيم المؤمنون عليها وقيل لهم: تكفرون أو تُقذفون في النار؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه؛ وقاله عَطِيَّةُ الْعَوْفِيّ . وروى نحو هذا عن ابن عباس . وقال عليّ رضي الله عنه: إن مَلِكًا سَكِرَ فَوَقَعَ عَلَى أُخْتِهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ شَرْعًا فِي رِعْيَتِهِ فَلَمْ يَقْبَلُوا؛ فَأَشَارَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخْطُبَ بِأَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَحَلَّ نِكَاحَ الْأَخْوَاتِ فَلَمْ يُسْمِعْ مِنْهُ . فَأَشَارَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخُذَ لَهُمُ الْأَخْدُودَ وَيُلْقِي فِيهِ كُلَّ مَنْ عَصَاهُ . ففعل . قال :

وبقايهم ينكحون الأخوات وهم المجوس، وكانوا أهل كتاب . وروى عن عليّ أيضا أن أصحاب الأخدود كان سببهم أن نبيا بعثه الله تعالى إلى الحبشة، فأتبعه ناس فخذلهم قومهم أخدودا، فمن أتبع النبيّ رمى فيها، بجيء بأمرأة لها بُنَىّ رضيع فجزعته، فقال لها: يا أمّاه، أمضى ولا تجزعي . وقال أيوب عن عكرمة قال: « قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ » قال: كانوا من قومك من السَّجِسْتَانِ . وقال الكلبيّ: هم نصارى بجران، أخذوا بها قوما مؤمنين فخذوا لهم سبعة أخاديد، طول كل أخدود أربعون ذراعا، وعرضه اثنا عشر ذراعا . ثم طرح فيه النَّفْطَ^(۱) والخطب، ثم عرضوهم عليها؛ فمن أبي قذفوه فيها . وقيل: قوم من النصارى كانوا بالقسطنطينية زمان قسطنطين . وقال مقاتل: أصحاب الأخدود ثلاثة؛ واحد بجران، والآخر بالشام، والآخر بفارس . أمّا الذي بالشام فأنطيانوس الرومي، وأما الذي بفارس فبختنصر، والذي بأرض العرب يوسف بن ذى نُوَاسٍ . فلم يُنزل الله في الذي بفارس والشام قرآنا، وأنزل قرآنا في الذي كان بجران . وذلك أن رجلين مسلمين كان أحدهما بتهمة والآخر بجران، آجرا أحدهما نفسه، فجعل يعمل ويعمل ويقرا الإنجيل؛ فرأت ابنة المستاجر النور في قراءة الإنجيل، فأخبرت أباهما فأسلم . وبلغوا سبعة وثمانين بين رجل وأمرأة، بعد ما رُفِعَ عيسى، فخذلهم يوسف بن ذى نُوَاسٍ بن تَبَعِ الْجَمِيرِيِّ أَخْدُودًا وَأَوْقَدَ فِيهِ النَّارَ؛ وَعَرَضَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، فَمَنْ أَبِي أَنْ يَكْفُرَ قَذَفَهُ فِي النَّارِ، وَقَالَ: مَنْ رَجَعَ عَنِ دِينِ عَيْسَى لَمْ يَقْذَفْ . وَإِنْ أَمْرَأَةٌ مَعَهَا وَلَدٌ صَغِيرٌ لَمْ يَتَكَلَّمْ، فَرَجَعَتْ، فَقَالَ لَهَا أَبْنَاهُ: يَا أُمَّاهُ، إِنِّي أَرَى أَمَامَكَ

(۱) النفط (بالكسر وقد يفتح): دهن معدني مربع الاحتراق، توفد به النار ويتداوى به .

نارا لا تطفأ، فقدفا جميعا أنفسهما في النار، فجعلها الله وآبها في الجنة . فُقذِفَ في يوم واحد سبعة وسبعون إنسانا . وقال ابن إسحق عن وهب بن منبّه : كان رجل من بقايا أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام ، يقال له قيميون^(١) ، وكان رجلا صالحا مجتهدا زاهدا في الدنيا مجاب الدعوة ، وكان سائحا في القرى لا يُعرف بقرية إلا مضى عنها ، وكان بناء يعمل الطين . قال محمد بن كعب القرظي : وكان أهل نجران أهل شرك يعبدون الأصنام ، وكان في قرية من قراها قريبا من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزل بها قيميون بنى بها خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر ، فجعل أهل نجران يبعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر؛ فبعث إليه الثامر عبد الله بن الثامر ، فكان مع غلمان أهل نجران ، وكان عبد الله إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم ، فوحد الله وعبده وجعل يسأله عن أسم الله الأعظم ، وكان الراهب يعلمه فكتمه إياه وقال : يا ابن أخي ، إنك لن تعلمه ، أخشى ضعفك عنه ؛ وكان أبوه الثامر لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان . فلما رأى عبد الله أن الراهب قد يجبل عليه بتعليم أسم الله الأعظم ، عمد إلى قِداح^(٢) بجمعها ، ثم لم يُبق لله تعالى أسما يعلمه إلا كتبه في قِداح ، لكل أسم قِداح ، حتى إذا أحصاها أوقد لها نارا ، ثم جعل يقذفها فيها قِداحا قِداحا ، حتى إذا مرّ بالأسم الأعظم قذف فيها بقِداحه ، فوثب القِداح حتى نرح منها لم يضره شيء ؛ فأخذه ثم قام إلى صاحبه ، فأخبره أنه قد علم أسم الله الأعظم الذي كتّمه إياه ، فقال : وما هو ؟ قال : كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع . فقال له : يا ابن أخي ، قد أصبته ، فأمسك على نفسك وما أظن أن تفعل . فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدا به ضرر إلا قال : يا عبد الله ، أتوحد الله وتدخل في ديني فأدعو الله لك فيما فيك مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم ؛ فيوحد الله ويُسلم فيدعو الله له فيشفى ، حتى لم يبق أحد بنجران به ضرر إلا أتاه فأتبعه على دينه ودعا له فعوفي ؛ حتى رفع شأنه إلى ملكهم فدعاه فقال له :

(١) في تاريخ الطبري : « قيميون » بالفاء .

(٢) القِداح (بالكسر) : المسم قبل أن ينصل ويراش ، جمعه قِداح .

أفسدت عليّ. أهل قريتي وخالفت ديني ودين آبائي ، فلا مثلاً بك . قال : لا تقدر على ذلك ،
بفعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح عن رأسه فيقع على الأرض ليس به بأس . وجعل
يبعث به إلى مياه نجران ، بحار لا يلقى فيها شيء إلا هلك ، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس ؛
فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر : والله لا تقدر على قتلي حتى توحّد الله وتؤمن بما آمنتُ به ؛
فإنك إن فعلت ذلك سأطت عليّ وقتلتني . فوحّد الله ذلك الملك وشهد شهادته ، ثم ضربه
بمصا فشجّه شجرة صغيرة ليست بكبيرة فقتله ، وهلك الملك مكانه ، واجتمع أهل نجران على
دين عبد الله بن الثامر ، وكان علي ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحكاه . ثم أصابهم
ما أصاب أهل دينهم من الأحداث ؛ فمن ذلك كان أصل النصرانية بنجران . فسار إليهم
ذو نواس اليهودي بجنوده من حير ، فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك أو القتل ، فأختاروا
القتل فخذّ لهم الأخدود ؛ فحزق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفاً .
وقال وهب بن منبه : آثني عشر ألفاً . وقال الكلبي : كان أصحاب الأخدود سبعين ألفاً .
قال وهب : ثم لما غلب أرياط على اليمن نرج ذو نواس هارباً فافتحم البحر بفرسه ففرق .
قال ابن إسحق : وذو نواس هذا اسمه زرعة بن تبان أسعد الحميري ، وكان أيضاً يسمى
يوسف ، وكان له غدائر من شعير تنوس ، أي تضطرب ، فسُمّي ذا نواس ؛ وكان فعل
هذا بأهل نجران فأفلت منهم رجل اسمه دؤس ذو ثعلبان ، فساق الحبشة لينتصر بهم ، فلكوا
اليمن وهلك ذو نواس في البحر ؛ ألقى نفسه فيه ؛ وفيه يقول عمرو بن معدى كرب :

أَتُوَعِدُنِي كَأَنَّكَ ذُو رُعَيْنِ * بَأَنِّعَمِ عَيْشِيَةِ أَوْ ذُو نُوَائِسِ
وَكَاثِنٌ كَانَ قَبْلَكَ مِنْ نَعِيمٍ * وَمُلْكٍ ثَابِتٍ فِي النَّاسِ رَائِسِ
قَدِيمٍ عَهْدُهُ مِنْ عَهْدِ عَادٍ * عَظِيمٍ قَاهِرٍ الْجَبْرُوتِ قَائِسِ
أَزَالَ الدَّهْرُ مَلِكَهُمْ فَاضْحَى * يُنْقَلُ مِنْ أَنَاسٍ فِي أَنَاسِ

(١) في بعض النسخ : « تسمين ألفاً » .

(٢) هو كغراب أو كمان ، وبكسر . وهو أول من كما البيت الحرام .

وذورعين ملك من ملوك حير . ورعين حصن له . وهو من ولد الحرث بن عمرو بن حير
ابن سبأ .

مسئلة - قال علماؤنا : أعلم الله عز وجل المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ،
ما كان يلقاه من وحد قلبهم من الشدائد؛ يؤنسهم بذلك . وذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم
قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام ، والمشقات التي كانوا عليها ؛ ليتأسوا
بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به ، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته ،
ودخول الناس في الدين مع صغريته وعظم صبره . وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق
حتى نُشر بالمنشار . وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم ،
صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم . ابن العربي : وهذا منسوخ عندنا ؛ حسب
ما تقدم بيانه في سورة « النحل »^(١) .

قلت : ليس بمنسوخ عندنا ، وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى ؛ قال
الله تعالى مخبرا عن لقمان : « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى
مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »^(٢) . وروى أبو سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » . أخرجه الترمذي وقال : حديث
حسن غريب . وروى ابن سنجر محمد بن سنجر عن أميمة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم
قالت : كنت أوضئ النبي صلى الله عليه وسلم فأناه رجل فقال : أوصني . فقال : « لا تشرك
بالله شيئا وإن قطعت أو حُرقت بالنار ... » الحديث . قال علماؤنا : ولقد امتحن كثير من
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالقتل والصلب والتعذيب الشديد فصبروا ولم يلتفتوا إلى
شيء من ذلك . ويكفيك قصة عاصم وخبيب وأصحابهما وما لقوا من الحروب والمحن والقتل
والأسر والحرق ؛ وغير ذلك . وقد مضى في « النحل » أن هذا إجماع ممن قوى في ذلك ؛
فأمله هناك^(٣) .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٨٠ وما بعدها ، ص ٢٠٢ (٢) آية ١٧ سورة لقمان .

(٣) راجع ج ١٠ ص ١٨٠

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ دعا على هؤلاء الكفار بالإبعاد من رحمة الله تعالى . وقيل : معناه الإخبار عن قتل أولئك المؤمنين ؛ أى إنهم قُتلوا بالنار فصبروا . وقيل : هو إخبار عن أولئك الظالمين ؛ فإنه روى أن الله قبض أرواح الذين ألقوا في الأخدود قبل أن يصلوا إلى النار ، وخرجت نار من الأخدود فأحرقت الذين هم عليها فعود . وقيل : إن المؤمنين نجوا وأحرقت النار الذين قعدوا ؛ ذكره النحاس . ومعنى «عليها» أى عندها ؛ وعلى بمعنى عند . وقيل : «عليها» على ما يدنو منها من حافات الأخدود ؛ كما قال :

* وبات على النار الندى والمحلّق^(۱) *

والعامل في «إذ» «قتل» ؛ أى لعنوا في ذلك الوقت . ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أى حضور . يعنى الكفار كانوا يعرضون الكفر على المؤمنين فمن أبى القوه في النار ؛ وفى ذلك وصفهم بالقسوة ثم بالجد^(۲) فى ذلك . وقيل : «على» بمعنى مع ؛ أى وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود .

قوله تعالى : وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨٨﴾ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ ﴾ وقرأ أبو حيوة « نَقَمُوا » بالكسر . والفصيح هو الفتح . وقد مضى فى « براءة » القول فيه . أى ما نَقَمَ الْمَلِكُ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الَّذِينَ حَرَقَهُمْ . ﴿ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا ﴾ أى إلا أن يصدقوا . ﴿ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أى الغالب المنيع . ﴿ الْحَمِيدِ ﴾

(۱) البيت لأعشى قيس ، وصدده :

* تشب لمقرورين بصطليانها *

(۲) فى بعض النسخ : « أى بالجد » بدل « ثم بالجد » .

(۳) راجع ج ۸ ص ۲۰۷

أى المحمود فى كل حال . (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) لا شريك له فىهما ولا نديد .
(وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) أى عالم بأعمال خلقه لا تخفى عليه خافية .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١١﴾** إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**) أى حرقوهم بالنار . والعرب تقول : قتن فلان الدرهم والدينار؛ إذا أدخله الكور لينظر جودته . ودينار مفتون . ويسمى الصائغ الفتان ، وكذلك الشيطان ؛ وورق فتين ؛ أى فضة محترقة . ويقال للخرقة فتين ؛ أى كأنها أحرقت حجارتها بالنار ، وذلك لسوادها . (**ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا**) أى من قبيح صنيعهم مع ما أظهره الله لهذا الملك الجبار الظالم وقومه من الآيات البينات على يدى الغلام . (**فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ**) لكفرهم . (**وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**) فى الدنيا لإحراقهم المؤمنين بالنار . وقد تقدم عن ابن عباس . وقيل : « **وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** » أى ولهم فى الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم بما أحرقوا المؤمنين . وقيل : لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق . والحريق : أسم من أسماء جهنم ؛ كالسعير . والنار دركات وأنواع ولها أسماء . وكانهم يعذبون بالزمهرير فى جهنم ، ثم يعذبون بعذاب الحريق . فالأول عذاب يبردها ، والثانى . عذاب بحرها . (**إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا**) أى هؤلاء الذين كانوا آمنوا بالله ؛ أى صدقوا به وبرسله . (**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ**) أى بساتين . (**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**) من ماء غير آسن ، ومن لبن لم يتغير طعمه ، ومن نحر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى . (**ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ**) أى العظيم ، الذى لا فوز يشبهه .

(١) الحرة (فتح الحاء المهملة) : أرض ذات حجارة سود نخرة . (٢) فى نسخة من الأصل : « وكانوا » .

قوله تعالى : **إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ** ﴿١٣﴾ **إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ** ﴿١٤﴾
وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٥﴾ **ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ** ﴿١٦﴾ **فَعَالٌ لِّمَا**
يُرِيدُ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : **(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)** أى أخذه الجبارة والظلمة ؛ كقوله جل ثناؤه : **« وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ »** . وقد تقدم . قال المبرد : **« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ »** جواب القسم ؛ المعنى : والسماء ذات البروج إن بطش ربك . وما بينهما معترض مؤكد للقسم . وكذلك قال الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول : إن القسم واقع على ذكر صفة بالشدة . **(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ)** يعنى الخلق - عند أكثر العلماء - يخلقهم ابتداء ثم يعيدهم عند البعث . وروى عكرمة قال : عجب الكفار من إحياء الله جل ثناؤه السموات . وقال ابن عباس : يبدي لهم عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيده عليهم فى الآخرة . وهذا اختيار الطبرى . **(وَهُوَ الْغَفُورُ)** أى السّتور لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها **(الْوَدُودُ)** أى المحب لأوليائه . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : كما يؤد أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة . وعنه أيضا « الودود » أى المتودد إلى أوليائه بالمغفرة . وقال مجاهد : الواد لأوليائه ؛ فعول بمعنى فاعل . وقال ابن زيد : الرحيم . وحكى المبرد عن إسماعيل بن إسحق القاضى أن الودود هو الذى لا ولد له ؛ وأنشد قول الشاعر :

وأركب فى الرّوع عريانة * ذلول الجناح لقاحاً ودوداً

أى لا ولد لها تمن إليه . ويكون معنى الآية : إنه يغفر لعباده وليس له ولد . يغفر لهم من أجله ؛ ليكون بالمغفرة متفضلاً من غير جزاء . وقيل : الودود بمعنى المودود ؛ كركوب وحلّوب ؛ أى يؤده عباده الصالحون ويحبونه . **(ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)** قرأ الكوفيون إلا عاصماً « المجيد » بالخفض نعتاً للعرش . وقيل : لـ «ربك» ؛ أى إن بطش ربك، المجيد لشديد .

(١) آية ١٠٢ سورة هود راجع ج ٩ ص ٩٥

ولم يمتنع الفصل لأنه جار مجرى الصفة في التشديد . الباقون بالرفع نعتاً لـ «ذو» وهو الله تعالى . وأختره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل ، والله سبحانه المنعوت بذلك ، وإن كان قد وصف عرشه بالكريم في آخر «المؤمنون»^(١) . تقول العرب : في كل شجر نار ، وأستمجد المرخ والعفار ؛ أي تناهيا فيه حتى يقتبس منهما . ومعنى ذو العرش : أي ذو الملك والسلطان ؛ كما يقال : فلان على سرير ملكه ؛ وإن لم يكن على سرير . ويقال : نُزل عرشه ؛ أي ذهب سلطانه . وقد مضى بيان هذا في «الأعراف»^(٢) وخاصة في «كتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» . (فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ) أي لا يمتنع عليه شيء يريد . الزمخشري : «فَعَالٌ» خبر ابتداء محذوف . وإنما قيل : «فَعَالٌ» لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة . وقال الفراء : هو رفع على التكرير والاستئناف ؛ لأنه نكرة محضة . وقال الطبري : رفع «فَعَالٌ» وهي نكرة محضة على وجه الإتيان لإعراب «الغفور الودود» . وعن أبي السفر قال : دخل ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر رضي الله عنه يعودونه فقالوا : ألا نأتيك بطبيب ؟ قال : قد رأيتني ! قالوا : فما قال لك ؟ قال قال : إني فعال لما أريد .

قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ) أي قد أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم ؛ يؤتسه بذلك ويسليه . ثم بينهم فقال . (فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ) وهما في موضع جر على البدل من «الجنود» . المعنى : أنك قد عرفت ما فعل الله بهم حين كذبوا أنبياءه ورسله . (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي من هؤلاء الذين لا يؤمنون بك . (فِي تَكْذِيبٍ)

(١) راجع ج ١٢ ص ١٥٧ . (٢) المرخ والعفار : شجرتان من أكثر الشجر نارا ، يتخذ منهما الزناد .

والعرب تضرب بهما المثل في الشرف العالي . و «أستمجد» : استكثر . (٣) راجع ج ٧ ص ٢٢٠

(٤) هو سعيد بن محمد الهداني .

لك ؛ كدأب من قبلهم . وإنما خص فرعون و ثمود ؛ لأن ثمود في بلاد العرب ، وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدمين . وأمر فرعون كان مشهورا عند أهل الكتاب وغيرهم ، وكان من المتأخرين في الهلاك ؛ فدلّ بهما على أمثالهما في الهلاك . والله أعلم .

قوله تعالى : **وَأَلَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مِحْيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾**

قوله تعالى : **(وَأَلَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مِحْيطٌ)** أى يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون . والمحاط به كالمحصور . وقيل : أى والله علم بهم فهو يجازيهم . **(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ)** أى متناه في الشرف والكرم والبركة ، وهو بيان ما بالناس الحاجة إليه من أحكام الدين والدنيا لا كما زعم المشركون . وقيل « مجيد » أى غير مخلوق . **(فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ)** أى مكتوب في لوح . وهو محفوظ عند الله تعالى من وصول الشياطين إليه . وقيل : هو أم الكتاب ؛ ومنه أنتسخ القرآن والكتب . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : اللوح من ياقوتة حمراء ، أعلاه معقود بالعرش وأسفله في حجر مَلَكٍ يقال له ماطريون ، كتابه نور وقلمه نور ، ينظر الله عز وجل فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، ليس منها نظرة إلا وهو يفعل ما يشاء ؛ يرفع وضيعا ويضع رفيعا ، ويغنى فقيرا ويفقر غنيا ، يُحْيِي ويميت ، ويفعل ما يشاء ؛ لا إله إلا هو . وقال أنس بن مالك ومجاهد : إن اللوح المحفوظ الذى ذكره الله تعالى في جبهة إسرافيل . وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش . وقيل : اللوح المحفوظ الذى فيه أصناف الخلق والخليقة ، وبيان أمورهم ، وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم ، والأقضية النافذة فيهم ، ومأل عواقب أمورهم ؛ وهو أم الكتاب . وقال ابن عباس : أول شئ كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ « إني أنا الله لا إله إلا أنا ، محمد رسولى ، من أستسلم لقضائى وصبر على بلائى وشكر نعمائى كتبته صديقا وبعثته مع الصديقين ، ومن لم يستسلم لقضائى

(١) في روح المعاني : « ساطربون » .

ولم يصير على بلائي ولم يشكر نعمائي فليخذ إهناً سوى » . وكتب الحجاج إلى محمد بن الحنفية رضي الله عنه يتوعده ؛ فكتب إليه ابن الحنفية : « بلغني أن الله تعالى في كل يوم ثمانمائة وستين نظرة في اللوح المحفوظ ؛ يُعزَّ وَيُذَلُّ ، وَيَتلى وَيُفْرَحُ ، وَيَفْعَلُ مَا يَرِيدُ ؛ فلعن نظرة منها تسفلك بنفسك فتشتغل بها ولا تتفرغ » . وقال بعض المفسرين : اللوح شيء يلوح لللائكة فيقرءونه . وقرأ ابن السَّمِيعِ وَأَبُو حَيَّوَةَ « قرآنٌ مجيدٌ » على الإضافة ؛ أي قرآن ربِّ مجيد . وقرأ نافع « في لوحٍ محفوظٍ » بالرفع نعنا للقرآن ؛ أي بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح . الباقون (بالجر) نعنا للوح . والقراء متفقون على فتح اللام من «لوح» إلا ما روى عن يحيى بن يعمر ؛ فإنه قرأ في «لُوحٍ» بضم اللام ؛ أي إنه يلوح ، وهو ذو نور وعلو وشرف . قال الزمخشري : واللوح الهواء ؛ يعني اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح . وفي الصحاح : لاح الشيء يلوح لَوْحاً أي لمح . ولاحه السَّفَرُ : غيره . ولاح لَوْحاً ولَوْاحاً عطشاً ، وألتاح مثله . واللُّوحُ : الكَتِفُ وكلُّ عظمٍ عريض . واللُّوحُ : الذي يكتب فيه . واللُّوحُ (بالضم) : الهواء بين السماء والأرض . والحمد لله .

+

تم بعون الله تعالى الجزء التاسع عشر من تفسير القرطبي ،

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العشرون ، وأوله :

”سورة (الطارق)“

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

جزء العشرة وثلث

يطلب من
المكتبة الإسلامية
طهران

فهرس الجزء العشرين

سورة « الطارق »

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « والسماء والطارق ... » الآيات . الكلام على النجم الطارق
والاختلاف في اسمه . النهى عن أن يطرق المسافر أهله ليلاً . معنى الطرق
في اللغة ١
- تفسير قوله تعالى : « إن كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » . الكلام في معنى الحافظ ،
وهل هو الله سبحانه ، أو عقل الإنسان ، أو الملائكة ٣
- تفسير قوله تعالى : « فلينظر الإنسان مِمَّ خُلِقَ ... » الآيات . أمر الإنسان
بالنظر في أول أمره ، ليعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ، فيعمل ليوم
الإعادة والجزاء . الكلام على الماء الدافق ، وكيف يخرج من بين الصلب
والترائب . قول العلماء في الصلب والترائب ٤
- تفسير قوله تعالى : « يوم تُبَلَى السَّرَائِرُ » . الكلام على اختبار السرائر . بيان أن
الله تعالى أتمن خلقه على أربع ٨
- تفسير قوله تعالى : « والسماء ذات الرجوع ... » الآيات . معنى « الرجوع » وهل
هو المطر أو النبات . معنى « الصدع » . المراد بالقول الفصل ١٠
- تفسير قوله تعالى : « قَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْمُهُمْ رُؤْيَدًا » . بيان أن هذه الآية تُسَخِّتُ
بآية السيف . معنى « رُؤْيَدًا » في كلام العرب ١٢

سورة « الأعلى »

- تفسير قوله تعالى : « سَبَّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » . بيان أنه يستحب للقارئ إذا قرأ
هذه الآية أن يقول عقبها : سبحان ربي الأعلى ؛ امتثالاً لأمره تعالى . لما
نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعلوها في سجودكم » .
نواب من قال سبحان ربي الأعلى في صلاته أو في غير صلاته ١٣

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « الذي خَلَقَ فَسَوَّى ... » الآيات . الكلام على تسوية الخلق . أقوال العلماء في معنى « قدر فهدى » . معنى قوله : « غُثَاءً أَحْوَى » وبيان أن هذا مثل ضربه الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها ... ١٥
- تفسير قوله تعالى : « سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى ... » الآيات . بيان أن هذه الآيات بشرى من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ... ١٨
- تفسير قوله تعالى : « فذَكَرْ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى ... » الآيات . القول في أن التذكير واجب وإن لم ينفع . بيان أن الشقى في علم الله هو الذي يتجنب الذكري ويبعد عنها ، وأن أهل الشقاء متفاوتون في شقائهم ... ٢٠
- تفسير قوله تعالى : « قد أَفْلَحَ من تَزَكَّى ... » الآيات . رأى العلماء في قوله « تزكى » وهل هو في زكاة الأموال ، أو في زكاة الأعمال ، وفيمن تزلت . معنى قوله : « وذاكَ رَأْسُ ربه فَصَلَّى » ... ٢١
- تفسير قوله تعالى : « بل تَوَثَّرُونَ الحياة الدنيا ... » الآيات . بيان الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ؛ لأن الدنيا حُضِرَتْ وَعُجِّلَتْ طيباتها ولذاتها ، وأن الآخرة غُيِّبَتْ ، فأخذوا العاجل وتركوا الآجل ... ٢٣
- تفسير قوله تعالى : « إن هذا لفي الصحف الأولى ... » . القول في أن صحف إبراهيم عليه السلام كانت أمثالا كلها ، وأن صحف موسى عليه السلام كانت عبراً كلها ... ٢٤

سورة « الغاشية »

- تفسير قوله تعالى : « هل أتاك حديث الغاشية » . الاختلاف في « الغاشية » هل هي القيامة ، أو النار ، أو النفخة الثانية للبعث ... ٢٥
- تفسير قوله تعالى : « وجوه يومئذ خاشعة ... » الآيات . القول في أن وجوه المشركين ذليلة في الآخرة ، وأنهم أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل وعلى الكفر ... ٢٦

- تفسير قوله تعالى : « تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً » . اختلف في المراد بالحامية هاهنا على
 أربعة أوجه ٢٨
- تفسير قوله تعالى : « لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ » . لما ذكر تعالى شراب
 أهل النار ذكر طعامهم ، وأنه الضريح ، وقد تباينت أقوال العلماء فيه ... ٢٩
- تفسير قوله تعالى : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ... » الآيات . بيان أن المراد وجوه
 المؤمنين ، نعمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح . وأن المؤمنين
 في جنة مرتفعة عالية القدر ، لا يسمعون فيها كلمة لغو . واختلف في اللغو هنا
 على ستة أوجه . وأن في الجنة أنواع الأشربة اللذيذة تجرى على وجه الأرض
 من غير أخدود ٣٢
- تفسير قوله تعالى : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ... » الآيات . بيان
 أن الله تعالى لما ذكر أمر أهل الدارين تعجب الكفار من ذلك فكذبوا
 وأنكروا ، فذكرهم الله صنعته ، وأنه قادر على كل شيء ، ثم ذكر الإبل أولاً
 لكثرتها عندهم ٣٤
- تفسير قوله تعالى : « فَذَكَرْنَا أَنْتَ مُدَكَّرٌ ... » الآيات . اختلف هل الآية
 منسوخة بآية السيف ، أم لا نسخ فيها ٣٧

سورة « الفجر »

- تفسير قوله تعالى : « وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ » . أقوال العلماء في معنى الفجر
 هنا والليالي العشر ٣٨
- تفسير قوله تعالى : « وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ » . اختلف في الشفع والوتر هنا على عدة أقوال . ٣٩
- تفسير قوله تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِيرٌ . هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ » . القول
 في أن الله تعالى لما أقسم بالليالي العشر على الخصوص أقسم بالليل على العموم .
 اختلف في معنى « يسرى » . بيان العلة في إسقاط الياء من « يسرى » . القول
 في معنى « لذي حجر » ٤٢

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ . إرم ذات العماد » . أوجه القراءة في قوله « بعادٍ . إرم » . القول في نسب عاد وقومه . اختلف في قوله « ذات العماد » هل هو الطول ، أو كانوا عمادا لقومهم ، أو ذات الابنية

المرفوعة على العماد ٤٤

تفسير قوله تعالى : « التي لم يُخْلَقْ مثلها في البلاد » . اختلف في الضمير في « مثلها » هل راجع إلى القبيلة ، أو راجع إلى المدينة . بيان أنه كان لعاد آبنان ، فملكها وقهرا ، ثم مات أحدهما وخلص الأمر للآخر ، فملك الدنيا وسمع بذكر الجنة فقال : أبني مثلها ، فبنى إرم في بعض صحارى عدن وهي مدينة عظيمة ، قصورها من الذهب والفضة ، ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ،

وقبل أن يصل إليها بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا ٤٦

تفسير قوله تعالى : « وثمرود الذين جابوا الصخر بالواد » . بيان أن ثمود هم قوم صالح ، وهم أول من نحت الجبال والصخور والرخام ، وبنوا المدائن كلها من الحجارة ، وكانوا لقوتهم ينحتون الصخور وينقبون الجبال ويجعلونها

بيوتا لأنفسهم ٤٧

تفسير قوله تعالى : « وفرعون ذى الأوتاد » . بيان ما كان يفعله فرعون تجبرا

واعتوا بالناس ٤٨

تفسير قوله تعالى : « الذين طغوا في البلاد ... » الآيات . المراد بهم عاد وثمرود وفرعون ، وأنهم لما عتوا وتجاوزوا القدر في الظلم والعدوان صب الله تعالى عليهم العذاب . بيان أن كلمة « سوط » تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب .

٤٩

تفسير قوله تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » القول في أن الله عز وجل يرصد عمل كل إنسان ، ويسمع أقوالهم ونجواتهم ، ويعلم أعمالهم وأسرارهم فيجازى كلا بعمله .

٥٠

تفسير قوله تعالى : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ... » الآيات . المراد بالإنسان هنا الكافر ، واختلف فيه . من صفات الكافر الذى لا يؤمن بالبعث أن الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته . أما المؤمن فالكرامة عنده أن

- يكرمه الله تعالى بطاعته وتوفيقه المؤدى الى حظ الآخرة، وإن وسع عليه فى الدنيا
 ٥١ حمده وشكره
- تفسير قوله تعالى : « كلاب لا تكرمون اليتيم ... » الآيات . بيان أن هذا إخبار
 من الله تعالى عما كانوا يصنعونه من منع اليتيم الميراث، وأكل ماله إسرافاً
 وبداراً أن يكبروا . أصل اللّم فى كلام العرب . ما كان يفعله أهل الشرك
 بمال من مات منهم، وأنهم يحبون المال حلالاً كان أم حراماً . معنى «الجم»
 ٥٢ فى كلام العرب
- تفسير قوله تعالى : « كلاً إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً » بيان أن هذا ردٌّ لانكبابهم
 ٥٤ على الدنيا وجمعهم لها . المعنى المراد من دك الأرض، ومعنى الدك لغة ...
- تفسير قوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً ... » الآيات . أقوال العلماء
 فى معنى « وجاء ربك » هل جاء أمره وقضاؤه، أو جاءهم بالآيات العظيمة .
 والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحول من مكان إلى مكان . الكلام على قوله
 « وحيى يومئذ يجهنم » وكيف يجاء بها . بيان أن الكافر يعتبر عند معاينة جهنم،
 ولا ينفعه الاتعاظ والتوبة وقد فرط فيهما فى الدنيا . أقوال العلماء فى معنى
 ٥٥ « فيومئذ لا يعذب عذابه أحد »
- تفسير قوله تعالى : « يآيتها النفس المطمئنة ... » الآيات . الكلام على النفس
 المطمئنة . بيان أن هذا حال من اطمأنت نفسه إلى الله تعالى ، فسلم لأمره
 وأتكل عليه . الاختلاف فىمن نزلت فيه هذه الآيات، هل هو عثمان بن عفان،
 ٥٧ أو خبيب بن عدى، رضى الله عنهما ...
- سورة « البلد »
- تفسير قوله تعالى : « لا أقسم بهذا البلد » . الكلام على « لا » فى هذه الآية .
 والمراد بالبلد هنا مكة من غير اختلاف . بيان أن الله تعالى حرم مكة يوم خلق
 ٥٩ السموات والأرض، فهى حرام إلى أن تقوم الساعة ...

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « وأنت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد » بيان أن هذه أقسام
 من الله تعالى ، والله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها ٦٠
- تفسير قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في كبد » بيان المراد بالإنسان هنا .
 معاني « كبد » لغة ٦٢
- تفسير قوله تعالى : « أيجسب أن لن يقدر عليه أحد ... » الآيات . الكلام
 في سبب نزول هذه الآيات . بيان نعم الله تعالى التي أنعمها على بني آدم .
 القول في العقبة وركوبها ، ومعنى اقتحامها ٦٤
- تفسير قوله تعالى : « فك رقبة » وهل هو خلاصها من الأسر ، أو عتقها من
 الرق ، أو هو خلاص نفسه باجتنب المعاصي وفعل الطاعات . بيان أن العتق
 والصدقة من أفضل الأعمال ٦٨
- تفسير قوله تعالى : « أو إطعام في يوم ذي مسغبة ... » الآيات . القول في أن
 إطعام الطعام فضيلة . وأن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة .
 أقوال العلماء في المتربة ٦٩
- تفسير قوله تعالى : « ثم كان من الذين آمنوا ... » الآيات . بيان أن شرط قبول
 الطاعة أن تكون مصحوبة بالإيمان ٧١

سورة « الشمس »

- تفسير قوله تعالى : « والشمس وضحاها ... » الآيات . بيان أن هذه أقسام أقسم
 الله تعالى بها لما فيها من عجائب الصفة الدالة عليه . قول أهل اللغة في معاني
 كلمات هذه الآيات ٧٢
- تفسير قوله تعالى : « قد أفلح من زكاهها ... » الآيات . الكلام على تركية
 النفس وتدسيسها ٧٦
- تفسير قوله تعالى : « كذبت ثمود بطغواها ... » الآيات . بيان أن الله تعالى
 أطبق على قوم العذاب بذنبهم الذي هو الكفر والتكذيب وعقر الناقة . قول
 أهل اللغة في الدمدمة ٧٨

سورة « الليل »

- تفسير قوله تعالى : « والليل إذا يغشى ... » الآيات . توجيهات العلماء في قوله :
 ٨٠ « وما خلق الذكر والأنثى » . بيان المراد بالذكر والأنثى هنا
 تفسير قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى ... » الآيات . القول في سبب نزول
 هذه الآيات . فضل المنفق في سبيل الله . الكلام فيمن أعطى وصدق
 بالحسنى ، وما هي الحسنى . بيان أن كل إنسان ميسر لعمله الذي خلق له .
 القول فيمن ضنّ بما عنده ولم يبذل خيرا ، وتيسيره للعسرى . بيان أن الجود
 من مكارم الأخلاق ، والبخل من أردلها
 ٨٢ تفسير قوله تعالى : « فأنذرتكم نارا تظلى ... » الآيات . الكلام على الأشقي الذي
 كذب وتولى
 ٨٦ تفسير قوله تعالى : « وسيجنبها الأتقى ... » الآيات . الاختلاف في سبب نزول
 هذه السورة ، هل نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لما اشترى بلالا وأعتقه .
 أو نزلت في أبي الدرداح في النخلة التي اشتراها بستان له
 ٨٨

سورة « الضحى »

- تفسير قوله تعالى : « والضحى . والليل إذا سجي ... » الآيات . أقوال العلماء
 في سبب نزول هذه الآيات
 ٩١ تفسير قوله تعالى : « ألم يجدرك يتيا فأوى ... » الآيات . القول في تعداد نعم الله
 تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم . بيان معنى قوله « ووجدك ضالا » والمراد
 من الضلال هنا
 ٩٦ تفسير قوله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ... » الآيات . الحث على اللطف
 باليتيم ، وعلى برّه والإحسان إليه . النهى عن إغلاظ القول للسائل وزجره .
 القول في أن التحدث بنعم الله تعالى والاعتراف بها شكر . القول فيما إذا بلغ
 القارئ إلى آخر « والضحى » كبر بعد كل سورة تكبيرة إلى أن يختم القرآن .
 ١٠٠

صفحة

سورة « ألم نشرح »

- تفسير قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » الكلام على انشراح الصدر .
 ١٠٤ ماورد في شق صدر الرسول عليه السلام
- تفسير قوله تعالى : « ووضعنا عنك وزرك ... » معنى الوزر الذى وضعه الله تعالى
 ١٠٥ عن رسوله الكريم . بيان رفع ذكره صلى الله عليه وسلم
- تفسير قوله تعالى : « فإن مع العسر يسرا ... » بيان أن العرب إذا ذكروا اسما
 ١٠٧ معزفا ثم كرروه فهو هو، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره
- تفسير قوله تعالى : « فإذا فرغت فانصب ... » بيان المعنى المراد من هذه الآيات .
 ١٠٨

سورة « والتين »

- تفسير قوله تعالى : « والتين والزيتون » بيان الاختلاف فى معنى التين والزيتون .
 الكلام على فضائل التين والزيتون ، وما فيهما من منافع . أقوال العلماء
 ١١٠ فى وجوه الزكاة فيهما
- تفسير قوله تعالى : « وطور سينين . وهذا البلد الأمين » الكلام على « طور
 ١١٢ سينين » . بيان أن المراد بالبلد الأمين مكة
- تفسير قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ... » المعنى المراد
 بالإنسان هنا . بيان أن الله تعالى ليس له خلق أحسن من الإنسان ، وبيان
 صفاته التى خلقه الله عليها . تأويل قول الرسول عليه السلام " إن الله خلق آدم
 على صورته " . قول الفلاسفة إن الانسان هو العالم الأصغر . الكلام على رد
 ١١٣ الإنسان إلى أسفل سافلين
- تفسير قوله تعالى : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... »
 ١١٥ تفسير قوله تعالى : « فما يكذبك بعد بالدين ... » الاختلاف فى المخاطب هل هو
 الكافر، أو بيخا له . أو هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . بيان أن ألف
 ١١٦ الاستفهام إذا دخلت على النفى وفى الكلام معنى التوقيف صار إيجابا

سورة « العلق »

- تفسير قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » . بيان أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قائم على حراء . القول في أن أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة ... ١١٧
- تفسير قوله تعالى : « الذي علم بالقلم » . فضل تعلم الكتابة ، وبيان أن القلم نعمة من الله تعالى عظيمة . الاختلاف فيمن علم بالقلم . أقوال العلماء في أن أصل الأقلام ثلاثة . القول في أن العرب كانت أقل الخلق معرفة بالكتاب . وجه النهي في تعليم النساء الكتابة ... ١٢٠
- تفسير قوله تعالى : « علم الإنسان ما لم يعلم » . اختلف في الإنسان هنا هل هو آدم عليه السلام ، أو نبينا صلى الله عليه وسلم ... ١٢٢
- تفسير قوله تعالى : « كلا إن الإنسان ليطغى ... » الآيات . الكلام على من نزلت فيه هذه الآيات ... ١٢٢
- تفسير قوله تعالى : « أرايت الذي ينهى عبدا إذا صلى ... » الآيات . بيان أن هذا نزل توبيخا لأبي جهل ، لنهيه النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ، وتكذيبه بكتاب الله ، وإعراضه عن الإيمان ... ١٢٤
- تفسير قوله تعالى : « كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ... » بيان أن هذا وإن كان في أبي جهل فهو عظة للناس ، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة . أقوال أهل اللغة في معنى هذه الآيات ... ١٢٥
- تفسير قوله تعالى : « فليدع نادية . سندع الزبانية » . الكلام على الزبانية ، ومعنى النادى ... ١٢٦
- تفسير قوله تعالى : « كلا لا تطعه وأسجد وأقترب » . القول فيما يقرب العبد من ربه تعالى ... ١٢٨

سورة « القدر »

تفسير قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » الآيات الكلام على كيفية نزول

صفحة

القرآن . أقوال العلماء فيما يقدر ليلة القدر . ما في ليلة القدر من الفضائل .

اختلاف العلماء في تعيينها . العلامات الدالة عليها ١٢٩

سورة « لم يكن »

بيان ما جاء من الأحاديث في فضلها . القول في قراءة العالم على المتعلم ١٣٨

تفسير قوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ... » الآيات . الكلام

على أن أهل الكتاب هم اليهود الذين كانوا يثرب ، وهم قريظة والنضير

وبنو قينقاع ، وأن المشركين هم الذين كانوا بمكة والمدينة وما حولها ، وهم

مشركو قريش . القول في معنى « منفكين » وفي البيئة التي أتتهم ١٤٠

تفسير قوله تعالى : « وما أمرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصين ... » . في الآية دليل على

وجوب النية في العبادات . معنى « حنفاء » ١٤٤

سورة « الزلزلة »

الكلام على فضائل هذه السورة ١٤٦

تفسير قوله تعالى : « إذا زلزلت الأرض زلزالها ... » الآيات . الكلام على زلزلة

الأرض وإخراج أثقالها . أقوال العلماء في حديث الأرض بأخبارها ١٤٧

تفسير قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ... » بيان أن هذا مثل ضربه

الله تعالى بأنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة . كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم يسمى هذه الآية : الآية الجامعة الفائزة ١٥٠

سورة « والعاديات »

تفسير قوله تعالى : « والعاديات ضبعا ... » اختلاف في « العاديات » ، هل هي

الخيل تعدو في سبيل الله ، أو هي الإبل في الحج ، ودليل كل . الكلام على معنى

الضبج . واختلف أيضا في « الموريات » ، هل هي الخيل أو الإبل . قول أهل

اللغة في معنى النقع ١٥٣

تفسير قوله تعالى : « إن الإنسان لربه لكنود » . بيان أن الكافر طبع على

كفران النعمة . معنى الكنود في اللغة ١٦٠

سورة « القارعة »

تفسير قوله تعالى : « القارعة . ما القارعة ... » الكلام على القارعة ، وأنها تفرع

الخلائق بأهوالها وأفزاعها... .. ١٦٤

تفسير قوله تعالى : « فأما من ثقلت موازينه ... » القول في الميزان الذي يوزن به

أعمال بني آدم . لم سميت جهنم هاوية ١٦٦

سورة « التكاثر »

تفسير قوله تعالى : « ألم اكنم التكاثر... » أقوال العلماء في سبب نزولها . الكلام

على زيارة القبور وأن زيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسى . القول في أنه ينبغي

لمن قسا قلبه وأراد علاجه أن يكثر من ذكر الموت ، ويواظب على مشاهدة

المختضرين ، وزيارة قبور أموات المسلمين . القول في الآداب التي يتأدب بها

من عزم على زيارة القبور . بيان أن هذه السورة تضمنت القول في عذاب

القبر، وأن الإيمان به واجب ١٦٨

تفسير قوله تعالى : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » . الكلام على قصة مالك

ابن التيهان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، رضوان الله عليهم .

بيان اختلاف أهل التأويل في النعيم المستول عنه على عشرة أقوال ١٧٤

سورة « والعصر »

تفسير قوله تعالى : « والعصر . إن الإنسان لفي خسر... » أقوال العلماء في العصر

المقسم به . أقوالهم فيمن حلف ألا يكلم رجلا عصرًا ١٧٨

سورة « الهمزة »

تفسير قوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة ... » القول في الهمزة اللزة . بيان أصل

الهمز واللز . الاختلاف فيمن نزلت فيه هذه السورة . الكلام على الحطمة ١٨١

سورة « الفيل »

تفسير قوله تعالى : « ألم تركيب فعل ربك بأصحاب الفيل » بيان أن هذا الخطاب

للنبي صلى الله عليه وسلم ولكنه عام . الكلام على قصة أصحاب الفيل .

صفحة

- اختلاف العلماء في تاريخ مولده صلى الله عليه وسلم بالنسبة لعام الفيل . بيان
 أن قصة الفيل كانت من إرهاباته صلى الله عليه وسلم ١٨٧
 تفسير قوله تعالى : « وأرسل عليهم طيرا أبابيل ... » أقوال العلماء في صفة الطير
 التي أرسلها الله تعالى على أصحاب الفيل . كلام أهل اللغة في معنى « أبابيل
 وسجيل » . كيفية هلاكهم بالحجارة ١٩٦

سورة « قريش »

- تفسير قوله تعالى : « لإيلاف قريش ... » اختلاف العلماء في اتصال هذه السورة
 بالتي قبلها في المعنى ، الكلام على إيلافهم . نسب قريش . اختلف في تسميتهم
 قريشا على أربعة أقوال . الكلام على رحلة الشتاء والصيف . توجيه قول مالك :
 الشتاء نصف السنة ، والصيف نصفها ٢٠٠

سورة « الماعون »

- تفسير قوله تعالى : « أرأيت الذي يكذب بالدين ... » اختلاف الأقوال فيمن
 نزلت فيه هذه السورة . كانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان . الكلام
 على السهو في الصلاة . بيان حقيقة الرياء . القول في إظهار العمل إن كان
 فريضة ، وإخفائه إن كان تطوعا ، بيان المراد من منع الماعون ، وأن فيه
 إثني عشر قولاً ٢١٠

سورة « الكوثر »

- تفسير قوله تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر » قول أهل اللغة في معنى الكوثر .
 اختلاف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم ٢١٦
 تفسير قوله تعالى : « فصل لربك وانحر ... » أقوال العلماء في معنى الصلاة
 والنحر . القول فيمن نحر قبل الصلاة . اختلاف العلماء فيمن وضع يمينه على
 شماله في الصلاة . واختلافهم في الموضع الذي عليه توضع اليد . اختلافهم أيضا
 في رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود ٢١٨

صفحة

تفسير قوله تعالى : « إن شانئك هو الأبر » الكلام على سبب نزول هذه الآية .

أقوال أهل اللغة في معنى الأبر ٢٢٢

سورة « الكافرون »

بيان ما جاء في فضلها، وأنها تعدل ثلث القرآن ٢٢٤

تفسير قوله تعالى : « قل يا أيها الكافرون... » القول في سبب نزول هذه السورة .

بيان أن القرآن نزل على أساليب العرب ، ومن مذاههم التكرار إرادة التأكيد

والإفهام ، كما أن مذاههم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز . الاختلاف

في نسخ هذه السورة ٢٢٥

سورة « النصر »

تفسير قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح ... » بيان المراد بهذا النصر، ومعناه

لغة . قول بعض العلماء إن المراد بالناس في هذه السورة هم أهل اليمن . بيان أن

الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم حضور أجله بتزول هذه السورة .

القول في استغفاره صلى الله عليه وسلم ، وهل كان تعبداً ، أو تنبيهاً لأمته خشية

أن يتركوا الاستغفار ٢٢٩

سورة « تبت »

تفسير قوله تعالى : « تبت يدا أبي لهب وتب ... » القول في سبب نزول هذه

السورة . بيان ما كان يفعله أبو لهب وأمراته بالرسول صلوات الله عليه ...

أقوال العلماء في تكنية أبي لهب . بيان أن ولد الرجل من كسبه . القول في أن

امرأة أبي لهب كانت تمشي بالنميمة بين الناس . التحذير من النميمة ، وأنه

لا يدخل الجنة تمام . أفعال امرأة أبي لهب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كلام أهل اللغة في معنى المسند ٢٣٤

سورة « الإخلاص »

تفسير قوله تعالى : « قل هو الله أحد ... » الكلام على معنى « أحد » ومعنى

« الصمد » . بيان أن هذه السورة نزلت جواباً لأهل الشرك لما قالوا الرسول

صفحة

الله صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربك . القول في الأحاديث الواردة في هذه

السورة ٢٤٤

سورة « الفلق »

تفسير قوله تعالى : « قل أعوذ برب الفلق ... » الكلام في فضلها . قول أهل

اللغة في « الفلق والغاسق » . اختلاف العلماء في النفث عند الرقية . الكلام

في معنى الحسد ، وأنه مذموم . القول في أن الحاسد بارز ربه من خمسة

أوجه ٢٥٢

سورة « الناس »

تفسير قوله تعالى : « قل أعوذ برب الناس... » بيان ما جاء في الوسواس الخناس . ٢٦٠

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

سورة الطارق

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سَبْعٌ عَشْرَةَ آيَةً

قوله تعالى : وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾
النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) قَسَمَانِ : « السَّمَاءُ » قَسَمٌ ، و « الطَّارِقُ » قَسَمٌ .
والطارق : النجم . وقد بينه الله تعالى بقوله : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ)
واختلف فيه ؛ فقيل : هو زُحَل ، الكوكب الذي في السماء السابعة ؛ ذكره محمد بن الحسن
في تفسيره ، وذكره أخبارا ، الله أعلم بصحتها . وقال ابن زيد : إنه الثَّيَّابُ . وعنه أيضا أنه
زُحَل ؛ وقاله الفراء . ابن عباس : هو الجَدِيُّ . وعنه أيضا وعن علي بن أبي طالب —
رضي الله عنهما — والفراء : « النَّجْمُ الثَّاقِبُ » نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ لَا يَسْكُنُهَا غَيْرُهُ مِنَ النُّجُومِ ؛
فَإِذَا أَخَذَتِ النُّجُومُ أَمَكَّتَهَا مِنَ السَّمَاءِ هَبَطَ فَكَانَ مَعَهَا ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ،
وَهُوَ زُحَلُ ؛ فَهُوَ طَارِقٌ حِينَ يَنْزِلُ وَطَارِقٌ حِينَ يَصْعَدُ . وحكى الفراء : ثَقَبَ الطَّارِقُ إِذَا
ارْتَفَعَ وَعَلَا . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدًا
مَعَ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَنحَطَّ نَجْمٌ فَأَمْتَلَأَتِ الْأَرْضُ نُورًا ، فَفَزِعَ أَبُو طَالِبٍ وَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ هَذَا !
فَقَالَ : « هَذَا نَجْمٌ رُمِيَ بِهِ وَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ » فَعَجِبَ أَبُو طَالِبٍ وَنَزَلَ « وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ » .
وروى عن ابن عباس أيضا « وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ » [قَالَ : السَّمَاءُ ^(١)] وَمَا يَطْرُقُ فِيهَا . وَعَنْ

(١) زيادة عن الطبري .

ابن عباس وعطاء : « الثاقب » الذي تُرْمَى به الشياطين . قنادة : هو عام في سائر النجوم ؛ لأن طلوعها بليل ، وكل من أُنْكَ لَيْلاً فهو طارق . قال :

وَمِنْكَ حُبْلٍ قَدْ طَرَقْتُ وَمُرِضِعًا * فَاهْتَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مُغِيلٍ^(١)

وقال :

ألم تريايني كلما جئتُ طارقاً * وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

فالطارق : النجم ؛ اسم جنس ، سُمِّيَ بذلك لأنه يطرق ليلاً ؛ ومنه الحديث : ” نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرق المسافر أهله ليلاً كي تَسِحِدَ الْمَغِيْبَةَ وَتَمْتَشِطَ الشَّعْتَةَ^(٢) ” . والعرب تسمى كل قاصدٍ في الليل طارقاً . يقال : طرق فلان إذا جاء بليل . وقد طرق يطرق طروقاً فهو طارق . ولأبن اروي :^(٣)

ياراقد الليل مسروراً بأوله * إن الحوادث قد بطرفن أسحارا

لا تفرحن بليل طاب أوله * فرب آحر ليل أبجج النارا

وفي الصحاح : والطارق النجم الذي يقال له كوكب الصبح . ومنه قول هند :

نحن بنات طارق * نمشي على التمارق

أى إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء . الماوردى : وأصل الطرق الدق ؛ ومنه سميت المطرقة . فسُمِّيَ قاصد الليل طارقاً لاحتياجه في الوصول إلى الدق . وقال قوم : إنه قد يكون نهارة . والعرب تقول : أتيتك اليوم طرفتين ؛ أى مرتين . ومنه قوله صلى الله عليه

(١) البيت لأمرى الفيس . والتمايم : التعاويذ التي تعلق في عنق الصبي . وذو التائم : هو الصبي . والمغيل :

الذي تزق أمه وهي ترضعه . ويروي : « محول » بدل « مغيل » وهو الذي أتى عليه الحول .

(٢) الابتعاد : حلق العانة بالحديد . والمغيبة : التي غاب عنها زوجها . والشعنة : التي تلبس شعرها .

(٣) لم نعتز على هذين البيتين في ديوان ابن الرومي . وقد أورد الجاحظ البيت الأول في كتابه (الحيوان ج ٦

ص ٥٠٨ طبع مطبعة الحلبي) غير مندوب . ولم يعرف أن الجاحظ يشهد بشعر ابن الرومي . وقد نوق الجاحظ

وكانت سن ابن الرومي ٣٤٤ على أن هذا الشعر ليس من روح ابن الرومي . وقد أورد أيضا الفزالي في (الأحياء ج ٣

ص ١٨٠ طبع الحلبي) البيت الأول ضمن ستة أبيات من وزنه وقافيته .

وسلم : « أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن » . وقال جرير في الطروق :

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا * حِينَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ

ثم بين فقال : (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ النَّاقِبُ) والناقب : المضيء . ومنه « شهابٌ ناقيبٌ » . يقال : نَقَبَ يَنْقُبُ نَقُوبًا وَنَقَابَةً إِذَا أَضَاءَ . وثقوبه ضوءه . والعرب تقول : أَنْقَبَ نَارَكَ ؛ أَي أَضَاهَا . قال :

أَذَاعَ بِهِ فِي النَّاسِ حَتَّى كَانَهُ * بَعْلِيَاءَ نَارٍ أَوْقَدَتْ بِثَقُوبِ

الثَّقُوبِ مَا تُسْعَلُ بِهِ النَّارُ مِنْ دِفَاقِ الْعِيدَانِ . وقال مجاهد : الناقب المتوجج . القشيري : والمعظم على أن الطارق والناقب اسم جنس أريد به العموم ؛ كما ذكرنا عن مجاهد . (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) تفخيماً لسان هذا المفسم به . وقال سفيان : كل ما في القرآن « وما أدراك » فقد أخبره به . وكل شيء قال فيه « وما يدريك » لم يخبره به .

قوله تعالى : **إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ** ﴿١﴾

قال قتادة : حَفَظَهُ يُحْفَظُونَ عَلَيْكَ رِزْقَكَ وَعَمَلَكَ وَأَجَلَكَ . وعنه أيضاً قال : قرينه يحفظ عليه عمله من خير أو شر . وهذا هو جواب القسم . وقيل : الجواب « إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ » في قول الترمذي محمد بن علي . و « إِنَّ » مخففة من الثقيلة ، و « مَا » مؤكدة ؛ أي إن كل نفس لديها حافظ . وقيل : المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ يحفظها من الآفات حتى يُسلمها إلى القدر . قال الفراء : الحافظ من الله يحفظها حتى يُسلمها إلى المقادير ؛ وقاله الكلبي . وقال أبو أمامة : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « وَكُلُّ بِالْمُؤْمِنِ مِائَةٌ وَسِتُونَ مَلَكًا يَذُبُّونَ عَنْهُ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ . مِنْ ذَلِكَ الْبَصَرُ ، سَبْعَةٌ أَمْلَاكُ يَذُبُّونَ عَنْهُ كَمَا يَذَبُّ عَنْ قَصْعَةِ الْعَسَلِ انْدِبَابٌ . وَأَوْكُلُ الْعَبْدُ إِلَى نَفْسِهِ طَرْفَةٌ عَيْنٍ لَا خَتِطْفَنَهُ الشَّيَاطِينُ » . وقراءة ابن عامر وعاصم وحمة « لَمَّا » بتشديد الميم ؛ أي ما كل نفس إلا عليها حافظ ، وهي لغة

(١) آية ١٠ سورة الصافات .

هُذِيلُ يَقُولُ قَائِلِهِمْ : نَشَدْتِكَ لَمَّا قَتَّ . الْبَاقُونَ بِالْتَّخْفِيفِ عَلَى أَنَّهَا زَائِدَةٌ مُؤَكَّدَةٌ كَمَا ذَكَرْنَا . وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « لَهُ مُعَقَّبَاتٌ ^(١) مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ^(٢) » . عَلَى مَا تَقَدَّمَ . وَقِيلَ : الْحَافِظُ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ؛ فَلَوْلَا حِفْظُهُ لَمَا لَمْ تَبْقَ . وَقِيلَ : الْحَافِظُ عَلَيْهِ عَقْلُهُ ؛ يَرْشُدُهُ إِلَى مَصَالِحِهِ وَيَكْفِيهِ عَنْ مُضَارَّتِهِ .

قُلْتُ : الْعَقْلُ وَغَيْرُهُ وَسَائِطٌ ، وَالْحَافِظُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ^(٣) » ، وَقَالَ : « قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ^(٤) » . وَمَا كَانَ مِثْلَهُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ ^(٥) مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ) أَيِ ابْنِ آدَمَ (مِمَّ خُلِقَ) وَجِهَ الْإِتِّصَالِ بِمَا قَبْلَهُ تَوْصِيَةً الْإِنْسَانَ بِالنَّظَرِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ وَسُنَّتِهِ الْأُولَى ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مِنْ أَنْشَاءِ قَادِرٍ عَلَى إِعَادَتِهِ وَجَزَائِهِ ؛ فَيَعْمَلُ لِيَوْمِ الْإِعَادَةِ وَالْجَزَاءِ ، وَلَا يُبْلِيَ عَلَى حَافِظِهِ إِلَّا مَا يَسَّرَهُ فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِ . وَ « مِمَّ خُلِقَ » اسْتِفْهَامٌ ؛ أَيِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خُلِقَ . ثُمَّ قَالَ : (خُلِقَ) وَهُوَ جَوَابُ الاسْتِفْهَامِ (مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ) أَيِ مِنَ الْمَيِّ . وَالدَّفِيقُ : صَبُّ الْمَاءِ ؛ دَفَقْتُ الْمَاءَ أَدْفِئُهُ دَفْقًا صَبَبْتُهُ ، فَهُوَ مَاءٌ دَافِقٌ ؛ أَيِ مَسْدُوقٌ ؛ كَمَا قَالُوا : سِرُّ كَاتِمٍ ؛ أَيِ مَكْتُومٍ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ قَوْلِكَ : دَفِيقُ الْمَاءِ عَلَى مَا لَمْ يَسْمِ فَاعِلُهُ . وَلَا يَقَالُ : دَفِيقُ الْمَاءِ . وَيَقَالُ : دَفَقَ اللَّهُ رُوحَهُ ؛ إِذَا دُعِيَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ . قَالَ الْفَرَاءُ وَالْأَخْفَشُ : « مَاءٌ دَافِقٌ » أَيِ مُصْبُوبٌ فِي الرَّحِمِ . الرَّجَاجُ : مِنْ مَاءٍ ذِي انْدِفَاقٍ . يَقَالُ : دَارِعٌ وَفَارِسٌ وَنَابِلٌ ؛ أَيِ ذُو فَرْسٍ وَدِرْعٍ وَنَبَلٍ . وَهَذَا مَذْهَبُ سَيَبَوِيهِ . فَالْدَافِقُ هُوَ الْمَدْفُوقُ بِشِدَّةِ قُوَّتِهِ . وَأَرَادَ مَاءَيْنِ : مَاءَ الرَّجُلِ وَمَاءَ الْمَرْأَةِ ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ مِنْهُمَا ، لَكِنْ جَعَلَهُمَا مَاءً وَاحِدًا لِامْتِزَاجِهِمَا . وَعَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : « دَافِقٌ » لَزَجٌ . (يَخْرُجُ)

(١) راجع ج ٩ ص ٢٩١ (٢) آية ٦٤ سورة يوسف . (٣) آية ٤٢ سورة الأنبياء .

أى هذا الماء (مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ) أى الظهر . وفيه لغات أربع : صُلْب ، وُصْلَب – وُقِرَى بهما – وُصَلَب (بفتح اللام) ، وصالَب (على وزن قَالَب) ؛ ومنه قول العباس :
 • تُنْقَلُ من صالَب إلى رَحِم •

(والتَّرائِبُ) أى الصدر، الواحدة تَرِيبة ؛ وهى موضع القِلادة من الصدر . قال :

مُهْفَهْفَةٌ بيضاء غير مُفاضية • ترائبها مصقولة كالسجنجل^(١)

والصلب من الرجل . والترائب من المرأة . قال ابن عباس : الترائب موضع القِلادة . وعنه : ما بين ثديها ؛ وقاله عكرمة . وروى عنه يبنى ترائب المرأة اليدين والرجلين والعينين ؛ وبه قال الضحاك . وقال سعيد بن جبير : هو الحيد . مجاهد : هو ما بين المنكبين والصدر . وعنه : الصدر . وعنه : التراقي . وعن ابن جبير عن ابن عباس : الترائب أربع أضلاع من هذا الجانب . وحكى الزجاج : أن الترائب أربع أضلاع من يَمنة الصدر، وأربع أضلاع من يَسرة الصدر . وقال معمر بن أبى حبيبة المدنى : الترائب عصارة القلب ؛ ومنها يكون الولد . والمشهور من كلام العرب أنها عظام الصدر والنحر . قال دُرَيْدُ بن الصَّحْمَةِ :

فإن تُدِيرُوا نأخذكم في ظُهوركم • وإن تُقِيلُوا نأخذكم في الترائب

وقال آخر :

وبَدَتْ كأن ترائباً من نَحْرها • جَمْرُ الغَضَى فى مساعد تتوقد

وقال آخر :

والزعفرانُ على ترائبها • شَرِقُ به اللَّبَاتُ والنَّحْرُ^(٢)

(١) هو ابن عبد المطلب ، يمدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وتمام البيت :

• إذا مضى عالم بدأ طبق •

(٢) البيت من معلقة امرئ القيس . والمهفهفة : الخفيفة اللحم التي ليست برهلة ولا ضمة البطن . والمفاضة : المسترخية البطن . والسجنجل : المرأة . وقيل : سبيكة الفضة ، أو الزعفران ، أو ماء الذهب .

(٣) فى بعض نسخ الأصل : « أنها عظام النهد والصدر » .

(٤) البيت للخبيل . وشرق الجسد بالطيب اختلافاً فضا . واللبات (جمع لبة) : موضع القِلادة .

وعن عكرمة : الترائب الصدر ؛ ثم انشد :

* نظامٌ دُرٌّ على ترائبها *
وقال ذو الرمة :

* ضَرَجَنَ البرودَ عن ترائب حرة^(١) *
أى شققن . ويروى « ضَرَحَنَ » بالحاء ؛ أى ألقين . وفى الصحاح : والتريبة واحدة الترائب ، وهى عظام الصدر ؛ ما بين الترقوة والثدوة .

قال الشاعر :

* أشرف تديها على التريب^(٢) *
وقال المثنب العبيدى :

وَمِنْ ذَهَبٍ يَسَنُّ عَلَى تَرِيْبٍ^(٣) * كَلَّوْنَ العاجِ لَيْسَ بَدَى غُضُونٍ^(٤)

[عن غير الجوهري : الثدوة للرجل بمنزلة الثدي للمرأة . وقال الأصمى : مغرز الثدي . وقال ابن السكيت : هى اللحم الذى حول الثدي ؛ إذا ضممت أولها همزت ، وإذا فتحت لم تهمز] . وفى التفسير : يُخَلَقُ من ماء الرجل الذى يخرج من صلبه العظمُ والمصَّبُ . ومن ماء المرأة الذى يخرج من ترائبها اللحمُ والدمُ ؛ وقوله الأعمش . وقد تقدم مرفوعا فى أول سورة (آل عمران) . والحمد لله — وفى (المجرات) « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى » وقد تقدم^(٥) . وقيل : إن ماء الرجل ينزل من الدماغ ثم يجتمع فى الأنثيين . وهذا لا يعارض قوله : « من بين الصلب » ؛ لأنه

(١) تمام البيت :

* وعن أعين قتلنا كل مقتل *

(٢) القائل هو الأغلب العجلى . وتمام البيت :

* لم يمدوا الضليلك فى التوب *

وتملك ثدى الجارية : استدار . والتوب : النهود وهو ارتفاعه .

(٣) كذا فى بعض النسخ والطبرى . وفى بعضها : « يسر » بالراء . وفى روح المعاني : « بين » . وفى اللسان

وشعراء الصراية : « بلوح » . (٤) فى اللسان مادة (ترب) : « ... ليس له غضون » . والبيت من قصيدة كسورة القافية مطلعها :

أفاطم قبل بينك متعنى ومنك ما سألتك أن تبينى

(٥) ما بين المربعين ساقط من بعض نسخ الأصل . (٦) راجع ج ٤ ص ٧ (٧) راجع ج ١٦ ص ٢٤٤

إن نزل من الدماغ وإنما يمتز بين الصلب والترائب . وقال قتادة : المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة . وحكى الفراء : أن مثل هذا يأتي عن العرب ؛ وطلبه فيكون معنى من بين الصلب من الصلب . وقال الحسن : المعنى يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل ، ومن صلب المرأة وترائب المرأة . ثم إنا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن ؛ ولذلك يُشبه الرجل والديه كثيرا . وهذه الحكمة في غسل جميع الجسد من خروج المنى . وأيضا المكث من الجماع يحد وجعا في ظهره وصلبه ؛ وليس ذلك إلا لخلق صلبه عما كان محتبسا من الماء . وروى إسماعيل عن أهل مكة « يخرج من بين الصلب » بضم اللام . ورويت عن عيسى الثقفي . حكاها المهدوي وقال : من جعل المنى يخرج من بين صلب الرجل وترائبه فالضمير في « يخرج » للماء . ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة فالضمير للإنسان . وقرئ « الصلب » بفتح الصاد واللام . وفيه أربع لغات : ^(١) صُلبٌ وصُلْبٌ وصلبٌ وصالبٌ . قال العجاج :

* في صلب مثل العنان المؤدم *

وفي مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

* تُنقل من صالب إلى رجم *

الآيات مشهورة معروفة . (إنه) أى إن الله جل ثناؤه (على رجعيه) أى على رد الماء في الإحليل (لقادر) كذا قال مجاهد والضحاك . وعنهما أيضا أن المعنى : إنه على رد الماء في الصلب ؛ وقاله عكرمة . وعن الضحاك أيضا أن المعنى : إنه على رد الإنسان ماء كما كان لقادر . وعنه أيضا أن المعنى : إنه على رد الإنسان من الكبر إلى الشباب ومن الشباب إلى الكبر لقادر . وكذا في المهدوي . وفي الماوردي والثعلبي : إلى الصبا ومن الصبا إلى النطفة . وقال ابن زيد : إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر . وقال ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة أيضا : إنه على رد الإنسان بعد الموت لقادر . وهو اختيار الطبري . الثعلبي : وهو الأقوى ؛ لقوله تعالى : « يوم تُبلى السرائر » . قال الماوردي : ويحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه في الآخرة ؛ لأن الكفار يسألون الله تعالى فيها الرجعة .

(١) تقدم هذا في ص ٥ .

قوله تعالى : يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٤﴾

فيه مسألتان :

الأولى - العامل في « يوم » - في قول من جعل المعنى إنه على بعث الإنسان - قوله « لقادر » ولا يعمل فيه « رجيعه » لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بنجر « إق » . وعلى الأقوال الأخر التي في « إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ » يكون العامل في « يوم » فعلٌ مضمر ولا يعمل فيه « لقادر » ؛ لأن المراد في الدنيا . و (تُبْلَى) أى تُمتحن وتُختبر ؛ قال أبو الفول الطهوي^(١) :

وَلَا تُبْلَى بِسَالْتِهِمْ وَإِنْ هُمْ * صَلُّوا بِالْحَرْبِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ

ويروى « تُبْلَى بِسَالْتِهِمْ » . فمن رواه « تُبْلَى » - بضم التاء - جعله من الاختيار ؛ وتكون البسالة على هذه الرواية الكرامة ؛ كأنه قال : لا يُعرف لهم فيها كرامة . و « تبلى » تُعرف . قال الراجز :

قد كنت قبل اليوم تدريني • فالـيوم أبلوك وتبلينى

أى أعرفك وتعرفنى . ومن رواه « تُبْلَى » - بفتح التاء - فالمعنى أنهم لا يضعفون عن الحرب وإن تكررت عليهم زمانا بعد زمان . وذلك أن الأمور الشداد إذا تكررت على الإنسان هدته وأضعفته . وقيل : « تُبْلَى السرائر » أى تخرج مخبئاتها وتظهر ، وهو كل ما كان استره الإنسان من خير أو شر ، وأضمه من إيمان أو كفر ؛ كما قال الأحوص :

سِيبَتِي لَهَا فِي مُضَمَّرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا • سَرِيرَةٌ وَدَّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرِ^(٢)

(١) هو شاعر إسلامي ، منسوب إلى « طهية » وهي أم ليله من العرب .

(٢) كذا ورد في بعض نسخ الأصل ونزاة الأدب ج ١ ص ٣٢٢ وفي بعض نسخ الأصل والشعر والشعراء

وتحباب الأغان ج ٤ ص ٢٤٢ طبع دار الكتب المصرية : « سنبل لكم ... » .

الثانية - روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اتمن الله تعالى خلقه على أربع : على الصلاة والصوم والزكاة والغسل وهي السرائر التي يختبرها الله عز وجل يوم القيامة " ذكره المهدوي . وقال ابن عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من حافظ عليها فهو ولي الله حقا ، ومن اختانن فهو عدو الله حقا : الصلاة والصوم والغسل من الجنابة " ذكره الثعلبي . وذكر الماوردي عن زيد بن أسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأمانة ثلاث : الصلاة والصوم والجنابة . استأن الله عز وجل ابن آدم على الصلاة فإن شاء قال صلّت ولم يصل . استأن الله عز وجل ابن آدم على الصوم فإن شاء قال صمت ولم يصم . استأن الله عز وجل ابن آدم على الجنابة فإن شاء قال اغتسلت ولم يغتسل اقرءوا إن شئتم « يوم تَبَى السرائر » وذكره الثعلبي عن عطاء . وقال مالك في رواية أشهب عنه وسأله عن قوله تعالى « يوم تَبَى السرائر » : أبلغك أن الوضوء من السرائر ؟ قال : وقد بلغني ذلك فيما يقول الناس ، فأما حديث أحدث به فلا . والصلاة من السرائر ، والصيام من السرائر ، إن شاء قد صلّت ولم يصل . ومن السرائر ما في القلوب ؛ يجزى الله به العباد . قال ابن العربي : « قال ابن مسعود يُغفر للشهيد إلا الأمانة ، والوضوء من الأمانة ، والصلاة والزكاة من الأمانة ، والوديعة من الأمانة ، وأشد ذلك الوديعة ؛ تُمَثَّلُ له على هبتها يوم أخذها فيرمى بها في قعر جهنم ، فيقال له : أخرجها ، فيتبعها فيجعلها في عنقه ، فإذا رجا أن يخرج بها زلت منه فيتبعها ؛ فهو كذلك دهر الدهارين . وقال أبي بن كعب : من الأمانة أن اتّمت المرأة على فرجها . قال أشهب : قال لي سفيان في الحيضة والحمل إن قالت لم أحض وأنا حامل صدقت ، ما لم تأت بما يُعرف فيه أنها كاذبة . وفي الحديث : « غسل الجنابة من الأمانة » . وقال ابن عمر : يُبْدِي الله يوم القيامة كل سر خفي ، فيكون زينا في الوجوه وقبينا في الوجوه . والله عالم بكل شيء ، ولكن يظهر علامات الملائكة والمؤمنين .

(١) في ابن العربي : « أخذته » .

قوله تعالى : قَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (قَالَهُ) أى للإنسان (مِنْ قُوَّةٍ) أى مَنَعَةٌ تمنعه . (وَلَا نَاصِرٍ) ينصره مما نزل به . وعن عكرمة « قَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ » قال : هؤلاء الملوك ، ما لهم يوم القيامة من قُوَّةٍ ولا ناصر . وقال سفيان : القُوَّة العِشِيرَةُ . والناصر الحليف . وقيل : « قَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ » فى بدنه . « وَلَا نَاصِرٍ » من غيره يمتنع به من الله . وهو معنى قول قتادة .

قوله تعالى : وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾
إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَنْهَزِلٌ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾
وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) أى ذات المطر . تَرْجِعُ كُلَّ سَنَةٍ بِمَطَرٍ بَعْدَ مَطَرٍ . كذا قال عامة المفسرين . وقال أهل اللغة : الرجع المطر . وأنشدوا للتخيل بصف سيفا شبه بالماء :

أبيض كالرجع رسوب إذا * ما ناخ فى محتفلٍ يحتملي

(١) [ناخَتْ قَدَمُهُ فى الوَحَلِ تَنُوخٌ وَتَبِيخٌ : خاضت وغابت فيه ؛ قاله الجوهري] .

قال الخليل : الرَّجْعُ المطر نفسه ، والرَّجْعُ أيضا نبات الربيع . وقيل : « ذَاتِ الرَّجْعِ » أى ذات الفجع . وقد يُسَمَّى المطر أيضا أَوْبًا كما يُسَمَّى رَجْعًا قال :

رَبَاءُ سَمَاءٍ لَا يَأْوِي لِقَلْتِهَا * إِلَّا السَّحَابُ وَالْأَوْبُ وَالسَّبِيلُ (٢)

(١) ما بين المربعين ذكر فى هامش بعض نسخ الأصل . والمحتفل : أعظم موضع فى الجسد . ويخزل : يقطع .
(٢) البيت للتخيل الهدل . قال السكرى فى شرح هذا البيت : « رَبَاءُ يَرْبَأُ فَوْقَهَا ؛ يَقُولُ لَا يَدْنُو لِقَلْتِهَا ؛
أى رأسها . أى لا يعلو هذه الهضبة من طولها إلا السحاب والأوب . والأوب : رجوع النحل . والسبيل :
القطر حين يسيل » .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء ؛ تطلع من ناحية وتغيب في أخرى . وقيل : ذات الملائكة ؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد . وهذا قسم .
 (وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصُّدَعِ) قسم آخر ؛ أى تتصدع عن النبات والشجر والثمار والأنهار ؛ نظيره « ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا » الآية . وَالصُّدَعُ بمعنى الشق ؛ لأنه يصدع الأرض فتصدع به . وكأنه قال : والأرض ذات النبات ؛ لأن النبات صادع للأرض . وقال مجاهد : والأرض ذات الطرق التي تصدعها المشاة . وقيل : ذات الحرث لأنه يصدعها . وقيل : ذات الأموات ؛ لانصداعها عنهم للنشور . (إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ) على هذا وقع القسم .
 أى إن القرآن يفصل بين الحق والباطل . وقد تقدم في مقدمة الكتاب^(٢) ما رواه الحارث عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كتاب فيه خبر ما قبلكم وحكم ما بعدكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله » . وقيل : المراد بالقول الفصل ما تقدم من الوعيد في هذه السورة من قوله تعالى : « إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . يَوْمَ تُبَلَى السَّرَائِرُ » . (وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) أى ليس القرآن بالباطل واللعب . والهزل ضد الجذ ، وقد هزل يهزل . قال الكشي :
 * يُجَدُّ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَنَهْزِلُ^(٣) *

(إِنَّهُمْ) أى إن أعداء الله (يَكِيدُونَ كَيْدًا) أى يمكرون بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكراً . (وَأَكِيدُ كَيْدًا) أى أجازيهم جزاء كيدهم . وقيل : هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأمر . وقيل : كيد الله استدراجهم من حيث لا يملحون . وقد مضى هذا المعنى في أول « البقرة » عند قوله تعالى : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » . مستوفى^(٤) .

(١) آية ٢٦ سورة عبس . (٢) راجع ج ١ ص ٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) صدر البيت :

* أَرَانَا عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ وَطَوْلِهَا *

(٤) راجع ج ١ ص ٢٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (فَهَلِ الْكَافِرِينَ) أى أترحم ، ولا تسأل الله تعجيل إهلاكهم ، وأَرْض بما يدبره فى أمورهم . ثم نُسَخَتْ بآية السيف « فَأَقْلُو الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » .^(١)
 (أَهْلُهُمْ) تأكيد . ومَهْل وأمهل بمعنى ؛ مثل نزل وأنزل . وأمهله أنظره ومهله تمهيلة ، والاسم المهلة . والأستمهال الاستنظار . وتمهل فى أمره أى أتأد . وأتمهل أتمهللاً أى اعتدل وانتصب . والأتمهلل أيضاً سكون وفتور . ويقال : مهلاً يا فلان ؛ أى رفقاً وسكوناً .
 (رُوَيْدًا) أى قريباً ؛ عن ابن عباس . قتادة : قليلاً . والتقدير : أمهالهم إمهالاً قليلاً .
 والرُوَيْد فى كلام العرب تصغير رُوْد . وكذا قاله أبو عبيد . وأنشد :

• كأنها تميلُ يمشى على رُوْدٍ^(٢) •

أى على مهل . وتفسير « رُوَيْدًا » : مهلاً ، وتفسير رُوَيْدِكَ أمهل ؛ لأن الكاف إنما تدخله إذا كان بمعنى أفعل دون غيره ، وإنما حركت الدال لالقاء الساكنين ، فنُصِبَ نَصْبَ المصادر ، وهو مصغر ماوربه ؛ لأنه تصغير الترخيم من إرواد ؛ وهو مصدر أروِدَ يرود . وله أربعة أوجه : اسم للفعل ، وصفة ، وحال ، ومصدر ؛ فالأسم نحو قولك : رويدَ عمراً ؛ أى أروِدَ عمراً بمعنى أهله . والصفة نحو قولك : ساروا سيراً رويداً . والحال نحو قولك : سار القوم رويداً ؛ لما اتصل بالمعرفة صار حالاً لها . والمصدر نحو قولك : رويدَ عمرو بالإضائة ؛ كقوله تعالى : « فَضْرَبَ الرَّقَابِ »^(٣) قال جميعه الجوهري . والذي فى الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتاً للمصدر ؛ أى إمهالاً رويداً . ويجوز أن يكون للحال ؛ أى أمهالهم غير مستعجل لهم العذاب . ختمت السورة .

(١) فى بعض النسخ « يریده » . (٢) آية ٥ سورة التوبة .

(٣) هذا مجزئ بيت للموج الظفرى . صدره :

• تكاد لا تسلم البطحاء وطأنها •

(٤) آية ٤ سورة محمد .

سورة الأعلى

مكية في قول الجمهور. وقال الضحاك: مدنية. وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾

يستحب للقارئ إذا قرأ «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» أن يقول عقبه: سبحان ربِّي الأعلى؛ قاله النبي صلى الله عليه وسلم، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين؛ على ما يأتي. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: إن لله تعالى ملكاً يقال له حزقيئيل، له ثمانية عشر ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام، فخطره له خاطر: هل تقدر أن تبصر العرش جميعه؟ فزاده الله أجنحة مثلها، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام. ثم أوحى الله إليه: أيها الملك، أن يطير، فطار مقدار عشرين ألف سنة؛ فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش. ثم ضاعف الله له في الأجنحة والقوة وأمره أن يطير، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى، فلم يصل أيضاً؛ فأوحى الله إليه: أيها الملك، لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوتك لم تبلغ ساق عرشي. فقال الملك: سبحان ربِّي الأعلى؛ فأنزل الله تعالى «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اجعلوها في سجودكم». ذكره الثعلبي في (كتاب العرائس) له. وقال ابن عباس والسدي: معنى «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» أي عظم ربك الأعلى. والاسم صلة، فُصِدَ بِهَا تَعْظِيمُ الْمُسْمَى؛ كما قال لبيد:

• إلى الحول ثم اسم السلام عليكما^(١) •

(١) تمام: • ومن يك حولا كاملا فقد اعذر •

وقيل : نَزَّ رَبُّكَ عَنِ السَّوَاءِ وَعَمَّا يَقُولُ فِيهِ الْمَلْحَدُونَ . وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ أَنَّ الْمَعْنَى نَزَّ
 اسْمُ رَبِّكَ عَنِ أَنْ تَسْمَى بِهِ أَحَدًا سِوَاهُ . وَقِيلَ : نَزَّ تَسْمِيَةَ رَبِّكَ وَذَكَرَكَ إِيَّاهُ أَنْ تَذَكَرَهُ
 إِلَّا وَأَنْتَ خَاشِعٌ مَعْظَمٌ ، وَلِذَلِكَ مُحْتَرَمٌ . وَجَعَلُوا الْأَسْمَ بِمَعْنَى التَّسْمِيَةِ ، وَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ
 الْأَسْمُ هُوَ الْمَسْمَى . رَوَى نَافِعٌ عَنِ ابْنِ عَمْرِو قَالَ : لَا تَقُلْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ اسْمَ اللَّهِ هُوَ الْأَعْلَى .
 وَرَوَى أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : صَلَّى بِأَمْرِ رَبِّكَ الْأَعْلَى . قَالَ : وَهُوَ أَنْ تَقُولَ سُبْحَانَ
 رَبِّي الْأَعْلَى . وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عَمْرِو وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَأَبِي مُوسَى
 وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا افْتَتَحُوا قِرَاءَةَ هَذِهِ السُّورَةِ قَالُوا :
 سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى ؛ امْتِنَالًا لِأَمْرِهِ فِي ابْتِدَائِهَا . فَيَخْتَارُ الْاِقْتِدَاءَ بِهِمْ فِي قِرَاءَتِهِمْ ؛ لِأَنَّ
 سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى مِنَ الْقُرْآنِ ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الزُّبَيْرِ . وَقِيلَ : إِنَّهَا فِي قِرَاءَةِ أَبِي :
 «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى» . وَكَانَ ابْنُ عَمْرِو يَقْرؤها كَذَلِكَ . وَفِي الْحَدِيثِ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ : «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى» . قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَارِيُّ : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ
 شَهْرِبَارٍ قَالَ حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ الْأَسْوَدِ قَالَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَمَادٍ قَالَ حَدَّثَنَا عَيْسَى
 ابْنُ عَمْرِو عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قَرَأَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الصَّلَاةِ «سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى»
 ثُمَّ قَالَ : سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى ؛ فَلَمَّا انْقَضَتِ الصَّلَاةُ قِيلَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتَزِيدُ هَذَا
 فِي الْقُرْآنِ ؟ قَالَ مَا هُوَ ؟ قَالُوا : سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى . قَالَ : لَا ، إِنَّمَا أَمْرُنَا بِشَيْءٍ فَقَلْتُهُ .
 وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُذَيْمِيِّ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ «سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَجْعَلُوهَا فِي سَجُودِكُمْ» . وَهَذَا كَلِمَةٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَسْمَ هُوَ الْمَسْمَى ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا :
 سُبْحَانَ اسْمِ رَبِّي الْأَعْلَى . وَقِيلَ : إِنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى مِيكَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .
 وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَبْرِيْلَ : «يَا جِبْرِيْلُ أَخْبِرْنِي بِشَوَابٍ مِنْ قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى
 فِي صَلَاتِهِ أَوْ فِي غَيْرِ صَلَاتِهِ» . فَقَالَ : «يَا مَجْدُ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ يَقُولُهَا فِي سَجُودِهِ
 أَوْ فِي غَيْرِ سَجُودِهِ إِلَّا كَانَتْ لَهُ فِي مِيزَانِهِ أَنْقَلٌ مِنَ الْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ وَجِبَالِ لَدِيَا وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى
 صَدَقَ عَبْدِي أَنَا فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَيْسَ فَوْقَ شَيْءٍ . اشْهَدُوا يَا مَلَائِكَتِي أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ

وأدخلته الجنة . فإذا مات زاره ميكائيل كل يوم فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه فأوقفه بين يدي الله تعالى فيقول يا رب شفني فيه فيقول قد شفعتك فيه فاذهب به إلى الجنة . وقال الحسن : « سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » أي صلِّ لربك الأعلى . وقيل : أي صلِّ بأسماء الله لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتَّصْدِيَةِ^(١) . وقيل : ارفع صوتك بذكر ربك . قال جرير :
فَبِحِ الْإِلَهِ وَجْوهَ تَغْلِبُ كَلِمًا * سَبَّحَ الْمَجِيحُ وَكَبَّرُوا تَكْبِيرًا

قوله تعالى : الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى^(٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى^(٣)
وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى^(٤) بِجَعَلِهِ^(٥) غُنَاءً^(٦) أَحْوَى

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ﴾^(٢) قد تقدم معنى التسوية في « الأنفطار » وغيرها . أي سوى ما خلق فلم يكن في خلقه تشبيح . وقال الزجاج : أي عدل قامته . وعن ابن عباس : حَسَنٌ ما خلق . وقال الضحاك : خلق آدم فسوى خلقه . وقيل : خلق في أصلاب الآباء ، وسوى في أرحام الأمهات . وقيل : خلق الأجساد فسوى الأفهام . وقيل : أي خلق الإنسان وهبأه للتكليف . ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾^(٣) قرأ على رضي الله عنه والسلمى والكسائي « قَدَّرَ » مخففة الدال ، وشدد الباقون . وهما بمعنى واحد . أي قدر ووفق لكل شكل شكله . ﴿ فَهَدَى ﴾^(٤) أي أرشد . قال مجاهد : قدر الشقاوة والسعادة ، وهدى للرشد والضلالة . وعنه قال : هدى الإنسان للسعادة والشقاوة ، وهدى الأنعام لمراعياها . وقيل : قدر أفواتهم وأرزاقهم ، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسا ولمراعياهم إن كانوا وحشا . وروى عن ابن عباس والسدي ومقاتل والكلبي في قوله « فهدي » قالوا : عرف خلقه كيف يأتي الذكر الأنثى ؛ كما قال في (طه) : « أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى^(٤) » أي الذكر للأنثى . وقال عطاء : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له . وقيل : خلق المنافع في الأشياء ، وهدى الإنسان لوجه

(١) المكاء : الصفير . والتصدية : التصفيق . قال ابن عباس : « كانت فريش تطوف بالبيت عراة يصفقون

ويصفرون ؛ فكان ذلك عبادة في ظنهم » . (٢) راجع ج ١٩ ص ٢٢٤ (٣) التبيح : التخليط .

(٤) آية ٥٠ .

استخراجها منها . وقيل : « قَدَّرَ فَهَدَى » قدر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه ، وعرفه وجه الانتفاع به . يحكى أن الأفعى إذا أتت عليها ألف سنة عميت ، وقد ألهمها الله أن مسح العين بورق الرازيانج الغض يرد إليها بصرها ؛ فربما كانت في برية بينا وبين الريف مسيرة أيام فتطوى تلك المسافة على طولها وعلى عماها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها ، فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن الله تعالى . وهدايات الإنسان إلى ما لا يحذ من مصالحه وما لا يُحصر من حوائجه ، في أغذيته وأدويته ، وفي أبواب دنياه ودينه ، وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض ، باب واسع وشوط يطين لا يُحيط به وصف واصف ؛ فسبحان ربى الأعلى . وقال السدى : قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر وأقل وأكثر ، ثم هداه للخروج من الرحم . وقال الفراء : أى قدر فهدى وأضل ؛ فاكتفى بذكر أحدهما ؛ كقوله تعالى : « سَرَّابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ^(٢) » . ويحتمل أن يكون بمعنى دعا إلى الإيمان ؛ كقوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ^(٣) » أى لتدعو ، وقد دعا الكل إلى الإيمان . وقيل : « فهدى » أى دلّم بأفعاله على توحيدِهِ ، وكونه عالماً قادراً . ولا خلاف أن من شدد الدال من « قدر » أنه من التقدير ؛ كقوله تعالى : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا^(٤) » . ومن خفف فيحتمل أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى . ويحتمل أن يكون من القدرة والمُلك ؛ أى ملك الأشياء ، وهدى من شاء .

قلت : وسمعت بعض أشياني يقول : الذى خلق فسوى وقدر فهدى . هو تفسير العلوة الذى يليق بجلال الله سبحانه على جميع مخلوقاته .

قوله تعالى : « وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى^(٥) » أى النبات والكَلَّا الأخضر . قال الشاعر :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى • وتبقى حزازات النفوس كما هيا

(١) أى بعيد . (٢) آية ٨١ سورة النحل .

(٣) آية ٥٢ سورة الشورى . (٤) آية ٢ سورة الفرقان .

(٥) هوزفرين الحارث . والدمن : السرقين — الزبل — المنبلد بالبحر . والثرى : التراب والأرض .

(بِفَعْلِهِ غُنَاءٌ أَحْوَى) الغنَاء : ما يقذف به السيل على جوانب الوادي من الحشيش والنبات والقماش^(١) . وكذلك الغنَاء (بالتشديد) . والجمع الأغنَاء . فتادة : الغناء الشيء اليابس . ويقال للبقل والحشيش إذا تحطم وييس : غنَاء وهشيم . وكذلك للذي يكون حول الماء من القماش غنَاء ؛ كما قال :

كَأَنَّ طَيْبَةَ الْمُجَيْمِرِ غُدْوَةٌ * مِنَ السَّيْلِ وَالْأَغْنَاءِ فَلَكَّةٌ مَغْزَلٌ^(٢)

وحكى أهل اللغة : غنَّا الوادي وأنجفأ . وكذلك الماء إذا علاه من الزبد والقماش ما لا ينفع به . والأحوى : الأسود؛ أي إن النبات يضرب إلى الحوَّة من شدة الحضرة كالأسود . والحوَّة : السواد؛ قال الأعشى^(٤) :

لَيْبَاءُ فِي شَفْتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ * وَفِي اللَّثَاثِ وَفِي أُنْيَابِهَا شَنْبٌ

وفي الصحاح : والحوَّة سُمرَةُ الشَّفَّةِ . يقال : رجل أَحْوَى وأمرأة حَوَاءٌ ، وقد حَوَيْتُ . وبميرٍ أَحْوَى إذا خالط خضرتة سواد وُصفرة . وتصغير أَحْوَى أَحْيَوٌ ؛ في لغة من قال أُسْوِدَ . ثم قيل : يجوز أن يكون « أَحْوَى » حالاً من « المرعى » ، ويكون المعنى : كأنه من خضرتة يضرب إلى السواد ؛ والتقدير : أخرج المرعى أحوى بفعله غنَاء . يقال : قد حَوَى النَّبْتُ ؛ حكاها الكسائي . وقال :

(١) القماش (بالضم) : ما كان على وجه الأرض من فئات الأشياء . وقماش كل شيء . فئانه .

(٢) في بعض النسخ ومعلقة امرئ القيس :

* كَأَنَّ ذُرًّا رَأْسَ الْمُجَيْمِرِ غُدْوَةٌ *

وقد أشار التبريزي شارح المعلقة الى الرواية الأولى . قال : « والمجيمر » أرض لبني فزارة . وطمية : جبل في بلادهم . يقول : قد أمتلأ المجيمر ، فكان الجبل في الماء فلكة مغزل لما جمع السيل حوله من الغنَاء .

(٣) في المعلقة : « الغنَاء » قال التبريزي : ورواه الفراء « من السيل والأغنَاء » جمع الغنَاء ، وهو قليل في الممدود . قال أبو جعفر : من رواء الأغنَاء فقد أخطأ ؛ لأن غنَاء لا يجمع على أغنَاء ، وإنما يجمع على أغنية ؛ لأن أصله جمع الممدود وأضالاً جمع المقصور ، نحو رَحًا وأرحاء .

(٤) كذا في جميع نسخ الأصل ، وهو خطأ . والبيت لذى الرمة كما في ديوانه واللسان . واللياء من الشفاء : اللطيفة القليلة الدم . والعس (بفنحني) : لون الشفة إذا كانت تضرب الى السواد قليلاً ؛ وذلك يستملح . والشنب : برودة وعذوبة في الفم ورقة في الأسنان .

وغيث من الوشي حَوِيلًا ۖ * تَبَطَّتْهُ بِسَيْظِمٍ صَلْتَانٍ^(١)

ويجوز أن يكون « أحوى » صفة لـ « غشاء » . والمعنى : أنه صار كذلك بعد خضرته .
وقال أبو عبيدة : فجعله أسود من احتراقه وقدمه ، والرطب إذا يبس أسود . وقال
عبد الرحمن بن زيد : أخرج المرعى أخضر ، ثم لما يبس أسود من احتراقه فصار غشاء
تذهب به الرياح والسيول . وهو مثل ضربه الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها .

قوله تعالى : سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ۖ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ

الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۖ (٧) وَنُذِرُكَ لِلْبِئْسَى (٨)

قوله تعالى : (سَنُقْرِئُكَ) أى القرآن يا محمد فنعلمك (فَلَا تَنْسَى) أى فتحفظ ؛
رواه ابن وهب عن مالك . وهذه بشرى من الله تعالى ؛ بشره بأن أعطاه آية بيّنة ، وهى أن
يقرا عليه جبريل ما يقرا عليه من الوحي ، وهو أسمى لا يكتب ولا يقرا ، فيحفظه ولا ينساه .
وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : كان يتذكر مخافة أن ينسى فقيل : كَفَيْتَكَ . قال مجاهد
والكلبي : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحي ، لم يفرغ جبريل من
آخر الآية حتى يتكلم النبي صلى الله عليه وسلم بأولها ، مخافة أن ينساها ؛ فنزلت « سَنُقْرِئُكَ
فَلَا تَنْسَى » بعد ذلك شيئا فقد كَفَيْتَكَ . ووجه الاستثناء على هذا ، ما قاله الفراء : إلا ما شاء
الله وهو لم يشأ أن تنسى شيئا ؛ كقوله تعالى : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ^(٢) » ولا يشاء . ويقال فى الكلام : لأعطينك كلما سألت إلا ما شئت ، وإلا
أن أشاء أن أمنعك والنية على ألا يمنعه شيئا . فعلى هذا مجازى الأيمان ؛ يستثنى فيها ونية الخالف
التمام . وفى رواية أبي صالح عن ابن عباس : فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات ، « إلا ما شاء
الله » . وعن سعيد عن قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينسى شيئا ؛ « إلا

(١) الوشي : مطر أزل الربيع ؛ لأنه بسم الأرض بالنبات . نسب إلى الوم . والتلاع : جمع التلعة ؛ وهى أرض
مرتفعة غليظة يتردد فيها السبل ثم يدفع منها إلى تلة أسفل منها . وهى مكرمة من المنابت . وقيل : التلعة مجرى الماء
من أعلى الوادى إلى بطون الأرض . وتبطت : دخلت . والشظيم : الطويل الجسم الفقى من الناس والحيل . والصلتان :
النشط الحديد الفؤاد من الحيل . (٢) آية ١٠٨ سورة هود .

ما شاء الله . « . وعلی هذه الأقوال قيل : إلا ما شاء الله أن ينسى ، ولكنه لم ينس شيئا منه بعد نزول هذه الآية . وقيل : إلا ما شاء الله أن ينسى ثم يذكر بعد ذلك ؛ فإذا قد نسي ، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسيانا كليا . وقد روى أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة ، فحسب أبي أنها نسخت ، فسأله فقال : « إني نسيتها » . وقيل : هو من النسيان ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسبك . ثم قيل : هذا بمعنى النسخ ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسخه . والاستثناء نوع من النسخ . وقيل : النسيان بمعنى الترك ؛ أي يعصمك من أن تترك العمل به ؛ إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه . فهذا في نسخ العمل ، والأقول في نسخ القراءة . قال الفرغاني : كان يفتي مجلس الجنيد أهل البسط من العلوم ، وكان يغشاه ابن كيسان النحوي ، وكان رجلا جليلا ؛ فقال يوما : ما تقول يا أبا القاسم في قول الله تعالى : « سَتَقْرِيكَ فَلَا تَنْسَى » ؟ فأجابه مسرعا - كأنه تقدم له السؤال قبل ذلك بأوقات - : لا تنسى العمل به . فقال ابن كيسان : لا يفضض الله فاك ! مثلك من يصدر عن رأيه . وقوله : « فلا » للنهي لا للنهي . وقيل : للنهي ؛ وإنما أثبت الياء لأن رءوس الآي على ذلك . والمعنى : لا تغفل عن قراءته وتكراره فتساه ؛ إلا ما شاء الله أن ينسبك برفع تلاوته للمصاحفة . والأقول هو المختار ؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتا معلوما . وأيضاً فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف وعليها القراء . وقيل : معناه إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله . وقيل : المعنى فجعله غناء أحوى إلا ما شاء الله أن يناله بنو آدم والبهائم ؛ فإنه لا يصير كذلك .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ ﴾ أي الإعلان من القول والعمل . ﴿ وَمَا يَخْفَى ﴾ من السر . وعن ابن عباس : ما في قلبك ونفسك . وقال محمد بن حاتم : يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها . وقيل : الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك . « وما يخفى » هو ما نسخ من صدرك . ﴿ وَيَسْرُكَ ﴾ معطوف على « ستقريتك » وقوله : « إنه يعلم الجهر وما يخفى » اعتراض . ومعنى ﴿ لِلْيَسْرَى ﴾ أي للطريقة اليسرى ؛ وهي عمل الخير . قال ابن عباس : يسرك لأن تعمل خيرا . ابن مسعود : « اليسرى » أي للجنة . وقيل : نوفك للشريعة اليسرى ؛ وهي الحنيفية السمحة المهللة ؛ قال معناه الضحاك . وقيل : أي نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به .

قوله تعالى : فَذَكَرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَكَرْ ﴾ أى فِعْظُ قَوْمِكَ يا مَعْدُ بِالْقُرْآنِ . ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ أى الموعظة . وروى يونس عن الحسن قال : تذكرة للمؤمن وحجة على الكافر . وكان ابن عباس يقول : تنفع أوليائى ولا تنفع أعدائى . وقال الجرجاني : التذكير واجب وإن لم ينفع . والمعنى : فذكر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع ، فحذف كما قال : « سَرَّابِيلَ تَقِيكُمْ ^(١) اَحْرًا » . وقيل : إنه مخصوص بأقوام بأعيانهم . وقيل : إن « إن » بمعنى ما ، أى فذكر ما نفعت الذكرى ، فتكون « إن » بمعنى ما ، لا بمعنى الشرط ؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال ؛ قاله ابن شجرة . وذكر بعض أهل العربية : أن « إن » بمعنى إذ ؛ أى إذ نفعت ؛ كقوله تعالى : « وَأَنْتُمْ ^(٢) الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى إذ كنتم ؛ فلم ينجر بعلوهم إلا بعد إيمانهم . وقيل : بمعنى قد .

قوله تعالى : سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١١﴾

أى مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ وَيَخَافُهُ . فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : نزلت في ابن أم مكتوم . الماوردى : وقد يذكّر من يرجوه ، إلا أن تذكرة الخاشى أبلغ من تذكرة الراجى ؛ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء ، وإن تعلقت بالخشية والرجاء . وقيل : أى عم أنت التذكير والوعظ ، وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى ، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء ؛ حكاه القشيري .

قوله تعالى : وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١٢﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٣﴾

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ﴾ أى ويتجنب الذكرى ويبعد عنها . ﴿ الْأَشْقَى ﴾ أى الشقى فى علم الله . وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة . ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾

(٢) آية ١٣٩ سورة آل عمران .

(١) آية ٨١ سورة النحل .

أى العظمى، وهى السفلى من أطباق النار؛ قاله الفراء . وعن الحسن : الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا ؛ وقاله يحيى بن سلام . (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) أى لا يموت فيستريح من العذاب ولا يحيى حياة تنفعه ؛ كما قال الشاعر :

ألا ما لنفيس لا تموت فينقضى * عنها ولا تحيا حياة لها طعم

وقد مضى فى « النساء »^(١) وغيرها حديثُ أبى سعيد الخدرى ، وأن الموحِّدين من المؤمنين إذا دخلوا جهنم — وهى النار الصغرى على قول الفراء — احترقوا فيها وماتوا؛ إلى أن يُشفع فيهم . خرَّجه مسلم . وقيل : أهل الشقاء متفاوتون فى شقائهم ، وهذا الوعيد للأشقى ، وإن كان تمَّ شقُّ لا يبلغ هذه المرتبة .

قوله تعالى : **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى** ﴿١٤﴾ **وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى** ﴿١٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(قَدْ أَفْلَحَ)** أى قد صادف البقاء فى الجنة ؛ أى من تطهر من الشرك بالإيمان ؛ قاله ابن عباس وعطاء وعكرمة . وقال الحسن والربيع : من كان عمله زاكياً نامياً . وقال معمر عن قتادة : « تَزَكَّى » قال بعمل صالح . وعنه وعن عطاء وأبى العالية : نزلت فى صدقة الفطر . وعن ابن سيرين « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » قال : خرج فصلتى بعد ما أذى . وقال عكرمة : كان الرجل يقول أقدم زكأتى بين يدي صلأتى . فقال سفيان : قال الله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » . وروى عن أبى سعيد الخدرى وابن عمر أن ذلك فى صدقة الفطر وصلاة العيد . وكذلك قال أبو العالية ، وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء . وروى كثير بن عبد الله عن أبيه عن جدّه عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » قال : « أخرج زكاة الفطر » ، « وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » قال : « صلاة العيد » . وقال ابن عباس والضحاك : « وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ » فى طريق المصلى . « فصلى » صلاة العيد . وقيل : المراد

(١) راجع ج ٥ ص ١٩٦

بالآية زكاة الأموال كلها ؛ قاله أبو الأحوص وعطاء . وروى ابن جريج قال قلت لعطاء : « قد أفلح من تزكى » للفطر ؟ قال : هي للصدقات كلها . وقيل : هي زكاة الأعمال لا زكاة الأموال ؛ أي تطهر في أعماله من الرياء والتقصير ؛ لأن الأكثر أن يقال في المال : زكى ، لا تزكى . وروى جابر بن عبد الله قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » أي من شهد أن لا إله إلا الله وخلع الأنداد وشهد أنى رسول الله . وعن ابن عباس « تزكى » قال : لا إله إلا الله . وروى عنه عطاء قال : نزلت في عثمان بن عفان رضى الله عنه ! قال : كان بالمدينة منافق كانت له نخلة بالمدينة مائلة في دار رجل من الأنصار ، إذا هبت الرياح أسقطت البُسْر والرُّطْب إلى دار الأنصارى ، فبأكل هو وعياله ، فخاصمه المنافق ؛ فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه فقال : « إن أخاك الأنصارى ذكر أن بسرك ورطبك يقع إلى منزله فبأكل هو وعياله فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها ؟ » فقال : أبيع عاجلا بأجل ! لا أفعل . فذكروا أن عثمان ابن عفان أعطاه حائطا من نخل بدل نخلته ؛ ففيه نزلت « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » . ونزلت في المنافق « وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى » . وذكر الضحاك أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضى الله عنه .

الثانية — قد ذكرنا القول في زكاة الفطر في سورة «البقرة» مستوفى . وقد تقدم أن هذه السورة مكية ؛ في قول الجمهور ، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر . القشيري : ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمثل أمره في صدقة الفطر و صلاة العيد فيما يأمر به في المستقبل .
الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ أي ذكر ربه . وروى عطاء عن ابن عباس قال : يريد ذكر معاده وموقفه بين يدي الله جل ثناؤه ، فعبدته وصلّى له . وقيل : ذكر اسم ربه بالكبير في أول الصلاة لأنها لا تنعقد إلا بذكره ؛ وهو قوله : الله أكبر . وبه يُحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة ؛ لأن الصلاة معطوفة عليها . وفيه حجة لمن قال : إن الافتتاح جائز بكل اسم من أسماء الله عز وجل . وهذه مسألة خلافية

(١) راجع ج ١ ص ٣٤٣ طبعة ثانية أو ثالثة .

بين الفقهاء . وقد مضى القول في هذا في أول سورة «البقرة»^(١) ، وقيل : هي تكبيرات العيد . قال الضحاك : « وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ » في طريق المصلى «فصلّى» ؛ أى صلاة العيد . وقيل : « وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ » وهو أن يذكره بقلبه عند صلاته فيخاف عقابه ويرجو ثوابه ؛ ليكون استيفاءً لها وخشوعاً فيها بحسب خوفه ورجائه . وقيل : هو أن يفتتح أول كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم . «فصلّى» أى فصلّى وذَكَرَ . ولا فرق بين أن تقول : أكرمتنى فزرتنى ، وبين أن تقول : زرتنى فآكرمتنى . قال ابن عباس : هذا في الصلاة المفروضة ، وهى الصلوات الخمس . وقيل : الدعاء ؛ أى دعاء الله بمجوانج الدنيا والآخرة . وقيل : صلاة العيد ؛ قاله أبو سعيد الخدرى وابن عمر وغيرهما . وقد تقدم . وقيل : هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاته ؛ قاله أبو الأحوص ، وهو مقتضى قول عطاء . وروى عن عبد الله قال : من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له .

قوله تعالى : **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴿١٦﴾

قراءة العامة « بَلْ تُؤْثِرُونَ » بالتاء ؛ تصديقه قراءة أبيّ « بل أتمُّ تُؤْثِرُونَ » . وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم « بل يؤثرون » بالياء على الغيبة ؛ تقديره : بل يؤثرون الأشقون الحياة الدنيا . وعلى الأول فيكون تأويلها بل تؤثرون أيها المسلمون الاستكثار من الدنيا للاستكثار من الثواب . وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية فقال : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ لأن الدنيا حُضرت ومُجِّلت لنا طيباتها وطعامها وشرابها ولذاتها وبهجتها ، والآخرة غُيبت عنا فأخذنا العاجل وتركنا الآجل . وروى ثابت عن أنس قال : كما مع أبى موسى في مسير والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا . قال أبو موسى : يا أنس ، إن هؤلاء يكاد أحدهم يقري الأديم بلسانه قرئاً فتعال فلنذكر ربنا

(١) راجع ج ١ ص ١٧٥ طبعة ثانية أو تالفة .

ساعة . ثم قال : يا أنس ، ما نبر الناس ! ما بظأهم ! ؟ قلت : الدنيا والشيطان والشهوات .
قال : لا ، ولكن تجلت الدنيا وغُيبت الآخرة ، أما والله لو عاينوها ما عدلوا ولا ميلوا .^(۲)

قوله تعالى : **وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴿۱۷﴾

أى والدار الآخرة ؛ أى الجنة . (خَيْرٌ) أى أفضل . (وَأَبْقَى) أى أَدْوَم من الدنيا .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه فى اليمّ فليُنظر
بِم يرجع " صحيح . وقد تقدم .^(۳) وقال مالك بن دينار : لو كانت الدنيا من ذهب يَفْنَى ،
والآخرة من حَرْف يَبْقَى ، لكان الواجب أن يُؤثر حَرْفُ يَبْقَى على ذهب يَفْنَى . قال : فكيف
والآخرة من ذهب يَبْقَى والدنيا من حَرْف يَفْنَى .

قوله تعالى : **إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى** ﴿۱۸﴾ **صُّحُفِ إِبْرَاهِيمَ**

وَمُوسَى ﴿۱۹﴾

قوله تعالى : (**إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى**) قال قتادة وابن زيد : يريد قوله
« **وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** » . وقالوا : تتابعت كتب الله جل ثناؤه — كما تسمعون — أن الآخرة
خير وأبقى من الدنيا . وقال الحسن : « **إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى** » قال : كُتِبُ اللهُ
جل ثناؤه كلها . الكلبي : « **إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى** » من قوله : « **قد أفلح** » إلى
آخر السورة ؛ لحديث أبي ذر على ما يأتى . وروى عكرمة عن ابن عباس : « **إِنَّ هَذَا لَنِي**
الصُّحُفِ الْأُولَى » قال : هذه السورة . وقال الضحاك : إن هذا القرآن لنى الصحف
الأولى ؛ أى الكتب الأولى . (**صُّحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**) يعنى الكتب المنزلة عليهما . ولم
يُرد أن هذه الألفاظ بعينها فى تلك الصحف ، وإنما هو على المعنى ؛ أى إن معنى هذا الكلام
وارد فى تلك الصحف . وروى الأجرى من حديث أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ، فما

(۱) الثبر : الحبس ؛ أى ما الذى صدمهم ومنعهم عن طاعة الله .

(۲) قوله « ما عدلوا » : ما ساووا بها شيئاً . وقوله « ولا ميلوا » : أى ما شكروا ولا تردوا .

(۳) راجع ج ۴ ص ۳۲۰

كانت صحف إبراهيم؟ قال: " كانت أمثالا كلها : أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردّها ولو كانت من فم كافر . وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له [ثلاث^(١)] ساعات : ساعة ينجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه يفكر فيها في صنع الله عز وجل إليه ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا في ثلاث : تزود لمعاد ، ومرة لمعاش ، ولذة في غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه . ومن عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعينه " . قال : قلت يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى؟ قال . " كانت عبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح . وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب . وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يعطمئن إليها . وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل " . قال : قلت يا رسول الله ، فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى مما أنزل الله عليك؟ قال : " نعم اقرأ يا أبا ذر « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى . إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » . وذكر الحديث .

سورة الغاشية

وهي مكّية في قول الجميع ، وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾

« هل » بمعنى قد ؛ كقوله : « هل أتى على الإنسان » ؛ قاله قطرب . أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية ؛ أي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها ؛ قاله أكثر المفسرين . وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب : « الغاشية » النار تغشى وجوه الكفار ؛ ورواه أبو صالح

(١) زيادة من الدر المنثور . (٢) في الدر المنثور : « يحاسب فيها نفسه ويفكر فيها صنع ... » .

(٣) آية ١ سورة الإنسان .

عن ابن عباس ؛ ودليله قوله تعالى : « وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ »^(١) . وقيل : تغشى الخلق .
 وقيل : المراد النفخة الثانية للبعث ؛ لأنها تغشى الخلائق . وقيل : « الغاشية » أهل النار
 يَغْشَوْنَهَا وَيَقْتَحِمُونَ فِيهَا . وقيل : معنى « هل أتاك » أى هذا لم يكن من علمك ولا من علم
 قومك . قال ابن عباس : لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيل المذكور هنا . وقيل :
 إنها خرجت مخرج الاستفهام لرسوله ؛ ومعناه إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك ؛ وهو
 معنى قول الكلبي .

قوله تعالى : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٤﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٥﴾ »

قال ابن عباس : لم يكن أتاه حديثهم فأخبره عنهم فقال : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ » أى يوم
 القيامة . « خَاشِعَةٌ » قال سفيان : أى ذليلة بالعذاب . وكل متضائل ساكن خاشع . يقال :
 خشع فى صلاته إذا تذل ونكس رأسه . وخشع الصوت : خنى ؛ قال الله تعالى :
 « وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ^(٢) » . والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه . وقال قتادة وابن زيد :
 « خاشعة » أى فى النار . والمراد وجوه الكفار كلهم ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : أراد
 وجوه اليهود والنصارى ؛ قاله ابن عباس . ثم قال : « عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ » فهذا فى الدنيا ؛ لأن
 الآخرة ليست دار عمل . فالمعنى : وجوه عاملة ناصبة فى الدنيا « خاشعة » فى الآخرة .
 قال أهل اللغة : يقال للرجل إذا دأب فى سيره : قد عمل يعمل عملاً . ويقال للسحاب
 إذا دام برقه : قد عمل يعمل عملاً . وذا سحاب عمل . قال الهذلي^(٣) :

حتى شأها كليل موهناً عمل * باتت طرابا وبات الليل لم يتم

(١) آية ٥ . سورة إبراهيم . (٢) آية ١٠٨ سورة طه .

(٣) هو مساعدة بن جؤبة . وقوله « شأها » : أى سافها . والكليل : البرق الضعيف . والمومن : القطعة
 من الليل . وباتت طرابا : أى باتت البقر العطاش طرابا إلى السير إلى الموضع الذى فيه البرق . وبات البرق الليل أجمع
 لا يفتر ؛ فغير من البرق بأنه لم يتم لانصاله من أول الليل إلى آخره (راجع هذا البيت والكلام طيه فى خزنة الأدب
 الشاهد الرابع بعد الستائة) .

(نَاصِبَةٌ) أى تَعَبَةٌ . يقال : نَصَبَ (بالكسر) يَنْصِبُ نَصَبًا إِذَا تَعَبَ ، وَنَصَبًا أَيضًا ، وَأَنْصَبَهُ غَيْرَهُ . فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل وعلى الكفر ، مثل عبدة الأوثان ، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم ، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصا له . وقال سعيد عن قتادة : « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » قال : تكبرت في الدنيا عن طاعة الله عز وجل فأعملها الله وأنصبها في النار بجر السلاسل الثقال وحمل الأغلال ، والوقوف حفاة عُرَاءَةً في العرصات في يوم كان مقداره خمسين الف سنة . قال الحسن وسعيد بن جبیر : لم تَعْمَلِ لِيهِ في الدنيا ولم تَنْصَبْ لَهُ فَأَعْمَلَهَا وَأَنْصَبَهَا في جهنم . وقال الكلبي : يُجْتَرُونَ عَلَى وجوههم في النار . وعنه وعن غيره : يُكَلَّفُونَ ارتقاء جبل من حديد في جهنم ، فيَنْصَبُونَ فيها أشد ما يكون من النَّصَبِ ، بمعالجة السلاسل والأغلال والحوض في النار ، كما تخوض الإبل في الوحل ، وارتقاءها في صعود من نار ، وهبوطها في حذور منها ، إلى غير ذلك من عذابها . وقاله ابن عباس . وقرأ ابن محيَّصن وعيسى وحُميد ، ورواها عبيد عن شبل عن ابن كثير « نَاصِبَةٌ » بالنصب على الحال . وقيل : على الذم . الباؤون (بالرفع) على الصفة أو على إضمار مبتدأ فيوقف على « خاشعة » . ومن جعل المعنى في الآخرة جاز أن يكون خبراً بعد خبر عن « وجوه » فلا يوقف على « خاشعة » . وقيل : « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » أى عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة . وعلى هذا يحتمل : وجوه يومئذ عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة خاشعة . قال عكرمة والسُّدِّي : عَمِلَتْ في الدنيا بالمعاصي . وقال سعيد بن جبیر وزيد بن أسلم : هم الرهبان أصحاب الصوامع ، وقاله ابن عباس . وقد تقدم في رواية الضحاك عنه . وروى عن الحسن قال : لما قدم عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — الشام أتاه راهب شيخ كبير متقهَّل ، عليه سواد ، فلما رآه عمر بكى . فقيل له : يا أمير المؤمنين ما يبكيك ؟ قال : هذا المسكين طلب أمرا فلم يصبه ، ورجا رجاء فأخطاه ، — وقرأ قول الله عز وجل — « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ » . قال الكسائي :

التقهيل : رثاءة الهيئة ، ورجل مُتْقَهِّلٌ يابس الجلد سيء الحال مثل المتقفل . وقال أبو عمرو :
التقهيل : شكوى الحاجة . وأنشد :

* لَعُوا إِذَا لَاقِيَتْهُ تَقَهَّلًا *^(۱)

والقَهْلُ : كُفْران الإحسان . وقد قَهَلَ يَقْهَلُ قَهْلًا إِذَا أَثْنَى ثَنَاءً قَبِيحًا . وأقهل الرجل
تكلّف ما يعيبه ودنّس نفسه . وأنقهل ضَعْفٌ وسَقَطٌ ؛ قاله الجوهري . وعن عليّ رضي
الله عنه أنهم أهل حروراء ؛ يعنى الخوارج الذين ذكروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
” تَحْفِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ وَأَعْمَالَكُمْ مَعَ أَعْمَالِهِمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ
كَمَا يَمْرُقُ السَّمُّ مِنَ الرِّمِيَّةِ “ الحديث .

قوله تعالى : تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤١﴾

أى يصيبها صلاؤها وحرها . (حَامِيَةٌ) شديدة الحر ؛ أى قد أوقدت وأحيت
المدة الطويلة . ومنه حمى النهار (بالكسر) وحمى النور حمياً فيهما ؛ أى اشتد حره . وحكى
الكسائى : اشتد حمى الشمس وحموها بمعنى . وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب « تَصَلَّى »
بضم التاء . الباقون بفتحها . وقرئ « تَصَلَّى » بالتشديد . وقد تقدم القول فيها فى « إِذَا السَّمَاءُ
أَنْشَقَّتْ » . الماوردى : فإن قيل فامعنى وصفها بالحمى ، وهى لا تكون إلا حامية ، وهو أقل
أحوالها ، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة ؟ قيل : قد اختلف فى المراد بالحامية ها هنا
على أربعة أوجه ؛ أحدها — أن المراد بذلك أنها دائماً الحمى ، وليست كآثار الدنيا التى ينقطع
حميها بانطفائها . الثانى — أن المراد بالحامية أنها حمى من ارتكاب المحظورات وانتهاك
المحارم ؛ كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : ” إِنْ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى وَأَنْ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمَهُ . ” ومن

(۱) اللعوا : السبي ، الخلق . والشرة الحرص . (۲) أى تمدون صلواتكم حفيرة بالنظر إلى صلواتهم .

(۳) راجع ج ۱۹ ص ۲۷۰

يَرْتَع حَوْلَ الْحَمَى يُوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ « . الثالث - أنها تحمى نفسها عن أن تطاق ملامستها أو ترام ملامستها؛ كما يحمى الأسد عرينه؛ ومثله قول النابغة :

تَعْدُو الذَّنَابَ عَلَى مَنْ لَا كَلَابَ لَهُ * وَتَتَّقِي صَوْلَةَ الْمَسْتَأْسِدِ الْحَامِي

الرابع - أنها حامية حتى غيظ وغضب؛ مبالغة في شدة الانتقام . ولم يرد حتى حرم وذات؛ كما يقال: قدحى فلان إذا أغناظ وغضب عند إرادة الانتقام . وقد بين الله تعالى بقوله هذا المعنى فقال: « تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ^(١) » .

قوله تعالى: تَسْقَى مِنَ عَيْنٍ آَنِيةٍ ﴿٥٠﴾

الآنى الذى قد انتهى حره؛ من الإيناء بمعنى التأخير . ومنه « آَنِيتٌ وَآذِيَتٌ » ^(٢) .
وأنه يؤنيه إيناء؛ أى آحره وحبسه وأبطاه . ومنه « يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمِ آَنِ ^(٣) » .
وفى التفاسير « مِنْ عَيْنٍ آَنِيةٍ » أى تنهى حرها؛ فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت .
وقال الحسن: « آَنِيةٍ » أى حرها أدارك؛ أوقدت عليها جهنم منذ خلقت فدفعوا إليها وردًا عطاشًا . وعن ابن أبي تجيج عن مجاهد قال: بلغت أنها وحان شربها .

قوله تعالى: لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ ﴿٥١﴾

قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ ﴾ أى لأهل النار . ﴿ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ ﴾ لما ذكر شراهم ذكر طعامهم . قال عكرمة ومجاهد: الضريع نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشبرق إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه؛ وهو سم قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه؛ على هذا عاقة المفسرين . إلا أن الضحاك روى عن ابن عباس قال: هو شئ يرمى به البحر يسعى الضريع من أقوات الأنعام

(١) آية ٨ سورة الملك . (٢) أى فى الحديث فى صلاة الجمعة؛ إذ قيل لرجل جاء يوم الجمعة يخطب

رقاب الناس . ومعنى « آَنِيتٌ » أحرى الحمى وأبطات . و « آذيتٌ » أى آذيت الناس بخطبك .

(٣) آية ٤٤ سورة الرحمن .

لا الناس، فإذا وقعت فيه الإبل لم تشبع، وهلكت هزلاً . والصحيح ما قاله الجمهور أنه نبت . قال أبو ذؤيب^(١) :

رَعَى الشَّبْرُقَ الرَّيَّانَ حَتَّى إِذَا ذَوَى * وَعَادَ ضَرِيْعًا بَانَ مِنْهُ النَّعَائِصُ^(٢)

وقال الهذلي^(٣) وذكر إبلًا وسوء مرعاها :

وَحُبْسِنٌ فِي هَزْمِ الضَّرِيْعِ فَكَلَّهَا * حَدْبَاءُ دَائِمَةُ الْيَدَيْنِ حَرُودُ^(٤)

وقال الخليل : الضريع نبات أخضر مُتْنُ الرِّيحِ يرمى به البحر . وقال الوالي عن ابن عباس : هو شجر من نار، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها . وقال سعيد بن جبير : هو الحجارة، وقاله عكرمة . والأظهر أنه شجر ذو شوك حسب ما هو في الدنيا . وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الضريع شيء يكون في النار يشبه الشوك أشد مرارة من الصبر وأتقن من الجيفة وأحر من النار سماه الله ضريعا " . وقال خالد بن زياد : سمعت المتوكل بن حمدان يُسأل عن هذه الآية « ليس لهم طعام إلا من ضريع » قال : بلغني أن الضريع شجرة من نار جهنم، حُمْلُهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، أشد مرارة من الصبر؛ فذلك طعامهم . وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب . وقال ابن كيسان : هو طعام يضرعون عنده ويذَلُّون ، ويتضرعون منه إلى الله تعالى طلبا للخلاص منه؛ فَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ آكَلُهُ يَضْرَعُ فِي أَنْ يُعْفَى مِنْهُ لِهَرَاثَتِهِ وَخَشَوْنَتِهِ . قال أبو جعفر النحاس : قد يكون مشتقا من الضارع وهو الذليل؛ أي ذو ضراعة، أي من شربه ذليل تلحقه ضراعة . وعن الحسن أيضا : هو الزقوم . وقيل : هو وادٍ في جهنم . فانه أعلم . وقد قال الله تعالى في موضع

(١) لم نثر على هذا البيت في ديوان أبي ذؤيب .

(٢) في بعض نسخ الأصل : «بان عنه النعائص» . والنعائص : جمع النحوص (بفتح النون) وهي الأمان

الوحشية الحائل . وقيل : هي التي في بطنها ولد . وقيل : التي لا ابن لها .

(٣) هو فليس بن عيزارة كما في اللسان . (٤) هزم الضريع : ما تكسر منه . والحدياء : الناقة

التي بدت حرافها وعظم ظهرها . والحرود : التي لا تكاد تدر .

آخر: « قَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ^(١) » . وقال هنا : « إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ » وهو غير الغسليين . ووجه الجمع أن النار دركات ، فمنهم من طعامه الزقوم ، ومنهم من طعامه الغسليين ، ومنهم من طعامه الضريح ، ومنهم من شربه الحميم ، ومنهم من شربه الصديد . قال الكلبي : الضريح في درجة ليس فيها غيره ، والزقوم في درجة أخرى . ويجوز أن تحمل الآياتان على حالتين كما قال : « يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ^(٢) آيٍ » . القُتَيْبِيُّ : ويجوز أن يكون الضريح وشجرة الزقوم نبتين من النار ، أو من جوهر لا تأكله النار . وكذلك سلاسل النار وأغلاها وعقاربها وحياتها ، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار . قال : وإنما دلنا الله على الغائب عنده بالحاضر عندنا ؛ فالأسماء متفقة الدلالة ، والمعاني مختلفة . وكذلك ما في الجنة من شجرها وفُرُشِهَا . القُشَيْرِيُّ : وأمثلة من قول القُتَيْبِيِّ أن نقول : إن الذي يُبْقَى الكافرين في النار ليدوم عليهم العذاب ، يُبْقَى النبات وشجرة الزقوم في النار ليعذب بها الكفار . وزعم بعضهم أن الضريح بعينه لا ينبت في النار ولا أنهم يأكلونه . فالضريح من أقوات الأنعام لا من أقوات الناس . وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع وهلكت هُزُلًا . فأراد أن هؤلاء يقتاتون بما لا يشبعهم ، وضرب الضريح له مثلاً أنهم يعذبون بالجوع كما يعذب من قُوته الضريح . قال الترمذي الحكيم : وهذا نظر سقيم من أدله وتأويل دنيء ؛ كأنه يدل على أنهم تحيروا في قدرة الله تعالى ، وأن الذي أنبت في هذا التراب هذا الضريح قادر على أن ينبت في حريق النار ؛ كما جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر نارا ، فلا النار تحرق الشجر ، ولا رطوبة الماء في الشجر تطفى النار ؛ فقال تعالى : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقِدُونَ^(٣) » . وكما قيل حين نزلت « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ^(٤) » : قالوا يا رسول الله ، كيف يمشون على وجوههم ؟ فقال : « الَّذِي

(١) آية ٣٥ و ٣٦ سورة الحاقة .

(٢) آية ٤٤ سورة الرحمن .

(٣) آية ٨٠ سورة يس .

(٤) آية ٩٧ سورة الإسراء .

أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم « . فلا يتحير في مثل هذا إلا ضعيف القلب . أو ليس قد أخبرنا أنه « كلما نضجت جلودهم بدلتناهم جلوداً غيرها » ، وقال : « سرابيلهم من قِطْرَانٍ » (۲) ، وقال : « إنا لَدَيْنَا أَنْكَالٌ » (۳) أي قيوداً . « وَجَحِيحًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ » قيل : ذا شوك . وإنما يتلون عليهم العذاب بهذه الأشياء .

قوله تعالى : لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾

يعنى الضريع لا يسمن آكله . وكيف يسمن من يأكل الشوك ! قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية قال المشركون : إن إبلنا لتسمن بالضريع ، فنزلت « لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ » . وكذبوا ، فإن الإبل إنما ترعاه رطبا فإذا يبس لم تأكله . وقيل : اشبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبات النافع ؛ لأن المضارعة المشابهة . فوجدوه لا يسمن ولا يغني من جوع . (۴)

قوله تعالى : وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ) أي ذات نعمة . وهي وجوه المؤمنين ؛ نعمت بما هاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح . (لِسَعْيِهَا) أي لعملها الذي عملته في الدنيا . (رَاضِيَةٌ) في الآخرة حين أعطيت الجنة بعملها . ومجازه : ثواب سعيها راضية . وفيها واو مضمره . المعنى : ووجوه يومئذ ؛ ليفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة . والوجوه عبارة عن الأنفس . (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ) أي مرتفعة ؛ لأنها فوق السموات حسب ما تقدم . وقيل : عالية القدر ؛ لأن فيها ما تشبهه الأنفس وتلد الأعين . وهم فيها خالدون .

(۲) آية ۵۰ سورة إبراهيم .

(۱) آية ۵۶ سورة النساء .

(۴) في بعض النسخ : « لا يشبه » .

(۳) آية ۲ : سورة المزمل .

قوله تعالى : لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾

أى كلاما ساقطا غير مرضى . وقال : « لاغية » واللغو واللغا واللاغية بمعنى واحد . قال :
* عن اللغا ورَفِيَتْ التَّكَلِّمُ ^(١) *

وقال الفراء والأخفش : أى لا تسمع فيها كلمة لغو . وفى المراد بها ستة أوجه : أحدها - يعنى كذبا وبهتاناً وكفرا بالله عز وجل ؛ قاله ابن عباس . الثانى - لا باطل ولا إثم ؛ قاله قتادة . الثالث - أنه الشتم ؛ قاله مجاهد . الرابع - المعصية ؛ قاله الحسن . الخامس - لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب ؛ قاله الفراء . وقال الكلبي : لا يسمع فى الجنة حالف يمين برة ولا فاجرة . السادس - لا يسمع فى كلامهم كلمة بلغو ؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعم الدائم ؛ قاله الفراء أيضا . وهو أحسنها لأنه يعنى ما ذكر . وقرأ أبو عمرو وابن كثير « لا يُسْمَعُ » بياء غير مسمى الفاعل . وكذلك نافع إلا أنه باتساء المضمومة ؛ لأن اللاغية اسم مؤنث فأنث الفعل لتأنيته . ومن قرأ بالياء فلا أنه حال بين الاسم والفعل الجار والمجرور . وقرأ الباقون بالتاء مفتوحة . (لاغية) نصبا على إسناد ذلك للوجود ؛ أى لا تسمع الوجوه فيها لاغية .

قوله تعالى : فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَنْكُوبٌ

مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَنَْارِقٌ مَضْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَائِبٌ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ) أى بماء مندفق ، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أخدود . وقد تقدم فى سورة « الإنسان » أن فيها عيوناً . فـ « عَيْنٌ » بمعنى عيون . والله أعلم . (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ) أى عالية . وروى أنه كان ارتفاعها قدر ما بين

(١) قبله : * وَرَبِّ أَسْرَابٍ جَمِيعٍ كُتِّمٍ * فأنله رؤية . وسبب ابن برى للعجاج .

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٢٤ ، ١٤٠

السماء والأرض، ليرى ولي الله ملكه حوله . (وَأَكْوَابٌ مُّوَضُّوعَةٌ) أى أباريق وأوان .
والإبريق : هو ماله عُروة وخرطوم . والكوب : إناء ليس له عُروة ولا خرطوم . وقد
تقدم هذا فى سورة « الزخرف »^(١) وغيرها . (وَنَمَارِقُ) أى وسائد ، الواحدة نُمْرُقَةٌ .
(مَصْفُوفَةٌ) أى واحدة إلى جنب الأخرى . قال الشاعر :

وإنا لنجربى الكاس بين شروبنا * وبين أبى قابوس فوق النمارق

وقال آخر :

كُهول وشبان حسان وجوههم * على سُرر مصفوفة ونمارق

وفى الصحاح : التُّرُقُ والتُّمْرُقَةُ : وسادة صغيرة . وكذلك التُّمْرُقَةُ (بالكسر) لغة حكاها
يعقوب . وربما سُموا الطَّنْفِيسَةُ التى فوق الرِّحْلِ تُمْرُقَةٌ ؛ عن أبى عبيد . (وَزَرَائِيٌّ مَبْثُوثَةٌ)
قال أبو عبيدة : الزرأى : البُسُطُ . وقال ابن عباس : الزرأى الطنافس التى لها تحلُّ
رقيق ، واحدها زَرِيَّةٌ ؛ وقاله الكلبى والفراء . والمبثوثة : المبسوطة ؛ قاله قتادة . وقيل :
بعضها فوق بعض ؛ قاله عكرمة . وقيل كثيرة ؛ قاله الفراء . وقيل : متفرقة فى المجالس ؛
قاله القتبي .

قلت : هذا أصوب ، فهى كثيرة متفرقة . ومنه « وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ »^(٢) .
وقال أبو بكر الأنبارى : وحدثنا أحمد بن الحسين قال حدثنا حسين بن عرفة قال حدثنا
عمار بن محمد قال : صليت خلف منصور بن المعتمر فقرا « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَاشِيَةِ » وقرا
فيها « وَزَرَائِيٌّ مَبْثُوثَةٌ » متكئين فيها ناعمين .

قوله تعالى : أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقْتُمْ^(١٧)

قال المفسرون : لما ذكر الله عز وجل أمر أهل الدارين تعجب الكفار من ذلك ،
فكذبوا وأنكروا ؛ فذكرهم الله صنعته وقدرته ؛ وأنه قادر على كل شيء ، كما خلق الحيوانات
والسماء والأرض . ثم ذكر الإبل أولا لأنها كثيرة فى العرب ولم يروا الفيلة ، فنبههم جلَّ

(١) راجع ١١٦ ص ١١٣ (٢) آية ١٦٤ سورة البقرة .

شأنه على عظيم من خلقه ؛ قد ذلّه للصغير يقوده و يُذِيخُه و يُنْهَضُه و يحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك، فَيَنْهَضُ بِثَقِيلِ حَمَلِهِ ، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره . فأراهم عظيمًا من خلقه مسخرًا لصغير من خلقه ؛ يدلّم بذلك على توحّيده وعظيم قدرته . وعن بعض الحكماء : أنه حدث عن البعير و بديع خلقه ، وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها ؛ ففكر ثم قال : يوشك أن تكون طوال الأعناق . وحين أراد بها أن تكون سفائن البر ، صابرها على احتمال العطش ؛ حتى أن إظماها ليرتفع إلى العشر فصاعدًا وجعلها ترعى كل شيء ثابت في البراري والمفاوز، مما لا يرعاه سائر البهائم . وقيل : لما ذكر السرر المرفوعة قالوا : كيف نضعدها؟ فأزل الله هذه الآية وبين أن الإبل تبارك حتى يحمل عليها ثم تقوم ؛ فكذلك تلك السرر تتطامن ثم ترتفع . قال معناه قتادة ومقاتل وغيرهما . وقيل : الإبل هنا القطع العظيمة من السحاب ؛ قاله المبرد . قال الثعلبي : وقيل في الإبل هنا السحاب ولم أجد لذلك أصلا في كتب الأئمة . قلت : قد ذكر الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قُريب قال أبو عمرو : من قرأها « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » بالتخفيف عنى به البعير لأنه من ذوات الأربع ، يبارك فتحمل عليه الحمولة . وغيره من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم . ومن قرأها بالتنقيط فقال « الإبل^(١) » عنى بها السحاب التي تحمل الماء للطر . وقال الماوردي : وفي الإبل وجهان : أحدهما - وهو أظهرهما وأشهرهما أنها الإبل من النعم . الثاني - أنها السحاب . فإن كان المراد بها السحاب فليما فيها من الآيات الدالة على قدرته ، والمنافع العامة لجميع خلقه . وإن كان المراد بها الإبل من النعم فلأن الإبل أجمع للثمن من سائر الحيوان ؛ لأن ضروبه أربعة : حلوبة ، وركوبة ، وأكولة ، وحمولة . والإبل تجمع هذه الحلال الأربع ؛ فكانت النعمة بها أعم ، وظهور القدرة فيها أتم . وقال الحسن : إنما خصها الله بالذكر لأنها تأكل النوى والقت ، وتُخرج اللبن . وسئل الحسن أيضا عنها وقالوا : الفيل أعظم في الأعجوبة؟ فقال : العرب بعيدة العهد بالفيل ، ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ، ولا يركب ظهره ؛ ولا يُحلب

(١) في البحر : «قرأ الجمهور بكسر الباء وتخفيف اللام . والأصمعي من أبي عمرو بإسكان الباء . وعلى وابن عباس بشد اللام ، ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي ، وقالوا إنها السحاب» .

دَرَه . وكان سُريح يقول : اخرجوا بنا إلى الكعاسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت .
والإبل لا واحد لها من لفظها ، وهي مؤنثة ؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها
إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم ، وإذا صغرتها دخلتها الهاء فقلت : أَيْبَلَةٌ وَغُنَيْمَةٌ ،
ونحو ذلك . وربما قالوا للإبل : إِبْلٌ يسكون الباء للتخفيف ، والجمع آبال .

قوله تعالى : **وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ
نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾**

قوله تعالى : **(وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)** أى رفعت عن الأرض بلا عمد . وقيل :
رُفِعَتْ فلا يناها شيء . **(وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ)** أى كيف نصبت على الأرض بحيث
لا تزول ؛ وذلك أن الأرض لما دُحيت مادتها فارتسخت بالجبال . كما قال : « وَجَعَلْنَا
فِي الْأَرْضِ رَوَامِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ » **(وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)** أى بُسِطَتْ ومُدَّت .
وقال أنس : صليت خلف علي رضي الله عنه فقرأ « كَيْفَ خُلِقَتْ » و « رَفَعَتْ » و « نُصِبَتْ »
و « سَطِحَتْ » بضم التاء ؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى . وبه كان يقرأ محمد بن السميع
وأبو العالية ؛ والمفعول محذوف ، والمعنى خلقتها . وكذلك سائرهما . وقرأ الحسن وأبو حنيفة
وأبو رجاء « سَطِحَتْ » بتشديد الطاء وإسكان التاء . وكذلك قرأ الجماعة إلا أنهم خففوا
الطاء . وقدم الإبل في الذكر ، ولو قدم غيرها لجاز . قال القشيري : وليس هذا مما يطلب
فيه نوع حكمة . وقد قيل : هو أقرب إلى الناس في حق العرب أكثرها عندهم ،
وهم من أعرف الناس بها . وأيضا : مرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأخرى ؛
فهى ما كولة ولبنها مشروب ، وتصلح للحمل والركوب ، وقطع المسافات البعيدة طيبا ،
والصبر على العطش وقلة العلف وكثرة الحمل ، وهى من معظم أموال العرب . وكانوا يسبرون
على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس ، ومن هذا حاله تفكر فيما يحضره ، فقد ينظر

(١) آية ٣١ سورة الأنبياء .

في مركوبه ثم يمد بصره إلى السماء ثم إلى الأرض . فأمروا بالنظر في هذه الأشياء ؛ فإنها أدلُّ دليل على الصانع المختار القادر .

قوله تعالى : فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾
إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا
إِيبَابُهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (فَذَكِّرْ) أى فعظهم يا محمد وخوفهم . (إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ) أى واعظ .
(لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) أى بمسلط عليهم فنقتلهم . ثم نسختها آية السيف . وقرأ هارون
الأعور « مُسَيِّرٌ » (بفتح الطاء) ، و « والمسيطرون » . وهى لغة تميم . وفى الصحاح :
« والمُسَيِّرُ والمُصَيِّرُ : المسلط على الشئ ، ليُشْرِفَ عليه ويتعهد أحواله ويكتب عمله ؛ وأصله
من السطر لأن من معنى السطر ألا يتجاوز ؛ فالكتاب مُسَطَّرٌ والذي يفعله مُسَطَّرٌ ومُسَيِّرٌ ؛
يقال : سَطَّرْتُ علينا ، وقال تعالى : « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ » . وسَطَّرَهُ أى صرعه » .
(إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ) استثناء منقطع ؛ أى لكن من تولى عن الوعظ والتذكير . (فَيُعَذِّبُهُ
اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ) وهى جهنم الدائم عذابها . وإنما قال « الأكبر » لأنهم عذبوا فى الدنيا
بالجوع والقحط والأسر والقتل . ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود : « إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ
فإنه يعذبه الله » . وقيل : هو استثناء متصل . والمعنى : لست بمسلط إلا على من تولى وكفر ،
فأنت مسلط عليه بالجهاد ، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر ؛ فلا نسخ فى الآية على هذا
التقدير . وروى أن علياً أتى برجل آرتد ، فاستتابه ثلاثة أيام فلم يعاود الإسلام ، فضرب
عنقه وقرأ « إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ » . وقرأ ابن عباس وقتادة « أَلَا » على الاستفتاح والتنبيه ؛
كقول امرئ القيس :

* أَلَا رَبِّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٌ *^(٣)

(١) آية ٣٧ سورة الطور . (٢) كذا فى نسخ الأصل وتفسير ابن عادل نقلاً عن القرطبي . والذي

فى الصحاح : « وأصله من السطر ؛ لأن الكتاب مسطر ... » .

(٣) تمناه : * ولا سمياً يوم بدارة جلجل *

و « مَنْ » على هذا للشرط . والجواب « فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ » والمبتدأ بعد الفاء مضمرة ،
والتقدير : فهو يعذبه الله ؛ لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذي بعد الفاء لكان : إِلَّا مَنْ تَوَلَّى
وَكَفَرَ بِعَذْبِهِ اللَّهُ . (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ) أى رجوعهم بعد الموت . يقال : آب يؤوب ؛
أى رجع . قال عبيد :

وَكَلَّ ذِي غَيْبَةٍ يَأُوبُ * وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَأُوبُ

وقرأ أبو جعفر « إِيَابَهُمْ » بالتشديد . قال أبو حاتم : لا يجوز التشديد ، ولو جاز لجاز
مثله فى الصيام والقيام . وقيل : هما لغتان بمعنى . الزمخشري : وقرأ أبو جعفر المديني
« إِيَابَهُمْ » بالتشديد ؛ ووجهه أن يكون فيعلاً مصدراً آيب فيعمل من الإياب . أو أن يكون
أصله إؤاباً فعلاً من أوب ، ثم قيل : إيواباً كديوان فى ديوان . ثم فعل ما فعل بأصل
سيد ونحوه .

سورة الفجر

مَكَّةُ ، وهى ثلاثون آية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾

قوله تعالى : (وَالْفَجْرِ) أفسم بالفجر . (وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ
إِذَا يَسِرُ) أفسام خمسة . واختلف فى « الفجر » فقال قوم : الفجر هنا انفجار الظلمة عن
النهار من كل يوم ؛ قاله على وابن الزبير وابن عباس رضى الله عنهم . وعن ابن عباس أيضا
أنه النهار كله ، وعبر عنه بالفجر لأنه أوله . وقال ابن حبيص عن عطية عن ابن عباس :
يعنى فجر يوم المحرم . ومثله قال قتادة . قال : هو فجر أول يوم من المحرم ، منه تنفجر السنة .

(١) فى بعض نسخ الأصل : « سبع وعشرون » روى بعضها : « تسع وعشرون » .

(٢) فى بعض النسخ : « ابن مسعود » .

وعنه أيضا : صلاة الصبح . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : « والفجر » يريد صبيحة يوم النحر ؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبله إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده ؛ لأن يوم عرفة له ليلتان : ليلة قبله وليلة بعده ، فمن أدرك الموقف ليلة بعد عرفة ، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر فجر يوم النحر . وهذا قول مجاهد . وقال عكرمة : « والفجر » قال : أنشأ الفجر من يوم جمع . وعن محمد بن كعب القرظي : « والفجر » آخر أيام العشر إذا دَفَعْتَ من جمع . وقال الضحاك : فجر ذى الحجة ؛ لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال : « وليالٍ عشرٍ » أى ليل عشر من ذى الحجة . وكذا قال مجاهد والسدي والكلبى في قوله : « وليالٍ عشرٍ » هو عشر ذى الحجة ؛ وقاله ابن عباس . وقل مسروق : هى العشر التى ذكرها الله فى قصة موسى عليه السلام « وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ » (٢) وهى أفضل أيام السنة . وروى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والفجر . وليالٍ عشرٍ » - قال - عشر الأضحى " فهى ليل عشر على هذا القول ؛ لأن ليلة يوم النحر داخله فيه ؛ إذ قد خصها الله بأن جعلها موقفا لمن لم يدرك الوقوف يوم عرفة . وإنما نكرت ولم تعرف لفضيلتها على غيرها ، فلو عرفت لم تستقل بمعنى الفضيلة الذى فى التنكير ، فنكرت من بين ما أقسم به للفضيلة التى ليست لغيرها . والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا : هى العشر الأواخر من رمضان ؛ وقاله الضحاك . وقال ابن عباس أيضا ويان والطبرى : هى العشر الأول من المحرم التى عاشرها يوم عاشوراء . وعن ابن عباس : « وليالٍ عشرٍ » (بالإضافة) يريد : وليالى أيام عشر .

قوله تعالى : وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٢﴾

الشَّفْعُ الاثنان ، والوتر الفرد . واختلف فى ذلك ؛ فروى صرفوعا عن عمران بن الحصين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الشفع والوتر الصلاة منها شفع ومنها وتر » .

(١) هو يوم عرفة . (٢) آية ١٤٢ سورة الأعراف . (٣) فى الجمل عن القرطبي : لأنها أفضل أيام السنة . (٤) فى تفسير الألوامى : « رقرأ ابن عباس بالإضافة فضبطه بعضهم (وليالى عشر) بلام دون ياء ، وبعضهم (وليالى) بالياء وهو القياس » .

وقال جابر بن عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم: " « والفجر وليالٍ عشر » - قال - هو الصبح وعشر النحر والوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر " . وهو قول ابن عباس وعكرمة . واختاره النحاس وقال : حديث أبي الزبير عن جابر هو الذي صحح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أصح إسنادا من حديث عمران بن حصين . فيوم عرفة وتر لأنه تاسعها ، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها . وعن أبي أيوب قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « والشفع والوتر » فقال : « الشفع يوم عرفة ويوم النحر والوتر ليلة يوم النحر » . وقال مجاهد وابن عباس أيضا : الشفع خلقه ؛ قال الله تعالى : « وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ^(١) » والوتر هو الله عز وجل . فقيل لمجاهد : أترويه عن أحد ؟ قال : نعم ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم . ونحوه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة قالوا : الشفع الخلق ؛ قال الله تعالى : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ^(٢) » الكفر والإيمان ، والشقاوة والسعادة ، والهدى والضلال ، والنور والظلمة ، والليل والنهار ، والحز والبرد ، والشمس والقمر ، والصيف والشتاء ، والسماء والأرض ، والجن والإنس . والوتر هو الله عز وجل ؛ قال جل ثناؤه : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعة وتسعين أسما والله وتر يحب الوتر » . وعن ابن عباس أيضا : الشفع صلاة الصبح ، والوتر صلاة المغرب . وقال الربيع بن أنس وأبو العالية : هي صلاة المغرب ، الشفع فيها ركعتان ، والوتر الثالثة . وقال ابن الزبير : الشفع يومًا مني : الحادي عشر ، والثاني عشر . والثالث عشر الوتر ؛ قال الله تعالى : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ^(٣) » . وقال الضحاك : الشفع عشر ذى الحجة ، والوتر أيام منى الثلاثة . وهو قول عطاء . وقيل : إن الشفع والوتر آدم وحواء ؛ لأن آدم كان فردا فشفع بزوجه حواء فصار شفعا بعد وتر . رواه ابن أبي نجیح ، وحكاه القشيري عن ابن عباس . وفي رواية : الشفع آدم وحواء ، والوتر هو الله تعالى . وقيل : الشفع والوتر الخلق ؛ لأنهم شفع ووتر ،

(١) آية ٨ سورة النبا . (٢) آية ٤٩ سورة الداربات . (٣) آية ٢٠٣ سورة البقرة .

فكانه أقسم بالخلق . وقد يُقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه ، ويُقسم بأفعاله لقدرته ؛ كما قال تعالى : « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ^(١) » . ويُقسم بمفعولاته لعجائب صنعه ؛ كما قال : « وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا » ، « وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا » ، « وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ » . وقيل : الشفع درجات الجنة وهي ثمان . والوتر دركات النار ؛ لأنها سبعة . وهذا قول الحسين بن الفضل ؛ كأنه أقسم بالجنة والنار . وقيل : الشفع الصفا والمرورة ، والوتر الكعبة . وقال مقاتل بن حيان : الشفع الأيام والليالي ، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيامة . وقال سفيان بن عيينة : الوتر هو الله ، وهو الشفع أيضا ؛ لقوله تعالى : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَآيَهُمْ ^(٢) » . وقال أبو بكر الوراق : الشفع تضاد أوصاف المخلوقين : العز والذل ، والقدرة والعجز ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، والحياة والموت ، والبصر والعمى ، والسمع والصمم ، والكلام والخرس . والوتر انفراد صفات الله تعالى : عز بلا ذل ، وقدرة بلا عجز ، وقوة بلا ضعف ، وعلم بلا جهل ، وحياة بلا موت ، وبصر بلا عمى ، وكلام بلا خرس ، وسمع بلا صمم ، وما وازاها . وقال الحسن : المراد بالشفع والوتر العدد كله ؛ لأن العدد لا يخلو عنهما ، وهو إقسام بالحساب . وقيل : الشفع مسجد مكة والمدينة ، وهما الحرمان . والوتر مسجد بيت المقدس . وقيل : الشفع القران بين الحج والعمرة ، أو التمتع بالعمرة إلى الحج . والوتر الأفراد فيه . وقيل : الشفع الحيوان ؛ لأنه ذكر وأنثى . والوتر الجماد . وقيل : الشفع ما يئى والوتر ما لا يئى . وقيل غير هذا . وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكسائي وحمة وخلف « والوتر » بكسر الواو . والباقون (بفتح الواو) وهما لغتان بمعنى واحد . وفي الصحاح : الوتر (بالكسر) : الفرد ، والوتر (بفتح الواو) : الذحل ^(٣) . هذه لغة أهل العالية . فأما لغة أهل الحجاز فبالضد منهم . فأما تميم فبالكسر فيهما .

(١) آية ٣ سورة الليل .

(٢) آية ٧ سورة المجادلة .

(٣) الذحل : الحقد والعداوة .

قوله تعالى : **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِيرٌ ﴿٤١﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٤٢﴾**

قوله تعالى : **(وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِيرٌ)** وهذا قسم خامس . وبعد ما أقسم بالليالي العشر على الخصوص أقسم بالليل على العموم . ومعنى « يسرى » أى يُسرى فيه ؛ كما يقال : لَيْلٌ نَائِمٌ وَنَهَارٌ صَائِمٌ . قال :

لقد لُمْتنا يا أمَّ غَيْلانَ في السَّرى * وَنِمْتِ وما لَيْلُ المِطِيِّ بنايِمٌ ^(١)

ومنه قوله تعالى : **« بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ »** . وهذا قول أكثر أهل المعاني ، وهو قول القُتَيْبِ والأخفش . وقال أكثر المفسرين : معنى « يسرى » سار فذهب . وقال قتادة وأبو العالية : جاء وأقبل . وروى عن إبراهيم « **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِيرٌ** » قال : إذا استوى . وقال عكرمة والكلبي ومجاهد ومحمد بن كعب في قوله « **والليل** » : هى ليلة المزدلفة خاصة ؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله . وقيل : ليلة القدر ؛ لسراية الرحمة فيها واختصاصها بزيادة الثواب فيها . وقيل : إنه أراد عموم الليل كله .

قلت : وهو الأظهر كما تقدم . والله أعلم . وقرأ ابن كثير وابن محيَّصن ويعقوب « يسرى » بإثبات الياء في الحالين على الأصل ؛ لأنها ليست بمجزومة فثبتت فيها الياء . وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباتها في الوصل ، وبحذفها في الوقف ؛ وروى عن الكسائي . قال أبو عبيد : كان الكسائي يقول مرة بإثبات الياء في الوصل وبحذفها في الوقف اتباعاً للصحف . ثم رجع إلى حذف الياء في الحالين جميعاً ؛ لأنه رأس آية ، وهى قراءة أهل الشام والكوفة واختيار أبي عبيد اتباعاً للخط ؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء . قال الخليل : تسقط الياء منها اتفاقاً لرسول الآى . قال الفراء : قد تحذف العربُ الياء وتكتفى بكسر ما قبلها . وأنشد بعضهم :

كَمَماكَ كَفُّ ما تُبَلِّقُ دِرهما * جُوداً وأخرى تُعْطِ بالسيفِ الدِّما

(٢) آية ٢٢ سورة صبا .

(١) هذا البيت من قصيدة لجرير يرثي بها علي الفراء .

يقال : فلان ما يُليق درهماً من جوده ؛ أى ما يمسه ولا يُلصق به . وقال المؤرّج : سألت الأَخفش عن العلة في إسقاط الياء من « يَسِر » فقال : لا أجيبك حتى تبيت على باب دارى سنة ، فبت على باب داره سنة ؛ فقال : الليل لا يسرى وإنما يُسرى فيه ؛ فهو مصروف وكل ما صرفته عن جهته بخصته من إعرابه ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : « وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا^(١) » ولم يقل بَغِيَّةً لأنه صرفها عن باغية . الزمخشري : وياء « يَسِرَى » تحذف في الدرج اكتفاء عنها بالكسرة ، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة . وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم ، والجواب محذوف ، وهو لُبَعْدَيْن ؛ يدل عليه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ مِيثَاقًا بَلِّغُوا آلَهُمْ نَذِيرًا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ » . وقال ابن الأنباري : هو « إِنَّ رَبَّكَ يَا لِمَرْصَادٍ » . وقال مقاتل : « هل » هنا في موضع إن ؛ تقديره : إن في ذلك قسماً لدى حِجْر . فـ « هل » على هذا في موضع جواب القسم . وقيل : هي على بابها من الاستفهام الذى معناه التقرير ؛ كقولك : ألم أنعم عليك ؛ إذا كنت قد أنعمت . وقيل : المراد بذلك التأكيد لما أقسم به وأقسم عليه . والمعنى : بل فى ذلك مقنع لدى حِجْر . والجواب على هذا « إِنَّ رَبَّكَ يَا لِمَرْصَادٍ » . أو مُضْمَرٌ محذوف ، ومعنى (لدى حِجْر) أى لدى لُبِّ وَعَقْل . قال الشاعر :

وكيف يُرجى أن تتوب وإنما * يُرجى من الفتيان من كان ذا حِجْر

كذا قال عامة المفسرين ؛ إلا أن أبا مالك قال : « لدى حِجْر » لدى ستر من الناس . وقال الحسن : لدى حِلم . قال الفراء : الكل يرجع إلى معنى واحد ؛ لدى حِجْر ، ولدى عقل ، ولدى حلم ، ولدى ستر ؛ الكل بمعنى العقل . وأصل الحِجْر المنع . يقال لمن ملك نفسه ومنعها : إنه لذو حِجْر ؛ ومنه سُمِّيَ الحِجْرُ لامتناعه بصلابته : ومنه حِجْرُ الحاكم على فلان أى منعه وضبطه عن التصرف ؛ ولذلك سُمِّيَت الحِجْرَةُ حُجْرَةً لامتناع ما فيها بها . وقال الذّواء : العرب تقول : إنه لذو حِجْر إذا كان قاهر النفسه ضابطاً لها ؛ كأنه أخذ من حِجْرَتِ على الرجل .

(١) آية ٢٨ سورة مريم .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ

الْعِمَادِ ﴿٧﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ) أى مالك وخالقك . (بِعَادٍ . إِرْمَ) قراءة العامة « بعاد » مُنَوَّنًا . وقرأ الحسن وأبو العالية « بِعَادِ إِرْمَ » مضافا . فمن لم يُضِفْ جعل « إِرْمَ » أسمه ولم يصرفه ؛ لأنه جعل عاداً أسم أبيهم وإِرْمَ أسم القَبِيلَةِ ، وجعله بدلاً منه أو عطف بيان . ومن قرأه بالإضافة ولم يصرفه جعله أسم أمهم أو أسم بلدتهم . وتقديره : بعاد أهل إرم . كقوله : « وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ » ولم تنصرف — قَبِيلَةٌ كَانَتْ أَوْ أَرْضًا — للتعريف والتأنيث . وقراءة العامة « إِرْمَ » بكسر الهمزة . وعن الحسن أيضا « بعَادِ إِرْمَ » مفتوحتين . وقرئ « بعَادِ أُرْمَ » بسكون الراء على التخفيف ؛ كما قرئ « يَوْزِقُكُمْ » وقرئ « بِعَادِ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » بإضافة « إِرْمَ » — إلى — « ذَاتِ الْعِمَادِ » والإِرْمَ : العلم . أى بعاد أهل ذات العلم . وقرئ « بِعَادِ أُرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » أى جعل الله ذات العباد رميا . وقرأ مجاهد والضحاك وقسادة « أُرْمَ » بفتح الهمزة . قال مجاهد : من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالآرام التى هى الأعلام ، واحدا أُرْمَ . وفى الكلام تقديم وتأخير ؛ أى والفجر وكذا وكذا إن ربك لبالمرصاد أَلَمْ تَرَ . أى أَلَمْ يَنْتَه عِلْمُكَ إِلَى مَا فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . وهذه الرؤية رؤية القلب ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد عام . وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهورا ؛ إذ كانوا فى بلاد العرب ، وخبير ثمود موجود اليوم . وأمر فرعون كانوا يسمعون من جيرانهم من أهل الكتاب ، واستفاضت به الأخبار ، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب . وقد تقدم هذا المعنى فى سورة « البروج » وغيرها (بِعَادِ) أى بقوم عاد . فروى شهر بن حوشب عن أبى هريرة قال : أن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المِصْرَاعَ من حجارة ، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يُقْلَوْهُ ، وأن كان أحدهم ليدخل قدمه فى الأرض فتدخل فيها . و « إِرْمَ » قيل هو سام بن نوح ؛ قاله ابن إسحاق . وروى عطاء عن ابن عباس — وحكى عن ابن إسحاق

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٩٥

أيضا - قال : عاد ابن إرم . فإرم على هذا أبو عاد ، وعاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح . وعلى القول الأول هو أسم جد عاد . قال ابن إسحاق : كان سام بن نوح له أولاد ، منهم إرم بن سام وأرنخشذ بن سام . فمن ولد إرم بن سام العماقة والفراعنة والجبارة والملوك الطغاة والعصاة . وقال مجاهد : « إرم » أمة من الأمم . وعنه أيضا أن معنى إرم : القديمة . ورواه ابن أبي نجیح . وعن مجاهد أيضا أن معناها القوية . وقال قتادة : هي قبيلة من عاد . وقيل : هما عادان . فالأولى هي إرم ؛ قال الله عز وجل : « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ » . فقيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح : عاد ؛ كما يقال لبني هاشم : هاشم . ثم قيل للأولين منهم : عاد الأولى ، وإرم تسمية لهم بأسم جدتهم . ولمن بعدهم عاد الأخيرة . قال ابن الرقيات :

مَجْدًا تَلِيدًا بَنَاهُ أَوْلَهُمْ * أَدْرَكَ عَادًا وَقَبْلَهُ إِرْمًا

وقال معمر : « إرم » إليه مجمع عاد وشمود . وكان يقال : عاد إرم وعاد شمود . وكانت القبائل تنسب إلى إرم . (ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ) قال ابن عباس في رواية عطاء : كان الرجل منهم طوله خمسمائة ذراع ، والقصير منهم طوله ثلثمائة ذراع بذراع نفسه . وروى عن ابن عباس أيضا أن طول الرجل منهم كان سبعين ذراعا . ابن العربي : وهو باطل ؛ لأن في الصحيح : « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا في الهواء فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن » . وزعم قتادة : أن طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعا . قال أبو عبيدة : « ذَاتِ الْعِمَادِ » ذات الطول . يقال : رجل مُعَمَّدٌ إِذَا كَانَ طَوِيلًا . ونحوه عن ابن عباس ومجاهد . وعن قتادة أيضا : كانوا عِمَادًا لِقَوْمِهِمْ ؛ يقال : فلان عَمِيدُ الْقَوْمِ وَعَمُودُهُمْ أَي مِيدُهُمْ . وعنه أيضا : قيل لهم ذلك لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع ، وكانوا أهل خيام وأعمدة ، ينتجعون الغيوث ويطلبون الكلاء ، ثم يرجعون إلى منازلهم . وقيل : « ذَاتِ الْعِمَادِ » أي ذات الأبنية المرفوعة على العمد . وكانوا ينصبون الأعمدة فيبنون عليها القصور . قال ابن زيد :

(١) في بعض النسخ : « القرية » . (٢) آية ٥٠ سورة النجم .

« ذَاتِ الْعِمَادِ » يعنى إحكام البنيان بالعمد . وفى الصحاح : والعمادُ الأبنية الرفيعة ، تذكر وتؤنث . قال عمرو بن كلثوم :

ونحن إذا عمادُ الحى نخرت • على الأحفاضِ نمنع من يلبنا

والواحدة عمادة . وفلان طويل العماد : إذا كان منزله مُعلماً لزاره . والأحفاض : جمع حفض (بالتحريك) وهو مناع البيت إذا هُبِيَّ لِيُحْمَلَ ؛ أى نخرت على المناع . ويروى ؛ « عن الأحفاض » أى نخرت عن الإبل التى تحمل نحرى البيت . وقال الضحاك : « ذَاتِ الْعِمَادِ » ذات القوة والشدة ، مأخوذة من قوة الأعمدة ؛ دليله قوله تعالى : « وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً » . وروى عوف عن خالد الزبى : « إِرَمُ ذَاتِ الْعِمَادِ » قال : هى دمشق . وهو قول عكرمة وسعيد المقبرى . ورواه ابن وهب وأشهب عن مالك . وقال محمد بن كعب القرظى : هى الاسكندرية .

قوله تعالى : أَلَتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴿١٥﴾

الضمير فى « مِثْلَهَا » يرجع إلى القبيلة . أى لم يخلق مثل القبيلة فى البلاد قوة وشدة ، وعِظَمَ أجساد وطول قامة ؛ عن الحسن وغيره . وفى حرف عبد الله « التى لم يخلق مثلهم فى البلاد » . وقيل : يرجع للمدينة . والأول أظهر ، وعليه الأكثر حسب ما ذكرناه . ومن جعل « إِرَمَ » مدينة قدر حذفا ؛ المعنى : كيف فعل ربك بمدينة عاد إِرَمَ ، أو بماد صاحبة إِرَمَ . وإِرَمَ على هذا مؤنثة معترفة . وأختار ابن العربى أنها دمشق لأنه ليس فى البلاد مثلها . ثم أخذ ينعتها بكثرة مياهها وخيراتها . ثم قال : وإن فى الإسكندرية لعجائب ، لو لم يكن إلا المنار فإنها مبنية الظاهر والباطن على العمد ، ولكن لها أمثال ، فأما دمشق فلا مثل لها . وقد روى معن عن مالك أن كتابا وجد بالإسكندرية فلم يُدر ما هو ، فإذا فيه « أنا شداد ابن عاد الذى رفع العماد ، بنيتها حين لا شيب ولا موت . قال مالك : أن كان لقرظهم

(١) الطول : مناع البيت وأمانه . (٢) آية ١٥ سورة فصلت .

مائة سنة لا يروى فيها جنازة . وذكر عن ثور بن زيد^(١) أنه قال : أنا شداد بن عاد ، وأنا رفعت العماد ، وأنا الذي شدت بذراعي بطن السواد ، وأنا الذي كزت كزرا على سبعة أذرع ، لا يخرج إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وروى أنه كان لعاد آبنان : شداد وشديد ، فلكا وقهرا ، ثم مات شديد ، وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها ، فسمع بذكر الجنة فقال : أبني مثلها . فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة . وهي مدينة عظيمة ، قصورها من الذهب والفضة ، وأساطينها^(٢) من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة^(٣) . ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا . وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له ، فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما تم ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره ، فقص عليه ، فبعث إلى كعب فسأله فقال : هي إرم ذات العماد ، سيدخلها رجل من المسلمين في زمانك ، أحمر أشقر قصير ، على حاجبه خال وعلى عقبه خال ، يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة وقال : هذا والله ذلك الرجل . وقيل : أي لم يخلق مثل أبنية عاد المعروفة بالعمد . فالكناية للعماد . والعماد على هذا جمع عمد . وقيل : الإرم : الهلاك ، يقال : أرم بنو فلان أي هلكوا ، وقاله ابن عباس . وقرأ الضحاك : « أرم ذات العماد » ، أي أهلكتهم فجعلهم رميا .

قوله تعالى : **وَأَمْشَوْا الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ** ﴿٩﴾

أمشوا هم قوم صالح . وه جابوا : قطعوا . ومنه : فلان يجوب البلاد أي يقطعها . وإنما سمي جيب القميص لأنه جيب ، أي قطع . قال الشاعر وكان قد نزل على ابن الزبير بمكة ، فكتب له بستين وستنا يأخذها بالكوفة . فقال :

(١) في الأصول : « يزيد » وهو تحريف . (٢) الأساطين : جمع الاسطوانة ، وهي العمود والدارية . (٣) أي التي تجري .

راحت رَوَاحًا قُلُوصِي وَهِيَ حَامِدَةٌ * آل الزُّبَيْرِ وَلَمْ تَعْدِلْ بِهِمْ أَحَدًا
 راحت بستين وَسَقًا فِي حَقِيبَتِهَا * مَا حَمَلَتْ حَمْلَهَا الْأَدْنَى وَلَا السَّدَا
 مَا إِنْ رَأَيْتَ قُلُوصًا قَبْلَهَا حَمَلَتْ * سَتِينَ وَسَقًا وَلَا جَابَتْ بِهِ بِلْدَا

أى قطعت . قال المفسرون : أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود . فبنوا من
 المدائن ألفا وسبعمئة مدينة كلها من الحجارة . ومن الدور والمنازل ألفى ألف وسبعمئة ألف
 كلها من الحجارة . وقد قال تعالى : « وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ » ^(١) . وكانوا لقوتهم
 يُخْرِجُونَ الصَّخُورَ وَيَنْقُبُونَ الْجِبَالَ ، وَيَجْعَلُونَهَا بُيُوتًا لِأَنْفُسِهِمْ . (بِالْوَادِي) أى بوادى
 القرى ؛ قاله محمد بن إسحاق . وروى أبو الأشهب عن أبي نضرة قال : أتى رسول الله صلى
 الله عليه وسلم فى غزاة تبوك على وادى ثمود ، وهو على فرس أشقر ، فقال : « أسرعوا
 السير فإنكم فى وادٍ ملعون » . وقيل : الوادى بين جبال ، وكانوا ينقبون فى تلك الجبال
 بيوتا ودورا وأحواضا، وكل مُنْفَرَجٍ بَيْنَ جِبَالٍ أَوْ تَلَالٍ يَكُونُ مَسْلَكًا لِلسَّبِيلِ وَمِنْهَا فَهُوَ وَادٍ .

قوله تعالى : وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾

أى الجنود والعساكر والجموع والجيوش التى تشد ملكه ؛ قاله ابن عباس . وقيل : كان
 يعذب الناس بالأوتاد ويشدهم بها إلى أن يموتوا ؛ تَجَبَّرَ مِنْهُ وَعَتُوا . وهكذا فعل بأمرائه
 آسية وماشطة ابنته ؛ حسب ما تقدم فى آخر سورة « التحريم » ^(٢) . وقال عبد الرحمن بن زيد :
 كانت له صحرة تُرْفَعُ بِالْبَكَرَاتِ ، ثُمَّ يُؤْخَذُ الْإِنْسَانُ فُتَوَدُّ لَهُ أَوْتَادُ الْحَدِيدِ ، ثُمَّ يُرْسَلُ تِلْكَ الصَّخْرَةَ
 عَلَيْهِ فَنَشْدُخُهُ . وقد مضى فى سورة « ص » من ذكر أوتاده ما فيه كفاية . والحمد لله .

قوله تعالى : الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا

الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾

(١) آية ٨٢ سورة الحجر . (٢) راجع ج ١٨ ص ٢٠٢ . (٣) راجع ج ١٥ ص ١٥٤

قوله تعالى : (الَّذِينَ طَفَّوْا فِي الْبِلَادِ)^(١) يعنى عاداً وثموداً وفرعون « طَفَّوْا » أى تمردوا وعتوا وتجاوزوا القدر فى الظلم والعدوان . (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ) أى الجور والأذى . و « الَّذِينَ طَفَّوْا » أحسن الوجوه فيه أن يكون فى محل النصب على الذم . ويجوز أن يكون مرفوعاً على : هم الذين طفَّوا ، أو مجروراً على وصف المذكورين : عاد، وثمود، وفرعون . (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) أى أفرغ عليهم وألقى ؛ يقال : صبَّ على فلان خلعة أى ألقاها عليه . قال النابغة :

فصبَّ عليه الله أحسن صنِّه * وكان له بين البرية ناصراً^(٢)

(سَوْطَ عَذَابٍ) أى نصيب عذاب . ويقال : شدته ؛ لأن السوط كان عندهم نهاية ما يعذب به . قال الشاعر :

ألم تر أن الله أظهر دينه * وصبَّ على الكفار سوط عذاب

وقال الفراء : هى كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب . وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذى يعذبون به ، بخرى لكل عذاب ؛ إذ كان فيه عندهم غاية العذاب . وقيل . معناه عذاب يخالط اللحم والدم ؛ من قولهم : ساطه يسوطه سوطاً أى خلطه ، فهو سائط . فالسوط خلط الشيء ببعضه ببعض ؛ ومنه سمي المسواط . وسوطه أى خلطه ، وأكثر ذلك يقال : سوط فلان أموره . قال :

فسطها ذميم الرأي غير موفق * فلست على تسويطها بمعاني

قال أبو زيد : يقال أموالهم سويطة بينهم ؛ أى مختلطة . حكاه عنه يعقوب . وقال الزجاج : أى جعل سوطهم الذى ضربهم به العذاب . يقال : ساط دابته يسوطها ؛ أى ضربها

(١) اختلف فى « ثمود » فمنهم من صرفه ومنهم من لم يصرفه ؛ فمن صرفه ذهب به إلى الحى لأنه اسم عربى مذكر سمى بذلك . ومن لم يصرفه ذهب به إلى القبيلة وهى مؤنثة .

(٢) الرواية فى البيت كما فى ديوانه وشعراء النصرانية : * وربَّ عليه الله ... الخ * قال البطليوسى شارح الديوان : ربّه أتمه . وأصله أن يقال : ربت معروفى عند فلان أربه رباً إذا أدمنته عليه وتممته لديه . و « ربَّ عليه » دعاء معطوف على ما قبله . وهو مدح فى الثمان . وعلى هذه الرواية لاشاهد فى البيت .

بسوطة . وعن عمرو بن عبید : كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال : إن عند الله أسواط كثيرة ، فأخذهم بسوط منها . وقال قتادة : كل شيء عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب .

قوله تعالى : **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴿١٤﴾

أى يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه به ، قاله الحسن وعكرمة . وقيل : أى على طريق العباد لا يفوته أحد . والمرصد والمرصاد : الطريق . وقد مضى في سورة « براءة » والحمد لله . فروى الضحاك عن ابن عباس قال : إن على جهنم سبع قناطر ، يُسأل الإنسان عند أول قنطرة عن الإيمان ، فإن جاء به تاماً جاز إلى القنطرة الثانية ، ثم يُسأل عن الصلاة فإن جاء بها جاز إلى الثالثة ، ثم يُسأل عن الزكاة فإن جاء بها جاز إلى الرابعة . ثم يُسأل عن صيام شهر رمضان فإن جاء به جاز إلى الخامسة . ثم يُسأل عن الحج والعمرة فإن جاء بهما جاز إلى السادسة . ثم يُسأل عن صلة الرحم فإن جاء بها جاز إلى السابعة . ثم يُسأل عن المظالم ، وينادى منادٍ ألا من كانت له مظلمة فليات ؛ فيقتص للناس منه ويقتص له من الناس ؛ فذلك قوله عز وجل : « **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** » . وقال الثوري : « **لِبِالْمِرْصَادِ** » يعنى جهنم ؛ عليها ثلاث قناطر : قنطرة فيها الرحم ، وقنطرة فيها الأمانة ، وقنطرة فيها الرب تبارك وتعالى .

قلت : أى حكمه وإرادته وأمره . والله أعلم . وعن ابن عباس أيضاً « **لِبِالْمِرْصَادِ** »

أى يسمع ويرى .

قلت : هذا قول حسن ؛ « يسمع » أقوالهم ونجواهم ، و« يرى » أى يعلم أعمالهم وأسرارهم فيجازى كلاً بعمله . وعن بعض العرب أنه قيل له : أين ربك ؟ فقال : بالمرصاد . وعن عمرو بن عبید أنه قرأ هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه الآية فقال : « **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** » يا أبا جعفر ! قال الزنجشیری : عرّض له في هذا النداء بأنه بعض من تُوعَد بذلك من

(١) راجع ج ٨ ص ٧٣

الجبارة ؛ فله دزه . أتى أسد فزاس كان بين يديه ^(١) ؟ يدق الظلمة بإنكاره ، ويقصع أهل ^(٢) الأهواء والبدع بأحتجاجه .

قوله تعالى : فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ) يعنى الكافر . قال ابن عباس : يريد عتبة بن ربيعة وأبا حذيفة بن المغيرة . وقيل : أمية بن خلف . وقيل : أبي بن خلف . (إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ) أى امتحنه وأختبره بالنعمة . و« ما » زائدة صلة . (فَأَكْرَمَهُ) بالمال . (وَنَعَّمَهُ) بما أوسع عليه . (فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ) فيفرح بذلك ولا يحمده . (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ) أى امتحنه بالفقر واختبره . (فَقَدَرَ) أى ضيق (عَلَيْهِ رِزْقَهُ) على مقدار البلغة . (فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) أى أولانى هواناً . وهذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث ، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ فى الدنيا وقتله . فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدى إلى حظ الآخرة ، وإن وسع عليه فى الدنيا حمده وشكره .

قلت : الآيتان صفة كل كافر . وكثير من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله ، وربما يقول بجهله : لو لم أستحق هذا لم يعطنيه الله . وكذا إن قدر عليه يظن أن ذلك هوانه على الله . وقراءة العامة « فقدر » مخففة الدال . وقرأ ابن عامر مشدداً ، وهما لغتان . والاختيار التخفيف ؛ لقوله : « وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » ^(٣) . قال أبو عمرو : و« قدر » أى قدر . و« قدر » مشدداً هو أن يعطيه ما يكفيه ، ولو فعل به ذلك ما قال « ربى أهان » . وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو « رَبِّي » بفتح الياء فى الموضعين . وأسكن الباقون . وأثبت البزى

(١) فى بعض الأصول والزنجشى : « نوبه » .

(٢) كذا فى الزنجشى . وفى الأصول : « يقطع » . وقصع الرجل فلانا حفره وصغره .

(٣) آية ٧ سورة الطلاق .

وَأَبْنُ مُجَيْمٍ وَيَعْقُوبُ الْبَاءُ مِنْ « أَكْرَمٍ » ، و « أَهَانٍ » فِي الْحَالِينِ ؛ لِأَنَّهَا أَسْمٌ فَلَا تَحذفُ .
وَأَثَبَتْهَا الْمَدِينِيُّونَ فِي الْوَصْلِ دُونَ الْوَقْفِ اتِّبَاعًا لِلْمَصْحَفِ . وَخَيْرُ أَبُو عَمْرٍو فِي إِثْبَاتِهَا فِي الْوَصْلِ
أَوْ حَذْفِهَا ؛ لِأَنَّهَا رَأْسُ آيَةٍ ، وَحَذْفُهَا فِي الْوَقْفِ نَحَطُ الْمَصْحَفِ . الْبَاقُونَ بِحَذْفِهَا لِأَنَّهَا وَقَعَتْ
فِي الْمَوْضِعِينَ بِغَيْرِ بَاءٍ ، وَالسُّنَّةُ أَلَّا يَخَالَفَ خَطَّ الْمَصْحَفِ ؛ لِأَنَّهُ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ .

قوله تعالى : **كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْتَضُونَ**
عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ
الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : **(كَلَّا)** رَدٌّ ؛ أَي لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَظُنُّ ، فَلَيْسَ الْغِنَى لِفَضْلِهِ وَلَا الْفَقْرُ
لِهَوَانِهِ ، وَإِنَّمَا الْفَقْرُ وَالْغِنَى مِنْ تَقْدِيرِي وَقَضَائِي . وَقَالَ الْفَرَاءُ : « كَلَّا » فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِمَعْنَى لَمْ
يَكُنْ يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا ، وَلَكِنْ يَمْحَدُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ عَلَى الْغِنَى وَالْفَقْرِ . وَفِي الْحَدِيثِ :
” يَقُولُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ كَلَّا إِنِّي لَا أَكْرِمُ مِنْ أَكْرَمْتُ بِكَثْرَةِ الدُّنْيَا وَلَا أَهِينُ مِنْ أَهَنْتُ بِقَلَّتِهَا
إِنَّمَا أَكْرِمُ مِنْ أَكْرَمْتُ بِطَاعَتِي وَأَهِينُ مِنْ أَهَنْتُ بِمَعْصِيَتِي “ .

قوله تعالى : **(بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ)** إِخْبَارٌ عَنْ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَهُ مِنْ مَنَعِ الْيَتِيمِ الْمِيرَاثَ ،
وَأَكْلِ مَالِهِ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا . وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ « يُكْرِمُونَ » وَ « يُحَضُّونَ »
وَ « يَأْكُلُونَ » وَ « يُحِبُّونَ » بِالْيَاءِ ؛ لِأَنَّهُ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْإِنْسَانِ وَالْمِرَاثِ بِهِ الْجِنْسَ ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِلَفْظِ
الْجَمْعِ . الْبَاقُونَ بِالتَّاءِ فِي الْأَرْبَعَةِ عَلَى الْخَطِّ وَالْمُوَاجَهَةِ ؛ كَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيبًا وَتَوْبِيحًا .
وَتَرَكَ إِكْرَامَ الْيَتِيمِ يَدْفَعُهُ عَنْ حَقِّهِ وَأَكْلَ مَالِهِ كَمَا ذَكَرْنَا . قَالَ مِقَاتِلُ : نَزَلَتْ فِي قُدَامَةَ بْنِ
مَظْعُونٍ وَكَانَ يَتِيمًا فِي حِجْرِ أُمِّهِ بْنِ خَلْفٍ . **(وَلَا تَحْتَضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ)** أَي لَا يَأْمُرُونَ
أَهْلِيهِمْ بِإِطْعَامِ مَسْكِينٍ يَحِبُّهُمْ . وَقَرَأَ الْكُوفِيُّونَ « وَلَا تَحَاضُونَ » بِفَتْحِ التَّاءِ وَالْحَاءِ وَالْأَلْفِ .
أَي يَحْضُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَأَصْلُهُ تَحَاضُونَ فَحَذَفَ إِحْدَى التَّائِينَ لِذِلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهَا . وَهُوَ
أَخْتِيَارُ أَبِي عَيْدٍ . وَرَوَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَالشَّيْزُرِيِّ عَنِ الْكَسَائِيِّ وَالسُّلَمِيِّ « تَحَاضُونَ » بِضَمِّ

الناء، وهو تفاعلون من الحَض وهو الحَث . (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ) أى ميراث اليتامى . وأصله التُّرَاثُ من وِرِثَ ، فأبدلوا الواو ناء ، كما قالوا فى نُجَاهٍ وَنُجْمَةٍ وَنُكَّاءٍ وَنُؤْدَةٍ ونحو ذلك . وقد تقدم . (أَكَلًا لَمًّا) أى شديداً ، قاله السدى . وقيل : « لَمًّا » جمعاً ، من قولهم : لَمَمْتُ الطعامَ لَمًّا إذا أكلته جمعاً ، قاله الحسن وأبو عبيدة . وأصل اللَّمَمِ فى كلام العرب : الجمع ؛ يقال : لَمَمْتُ الشَّيْءَ أَلْمُهُ لَمًّا إذا جمعته ؛ ومنه يقال : لَمَّ اللهُ شَعْنَهُ أى جمع ما تفرَّق من أموره . قال النابغة :

ولست بمستبِقٍ أخا لا تَلْمُهُ * على شَعَثِ أى الرجال المهذبُ

ومنه قولهم : إن دارك لمومة ؛ أى تَلَمَّ الناس وتربهم وتجمعهم . وقال المرزبان الطائى يمدح علقمة بن سيف :

لأحَبَّنِي حُبَّ الصَّبِيِّ وَلَمَّنِي ^(٢) * لَمَّ الهَدْيِ إِلَى الكَرِيمِ المَاجِدِ

وقال الليث : اللَّمَّ الجمع الشديد ؛ ومنه حَجَرٌ مَلْمُومٌ ، وَكُتَيْبَةٌ مَلْمُومَةٌ . فالآكل يَلْمُ الثريدَ فيجمعه لُقْمًا ثم يأكله . وقال مجاهد : يَسْفَهُ مَفًّا . وقال الحسن : بأكل نصيبه ونصيب غيره . قال الحطَّيئة :

إذا كانَ لَمًّا يَتَّبِعُ الذَّمَّ رَبَّهُ * فلا قَدَسَ الرَّحْمَنُ تلكَ الطَّواحِنَا

يعنى أنهم يجمعون فى أكلهم بين نصيبهم ونصيب غيرهم . وقال ابن زيد : هو أنه إذا أكل ماله أَلَمَ غيره فأكله ، ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب . قال : وكان أهل الشرك لا يورثون النساء ولا الصبيان ، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم وراثتهم مع ثراثهم . وقيل : يأكلون ما جمعه الميت من الظلم وهو عالم بذلك ، فَيَلْمُ فى الأكل بين حرامه وحلاله . ويجوز

(١) كذا فى نسخ الأصل ومعجم الشعراء للرزبانى . قال المرزبانى : « وأحسبه لقباً » . وفى لسان العرب : « وقال

فدكى بن أعبد يمدح ... » . وفى كتاب أشعار الحماسة : « وقال رجل من بهراء وأسمه فدكى يمدح ... » .

(٢) فى اللسان والحماسة ومعجم الشعراء : « ورمى * رم » بالراء بدل « ولنى * لم » باللام وعلى هذا

لا شاهد فيه . وقوله « ورمى » : أى أصلح حالى وشأنى . و « الهدى » : العروس تهدى إلى زوجها ، فإذا زفت إليه تكلف أهلها فى حسن تجهيزها لئلا يبرها أهل زوجها خلا وقع فى أمرها .

أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه، فيُسرف في إنفاقه
ويأكله أكلاً واسعاً، جامعاً بين المشتبهات من الأطعمة والأشربة والفواكه كما يفعل
الوزث البطلون. (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) أى كثيراً حلاله وحرامه. والجم الكثير،
يقال: جم الشيء يجمُّ جموماً فهو جم وجام. ومنه جم الماء في الحوض إذا اجتمع وكثر.
وقال الشاعر:^(١)

إِنْ تَغْيِرِ اللَّهُمَّ تَغْيِرَ جَمًّا * وَأَيُّ عَبِيدِكَ لَا أَلَمَّا

والجمّة: المكان الذي يجتمع فيه مائه. والجموم: البئر الكثيرة الماء. والجموم (بالضم)
المصدر، يقال: جم الماء يجمُّ جموماً إذا كثر في البئر واجتمع بعد ما استقي ما فيها.

قوله تعالى: كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾

قوله تعالى: (كَلَّا) أى ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر. فهو ردّ لأنكباهم على
الدنيا وجمعهم لها؛ فإن من فعل ذلك يندم يوم تُدكُّ الأرض ولا ينفع الندم. والدك:
الكسر والدق؛ وقد تقدم. أى زلزلت الأرض وحركت تحريكاً بعد تحريك. وقال الزجاج:
أى زلزلت فدك بعضها بعضاً. وقال المبرد: أى الصقت وذهب ارتفاعها. يقال: ناقة
دكاء، أى لا سنام لها، والجمع دك. وقد مضى في سورة «الأعراف» و«الحاقة» القول
في هذا. ويقولون: دك الشيء أى هدم. قال:

* هل غير غارٍ دك غارا فأنهدم *

(دَكَّا دَكًّا) أى مرة بعد مرة؛ زلزلت فكسر بعضها بعضاً؛ فتكسر كل شيء على ظهرها.
وقيل: دكت جبالها وأنشازها حتى استوت. وقيل: دكت أى استوت في الأنفراش؛
فذهب دورها وقصورها وجبالها وسائر أبنيتها. ومنه سمي الذكان لأستوائه في الأنفراش.
والدك: حط المرتفع من الأرض بالهسط؛ وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس: تمد
الأرض مذ الأديم.

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٧٨ وج ١١ ص ٦٣ وج ١٨ ص ٢٦٤

(١) هو أبو خراش الهذلي.

(٢) الفار: الجمع الكثير من الناس.

قوله تعالى : وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : (وَجَاءَ رَبُّكَ) أى أمره وقضاؤه ، قاله الحسن . وهو من باب حذف المضاف . وقيل : أى جاءهم الرب بالآيات العظيمة ، وهو كقوله تعالى : « إِنْ يَأْتِيهِمْ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ » (١) أى بظلال . وقيل : جعل مجيء الآيات مجيئاً له نفخياً لشارب تلك الآيات . ومنه قوله تعالى فى الحديث : ” يا بن آدم مَرَضْتُ فلم تُعْذِنِي وَأَسْتَسْقِيْتُك فلم تَسْقِنِي وَأَسْتَطْعَمْتُك فلم تُطْعِمْنِي ” . وقيل : « وَجَاءَ رَبُّكَ » أى زالت الشبهة ذلك اليوم وصارت المعارف ضرورية ، كما تزول الشبهة والشك عند مجيء الشيء الذى كان يُشكُّ فيه . قال أهل الإشارة : ظهرت قدرته وأستولت (٢) ، والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحول من مكان إلى مكان ، وأنى له التحول والانتقال ، ولا مكان له ولا أوان ، ولا يجرى عليه وقت ولا زمان ؛ لأن فى جريان الوقت على الشيء قوت الأوقات ، ومن فاته شيء فهو عاجز .

قوله تعالى : (وَالْمَلَكُ) أى الملائكة . (صَفًّا صَفًّا) أى صفوفاً . (وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ) قال ابن مسعود ومقاتل : تقاد جهنم بسبعين ألف زمام ، كل زمام بيد سبعين ألف ملك ، لها نفيظ وزفير ، حتى تُنصَب عن يسار العرش . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَحْزُونُهَا ” . وقال أبو سعيد الخدري : لما نزلت « وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ » تغير لون رسول الله صلى الله عليه وسلم وعُرف فى وجهه ، حتى أشتد على أصحابه ثم قال : ” أقرانى جبريل « كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا - الآية - وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ » قال على رضى الله عنه : قلت يا رسول الله ، كيف يُجاء بها ؟ قال : ” يُؤْتَى بِهَا تُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ يَقُودُ بِكُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ فَتَشْرُدُ شَرْدَةً لَوْ تَرَكْتَ لِأَحْرَقْتَ أَهْلَ الْجَمْعِ ”

(٢) فى بعض الأصول : « وانشوت » .

(١) آية ٢١٠ سورة البقرة .

ثم تعرض لى جهنم فتقول مالى ولك يا محمد إن الله قد حرّم لحك على " فلا يبقى أحد إلا قال نفسى نفسى ؛ إلا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يقول : ربّ ، أمتى ربّ أمتى .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى يتعظ ويتوب . وهو الكافر ، أو من همته معظم الدنيا . (۱) ﴿ وَأَنْتَ لَهُ الذَّكْرَى ﴾ أى ومن أين له الاتعاظ والتوبة وقد فرط فيها فى الدنيا . ويقال : أى ومن أين له منفعة الذكرى . فلا بد من تقدير حذف المضاف ، وإلا فىين « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ » وبين « وَأَنْتَ لَهُ الذَّكْرَى » تناف ؛ قاله الزمخشرى .

قوله تعالى : يَقُولُ يَلْبِئْتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي ﴿ ٢٤ ﴾

أى فى حياتى . فاللام بمعنى فى . وقيل : أى قدمت عملاً صالحاً لحياتى ؛ أى لحياتى لا موت فيها . وقيل : حياة أهل النار ليست هنيئة فكانهم لا حياة لهم ؛ فالمعنى ياليتنى قدمت من الخير لنجاتى من النار فأكون فىمن له حياة هنيئة .

قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿ ٢٥ ﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿ ٢٦ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أى لا يعذب كعذاب الله أحد ، ولا يوثق كوثاقه أحد . والكفاية ترجع إلى الله تعالى . وهو قول ابن عباس والحسن . وقراً الكسائى « لا يعذب » « ولا يوثق » بفتح الذال والياء ؛ أى لا يعذب أحد فى الدنيا كعذاب الله الكافر يومئذ ، ولا يوثق كما يوثق الكافر . والمراد إبليس ؛ لأن الدليل قام على أنه أشد الناس عذاباً لأجل إجرامه ؛ فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير . وقيل : إنه أمية ابن خلف ؛ حكاه الفراء . يعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد ؛ لتناهيه فى كفره وعناده . وقيل : أى لا يعذب مكانه

(۱) هكذا وردت فى جميع نسخ الأصل . وفى تفسير ابن عادل : « ومن هم الدنيا » .

أحد ، فلا يؤخذ منه فداء . والعذاب بمعنى التعذيب ، والوفاق بمعنى الإيثاق . ومنه قول الشاعر :

• وبعد عطائك المائة الرتاعا^(١) •

وقيل : لا يعذب أحد ليس بكافر عذاب الكافر . وأختار أبو عبيد وأبو حاتم فتح الذال والهاء . وتكون الهاء ضمير الكافر ؛ لأن ذلك معروف أنه لا يعذب أحد كعذاب الله . وقد روى أبو قلابة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ بفتح الذال والهاء . وروى أن أبا عمرو رجع إلى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم . وقال أبو علي : يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة ؛ أي لا يعذب أحدًا أحدًا مثل تعذيب هذا الكافر ؛ فتكون الهاء للكافر . والمراد بـ « أحد » الملائكة الذين يتولون تعذيب أهل النار .

قوله تعالى : يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلِي فِي عَبْدِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ لما ذكر حال من كانت همتها الدنيا فاتهم الله في إغوائه وإفقاره ، ذكر حال من أطمأنت نفسه إلى الله تعالى ، فسلم لأمره فأنكل عليه . وقيل : هو من قول الملائكة لأولياء الله عز وجل . والنفس المطمئنة : الساكنة الموقنة ؛ أيقنت أن الله ربها فأخبت لذلك ؛ قاله مجاهد وغيره . وقال ابن عباس : أي المطمئنة بشواب الله . وعنه المؤمنة . وقال الحسن : المؤمنة الموقنة . وعن مجاهد أيضا : الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها . وقال مقاتل : الآمنة من عذاب الله . وفي حرف أبي بن كعب « يا أيها النفس الآمنة المطمئنة » . وقيل : التي عملت على يقين بما وعد الله في كتابه . وقال ابن كيسان : المطمئنة هنا المخلصة .

(١) هذا مجزيت للقطامي من قصيدة مدح بها زفر بن الحارث وصدرة :

* أكفرا بعد رد الموت عنى *

والرتاع : الإبل الراتعة .

وقال ابن عطاء : العارفة التي لا تصبر عنه طرفة عين . وقيل : المطمئنة بذكر الله تعالى ؛ بيانه
« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ^(١) » . وقيل : المطمئنة بالإيمان المصدقة بالبعث
والثواب . وقال ابن زيد : المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم
الجمع . وروى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : يعنى نفس حمزة . والصحيح أنها طاعة
في كل نفس مؤمن مخلص طائع . قال الحسن البصري : إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض
روح عبده المؤمن أطمأنت النفس إلى الله تعالى ، وأطمأن الله إليها . وقال عمرو بن العاص :
إذا توفى المؤمن أرسل الله إليه ملكين وأرسل معهما تحفة من الجنة ، فيقولان لها : « أخرجي
أيتها النفس المطمئنة راضية مرضية ومرضياً عنك أخرجي إلى روح وريحان ورب راض غير
غضبان » فتخرج كأطيب ريح المسك وجد أحد من أنفه على ظهر الأرض . وذكر الحديث .
وقال سعيد بن زيد : قرأ رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم « يايتها النفس المطمئنة »
فقال أبو بكر : ما أحسن هذا يارسول الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الملك
سيقولها لك يا أبا بكر » . وقال سعيد بن جبير : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طائر لم يزل
على خلقته طائر قط ، فدخل نعشه ، ثم لم يزل خارجاً منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير
القبر — لا يدرى من تلاها — : (يايتها النفس المطمئنة ، أرجعي إلى ربك راضية مرضية) .
وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه حين وقف بئر رومة . وقيل : نزلت
في حبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة ، وجعلوا وجهه إلى المدينة فقول الله وجهه نحو
القبلة . والله أعلم .

ومعنى (إلى ربك) أي إلى صاحبك وجسدك ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وعطاء . وأختره
الطبري ؛ ودليله قراءة ابن عباس « فادخلي في عبدي » على التوحيد ؛ فيأمر الله تعالى
الأرواح غدا أن ترجع إلى الأجساد . وقرأ ابن مسعود « في جسد عبدي » . وقال الحسن :
أرجعي إلى ثواب ربك وكرامته . وقال أبو صالح : المعنى ارجعي إلى الله . وهذا عند الموت .

(١) آية ٢٨ سورة الرعد . (٢) هي بئر المدينة .

(فَادْخُلِي فِي عِبَادِي) أى فى أجساد عبادى ؛ دليله قراءة ابن عباس وابن مسعود . قال ابن عباس : هذا يوم القيامة ؛ وقاله الضمك . والجمهور على أن الجنة هى دار الخلود التى هى مسكن الأبرار ، ودار الصالحين والأخيار . ومعنى « فى عِبَادِي » أى فى الصالحين من عبادى ؛ كما قال : « لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ » . وقال الأخفش ^(١) : « فى عِبَادِي » أى فى حزبي ؛ والمعنى واحد . أى أنتظمى فى سلكهم . (وَأَدْخُلِي جَنَّتِي) معهم .

سورة «البلد»

مكية باتفاق . وهى عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾

يجوز أن تكون « لا » زائدة ؛ كما تقدم فى « لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » ؛ قاله الأخفش . أى أقسم ؛ لأنه قال : « بِهَذَا الْبَلَدِ » وقد أقسم به فى قوله : « وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ » فكيف يجحد القسم به وقد أقسم به . قال الشاعر :

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى فَاغْتَرَّتْنِي صَبَابَةٌ • وَكَادَ صَمِيمُ الْقَلْبِ لَا يَتَقَطَّعُ

أى يتقطع ودخل حرف « لا » صلة ؛ ومنه قوله تعالى : « مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدًا إِذْ أَمَرْتُكَ ^(٢) » بدليل قوله تعالى فى (ص) : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ^(٣) » . وقرأ الحسن والأعمش وابن كثير « لَا أُقْسِمُ » من غير ألف بعد اللام إثباتا . وأجاز الأخفش أيضا أن تكون بمعنى ألا . وقيل : ليست بنفى القسم ، وإنما هو كقول العرب : لا والله لافعلت كذا ، ولا والله ما كان

(١) آية ٩ سورة العنكبوت . (٢) راجع ج ١٩ ص ٩٠ .

(٣) آية ١٢ سورة الأعراف راجع ج ٧ ص ١٧٠ (٤) آية ٧٥ .

كذبا، ولا والله لأفعلن كذا . وقيل : هي نفي صحيح ؛ والمعنى : لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه . حكاة مكي . ورواه ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : « لا » رد عليهم . وهذا اختيار ابن العربي ؛ لأنه قال : « وأما من قال إنها رد فهو قول ليس له رد ؛ لأنه يصح به المعنى ويتمكن اللفظ والمراد » . فهو رد لكلام من أنكر البعث ثم ابتدأ القسم . وقال القشيري : قوله « لا » رد لما توهم الإنسان المذكور في هذه السورة المغرور بالدنيا . أى ليس الأمر كما يحسبه من أنه لن يقدر عليه أحد ، ثم ابتدأ القسم . و « البلد » هى مكة أجمعوا عليه . أى أقسم بالبلد الحرام الذى أنت فيه لكرامتك على وحبي لك . وقال الواسطي : أى نحلف لك بهذا البلد الذى شرفته بمكانك فيه حيا ، وبركتك ميتا ؛ يعنى المدينة . والأول أصح ؛ لأن السورة نزلت بمكة باتفاق .

قوله تعالى : وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾

يعنى فى المستقبل ؛ مثل قوله تعالى : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » . ومثله واسع (٢) فى كلام العرب . تقول لمن تعده الإكرام والحياء : أنت مُكْرَمٌ مَحْبُوبٌ . وهو فى كلام الله واسع ، لأن الأحوال المستقبلية عنده كالحاضرة المشاهدة ؛ وكفالك دليلا قاطعا على أنه للأستقبال ، وأن تفسيره بالحال محال : أن السورة باتفاق مكية قبل الفتح . فروى منصور عن مجاهد « وَأَنْتَ حِلٌّ » قال : ما صنعت فيه من شىء فأنت فى حِلٍّ . وكذا قال ابن عباس : أحل له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء فقتل ابن خطل ومقيس بن صبابه وغيرهما . ولم يحل لأحد من الناس أن يقتل بها أحدا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروى السدي قال : أنت فى حِلٍّ من قاتلك أن تقتله . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : أحلت له ساعة من نهار ثم أطبقت وحُرِّمَتْ إلى يوم القيامة ؛ وذلك يوم فتح مكة . وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنْ لَمْ يَكُنْ اللهُ حَرَمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهِيَ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ فَلَمْ

(١) آية ٣٠ سورة الزمر . (٢) فى بعض نسخ الأصل : « شائع » .

(٣) هو عهد الله ، كان متعلقا بأستار الكعبة ؛ فقتله أبو برزة الأسلمي بأمر الرسول صلوات الله عليه .

تَحِلُّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي وَلَمْ تَحِلُّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ“ الحديث . وقد تقدّم في سورة «المائدة» . ابن زيد : لم يكن بها أحد حلالاً غير النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : وأنت مقيم فيه وهو محلك . وقيل : وأنت فيه محسن وأنا عنك فيه راضٍ . وذكر أهل اللغة أنه يقال : رجل حلّ وحلال ومحلّ ، ورجل حرام ومحرّم وحرم . وقال قتادة : أنت حلّ به لست بآثم . وقيل : هو ثناء على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي إنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه ، معرفة منك بحق هذا البيت ؛ لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفر بالله فيه . أي أقسم بهذا البيت المعظم الذي قد عرفت حرمة ، فأنت مقيم فيه معظّم له غير مرتكب فيه ما يحرم عليك . وقال شرحبيل بن سعد : « وأنت حلّ بهذا البلد » أي حلال ؛ أي هم يُحْتَرَمُونَ مَكَّةَ أَنْ يَقْتُلُوا بِهَا صَيْدًا أَوْ يَعْضِدُوا بِهَا شَجْرَةً ، ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذَا يَسْتَحِلُّونَ إِخْرَاجَكَ وَقَتْلَكَ .

قوله تعالى : **وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ** ﴿٤٠﴾

قال مجاهد وقتادة والضحاك والحسن وأبو صالح : « ووالدٍ » آدم عليه السلام . « وما ولدٌ » أي وما نسل من ولده . أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله تعالى على وجه الأرض ؛ لما فيهم من التبيان والنطق والتدبير ، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى . وقيل : هو إقسام بآدم والصالحين من ذريته ، وأما غير الصالحين فكانهم بهائم . وقيل : الوالد إبراهيم . وما ولد : ذريته ؛ قاله أبو عمران الجوني . ثم يحتمل أنه يريد جميع ذريته . ويحتمل أنه يريد المسلمين من ذريته . قال الفراء : وصلت « ما » للناس ؛ كقوله : « مَا طَابَ لَكُمْ » ، وكقوله : « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » وهو الخالق للذكر والأنثى . وقيل : « ما » مع ما بعدها في موضع المصدر ؛ أي ووالد وولادته ؛ كقوله تعالى : « وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا » . وقال عكرمة وسعيد بن جبير : « ووالدٍ » يعني الذي يولد له . « وما ولد »

(١) عضد الشجرة وغيرها : قطعها بالمعضد . والمعضد : سيف يمتن في قطع الشجرة .

(٢) في بعض نسخ الأصل : « وأما الطالحون » .

يعنى العاقر الذى لا يولد له ؛ وقاله ابن عباس . و « ما » على هذا نفي . وهو بعيد ولا يصح
إلا بإضمار الموصول ؛ أى ووالد الذى ما ولد ، وذلك لا يجوز عند البصريين . وقيل :
هو عموم فى كل والد وكل مولود ؛ قاله عطية العوفي . وروى معناه عن ابن عباس أيضا .
وهو اختيار الطبرى . قال الماوردى : ويحتمل أن الوالد النبى صلى الله عليه وسلم لتقدم
ذكرة ، وما ولد أمته لقوله عليه السلام : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم » . فأقسم به وبأتمته
بعد أن أقسم ببلده ؛ مبالغة فى تشریفه عليه السلام .

قوله تعالى : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿١٩﴾

إلى هنا انتهى القسم ؛ وهذا جوابه . والله أن يُقسم بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها كما
تقدم . والإنسان هنا ابن آدم . (فى كَبَدٍ) أى فى شدة وعناء من مكابدة الدنيا . وأصل
الكَبَدِ الشدة . ومنه تَكَبَّدَ اللبنُ : غَلُظَ وَخَثُرَ وَأَشْتَدَّ . ومنه الكَبْدُ ؛ لأنه دَمٌ تَغَلَّظَ وَأَشْتَدَّ .
ويقال : كابدت هذا الأمر : قاسيت شدته . قال لبيد :

يَا عَيْنُ هَلَّا بَكَيْتِ أُرْبَدَ إِذْ * قُمْنَا وَقَامَ الْخِصْمُ فِي كَبَدٍ

قال ابن عباس والحسن : « فى كَبَدٍ » أى فى شدة ونصب . وعن ابن عباس أيضا :
فى شدة من حملة وولادته ورضاعه ونبت أسنانه ، وغير ذلك من أحواله . وروى عكرمة عنه
قال : منتصبا فى بطن أمه . والكَبَدُ الأستواء والأستقامة . فهذا أمتان عليه فى الحلقة .
ولم يخلق الله جل ثناؤه دابة فى بطن أمها إلا مُنَكَّبَةً على وجهها إلا ابن آدم ؛ فإنه منتصب
انتصبا ؛ وهو قول النخعي ومجاهد وغيرهما . ابن كيسان : منتصبا رأسه فى بطن أمه ؛
فإذا أذن الله أن يخرج من بطن أمه قلب رأسه إلى رجل أمه . وقال الحسن : يكابد مصائب
الدنيا وشدائد الآخرة . وعنه أيضا : يكابد الشكر على السراء و يكابد الصبر على الضراء ؛
لأنه لا يخلو من أحدهما . ورواه ابن عمر . وقال يمان : لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد
ابن آدم ؛ وهو مع ذلك أضعف الخلق . قال طهطاؤنا : أول ما يكابد قطع سرته ، ثم إذا

قُطِ قِطَاً وَشُدَّ رِبَاطًا يَكَابِدُ الضيق والتعب ، ثم يكابد الارتضاع ولو فاته لضاع ، ثم يكابد نبت أسنانه وتمزك لسانه ، ثم يكابد الفطام الذي هو أشد من اللطام ، ثم يكابد الختان والأوجاع والأحزان ، ثم يكابد المعلم وصوته ، والمؤذّب وسياسته ، والأستاذ وهيبته ، ثم يكابد شغل الترويح والتعجيل فيه ، ثم يكابد شغل الأولاد والخدم والأجناد ، ثم يكابد شغل الدور وبناء القصور ، ثم الكبر والمهرم وضعف الركبة والقدم ، في مصائب يكثر تعدادها ، ونوائب يطول إيرادها ، من صداع الرأس ، ووجع الأضراس ، ورمد العين ، وغم الدين ، ووجع السن ، وألم الأذن . ويكابد محناً في المال والنفس ؛ مثل الضرب والحبس ، ولا يمضى عليه يوم إلا يقاسى فيه شدة ، ولا يكابد إلا مشقة ، ثم الموت بعد ذلك كله ، ثم مساءلة الملك ، وضغطة القبر وظلمته ، ثم البعث والعرض على الله إلى أن يستقر به القرار ، إما في الجنة وإما في النار؛ قال الله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ » فلو كان الأمر إليه لما أختار هذه الشدائد . ودلّ هذا على أن له مخالفاً دبره ، وقضى عليه بهذه الأحوال ؛ فليمثل أمره . وقال ابن زيد : الإنسان هنا آدم . وقوله : « في كَبَدٍ » أي في وسط السماء . وقال الكلبي : إن هذا نزل في رجل من بني جُمح ؛ كان يقال له أبو الأشدين ، وكان يأخذ الأديم العكاظي فيجعله تحت قدميه ، فيقول : من أزالني عنه فله كذا . فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه ؛ وكان من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه نزل « أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ » يعني لقوته . وروى عن ابن عباس . ومعنى « في كَبَدٍ » أي شديداً ، يعني شديد الخلق ؛ وكان من أشد رجال قريش . وكذلك رُكَّانَةُ بن هاشم بن عبد المطلب . وكان مثلاً في البأس والشدّة . وقيل : « في كَبَدٍ » أي جرى القلب ، غليظ الكبد مع ضعف خلقته ومهانة مادته . ابن عطاء : في ظلمة وجهل . التريدي : مضيقاً ما يعنيه ، مشتغلاً بما لا يعنيه .

(١) في نسخة من نسخ الأصل وحاشية الجمل : « ثم يكابد شغل الترويح والتعجيل فيه والترويح » .

(٢) كذا في نسخ الأصل . وفي الكشاف روح المعاني والبيضاوي والنعلبي : « أبو الأشد » .

قوله تعالى : **أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ**
مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

قوله تعالى : **(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ)** أى أبطن ابن آدم أن لن يعاقبه الله عز وجل . **(يَقُولُ أَهْلَكْتُ)** أى أنفقت . **(مَالًا لُبَدًا)** أى كثيرا مجتمعا . **(أَيَحْسَبُ)** أى أبطن . **(أَنْ لَمْ يَرَهُ)** أى أن لم يعاينه **(أَحَدٌ)** بل علم الله عز وجل ذلك منه ، فكان كاذبا في قوله : أهلكت ؛ ولم يكن أنفقه . وروى أبو هريرة قال : يوقف العبد فيقال ماذا عملت في المال الذى رزقتك ؟ فيقول : أنفقته وزكيتته . فيقال : كأنك إنما فعلت ذلك ليقال سخى فقد قيل ذلك . ثم يؤمر به إلى النار . وعن سعيد عن قتادة : إنك مستول عن مالك من ابن جمعت ، وكيف أنفقت . وعن ابن عباس قال : كان أبو الأشدين يقول أنفقت فى صداوة عهد مالا كثيرا ، وهو فى ذلك كاذب . وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن عامر بن نوفل ، أذنب فأستفتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره أن يكفر . فقال : لقد ذهب مالى فى الكفارات والنفقات منذ دخلت فى دين عهد . وهذا القول منه يحتمل أن يكون استطالة بما أنفق فيكون طغيانا منه ، أو أسفا عليه فيكون ندمًا منه . وقرأ أبو جعفر « مَالًا لُبَدًا » بتشديد الباء مفتوحة على جمع لا بد ؛ مثل راع ورتع ، وساجد وسجد ، وشاهد وشهد ، ونحوه . وقرأ مجاهد وحيد بضم الباء واللام مخففا جمع لبود . الباقيون بضم اللام وكسرها وفتح الباء مخففا جمع لُبْدَةٌ ولبْدَةٌ ، وهو ما تلبد ؛ يريد الكثرة . وقد مضى فى سورة « الجن » القول فيه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ « أَيَحْسَبُ » بضم السين فى الموضعين . وقال الحسن : يقول أنفقت مالا كثيرا فن يحاسبني به ؛ دعنى أحسبه . ألم يعلم أن الله قادر على محاسبته ، وأن الله عز وجل يرى صنيعه ثم عدد عليه نعمه فقال : **(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)** يبصر بهما **(وَلِسَانًا)** ينطق به . **(وَشَفَتَيْنِ)** يستر بهما

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٢ فابعدا .

ثفره . والمعنى : نحن فعلنا ذلك ، ونحن نقدر على أن نبعثه ونُحْيِي عليه ما عمله . وقال أبو حازم قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” إن الله تعالى قال يا بن آدم إن نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعتك عليه بطبقين فأطبق وإن نازعك بصرك فيما حرمت عليك فقد أعتك عليه بطبقين فأطبق . وإن نازعك فرجك إلى ما حرمت عليك فقد أعتك عليه بطبقين فأطبق “ .
والشِّفَّة أصلها شَفَهَةٌ ، حُذِفَتْ منها الهاء ، وتصغيرها شَفِيهَةٌ ، والجمع شَفَاهٌ . ويقال : شَفَهَاتٌ وشَفَوَاتٌ ، والهاء أقيس ، والواو أعم تشبيهاً بالسنوات . وقال الأزهري : يقال هذه شَفَّةٌ في الوصل وشَفَهٌ ، بالهاء والهاء . وقال قتادة : نِعِمَ اللهُ ظاهراً يُقْتَرِكُ بها حتى تشكر .

قوله تعالى : وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

يعنى الطريقين : طريق الخير وطريق الشر . أى بيناهما له بما أرسلناه من الرسل . والنَّجْدُ : الطريق في ارتفاع . وهذا قول ابن عباس وابن مسعود وغيرهما . وروى قتادة قال : ذُكِرَ لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : ” يا أيها الناس إنما هما النجدان نجد الخير ونجد الشر فلم يجعل نجد الشر أحب إليك من نجد الخير “ . وروى عن عكرمة قال : النجدان الثديان . وهو قول سعيد بن المسيب والضحاك ، وروى عن ابن عباس وعلي رضي الله عنهما ؛ لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه . فالنجد العُلُوُّ وجمعه نُجُودٌ ؛ ومنه سُمِّيَتْ « نجد » لارتفاعها عن انخفاض تهامة . فالنجدان العاليان . قال امرؤ القيس :
فريقان منهم جازع بطن نخلة * وأحرمنهم قاطع نجد ككبك

قوله تعالى : فَلَا أَقْتَحِمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾

أى فهلاً أتق ماله الذي يزعم أنه أنفقه في عداوة محمد ، هلاً أنفقه لأقتحام العقبة فإمن . والأقتحام : الزمى بالنفس في شيء من غير روية ؛ يقال منه : حَمَّ في الأمر حُوماً ؛ أى رمى

(١) كذا في الأصل وديوان امرئ القيس : وفي اللسان (مادة نجد) :

* غداة غدوا فسالك بطن نخلة *

والجازع : القاطع . وبطن نخلة : موضع بين مكة والطائف . وككب : الجبل الأحمر الذي يجعله يظهر إذا وقعت بهرة .

بنفسه فيه من غير روية . وقَمَّ الفرسُ فارسه تفحياً على وجهه إذا رماه . وتفحيم النفس في الشيء إدخالها فيه من غير روية . والقُحمة (بالضم) المهلكة والسنة الشديدة . يقال : أصابت الأعراب القُحمة ؛ إذا أصابهم قحط فدخلوا الرِّيف . والقُحَم : صعب الطريق . وقال القزّاء والزجاج : وذكر « لا » مرة واحدة ، والعرب لا تكاد تُفرد « لا » مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يعيدوها في كلام آخر ؛ كقوله تعالى : « فَلَا صَدَقَ وَلَا صِلَى^(١) » « وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » . وإنما أفردوها لدلالة آخر الكلام على معناه ؛ فيجوز أن يكون قوله : « ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا » قائماً مقام التكرير ؛ كأنه قال : فلا أفتحم العقبة ولا آمن . وقيل : هو جار مجرى الدعاء ؛ كقوله : لا نجأ ولا سلِّم . (وما أدراك ما العقبة) قال سفيان بن عيينة : كل شيء قال فيه « وما أدراك » فإنه أخبر به ، وكل شيء قال فيه « وما يدريك » فإنه لم يخبر به . وقال : معنى « فَلَا أفتحم العقبة » أى فلم يفتحم العقبة ؛ كقول زهير :

وكان طوى كسحاً على مُسْتَكِنَةٍ . فلا هو أبداها ولم يتقدّم^(٢)

أى فلم يُبدها ولم يتقدم . وكذا قال المبرد وأبو علي . « لا » بمعنى لم . وذكره البخارى عن مجاهد . أى فلم يفتحم العقبة في الدنيا فلا يحتاج إلى التكرير . ثم فسّر العقبة وركوبها فقال : « فَكُ رَفِيَّةٌ » وكذا وكذا ؛ فبين وجوهاً من القرب المالية . وقال ابن زيد وجماعة من المفسرين : معنى الكلام الاستفهام الذى معناه الإنكار ؛ تقديره : أفلا أفتحم العقبة ، أو هلا أفتحم العقبة . يقول : هلا أنفق ماله في فك الرقاب وإطعام السفبان ليجاوز به العقبة ؛ فيكون خيراً له من إنفائه في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم . ثم قيل : افتحام العقبة هاهنا ضربٌ مثل ، أى هلا تتحمل عظام الأمور في إنفاق ماله في طاعة ربه والإيمان به . وهذا إنما يليق بقول من حمل « فَلَا أفتحم العقبة » على الدعاء ؛ أى فلا نجأ ولا سلِّم من لم يُنفق ماله في كذا وكذا . وقيل : شبه عظم الذنوب وثقلها وشدتها بعقبة ، فإذا اعتق رفةً وعمل صالحاً كان مثله كمثل من أفتحم العقبة ، وهى الذنوب التى تضره وتؤذيه وتثقله . قال

(١) آية ٣١ سورة القيامة . (٢) الكشح : الخامرة . مستكنة : مل أمر أكنه في نفسه .

ابن عمر : هذه العقبة جبل في جهنم . وعن أبي رجاء قال : بلغنا أن العقبة مصعدا سبعة آلاف سنة ومهبطها سبعة آلاف سنة . وقال الحسن وقتادة : هي عقبة شديدة في النار دون الجسر ، فأفتحوها بطاعة الله . وقال مجاهد والضحاك والكأبي : هي الصراط يضرب على جهنم كحد السيف ، مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، سهلاً وصعوداً وهبوطاً . واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء . وقيل : اقتحامه عليه قدر ما يصلي صلاة المكتوبة . ورؤى عن أبي الدرداء أنه قال : إن وراءنا عقبة ، أنجى الناس منها أخفهم حملاً . وقيل : النار نفسها هي العقبة . فروى أبو رجاء عن الحسن قال : بلغنا أنه ما من مسلم يعتق رقبة إلا كانت فداءه من النار . وعن عبد الله بن عمر قال : من أعتق رقبة أعتق الله عز وجل بكل عضو منها عضواً منه . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه“ . وفي الترمذي عن أبي أمامة وغيره من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” أيما امرئ مسلم أعتق امرأة مسلماً كان فكاً كه من النار يجزي كل عضو منه عضواً منه وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة كانت فكاً كه من النار يجزي كل عضو منها عضواً منها“ . قال : هذا حديث حسن صحيح غريب . وقيل : العقبة خلاصه من هول العرض . وقال قتادة وكعب : هي نار دون الجسر . وقال الحسن : هي والله عقبة شديدة ؛ مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان . وأنشد بعضهم :

إني بُليت بأربع يرببنتي * بالنبل قد نصبوا علي شراكا
إبليس والدنيا ونفسي والهوى * من أين أرجو بينهن فكاً كا
يا رب ساعدني بعفو إني * أصبحت لا أرجو لمن سوا كا

قوله تعالى : وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٤﴾

فيه حذف ؛ أي وما أدراك ما اقتحام العقبة . وهذا تعظيم لالتزام أمر الدين ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ليعلمه اقتحام العقبة . قال القشيري : وحمل العقبة على

عقبة جهنم بعيد؛ إذ أحد في الدنيا لم يفتحم عقبة جهنم؛ إلا أن يُحمل على أن المراد فهلاً صير نفسه بحيث يمكنه آفتحام عقبة جهنم غداً. واختار البخاري قول مجاهد: إنه لم يفتحم العقبة في الدنيا. قال ابن العربي: «وإنما اختار ذلك لأجل أنه قال بعد ذلك في الآية الثانية: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ»، ثم قال في الآية الثالثة: «فَكُّ رَقَبَةٍ»، وفي الآية الرابعة «أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ»، ثم قال في الآية الخامسة: «يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ»، ثم قال في الآية السادسة: «أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ»؛ فهذه الأعمال إنما تكون في الدنيا. المعنى: فلم يأت في الدنيا بما يُسهل عليه سلوك العقبة في الآخرة».

قوله تعالى: فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قوله تعالى: (فَكُّ رَقَبَةٍ) فَكُّهَا خَلَاصُهَا مِنَ الْأَسْرِ . وقيل: من الرِّق (١) . وفي الحديث: «وَفَكُّ الرِّقَبَةِ أَنْ تُعَيَّنَ فِي ثَمَنِهَا» من حديث البراء. وقد تقدم في سورة «براءة». والفك: هو حل القيد؛ والرِّق قيدٌ. وسمى المرفوق رقبة؛ لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته. وسمى عتقها فكاً فكفك الأسير من الأسر. قال حسان:

كم من أسير فككناه بلا ثمن * وجزأ ناصية ذأ موالها

وروى عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار». قال الماوردي: ويحتمل ثانياً أنه أراد فك رقبته وخلص نفسه بآجتباب المعاصي وفعل الطاعات؛ ولا يمتنع الخبر من هذا التأويل، وهو أشبه بالصواب. الثانية - قوله تعالى: (رَقَبَةٍ) قال أصبغ: الرقبة الكافرة ذات الثمن أفضل في العتق من الرقبة المؤمنة القليلة الثمن؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل أي الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها». ابن العربي: «والمراد في هذا الحديث من

(١) راجع ج ٨ ص ١٨٣ .

المسلمين ؛ بدليل قوله عليه السلام : " من أعتق أمراً مسلماً " و " من أعتق رقبة مؤمنة " .
وما ذكره أصبغ وهلة^(١) ، وإنما نظر إلى تنقيص المال ، والنظر إلى تجريد المعتق للعبادة
وتفريغه للتوحيد أولى .

الثالثة — العتق والصدقة من أفضل الأعمال . وعن أبي حنيفة : أن العتق أفضل
من الصدقة . وعند صاحبه الصدقة أفضل . والآية أدل على قول أبي حنيفة ؛ لتقديم العتق
على الصدقة . وعن الشعبي في رجل عنده فضل نفقة : أبيضه في ذى قرابة أو يعتق رقبة ؟
قال : الرقبة أفضل ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من فك رقبة فك الله بكل عضو
منها عضواً منه من النار " .

قوله تعالى : **أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٥﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾**
أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (**أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ**) أى مجاعة . والسَّغْبُ الجوع .
والساغب : الجائع . — وقرأ الحسن « **أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذَا مَسْغَبَةٍ** » بالألف في « ذَا » —
وأنشد أبو عبيدة :

فلو كنت جاراً يا بن قيس بن عاصم * لما بت شبعاناً وجارك ساغبا

وإطعام الطعام فضيلة ، وهو مع السَّغْب الذى هو الجوع أفضل . وقال النخعي في قوله
تعالى : « **أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ** » قال : فى يوم عزيز فيه الطعام . وروى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من موجبات الرحمة إطعام المسلم السغبان " . (**يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ**)
أى قرابة . يقال : فلان ذو قرابتى وذو مقربتى . يعلمك أن الصدقة على القرابة أفضل منها
على غير القرابة ، كما أن الصدقة على اليتيم الذى لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذى
يجد من يكفله . وأهل اللغة يقولون : **سُمِّيَ يَتِيمًا لضعفه** . يقال : **يَتَمَّ الرجل يَتَمًّا** إذا ضعف .

(١) كذا فى الأصول وابن العربى ، ولعلها المرة من الوهل وهو الغلط . وهل الى الشئ . (بالفتح) يهل (بالكسر)
وهلا (بالسكون) : إذا ذهب وهمه اليه . ويجوز أن يكون بمعنى مها رغلط . (٢) كذا فى الأصول .
يريد : فلو كنت جاراً قائماً بحق الجوار لما حدث هذا .

وذكروا أن اليتيم في الناس من قبل الأب ، وفي البهائم من قبل الأمهات . وقد مضى في سورة «البقرة» مستوفى ، وقال بعض أهل اللغة : اليتيم الذي يموت أبواه . وقال قيس ابن الملوح :

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا * إلى الله فقد الوالدين يتيم

قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أي لا شيء له ، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر ، ليس له ماوى إلا التراب . قال ابن عباس : هو المطروح على الطريق الذي لا بيت له . مجاهد : هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره . وقال قتادة : إنه ذو العيال . عكرمة : المديون . أبو سنان : ذو الزمانة . ابن جبير : الذي ليس له أحد . وروى عكرمة عن ابن عباس : ذو المتربة البعيد التربة ؛ يعنى الغريب البعيد عن وطنه . وقال أبو حامد الخارزنجي : المتربة هنا من التريب ؛ وهى شدة الحال . يقال ترب إذا افتقر . قال الهذلي :

وتكنا إذا ما الضيف حل بأرضنا * سفكا دماء البذن في تربة الحال

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي « فكَ » بفتح الكاف على الفعل الماضى « رقية » نصباً لكونها مفعولاً « أو أظعم » بفتح الهمزة ونصب الميم من غير ألف على الفعل الماضى أيضاً ، بقوله : « ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا » فهذا أشكل بـ « فكَ وَأظعم » . وقرأ الباقون « فكَ » رفعاً على أنه مصدر فككت . « رقية » خفض بالإضافة . « أو إطعام » بكسر الهمزة وألف ورفع الميم وتنوينها على المصدر أيضاً . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنه تفسير لقوله تعالى : « وما أدراك ما العقبة » ثم أخبره فقال : « فكَ رقية . أو إطعام » . المعنى : أفتحام العقبة فك رقية أو إطعام . ومن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى ؛ أى ولا فك رقية ولا أظعم فى يوم ذا مسغبة ؛ فكيف يجاوز العقبة . وقرأ الحسن وأبو رجاء : « ذا مسغبة » بالنصب على أنه مفعول « إطعام » أى يطعمون ذا مسغبة و « يتيا » بدل منه . الباقون « ذى مسغبة » فهو صفة لـ « يوم » . ويجوز أن يكون قراءة النصب صفة لموضع الجار والمجرور ؛ لأن قوله : « فى يوم » ظرف منصوب الموضع ، فيكون وصفاله على المعنى دون اللفظ .

(۱) راجع ج ۲ ص ۱۴ طبعه ثانية .

قوله تعالى : **ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ۗ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۗ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعَيْنِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۗ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ۗ (٢٠)**

قوله تعالى : **(ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا)** يعنى أنه لا يفتحهم العقبة من نك رقة أو أطمع في يوم ذامسفة حتى يكون من الذين آمنوا؛ أى صدقوا، فإن شرط قبول انطاعات الإيمان بالله . فالإيمان بالله بعد الإنفاق لا ينفع ، بل يجب أن تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان ، قال الله تعالى في المنافقين : **«وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ تَفَاتُهُمُ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ»** . وقالت عائشة : **«يا رسول الله ، إن ابن جُذعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويُطعم الطعام ، ويفك العاني ويعتق الرقاب ، ويحمل على إبله لله ، فهل ينفعه ذلك شيئاً؟ قال : «لا ، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»** . وقيل : **«ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا»** أى فعل هذه الأشياء وهو مؤمن ، ثم بقى على إيمانه حتى الوفاة ؛ نظيره قوله تعالى : **«وَأَنَّى لَنَغْفِرَ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَسْتَدَى»** . وقيل : المعنى ثم كان من الذين يؤمنون بأن هذا نافع لهم عند الله تعالى . وقيل : أتى بهذه القرب لوجه الله ، ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقد قال حكيم بن حزام بعد ما أسلم : **يا رسول الله ، إنا كنا نتحنت بأعمال في الجاهلية ، فهل لنا منها شيء؟ فقال عليه السلام : «أسلمت على ما أسلفت من الخير»** . وقيل : إن **«ثُمَّ»** بمعنى الواو ؛ أى وكان هذا المعتق الرقة والمطعم في المسغبة من الذين آمنوا . **(وتَوَاصَوْا)** أى أوصى بعضهم بعضاً . **(بِالصَّبْرِ)** على طاعة الله وعن معاصيه ، وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب . **(وتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ)** أى بالرحمة على الخلق ؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين . **(أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)** أى الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم ؛ قاله محمد بن كعب القرظي وغيره . وقال يحيى بن سلام : لأنهم ميامين على أنفسهم . ابن زيد : لأنهم أخذوا من شق آدم الأيمن . وقيل : لأن منزلتهم عن اليمين ؛ قاله ميمون بن مهران . **(والَّذِينَ كَفَرُوا**

(١) آية ٤٤ سورة النورة . (٢) آية ٨٢ سورة طه . (٣) أى تنفرب بها الى الله .

بِآيَاتِنَا) أى القرآن . (هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ) أى يأخذون كتبهم بشمالهم ، قاله محمد بن كعب .
يحيى بن سلام : لأنهم مشائيم على أنفسهم . ابن زيد : لأنهم أخذوا من شق آدم الأيسر .
ميمون : لأن منزلتهم عن اليسار .

قلت : ويجمع هذه الأقوال أن يقال : إن أصحاب الميمنة أصحاب الجنة ، وأصحاب
المشأمة أصحاب النار ، قال الله تعالى : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ » ،
وقال : « وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ » . وما كان مثله . ومعنى
(مُؤَصَّدَةٌ) أى مطبقة مغلقة . قال :

تَحْنُ إِلَى أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِي * وَمِنْ دُونِهَا أَبْوَابٌ صَنَعَاءَ مُؤَصَّدَةٌ

وقيل : مبهم لا يدري ما داخلها . وأهل اللغة يقولون : أوصدت الباب وأصدته ؛
أى أغلقته . فمن قال أوصدت فالأسم الوِصَاد . ومن قال أصدته فالأسم الإِصَاد . وقرأ أبو عمرو
وحفص وحمزة ويعقوب والشيزرى عن الكسائى « مؤصدة » بالهمز هنا وفى « الهمزة » .
الباقون بلا همز . وهما لغتان . وعن أبى بكر بن عيَّاش قال : لنا إمام يهمز « مؤصدة »
فاشتهى أن أسد أذنى إذا سمعته .

سورة « الشمس »

مكية باتفاق ، وهى خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾

قال مجاهد : (وَضُحَاهَا) أى ضوءها وإشراقها . وهو قسم ثانٍ . وأضاف الضحى
إلى الشمس لأنه إنما يكون بارتفاع الشمس . وقال قتادة : بهاؤها . السدى : حرها . وروى
الضحاك عن ابن عباس : « وضحاها » قال : جعل فيها الضوء وجعلها حارة . وقال اليزيدى :
هو أنبساطها . وقيل : ما ظهر بها من كل مخلوق ؛ فيكون القسم بها وبمخلوقات الأرض

(١) آية ٢٨ و ٢٩ سورة الواقعة .

كأها . حكاها المأوردى . والضحي مؤنثة . يقال : ارتفعت الضحى ، [وهي] فوق الضحوة^(١) . وقد تذكّر . فن أنت ذهب إلى أنها جمع ضحوة . ومن ذكر ذهب إلى أنه اسم على فَعَل ؛ نحو صرد وقر^(٢) . وهو ظرف غير متمكن مثل سحر . تقول : لقيته ضحى وضحى ؛ إذا أردت به ضحا يومك لم تتونه . وقال الفراء : الضحى هو النهار ؛ كقول قتادة . والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعيد ذلك قليلا ، فإذا زاد فهو الضحاه بالمد . ومن قال : الضحى النهار كله فذلك لدوام نور الشمس . ومن قال : إنه نور الشمس أو حرها فنور الشمس لا يكون إلا مع حر الشمس . وقد استدل من قال : إن الضحى حر الشمس بقوله تعالى : «وَلَا تَضْحَى» أى لا يؤذيك الحر . وقال المبرد : أصل الضحى من الضح وهو نور الشمس ، والألف مقلوبة من الحاء الثانية . تقول : ضحوة وضحوات وضحوات وضحى ، فالواو من ضحوة مقلوبة عن الحاء الثانية ، والألف فى ضحى مقلوبة عن الواو . وقال أبو الهيثم : الضح تقيض الظل وهو نور الشمس على وجه الأرض ، وأصله الضحى فاستثقلوا الباء مع سكون الحاء فقلبوها ألحا .

قوله تعالى : وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾

أى تبعها . وذلك إذا سقطت رىء الهلال . يقال : تلوت فلانا إذا تبعته . قال قتادة : إنما ذلك ليلة الهلال ، إذا سقطت الشمس رىء الهلال . وقال ابن زيد : إذا غربت الشمس فى النصف الأول من الشهر تلاها القمر بالطلوع ، وفى آخر الشهر يتلوها بالغروب . الفراء : «تلاها» أخذ منها ؛ يذهب إلى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس . وقال قوم : «والقمر إذا تلاها» حين استوى وأستدار فكان مثلها فى الضياء والنور ؛ وقاله لزجاج .

(١) كذا فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبي . وفى نسخ الأصل وتفسير ابن عادل : «فوق الصخور» .

(٢) الصرد : طائر فوق المصفور . والنقر : فراخ المصافر .

قوله تعالى : **وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا** ﴿٣﴾

أى كشفها . فقال قوم : جَلَّى الظُّلْمَةَ ؛ وإن لم يجر لها ذكر ؛ كما تقول : أضحت باردة ؛ تريد أضحت غداتنا باردة . وهذا قول الفراء والكلبي وغيرهما . وقال قوم : الضمير في «جَلَّهَا» للشمس ؛ والمعنى : أنه يبين بضوئه جرمها . ومنه قول قيس بن الخطيم :
تجلت لنا كالشمس تحت غمامة * بدا حاجب منها وضئت بحاجب

وقيل : جَلَّى ما في الأرض من حيوانها حتى ظهر لاستناره ليلاً وانتشاره نهاراً . وقيل : جَلَّى الدنيا . وقيل : جَلَّى الأرض ؛ وإن لم يجر لها ذكر ؛ ومثله قوله تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » على ما تقدم آنفاً .^(١)

قوله تعالى : **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا** ﴿٤﴾

أى يغشى الشمس فيذهب بضوئها عند سقوطها ؛ قاله مجاهد وغيره . وقيل : يغشى الدنيا بالظلم فتظلم الآفاق . فالكناية ترجع إلى غير مذكور .

قوله تعالى : **وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَنَهَا** ﴿٥﴾

أى وبنيناها . فما مصدرية ؛ كما قال : « بِمَا غَفَرَلِي رَبِّي » أى بغفران ربى ؛ قاله قتادة ، وأختره المبرد . وقيل : المعنى ومن بناها ؛ قاله الحسن ومجاهد ؛ وهو اختيار الطبري . أى ومن خلقها ورفعها وهو الله تعالى . وحكى عن أهل الحجاز : سبحان ما سبحت له ؛ أى سبحان من سبحت له .^(٢)

قوله تعالى : **وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا** ﴿٦﴾

أى وطحَّوها . وقيل : ومن طحَّها ؛ على ما ذكرناه آنفاً . أى بسطها ؛ كذا قال عامة المفسرين ؛ مثل دحاها . قال الحسن ومجاهد وغيرهما : طحَّها ودحاها واحد ؛ أى بسطها

(١) آية ٣٢ سورة ص . (٢) آية ٢٧ سورة يس .

من كل جانب . وَالطَّحُو : البسط ؛ طحا يطحو طحوا ، وَطَحَى يَطْحِي طحيا ، وَطَحَيْتَ أَضطجعت ؛ عن أبي عمرو . وعن ابن عباس : طحاها قسمها . وقيل : خلقها ؛ قول الشاعر :

وما تدرى جَذِيمَةٌ مَنْ طَحَاها * ولا مَنْ ساكِنُ العَرِشِ الرفيع

المسوردي : ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز ؛ لأنه حياة لما خلق عليها . ويقال في بعض أيمان العرب : لا ، وَالقَمَر الطَّاحِي ؛ أي المشرف المشرق المرتفع . قال أبو عمرو : طحا الرجل إذا ذهب في الأرض . يقال : ما أدري أين طحا ! ويقال : طحا به قلبه إذا ذهب به في كل شيء . قال علقمة :

طحا بك قلبٌ في الحِسانِ طَرُوبٌ * بُعيدَ الشَّبابِ عَصْرَ حانِ مَشِيبُ

قوله تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧٥﴾

قيل : المعنى وتسويتها . فد«ما» بمعنى المصدر . وقيل : المعنى ومن سواها ، وهو الله عز وجل . وفي النفس قولان : أحدهما آدم . الثاني - كل نفس منقوسة . وسوى بمعنى هيا . وقال مجاهد : سواها سوى خلقها وعدل . وهذه الأسماء كلها مجرورة على القسم . أقسم جل ثناؤه بخلقه لما فيه من عجائب الصنعة الدالة عليه .

قوله تعالى : فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : (فَأَلْهَمَهَا) أي عرفها ؛ كذا روى بن أبي نجيح عن مجاهد . أي عرفها طريق الفجور والتقوى ؛ وقاله ابن عباس . وعن مجاهد أيضا : عرفها الطاعة والمعصية . وعن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله عز وجل بعبده خيرا ألهمه الخير فعمل به ، وإذا أراد به السوء ألهمه الشر فعمل به . وقال الفراء : « فَأَلْهَمَهَا » قال : عرفها طريق الخير وطريق الشر ؛ كما قال : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »^(١) . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : أَلْهَمَ الْمُؤْمِنَ الْمُتَّقِيَّ تَمَوَاهُ ، وَأَلْهَمَ الْفَاجِرَ فُجُورَهُ . وعن سعيد عن قتادة قال : بين لها بفجورها وتقواها . والمعنى

(١) آية ١٠ سورة البلد .

متقارب . وروى عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « فآلهمها بخورها وتقواها » قال : « اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها » . ورواه جوير عن الضحاك عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية « فآلهمها بخورها وتقواها » رفع صوته بها وقال : « اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها وأنت خير من زكاها » . وفي صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي قال قال لي عمران ابن حصين : رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشيء قضي ومضى عليهم من قدر ما سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ، وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم . قال فقال : أفلا يكون ظلماً ؟ قال : ففرغت من ذلك فرعاً شديداً وقلت : كل شيء خلق الله وملك يده ، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون . فقال لي : يرحمك الله ! إنى لم أريد بما سألتك إلا لأخزير^(۱) عقلك إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله ، رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقال : « لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل « ونفيس وما سواها . فآلهمها بخورها وتقواها » . والفجور والتقوى مصدران في موضع المفعول به .

قوله تعالى : **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** ﴿۹﴾ **وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** ﴿۱۰﴾

قوله تعالى : (**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**) هذا جواب القسم بمعنى لقد أفلح . قال الزجاج : اللام حذفت لأن الكلام طال فصار طوله عوضاً منها . وقيل : الجواب محذوف ، أى والشمس وكذا وكذا اتبعن . الرخشمى : تقديره ليدمد من الله عليهم ، أى على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دمد على ثمود ؛ لأنهم كذبوا صالحاً . وأما « **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** » فكلام تابع لأوله ، لقوله : « **فآلهمها بخورها وتقواها** » على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم

(۱) أى لأخزى عقلك وفهوك ودمرفك .

في شيء . وقيل : هو على التقديم والتأخير بغير حذف ، والمعنى : قد أفلح من زكّاهها وقد خاب من دسّاهها والشمس وضحاها . (أَفْلَحَ) فاز . (مَنْ زَكَّاهَا) أي من زكّى الله نفسه بالطاعة . (وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) أي خسرت نفس دسّها الله عز وجل بالمعصية . وقال ابن عباس : خابت نفس أضلها الله وأغواها . وقيل : أفلح من زكّى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال ، وخاب من دسّ نفسه في المعاصي ؛ قاله قتادة وغيره . وأصل الزكاة النمو والزيادة . ومنه زكا الزرع إذا كثُر ريعه . ومنه تزكية القاضي للشاهد ؛ لأنه يرفعه بالتعديل وذكر الجميل . وقد تقدم هذا المعنى في أول سورة «البقرة» مستوفى . فصطع المعروف والمبادر إلى أعمال البر شهر نفسه ورفعها . وكانت أجواد العرب تنزل الرّيا وأرتفاع الأرض ليشتهر مكانها للعتفين ، وتوقد النار في الليل للطارقين . وكانت اللثام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام ليخفي مكانها عن الطالبين . فأولئك علّوا أنفسهم وزكّوها ، وهؤلاء أخفّوا أنفسهم ودسّوها . وكذا الفاجر أبدا خفي المكان ، زمر المروءة ، غامض الشخص ، ناكس الرأس بركوب المعاصي . وقيل : دسّاهها أغواها . قال : وأنت الذي دسّيت عمرا فأصبحت * حلائله منه أراميل ضبيعا^(٥)

قال أهل اللغة : والأصل دسّها من التدسيس وهو إخفاء الشيء في الشيء ، فأبدلت سينه ياء ؛ كما يقال : قصّيت أظفاري ؛ وأصله قصصت أظفاري . ومثله قولهم في تقصص : تقصّى . وقال ابن الأعرابي : «وقد خاب من دسّاهها» أي دسّ نفسه في جملة الصالحين وليس منهم .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا^(١١) إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا^(١٢)
فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا^(١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا
فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا^(١٤)

(١) راجع ج ١ ص ٣٤٣ طبعة ثانية أرثاثة . (٢) المعنى : كل طالب فضل أو رزق .
(٣) الأولاج : ما كان من كهف أو غار يلجأ إليه . والأهضام : أسافل الأودية . (٤) الزمر : القليل .
(٥) الذي في اللسان (مادة دسا) :

وأنت الذي دسّيت عمرا فأصبحت * نساؤهم فيهم أراميل ضبيع
وقال : دسّيت أغويت وأفسدت . وعمرو : قبيلة .

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ أى بطغيانها، وهو خروجها عن الحد في المصيان؛
 قاله مجاهد وقتادة وغيرها . وعن ابن عباس « يطغواها » أى بعذابها الذى وعدت به . قال:
 وكان أسم العذاب الذى جاءها الطغوى؛ لأنه طغى عليهم . وقال محمد بن كعب : « يطغواها »
 بأجمعها . وقيل : هو مصدر، وخرج على هذا المخرج لأنه أشكل برءوس الآى . وقيل :
 الأصل بطغياها، إلا أن « فعلى » إذا كانت من ذوات الياء أبدلت في الأسم واوا ليفصل بين
 الأسم والوصف . وقراءة العامة بفتح الطاء . وقرأ الحسن والحدادى وحماد بن سلمة
 (بضم الطاء) على أنه مصدر؛ كالرُجعى والحُسنى وشبههما في المصادر . وقيل : هما لغتان .
 ﴿ إِذِ أَنْبَعَتْ ﴾^(١) أى نهض . ﴿ أَشْقَاهَا ﴾ لعقر الناقة . وأسمه قُدار بن سالف . وقد مضى
 في « الأعراف »، بيان هذا ، وهل كان واحدا أو جماعة . وفي البخارى عن عبد الله
 ابن زُمعة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب ، وذكر الناقة والذى عقرها فقال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : « إِذِ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا أَنْبَعَتْ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيْعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلُ
 أَبِي زَمْعَةَ » وذكر الحديث . خرجه مسلم أيضا . وروى الضحاك عن عليّ أن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال له : « أتدرى من أشقى الأقران » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « عاقر
 الناقة — قال — أتدرى من أشقى الآخرين » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فانتك » .
 ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾^(٢) يعنى صالحا . ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ « ناقة » منصوب على التحذير؛ كقولك:
 الأسد الأسد، والصبيّ الصبيّ، والحدار الحذار . أى احذروا ناقة الله ؛ أى عقرها . وقيل :
 ذروا ناقة الله ؛ كما قال : « هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ
 فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »^(٣) . ﴿ وَسُقْيَاهَا ﴾^(٤) أى ذروها وشربها . وقد مضى في سورة « الشعراء »
 بيانه والحمد لله . وأيضا في سورة « اقتربت الساعة »^(٥) . فإنهم لما اقترحوا الناقة وأخرجها لهم من
 الصخرة ، جعل لهم يشرب يوم من برهم ولها يشرب يوم مكان ذلك ، فشق ذلك عليهم .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤١ (٢) العارم : الجبار المنفذ الخبيث . (٣) آية ٧٣ سورة الأعراف .

(٤) راجع ج ١٣ ص ١٢١ (٥) راجع ج ١٧ ص ١٤١

(فَكَذَّبُوهُ) أى كذبوا صالحا عليه السلام فى قوله لهم : "إنكم تُعَذِّبُونَ إن عقرتموها" .
 (فَعَقَرُوهَا) أى عقرها الأثقى . وأضيف إلى الكل لأنهم رضوا بفعله . وقال قتادة : ذكر
 لنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذکرهم وأنتاهم . وقال الفراء : عقرها أشنان .
 والعرب تقول : هذان أفضل الناس ، وهذان خير الناس ، وهذه المرأة أشقى القوم ؛ فلماذا
 لم يقل : أشقياها .

قوله تعالى : (فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) أى أهلكهم وأطبق عليهم العذاب بذنوبهم الذى
 هو الكفر والتكذيب والعقر . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : دمدم عليهم قال : دمر عليهم
 ربهم بذنوبهم ؛ أى يجرمهم . وقال الفراء : دمدم أى أرجف . وحقيقة الدمدمة تضعيف
 العذاب وترديده . ويقال : دممت على الشئ أى أطبقت عليه ، ودمم عليه القبر أى أطبقه . وناقعة
 مدمومة ألبسها الشحم . فإذا كثرت الإطباق قلت : دممت . والدمدمة إهلاك باستئصال ؛
 قاله المؤرج . وفى الصحاح : ودممت الشئ إذا ألقته بالأرض وطحطحتته . ودمدم الله عليهم
 أى أهلكهم . الفشيري : وقيل دممت على الميت التراب أى سويت عليه . فقوله «فَدَمَدَمَ
 عَلَيْهِمْ» أى أهلكهم بفعلهم تحت التراب . (فَسَوَّاهَا) أى سوى عليهم الأرض . وعلى
 الأول «فسواها» أى فسوى الدمدمة والإهلاك عليهم . وذلك أن الصيحة أهلكتهم فأتت
 على صغيرهم وكبيرهم . وقال ابن الأنبارى : دمدم أى غضب . والدمدمة : الكلام الذى يُرْبَعُ
 الرجل . وقال بعض اللغويين : الدمدم : الإدامة ؛ تقول العرب : ناقعة مدمومة أر سمينة .
 وقيل : «فسواها» أى فسوى الأمة فى إنزال العذاب بهم ، صغيرهم وكبيرهم . وضعفهم
 وشريفهم ، ذكركم وأنتاهم . وقرا ابن الزبير «فدهدم» وهما لغتان ؛ كما يقال : اهتقع
 لونه وأمتقع .

قوله تعالى : وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا

أى فعل الله ذلك بهم غير خائف أن تلحقه تبعة الدمدمة من أحد ؛ قاله ابن عباس
 والحسن وقتادة ومجاهد . والهاء فى «عقباها» ترجع إلى الفعلة ؛ كقوله : "من أنسل يوم

الجمعة فيها ونعمت» أى بالفعلة والخصلة . قال السُّدى والضحاك والكلبي : ترجع إلى العاقرة؛ أى لم يخف الذى عقرها عقبي ما صنع . وقاله ابن عباس أيضا . وفى الكلام تقديم وتأخير، مجازة : إذ انبعث أشقاها ولا يخاف عُّباها . وقيل : لا يخاف رسول الله صالح عاقبة إهلاك قومه ، ولا يخشى ضررا يعود عليه من عذابهم ؛ لأنه قد أنذرهم ونجاه الله تعالى حين أهلكهم . وقسراً نفع وابن عامر « فلا » بالفاء وهو الأجود ؛ لأنه يرجع إلى المعنى الأول ؛ أى فلا يخاف الله عاقبة إهلاكهم . والباقون بالواو ، وهى أشبه بالمعنى الثانى ؛ أى ولا يخاف الكافر عاقبة ما صنع . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالا : أخرج إلينا مالك مصحفا لحدته ، وزعم أنه كتبه فى أيام عثمان بن عفان حين كتب المصاحف ، وفيه : « ولا يخاف » بالواو . وكذا هى فى مصاحف أهل مكة والعراقيين بالواو ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم اتباعا لمصحفهم .

سورة « والليل »

مَكِّيَّة . وقيل : مَدَنِيَّة . وهى إحدى وعشرون آية بإجماع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾
وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ أى يُغَطِّي . ولم يذكر معه مفعولا للعلم به . وقيل : يغشى النهار . وقيل : الأرض . وقيل : الخلائق . وقيل : يغشى كل شىء بظلمته . وروى سعيد عن قتادة قال : أول ما خلق الله النور والظلمة ، ثم ميز بينهما ، بفعل الظلمة ليلاً أسود مُظْلِماً ، والنور نهاراً مُضِيئاً مُبْصِراً . ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ أى إذا انكشف ووضَّح وظهر ، وبان بظونته عن ظلمة الليل . ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ قال الحسن : معناه والذى خلق

الذكر والأنثى ؛ فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل . وقيل : معناه وخلق الذكر والأنثى ؛
 «ما» مصدرية على ما تقدم . وأهل مكة يقولون للرعد : سبحان ما سبحت له ؛ فما على
 هذا بمعنى من ، وهو قول أبي عبيدة وغيره . وقد تقدم . وقيل : المعنى وما خلق من
 الذكر والأنثى ؛ فتكون « من » مضمرة ، ويكون القسم منه بأهل طاعته من أنبيائه وأوليائه ،
 ويكون قسمه بهم تكريماً لهم وتشريفاً . وقال أبو عبيدة : « وما خلق » أى ومن خلق .
 وكذا قوله : « والسما وما بناها » ، و« نفيس وما سواها » « ما » فى هذه المواضع بمعنى من .
 وروى عن ابن مسعود أنه كان يقرأ « والنهار إذا تجلى . والذكر والأنثى » ويسقط « وما خلق » .
 وفى صحيح مسلم عن علقمة قال : قدمنا الشام فأتانا أبو الدرداء فقال : فيكم أحد يقرأ على
 قراءة عبد الله ؟ فقلت : نعم ، أنا . قال : فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية « والليل
 إذا يغشى » ؟ قال : سمعته يقرأ « والليل إذا يغشى . والذكر والأنثى » قال : وأنا والله
 هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها ، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ « وما خلق »
 فلا أتابعهم . قال أبو بكر الأنباري : وحدثنا محمد بن يحيى المروزي قال حدثنا محمد قال
 حدثنا أبو أحمد الزبيرى قال حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن
 عبد الله قال : أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أنا الرازق ذو القوة المتين » ؛ قال
 أبو بكر : كل من هذين الحديثين مردود ؛ بخلاف الإجماع له ، وأن حمزة وعاصمًا يرويان
 عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعة المسلمين ، والبناء على سنيين يوافقان الإجماع أولى
 من الأخذ بواحد يخالفه الإجماع والأمة ، وما يبنى على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة
 تخالفه ، أخذ برواية الجماعة وأبطل نقل الواحد ؛ لما يجوز عليه من النسيان والإغفال .
 ولو صح الحديث عن أبي الدرداء وكان إسناده مقبولاً معروفاً ، ثم كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى

(١) وفى كتاب الأحكام لابن العربي ما نصه : « هذا مما لا يلتفت إليه بشر ، إنما الممول عليه ما فى المصحف
 فلا يجوز مخالفته لأحد ، ثم بعد ذلك يقع النظر فيما يوافق خطه مما لم يثبت ضبطه حسب ما بيناه فى موضعه ؛ فإن القرآن
 لا يثبت بنقل الواحد وإن كان عدلاً ، وإنما يثبت بالنوازل الذى يقع به العلم ، وينقطع معه العذر وتقوم به الحجية
 على الخلق » .

وسائر الصحابة رضى الله عنهم يخالفونه، لكان الحكم العمل بما رَوَّته الجماعة ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد، الذى يسرع إليه من النسيان ما لا يسرع إلى الجماعة وجميع أهل الملة .
 وفي المراد بالذكر والأُنثى قولان : أحدهما - آدم وحواء؛ قاله ابن عباس والحسن والكلبي .
 الثانى - يعنى جميع الذكور والإناث من بنى آدم والبهائم ؛ لأن الله تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى من نوعهم . وقيل : كل ذكر وأنثى من الآدميين دون البهائم لاختصاصهم بولاية الله وطاعته . (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) هذا جواب القسم . والمعنى : إن عملكم مختلف .
 وقال عكرمة وسائر المفسرين : السعى العمل ؛ فساج فى فكك نفسه ، وساج فى عطبها ؛ يدل عليه قوله عليه السلام : «الناس غاديان فبتاع نفسه فمعتقها وبتاع نفسه فموبقها»^(۱) . وشتَّى : واحده شتيت ؛ مثل مريض ومرضى . وإنما قيل للمختلف شتَّى لتباعد ما بين بعضه وبعضه .
 أى إن عملكم لتباعد بعضه من بعض ؛ لأن بعضه ضلالةٌ وبعضه هُدًى . أى فنكم مؤمن وبرٌ، وكافر وفاجر ، ومطيعٌ وعاصٍ . وقيل : « لَشَتَّى » أى لمختلف الجزاء ؛ فنكم مثابٌ بالجنة ومعاقبٌ بالنار . وقيل : أى لمختلف الأخلاق ؛ فنكم راحمٌ وقاسٍ ، وحليمٌ وطائشٌ ، وجوادٌ وبخيلٌ ؛ وشبه ذلك .

قوله تعالى : فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴿١٠﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿١١﴾
 فَسَنِيَرُهُ لِّلْيُسْرَى ﴿١٢﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿١٣﴾ وَكَذَّبَ
 بِالْحُسْنَى ﴿١٤﴾ فَسَنِيَرُهُ لِّلْعُسْرَى ﴿١٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى) قال ابن مسعود : يعنى أبا بكر رضى الله عنه ؛ وقاله عامة المفسرين . فرُوى عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعنى على الإسلام عجائز ونساء ، قال فقال له أبوه أبو حنيفة : أى بنى ! لو أنك

(۱) هذه رواية الحديث كما فى النعلبي . والذى فى نسخ الأصل : «الناس غاديان فبتاع نفسه فمعتقها أو موبقها» .

عتقت رجلاً جلدًا يمنعونك ويقومون معك؟ فقال: يا أبت إنما أريد ما أريد^(۱) . وعن ابن عباس في قوله تعالى: «فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ» أي بذل . «وَأَتَّقَى» أي محارم الله التي نهى عنها . ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي بالخلف من الله تعالى على عطائه . ﴿فَسَنِّيَسِرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من يوم يُصْبِحُ العباد فيه إلا وملاكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقًا خلفًا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكًا تلفًا» . وروى من حديث أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من يوم غربت شمسُه إلا بُعِثَ بِمِجَنَّبَتِهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ يَسْمَعُهُمَا خَلْقُ اللَّهِ كُلَّهُمْ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ اللَّهُمَّ اعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا» فانزل الله تعالى في ذلك في القرآن «فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ» الآيات . وقال أهل التفسير: «فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ» المعسرين . وقال قتادة: أعطى حقَّ الله تعالى الذي عليه . وقال الحسن: أعطى الصدق من قلبه . ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي بلا إله إلا الله؛ قاله الضحاك والسلمي وابن عباس أيضا . وقال مجاهد: بالجنة؛ دليلاً قوله تعالى: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» الآية . وقال قتادة: بموعود الله الذي وعده أن يشبهه . زيد بن أسلم: بالصلاة والزكاة والصوم . الحسن: بالخلف من عطائه؛ وهو اختيار الطبري . وتقدم عن ابن عباس ، وكله متقارب المعنى ؛ إذ كله يرجع إلى الثواب الذي هو الجنة .

الثانية - قوله تعالى: ﴿فَسَنِّيَسِرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ أي نرشد له لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها . وقال زيد بن أسلم: «لليسر» للجنة . وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة بالبقيع ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بخمس وجلسنا معه ، ومعه عود ينكتُ به في الأرض ، فرفع رأسه إلى السماء فقال: «ما من نفس منقوسة إلا [قد] كُتِبَ مَدْخَلُهَا» فقال القوم: يا رسول الله ، أفلا تتكىل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة ، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء . قال: «بل

(۱) كذا في كتاب أسباب النزول وروح المعاني . وفي نسخ الأصل: «ما يريد» . وفي تفسير الثعلبي ورواية أخرى في أسباب النزول: «لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك؟ قال: منع ظهري أريد» .
(۲) آية ۲۶ سورة يونس .

أَعْمَلُوا فِكْلٌ مِّسْرٌ أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُ يُبَسِّرُ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَإِنَّهُ يُبَسِّرُ لِعَمَلِ الشَّقَاءِ — ثُمَّ قَرَأَ — «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنبِسِرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنبِسِرُهُ لِلْعُسْرَى» «لفظ الترمذی . وقال فيه : حديث حسن صحيح . وسأل غلامان شابان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : العمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم في شيء يستأنف ؟ فقال عليه السلام : «بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير» قالوا : ففيم العمل ؟ قال : «أعملوا فكل ميسر لعمله الذي خلق له» قالوا : فالآن نجد ونعمل .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴾ (۱) أى ضن بما عنده فلم يبذل خيراً . وقد تقدم بيانه وثمرته في الدنيا في سورة «آل عمران» . وفي الآخرة ماله النار كما في هذه الآية . روى الضحاك عن ابن عباس (فَسَنبِسِرُهُ لِلْعُسْرَى) قال : سوف أحول بينه وبين الإيمان بالله وبرسوله . وعنه عن ابن عباس قال : نزلت في أمية بن خلف . وروى عكرمة عن ابن عباس : « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى » يقول : يبخل بماله واستغنى عن ربه . ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ أى بالخلف . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد : « وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى » قال : بالجنة . وبإسناد عنه آخر قال « بالحسنى » أى بلا إله إلا الله . ﴿ فَسَنبِسِرُهُ ﴾ أى تسهل طريقه . ﴿ لِلْعُسْرَى ﴾ أى للشرة . وعن ابن مسعود : للنار . وقيل : أى فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها . وقد تقدم أن الملك ينادى صباحاً ومساءً : «اللَّهُمَّ اعْطِ مُنْفِقًا خُلْفًا وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا» . رواه أبو الدرداء .

مسألة : قال العلماء : ثبت بهذه الآية وبقوله : « وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » ، وقوله : « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً » (۲) إلى غير ذلك من الآيات — أن الجود من مكارم الأخلاق والبخل من أذلتها . وليس الجواد الذى يعطى في غير موضع العطاء ، ولا البخيل الذى يمنع في موضع المنع ، لكن الجواد الذى يعطى في موضع العطاء ، والبخيل

(۱) راجع ج ۴ ص ۲۹۱ (۲) آية ۳ سورة البقرة . (۳) آية ۲۷۴ سورة البقرة .

الذي يمنع في موضع العطاء ، فكلُّ مَنْ استفاد بما يُعطى أجراً وحمداً فهو الجواد . وكلُّ من استحق بالمنع ذمّاً أو عقاباً فهو البخيل . ومَنْ لم يستفد بالعطاء أجراً ولا حمداً وإنما استوجب به ذمّاً فليس بجواد ، وإنما هو مُسْرِفٌ مذموم ، وهو من المبدّرين الذين جعلهم الله إخوان الشياطين ، وأوجب الحجّر عليهم . ومَنْ لم يستوجب بالمنع عقاباً ولا ذمّاً ، واستوجب به حمداً فهو من أهل الرشد ، الذين يستحقون القيام على أموال غيرهم بحسن تدبيرهم وسداد رأيهم .

الرابعة — قال الفراء : يقول القائل كيف قال «فسنيسره للعسرى» وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب : هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل : «فبشرهم بعذاب اليم»^(١) والبشارة في الأصل على المفرح والسار ، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر ، جاءت البشارة فيهما . وكذلك التيسير في الأصل على المفرح ، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر جاء التيسير فيهما جميعاً . قال الفراء : وقوله تعالى «فسنيسره»^(٢) سنهيه . والعرب تقول : قد يسرت الغنم إذا ولدت أو تهيأت للولادة . قال :

هما سيدانا يزعمان وإنما * يسوداننا أن يسرت غناهما^(٣)

قوله تعالى : وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى) أي مات . يقال : ردى الرجل يردى ردى إذا هلك . قال : * صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم : «إذا تردى» أي سقط في جهنم ، ومنه المتردية . ويقال : ردى في البئر وتردى إذا سقط في بئر أو تهوّر من جبل . يقال : ما أدري أين ردى ! أي أين ذهب . و « ما » يحتمل أن تكون بحمداً أي ولا يغني عنه ماله شيئاً . ويحتمل أن تكون استفهاماً

(١) آية ٢١ سورة آل عمران . (٢) البيت لأبي أسيدة الدبيري . وقوله :

إن لنا شيعين لا ينفعنا * غنين لا يجدى علينا غناهما

معناه التويخ؛ أى أى شىء يفتى عنه إذا هلك ووقع فى جهنم! ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ أى إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة . فالهدى بمعنى بيان الأحكام؛ قاله الزجاج .
 أى على الله البيان، بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته؛ قاله قتادة . وقال الفراء : من سلك الهدى فعلى الله سبيله؛ لقوله : « وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ »^(١) يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد . وقيل : معناه إن علينا للهدى والإضلال؛ فترك الإضلال؛ كقوله : « بِيَدِكَ الْخَيْرُ »^(٢) و « بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ »^(٣) . وكما قال : « سَرَّابِيلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ »^(٤) وهى تقي البرد؛ عن الفراء أيضا . وقيل : أى إن علينا ثواب هداه الذى هديناه . ﴿ وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾^(٥) « لِلْآخِرَةِ » الجنة . « وَالْأُولَى » الدنيا . وكذا روى عطاء عن ابن عباس . أى الدنيا والآخرة لله تعالى . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : ثواب الدنيا والآخرة، وهو كقوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ »^(٥) فمن طلبهما من غير مالكما فقد أخطأ الطريق .

قوله تعالى : فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٥﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾

الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ ﴾ أى حذرتكم وخوفتكم . ﴿ نَارًا تَلَظَّى ﴾ أى تلهب وتتوقد . وأصله تلتظى . وهى قراءة عبيد بن عمير ويحيى بن يعمر وطلحة بن معمر . ﴿ لَا يَصْلَاهَا ﴾ أى لا يجد صلاحها وهو حرها . ﴿ إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ أى الشقى . ﴿ الَّذِي كَذَّبَ ﴾ نبي الله محمدا صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أى أعرض عن الإيمان . وروى مكحول عن أبي هريرة قال : كل يدخل الجنة إلا من أباه . قال : يا أبا هريرة ، ومن يابى أن يدخل الجنة ؟ قال : الذى كذب وتولى . وقال مالك : صلى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب فقرا « والليلة

(٣) آية ٨٣ سورة يس .

(٢) آية ٢٦ سورة آل عمران .

(١) آية ٩ سورة النحل .

(٥) آية ١٣٤ سورة النساء .

(٤) آية ٨١ سورة النحل .

إذا يغشى « فلما بلغ « فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلَظَّى » وقع عليه البكاء فلم يقدر يتعداها من البكاء ، فتركها وقرأ سورة أخرى . وقال الفراء : « إِلَّا الْأَشْقَى » إِلَّا مَنْ كَانَ شَقِيًّا فِي عِلْمِ اللَّهِ جَلِّ شَأْؤُهُ . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى » أَمِيَّةُ بْنُ خَلْفٍ وَنظَرَاؤُهُ الَّذِينَ كَذَبُوا مَهْدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وقال قتادة : كَذَبَ بِكُتَابِ اللَّهِ وَتَوَلَّى عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ . وقال الفراء : لم يكن كذب برّد ظاهر ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة ؛ فجعل تكذيباً ؛ كما تقول : لَقِيَ فُلَانٌ الْعَدُوَّ فَكَذَّبَ إِذَا نَكَلَ وَرَجَعَ عَنْ اتِّبَاعِهِ . قال وسمعت أبا ثروان يقول : إن بنى مُعِيرٍ لَيْسَ بِلِحْدِهِمْ مَكْذُوبَةٌ . يقول : إِذَا لَقُوا صَدَقُوا الْقِتَالَ وَلَمْ يَرْجِعُوا . وكذلك قوله جَلِّ شَأْؤُهُ : « لَيْسَ لَوْفَعِيهَا كَاذِبَةٌ » يقول : هي حق . وسمعت سلم بن الحسن يقول : سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول : هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء ، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر ؛ لقوله جَلِّ شَأْؤُهُ : « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى » وليس الأمر كما ظنوا . هذه نار موصوفة بعينها ، لا يَصْلَى هذه النار إلا الذي كَذَّبَ وَتَوَلَّى . ولأهل النار منازل ؛ فمنها أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ؛ والله سبحانه كل ما وعد عليه يجنس من العذاب بخائر أن يعدب به . وقال جَلِّ شَأْؤُهُ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » (١) فلو كان كل من لم يشرك لم يعدب ، لم يكن في قوله : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » فائدة ، وكان « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ » كلاماً لا معنى له . الزمخشري : الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين فقيل : الأشقى ، وجعل مختصاً بالصلى ، كأن النار لم تخلق

(١) كذا في الأصول وأساس البلاغة للزمخشري . والذي في تفسير الفراء ولسان العرب — مادة كذب — : « لِحْدِهِمْ » بالحاء المهملة . وحّد الرجل : بأسه ونفاذه في نجاته . (٢) آية ٢ سورة الواقعة .

(٣) هم المرجئة ، وهم فرقة من فرق الإسلام يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة . سموا مرجئة لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي ؛ أي أخره عنهم . وقيل : المرجئة فرقة من المسلمين يقولون الإيمان قول بلا عمل ؛ كأنهم قدموا القول وأرجئوا العمل أي أخره ؛ لأنهم يرون أنهم لو لم يصلوا ولم يصوموا لنجاهم إيمانهم . (٤) آية ٨ سورة النساء .

إلآ له . وقيل : الأتقى ، وجعل مختصاً بالنجاة ، كأن الجنة لم تخلق لإلآ له . وقيل : هما أبو جهل أو أمية بن خلف . وأبو بكر رضى الله عنه .

قوله تعالى : **وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (۱۷) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (۱۸)**

قوله تعالى : **(وَسَيُجَنَّبُهَا)** أى يكون بعيداً منها . **(الْأَتْقَى)** أى المتقى الخائف .

قال ابن عباس : هو أبو بكر رضى الله عنه ، يُزَحَّح عن دخول النار . ثم وصف الأتقى فقال **(الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى)** أى يطلب أن يكون عند الله زاكياً ، ولا يطلب بذلك رياء ولا سُمة ، بل يتصدق به مبتغياً به وجه الله تعالى . وقال بعض أهل المعانى : أراد بقوله **« الْأَتْقَى »** و **« الْأَشْقَى »** أى التقي والشقي ؛ كقول طرفة :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت * فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحدٍ

أى واحد ووحيد؛ وتوضع أفعل موضع فعيل ، نحو قولهم : الله أكبر بمعنى كبير ، **« وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (۱) »** بمعنى هين .

قوله تعالى : **وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (۱۹) إِلَّا ابْتِغَاءَ**

وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (۲۰) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (۲۱)

قوله تعالى : **(وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى)** أى ليس يتصدق ليجازى على نعمة ،

إنما يتبغى وجه ربه الأعلى ، أى المتعالى **(وَلَسَوْفَ يَرْضَى)** أى بالجزاء . فروى عطاء والضحاك

عن ابن عباس قال : عذب المشركون بلالا ، وبلالٌ يقول أحد أحد؛ فتربه النبي صلى الله

عليه وسلم فقال : **« أحد - يعنى الله تعالى - ينجيك »** ثم قال لأبي بكر : **« يا أبا بكر إن بلالا**

يُعذب فى الله » فعرف أبو بكر الذى يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنصرف إلى منزله ،

فأخذ رطلا من ذهب ومضى به إلى أمية بن خلف ، فقال له : أتبيعنى بلالا ؟ قال : نعم ؛

فأشتراه فأعتقه . فقال المشركون : ما أعتقه أبو بكر إلا لئيد كانت له عنده ؛ فترلت

« وما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ » أى عند أبى بكر **« من نعمة »** ، أى من يدومنة **« تُجْزَى »** بل

(۱) آية ۲۷ سورة الروم .

«ابتغاء» بما فعل «وجه ربه الأعلى» . وقيل: اشترى أبو بكر من أمية وأبي بن خلف بلالاً بيرة وعشر أواق ، فأعتقه لله فنزلت : « إِنْ سَعَيْكُمْ لَسَنِّي » . وقال سعيد بن المسيب: بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبو بكر: أتبيعني؟ فقال: نعم ، أبيعك بنسطاس ، وكان نسطاس عبداً لأبي بكر ، صاحب عشرة آلاف دينار ، وغللمان وجوار ومواش ، وكان مُشركاً فحمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون له ماله ، فأبى فباعه أبو بكر به . فقال المشركون: ما فعل أبو بكر بلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده ، فنزلت « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءً » أى لكن ابتغاء ، فهو استثناء منقطع ، فلذلك نصبت . كقولك : ما في الدار أحد إلا حمراً . ويجوز الرفع . وقرا يحيى بن وثاب « إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ » بالرفع ، على لغة من يقول : يجوز الرفع في المستثنى . وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي حازم :

أضحت خلاءً قفارا لا أنيس بها • إلا الجآذر والظلمان تختلف^(١)

وقول القائل :

وبلدة ليس بها أنيس • إلا اليعافير وإلا العيس^(٢)

وفي التنزيل : « مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ » وقد تقدم . ﴿ وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ أى مرضاته وما يقرب منه . و«الأعلى» من نعت الرب الذي استحق صفات العلو . ويجوز أن يكون «ابتغاء وجه ربه» مفعولا له على المعنى ، لأن معنى الكلام : لا يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمته . ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ أى سوف يعطيه في الجنة ما يرضى ، وذلك أنه يعطيه أضعاف ما أنفق . وروى أبو حيان التميمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رَحِمَ اللهُ أَبَا بَكْرٍ زَوْجِنِي أَبْنَتَهُ وَحَمَلَنِي إِلَى دَارِ الْهِجْرَةِ وَأَعْتَقَ بِلَالًا مِنْ مَالِهِ» . ولما اشتراه أبو بكر قال له بلال : هل اشتريتنى لعملك أو لعمل الله؟ قال : بل لعمل الله .

(١) الجآذر (جمع جذر) وهى ولد البقرة الوحشية . والظلمان (بالكسر والضم) (جمع الظلم) وهو الذكر من النعام . (٢) اليعافير (جمع يعفر) : وهو ولد الظبية وولد البقرة الوحشية أيضا . والعيس : لبل بيض مخالط بياضها شفرة ؛ جمع عيس (٣) آية ٦٦ سورة النساء . راجع ج ٥ ص ٢٧٠

قال: فَدَرُّنِي وَعَمَلِ اللَّهِ ، فَأَعْتَقَهُ . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا (يعنى بلالا رضى الله عنه) . وقال عطاء - وروى عن ابن عباس - : إن السورة نزلت في أبي الدَّحْدَاحِ ؛ في النخلة التي اشتراها بجائظ له ؛ فيما ذكر الثعلبي عن عطاء . وقال القُشَيْرِيُّ - عن ابن عباس : بأربعين نخلة ؛ ولم يُسمَّ الرجل . قال عطاء : كان لرجل من الأنصار نخلةٌ ، يسقط من بلحها في دار جاري له ، فيتناوله صبيانه ، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "تبيعها بنخلة في الجنة" ؟ فأبى ، فخرج فلقيه أبو الدَّحْدَاحِ فقال : هل لك أن تبيعنيها بـ «حسنى» ؟ حائظ له . فقال : هي لك . فأتى أبو الدَّحْدَاحِ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ، اشتراها مني بنخلة في الجنة . قال : "نعم والذي نفسى بيده" فقال : هي لك يا رسول الله ؛ فدعا النبي صلى الله عليه وسلم جار الأنصاري فقال : " خذها " فنزلت « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى » إلى آخر السورة في بستان أبي الدَّحْدَاحِ وصاحب النخلة . « فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى » يعنى أبا الدَّحْدَاحِ . « وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » أى بالثواب « فَسَنِيَسِرُهُ لِيَسْرَى » يعنى الجنة . « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى » يعنى الأنصاري . « وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى » أى بالثواب . « فَسَنِيَسِرُهُ لِيَسْرَى » يعنى جهنم . « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » أى مات . إلى قوله : « لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى » يعنى بذلك الخنزرجى ؛ وكان منافقا فمات على نفاقه . « وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى » يعنى أبا الدَّحْدَاحِ . « الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَكَّى » فى ثمن تلك النخلة . « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى » يكافئه عليها ؛ يعنى أبا الدَّحْدَاحِ . « وَسَوْفَ يَرْضَى » إذا أدخله الله الجنة . والأكثر أن السورة نزلت في أبي بكر رضى الله عنه . وروى ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وعبد الله بن الزبير وغيرهم . وقد ذكرنا خبرا آخر لأبي الدَّحْدَاحِ فى سورة « البقرة » عند قوله : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » . والله تعالى أعلم .

سورة «الضحى»

مكية باتفاق . وهي إحدى عشرة آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ
وَمَا قَلَى ﴿٣﴾

قوله تعالى : (وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) قد تقدم القول في «الضحى» ، والمراد به النهار؛ لقوله : « وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى » فقابله بالليل . وفي سورة (الأعراف) « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا صُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ » أى نهاراً . وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق : أقسم بالضحى الذى كَلَّمَ اللهُ فيه موسى ولبيلة المعراج . وقيل : هى الساعة التى نَحَرَ فيها السَّحَرَةُ سُجْدًا . بيانه قوله تعالى : « وَأَنَّ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى » . وقال أهل المعانى فيه وفي أمثاله : فيه إضمار ، مجازه وربَّ الضحى . و« سَجَى » معناه سكن ؛ قاله قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة . يقال : لَيْلَةٌ سَاجِيَةٌ أى ساكنة . ويقال للعين إذا سَكَنَ طرفها : سَاجِيَةٌ . يقال : سَجَى اللَّيْلُ يَسْجُو وَيَسْجُو إِذَا سَكَنَ . والبحر إذا سَجَى : سَكَنَ . قال الأعشى :

فَمَا ذَبْنَا أَنْ جَاشَ بَحْرُ ابْنِ عَمَّكَ * وَبَحْرُكَ سَاجٍ مَا يُوَارِي الدَّعَامِ مَهْمَا

وقال الراجز :

يَا حَبِذَا الْقَمْرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاجِ * وَطُرُقٌ مِثْلُ مُلَاءِ النَّسَاجِ

(١) راجع ص ٧٢ وما بعدها من هذا الجزء . (٢) آية ٩٧ ، ٩٨ (٣) آية ٩ ، سورة طه . (٤) فى اللسان : « يسجوا يسجوا ويسجوا » . (٥) فى ديوان الأعشى : * أتوعدنى أن جاش ... * والدعاص : جمع الدعوص ، وهو دوية صغيرة تكون فى مستنقع الماء .

وقال جرير :

ولقد رميتك يوم رُحِنَ بأعْيُنٍ * ينظرون من حلل السُّور سواجي

وقال الضحاك : «سجاً» غَطَّى كُلَّ شَيْءٍ . قال الأصمعي : سَجُّو اللَّيْلُ تَغْطِيْتُهُ النَّهَارُ ؛ مِثْلَمَا يُسَجِّي

الرَّجُلُ بِالثَّوْبِ . وقال الحسن : غَشِيَ بِظُلَامِهِ ؛ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَعَنهُ : إِذَا ذَهَبَ .

وعنه أيضا : إِذَا أَظْلَمَ . وقال سعيد بن جبیر : اقبل ؛ وروى عن قتادة أيضا . وروى

ابن أبي نجیح عن مجاهد : «سَجَا» استوى . والقول الأول أشهر في اللغة : «سجاً» سكن ؛ أي

سكن الناس فيه . كما يقال : نهارٌ صائمٌ وليلٌ قائمٌ . وقيل : سكونه استقرار ظلامه واستواؤه .

ويقال : «والضُّحَى . واللَّيْلُ إِذَا سَجَّى» يعني عباده الذين يعبدونه في وقت الضُّحَى ،

وعباده الذين يعبدونه بالليل إِذَا أَظْلَمَ . ويقال : «الضُّحَى» يعني نور الجنة إِذَا تَنَوَّرَ .

«والليل إِذَا سَجَّى» يعني ظلمة الليل إِذَا أَظْلَمَ . ويقال : «والضُّحَى» يعني النور الذي

في قلوب العارفين كهيئة النهار . «والليل إِذَا سَجَّى» يعني السواد الذي في قلوب الكافرين

كهيئة الليل ؛ فأقسم الله عز وجل بهذه الأشياء . (ما ودَّعَكَ رَبُّكَ) هذا جواب القسم .

وكان جبريل عليه السلام أبطأ على النبي صلى الله عليه وسلم فقال المشركون : قلاه الله وودَّعَهُ ؛

فنزلت الآية . وقال ابن جريج : احتبس عنه الوحى اثني عشر يوماً . وقال ابن عباس : خمسة

عشر يوماً . وقيل : خمسة وعشرين يوماً . وقال مقاتل : أربعين يوماً . فقال المشركون :

إن محمداً ودَّعَهُ رَبَّهُ وَقَلَاهُ ، ولو كان أمره من الله لتابع عليه كما كان يفعل بمن كان قبله من

الأنبياء . وفي البخارى عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فلم يَقمَ ليلتين أو ثلاثاً ؛ بغاءت امرأة فقالت : يا محمد ، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ،

لم أره قَرِيبَكَ منذَ ليلتين أو ثلاث ؛ فأنزل الله عز وجل «والضُّحَى . واللَّيْلُ إِذَا سَجَّى . ما ودَّعَكَ

رَبُّكَ وما قَلَى» . وفي الترمذى عن جندب البجلي قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم

في غار فدُميت إصبعه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «هل أنت إلا إصبع دُميت ،

(۱) هي العوراء بنت حرب أخت أبي سفيان ، وهي حمالة الحطب ، وهي زوج أبي لهب .

وفي سبيل الله ما لقيت . قال : وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون : قد ودّع محمد؛
فأنزل الله تبارك وتعالى « ما ودّعك ربك وما قلى » . هذا حديث حسن صحيح . لم يذكر
الترمذى : « فلم يقم ليلتين أو ثلاثا » أسقطه الترمذى . وذكره البخارى ، وهو أصح
ما قيل في ذلك . والله أعلم . وقد ذكره الثعلبى أيضا عن جندب بن سفيان البجلي قال :
رُحى النبي صلى الله عليه وسلم في إصبعه بحجر فدميت فقال : « هل أنت إلا إصبع دميت ،
وفي سبيل الله ما لقيت » فكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم الليل . فقالت له أم جميل امرأة
أبي لهب : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، لم أره قريبا من ليلتين أو ثلاث ؛ فنزلت
« والضحى » . وروى عن أبي عمران الجوني قال : أبطأ جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم حتى
شق عليه ، فجاء وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو ؛ فنكت بين كتفيه وأنزل عليه « ما ودّعك
ربك وما قلى » . وقالت خولة - وكانت تحم النبي صلى الله عليه وسلم - : إن جرؤا دخل
البيت فدخل تحت السرير فات ؛ فكث نبي الله صلى الله عليه وسلم أياما لا ينزل عليه الوحي .
فقال : « يا خولة ما حدث في بيتي ؟ ما لجبريل لا يأتيني ! » قالت خولة فقلت : لو هيات
البيت وكنته ؛ فأهويت بالمكذبة تحت السرير فإذا جرؤ ميت ، فأخذته فألقيته خلف
الحدار ؛ فجاء نبي الله ترعد لحياه - وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة - فقال : « يا خولة
دثرتني » فأنزل الله هذه السورة . ولما نزل جبريل سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن التأخر
فقال : « أما علمت أنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة » . وقيل : لما سأله اليهود عن الروح
وذى القرنين وأصحاب الكهف قال : « سأخبركم غدا » ولم يقل إن شاء الله . فاحتبس عنه
الوحي ، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله »
فأخبره بما سئل عنه . وفي هذه القصة نزلت « ما ودّعك ربك وما قلى » . وقيل : إن المسلمين
قالوا : يا رسول الله ، مالك لا ينزل عليك الوحي ؟ فقال : « وكيف ينزل على وأنتم لا تتقون
رؤايجكم - وفي رواية برايجكم^(٢) - ولا تقصون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم » . فنزل

(١) آية ٢٣ سورة الكهف . (٢) الرواجب (واحد راجبة) : وهي ما بين عقد الأصابع .
والبراجم (واحد راجمة بالضم) : هي العقد التي في ظهور الأصابع مجتمع فيها الوسخ .

جبريل بهذه السورة ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما جئت حتى اشتقتُ إليك " فقال جبريل : " وأنا كنتُ أشدُّ إليك شوقاً ولكني عبد مأمور " ثم أنزل عليه « وما ننزلُ إلا بأمرٍ رَبِّكَ »^(١) . « ودَعَكَ » بالتشديد قراءة العامة من التوديع ، وذلك كنوديع المفارق . وروى عن ابن عباس وابن الزبير أنهما قرآه « ودَعَكَ » بالتخفيف ومعناه ترك . قال :

وَمَّ ودَعْنَا آلَ عمرو وعامر * فرأس أطراف المثقفة السمر^(٢)

واستعماله قليل . يقال : هو يدَع كذا ؛ أى يتركه . قال المبرد محمد بن يزيد : لا يكادون يقولون ودَع ولا وذر لضعف الواو إذا قُدِّمت ، واستغنوا عنها بترك .

قوله تعالى : ﴿ وما قَلَى ﴾ أى ما أبغضك ربك منذ أحبك . وترك الكاف لأنه رأس آية . والقَلَى البغض ؛ فإن فتحت القاف مددت ؛ تقول : قلاه يقليه قلى وقلاء . كما تقول : قريت الضيف أقريه قرى وقراء . ويقلاه لغة طيء . وأنشد ثعلب :

أيام أم الغمر لا تقلاها *^(٣)

أى لا تبغضها . وتقلَى أى تبغض . وقال :

أسبى بنا أو أحسنى لا ملومة * لدينا ولا مقلية إن تقلت^(٤)

وقال امرؤ القيس :

ولست بمقلية الحلال ولا قال^(٥) *

وتأويل الآية : ما ودَعَكَ ربك وما قلاك . فترك الكاف لأنه رأس آية ؛ كما قال عز وجل :

« ولذا كرين الله بشيراً ولذا كرات^(٦) » أى والذا كرات الله .

(١) آية ٦٤ سورة مريم .

(٢) المثقفة والمتقف : الريح .

(٣) كذا فى اللسان . وفى الأصول : « يارب » . وبعده كما فى اللسان :

* ولو نشاء فبلىت عيناها *

(٤) هو كثير عزة .

(٥) صدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

(٦) آية ٣٥ سورة الأحزاب .

قوله تعالى : وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿١﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ

رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٢﴾

روى سلمة عن ابن إسحاق قال : « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى » أى ما عندى
 فى مرجعك إلى يا محمد خير لك مما عجزت لك من الكرامة فى الدنيا . وقال ابن عباس : أرى
 النبى صلى الله عليه وسلم ما يفتح الله على أمته بعده فسر بذلك ، فنزل جبريل بقوله : « وَلَلْآخِرَةُ
 خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » . قال ابن إسحاق : الفاح فى الدنيا
 والثواب فى الآخرة . وقيل : الحوض والشفاعة . وعن ابن عباس : ألف قصر من لؤلؤ أبيض
 ترابه المسك . رفعه الأوزاعى قال : حدثنى إسماعيل بن عبيد الله عن على بن عبد الله
 ابن عباس عن أبيه قال : أرى النبى صلى الله عليه وسلم ما هو مفتوح على أمته فسر بذلك ،
 فانزل الله عز وجل « وَالضُّحَى - إلى قوله تعالى - وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى »
 فأعطاه الله جل ثناؤه ألف قصر فى الجنة ، ترابها المسك ، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج
 والخدم . وعنه قال : رضى محمد ألا يدخل أحد من أهل بيته النار . وقاله السدى . وقيل : هى
 الشفاعة فى جميع المؤمنين . وعن على رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « يَسْمَعُنِي اللَّهُ فِي أُمَّتِي حَتَّى يَقُولَ اللَّهُ سُبْحَانَ لِي رَضِيَتْ يَا مُجِدِّ فَأَقُولُ يَا رَبِّ رَضِيَتْ » . وفى صحيح
 مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى فى إبراهيم :
 « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وقول عيسى : « إِنْ تَعَدَّيْتُمْ فَأَنظِرْهُمْ
 عِبَادِكُمْ » فرفع يديه وقال : « اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي » وبكى . فقال الله تعالى لجبريل : « اذْهَبْ
 إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلِّمْهُ مَا يَبْكِيكَ » فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فسأله فأخبره .
 فقال الله تعالى لجبريل : « اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَكَ إِنَّا مَنَرَضِيكَ فِي أُمَّتِكَ

(١) آية ٣٦ - سورة إبراهيم .

(٢) آية ١١٨ سورة المائدة .

ولا نسوءك^(۱) . وقال علي رضي الله عنه لأهل العراق : إنكم تقولون إن أرجى آية في كتاب الله تعالى « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ » قالوا : إنا نقول ذلك . قال : ولكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ » . وفي الحديث : لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إِذَا وَانْتَهَىٰ مِنْ أُمَّتِي وَوَاحِدٍ مِنْ أُمَّتِي فِي النَّارِ » .

قوله تعالى : أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦٦﴾

عَدَدُ سُبْحَانِهِ مِثْنَهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا) لَا أَبَ لَكَ ، قَدِمَاتِ أَبوك . (فَآوَى) أَي جَعَلَ لَكَ مَأْوَى تَأْوَى إِلَيْهِ عِنْدَ عَمِّكَ أَبِي طَالِبٍ فَكَفَّلَكَ . وَقِيلَ لَجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ : لَمْ أُوتِمِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَبَوَيْهِ ؟ فَقَالَ : لَكَلَّا يَكُونُ لِمَخْلُوقٍ عَلَيْهِ حَقٌّ . وَعَنْ مُجَاهِدٍ : هُوَ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ : دُرَّةٌ يَتِيمَةٌ ؛ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا مِثْلٌ . فَجَازَ الْآيَةَ : أَلَمْ يَجِدْكَ وَاحِدًا فِي شَرْفِكَ لَا نَظِيرَ لَكَ ، فَأَوَّاكَ اللَّهُ بِأَصْحَابٍ يَحْفَظُونَكَ وَيَحِيطُونَكَ .

قوله تعالى : وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٦٧﴾

أَي غَافِلًا عَمَّا يَرَادُ بِكَ مِنْ أَمْرِ النَّبُوءَةِ فَهَدَاكَ ؛ أَي أَرْشَدَكَ . وَالضَّلَالُ هُنَا بِمَعْنَى الْغَفْلَةِ ؛ كَقَوْلِهِ جَلَّ شَأُوهُ : « لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ »^(۲) أَي لَا يَغْفَلُ . وَقَالَ فِي حَقِّ نَبِيِّهِ : « وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ »^(۳) . وَقَالَ قَوْمٌ : « ضَالًّا » لَمْ تَكُنْ تَدْرِي الْقُرْآنَ وَالشَّرَائِعَ ، فَهَدَاكَ اللَّهُ إِلَى الْقُرْآنِ وَالشَّرَائِعِ الْإِسْلَامِ ؛ عَنِ الضَّحَّاكِ وَشَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ وَغَيْرِهِمَا ؛ وَهُوَ مَعْنَى

(۱) رواية الحديث كما ورد في صحيح مسلم كتاب الإيمان : « أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم « رب انهن أضللان كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني » الآية ، وقول عيسى عليه السلام « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يديه وقال : « اللهم أنتي أمي » وبكى ؛ فقال الله عز وجل : « يا جبريل اذهب إلى محمد وربيك أعلم فسله ما يبكيك » فأنه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ؛ فقال الله : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمك ولا نسوءك » .

(۲) آية ۵۳ سورة الزمر . (۳) آية ۵۲ سورة طه . (۴) آية ۲ سورة يوسف .

قوله تعالى : « مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » على ما بينا في سورة « الشورى »^(١) .
 وقال قوم : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا » أى فى قوم ضلال فهداهم الله بك . هذا قول الكلبي
 والقرءاء . وعن السدى نحوه ؛ أى ووجد قومك فى ضلال فهداك إلى إرشادهم . وقيل :
 « ووجدك ضالا » عن الهجرة فهداك إليها . وقيل : « ضالًّا » أى ناسيا شأن الاستثناء حين
 سُئِلَ عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فأذكرك ؛ كما قال تعالى : « أَنْ تَضِلَّ
 إِحْدَاهُمَا »^(٢) . وقيل : ووجدك طالبًا للقبلة فهداك إليها ؛ بيانه : « قَدْ نَرَى تَقَابُ وَجْهَكَ
 فِي السَّمَاءِ »^(٣) الآية . ويكون الضلال بمعنى الطلب ؛ لأن الضال طالب . وقيل : ووجدك
 متحيرًا عن بيان ما نزل عليك فهداك إليه ؛ فيكون الضلال بمعنى التحير ؛ لأن الضال متحير .
 وقيل : ووجدك ضائعًا فى قومك فهداك إليه ؛ ويكون الضلال بمعنى الضياع . وقيل :
 ووجدك مُجِبًّا للهداية فهداك إليها ؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة . ومنه قوله تعالى : « قَالُوا
 تَأْتِيهِمْ إِنْكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ »^(٤) أى فى محبتك . قال الشاعر :

هذا الضلال أشاب منى المفرقا * والعارضين ولم أكن متحققا^(٥)

عجبا لعزة فى اختيار قطيعتى * بعد الضلال قبلها قد أخلقا

وقيل : « ضالا » فى شعاب مكة فهداك وردك إلى جدك عبد المطلب . قال ابن عباس :
 ضلَّ النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير فى شعاب مكة ، فرآه أبو جهل منصرفا عن أغنامه ،
 فردّه إلى جده عبد المطلب ؛ فمنَّ الله عليه بذلك حين رده إلى جده على يدى عدوه . وقال
 سعيد بن جبیر : نرحب النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه أبى طالب فى سفر ، فأخذ إبليس
 بزمام الناقة فى ليسة ظلمات ، فعَدَلَ بها عن الطريق ، بفاء جبريل عليه السلام فنفع إبليس
 نفخة وقع منها إلى أرض الهند ، وردّه إلى القافلة ؛ فمنَّ الله عليه بذلك . وقال كعب : إن
 حليلة لما قضت حق الرضاع جاءت برسول الله صلى الله عليه وسلم لترده على عبد المطلب ،

(١) آية ٥٢ راجع ج ١٦ ص ٥٥

(٢) آية ٢٨٢ سورة البقرة .

(٣) آية ٩٥ سورة يوسف .

(٤) آية ١٤٤ سورة البقرة .

(٥) المفرق (كقعد ومجلس) : وسط الرأس . والعارض : صفحة الخد .

فسمعت عند باب مكة : هنيئاً لك يابطحاء مكة ، اليوم يُردُّ إليك النور والدين والبهاء والجمال . قالت : فوضعتهُ لأُصْلِح ثيابي فسمعت هدة شديدة فآلتفت فلم أره ، فقلت : معشر الناس ، أين الصبي ؟ فقالوا : لم نر شيئاً ، فصحت : وامجداه ! ! فإذا شيخ فان يتوكأ على عصاه فقال : اذهبي إلى الصنم الأعظم ، فإن شاء أن يرده عليك فعل . ثم طاف الشيخ بالصنم وقبّل رأسه وقال : يارب ، لم تزل مبتك على قريش ، وهذه السعدية تزعم أن أبناها قد ضلّ ، فردّه إن شئت . فانكب هبلُّ على وجهه وتساقطت الأصنام وقالت : إليك عنا أيها الشيخ ، فهلاكنا على يدي محمد . فالتقى الشيخ عصاه وأرتعد وقال : إن لأبنتك ربّاً لا يضيعه ، فأطلبه على مهل . فآنحشرت قريش إلى عبد المطلب وطلبوه في جميع مكة ، فلم يجدوه . فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعمائة وتضرع إلى الله أن يرده ، وقال :

يَا رَبِّ رُدِّ وَلَدِي مُحَمَّدًا * أَرَدَدَهُ رَبِّي وَأَتَّخِذُ عِنْدِي يَدًا

يَا رَبِّ إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَوْجِدَا * فَشَمَلُ قَوْمِي كُلَّهُمْ تَبَدُّدًا

فسمعوا منادياً ينادي من السماء : معاشر الناس لا تضرّجوا ، فإن لمحمد ربّاً لا يخذله ولا يضيعه ، وإن مجدّاً بوادي تهامة عند شجرة السمر . فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل ، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة ، يلعب بالأغصان وبالورق . وقيل : « ووجدك ضالاً » ليلة المعراج ، حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق ، فهداك إلى ساق العرش . وقال أبو بكر الوراق وغيره : « ووجدك ضالاً » تحب أبا طالب فهداك إلى محبة ربك . وقال بسام بن عبد الله : « ووجدك ضالاً » بنفسك لا أدري من أنت ، فعرفك بنفسك وحالك . وقال الجنيدى : ووجدك متحيراً في بيان الكتاب فعلمك البيان ، بيانه : « لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »^(۱) الآية . « لَتُبَيِّنَنَّ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ »^(۲) . وقال بعض المتكلمين : إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض لا شجر معها سموها ضالّة ، فيبتدى بها إلى الطريق ، فقال الله تعالى

(۱) آية ۴۴ سورة النحل .

(۲) آية ۶۴ سورة النحل .

لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا » أى لا أحد على دينك ، وأنت وحيد ليس معك أحد ، فَهَدَيْتُ بِكَ الْخَلْقَ إِلَى .

قلت : هذه الأقوال كلها حسان ، ثم منها ما هو معنوي ومنها ما هو حسي . والقول الأخير أعجب إلى ؛ لأنه يجمع الأقوال المعنوية . وقال قوم : إنه كان على جملة ما كان القوم عليه لا يظهر لهم خلافا على ظاهر الحال ؛ فأما الشرك فلا يُظن به ؛ بل كان على مراسم القوم في الظاهر أربعين سنة . وقال الكلبي والسدي : هذا على ظاهره ؛ أى وجدك كافرا والقوم كفار فهذا (١) . وقد مضى هذا القول والرد عليه في سورة « الشورى » . وقيل : وجدك (٢) مغمورا بأهل الشرك فميزك عنهم . يقال : ضل الماء في اللبن ؛ ومنه « أئذنا ضللنا في الأرض » (٣) أى لحقنا بالتراب عند الدفن حتى كأننا لا نتميز من جملة . وفي قراءة الحسن « ووجدك ضالًّا فهدى » أى وجدك الضال فآهتدى بك ؛ وهذه قراءة على التفسير . وقيل : « ووجدك ضالًّا » لا يهتدى إليك قومك ولا يعرفون قدرك ؛ فهدى المسلمين إليك حتى آمنوا بك .

قوله تعالى : وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنِي ﴿٨٠﴾

أى فقيراً لا مال لك . (فَأَغْنِي) أى فأغناك بخديجة رضى الله عنها ؛ يقال : عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر . وقال أحيحة بن الجلاح :

فما يَندِرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ * وما يَندِرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعيِلُ

أى يفتقر . وقال مقاتل : فرضاك بما أعطاك من الرزق . وقال الكلبي : قنعتك بالرزق . وقال ابن عطاء : ووجدك فقير النفس فأغنى قلبك . وقال الأخفش : وجدك ذا عيال ؛ دليله « فَأَغْنِي » . ومنه قول جرير :

الله أنزل في الكتاب فريضة * لأبن السبيل وللفقير العائل

(١) مثل هذه الأقوال لا يصح نسبتها إلى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه ولا لأحد من الأنبياء ؛ لأن العصمة

تأبته لهم قبل النبوة وبعدها من الكبار والصغار على الصحيح . (٢) راجع ج ١٦ ص ٥٥ فابدها .

(٣) آية ١٠ سورة السجدة .

وقيل : وجدك فقيراً من المجج والبراهين فأغناك بها . وقيل : أغناك بما فتح لك من الفتوح ، وأفاه عليك من أموال الكفار . القُشَيْرِيُّ : وفي هذا نظر ؛ لأن السورة مَكِّيَّة ، وإنما فرض الجهاد بالمدينة . وقراءة العامة « عَائِلًا » . وقرأ ابن السَّمِيقِ « عِيَلًا » بالتشديد ؛ مثل طَبِّبَ وَهَيَّنَ .

قوله تعالى : فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿١٠١﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠٢﴾
وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١٠٣﴾
فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ (١) أي لا تسلط عليه بالظلم ، ادفع إليه حقه ، وأذكري يمتك ؛ قاله الأخفش . وقيل : هما لغتان بمعنى . وعن مجاهد « فلا تقهر » فلا تحقر . وقرأ النَّخَعِيُّ والأشهب العقيلي « تَقْهَر » بالكاف ، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود . فعلى هذا يحتمل أن يكون نهياً عن قهره بظلمه وأخذ ماله . وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله تعالى ؛ فغلظ في أمره بتغليظ العقوبة على ظالمه . والعرب تعاقب بين الكاف والقاف . النحاس : وهذا غلط ، إنما يقال كَهَرَه إذا اشتد عليه وغلظ . وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة برد السلام قال : فبأبي هو وأمي ! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني ... الحديث . وقيل : القَهْرُ الغلبة . والكَهْرُ : الزجر .

الثانية - ودلت الآية على اللطف باليتيم ويره والإحسان إليه ؛ حتى قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم . وروى عن أبي هريرة أن رجلاً شكاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسوة قلبه ؛ فقال : « إن أردت أن يلين فامسح رأس اليتيم وأطعم المسكين » . وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهانين » .

(١) في بعض نسخ الأصل : « لا تسلطو » .

وأشار بالسبابة والوسطى . ومن حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 ” إن اليتيم إذا بكى أهتر لبيكاته عرش الرحمن فيقول الله تعالى لملائكته يا ملائكتي من ذا الذي
 أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب فنقول الملائكة ربنا أنت أعلم فيقول الله تعالى لملائكته
 يا ملائكتي اشهدوا أن من أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة “ . فكان ابن عمر إذا
 رأى يتيماً مسح برأسه وأعطاه شيئاً . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 ” من ضمَّ يتيماً فكان في نفقته وكفاه مؤنته كان له حجاباً من النار يوم القيامة ومن مسح
 برأس يقيم كان له بكل شعرة حسنة “ . وقال أنس بن صفيان : الأذلاء أربعة : النمام
 والكذاب والمديون واليتيم .

الثالثة - قوله تعالى : (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) أى لا تزجره ؛ فهو نهى عن إغلاظ
 القول . ولكن رده ببذل يسير أو رد جميل ، وأذ كر فقرك ؛ قاله قتادة وغيره . وروى عن
 أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” لا يمنعن أحدكم السائل وأن يعطيه إذا
 سأل ولو رأى في يده قلبين من ذهب “ . وقال إبراهيم بن أدهم : نعم القوم السائلون يحملون زادنا
 إلى الآخرة . وقال إبراهيم النخعي : السائل بريد الآخرة ، يجرى إلى باب أحدكم فيقول هل
 تبعثون إلى أهليكم بشيء . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” ردوا السائل ببذل
 يسير أو رد جميل فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجن ينظر كيف صنيعكم فيما خولكم
 الله “ . وقيل : المراد بالسائل هنا الذي يسأل عن الدين ؛ أى فلا تنهره بالغلظة والجفوة ،
 وأجبه برفق ولين ؛ قاله سفيان . قال ابن العربي : وأما السائل عن الدين فجوابه فرض على
 العالم على الكفاية ؛ كإعطاء سائل البرّ سواء . وقد كان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث
 ويبسط رداءه لهم ويقول : مرحباً بأحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي حديث
 أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدري قال : كنا إذا أتينا أبا سعيد يقول مرحباً بوصية
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إن الناس لكم تبع “

(١) القلب (بضم وسكون) : السوار . (٢) القائل هو أبو هارون العبدى .

وإن رجلاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقّهون فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً“ وفي رواية
 ”يأتيكم رجال من قبل المشرق“ فذكره . و«اليتيم» و«السائل» منصوبان بالفعل الذي بعده،
 وحقّ المنصوب أن يكون بعد الفاء ، والتقدير : مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم ولا تنهر
 السائل . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ”سألت ربي مسألة وددت أني لم أسأله
 قلت يا رب اتخذت إبراهيم خليلاً وكلمت موسى تكليماً وسخّرت مع داود الجبال يسبحن
 وأعطيت فلاناً كذا فقال عز وجل ألم أجدك يتيماً فأويتك ألم أجدك ضالاً فهديتك ألم أجدك
 عائلاً فأغنيتك ألم أشرح لك صدرك ألم أوتيك ما لم أوت أحداً قبلك خواتيم سورة البقرة
 ألم اتخذك خليلاً كما اتخذت إبراهيم خليلاً قلت بلى يا رب“ .

الرابعة - قوله تعالى : (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) أي انشر ما أنعم الله عليك
 بالشكر والثناء . والتحدّث بنعم الله والاعتراف بها شكر . وروى ابن أبي نجیح عن مجاهد «وأما بنعمة
 ربك» قال بالقرآن . وعنه قال : بالنبوة؛ أي ببلغ ما أرسلت به . والخطاب للنبي صلى الله
 عليه وسلم والحكم عام له ولغيره . وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : إذا أصبت
 خيراً أو عملت خيراً فحدّث به الثقة من إخوانك . وعن عمرو بن ميمون قال : إذا لقي الرجل
 من إخوانه من يثق به يقول له رزق الله من الصلاة البارحة كذا وكذا . وكان أبو فراس
 عبد الله بن غالب إذا أصبح يقول : لقد رزقني الله البارحة كذا ، قرأت كذا ، وصليت
 كذا ، وذكرت الله كذا ، وفعلت كذا . فقلنا له : يا أبا فراس ، إن مثلك لا يقول هذا !
 قال يقول الله تعالى : « وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » وتقولون أتم : لا تحدّث بنعمة الله !
 ونحوه عن أيوب السخّتيّ وأبي رجاء الطاردي رضي الله عنهم . وقال بكر بن عبد الله
 المزني قال النبي صلى الله عليه وسلم : ”من أعطى خيراً فلم يرّ عليه سُمّي بفيض الله معادياً
 لنعم الله“ . وروى الشعبي عن النعمان بن بشير قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : ”من لم
 يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدّث بالنعم شكر وتركه كفر
 والجماعة رحمة والفرقة عذاب“ . وروى النسائي عن مالك بن نضلة الجشمي قال : كنت
 عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا، فرآني رث الثياب فقال : ”الك مال“ قلت

نعم يا رسول الله ، من كل المال . قال : ” إذا أتاك الله مالاً فليأثره عليك “ . وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” إن الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده “ .

فصل — يكبر القارئ في رواية البزّي عن ابن كثير — وقد رواه مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم — إذا بلغ آخر « والضحى » كبر بين كل سورة تكبيرة إلى أن يختم القرآن ، ولا يصل آخر السورة بتكبيره ؛ بل يفصل بينهما بسكنة . وكان المعنى في ذلك أن الوحي تأخر عن النبي صلى الله عليه وسلم أياماً ، فقال ناس من المشركين : قد ودّعه صاحبه وقلاه ؛ فنزلت هذه السورة فقال : ” الله أكبر “ . قال مجاهد : قرأت على ابن عباس فأمرني به وأخبرني به عن أبي عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولا يكبر في قراءة الباقي ؛ لأنها ذريعة إلى الزيادة في القرآن .

قلت : القرآن ثبت نقلاً متواتراً سُوره وآياته وحروفه لا زيادة فيه ولا نقصان ؛ فالتكبير على هذا ليس بقرآن . فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوب في المصحف بخط المصحف ليس بقرآن فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب . أما إنه ثبت سنة بنقل الآحاد فاستحبه ابن كثير لا أنه أوجبه خطأ من تركه . ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ في كتاب « المستدرک » له على البخاري ومسلم : حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ الإمام بمكة في المسجد الحرام قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغ قال حدثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزة سمعت نكرمة بن سليمان يقول قرأت على إسماعيل ابن عبد الله بن قسطنطين ، فلما بلغت « والضحى » أقال لي كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم ، فلما قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت « والضحى » قال كبر حتى تختم . وأخبره عبد الله ابن كثير أنه قرأ على مجاهد ، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك ، وأخبره ابن عباس أن أبي بن كعب أمره بذلك ، وأخبره أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بذلك . هذا حديث صحيح ولم يخرجاه .

سورة « ألم نشرح »
مكية في قول الجميع . وهي ثمانى آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾

شَرَحُ الصَّدْرِ : فتحه ؛ أى ألم نفتح صدرك للإسلام . وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : ألم نُئْتِنَ لك قلبك . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله ، أينشرح الصدر؟ قال : « نعم وينفسح » قالوا : يا رسول الله ، وهل لذلك علامة؟ قال : « نعم التجافى عن دار الغرور والإصابة إلى دار الخلود والاعتداد للوت قبل نزول الموت » . وقد مضى هذا المعنى فى « الزمر »^(١) عند قوله تعالى : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ » . وروى عن الحسن قال : « ألم نشرح لك صدرك » قال : ملئ حكماً وعلماً . وفى الصحيح عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة - رجل من قومه - أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «فبينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعتُ قائلاً يقول أحدُ الثلاثة^(٢) فأتيتُ بطست من ذهب فيها ماء زمزم فشُرح صدرى إلى كذا وكذا» قال قتادة قلت : ما يعنى؟ قال : إلى أسفل بطنى ، قال : «فأستخرج قلبى ففُسل قلبى بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حُشى إيماناً وحكمة» . وفى الحديث قصة . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «جاءنى ملكان فى صورة طائر معهما ماء وثلج فشرح أحدهما صدرى وفتح الآخر بمنقاره فيه ففسله» .

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٤٧ (٢) وهذه رواية الترمذى فى كتاب التفسير . (٣) فى صحيح مسلم : «أحد الثلاثة بين الرجلين» روى أنه صلى الله عليه وسلم كان نائماً معه حينئذ عمه حمزة بن عبد المطلب وابن عمه جعفر ابن أبى طالب . راجع شرح هذا الحديث فى صحيح مسلم (باب الاسراء) . وفى شرح الفسطانى فى كتاب بدء الخلق (باب ذكر الملائكة) .

وفي حديث آخر قال : « جاءني ملك فشق عن قلبي فاستخرج منه عذرة^(١) وقال قلبك وكيع وعينك بصيرتان وأذناك سميعتان أنت محمد رسول الله لسانك صادق ونفسك مطمئنة وخلقك قثم وأنت قيم^(٢) . قال أهل اللغة : قوله « وكيع » أى يحفظ ما يوضع فيه . يقال : سقاء وكيع ؛ أى قوى يحفظ ما يوضع فيه . وأستوكعت معدته أى قويت . وقوله « قثم » أى جامع . يقال : رجل قثوم للخير ؛ أى جامع له . ومعنى « ألم نشرح » قد شرحنا ؛ الدليل على ذلك قوله فى النَّسَقِ عَلَيْهِ : « وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ » فهذا نسف على التأويل لا على التنزيل ؛ لأنه لو كان على التنزيل لقال : ونضع عنك وزرك . فدل هذا على أن معنى « ألم نشرح » قد شرحنا . و« لم » بجمد وفى الاستفهام طرف من المجدد ، وإذا وقع بجمد على جمد رجع إلى التحقيق ؛ كقوله تعالى : « أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ »^(٣) ومعناه : الله أحكم الحاكمين . وكذا « أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ »^(٤) . ومثله قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

أستم خير من ركب المطايا * وأندى العالمين بطون راج

المعنى : أتم كذا .

قوله تعالى : وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴿٤﴾ أَلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ أى حططنا عنك ذنبك . وقرأ أنس « وحلطنا وحططنا » . وقرأ ابن مسعود « وحلطنا عنك وقرك » . هذه الآية مثل قوله تعالى : « لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »^(٤) . قيل : الجميع كان قبل النبوة . والوزر : الذنب ؛ أى وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية ؛ لأنه كان صلى الله عليه وسلم فى كثير من مذاهب قومه ، وإن لم يكن عبد صنماً ولا وثناً . قال قتادة والحسن والضحاك : كانت للنبي صلى الله عليه وسلم ذنوب أنقلته ؛ فغفرها الله له . ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أى أثقله حتى سُمِعَ

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وفى بعضها الآخر : « عذرة » بالعين المعجمة والذال المهملة . ولم تقف على هذا

اللفظ لغير القرطبي . (٢) آية ٨ سورة النين . (٣) آية ٣٦ سورة الزمر . (٤) آية ٢ سورة الفتح .

نقيضه؛ أى صوته . وأهل اللغة يقولون : أنقض الحملُ ظَهَرَ الناقة إذا سمعت له صريراً من شدة الحمل . وكذلك سمعت نقيض الزحل ؛ أى صريره . قال جميل :

وحتى تداعت بالنقيض حباله * وهمت بواني زوره أن تحطما

« بواني زوره » أى أصول صدره . فالوزر : الحمل الثقيل . قال المحاسبي : يعنى ثقل الوزر لولم يعف الله عنه . (الذى أنقض ظهرك) أى أثقله وأوهنه . قال : وإنما وُصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل مع كونها مغفورة ، لشدة اهتمامهم بها ، وندمهم منها ، وتحسرهم عليها . وقال السدي : « ووضعتنا عنك وزرك » أى وحططنا عنك ثقلك . وهى فى قراءة عبد الله بن مسعود « وحططنا عنك وقرك »^(١) . وقيل : أى حططنا عنك ثقل آثام الجاهلية . قال الحسين بن الفضل : يعنى الخطأ والسوء . وقيل : ذنوب أمتك ، أضافها إليه لاشتغال قلبه بها . وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدة : خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بها حتى لا تتقل عليك . وقيل : كان فى الأبتداء يثقل عليه الوحي حتى كاد يرمى نفسه من شاهق الجبل ، إلى أن جاءه جبريل وأراه نفسه ؛ وأزيل عنه ما كان يخاف من تغير العقل . وقيل : عصمتك عن احتمال الوزر ، وحفظناك قبل النبوة فى الأربعين من الأدناس ؛ حتى نزل عليك الوحي وأنت مطهر من الأدناس .

قوله تعالى : وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿١٠٦﴾

قال مجاهد : يعنى بالتأذين . وفيه يقول حسان بن ثابت :

أَعْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبِوةِ خَاتَمٌ * من الله مشهودٌ يلوح ويُسْهِدُ
وَضَمَّ الإلهُ أَسْمَ النَّبِيِّ إلى أَسْمِهِ * إذا قال فى الخمس المؤذِنُ أَشْهَدُ

وروى عن الضحاك عن ابن عباس قال : يقول له لا ذكرك إلا ذكرت معى فى الأذان والإقامة والتشهد ، ويوم الجمعة على المنابر ، ويوم الفطر ، ويوم الأضحى ، وأيام التشريق ،

(١) فى شواذ ابن خالويه : « وحططنا عنك وزرك » عن أنس بن مالك . « وحططنا وحططنا » جمعاً

وعن ابن مسعود .

ويوم عرفة ، وعند الجمار ، وعلى الصفا والمروة ، وفي خطبة النكاح ، وفي مشارق الأرض ومغاربها . ولو أن رجلاً عبد الله جل ثناؤه وصدق بالجنة والنار وكل شيء ، ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينتفع بشيء ، وكان كافراً . وقيل : أي أعلينا ذكرك فذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك ، وأمرناهم بالبشارة بك ، ولادين إلا ودينك يظهر عليه . وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء ، وفي الأرض عند المؤمنين ، ورفع في الآخرة ذكرك بما نعطيكَ من المقام المحمود وكرائم الدرجات .

قوله تعالى : فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦٦﴾

أي إن مع الضيقة والشدة يسراً ، أي سعةً وغنى . ثم كرر فقال : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ فقال قوم : هذا التكرير تأكيد للكلام ، كما يقال : أزم أزم ، اعجل اعجل ، قال الله تعالى : « كَلَّا سَوْفَ يَعْلَمُونَ ^(١) . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ يَعْلَمُونَ » . ونظيره في تكرار الجواب : بلى بلى ، لا لا . وذلك للإطناب والمبالغة ، قاله الفراء . ومنه قول الشاعر :

هَمَمْتُ بِنَفْسِي بَعْضَ الْهَمُومِ * فَأَوْلَى لِنَفْسِي أَوْلَى لَهَا ^(٢)

وقال قوم : إن من عادة العرب إذا ذكروا اسماً معترفاً ثم كترروه فهو هو . وإذا نكروه ثم كترروه فهو غيره . وهما أثنان ليكون أقوى للأمل وأبعث على الصبر ، قاله ثعلب . وقال ابن عباس : يقول الله تعالى خلقت عسراً واحداً ، وخلقت يسرين ، ولن يغلب عسريسرين . وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السورة أنه قال : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرِيَسْرِينَ » . وقال ابن مسعود ^(٣) : والذي نفسي بيده لو كان العسر في حجر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، ولن يغلب عسريسرين . وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر رضي الله عنهما : أما بعد ، فإنه مهما يتزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجاً ، وإنه لن يغلب عسريسرين ، وإن الله تعالى يقول في كتابه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا

(١) آية ٣ سورة الهالك . (٢) البيت للحناء . ويرى : * همت بنفسي كل الهوم *

(٣) أي في روايته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وَأَتُّوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(۱) . وقال قوم منهم الجُرَّجَانِيّ : هذا قول مدخول ؛ لأنه يجب على هذا التدرّيج إذا قال الرجل : إن مع الفارس سيفًا ، إن مع الفارس سيفًا ، أن يكون الفارس واحدًا والسيف اثنان . والصحيح أن يقال : إن الله بعث نبيّه مهدياً صلى الله عليه وسلم مُقَلِّلاً مُخَفِّفًا فَعَبْرَهُ الْمُشْرِكُونَ بِفَقْرِهِ حَتَّى قَالُوا لَهُ : نَجِّعْ لَكَ مَالًا ؛ فَاعْتَمَ وَظَنَّ أَنَّهُمْ كَذَبُوهُ لِفَقْرِهِ ؛ فَعَزَّاهُ اللَّهُ وَعَدَّدَ نِعْمَهُ عَلَيْهِ ، وَوَعَدَهُ الْغَنَى بِقَوْلِهِ : « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » أَيْ لَا يُحْزِنُكَ مَا عَيَّرُوكَ بِهِ مِنَ الْفَقْرِ ؛ فَإِنَّ مَعَ ذَلِكَ الْعُسْرِ يُسْرًا عَاجِلًا ؛ أَيْ فِي الدُّنْيَا . فَأَنْجِزْهُ مَا وَعَدَهُ . فَلَمْ يَمِتْ حَتَّى فَتَحَ عَلَيْهِ الْجَمَّازَ وَالْيَمِينَ ، وَوَسَّعَ ذَاتَ يَدَيْهِ حَتَّى كَانَ يُعْطَى الرَّجُلَ الْمَسْأَلِينَ مِنَ الْإِبِلِ ، وَيَهَبُ الْهَبَاتَ السَّنِيَّةَ ، وَيُعِيدُ لِأَهْلِهِ قُوَّةَ سَنَةِ . فَهَذَا الْفَضْلُ كُلُّهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا ؛ وَإِنْ كَانَ خَاصًّا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ يَدْخُلُ فِيهِ بَعْضُ أُمَّتِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . ثُمَّ ابْتَدَأَ فَضْلًا آخَرَ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ فِيهِ تَأْسِيَةٌ وَتَعْزِيَةٌ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مُبْتَدِئًا : « مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » فَهُوَ شَيْءٌ آخَرٌ . وَالذَّلِيلُ عَلَى ابْتِدَائِهِ تَعْزِيَةٌ مِنْ فَاءٍ أَوْ وَاوٍ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنْ حُرُوفِ الذَّنْقِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْعَطْفِ . فَهَذَا وَعَدُّ عَامٍ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ لَا يُخْرَجُ أَحَدٌ مِنْهُ ؛ أَيْ إِنْ مَعَ الْعُسْرِ فِي الدُّنْيَا لِلْمُؤْمِنِينَ يُسْرًا فِي الْآخِرَةِ لَا مَحَالَةَ . وَرُبَّمَا أَجْتَمَعَ يُسْرُ الدُّنْيَا وَيُسْرُ الْآخِرَةِ . وَالَّذِي فِي الْخَبَرِ : « لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ » يَعْنِي الْعُسْرَ الْوَاحِدَ لَنْ يَغْلِبَهُمَا ، وَإِنَّمَا يَغْلِبُ أَحَدُهُمَا إِنْ غَلِبَ وَهُوَ يُسْرُ الدُّنْيَا ؛ فَأَمَّا يُسْرُ الْآخِرَةِ فَكَأَنَّ لَا مَحَالَةَ وَلَنْ يَغْلِبَهُ شَيْءٌ . أَوْ يُقَالُ : « إِنْ مَعَ الْعُسْرِ » وَهُوَ إِخْرَاجُ أَهْلِ مَكَّةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ « يُسْرًا » وَهُوَ دَخُولُهُ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ مَعَ عَشْرَةِ آلَافِ رَجُلٍ مَعَ عِزِّ وَشَرَفٍ .

قوله تعالى : فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾
فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ) قال ابن عباس وقتادة : فإذا فرغت من صلاتك (فَإِنْصَبْ) أي بالغ في الدعاء وسأله حاجتك . وقال ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض

(۱) آخر سورة آل عمران .

فَانصَبَ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ . وَقَالَ الْكَلْبِيُّ : إِذَا فَرَّغْتَ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ « فَاَنْصَبْ » أَي اسْتَغْفِرْ لَدُنْكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . وَقَالَ الْحَسَنُ وَقِتَادَةُ أَيْضًا : إِذَا فَرَّغْتَ مِنْ جِهَادِ عَدُوِّكَ فَاَنْصَبْ لِعِبَادَةِ رَبِّكَ . وَعَنْ مَجَاهِدٍ : « إِذَا فَرَّغْتَ » مِنْ دُنْيَاكَ « فَاَنْصَبْ » فِي صَلَاتِكَ . وَنَحْوَهُ عَنِ الْحَسَنِ . وَقَالَ الْجُنَيْدُ : إِذَا فَرَّغْتَ مِنْ أَمْرِ الْخَلْقِ فَاجْتَهِدْ فِي عِبَادَةِ الْحَقِّ . قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : « وَمَنْ الْمُبْتَدِعَةُ مِنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ « فَاَنْصَبْ » بِكسْرِ الصَّادِ وَالْهَمْزِ فِي أَوَّلِهِ ، وَقَالُوا : مَعْنَاهُ أَنْصَبَ الْإِمَامَ الَّذِي تَسْتَخْلَفُهُ . وَهَذَا بَاطِلٌ فِي الْقِرَاءَةِ بَاطِلٌ فِي الْمَعْنَى ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَسْتَخْلَفْ أَحَدًا ، وَقَرَأَهَا بَعْضُ الْجُهَّالِ « فَاَنْصَبْ » بِتَشْدِيدِ الْبَاءِ ، مَعْنَاهُ إِذَا فَرَّغْتَ مِنَ الْجِهَادِ فِجَةً فِي الرَّجُوعِ إِلَى بَلَدِكَ . وَهَذَا بَاطِلٌ - أَيْضًا - قِرَاءَةً لِمُخَالَفَةِ الْإِجْمَاعِ لَكِنْ مَعْنَاهُ صَحِيحٌ ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ نَوْمَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ إِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلِ الرَّجُوعَ إِلَى أَهْلِهِ » . وَأَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا وَأَسْوَأَهُمْ مَبَاءً وَمَأْبَا مِنْ أَخَذَ مَعْنَى صَحِيحًا فَرَكِبَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ قِرَاءَةً أَوْ حَدِيثًا فَيَكُونُ كَاذِبًا عَلَى اللَّهِ كَاذِبًا عَلَى رَسُولِهِ ؛ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » . قَالَ الْمَهْدَوِيُّ : وَرَوَى عَنْ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ أَنَّهُ قَرَأَ « الْمَنْ شَرَحَ لَكَ صَدْرَكَ » بِفَتْحِ الْحَاءِ ؛ وَهُوَ بَعِيدٌ ، وَقَدْ يُؤَوَّلُ عَلَى تَقْدِيرِ النُّونِ الْخَفِيفَةِ ، ثُمَّ أَبْدَلْتَ النُّونَ أَلْفًا فِي الْوَقْفِ ، ثُمَّ حَمَلَ الْوَصْلَ عَلَى الْوَقْفِ ثُمَّ حَذَفْتَ الْأَلْفَ . وَأَنْشُدْ عَلَيْهِ :

اَضْرَبَ عَنْكَ الْهَمُومَ طَارِقَهَا * ضَرَبَكَ بِالسُّوْطِ قَوْنَسَ الْفَرَسِ^(١)

أَرَادَ : اَضْرَبَنَّ . وَرَوَى عَنْ أَبِي السَّمَّالِ « إِذَا فَرَّغْتَ » بِكسْرِ الرَّاءِ ، وَهِيَ لُغَةٌ فِيهِ . وَقُرِئَ « فَرَّغَبْ » أَي فَرَّغَبِ النَّاسَ إِلَى مَا عِنْدَهُ .

الثَّانِيَةَ - قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : « رَوَى عَنْ شُرَيْحٍ أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ يَلْعَبُونَ يَوْمَ عِيدٍ فَقَالَ مَا يَهَذَا أَمْرَ الشَّارِعِ . وَفِيهِ نَظَرٌ ، فَإِنَّ الْحَبَشَ كَانُوا يَلْعَبُونَ بِالتَّرْقِ وَالْحِرَابِ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمَ

(١) قونس الفرس : ما بين أذنيه . وقيل مقدم رأسه . والبيت لطرفة ، ويقال إنه مصنوع عليه .

العید والنبی صلی اللہ علیہ وسلم ينظر . ودخل أبو بكر في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصار تُغَنِّيَانِ ؛ فقال أبو بكر: أئبزمور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: «دَعُهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّهُ يَوْمَ عِيدٍ». وليس يلزم الذئوب على العمل بل هو مكروه للخلق .

تفسير سورة « والتين »

مكية في قول الأكثر . وقال ابن عباس وقتادة : هي مدنية ، وهي ثمانى آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي : هو تينكم الذي تأكلون ، وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت ؛ قال الله تعالى : « وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَيِّغُ لِلْأَكْلَيْنِ » . وقال أبو ذر: أهدى للنبي صلي الله عليه وسلم سل من تين ؛ فقال : «كلوا» وأكل منه . ثم قال : «أوقلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس» . وعن معاذ أنه أسألك بقضيب زيتون وقال سمعت النبي صلي الله عليه وسلم يقول : «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحرقرة وهي سواك وسواك الأنبياء من قبلي» . وروى عن ابن عباس أيضا : التين مسجد نوح عليه السلام الذي بُني على الجودي ، والزيتون مسجد

(١) آية ٣٠ سورة المؤمنون . (٢) العجم (بالتحريك) : النوى .

(٣) الحفر (بفتح الحاء وسكون الفاء وفتحها) : صفة تعلق الأسنان .

بيت المقدس . وقال الضحاك : التين المسجد الحرام ، والزيتون المسجد الأقصى . ابن زيد :
التين مسجد دمشق ، والزيتون مسجد بيت المقدس . قتادة : التين الجبل الذي عليه دمشق ،
والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس . وقال محمد بن كعب : التين مسجد أصحاب
الكهف ، والزيتون مسجد إيلياء . وقال كعب الأحبار وقتادة أيضا وعكرمة وابن زيد : التين
دمشق ، والزيتون بيت المقدس . وهذا اختيار الطبري . وقال الفراء : سمعت رجلا من
أهل الشام يقول : التين جبال ما بين حلوان إلى همدان ، والزيتون جبال الشام . وقيل :
هما جبلان بالشام ، يقال لهما طور زيتا وطور تينا (بالسريانية) سُمِّيَا بذلك لأنهما يُنبتانِهما .
وكذا روى أبو مكي عن عكرمة قال : التين والزيتون جبلان بالشام . وقال [النابغة] :

* ... أتَيْنَ التَّيْنَ عن عَرِيضٍ ^(١) *

وهذا أسم موضع . ويجوز أن يكون ذلك على حذف مضاف ؛ أي ومنابت التين والزيتون .
ولكن لا دليل على ذلك من ظاهر التنزيل ولا من قول من لا يجوز خلافه ؛ قاله النحاس .

الثانية – أصح هذه الأقوال الأول ؛ لأنه الحقيقة ولا يُعدَّل عن الحقيقة إلى المجاز
إلا بدليل . وإنما أقسم الله بالتين لأنه كان ستر آدم في الجنة ؛ لقوله تعالى : « يَخْضِفَانِ
عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » ^(٢) وكان ورق التين . وقيل : أقسم به ليبين وَجَهَ المِنَّةِ العظمى فيه ؛
فإنه جميل المنظر ، طيب الخبر ، نثر الرائحة ، سهل الجنى ، على قدر المضغمة . وقد أحسن
القائل فيه :

انظر إلى التين في الغصون ضحى * ممزق الجلد مائل العنق
كأنه ربّ نعمة سُلبت * فعاد بعد الحديد في الخلق
أصفر ما في النهود أكبره * لكن يُنادى عليه في الطرق

(١) البيت بتمامه كما في آاب الملاحن لأبن دريد وشعراء النصرانية :

صهب الظلال أتين التين عن عرض * يزجين غيا قليلا ماؤه شبا

والصهب والصبية : الحسرة . والعرض : الاعتراض ، أو الجانب . ويزجين : يسفن . والشيم : البارد . والبيت
في وصف صحاب لا ماء بها . وقد نسب المؤلف لزهير . (٢) آية ٢٢ سورة الأعراف .

وقال آخر :

التين يعدل عندي كل فاكهة * إذا أنتى مائلا في غصنه الزاهي

مخمش الوجه قد سالت حلاوته * كأنه راكم من خشية الله

وأقسم بالزيتون لأنه مثل به إبراهيم في قوله تعالى : « يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ^(۱) » .

وهو أكثر آدم أهل الشام والمغرب ؛ يصطبغون به ويستعملونه في طبيختهم ، ويستصبحون

به ، ويداوي به أدواء الجوف والقروح والجراحات ، وفيه منافع كثيرة . وقال عليه السلام :

« كلوا الزيت وأدهنوا به فإنه من شجرة مباركة » . وقد مضى في سورة « المؤمنون » القول فيه ^(۲) .

الثالثة - قال ابن العربي : ولأمتان الباري سبحانه وتعظيم المنية في التين ، وأنه

مقتات مذخر [فلذلك] قلنا بوجوب الزكاة فيه ، وإنما فر كثير من العلماء من التصريح بوجوب

الزكاة فيه تقيّة جور الولاية ؛ فإنهم يتعاملون في الأموال الزكائية فيأخذونها مفرما حسب ما

أنذر به الصادق صلى الله عليه وسلم . فكره العلماء أن يجعلوا لهم سبيلا إلى مال أحد

يتشظون فيه ، ولكن ينبغي للمرء أن يخرج عن نعمة ربه بأداء حقه . وقد قال الشافعي لهذه

العلة وغيرها : لا زكاة في الزيتون ، والصحيح وجوب الزكاة فيهما ^(۵) .

قوله تعالى : وَطُورِ سَيْنِينَ ﴿٢٠﴾

روى ابن أبي نجیح عن مجاهد « وطور » قال : جبل . « سينين » قال : مبارك (بالسر يانية) .

وعن عكرمة عن ابن عباس قال : « طور » جبل ، و« سينين » حسن . وقال قتادة : سينين

هو المبارك الحسن . وعن عكرمة قال : الجبل الذي نادى الله جل ثناؤه منه موسى عليه السلام .

وقال مقاتل والكلبي : « سينين » كل جبل فيه شجر مُثْمِر فهو سينين وسيناء ؛ بلغة النبط .

وعن عمرو بن ميمون قال : صليت مع عمر بن الخطاب العشاء بمكة فقرأ « والتين والزيتون .

(۱) آية ۳۵ سورة النور . راجع ج ۱۲ ص ۲۶۳ . (۲) أي يأمدمون به .

(۳) راجع ج ۱۲ ص ۱۱۶ . (۴) زيادة عن ابن العربي .

(۵) في نسخ الأصل : « فيها » .

وطور سيناء . وهذا البلد الأمين» قال : وهكذا هي في قراءة عبد الله؛ ورفع صوته تعظيماً للبيت . وقرأ في الركعة الثانية : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَّ رَبُّكَ » و « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ » جمع بينهما؛ ذكره ابن الأنباري . النحاس : وفي قراءة عبد الله « سيناء » (بكسر السين) ، وفي حديث عمرو بن ميمون عن عمر (بفتح السين) . وقال الأخفش : « طور » جبل . و « سينين » شجر ، واحدته سَيْنِيَّة . وقال أبو علي : « سَيْنِين » فَعْلِيل ، فَكُرَّت اللام التي هي نون فيه كما كُرَّت في زَحْلِيل للكان الزليق ، و كَرْدِيدَة للقطعة من التمر ، و خِنْدِيدَة للطويل . ولم ينصرف « سينين » كما لم ينصرف سيناء ؛ لأنه جُعِلَ اسماً لبقعة أو أرض ، ولو جُعِلَ اسماً للكان أو للنزل أو اسم مذكر لانصرف ؛ لأنك سميت مذكراً بمذكر . وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام والأرض المقدسة ، وقد بارك الله فيهما ؛ كما قال : « إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ » .

قوله تعالى : وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾

يعنى مكة . سماه آمينا لأنه آمن ؛ كما قال : « أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا » فالأمين بمعنى الآمن ؛ قاله الفراء وغيره . قال الشاعر :

ألم تعلمي يا أسم ، يَحْكُ أني * حَلَفْتُ يَمِينًا لَا أَخُونُ أَمِينِي

يعنى آمنى . وبهذا احتج من قال : إنه أراد بالتين دمشق ، وبالزيتون بيت المقدس . فأقسم الله بجبل دمشق لأنه مأوى عيسى عليه السلام ، وبجبل بيت المقدس لأنه مقام الأنبياء عليهم السلام ، وبمكة لأنها أثر إبراهيم ودار محمد صلى الله عليهما وسلم .

قوله تعالى : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾
فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ هذا جواب القسم ، وأراد بالإنسان الكافر . قيل : هو الوليد بن المغيرة . وقيل : كَلْدَة بن أسيد . فعلى هذا نزات في منكرى

(١) آية ٦٧ سورة العنكبوت .

البعث . وقيل : المراد بالإنسان آدمُ وذرئته . (في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) وهو اعتداله واستواء شبابه ؛ كذا قال عامة المفسرين . وهو أحسن ما يكون ؛ لأنه خلق كلَّ شيء مُنْكَبًا على وجهه ، وَخَلَقَهُ هُوَ مُسْتَوِيًّا ، وله لسان ذلق ، ويد وأصابع يقبض بها . وقال أبو بكر بن طاهر : مَزِينًا بالعقل ، مؤدبًا للأمر ، مهذبًا بالتمييز ، مديد القامة ؛ يتناول ما كوله بيده . ابن العربي : « ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حيًّا عالمًا ، قادرًا مريدًا متكلمًا ، سمعًا بصيرًا ، مدبرًا حكيمًا . وهذه صفات الرب سبحانه ، وعنَّا عبر بعض العلماء ووقع البيان بقوله : » إن الله خلق آدم على صورته « يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها . وفي رواية » على صورة الرحمن « ومن أين تكون للرحمن صورة متشخصة ، فلم يبق إلا أن تكون معاني . » وقد أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الأزدي قال : أخبرنا القاضي أبو القاسم علي بن أبي علي القاضي المحسن عن أبيه قال : كان عيسى بن موسى الهاشمي يُحِبُّ زوجته حبًّا شديدًا فقال لها يوما : أنت طالق ثلاثا إن لم تكوني أحسن من القمر ؛ فهضت واحتجبت عنه وقالت : طَلَّقْتَنِي ! . وبات ليلة عظيمة ، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور فأخبره الخبر ، وأظهر للمنصور جزعا عظيما ؛ فاستحضر الفقهاء واستفتاهم . فقال جميع من حضر : قد طَلَّقْت ؛ إلا رجلا واحدا من أصحاب أبي حنيفة فإنه كان ما كنا . فقال له المنصور : مالك لا تتكلم ؟ فقال له الرجل : بسم الله الرحمن الرحيم « والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » يا أمير المؤمنين ، فالإنسان أحسن الأشياء ، ولا شيء أحسن منه . فقال المنصور لعيسى بن موسى : الأمر كما قال الرجل ، فأقبل على زوجته . وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل : أن أطيبي زوجك ولا تعصيه ، فاطلقتك . فهذا يدل على أن الإنسان أحسن خلق الله باطنا وظاهرا ، جمال هيئة ، وبديع تركيب : الرأس بما فيه ، والصدر بما جمعه ، والبطن بما حواه ، والفرج وما طواه ، واليدان وما بطشاه ، والرجلان وما احتماتاه . ولذلك قالت الفلاسفة : إنه العالم الأصغر ؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه .

(۱) في بعض نسخ الأصل وابن العربي : « أجمع فيه » .

الثانية - قوله تعالى : (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) أى إلى أَرذَلِ العَمَرِ، وهو المَهِرَمُ بعد الشباب، والضعف بعد القُوَّة، حتى يصير كالصبي في الحال الأول، قاله الضحاك والكوفي وغيرهما. وروى ابن أبي نَجِيح عن مجاهد « ثم رددناه أسفل سافلين » إلى النار، يعنى الكافر، وقاله أبو العالمة . وقيل : لما وصفه الله بتلك الصفات الجليلة التي ركب الإنسان عليها طنى وعلا ، حتى قال : « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ^(١) » وحين علم الله هذا من عبده ، وقضاؤه صادر من عنده ، رده أسفل سافلين ؛ بأن جعله مملوا قَدْرًا ، مشحونا نجاسة ، وأخرجها على ظاهره لإخراجا منكرا، على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغلبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره رجع إلى قدره . وقرا عباده « أسفل السافلين » . وقال : « أَسْفَلَ سَافِلِينَ » على الجمع ؛ لأن الإنسان في معنى جمع، ولو قال : أسفل سافل جاز ؛ لأن لفظ الإنسان واحد . وقول : هذا أفضل قائم . ولا تقول أفضل قائمين ؛ لأنك تضمير لواحد فإن كان الواحد غير مضموره رجع اسمه بالتوحيد والجمع ؛ كقوله تعالى : « وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ^(٢) » وقوله تعالى : « وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ ^(٣) » . وقد قيل : إن معنى « رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » أى رددناه إلى الضلال ؛ كما قال تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى إلا هؤلاء فلا يردون إلى ذلك . والاستثناء على قول من قال « أسفل سافلين » : النار، متصل . ومن قال : إنه المهْرَمُ فهو منقطع .

قوله تعالى : إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ

غَيْرُ مَمْنُونٍ ①

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فإنه تكتب لهم حسناتهم ، وتُحْتَسَبُ عنهم سيئاتهم ؛ قاله ابن عباس . قال : وهم الذين أدركهم الكبر لا يؤخذون بما عملوه في كبرهم .

(١) آية ٢٤ سورة النازعات . (٢) آية ٣٣ سورة الزمر . (٣) آية ٤٨ سورة الشورى .

وروى الضحاك عنه قال : إذا كان العبد في شبابه كثير الصلاة كثير الصيام والصدقة ، ثم ضعف عما كان يعمل في شبابه ؛ أجرى الله عز وجل له ما كان يعمل في شبابه . وفي الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” إذا سافر العبد أو مرض كتب الله له مثل ما كان يعمل مقبياً صحياً “ . وقيل : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فإنه لا يحرف ولا يهزم^(١) ، ولا يذهب عقل من كان عالماً عاملاً به . وعن عاصم الأحول عن عكرمة قال : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر . وروى عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” طوبى لمن طال عمره وحسن عمله “ . وروى أن العبد المؤمن إذا مات أمر الله ملكه أن يتعبدا على قبره إلى يوم القيامة ويكتب له ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال الضحاك : أجر بغير عمل . وقيل غير مقطوع .

قوله تعالى : ﴿ مَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾

قيل : الخطاب للكافر ؛ توبيخاً وإلزاماً للحجة . أى إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم ، وأنه يردك إلى أرذل العمر ، وينقلك من حال إلى حال ؛ فما يملك على أن تكذب بالبعث والجزاء وقد أخبرك محمد صلى الله عليه وسلم به . وقيل : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى استيقن مع ما جاءك من الله عز وجل أنه أحكم الحاكمين . روى معناه عن قتادة . وقال قتادة أيضاً والفراء : المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين . واختاره الطبرى . كأنه قال : فمن يقدر على ذلك ؛ أى على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خالق الإنسان والدين والجزاء . قال الشاعر :

دنى تيمياً كما كانت أوائلنا * دنت أوائلهم في سالف الزمن

(١) في حاشية الجمل نقلاً عن القرطبي : « فإنهم لا يحرفون ولا تذهب عقولهم » .

(٢) في بعض نسخ الأصل : « ملائكة » وفي بعضها : « ملكين » .

قوله تعالى : أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

أى أتقن الحاكم صنعا في كل ما خلق . وقيل : « بأحكم الحاكمين » قضاءً بالحق ، وعدلاً بين الخلق . وفيه تقدير لمن اعترف من الكفار بصانع قديم . وألف الاستفهام إذا دخلت على النفي وفي الكلام معنى التوقيف صار إيجاباً ، كما قال :

* أستم خير من ركب المطايا *

وقيل : « قَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ . أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ » منسوخة بآية السيف . وقيل : هى ثابتة ، لأنه لا تنافي بينهما . وكان ابن عباس وعلی بن أبى طالب رضی الله عنهما إذا قرأ « أليس الله بأحكم الحاكمين » قالوا : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين ، فيختار ذلك . والله أعلم . ورواه الترمذی عن أبى هريرة قال : من قرأ سورة « والتين والزيتون » فقرأ « أليس الله بأحكم الحاكمين » فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . والله أعلم .

سورة « العلق »

وهى مكية بإجماع ، وهى أول ما نزل من القرآن ، فى قول أبى موسى وعائشة رضی الله عنهما . وهى تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾

هذه السورة أول ما نزل من القرآن ، فى قول معظم المفسرين . نزل بها جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم على حراء ، فعلمه تحس آيات من هذه السورة . وقيل : إن أول ما نزل « يا أيها المدثر » قاله جابر بن عبد الله ، وقد تقدم . وقيل : فاتحة الكتاب أول ما نزل ، قاله أبو ميسرة الحمداى . وقال علی بن أبى طالب رضی الله عنه : أول ما نزل من القرآن

(١) هو الجبرير . وتماه :

* وأندى العالمين بطون راح *

(٢) راجع ج ١٩ ص ٥٨

« قُلْ تَعَالَوْا أَنزَلْنَا مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ^(۱) » والصحيح الأول . قالت عائشة : أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة ^(۲) ، بغاء الملك فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم » . أخرجه البخاري . وفي الصحيحين عنها قالت : أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ^(۳) يتحنث فيه الليالي ذوات العدد ، [قبل أن يرجع إلى أهله] ^(۴) ويتروّد لذلك ؛ ثم يرجع إلى خديجة فيتروّد لمثلها ؛ حتى يحثه الحق وهو في غار حراء ، بغاء الملك فقال : « اقرأ » : فقال : « ما أنا بقارئ » — قال — فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ^(۵) فقال « اقرأ » فقلت : « ما أنا بقارئ » — قال — فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ^(۶) فقال : « اقرأ » فقلت : « ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ^(۷) فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » الحديث بكامله . وقال أبو رجاء العطاردي : وكان أبو موسى الأشعري يطوف علينا في هذا المسجد مسجد البصرة ، فيقعدنا حلقاً فيقرئنا القرآن ؛ فكانني أنظر إليه بين ثوبين له أبيضين ، وعنه أخذت هذه السورة : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » . وكانت أول سورة أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم . وروت عائشة رضي الله عنها أنها أول سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعدها « ن والقلم » ثم بعدها « يأيها المدثر » ثم بعدها « والضحى » ذكره الماوردي . وعن الزهري : أول ما نزلت سورة « اقرأ باسم ربك » — إلى قوله — ما لم يعلم » فخرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل يعلو شواهد الجبال ؛ فأتاه جبريل فقال له : « إنك نبي الله » فرجع إلى خديجة وقال : « دثروني وصبوا علي ماء بارداً » فنزل « يأيها

(۱) آية ۱۵۱ سورة الأنعام . (۲) كذا في الأصول ومسلم . وفي البخاري : « الصالحة » .

(۳) يتحنث : أي يتعبد . يقال : فلان يتحنث ؛ أي يفعل فعلاً يخرج به من الإيم والخرج .

(۴) زيادة عن الصحيحين . (۵) الفط : العصر الشديد والكبس .

المدثر» . ومعنى « أقرأ باسم ربك » أى أقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتوحاً باسم ربك ، وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كل سورة . فمحل الباء من « باسم ربك » النصب على الحال . وقيل : الباء بمعنى على ؛ أى أقرأ على اسم ربك . يقال : فعل كذا باسم الله ، وعلى اسم الله . وعلى هذا فالمقروء محذوف ؛ أى أقرأ القرآن وافتتحه باسم الله . وقال قوم : اسم ربك هو القرآن ؛ فهو يقول « أقرأ باسم ربك » أى اسم ربك ، والباء زائدة ؛ كقوله تعالى : « تَنبَتُ بِالدُّهْنِ » وكما قال :

* سُودُ الْحَاجِرِ لَا يَقْرَأُ بِالسُّورِ ^(١) *

أراد لا يقرآن السور . وقيل : معنى « أقرأ باسم ربك » أى أذكر اسمه . أمره أن يتدبى القراءة باسم الله .

قوله تعالى : خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى ابن آدم . ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ أى من ديم ؛ جمع علقه ، والعلقة الدم الجامد ؛ وإذا جرى فهو المسفوح . وقال : « من علق » فدكره بلفظ الجمع ؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع ، وكلهم خلقوا من علق بعد النطفة . والعلقة قطعة من دم رطب ؛ سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تتمر عليه ، فإذا جفت لم تكن علقه . قال الشاعر :

تركناه يخر على يديه * يمجح عليهما علق الوتين

وخص الإنسان بالذكر تشریفاً له . وقيل : أراد أن يبين قدر نعمته عليه بأن خلقه من علقه مهينة حتى صار بشراً مويماً ، وعاقلاً مميّزاً .

قوله تعالى : أقرأ وربك الأكرم ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أقرأ ﴾ تأكيد ، وتم الكلام ؛ ثم استأنف فقال : ﴿ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ أى الكريم . وقال الكلبي : يعنى الحليم عن جهل العباد فلم يعجل بعقوبتهم . والأول أشبه

(١) هذا مجزيت لراعى ، وصدرة : من الحرائر لاربات أنجرة *

بالمعنى ؛ لأنه لما ذكر ما تقدم من نعمه دلّ بها على كرمه . وقيل : « اقرأ وربك » أى اقرأ يا محمد وربك يُعينك ويفهمك وإن كنت غير القارئ . و « الأكرم » بمعنى المتجاوز عن جهل العباد .

قوله تعالى : **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** ﴿١٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)** يعنى الخطّ والكتابة ؛ أى علم الإنسان الخطّ بالقلم . وروى سعيد عن قتادة قال : القلم نعمة من الله تعالى عظيمة ، لولا ذلك لم يُقَمِّ دين ، ولم يصلح عيش . فدلّ على كمال كرمه سبحانه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو . وما دونت العلوم ولا قيّدت الحُكْم ، ولا ضُبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ؛ ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا . وسمى قلماً لأنه يُقلم ؛ أى يُقَطَّع ، ومنه تقليم الظفر . وقال بعض الشعراء المُحدِّثين يصف القلم :

فكانه والحبرُ يَحْضِبُ رأسه * شيخٌ لوصلَ حَرِيدَةً يتصنَعُ

ألا ألاحظه بعينِ جلالته * وبه إلى الله الصوائف ترفع

وعن عبد الله بن عمر قال : يا رسول الله ، أأكتب ما أسمع منك من الحديث ؟ قال : « نعم فأكتب فإن الله علم بالقلم » . وروى مجاهد عن ابن عمر قال : خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده ثم قال لسائر الحيوان كن فكان : القلم والعرش وجنة عدن وآدم عليه السلام . وفيمن علمه بالقلم ثلاثة أقاويل : أحدها - أنه آدم عليه السلام ؛ لأنه أول من كتب ؛ قاله كعب الأحبار . الثاني - أنه إدريس ؛ وهو أول من كتب ؛ قاله الضحاك . الثالث : أنه أدخل كل من كتب بالقلم ؛ لأنه ما علم إلا بتعليم الله سبحانه . وجمع بذلك نعمته عليه في خلقه ، وبين نعمته عليه في تعليمه ؛ استكمالاً للنعمة عليه .

الثانية - صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة قال: لما خلق الله الخلق كتب في كتابه - فهو عنده فوق العرش - : «إن رحمتي تغلب غضبي». وثبت عنه عليه السلام أنه قال: «أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فكتب ما يكون إلى يوم القيامة فهو عنده في الذكر فوق عرشه». وفي الصحيح من حديث ابن مسعود سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم يقول يا ربِّ أذكرُ أم أنثى فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول يا ربِّ أجله فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يقول يا ربِّ رزقه فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص وقال تعالى «إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ»^(١).

قال علماءنا: فالأقلام في الأصل ثلاثة: القلم الأول - الذي خلقه الله بيده وأمره أن يكتب. والقلم الثاني - أقلام الملائكة جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال. والقلم الثالث - أقلام الناس جعلها الله بأيديهم يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها مآربهم. وفي الكتابة فضائل جمَّة. والكتابة من جملة البيان، والبيان مما آتخص به الآدمي.

الثالثة - قال علماءنا: كانت العرب أقلَّ الخلق معرفة بالكتاب، وأقلَّ العرب معرفة به المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ صُرف عن علمه ليكون ذلك أثبت لمعجزته وأقوى في حجته. وقد مضى هذا مبيناً في سورة «العنكبوت». وروى حماد بن سلمة عن الزبير ابن عبد السلام عن أيوب بن عبد الله الفهري عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا تُسْكِنُوا نِسَاءَكُمْ الْغُرَفَ وَلَا تَعْلَمُوهُنَّ الْكِتَابَةَ». قال علماءنا: وإنما حذَّروهم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأن في إسكانهن الغرف تطلُّعاً إلى الرجال؛ وليس في ذلك تحصين لهن ولا تستر. وذلك أنهن لا يملكن أنفسهن حتى يشرفن على الرجال؛ فتحدث الفتنة والبلاء؛ فحذَّروهم أن يجعلوا لهنَّ غُرَفًا، ذريعةً إلى الفتنة. وهو كما قال رسول الله

(١) آية ١٠ سورة الانقطار. (٢) راجع ج ١٢ ص ٢٥١

صلى الله عليه وسلم : " ليس للنساء خير لمن من ألا يراهن الرجال ولا يرين الرجال " . وذلك أنها خلقت من الرجل ففهمتها في الرجل ، والرجل خلقت فيه الشهوة ، وجعلت سكا له ، فغير مأمون كل واحد منهما في صاحبه . وكذلك تعلم الكتابة رُبما كانت سبباً للفتنة . وذلك إذا علمت الكتابة كتبت إلى من تهوى . والكتابة حين من العيون بها يبصر الشاهد الغائب ، والخط هو آثار يده . وفي ذلك تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان ، فهو أبلغ من اللسان . فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينقطع عنهم أسباب الفتنة ؛ تحصيلاً لمن وطهارة لقلوبهم .

قوله تعالى : **عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴿٦٦﴾

قيل : « الإنسان » هنا آدم عليه السلام . علمه أسماء كل شيء ؛ حسب ما جاء به القرآن في قوله تعالى : « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا »^(١) . فلم يبق شيء إلا وعلّم سبحانه آدم اسمه بكل لغة ، وذكره آدم للملائكة كما علمه . وبذلك ظهر فضله ، وتبين قدره ، وثبت نبوته ، وقامت حجة الله على الملائكة ومجته ، وأتمت الملائكة الأمر لما رأته من شرف الحال ، ورأت من جلال القدرة ، وسمعت من عظيم الأمر . ثم توارثت ذلك ذريته خلفاً بعد سلف ، وتناقلوه قوماً عن قوم . وقد مضى هذا في سورة « البقرة » مستوفى والحمد لله . وقيل : « الإنسان » هنا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ دليله قوله تعالى : « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ »^(٢) . وعلى هذا فالمراد بـ « عَلَّمَكَ » المستقبل ؛ فإن هذا من أوائل ما نزل . وقيل : هو عام لقوله تعالى : « وَاللَّهُ أَنْحَرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً »^(٣) .

قوله تعالى : **كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا** ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : **(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا)** إلى آخر السورة . قيل : إنه نزل

(١) آية ٣١ سورة البقرة . (٢) راجع ج ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية . (٣) آية ١١٣ سورة النساء . (٤) في نسخة : المشكل . (٥) آية ٧٨ سورة النحل .

في أبي جهل . وقيل : نزلت السورة كلها في أبي جهل ؛ نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ؛ فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصلي في المسجد ويقرأ باسم الرب . وعلى هذا فليست السورة من أوائل ما نزل . ويمحوز أن يكون خمس آيات من أولها أول ما نزلت ، ثم نزلت البقية في شأن أبي جهل ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بضم ذلك إلى أول السورة ؛ لأن تاليف السور جرى بأمر من الله . ألا ترى أن قوله تعالى : « وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ »^(١) آخر ما نزل ، ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل . و« كَلَّا » بمعنى حَقًّا ؛ إذ ليس قبله شيء . والإنسان هنا أبو جهل . والطغيان مجاوزة الحد في العصيان . (أَنْتَ رَأَاهُ) أى لأن رأى نفسه أستغنى ؛ أى صار ذا مال وثروة . وقال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه قال : لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون أتاه أبو جهل فقال : يا محمد تزعم أنه من أستغنى طغى ؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهباً لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونبتع دينك . قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال : « يا محمد خيرهم في ذلك فإن شاءوا فعلنا بهم ما أرادوه فإن لم يُسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة » . فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القوم لا يقبلون ذلك ؛ فكف عنهم إبقاء عليهم . وقيل : « أَنْ رَأَاهُ أَسْتَغْنَى » بالعشيرة والأنصار والأعوان . وحذف اللام من قوله « أَنْ رَأَاهُ » كما يقال : إنكم لتطغنون إن رأيتم غناكم . وقال الفراء : لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه ؛ لأن رأى من الأفعال التي تريد أسماءً وخبراً نحو الظن والحسبان ، فلا يقتصر فيه على مفعول واحد . والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول : رأيتني وحسبتني ، ومتى نراك خارجاً ، ومتى نظنك خارجاً . وقرأ مجاهد وحميد وقُنبُل عن ابن كثير « أَنْ رَأَاهُ أَسْتَغْنَى » بقصر الهمزة . الباقيون « رَاهُ » بمدّها ، وهو الاختيار .

(١) آية ٢٨١ سورة البقرة .

(٢) في نسخة من الأصل : « يقبلون » .

قوله تعالى : **إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ** ﴿٨﴾

أى مرجع من هذا وصفه فنجازيه . والرجعى والمرجع والرجوع مصادر ؛ يقال :
رجع إليه رجوعاً ومرجعاً ، ورجعى ؛ على وزن فعلى .

قوله تعالى : **أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ** ﴿٩﴾ **عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ** ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ** ﴾ وهو أبو جهل ﴿ **عَبْدًا** ﴾ وهو محمد صلى الله عليه
وسلم . فإن أبا جهل قال : إن رأيت محمداً يصلى لأطأت على عنقه ؛ قاله أبو هريرة . فأنزل
الله هذه الآيات تعجباً منه . وقيل : فى الكلام حذف ؛ والمعنى : أمن هذا الناهى عن
الصلاة من العقوبة .

قوله تعالى : **أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ** ﴿١١﴾ **أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ** ﴿١٢﴾

أى أرأيت يا أبا جهل إن كان محمد على هذه الصفة ، أليس ناهيه عن التقوى والصلاة
هالكا ؟ !

قوله تعالى : **أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ** ﴿١٣﴾ **أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ** ﴿١٤﴾

يعنى أبا جهل كذب بكتاب الله عز وجل ، وأعرض عن الإيمان . وقال الفراء : المعنى
« أرأيت الذى ينهى . عبداً إذا صلى » وهو على الهدى وأمر بالتقوى ، والناهى مكذب
متول عن الذكر ؛ أى فما أعجب هذا ! ثم يقول : وَيَلَهُ ! ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى ؛
أى يراه ويعلم فعله ؛ فهو تفرير وتوبيخ . وقيل : كل واحد من « أرأيت » بدل من
الأول . و « **أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ** » الخير .

قوله تعالى : **كَلَّا لَنْ لَّمْ يَنْتَه لَدَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ** ﴿١٥﴾ **نَاصِيَةٍ كَلْبِيَةٍ**

خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾

(١) أى تعجيباً منه ، وهو إيقاع الخطاب وحله على التعجب (من حاشية الجمل) .

قوله تعالى : (كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ) أى أبو جهل عن أذاك يا محمد . (لَنْسَفَعًا) أى لناخذن (بِالنَّاصِيَةِ) فَلَنْتَذَلَّهُ . وقيل : لناخذن بناصيته يوم القيامة ، وتطوى مع قدميه ويطرح فى النار ؛ كما قال تعالى : « فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ »^(١) . فالآية وإن كانت فى أبى جهل فهى عظة للناس ، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة . وأهل اللغة يقولون : سَفَعْتُ بِالشَّيْءِ إِذَا قَبَضْتُ عَلَيْهِ وَجَذَبْتَهُ جَذْبًا شَدِيدًا . ويقال : سَفَعْنَا بِنَاصِيَةِ فَرَسِهِ . قال : قَوْمٌ إِذَا كَثُرَ الصَّبَاحُ رَأَيْتَهُمْ * مِنْ بَيْنِ مَلْجِمٍ مُهْرِهِ أَوْ سَافِجٍ^(٢)

وقيل : هو مأخوذ من سَفَعَتِ النَّارُ وَالشَّمْسُ إِذَا غَيَّرَتْ وَجْهَهُ إِلَى حَالٍ تَسْوِيدًا ؛ كما قال : أَثَافِي سُفْعًا فِي مَعْرَسٍ مِرْجَلٍ * وَتَوَى بِكُذْمِ الْحَوْضِ أَنْتُمْ خَاشِعٌ^(٣)

والناصية : شعر مقدم الرأس . وقد يعبر بها عن جملة الإنسان ؛ كما يقال : هذه ناصية مباركة ؛ إشارة إلى جميع الإنسان . وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته . وقال المبرد : السَّفْعُ الْجَذْبُ بِشِدَّةٍ ؛ أى لنجرت بناصيته إلى النار . وقيل : السَّفْعُ الضَّرْبُ ؛ أى لتلطمن وجهه . وكله متقارب المعنى . أى يجمع عليه الضرب عند الأخذ ؛ ثم يجر إلى جهنم . ثم قال على البدل : (نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ)

(١) آية ٤١ سورة الرحمن . (٢) البيت لحيد بن نور الهلالى الصحابى . ويروى : * ما بين ملجم ... * (٣) هكذا ورد البيت فى جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عادل وهو مطلق من قصيدتين . فالشطر الأول من معلقة زهير . والبيت كما فى ديوانه ومطفته :

أثافي سفعا فى معرس مرجل * ونويا بكذم الحوض لم يتلم

والشطر الثانى من قصيدة للنابغة ، والبيت كما فى ديوانه :

رماد ككحل العين لأيا أبنه * ونوى بكذم الحوض أنتم خاشع

والأنتم : المنتم . والخاشع : اللاصق بالأرض . والأثافي : الحجارة التى تجعل عليها القدر ؛ الواحدة أثفية . والسفع : السود . والمعزس : الموضع الذى فيه المرجل . والمرجل : كل قدر يطبخ فيها من حجارة أو حديد أو خزف أو نحاس . والتوى : حاجز يرفع حول البيت من تراب لئلا يدخل البيت الماء من خارج . وكذم الحوض : حرفة وأصله . ولم يتلم : يعنى التوى قد ذهب أعلاه ولم يتلم ما بقى منه .

أى ناصية أبى جهل كاذبة فى قولها، خاطئة فى فعلها . والخاطى معاقب مأخوذ . والمخطى غير مأخوذ . ^(۱) ووصف الناصية بالكاذبة الخاطئة كوصف الوجوه بالنظر فى قوله تعالى: «إلى ربها ناظرة» ^(۲) . وقيل : أى صاحبها كاذب خاطى ؛ كما يقال : نهار صائم، وليل قائم ؛ أى هو صائم فى نهاره، قائم فى ليله .

قوله تعالى : **فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ** ﴿١٧﴾ **سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ** ﴿١٨﴾

قوله تعالى : **(فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ)** أى أهل مجلسه وعشيرته فليستنصر بهم . **(سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ)** أى الملائكة الغلاظ الشداد - عن ابن عباس وغيره - واحد من زباني ؛ قاله الكسائى . وقال الأخفش : زابن . أبو عبيدة : زبينة . وقيل : زباني . وقيل : هو أسم للجمع ؛ كالأبائيل والعباديد . وقال قتادة : هم الشرط فى كلام العرب . وهو مأخوذ من الزبن وهو الدفع ؛ ومنه المزبنة فى البيع . وقيل : إنما سُموا الزبانية لأنهم يعملون بأرجلهم كما يعملون بأيديهم ؛ حكاه أبو الليث السمرقندى - رحمه الله - قال : وروى فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة وبلغ إلى قوله تعالى : «لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ» قال أبو جهل : أنا أدعو قومي حتى يمنحوا عنى ربك . فقال الله تعالى : «فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ» فلما سمع ذكر الزبانية رجع قزعاً ؛ فقيل له : خشيت منه ! قال : لا ! ولكن رأيت عنده فارساً فهتدنى بالزبانية ، فما أدري ما الزبانية ، ومال إلى الفارس فخشيت منه أن ياكلنى . وفى الأخبار أن الزبانية رموسهم فى السماء وأرجلهم فى الأرض ، فهم يدفعون الكفار فى جهنم . وقيل : إنهم أعظم الملائكة خلقاً ، وأشدهم بطشاً . والعرب تطلق هذا الأسم على من أشتد بطشه . قال الشاعر :

مطاعم فى القصوى مطاعين فى الوغى * زبانية فلب عظام حلوها ^(۳)

(۱) الخاطى : من تمد لما لا يبنى ؛ أى القاصد للذنب . والمخطى : من أراد الصواب فصار إلى غيره .
 (۲) آية ۲۳ سورة القيامة . (۳) هى بيع الرطب فى رموس النخل بالتمر ؛ ونهى عنها لما يقع فيها من العين والجهالة . (۴) فلب : جمع أظب ، وهو التليظ الرقة ، والعرب نصف السادة بلفظ الرقة وطولها . والحلوم : جمع الحليم وهو العقل .

وعن عكرمة عن ابن عباس : « سَدَّعُ الزَّبَانِيَّةُ » قال : قال أبو جهل لئن رأيتُ محمداً يصلي لأطأت على عنقه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لو فعل لأخذته الملائكة عياناً " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . وروى عكرمة عن ابن عباس قال : مر أبو جهل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي عند المقام فقال : ألم أنك عن هذا يا محمد ! فأغظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو جهل : بأى شيء تهددني يا محمد ! والله إنى لأكثر أهل الوادي هذا نادياً ؛ فأنزل الله عز وجل : « فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَدَّعُ الزَّبَانِيَّةُ » . قال ابن عباس : والله لو دعَا نَادِيَهُ لأخذته زبانية العذاب من ساعته . أخرجه الترمذي بمعناه ، وقال : حسن غريب صحيح . والنادى فى كلام العرب : المجلس الذى ينتدى فيه القوم ؛ أى يجتمعون ، والمراد أهل النادى ؛ كما قال جرير :

• لم مجلسٌ صهبُ السبَالِ أذلةٌ^(١) *

وقال زهير :

• وفيهم مقاماتُ حسانٍ وجوههم^(٢) *

وقال آخر :

• وأنتب بحدك يا كليبُ المجلسُ^(٣) *

وقد ناديتُ الرجلُ أناديه إذا جالسه . قال زهير :

وجارُ البيتِ والرجلُ المنادى • أمامَ الحىَّ عقدهما سَواءُ

(١) تمامه : • سواسية أحرارها رميدها •

والبيت لذى الزئمة لا لجرير . و « صهب » : حر . و « السبال » : الشعر الذى عن يمين الشفة العليا وشمالها .

(٢) تمام البيت : • وأندية بنتاجها القول والفعل •

المقامات : المجالس ؛ وإنما سميت المقامات لأن الرجل كان يقوم فى المجلس فيحضر على الخمر ويصلح بين الناس . وأندية : جمع الندى وهو المجلس أيضاً ، وفيه الشاهد .

(٣) هذا مجزيت لمهلل بن أخاه كليباً . وصدرة :

• نبت أن النار بحدك أرفدت •

قوله تعالى : **كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴿١٩﴾

(كَلَّا) أى ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل . (لَا تُطَعُّهُ) أى فيما دعاك إليه من ترك الصلاة . (وَاسْجُدْ) أى صلِّ لله . (وَاقْتَرِبْ) أى تقرب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة . وقيل : المعنى إذا سجدت فأقرب من الله بالدعاء . روى عطاء عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أقرب ما يكون العبد من ربه وأحبه إليه ما كانت جبهته في الأرض ساجدا لله " .

قال علماءونا : وإنما [كان] ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة ، والله غاية العزة ، وله العزة التي لا مقدار لها ، فكما بعدت من صفته قربت من جنته ، ودنوت من جواره في داره . وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أما الركوع فعظموا فيه الرب . وأما السجود فأجتهدوا في الدعاء فإنه ^(١) قن أن يستجاب لكم " . ولقد أحسن من قال :

وإذا تذلت الرقاب تواضعا * منا إليك فيزها في ذلها

وقال زيد بن أسلم : اسجد أنت يا محمد مصليا ، واقرب أنت يا أبا جهل من النار . قوله تعالى : (وَاسْجُدْ) هذا من السجود . يحتمل أن يكون بمعنى السجود في الصلاة ، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة في هذه السورة . قال ابن العربي : « والظاهر أنه بسجود الصلاة ؛ لقوله تعالى : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى . عَبْدًا إِذَا صَلَّى . — إلى قوله — كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ » لولا ما ثبت في الصحيح من رواية مسلم وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال : سجدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في « إذا السماء أنشقت » وفي « اقرأ بأمم ربك الذي خلق » سجدتين ، فكان هذا نصا على أن المراد بسجود التلاوة . وقد روى ابن وهب عن حماد ابن زيد عن عاصم بن بهدلة عن زير بن حبيش عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : عزائم السجود أربع : « ألم » و « حم » . تنزيل من الرحمن الرحيم » و « النجم » و « اقرأ »

(١) يقال : قن وقن بفتح الميم وكمرها والذي بالكسريتين ويجمع كقمين ؛ أى خلق وجدير .

بأسم ربك» . وقال ابن العربي : « وهذا إن صح يلزم عليه السجود الثاني من سورة « الحج » وإن كان مقترناً بالركوع ؛ لأنه يكون معناه أركعوا في موضع الركوع ، وآسجدوا في موضع السجود» . وقد قال ابن نافع ومطرف : وكان مالك يسجد في خاصة نفسه بخاتمة هذه السورة من « اقرأ بأسم ربك » ، وابن وهب يراها من العزائم .

قلت : وقد روينا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن ابن عمر قال : لما أنزل الله تعالى « اقرأ بأسم ربك الذي خلق » قال رسول الله صلى عليه وسلم لمعاذ : « اكتبها يا معاذ » فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون — وهي الدواة — فكتبها معاذ ؛ فلما بلغ « كَلَّا لَا تَطَعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ » سجد اللوح وسجد القلم وسجدت النون وهم يقولون : اللهم أرفع به ذكراً ، اللهم أحطط به وزراً ، اللهم آغفر به ذنباً . قال معاذ : سجدت ، وأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجد .

ختمت السورة . والحمد لله على ما فتح ومنح وأعطى . وله الحمد والمِنَّة .

سورة « القدر »

وهي مدنية في قول أكثر المفسرين ؛ ذكره الثعلبي . وحكى الماوردي عكسه . قلت : وهي مدنية في قول الضحاك وأحد قولي ابن عباس . وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة . وهي خمس آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾

قوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » يعني القرآن وإن لم يجزله ذكر في هذه السورة ؛ لأن المعنى معلوم ، والقرآن كله كالسورة الواحدة . وقد قال : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ »^(١) وقال : « حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ »^(٢) يريد في ليلة القدر . وقال

(١) آية ١٨٥ سورة البقرة . (٢) أول سورة الدخان .

الشَّعْبِيّ : المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر . وقيل : بل نزل به جبريل عليه السلام جملةً واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا إلى بيت العزة ، وأملاه جبريل على السَّفَرَةِ^(١) ثم كان جبريل ينزله على النبي صلى الله عليه وسلم نُجُومًا نُجُومًا^(٢) . وكان بين أوله وآخره ثلاث وعشرون سنة ؛ قاله ابن عباس ، وقد تقدّم في سورة « البقرة » . وحكى الماورديّ عن ابن عباس قال : نزل القرآن في شهر رمضان ، وفي ليلة القدر ، في ليلة مباركة جملةً واحدة من عند الله ، من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرَةِ الكرام الكاتبين في السماء الدنيا ؛ فنجمته السَّفَرَةُ الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة ، ونجمه جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم عشرين سنة . قال ابن العربي : « وهذا باطل ؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة ، ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة » .

قوله تعالى : ﴿ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ قال مجاهد : في ليلة الحكم . ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ قال : ليلة الحكم . والمعنى ليلة التقدير ؛ سُمِّيت بذلك لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره إلى مثلها من السنة القابلة ؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره . ويسلمه إلى مدبرات الأمور ، وهم أربعة من الملائكة : إسرافيل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وجبريل ؛ عليهم السلام . وعن ابن عباس قال : يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت حتى الحاج . قال عكرمة : يكتب حاج بيت الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ما يغادر منهم أحد ولا يزداد فيهم . وقاله سعيد بن جبیر . وقد مضى في أول سورة « الدخان »^(٥) هذا المعنى . وعن ابن عباس أيضا : أن الله تعالى يقضى الأفضية في ليلة نصف شعبان ، ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر . وقيل : إنما سُمِّيت بذلك لعظمتها وقدرها وشرفها ؛ من قولهم : فلان قدر ؛ أي شرف ومنزلة . قاله الزُّهْرِيُّ وغيره . وقيل : سُمِّيت بذلك لأن للطاعات فيها قدرا عظيما وثوابا جزيلا . وقال أبو بكر الوراق :

(١) السَّفَرَةُ : هم الملائكة ؛ جمع سافر . والسافر في الأصل الكاتب ؛ سمي به لأنه يبين الشيء ويوضحه .
(٢) بمعنى جزءا جزءا ، الآية والآيتين . (٣) راجع ج ٢ ص ٢٩٧ طبعة ثانية .
(٤) يريد أنه يظهر ما فضاء في الأزل من الأمور ، لأنه يقدر ابتداء . (٥) راجع ج ١٦ ص ١٢٥

سُمِّيَتْ بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خَطَرٌ بصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحيهاها . وقيل :
سُمِّيَتْ بذلك لأنه أنزل فيها كتابا ذا قدر ، على رسول ذي قدر ، على أمة ذات قدر . وقيل :
لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخطر . وقيل : لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة .
وقال سهل : سُمِّيَتْ بذلك لأن الله تعالى قدر فيها الرحمة على المؤمنين . وقال الخليل : لأن
الأرض تضيق فيها بالملائكة ؛ كقوله تعالى : « وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » أي ضيق .

قوله تعالى : وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ

مَنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾

قال الفراء : كل ما في القرآن من قوله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ » فقد أدراه . وما كان
من قوله : « وما يدريك » فلم يُدِرْه . وقاله سفيان ، وقد تقدم ^(٢) . ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ
أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ بين فضلها وعظمتها . وفضيلةُ الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل .
وفي تلك الليلة يُقَسَمُ الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر . والله أعلم . وقال كثير
من المفسرين : أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . وقال
أبو العالية : ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون فيه ليلة القدر . وقيل : عني بألف
شهر جميع الدهر ؛ لأن العرب تَدْرُكُ الألف في غاية الأشياء ؛ كما قال تعالى : « يَوْمَ أَحَدُهُمْ
لَوْ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ » ^(٣) يعني جميع الدهر . وقيل : إن العابد كان فيما مضى لا يُسَمَّى عابدا
حتى يعبد الله ألف شهر ، ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر ؛ بفعل الله تعالى لأمة محمد صلى الله
عليه وسلم عبادة ليلة خيرا من ألف شهر كانوا يعبدونها . وقال أبو بكر الوراق : كان مُلْكُ
سليان خمسمائة شهر ، ومُلكُ ذي القرنين خمسمائة شهر فصار ملكهما ألف شهر ؛ بفعل الله تعالى
العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيرا من مُلكهما . وقال ابن مسعود : إن النبي صلى الله

(١) آية ٧ سورة الطلاق . (٢) راجع ج ١٨ ص ٢٥٧ ر ج ١٩ ص ٢٤٧ و ص ٣ من هذا الجزء .

(٣) آية ٩٦ سورة البقرة .

عليه وسلم ذكر رجلا من بني إسرائيل ليس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجيب المسلمون من ذلك؛ فنزلت «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» الآية «خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» التي ليس فيها الرجل سلاحه في سبيل الله . ونحوه عن ابن عباس . وهب بن منبه : إن ذلك الرجل كان مسلما، وإن أمه جعلته نذرا لله ، وكان من قرية قوم يعبدون الأصنام ، وكان سكن قريبا منها ؛ فجعل يغزوهم وحده ويقتل ويتسبي ويجاهد، وكان لا يلقاهم إلا بلحى^(١) بعير، وكان إذا قاتلهم وقتلوه وعطش أنفجر له من الحجين ماء عذب فيشرب منه، وكان قد أعطى قوة في البطش لا يوجعه حديد ولا غيره، وكان اسمه شمسون . وقال كعب الأحبار : كان رجلا ملكا في بني إسرائيل فعل خصلة واحدة فأوحى الله إلى نبي زمانهم قل لفلان يمتني . فقال : يا رب آتني أن أجاهد بمالي وولدي ونفسي ؛ فرزقه الله ألف ولد ، فكان يجهز الولد بماله في عسكره ويخرجه مجاهدا في سبيل الله ، فيقوم شهرا ويقتل ذلك الولد ، ثم يجهز آخر في عسكر، فكان كل ولد يقتل في الشهر ، والمملك مع ذلك قائم الليل صائم النهار ؛ فقتل الألف ولد في ألف شهر ، ثم تقدم فقاتل فقتل . فقال الناس : لا أحد يدرك منزلة هذا الملك ؛ فأنزل الله تعالى : «لَيْسَ الْقَدْرُ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» من شهر ذلك الملك في القيام والصيام والجهاد بالمال والنفس والأولاد في سبيل الله . وقال علي وعروة : ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أربعة من بني إسرائيل فقال «عبدوا الله ثمانين سنة لم يعصوه طرفة عين» ؛ فذكر أيوب وزكريا وحزقيل بن المعجوز ويوشع بن نون ؛ فعجيب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك . فاتاه جبريل فقال : يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوا الله طرفة عين ، فقد أنزل الله عليك خيرا من ذلك ؛ ثم قرأ «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» . فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مالك في الموطأ من رواية ابن القاسم وغيره : سمعت

(١) الحى (بفتح اللام وتشديد يدها وسكون الحاء) : عظم الحنك ، وهو الذي عليه الأسنان . وعبارة الطبري في تاريخه (طبع أوربا قسم أول ص ٧٩٤) : «وكان إذا لقيهم لقيهم بلحى بعير ، لا يلقاهم بعيره ؛ فإذا قاتلوه وقتلهم ، ونعب وعطش انفجر له من الحجر الذي في الحى ماء عذب ... الخ» . بأفراد «الحى» في الموضوعين .

(٢) كذا في الأصل ، والمعروف في العربية أن البصريين قالوا : ما كان من العدد مضافا أدخل الألف واللام في آخره فقط ، وأجاز الكوفيون إدخال الألف واللام على الأثر والثاني وعلى ذلك فيقال هنا : ألف الولد والألف الولد .

من أتق به يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى أعمار الأمم قبله فكانت تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر؛ فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيرا من ألف شهر. وفي الترمذى عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى بنى أمية على منبره فساء ذلك؛ فنزلت «إنا أعطيناك الكوثر» يعني نهرا في الجنة. ونزلت «إنا أنزلناه في ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر. ليلة القدر خير من ألف شهر» يملكها بعدك بنو أمية. قال القاسم بن الفضل الحداني: فعدناها فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص يوما. قال: حديث غريب.

قوله تعالى: تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿١٩﴾
 قوله تعالى: ﴿تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي تهبط من كل سماء، ومن سُدْرَةِ الْمُنْتَهَى؛ ومسكن جبريل على وسطها. فينزلون إلى الأرض ويؤمنون على دعاء الناس إلى وقت طلوع الفجر؛ فذلك قوله تعالى: «تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ». ﴿وَالرُّوحُ﴾ أي جبريل عليه السلام. وحكى القشيري: أن الروح صنف من الملائكة، جعلوا حَفَظَةً على سائرهم، وأن الملائكة لا يرونهم كما لا نرى نحن الملائكة. وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة وأقربهم من الله تعالى. وقيل: إنهم جند من جند الله عز وجل من غير الملائكة. رواه مجاهد عن ابن عباس مرفوعا؛ ذكره الماوردي. وحكى القشيري: قيل هم صنف من خلق الله يأكلون الطعام، ولهم أيدي وأرجل؛ وليسوا ملائكة. وقيل: «الروح» خلق عظيم يقوم صفًا، والملائكة كلهم صفًا. وقيل: «الروح» الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة في هذه الليلة على أهلها؛ دليله: «يُنزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ»^(١) أي بالرحمة. ﴿فِيهَا﴾ أي في ليلة القدر. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بأمره. ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي بكل أمرٍ قدره الله وقضاه في تلك السنة إلى قابل؛ قاله ابن عباس؛ كقوله تعالى: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»^(٢) أي بأمر الله. وقراءة العامة «تَنْزِلُ» بفتح التاء؛ إلا أن البرزى

(٢) آية ١١ سورة الرعد.

(١) آية ٢ سورة النحل.

شَدَّدَ النَّاءَ . وقرأ طلحة بن مُصَرِّفٍ وَأَبْنُ السَّمِيعِ بِضَمِّ النَّاءِ عَلَى الْفِعْلِ الْمَجْهُولِ . وقرأ عَلِيٌّ وَأَبْنُ عَبَّاسٍ وَعِكرَمَةُ وَالْكَلْبِيُّ « مِنْ كُلِّ أَمْرِي » . وروى عن ابن عباس أن معناه : من كل ملك ؛ وتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل فيها مع الملائكة فيسلمون على كل أمرى مسلم .
فـ « مِنْ » بمعنى على . وعن أنس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا كان ليلة القدر نزل جبريل في كَبْكَبَةٍ ^(۱) من الملائكة يُصَلُّونَ وَيُسَلِّمُونَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ قَائِمٍ أَوْ قَاعِدٍ يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى " .

قوله تعالى : سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿١٠٠﴾

قيل : إن تمام الكلام « مِنْ كُلِّ أَمْرٍ » ثم قال « سَلَامٌ » رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ نَافِعٍ وَغَيْرِهِ ؛ أَي لَيْلَةَ الْقَدْرِ سَلَامَةٌ وَخَيْرُ كُلِّهَا لَا شَرَّ فِيهَا . (حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) أَي إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ . قَالَ الضَّحَّاكُ : لَا يَقْدِرُ اللَّهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ إِلَّا السَّلَامَةَ ، وَفِي سَائِرِ اللَّيَالِي يَقْضَى بِالْبَلَايَا وَالسَّلَامَةَ . وَقِيلَ : أَي هِيَ سَلَامٌ ؛ أَي ذَاتُ سَلَامَةٍ مِنْ أَنْ يُوَثِّرَ فِيهَا شَيْطَانٌ فِي مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ . وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ : هِيَ لَيْلَةٌ سَالِمَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا سُوءًا وَلَا أَدَى . وَرَوَى مَرْفُوعًا . وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : هُوَ تَسْلِيمُ الْمَلَائِكَةِ عَلَى أَهْلِ الْمَسَاجِدِ مِنْ حِينَ تَغِيْبِ الشَّمْسِ إِلَى أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ ؛ يَمْرُونَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَيَقُولُونَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ . وَقِيلَ : يَعْنِي سَلَامَ الْمَلَائِكَةِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِيهَا . وَقَالَ قَتَادَةُ : « سَلَامٌ هِيَ » خَيْرٌ هِيَ . « حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » أَي إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ . وَقَرَأَ الْكَسَائِيُّ وَأَبْنُ مُحَيْصِنٌ « مَطْلَعِ » بِكَسْرِ اللَّامِ ، الْبَاقُونَ بِالْفَتْحِ . وَالْفَتْحُ وَالْكَسْرُ لَفْتَانٌ فِي الْمَصْدَرِ . وَالْفَتْحُ الْأَصْلُ فِي فَعَلٍ يَفْعُلُ ؛ نَحْوُ الْمَقْتُلِ وَالْمَخْرَجِ . وَالْكَسْرُ عَلَى أَنَّهُ مِمَّا شَدَّ عَنْ قِيَاسِهِ ؛ نَحْوُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَالْمَنْبِتِ وَالْمَسْكِنِ وَالْمَنْسِكِ وَالْمَحْشِرِ وَالْمَسْقِطِ وَالْمَجْزِرِ . حُكِيَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ الْفَتْحُ وَالْكَسْرُ ؛ عَلَى أَنْ يَرَادَ بِهِ الْمَصْدَرُ لَا الْأَسْمَ .

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى — في تعيين ليلة القدر؛ وقد اختلف العلماء في ذلك . والذي عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين ؛ لحديث زر بن حبیش قال قلت لأبي بن كعب : إن أخاك عبد الله

(۱) الكَبْكَبَةُ (بالفتح) : الجماعة المنضامة من النامس وغيرهم .

أبن مسعود يقول : مَنْ يَقُمُ الْحَوْلَ يُصِيبُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ . فقال : يَغْفِرُ اللَّهُ لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ! لقد عَلِمَ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَلَّا يَتَكَلَّمَ النَّاسُ ، ثُمَّ حَلَفَ لَا يَسْتَتِنِي أَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ . قال قلت : بأى شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال : بِالآيَةِ الَّتِي أَخْبَرْنَا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَوْ بِالْعَلَامَةِ أَنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ يَوْمَئِذٍ لِشُعَاعِهَا . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وخرجه مسلم . وقيل : هي في شهر رمضان دون سائر العام ، قاله أبو هريرة وغيره . وقيل : هي في ليالي السنة كلها . فمن عَلَّقَ طَلَّاقَ أَمْرَاتِهِ أَوْ عَتَقَ عَبْدَهُ بَلِيلَةَ الْقَدْرِ لَمْ يَقَعْ الْعِتْقُ وَالطَّلَاقُ إِلَّا بَعْدَ مَضَى سَنَةٍ مِنْ يَوْمِ حَلْفِهِ . لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك ولم يثبت اختصاصها بوقت ، فلا ينبغي وقوع الطلاق إلا بمضى حول ، وكذلك العتق ، وما كان مثله من يمين أو غيره . وقال ابن مسعود : مَنْ يَقُمُ الْحَوْلَ يُصِيبُهَا ، فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنُ عَمْرِو فَقَالَ : يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ! أَمَا إِنَّهُ عَلِمَ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَلَّا يَتَكَلَّمَ النَّاسُ . وإلى هذا القول ذهب أبو حنيفة أنها في جميع السنة . وقيل عنه : إنها رفعت - يعنى ليلة القدر - وأنها إنما كانت مرة واحدة ، والصحيح أنها باقية . وروى عن ابن مسعود أيضا : أنها إذا كانت في يوم من هذه السنة كانت في العام المقبل في يوم آخر . والجمهور على أنها في كل عام من رمضان . ثم قيل : إنها الليلة الأولى من الشهر ، قاله أبو رزین العقيلي . وقال الحسن وأبن إسحاق وعبد الله بن الزبير : هي ليلة سبع عشرة من رمضان ، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر . كأنهم زعموا بقوله تعالى : « وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيهِ الْجَمْعَانِ » (٢) وكان ذلك ليلة سبع عشرة ، وقيل هي ليلة التاسع عشر . والصحيح المشهور أنها في العشر الأواخر من رمضان ، وهو قول مالك والشافعي والأوزاعي وأبن ثور وأحمد . ثم قال قوم : هي ليلة الحادى والعشرين . ومال إليه الشافعي رضى الله عنه ، لحديث الماء والطين ،

(١) أى جزم فى حلقه بلا استثناء فيه ؛ بأن يقول عقب يمينه إن شاء الله .

(٢) آية ٤١ سورة الأنفال .

ورواه أبو سعيد الخُدْرِيّ^(١) - خرجهُ مالكٌ وُضِيه . وقيل ليلة الثالث والعشرين ؛ لما رواه ابن عمر أن رجلاً قال : يا رسول الله إني رأيت ليلة القدر في سابعة تبقى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أرى رؤياكم قد توأطأت على ثلاث وعشرين فمن أراد أن يقوم من الشهر شيئاً فليقم ليلة ثلاث وعشرين" . قال معمر : فكان أيوب يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمسّ طيباً . وفي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إني رأيت أني أمجد في صبيحتها في ماء وطين" قال عبد الله بن أنيس : فرأيتُه في صبيحة ليلة ثلاث وعشرين في الماء والطين كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : ليلة خمس وعشرين ؛ لحديث أبي سعيد الخُدْرِيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "التمسوها في العشر الأواخر في تسعة تبقى في سابعة تبقى في خامسة تبقى" رواه مسلم ، قال مالك : يريد بالتسعة ليلة إحدى وعشرين والسابعة ليلة ثلاث وعشرين ، والخامسة ليلة خمس وعشرين . وقيل : ليلة سبع وعشرين . وقد مضى دليله ، وهو قول علي رضي الله عنه وعائشة ومعاوية وأبي بن كعب . وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كان متحرراً ليلة القدر فليتحزها ليلة سبع وعشرين" . وقال أبي بن كعب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ليلة القدر ليلة سبع وعشرين" . وقال أبو بكر الوراق : إن الله تعالى قسم ليالي هذا الشهر - شهر رمضان - على كلمات هذه السورة ، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال هي . وأيضاً فإن ليلة القدر كرر ذكرها ثلاث مرات ، وهي تسعة أحرف ، فتجىء سبعة وعشرين . وقيل : هي ليلة تسع وعشرين ؛ لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ليلة القدر التاسعة

(١) لفظ الحديث كما رواه مالك في الموطأ : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الوسط من رمضان ، فاعتكف عاماً حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهي الليلة التي يخرج فيها من صبحها من اعتكافه قال : "من كان اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر وقد أريت هذه الليلة ثم أنسيتها وقد رأيتني أمجد من صبحها في ماء وطين فالتمسوها في العشر الأواخر والتمسوها في كل وتر" قال أبو سعيد : فأمرت السماء تلك الليلة ، وكان المسجد على عريش فوقك المسجد (قَطْر) قال أبو سعيد : فأبصرت عيناى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف وعمل جبينه وأنفه أثر الماء والطين من صبح ليلة إحدى وعشرين » .

والعشرون - أو السابعة والعشرون - وأن الملائكة في تلك الليلة بعدد الحصى، وقد قيل: إنها في الأشفاق. قال الحسن: ارتقت الشمس ليلة أربع وعشرين وعشرين سنة فرأيتها تطلع بيضاء لا شعاع لها. يعني من كثرة الأنوار في تلك الليلة. وقيل إنها مستورة في جميع السنة؛ ليجتهد المرء في إحياء جميع الليالي، وقيل: أخفاها في جميع شهر رمضان، ليجتهدوا في العمل والعبادة ليالي شهر رمضان طمعاً في إدراكها؛ كما أخفى الصلاة الوسطى في الصلوات، وأسمه الأَعْظَم في أسمائه الحسنى، وساعة الإجابة في ساعات الجمعة وساعات الليل، وغَضَبَه في المعاصي ورضاه في الطاعات، وقيام الساعة في الأوقات، والعباد الصالح بين العباد، رحمة منه وحكمة.

الثانية - في علاماتها: منها أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها. وقال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر: "إن من أماراتها أنها ليلة سَمْحَةٌ بَلْجَةٌ لا حازة ولا باردة تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع". وقال عبيد بن عمير: كنت ليلة السابع والعشرين في البحر فأخذت من مائه فوجدته عذباً سَلِساً.

الثالثة - في فضائلها. وحسبك بقوله تعالى: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ». وقوله تعالى: «تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا». وفي الصحيحين: "من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه". رواه أبو هريرة. وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة الذين هم سُكَّانُ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى منهم جبريل ومعهم أَلْوِيَّةٌ ينصب منها لواء على قبري ولواء على بيت المقدس ولواء على المسجد الحرام ولواء على طور سيناء ولا تدع فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلا تُسَلِّمَ عليه إلا مُدْمِنَ الخمر وَاكْلَ الخنزير والمتضمخ بالزعفران". وفي الحديث: "إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يضيء بفرها ولا يستطيع أن يصيب فيها أحداً بخبل ولا شيء من الفساد ولا ينفذ فيها سحر سحر". وقال الشعبي: "وليها كيومها، ويومها كليلها". وقال الفراء: لا يقدر الله في ليلة القدر إلا السعادة والنعم، ويُقَرَّرُ في غيرها البلياء والنقم؛ وقد تقدم عن الضحاك. ومثله لا يقال من جهة الرأي فهو

مرفوع . والله أعلم . وقال سعيد بن المسيب في الموطأ : ^(١) [من شهد العشاء من ليلة القدر فقد أخذ بحظه منها] ومثله لا يدرك بالرأى . وقد روى عبد الله بن عامر بن ربيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر في جماعة ^(٢) فقد أخذ بحظه من ليلة القدر " ذكره الثعلبي في تفسيره . وقالت عائشة رضي الله عنها قلت : يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فما أقول ؟ قال : " قولي اللهم إنك عفوٌ تُحِبُّ العَفْوَ فَاَعْفُ عني " .

تفسير سورة « لم يكن »

وهي مكية ، في قول يحيى بن سلام ، ومدنية ، في قول ابن عباس والجمهور . وهي تسع آيات ^(٣) . وقد جاء في فضلها حديث لا يصح ، رويناه عن محمد بن عبد الله الحضرمي قال قال لي أبو عبد الرحمن بن ثُمير : اذهب إلى أبي الهيثم الخشاب فأكتب عنه فإنه قد كتب ، فذهبت إليه فقال : حدثنا مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو يعلم الناس ما في [لم يكن] الذين كفروا من أهل الكتاب لعطلوا الأهل والمسال فتعلموها " فقال رجل من خزاعة : وما فيها من الأجر يا رسول الله ؟ قال : " لا يقرؤها منافق أبداً ولا عبدٌ في قلبه شكٌ في الله . والله إن الملائكة المقربين يقرءونها منذ خلق الله السموات والأرض ما يفتنون من قراءتها . وما من عبد يقرؤها إلا بعث الله إليه ملائكة يحفظونه من دينه ودنياه وبدعون له بالمفخرة والرحمة " . قال الحضرمي : بحثت إلى أبي عبد الرحمن بن ثُمير فالتقيتُ هذا الحديث عليه فقال : هذا

(١) ما بين المربعين زيادة من الموطأ . (٢) الذي في نسخة تفسير الثعلبي التي بين أيدينا : " من صلى المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر فقد أخذ ... " الحديث . ولم يذكر : « في جماعة » . (٣) في مصاحفنا : « ثمان آيات » . وفي تفسير الأعمش : « وآياتها تسع في البصري وثمان في غيره » . (٤) في بعض نسخ الأصل : « قبل خلق السموات ... » .

قد كفانا مؤنته فلا تعدُّ إليه . قال ابن العربي : « روى إسحاق بن بشر الكاهلي عن مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد عن ابن المسيب عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لو يعلم الناس ما في [لم يكن] الذين كفروا لعطلوا الأهل والمال ولتعلموها » . وهذا حديث باطل ؛ وإنما الحديث الصحيح ما روى عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك « لم يكن الذين كفروا » » قال : وسماني لك ! ؟ قال « نعم » فبكي .

قلت : نرجه البخاري ومسلم . وفيه من الفقه قراءة العالم على المتعلم . قال بعضهم : إنما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على أبي ليلى الناس التواضع ؛ لئلا يأنف أحدٌ من التعلم والقراءة على من دونه في المنزلة . وقيل : لأن أبا كان أسرع أخذاً لألفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأراد بقراءته عليه أن يأخذ أفاضله ويقراً كما سمع منه ويعلم غيره . وفيه فضيلة عظيمة لأبي ؛ إذ أمر الله رسوله أن يقرأ عليه . قال أبو بكر الأنباري : وحدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال حدثنا علي بن الجعد قال حدثنا عكرمة عن عاصم عن زر بن حبيش قال : في قراءة أبي بن كعب : « آدم لو أعطى وادياً من مال لأتمس ثانياً ولو أعطى واديين من مال لأتمس ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب . قال عكرمة : قرأ على عاصم « لم يكن » ثلاثين آية هذا فيها . قال أبو بكر : هذا باطل عند أهل العلم ؛ لأن قراءة ابن كثير وأبي عمرو متصلتان بأبي بن كعب ، لا يقرأ فيهما هذا المذكور في « لم يكن » مما هو معروف في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه من كلام الرسول عليه السلام لا يحكيه عن رب العالمين في القرآن . وما رواه اثنان معهما الإجماع أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى : (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا) كذا قراءة العامة وخط المصحف . وقرا ابن مسعود « لم يكن المشركون وأهل الكتاب مُنْفَكِينَ » وهذه قراءة على التفسير . قال ابن العربي : « وهي جائزة في معرض البيان لا في معرض التلاوة ؛ فقد قرأ النبي صلى الله عليه وسلم في رواية الصحيح « فَطَلَّقُوهُنَّ لِقَبْلِ عِدَّتَيْنِ » وهو تفسير ؛ فإن التلاوة هو ما كان في خط المصحف » .

قوله تعالى : (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) يعنى اليهود والنصارى . (وَالْمُشْرِكِينَ) في موضع جر عطفاً على « أهل الكتاب » . قال ابن عباس : « أهل الكتاب » اليهود الذين كانوا بيثرب ، وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع . والمشركون : الذين كانوا بمكة وحوطها ، والمدينة والذين حوطها ؛ وهم مشركو قريش . (مُنْفَكِينَ) أى منتهين عن كفرهم مائلين عنه . (حَتَّى تَأْتِيَهُمُ) أى أتتهم البينة ؛ أى عهد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الانتهاء بلوغ الغاية ؛ أى لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم فموتوا حتى تأتيهم البينة . فالأنفكك على هذا بمعنى الانتهاء . وقيل : « منفكين » زائلين ؛ أى لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول . والعرب تقول : ما أنفككُ أفعل كذا ؛ أى ما زلت . وما أنفك فلان قائماً ؛ أى ما زال قائماً . وأصل الفك الفتح ؛ ومنه فك الكتاب ، وفك الخلع ، وفك السالم . قال طرفة :
فَأَلَيْتُ لَا يَنْفِكُ كَشْحِي بَطَانَةً • لِعَضْبِ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مَهْنَدٍ^(١)

(١) كذا في بعض نسخ الأصل . وفي بعضها : « فك السالم وهى » قال طرفة . « بياض بعد » وهى .
وفي تفسير الثعلبي : « فك السالم وهى حروف الفطن قال طرفة » . ولم يند لوجه الصواب فيه . (٢) الكشح : الجنب .
والعضب : السيف القاطع . ومهند : أى مشهد ؛ والمهند : المشيد . ويقال : سيف مهند إذا عمل ببلاد الهند .

وقال ذو الرمة :

حراجيج ما تنفك إلا مُناخَةً * على الخسف أو نرْمِي به بلداً قَفْرًا^(١)

يريد : ما تنفك مُناخَةً ؛ فزاد « إلا » . وقيل : « مُنْفَكِّين » بارحين ؛ أى لم يكونوا ليرحوا ، ويفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البيئة . وقال ابن كيسان : أى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتابهم حتى يُبعث ؛ فلما بعث حسدوه وجمدوه . وهو كقوله : « قَلَمًا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » . ولهذا قال : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » الآية . وعلى هذا فقوله : « والمشركون » أى ما كانوا يسيئون القول في محمد صلى الله عليه وسلم حتى بُعث ؛ فإنهم كانوا يسمونه الأمين ، حتى أتتهم البيئة على لسانه وبعث إليهم فيئذ عادوه . وقال بعض اللغويين : « منفكين » هالكين ؛ من قولهم : انفك صلاً^(٢) المرأة عند الولادة ؛ وهو أن ينفصل فلا يلتئم قتهلك . المعنى : لم يكونوا معديين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب . وقال قوم في المشركون : إنهم من أهل الكتاب ؛ فمن اليهود من قال : عزير بن الله . ومن النصارى من قال : عيسى هو الله . ومنهم من قال : هو أبنه . ومنهم من قال : ثالث ثلاثة . وقيل : أهل الكتاب كانوا مؤمنين ثم كفروا بعد أنبيائهم . والمشركون ولِدُوا على الفِطْرَةِ فكفروا حين بلغوا . فلهذا قال : « والمشركون » . وقيل : المشركون وصف أهل الكتاب أيضا ، لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم وتركوا التوحيد . فالنصارى مُثَلَّثَةٌ ، وعامة اليهود مُشَبَّهَةٌ ، والكل شِرْكٌ ، وهو كقولك : جاءني العقلاء والظرفاء ؛ وأنت تريد أقواما بأعيانهم تصفهم بالأمرين . فالمعنى : من أهل الكتاب المشركين . وقيل : إن الكفر هنا هو الكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى لم يكن الذين كفروا بمحمد من اليهود والنصارى الذين هم من الكتاب ، ولم يكن المشركون الذين هم عبدة

(١) الحراجيج (جمع حرجوج) : ونى الناقة الطويلة الضامرة . والخسف : أن تبيت على غير علف . يقول :

ما تنفصل من بلد إلى بلد إلا مناخة على الخسف . (٢) آية ٨٩ سورة البقرة .

(٣) الصلا : وسط الظهر من الإنسان ومن كل ذى أربع . وقيل : هو ما انحدر من الوركين . وقيل :

هو ما عن يمين الذئب وشماله .

الأوثان من العرب وغيرهم — وهم الذين ليس لهم كتاب — متفكين . قال القشيري :
 وفيه بُسَدٌ ؛ لأن الظاهر من قوله : « حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ . رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ » إن هذا الرسول
 هو محمد صلى الله عليه وسلم . فيبعد أن يقال : لم يكن الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم
 متفكين حتى يأتهم محمد ؛ إلا أن يقال : أراد لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد وإن كانوا
 من قبل معظمين له فنتهين عن هذا الكفر إلى أن يبعث الله محمدا إليهم ويبين لهم الآيات ؛
 فينثذ يؤمن قوم . وقرأ الأعمش وإبراهيم « والمشركون » رفعا ، عطفًا على « الذين » .
 والقراءة الأولى أبين ؛ لأن الرفع بصير فيه الصنفان كأنهم من غير أهل الكتاب . وفي حرف
 أُبَيٍّ : « فَا كَانَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ » . وفي مصحف
 ابن مسعود : « لم يكن المشركون وأهل الكتاب متفكين » . وقد تقدم . (حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
 الْبَيِّنَةُ) قيل حتى أتتهم . والبينة : محمد صلى الله عليه وسلم . (رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ) أى بعث
 من الله جل ثناؤه . قال الزجاج : « رسول » رفع على البدل من « البينة » . وقال الفراء :
 أى هى رسول من الله ، أو هو رسول من الله ؛ لأن البينة قد تذكّر فيقال : بيّنى فلان .
 وفي حرف أُبَيٍّ وابن مسعود « رسولاً » بالنصب على القطع . (يَتْلُوا) أى يقرأ . يقال :
 تلا يتلو تلاوةً . (مُّحْفًا) جمع صحيفة وهى ظرف المكتوب . (مُّطَهَّرَةً) قال ابن عباس :
 من الزور والشك والنفاق والضلالة . وقال قتادة : من الباطل . وقيل : من الكذب
 والشبهات والكفر ؛ والمعنى واحد . أى يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب ؛ ويدل
 عليه أنه كان يتلو عن ظهر قلبه لاعتن كتاب ؛ لأنه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ . و « مطهرة »
 من نعت الصحف ؛ وهو كقوله تعالى : « فِي مِصْحَفٍ مُّكْرَمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ » فالمطهرة
 نعت للصحف فى الظاهر ، وهى نعت لما فى الصحف من القرآن . وقيل : « مطهرة » أى
 يبنى ألا يمسها إلا المطهرون ؛ كما قال فى سورة « الواقعة » حسب ما تقدم بيانه . وقيل :
 الصحف المطهرة هى التى عند الله فى أم الكتاب الذى منه نسخ ما أنزل على الأنبياء من

(٢) راجع ج ١٧ ص ٢٢٥ فابعدا .

(١) آية ١٣ سورة عبس .

الكتب؛ كما قال تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » . قال الحسن : يعنى الصحف المطهرة فى السماء . (فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ) أى مستقيمة مستوية مُحْكَمَةٌ ؛ من قول العرب : قام يقوم إذا استوى وصح . وقال بعض أهل العلم : الصحف هى الكتب ؛ فكيف قال فى صحف فيها كتب ؟ فالجواب : أن الكتب هنا بمعنى الأحكام ؛ قال الله عز وجل : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلِينَ » بمعنى حكم . وقال صل الله عليه وسلم : « والله لأقضين بينكما بكتاب الله » ثم قضى بالرجم ، وليس ذكر الرجم مطوراً فى الكتاب ؛ فالمنى لأقضين بينكما بحكم الله تعالى . وقال الشاعر :

وما الولاء بالبلاء فلمم • وما فالد قال الله إذ هو يكتب

وقيل : الكتب القِيَمَةُ هى القرآن ؛ بفعله كُتِبَ لأنه يشتمل على أنواع من البيان .

قوله تعالى : وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾

قوله تعالى : (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) أى من اليهود والنصارى ؛ خص أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم وإن كانوا مجموعين مع الكافرين ؛ لأنهم مظنون بهم لم ؛ فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف . (إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ) أى أتتهم البينة الواضحة . والمعنى به عهد صل الله عليه وسلم ؛ أى بالقرآن موافقاً لما فى أيديهم من الكتاب بنعته وصفته . وذلك أنهم كانوا جنميين على نبوته ؛ فلما بُعِثَ بِحَدِّوا نبوته وتفرقوا ، فمنهم من كفر بغيّاً وحَسَدًا ، ومنهم من آمن ؛ كقوله تعالى : « وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنَبِيِّهِمْ » . وقيل : « البينة » البيان الذى فى كتبهم أنه نبي مرسل . قال العلماء : من أول السورة إلى قوله « قِيَمَةٌ » حُكْمُهَا فِيمَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ . وقوله : « وما تفرق » حكاه فِيمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجُجِ .

(١) آخر سورة البروج . (٢) آية ٢١ سورة المجادلة . (٣) كتاب الأصل ، ولم تقف على هذا البيت فيما لدينا من المراجع ، ولعل صوابه : « وما الولاية بالعلم... الخ » . (٤) آية ١٤ - سورة الشورى .

قوله تعالى : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥٥﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (وَمَا أُمِرُوا) أى وما أمر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل (إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ) أى لِيُوحِّدُوهُ . واللام في « لِيَعْبُدُوا » بمعنى « أن » ؛ كقوله : « يَرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ » (١) أى أن يبين . و « يَرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ » (٢) و « أَمَرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » . وفي حرف عبد الله : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ » (٣) (مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) أى العبادة ؛ ومنه قوله تعالى : « قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ » (٤) . وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات ؛ فإن الإخلاص من عمل القلب ، وهو الذي يراد به وجه الله تعالى لا غيره .

الثانية - قوله تعالى : (حُنَفَاءَ) أى مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام . وكان ابن عباس يقول : حنفاء على دين إبراهيم عليه السلام . وقيل : الحنيف من أختن وحج ؛ قاله سعيد بن جبيرة . قال أهل اللغة : وأصله أنه تحنّف إلى الإسلام ؛ أى مال إليه .
الثالثة - قوله تعالى : (وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ) أى بمحدودها في أوقاتها . (وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ) أى يعطوها عند محلها . (وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ) أى ذلك الدين الذي أمروا به دين القِيَمَةِ ؛ أى الدين المستقيم . وقال الزجاج : أى ذلك دين المِلَّةِ المستقيمة . و« القِيَمَةُ » نعت لموصوف محذوف . أو يقال : دين الأمة القِيَمَةُ بالحق ؛ أى القائمة بالحق . وفي حرف عبد الله « وذلك الدين القيم » . قال الخليل : « القِيَمَةُ » جمع القِيمِ ، والقِيمُ والقائم واحد . وقال الفراء : أضاف الدين إلى القِيَمَةِ وهو نعته لاختلاف اللفظين . وعنه أيضا : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، ودخلت الهاء للدح والمبالغة . وقيل : الهاء راجعة إلى المِلَّةِ أو الشريعة . وقال محمد بن الأشعث الطائفي : « القِيَمَةُ » هاهنا الكتب التي جرى ذكرها ، والدين مضاف إليها .

(١) آية ٢٦ سورة النساء . (٢) آية ٨ سورة الصف . (٣) آية ٧١ سورة الأنعام . (٤) آية ١١ سورة الزمر .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ** ﴿٥٦﴾ **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ)** «المشركين» معطوف على «الذين»، أو يكون مجرورا معطوفا على «أهل». **(فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)** قرأ نافع وابن ذكوان بالهمز على الأصل في الموضعين؛ من قولهم : برأ الله الخلق، وهو البارئ الخالق، وقال : **«مِنْ قَبْلِ أَنْ تَبْرَأَهَا»**^(١). الباقون بغير همز وشد الياء عوضا منه. قال الفراء : إن أخذت البرية من البرى وهو التراب فأصله غير الهمز؛ تقول منه : براه الله يبروه بَرَّوًا؛ أي خلقه. قال القشيري : ومن قال البرية من البرى وهو التراب قال : لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة. وقيل : البرية من برت القلم أي قدرته؛ فتدخل فيه الملائكة. ولكنه قول ضعيف؛ لأنه يجب منه تخطئة من همز. وقوله «شَرُّ الْبَرِيَّةِ» أي شر الخليفة. فقيل يحتمل أن يكون على التعميم. وقال قوم : أي هم شر البرية الذين كانوا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى : **«وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ»**^(٢) أي على عالمي زمانكم. ولا يبعد أن يكون في كفار الأمم قبل هذا من هو شر منهم؛ مثل فرعون وعافر ناقة صالح. وكذا «خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» إما على التعميم. أو خير برية عصرهم. وقد استدل بقراءة الهمز من فضل بن آدم على الملائكة. وقد مضى في سورة «البقرة» القول فيه^(٣). وقال أبو هريرة رضى الله عنه : المؤمن أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة الذين عنده.

(١) آية ٢٣ سورة الحديد . (٢) آية ٤٧ سورة البقرة .

(٣) راجع ج ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أورثاثة .

قوله تعالى : جَزَاءُ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ
خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

قوله تعالى : (جَزَاءُ لَهُمْ) أى ثوابهم . (عِنْدَ رَبِّهِمْ) أى خالقهم ومالكهم . (جَنَّاتُ)
أى بساتين . (عَدْنٍ) أى إقامة . والمفسرون يقولون : « جَنَّاتُ عَدْنٍ » بطنان الجنة أى
وسطها ؛ تقول : عَدَنَ بِالْمَكَانِ يَعْدِنُ [عَدْنًا و] عُدُونَا أَقَامَ . ومَعْدِنُ الشَّيْءُ : مَرَكْرَهُ
ومستقره . قال الأعشى :

وإِن يَسْتَضَافُوا إِلَى حِكْمِهِ * يَضَافُوا إِلَى رَاحِ قَدِّ عَدْنٍ

(تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا) أى تحتها الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (لَا يَطْعَنُونَ وَلَا يَمُوتُونَ) (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) أى
رَضِيَ أَعْمَالَهُمْ ؛ كَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . (وَرَضُوا عَنْهُ) أى رَضُوا هُمْ بِثَوَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .
(ذَلِكَ) أى الجنة . (لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) أى خَافَ رَبَّهُ فَتَنَاهَى عَنِ الْمَعَاصِي .

سورة « الزلزلة »

مَدَنِيَّةٌ ؛ فِي قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ . وَمَكِّيَّةٌ ؛ فِي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَعَطَاءٍ وَجَابِرٍ .
وهي تسع آيات^(١)

قال العلماء : وهذه السورة فضلها كثير وتحتوي على عظيم . روى الترمذي عن أنس بن
مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ « إذا زلزلت » عدلت له بنصف
القرآن . ومن قرأ « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » عدلت له بربع القرآن ومن قرأ « قُلْ هُوَ اللَّهُ
أَحَدٌ » عدلت له بثلاث القرآن " . قال : حديث غريب ، وفي الباب عن ابن عباس . وروى
عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ إذا زلزلت أربع
مرات كان كمن قرأ القرآن كله " . وروى عبيد الله بن عمرو بن العاص قال : لما نزلت
« إذا زلزلت » بكى أبو بكر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لولا أنكم تُحْطُونَ وتُذُنِبُونَ
ويغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم " .

(١) في حاشية الشهاب : « آيات تسع أو ثمان » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾

أى حُرِّكَتْ مِنْ أَصْلِهَا . كَذَا رَوَى عِكْرَمَةُ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ ، وَكَانَ يَقُولُ : فِي النَّفْخَةِ الْأُولَى يَزْلُزِلُهَا - وَقَالَ مُجَاهِدٌ - ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ^(١) » ثُمَّ تَزْلُزَلُ نَائِبَةً فَتُخْرَجُ مَوْتَاهَا وَهِيَ الْأَثْقَالُ . وَذُكِرَ الْمَصْدَرُ لِلتَّأَكِيدِ ثُمَّ أُضِيفَ إِلَى الْأَرْضِ ؛ كَقَوْلِكَ : لِأَعْطَيْتَكَ عَطِيَّتَكَ ؛ أَيْ عَطَيْتِي لَكَ . وَحَسُنَ ذَلِكَ لِمُوَافَقَةِ رِئُوسِ الْآيِ بِعَدِّهَا . وَقِرَاءَةُ الْعَامَّةِ بِكَسْرِ الزَّايِ مِنَ الزَّلْزَالِ . وَقَرَأَ الْجَمَّادِيُّ وَعَيْسَى بْنُ عَمَرَ بِفَتْحِهَا . وَهُوَ مَصْدَرٌ أَيْضًا كَالْوَسْوَاسِ وَالْقَلْقَالِ وَالْجَرَّجَارِ . وَقِيلَ : الْكَسْرُ الْمَصْدَرُ . وَالْفَتْحُ الْأَسْمُ .

قوله تعالى : وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْأَخْفَشُ : إِذَا كَانَ الْمَيْتُ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ فَهُوَ ثَقِيلٌ لَهَا . وَإِذَا كَانَ فَوْقَهَا فَهُوَ ثَقِيلٌ عَلَيْهَا . وَقَالَ أَبُو عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ : « أَثْقَالَهَا » مَوْتَاهَا تُخْرِجُهُمْ فِي النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ ؛ وَمِنْهُ قِيلَ لِلْبَنِّ وَالْإِنْسِ : الثَّقْلَانُ . وَقَالَتِ الْخَنُزَاءُ :

أَبْعَدَ ابْنِ عَمْرٍو مِنْ آلِ الشَّرِّ * يَدِ حَلَّتْ بِهِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا

تَقُولُ : لَمَّا دُفِنَ عَمْرٍو صَارَ حَلِيَّةً لِأَهْلِ الْقُبُورِ مِنْ شَرِّهِ وَسُؤْدَدِهِ . وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ قَالَ : كَانَتِ الْعَرَبُ تَقُولُ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ سَفَاكَ الدَّمَاءِ : كَانَ ثِقَلًا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ ؛ فَلَمَّا مَاتَ حَطَّتِ الْأَرْضُ عَنْ ظَهْرِهَا ثِقَلًا . وَقِيلَ : « أَثْقَالَهَا » كَنُوزِهَا ؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ : « تَقَى الْأَرْضُ أَفْلَادَ كَيْدِهَا أَمْثَالَ الْأَسْطُوانِ ^(٣) مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ... » .

(١) آية ٦ سورة النازعات .

(٢) القلقال : من قلقل الشيء إذا حركه . والجرجار : من جرجر البعير إذا ردد صوتة في حنجرته .

(٣) الأسطوان : جمع أسطوانة ، وهي السارية والعمود ؛ وشبهه بالأسطوان لظلمه وكثرته .

قوله تعالى : وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الْإِنْسَانُ) أى ابن آدم الكافر . فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هو الأسود بن عبد الأسد . وقيل : أراد كل إنسان يشاهد ذلك عند قيام الساعة فى النفخة الأولى من مؤمن وكافر . وهذا قول من جعلها فى الدنيا من أشرط الساعة ؛ لأنهم لا يعلمون جميعاً من أشرط الساعة فى ابتداء أمرها حتى يتحققوا عمومها ؛ فلذلك سأل بعضهم بعضها عنها . وعلى قول من قال : إن المراد بالإنسان الكفار خاصة جعلها زلزلة القيامة ؛ لأن المؤمن معترف بها ، فهو لا يسأل عنها ، والكافر جاحد لها فلذلك يسأل عنها . ومعنى (مَا لَهَا) أى ما لها زلزلت . وقيل : ما لها أخرجت أثقالها ، وهى كلمة تعجيب ؛ أى لآى شىء زلزلت . ويجوز أن يحى الله الموتى بعد وقوع النفخة الأولى ، ثم تحرك الأرض فتخرج الموتى وقد رأوا الزلزلة وانشقاق الأرض عن الموتى أحياء فيقولون من الهول ما لها .

قوله تعالى : يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٣١﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٣٢﴾

يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) « يَوْمَئِذٍ » منصوب بقوله « إِذَا زُلْزِلَتْ » . وقيل : بقوله « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » ؛ أى تخبر الأرض بما عمل عليها من خير أو شر يومئذ . ثم قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : من قول الإنسان ؛ أى يقول الإنسان ما لها تحدث أخبارها ؛ متعجباً . وفى الترمذى عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » قال : « أتدرون ما أخبارها — قالوا الله ورسوله أعلم قال — فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا وكذا وكذا — قال — فهذه أخبارها » . قال : هذا حديث حسن صحيح . قال الماوردى : قوله « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » فيه ثلاثة أفاويل :

أحدها — « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا » بأعمال العباد على ظهرها ؛ قاله أبو هريرة ورواه مرفوعاً . وهو قول من زعم أنها زلزلة القيامة .

الثاني - تحدث أخبارها بما أخرجت من أنقلاها؛ قاله يحيى بن سلام . وهو قول من زعم أنها زلزلة أشرط الساعة .

قلت : وفي هذا المعنى حديث رواه ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا كان أجل العبد بأرض أو ثبتته الحاجة إليها حتى إذا بلغ أقصى أثره قبضه الله فنقول الأرض يوم القيامة رب هذا ما أستودعتني " أخرجه ابن ماجه في سننه . وقد تقدم^(١) .

الثالث - أنها تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لها ؛ قاله ابن مسعود . فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى . فيكون ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم ، ووعيداً للكافر، وإنذاراً للمؤمن . وفي حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل :

أحدها - أن الله تعالى يقبلها حيواناً ناطقاً؛ فتتكم بذلك .

الثاني - أن الله تعالى يتحدث فيها الكلام .

الثالث - أنه يكون منها بيان يقوم مقام الكلام . قال الطبري : تبين أخبارها بالرجة والزلزلة وإخراج الموتى . (يَا أَيُّهَا رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا) أي إنها تحدث أخبارها بوحي الله « لها » أي إليها . والعرب تضع لام الصفة موضع « إلى » . قال العجاج يصف الأرض :
وَحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ • وَشَدَّهَا بِالزَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ

وهذا قول أبي عبيدة : « أَوْحَى لَهَا » أي إليها . وقيل : « أَوْحَى لَهَا » أي أمرها ؛ قاله مجاهد . وقال السدي : « أَوْحَى لَهَا » أي قال لها . وقيل : سخرها . وقيل : المعنى يوم تكون الزلزلة، وإخراج الأرض أنقلاها، تحدث الأرض أخبارها؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصي، وما عمل على ظهرها من خير وشر . ورؤي ذلك عن الثوري وغيره . (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا) أي فرقاً؛ جمع شت . قيل : عن موقف الحساب ؛ فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة، وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار؛ كما قال تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ »^(٢)
« يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ »^(٣) . وقيل : يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب . (أَشْتَاتًا)

(١) راجع ج ١٤ ص ٨٣ . (٢) آية ١٤ سورة الروم (٣) آية ٤٣ سورة الروم .

يعنى فِرْقًا فِرْقًا . (لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) يعنى ثواب أعمالهم . وهذا كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” ما من أحد يوم القيامة إلا ويلوم نفسه فإن كان مُحْسِنًا فيقول لم لا أزدتُ إحسانا وإن كان غير ذلك يقول لم لا نَزَعْتَ عن المعاصي “ . وهذا عند معاينة الثواب والعقاب . وكان ابن عباس يقول : « أَشْتَاتًا » متفرقين على قدر أعمالهم ؛ أهل الإيمان على حدة ، وأهل كل دين على حدة . وقيل : هذا الصدور إنما هو عند النشور ؛ يصدرون أَشْتَاتًا من القبور فيصار بهم إلى موقف الحساب لِيُرَوْا أعمالهم في كتبهم ، أو لِيُرَوْا جزاء أعمالهم ؛ فكانهم وردوا القبور فُدِفْنُوا فيها ثم صدروا عنها . والوارد : الجاني . والصادر : المنصرف . (أَشْتَاتًا) أى يبعثون من أقطار الأرض . وعلى القول الأول فيه تقديم وتأخير؛ مجازه : تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها لِيُرَوْا أعمالهم . واعترض قوله « يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا » متفرقين عن موقف الحساب . وقراءة العامة ، لِيُرَوْا « بضم الياء ؛ أى ليربهم الله أعمالهم . وقرأ الحسن والزهرى وقتادة والأعرج ونصر بن عاصم وطلحة بفتحها ؛ وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ** ﴿٧﴾ **وَمَنْ يَعْمَلْ**

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**) كان ابن عباس يقول : من يعمل من الكفار مثقال ذرة خيرا يره في الدنيا ولا يثاب عليه في الآخرة ، ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك ، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يره في الدنيا ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا مات ويتجاوز عنه ، وإن عمل مثقال ذرة من خير يقبل منه و يضاعف له في الآخرة . وفي بعض الحديث : ” إن الذرة لا زنة لها “ وهذا مثل ضرب به الله تعالى أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة . وهو مثل قوله تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ^(١) » . وقد تقدم الكلام هناك في انذر، وأنه لا وزن له . وذكر بعض أهل اللغة أن الذر أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق بها من التراب فهو الذر؛ وكذا قال ابن عباس : إذا وضعت يدك على الأرض ورفعتها فكل واحد مما لزم به من التراب ذرة . وقال محمد بن كعب القرظي : فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير . ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله وولده وأهله ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر . دليله ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس أن هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يأكل فأمسك وقال : يا رسول الله ، وإنا لرى ما عملنا من خير وشر ؟ قال : « ما رأيت مما تكره فهو مثاقيل ذر الشر ويدخر لكم مثاقيل ذر الخير حتى تعطوه يوم القيامة » . قال أبو إدريس : إن مصداقه في كتاب الله : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ^(٢) » . وقال مقاتل : نزلت في رجلين ، وذلك أنه لما نزل « وَيُطْعَمُونَ ^(٣) الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ^(٤) » كان أحدهم يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة . وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغيبة والنظرة ، ويقول : إنما أوعد الله النار على الكجائر ، فنزلت ترغيبهم في القليل من الخير أن يعطوه ؛ فإنه يوشك أن يكثر ، ويحذرهم اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكثر ؛ وقاله سعيد بن جبير . والإثم الصغير في عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال ، وجميع محاسنه أقل في عينه من كل شيء .

الثانية - قراءة العامة « يره » بفتح الياء فيهما . وقرأ الجحدري والسلمي وعيسى بن عمرو وأبان عن عاصم « يره » بضم الياء ، أي يريه الله إياه . والأولى الاختيار ؛ لقوله تعالى : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ^(٥) » الآية . وسكن الهاء في قوله « يره » في

(١) آية ٤٠ سورة النساء . راجع ج ٥ ص ١٩٥ (٢) كذا في الأصل وبعض كتب التفسير بإثبات الياء والراجح حذفها . (٣) آية ٣٠ سورة الشورى . (٤) آية ٨ سورة الإنسان . (٥) الجوزة : واحدة الجوز الذي يؤكل ؛ فارسي معرب . وهي أيضا : الشربة الواحدة من الماء . (٦) آية ٣٠ سورة آل عمران .

الموضعين هشام . وكذلك رواه الكسائي عن أبي بكر وأبي حيوة والمغيرة . واختلس يعقوب
والزهري والمجذري وشيبة . وأشبع الباقون . وقيل « يره » أي يرى جزاءه ؛ لأن ما عمله
قد مضى وعدم فلا يرى . وأنشدوا :

إن من يعتدى ويكسب إثماً * وزن مثقال ذرة سيراه
ويجازى بفعله الشرّ شراً * وبفعل الجميل أيضاً جزاه
هكذا قوله تبارك ربّي * في إذا زلزلت وجلّ ثناه

الثالثة — قال ابن مسعود : هذه أحكم آية في القرآن ؛ وصدق . وقد اتفق العلماء
على عموم هذه الآية ؛ القائلون بالعموم ومن لم يقل به . وروى كعب الأحبار أنه قال : لقد
أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » . قال الشيخ أبو مدين في قوله تعالى :
« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » قال : في الحال قبل المآل . وكان النبي صلى الله عليه وسلم
يسمى هذه الآية الآية الجامعة الفائزة ؛ كما في الصحيح لما سئل عن الحُمْر وسكت عن البغال
والجواب فيهما واحد ؛ لأن البغل والحمار لا كثر فيهما ولا فتر ؛ فلما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم
ما في الخيل من الأجر الدائم والثواب المستمر ، سأل السائل عن الحُمْر لأنهم لم يكن عندهم
يومئذ بغل ولا دخل الحجاز منها إلا بغلة النبي صلى الله عليه وسلم « الدُّلُّ » التي أهداها له
المقوقس فأفناه في الحمير بعموم الآية ، وإن في الحمار مثاقيل دَرّ كثيرة ؛ قاله ابن العربي . وفي
الموطأ : أن مسكينا استطمع عائشة أم المؤمنين وبين يديها عنب ؛ فقالت لإنسان : خذ حبة
فأعطه إياها . فجعل ينظر إليها ويعجب ؛ فقالت : أتعجب ! كم ترى في هذه الحبة من
مثقال ذرة . وروى عن سعد بن أبي وقاص أنه تصدق بتمرين فقبض السائل يده ، فقال
للسائل : ويقبل الله منا مثاقيل الذر ، وفي التمرين مثاقيل دَرّ كثيرة . وروى المطلب بن
حنطب أن أعرابياً سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأها فقال : يا رسول الله ، أمثقال ذرة !
قال « نعم » فقال الأعرابي : واسواتاه ! مرارا ، ثم قام وهو يقولها ؛ فقال النبي صلى الله

عليه وسلم : "لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان" . وقال الحسن : قدم صعصعة عم الفرزدق^(١) على النبي صلى الله عليه وسلم فلما سمع « فمن يعمل مثقال ذرة » الآيات ؛ قال : لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها ، حسبي فقد أتته الموعظة ؛ ذكره الثعلبي . ولفظ الماوردي : وروى أن صعصعة ابن ناجية جد الفرزدق أتى النبي صلى الله عليه وسلم يستقرئه فقرأ عليه هذه الآية ؛ فقال صعصعة : حسبي حسبي ؛ إن عملت مثقال ذرة شرا رأيت . وروى معمر عن زيد بن أسلم أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : علمني مما عهدك الله . فدفعه إلى رجل يعلمه ؛ فعلمه « إذا زلزلت - حتى إذا بلغ - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » قال : حسبي . فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "دعوه فإنه قد فقّه" . ويحكى أن أعرابيا أحر « خيرا يره » فقيل : قدمت وأحرت . فقال :

خُذَا بَطْنَ هَرَشِي أَوْ قَفَاها فَإِنَّهُ * كَلَّا جَانِبِي هَرَشِي لَهْنُ طَرِيقِ^(٢)

سورة «العاديات»

وهي مكية ؛ في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء . ومدنية ؛ في قول ابن عباس وأنس ومالك وقتادة . وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَأَلْمُورِيَّتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ قوله تعالى : (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا) أى الأفراس تعدو . كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة ؛ أى تعدو في سبيل الله فتضبح . قال قتادة : تضبح إذا عدت ؛ أى تُحمِّم . وقال

(١) قال أبو أحمد العسكري : « وقد وهم بعضهم في صعصعة بن معارية عم الأحنف بن قيس ، فقال : صعصعة عم الفرزدق وهو غلط » . والمعروف أن صعصعة بن ناجية هو جد الفرزدق وليس له عم يسمى صعصعة . راجع كتاب الإصابة وأسد الغابة في ترجمة صعصعة .
(٢) هرشي : ثنية في طريق مكة قريبة من الجحفة يرى منها البحر ، ولها طريقان ، فكل من سلك واحدا منهما أفضى به إلى موضع واحد . في معجم البلدان لباقوت : خدا أنف هرشي ... وفي اللسان : خدا جنب هرشي ...

الفراء : الضَّبْحُ صَوْتُ أَنْفَاسِ الْخَيْلِ إِذَا عَدَّوْنَ . ابن عباس : ليس شيء من الدواب يَضْبَحُ غَيْرَ الْفَرَسِ وَالْكَلْبِ وَالثَّلَبِ . وقيل : كانت تُكْعَمُ^(١) لثلاث تَهْبِيلٍ فَيَعْلَمُ الْعَدُوِّ بِهِمْ ؛ فكانت تتنفس في هذه الحال بقوة . قال ابن العربي : أقسم الله بحمد صلى الله عليه وسلم فقال : « يَس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ » ، وأقسم بحياته فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ »^(٢) ، وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها وقَدَحِ حوافرها النار من الحجر فقال : « وَالْعَادِيَّاتِ ضَبْحًا » الآيات الخمس . وقال أهل اللغة :

وطعنة ذات رشاش واهيه * طعنتها عند صدور العاديه

يعنى الخيل . وقال آخر :

والعادياتُ أسابيُّ الدماءِ بها * كأنَّ أعناقها أنصابُ تَرْجِيْبِ^(٤)

يعنى الخيل . وقال عنتره :

والخيلُ تعلمُ حينَ نَضُّ * سَجَّ في حياضِ الموتِ ضَبْحًا

وقال آخر :

لستُ بالتَّبَعِ الْبِمَانِيِّ لِمَنْ لَمْ * تَضْبَحِ الْخَيْلُ فِي سِوَادِ الْعِرَاقِ

وقال أهل اللغة : وأصل الضَّبْحِ والضَّبَّاحِ للثعلب ؛ فأستعير للخيل . وهو من قول العرب :

ضبحته النار إذا غيّرت لونه ولم تبالغ فيه . وقال الشاعر :

فلمَّا أَنْ تَلَهُوَجْنَا شِوَاءَ * بِهِ اللَّهْبَانُ مَقهوراً ضَبِيحاً^(٥)

وأنضبح لونه إذا تغير إلى السواد قليلا . وقال :

* عَلَّقْتُهَا قَبْلَ أَنْضِبَاحِ لَوْنِي *

(١) الكعام : شئ يجعل على فم البعير . (٢) آية ٧٢ سورة الحجر .

(٣) قوله : « قال أهل اللغة ... » إل آخر البيت . هكذا ورد في جميع نسخ الأصل ، وظاهر أن فيه سقطاً ؛ يوضحه أبو حيان في البحر بقوله : « قال أهل اللغة : أصله للثعلب ، فأستعير للخيل ... » إلخ . على أن المؤلف أوردته فبإبان .

(٤) البيت لسلامة بن جندل . والأسابي : الطرق من الدم . وأسابي الدماء : طرائقها . والترجيب : أن تدم الشجرة إذا كثرت حملها لثلاث تنكسر أغصانها . قال ابن منظور : « فإنه شبه أعناق الخيل بالمرجب . وقيل : شبه أعناقها بالمجارة التي تذبج عليها النساءك » .

(٥) البيت لمصرم الأسدي . والمهوج من الشواء : الذي لم يتم نضجه . واللهبان : انفاد النار واشتعالها .

وإنما تَضْبِعُ هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من قَزَعٍ أو تَعَبٍ أو طَمَعٍ . ونصب «ضَبْعًا» على المصدر ؛ أي والعاديات تَضْبِعُ ضَبْعًا . والضَّبْعُ ^(١) أيضا الزماد . وقال البصريون : «ضَبْعًا» نصب على الحال . وقيل : مصدر في موضع الحال . قال أبو عبيدة : ضَبَعَتْ الخيلُ ضَبْعًا مثلُ ضَبَعَتْ ؛ وهو السير . وقال أبو عبيدة : الضَّبْعُ والضَّبْعُ بمعنى العَدُوِّ والسير . وكذا قال المبرد : الضَّبْعُ مَدُّ أضباعها في السير . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سَريَّةً إلى أناس من بني كنانة فأبطأ عليه خبرها ، وكان استعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري ، وكان أحد النقباء ؛ فقال المنافقون : إنهم قُتِلوا ؛ فنزلت هذه السورة إخبارًا للنبي صلى الله عليه وسلم بسلامتها ، وبشارة له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم . ومن قال : إن المراد بالعاديات الخيلُ ابنُ عباس وأنس والحسن ومجاهد . والمراد الخيل التي يغزو عليها المؤمنون . وفي الخبر : « من لم يعرف حُرْمَةَ فرس الغازي ففيه شُعبة من النفاق » .

وقول ثاب : إنها الإبل ؛ قال مسلم : نازعت فيها عكرمة فقال عكرمة : قال ابن عباس هي الخيل . وقلت : قال عليّ هي الإبل في الحج ، ومولاي أعلم من مولاك . وقال الشعبي : ^(٢) تمارى عليّ وابن عباس في «العاديات» ، فقال عليّ : هي الإبلُ تَمْدُو في الحج . وقال ابن عباس : هي الخيل ؛ ألا تراه يقول « فائِزٌ بِهِ نَقْعًا » فهل تثير إلا بجوافرها ! وهل تضبِعُ الإبل ؟ ! فقال عليّ : ليس كما قلت ، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للقداد وفرس لمَرْتَدِ بن أبي مَرْتَدٍ ؛ ثم قال له عليّ : أتُفِيّ الناسَ بما لا تعلم ! والله أن كانت لأوّل غَزْوَةٍ في الإسلام وما معنا إلا فرسان : فرس للقداد وفرس للزبير ؛ فكيف تكون العاديات ضبعا ! إنما العاديات الإبل من عَرَفة إلى المَزْدَلِيفَةِ ، ومن المَزْدَلِيفَةِ إلى عَرَفة . قال ابن عباس : فرجعت إلى قول عليّ . وبه قال ابن مسعود وعبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدي . ومنه قول صَفِيَّة بنت عبد المطلب :

فلا والعاديات غداة جَمْعٍ • بأيديها إذا سَطَعَ الغبار

(١) في القاموس : « والضَّبْعُ بالكسر الزماد » . (٢) التمارى والمارة : المجادلة .

يعني الإبل . وسميت العاديات لاشتقاقها من العَدْو، وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي .
وقال آخر :

رأى صاحبي في العاديات نجيباً * وأمثالها في الواضعات القوامس^(١)

ومن قال هي الإبل فقولها « ضَبْحًا » بمعنى ضَبْعًا ؛ فالحاء عنده مبدلة من العين ؛ لأنه يقال :
ضَبَعَت الإبل وهو أن تمد أعناقها في السير . وقال المبرد : الضَّبْعُ مَدُّ أظباعها في السير .
والضَّبْحُ أكثر ما يستعمل في الخيل . والضَّبْعُ في الإبل . وقد تبدل الحاء من العين . أبو صالح :
الضَّبْحُ من الخيل المَحْمَمَة ، ومن الإبل التنفُّس . وقال عطاء : ليس شيء من الدواب يضبع
إلا الفرسُ والثعلبُ والكلبُ ؛ وروى عن ابن عباس . وقد تقدم عن أهل اللغة أن العرب
تقول : ضبع الثعلب ؛ وضبع في غير ذلك أيضا . قال توبة :

ولو أن ليلى الأخيلىة سلمت * على ودوني تربةً وصفائح^(٢)
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا * إليها صدى من جانب القبر ضابح^(٣)

زقا الصدى يزقو زقاً ؛ أي صاح . وكل زاقٍ صائح . والزقيّة الصيحة . (فالمؤريات
قدحا) قال عكرمة وعطاء والضحاك : هي الخيل حين تورى النار بجوافرها ،
وهي سناكبها ؛ وروى عن ابن عباس . وعنه أيضا : أورت بجوافرها غباراً . وهذا
يخالف سائر ما روى عنه في قدح النار ؛ وإنما هذا في الإبل . وروى ابن أبي نجیح عن
مجاهد « والعاديات ضبْحًا . فالمؤريات قدحا » قال ابن عباس : هو في القتال وهو
في الحج . ابن مسعود : هي الإبل تطأ الحصى فتخرج منها النار . وأصل القدح الاستخراج ؛

(١) في اللسان مادة (عدا) : « وحكى الأزهرى عن ابن السكيت . وإبل عادية ترعى الخلة ولا ترعى الحمض ...
وقال : وكذلك العاديات » وساق البيت . وفي اللسان أيضا مادة (وضع) : « وناقاة واضع وواضعة ونوق واضعات ؛
ترعى الحمض حول الماء . وأنشد ابن بري قول الشاعر ... » الخ . ولفظ « القوامس » هكذا ورد في اللسان
وشرح القاموس . وبعض نسخ الأصل . وفي نسخة : « القرامس » بالراء . ولعل الصواب : « المرامس » جمع مرامس
(بكسر العين) : وهي الناقاة الضلابة الشديدة .

(٢) في نسخة : « جندل » وهي رواية في البيت . (٣) في رواية صالح . ولا شاهد فيه .

(٤) في اللسان : « زقا يزقو يزق زقوا وزقوا . وزقوا وزقيا وزقيا وزقيا .

ومنه قَدَحْتُ العَيْنَ إِذَا أُخْرِجَتَ مِنْهَا المَاءُ الفاسدُ . واقتدَحْتُ بِالزُّنْدِ . واقتدَحْتُ المَرْقَ غِرْفَتَهُ . وَرَكِي قُدُوحٌ تُغْتَرَفُ بِاليدِ . والقَدِيحُ ما يَبْقَى في أسفل القِدْرِ فيغْرِفُ بِجَهْدٍ . والمِقْدَحَةُ ما تُقَدَحُ به النارُ . والقَدَاحَةُ والقَدَاحُ المَجْرُ الذي يُورِي النارَ . يقال : وَرَى الزُّنْدُ (بالفتح) يَرِي وَرِيًّا إِذَا أُخْرِجَتِ نارُهُ . وفيه لغة أُخرى : وَرَى الزُّنْدُ (بالكسر) يَرِي فِيهِمَا . وقد مَضَى هذا في سورة « الواقعة »^(١) . و « قَدَحًا » آتَتْصِبُ بِمَا آتَتْصِبُ بِهِ « ضَبْعًا » . وقيل : هذه الآياتُ في الخليل ؛ ولكن إراءها أن تهبج الحرب بين أصحابها وبين عدوهم . ومنه يقال للحرب إذا ألتحمت : حَيَّ الوَطِيسُ . ومنه قوله تعالى : « كَلِمًا أَوْقَدُوا نارًا للحربِ أَطْفَأَهَا اللهُ »^(٢) . وروى معناه عن ابن عباس أيضا ، وقاله قتادة . وعن ابن عباس أيضا : أن المراد بالموريات قدحا مكر الرجال في الحرب ؛ وقاله مجاهد وزيد بن أسلم . والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه : والله لا مكرت بك ، ثم لأورين لك . وعن ابن عباس أيضا : هم الذين يغزون فيورون نيرانهم بالليل لحاجتهم وطعامهم . وعنه أيضا : أنها نيران المجاهدين إذا كثرت نارها إرهاباً . وكل من قُرب من العدو يوقد نيرانا كثيرة ليظنهم العدو كثيرا . فهذا إقسام بذلك . قال محمد بن كعب : هي النار تجمع . وقيل : هي أفكار الرجال تُورِي نار المكر والخديعة . وقال عكرمة : هي السنة الرجال تُورِي النار من عظيم ما تتكلم به ، ويظهر بها من إقامة الحجج وإقامة الدلائل وإيضاح الحق وإبطال الباطل . وروى ابن جرير عن بعضهم قال : فالمنجحات أمرا وعملا كنجاح الزند إذا أوري .

قلت : هذه الأقوال مجاز ؛ ومنه قولهم : فلان يُورِي زناد الضلالة . والأول الحقيقة ، وأن الخليل من شدة عدوها تُقَدَحُ النار بحوافرها . قال مقاتل : العرب تسمى تلك النار نارَ أبي حُبَاحِبٍ ، وكان أبو حُبَاحِبٍ شَيْخًا من مُضَرِّ في الجاهلية من أبجل الناس ، وكان لا يوقد نارًا لخبز ولا غيره حتى تنام العيون فيوقد نُورِيَّةً تُقَدِّمُ مرةً وتُؤخِّرُ أخرى ؛ فإن استيقظ لها أحد

(١) راجع ج ١٧ ص ٢٢١ (٢) آية ٦٤ سورة المائدة .

أطفأها كراهية أن ينتفع بها أحد . فشَبَّهتِ العَرَبُ هذه النَّارَ بِنَارِهِ ، لِأَنَّهُ لَا يُنْتَفَعُ بِهَا .
وكذلك إذا وقع السيف على اليَئِضَةِ فَأَقْتَدَحَتْ نَارًا فَكَذَلِكَ يُسَمَّوْنَهَا . قال النابغة :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُبُونَهُمْ • بَيْنَ فُلُولٍ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَّابِ
تَقْدُّ السُّلُوقِ الْمَضَاعَفِ نَسْجُهُ • وَتُوَقَّدُ بِالصَّفْحِ نَارَ الْحَبَابِ^(۱)

قوله تعالى : فَأَلْمِغِيرَاتٍ صُبْحًا ﴿۴﴾

الخليل تُغَيِّرُ عَلَى الْعَدُوِّ عِنْدَ الصَّبْحِ ؛ عَنْ أَبِي هَبَّاسٍ وَأَكْثَرِ الْمُفْسِّرِينَ . وَكَانُوا إِذَا أَرَادُوا
الغَارَةَ مَرَوْا لَيْلًا وَيَأْتُونَ الْعَدُوَّ صُبْحًا ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ وَقْتُ غَفْلَةِ النَّاسِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « قَسَاءَ
صَبَاحِ الْمُنْذِرِينَ » . وَقِيلَ : لِيَزْمَ أَغَارُوا نَهَارًا ؛ وَ« صُبْحًا » عَلَى هَذَا ، أَيُّ مَلَائِيَّةٍ تَشْبِيهَا^(۲)
بظهور الصبح . وقال ابن مسعود وعلى رضي الله عنهما : هي الإبل تدفع بركبتها يوم النحر من
مِنَى إِلَى جَمْعِ . وَالسُّنَّةُ أَلَّا تَدْفَعُ حَتَّى تُصْبِحَ ؛ وَقَالَ الْقُرْظِيُّ . وَالْإِغَارَةُ سُرْعَةُ السَّيْرِ ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ :
أَشْرِقْ تُبِيرُ كَيْمَا تُغَيِّرُ^(۳) .

قوله تعالى : فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا ﴿۵﴾

أَيُّ غَبَارًا ؛ يَعْنِي الْخَيْلُ تُثِيرُ الْغَبَارَ بِسُدَّةِ الْعَدُوِّ فِي الْمَكَانِ الَّذِي أَغَارَتْ بِهِ . قَالَ هِدَاةُ
أَبْنِ رَوَاحَةَ :

عَدِمْتُ بُنْيَتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا • تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَثْفِي كَدَاهُ^(۴)

وَالكَلْبَاءُ فِي « بِهِ » تَرْجِعُ إِلَى الْمَكَانِ أَوَّالِي الْمَوْضِعِ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ الْإِغَارَةُ . وَإِذَا عَلِمَ الْمَعْنَى جَازَ
أَنْ يُكْتَنَى عَمَّا لَمْ يَجْرُلْهُ ذَكَرًا بِالتَّصْرِيحِ ؛ كَمَا قَالَ « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْمَجَابِ » . وَقِيلَ : « فَأَثَرُنَ بِهِ »^(۵)

(۱) السُّلُوقُ : الدَّرَجُ الْمُنْسَرِبَةُ إِلَى سُلُوقِ ، قَرْيَةٌ بِالْيَمَنِ . وَالصَّفْحُ : جَمْعُ صَفْحَةٍ ، وَهُوَ الْجَهْرُ الرَّيْضُ .

(۲) آيَةُ ۱۷۷ سُورَةِ الصَّافَّاتِ .

(۳) تُبِيرُ : جَبَلٌ بِقُرْبِ مَكَّةَ ، وَهُوَ عَلَى بَيْنِ الْغَايِبِ إِلَى مَرَّةٍ . أَيُّ ادْخَلَ فِي الشَّرْقِ ، وَهُوَ ضَوْءُ الشَّمْسِ .

(۴) كَدَاهُ (بَضْعُ الْكَافِ وَمَعْنَى الْهَالِ) : جَبَلٌ بِمَكَّةَ .

(۵) آيَةُ ۳۲ سُورَةِ ص .

أى بالعدو «قعما» . وقد تقدم ذكر العدو . وقيل : النقع ما بين مُزْدَلِفَةَ إلى مِثَى ؛ قاله محمد ابن كعب القرظي . وقيل : إنه طريق الوادي ؛ ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع . وفي الصحاح : النقع الغبار ، والجمع نقاع . والنقع محبس الماء . وكذلك ما اجتمع في البئر منه . وفي الحديث : أنه نهي أن يمنع نقع البئر . والنقع الأرض الحُرَّة الطين يستنقع فيها الماء ؛ والجمع نقاع وأنقع ؛ مثل بَحْرٍ وبِحَارٍ وأبحر .

قلت : وقد يكون النقع رفع الصوت ؛ ومنه حديث عمر حين قيل له : إن النساء قد اجتمعن يبكين على خالد بن الوليد ؛ فقال : وما على نساء بني المغيبة أن يسفكن من دموعهن وهن جلوس على أبي سليمان ما لم يكن نَقَعٌ ولا لَقْلَقَةٌ . قال أبو عبيد : يعني بالنقع رفع الصوت ؛ على هذا رأيت قول الأكثرين من أهل العلم ؛ ومنه قول لبيد :

فَمَتَى يَنْقَعُ صُرَاخُ صَادِقٍ * يُحْلِبُهَا ذَاتَ جَرِيْسٍ وَزَجَلٍ

ويروى «يحلبوها» أيضا . يقول : متى سمعوا صراخا أحلبوا الحرب ، أى جمعوا لها . وقوله «ينقع صراخ» يعني رفع الصوت . وقال الكسائي : قوله «نَقَعٌ وَلَا لَقْلَقَةٌ» النقع صنعة الطعام ؛ يعني في المأتم . يقال منه : نَقَعْتَ أَنْقَعَ نَقَعًا . قال أبو عبيد : ذهب بالنقع إلى النقيعة ؛ وإنما النقيعة عند غيره من العلماء صنعة الطعام عند القدوم من سفر لا في المأتم . وقال بعضهم : يريد عُمرُ بَانْتَقِعَ وضع التراب على الرأس ؛ يذهب إلى أن النقع هو الغبار . ولا أحسب عُمرَ ذهب إلى هذا ، ولا خافه منهن ، وكيف يبلغ خوفه ذا وهو يكره لهن القيام . فقال : يسفكن من دموعهن وهن جلوس . قال بعضهم : النقع شق الجيوب ؛ وهو الذي لا أدرى ما هو من الحديث ولا أعرفه ، وليس النقع عندي في هذا الحديث إلا الصوت الشديد ، وأما اللققة فشدّة الصوت ، ولم أسمع فيه اختلافا . وقرأ أبو حيوة «فأترن» بالتشديد ؛ أى أرت آثار ذلك ، ومن خفف فهو من آثار إذا حرك ؛ ومنه «وَأَثَارُوا الْأَرْضَ»^(١) .

(١) آية ٩ سورة الروم .

قوله تعالى : فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٦٠﴾

«جمعا» مفعول بـ«وسطن» ؛ أى فَوَسَطْنَ بُرْجَانِيْنَ الْعَدُوِّ ؛ أى الجمع الذى أغاروا عليهم .
وقال ابن مسعود : «فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا» يعنى مُزْدَلِفَةَ ؛ وَصُمِّتَتْ جَمْعًا لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ بِهَا .
ويقال : وَسَطْتُ الْقَوْمَ أَسْطَهُمْ وَسَطًا وَسِطَةً ؛ أى صِرْتُ وَسَطَهُمْ . وقرأ على رضى الله
عنه « فَوَسَطْنَ » بالتشديد ، وهى قراءة قتادة وابن مسعود وأبى رجا ؛ لغتان بمعنى ، يقال :
وسطت القوم (بالتشديد والتخفيف) وتوسطتهم بمعنى واحد . وقيل : معنى التشديد جعلها
الجمع قسمين . والتخفيف صرن فى وسط الجمع ؛ وهما يرجعان إلى معنى الجمع .

قوله تعالى : إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦١﴾

هذا جواب القسم ؛ أى طبع الإنسان على كفران النعمة . قال ابن عباس : «لَكَنُودٌ»
لَكَفُورٌ جُحُودٌ لِنِعْمِ اللَّهِ . وكذلك قال الحسن . وقال : يَذْكَرُ الْمَصَائِبَ وَيَنْسَى النِّعَمَ . أخذه
الشاعر فنظمه :

يا أيها الظالم فى فعله * والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى * تشكو المصائب وتُنسى النعم

وروى أبو أمامة الباهلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الكنود هو الذى
ياكل وحده ويمنع رِفْدَهُ^(١) ويضرب عبده» . وروى ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : «ألا أنبئكم بشراركم» ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : «من نزل وحده
ومنع رِفْدَهُ وجلد عبده» . خرجهما الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول . وقد روى عن
ابن عباس أيضا أنه قال : الكنود بلسان كندة وحضرموت : العاصى ، ولسان ربيعة
ومضر : الكفور . ولسان كنانة : البخيل السبى الملكة ؛ وقاله مقاتل . وقال الشاعر :
كَنُودٌ لِنِعْمَاءِ الرِّجَالِ وَمَنْ يَكُنْ * كَنُودًا لِنِعْمَاءِ الرِّجَالِ يَبْعِدُ

(١) الرِفْدُ (بكسر الراء) : العطاء والصلة .

أى كفور . ثم قيل : هو الذى يكفر اليسير ولا يشكر الكثير . وقيل : الجاحد للحق .
 وقيل : إنما سُميت كندة كندة لأنها جحدت أباه . وقال إبراهيم بن هرمة الشاعر :
 دَعِ الْبُخْلَاءَ إِنْ تَمَخُّوا وَصَدُّوا * وَذِكْرَى بُحْلِ غَانِيَةِ كَنُودِ
 وقيل : الكنود من كند إذا قطع ؛ كأنه يقطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر . ويقال :
 كند الحبل إذا قطعه . قال الأعشى :

أَمِيطِ أَمِيطِ بِصُلْبِ الْفُوَادِ * وَصُولِ حِبَالٍ وَكَنَائِهَا

فهذا يدل على القطع . ويقال : كند يكند كنوداً ؛ أى كفر النعمة وجمدها ، فهو كنود .
 وأمراة كنود - أيضا - وكند مثله . قال الأعشى :

أَحْدِثْ لَهَا تُحَدِّثْ لَوْصَلِكِ إِنَّمَا * كُنْدٌ لَوْصَلِ الزَّائِرِ الْمُعْتَادِ^(٢)

أى كفور للمواصله . وقال ابن عباس : الإنسان هنا الكافر ؛ يقول إنه لكفور ؛ ومنه
 الأرض الكنود التى لا تُنبت شيئاً . وقال الضحاك : نزلت فى الوليد بن المغيرة . قال المبرد :
 الكنود المانع لما عليه . وأنشد لكثير^(٣) :

أَحْدِثْ لَهَا تُحَدِّثْ لَوْصَلِكِ إِنَّمَا * كُنْدٌ لَوْصَلِ الزَّائِرِ الْمُعْتَادِ

وقال أبو بكر الواسطي : الكنود الذى يُنفق نعم الله فى معاصي الله . وقال أبو بكر الوراق :
 الكنود الذى يرى النعمة من نفسه وأعوانه . وقال الترمذى : الذى يرى النعمة ولا يرى المنعم .
 وقال ذو النون المصرى : الهلوع والكنود هو الذى إذا مسه الشرُّ جزوع ، وإذا مسه الخير
 منوع . وقيل : هو الحقود الحسود . وقيل : هو الجهول لقدره . وفى الحكمة : مَنْ جَهِلَ
 قَدْرَهُ هَتَكَ سِتْرَهُ .

(١) ماط الأذى مبطل وأماطه : نحاه ودفعه . يقول : إن تخيت عنى فإنى صلب الفؤاد ، وصول لمن وصل ،

كفور لمن كفر . (٢) المعتاد : الذى يعود مرة بعد أخرى .

(٣) تقدم أن هذا البيت للأعشى ، ولم تجده فى ديوان كثير الذى بين أيدينا .

قلت : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والمجود . وقد فسّر النبي صلى الله عليه وسلم معنى الكنود بخصال مذمومة وأحوال غير محمودة؛ فإن صح فهو أعلى ما يقال، ولا يبقى لأحد معه مقال .

قوله تعالى : **وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ** ﴿٧﴾

أى وإن الله عز وجل ثناءؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد . كذا روى منصور عن مجاهد ؛ وهو قول أكثر المفسرين، وهو قول ابن عباس . وقال الحسن وقتادة ومحمد بن كعب : « وإنه » أى وإن الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع؛ وروى عن مجاهد أيضا .

قوله تعالى : **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴿٨﴾

قوله تعالى : **(وَإِنَّهُ)** أى الإنسان من غير خلاف . **(لِحُبِّ الْخَيْرِ)** أى المال؛ ومنه قوله تعالى : **(إِنْ تَرَكَ خَيْرًا)** . وقال عدي :

مَازَا تُرْجَى النُّفُوسُ مِنْ طَلَبِ الْـ * خَيْرِ وَحُبِّ الْحَيَاةِ كَارِبَهَا ^(٢)

(لَشَدِيدٍ) أى لقوى في حبه للمال . وقيل : « لشديد » لبخيل . ويقال للبخيل : شديد ومتشدد . قال طرفة :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي * عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

يقال : اعتامه وأعتماه؛ أى اختاره . والفاحش : البخيل أيضا ؛ ومنه قوله تعالى : **« وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ »** ^(٣) أى البخل . قال ابن زيد : سُمِّيَ اللهُ الْمَالَ خَيْرًا ؛ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ شَرًّا وَحَرَامًا ؛ وَلَكِنَّ النَّاسَ يَعْتَدُونَهُ خَيْرًا فَسَمَاهُ اللهُ خَيْرًا لِذَلِكَ . وَسُمِّيَ الْجِهَادُ سُوءًا فَقَالَ : **« فَأَقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضِيلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ »** ^(٤) على ما يسميه الناس . قال الفراء : نَزَّمُ الْآيَةَ أَنْ يَقَالَ وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الْحُبِّ لِلْخَيْرِ ؛ فَلَمَّا تَقَدَّمَ الْحُبُّ قَالَ شَدِيدٌ وَحُذِفَ مِنْ آخِرِهِ ذَكَرُ

(١) آية ١٨٠ سورة البقرة . (٢) كاربها : غامها ؛ من كربه الأمر : اشتد عليه .

(٣) آية ٢٦٨ سورة البقرة . (٤) فى بعض نسخ الأصل : « شرار خيرا » .

(٥) آية ١٧٤ سورة آل عمران .

الحب؛ لأنه قد جرى ذكره، ولرؤوس الآي؛ كقوله تعالى: « فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ^(١) وَالْعُصُوفُ لِلرِّيحِ لَا الْإَيَّامَ، فَلَمَّا جَرَى ذِكْرُ الرِّيحِ قَبْلَ الْيَوْمِ طُرِحَ مِنْ آخِرِهِ ذِكْرُ الرِّيحِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ الرِّيحِ.»

قوله تعالى: أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ أي ابن آدم ﴿ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ أي أثير وقلب ويبحث فأخرج ما فيها. قال أبو عبيدة: بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه. وعن محمد بن كعب قال: ذلك حين يبعثون. الفراء: سمعت بعض أعراب بني أسد يقرأ « بُعْثِرَ » بالحاء مكان العين؛ وحكاها الماوردي عن ابن مسعود، وهما بمعنى. ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ أي مُيز ما فيها من خير وشر؛ كذا قال المفسرون. وقال ابن عباس: أُبْرِزَ. وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جبيرة ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم « وَحَصَّلَ » بفتح الحاء وتخفيف الصاد وفتحها؛ أي ظهر. ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ ﴾ أي عالم لا يخفى عليه منهم خافية. وهو عالم بهم في ذلك اليوم وفي غيره، وإمكان المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم. وقوله: « إِذَا بُعْثِرَ » العامل في « إِذَا »: « بُعْثِرَ » ولا يعمل فيه « يعلم »؛ إذ لا يراد به العلم من الإنسان ذلك الوقت، إنما يراد في الدنيا. ولا يعمل فيه « خبيرٌ »؛ لأن ما بعد « إن » لا يعمل فيما قبلها. والعامل في « يومئذ »: « خبيرٌ » وإن فصلت اللام بينهما؛ لأن موضع اللام الابتداء، وإنما دخلت في الخبر لدخول « إن » على المبتدأ. ويروى أن الحجاج قرأ هذه السورة على المنبر يحضهم على الفزوة، فجري على لسانه « أن ربهم » بفتح الألف، ثم استدرکها فقال: « خبيرٌ » بغير لام. ولولا اللام لكانت مفتوحة لوقوع العلم عليها. وقرأ أبو السمال « أن ربهم يومئذ خبيرٌ ». والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) آية ١٨ سورة إبراهيم.

تفسير سورة « القارعة »

وهي مكية بإجماع . وهي عشر آيات^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾

قوله تعالى : (الْقَارِعَةُ . مَا الْقَارِعَةُ) أى القيامة والساعة ؛ كذا قال عامة المفسرين .
وذلك أنها تفرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها . وأهل اللغة يقولون : تقول العرب قرعتهم
القارعة ، وفقرتهم الفارقة ؛ إذا وقع بهم أمرٌ فظيع . قال ابن أحرر :

وقارعة من الأيام لولا * سبيلهم لراحت^(٢) عنك حيناً

وقال آخر :

متى تفرع بمروتكم نسؤم^(٣) * ولم توقد لنا فى القدر نار^(٤)

وقال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » وهي الشديدة من

شدائد الدهر .

قوله تعالى : (مَا الْقَارِعَةُ) استفهام ؛ أى أى شىء هي القارعة ؟ وكذا (وَمَا أَدْرَاكَ

مَا الْقَارِعَةُ) كلمة استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها ؛ كما قال : « الْحَاقَّةُ . مَا الْحَاقَّةُ .
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ » على ما تقدم .

(١) فى كتاب روح المعانى : وآياتها إحدى عشرة آية فى الكوفى ، وعشر فى المجازى ، وثمان فى البصرى والشامى .

(٢) فى بعض النسخ : « لراحت » بالراء . (٣) المروءة : حجر يقذف منه النار .

(٤) آية ٣١ سورة الرعد . (٥) راجع ج ١٨ ص ٢٥٧

قوله تعالى : يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾

« يوم » منصوب على الظرف ، تقديره : تكون القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . قال قتادة : الفرّاش الطير الذي يتساقط في النار والسراج . الواحدة فراشة ؛ وقاله أبو عبيدة . وقال الفراء : إنه الهمج الطائر من بعوض وغيره ؛ ومنه الجراد . ويقال : هو أطيش من فراشة . وقال :

طُوَيْشٌ مِنْ نَفْرَاطِيْشٍ * أَطِيْشٌ مِنْ طَائِرَةِ الْفَرَاشِ

وقال آخر :

وقد كان أقوام رددت قلوبهم * إليهم وكانوا كالفرّاش من الجهل

وفي صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذُبُّ عَنْهَا وَأَنَا آخِذٌ بِحُجْرَتِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَفَلْتُونَ مِنْ يَدِي » . وفي الباب عن أبي هريرة . والمبثوث المتفرق . وقال في موضع آخر : « كأنهم جراد منتشر^(٢) » . فأقول حالهم كالفرّاش لا وجه له يتخبر في كل وجه ثم يكونون كالجراد ؛ لأن لها وجهًا تقصده . والمبثوث : المتفرق المنتشر . وإنما ذكر على اللفظ ؛ كقوله تعالى : « أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ^(٣) » ولو قال المبتوثة [فهو] كقوله تعالى : « أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ^(٤) » . وقال ابن عباس والفراء : « كالفرّاش المبتوثة » كقوغاء الجراد يركب بعضها بعضها . كذلك الناس يجول بعضهم في بعض إذا بعثوا .

قوله تعالى : وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾

أي الصوف الذي يُنْفَس باليد ؛ أي تصير هباءً وتزول ؛ كما قال جل ثناؤه في موضع آخر : « هَبَاءٌ مُنْبَثًا^(٦) » . وأهل اللغة يقولون : العهن الصوف المصبوغ . وقد مضى في سورة « سأل سائل^(٧) » .

(١) في بعض النسخ : « عليهم » . (٢) آية ٧ سورة القمر . (٣) آية ٢٠ سورة القمر .

(٤) الزيادة من تفسير ابن عادل يقتضها السياق . (٥) آية ٧ سورة الحاقة .

(٦) آية ٦ سورة الواقعة . (٧) راجع ج ١٨ ص ٢٨٤ .

قوله تعالى : فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأَمَّهُ هَٰوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا آذْرَتْكَ مَاهِيَةٌ ﴿١٠﴾
نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

قد تقدم القول في الميزان في «الأعراف والكهف والأنبياء» . وأن له كفة ولساناً تُوزن
فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات . ثم قيل : إنه ميزان واحد بيد جبريل
يَوزن أعمال بني آدم ؛ فعبّر عنه بلفظ الجمع . وقيل : موازين ؛ كما قال :
فَلِكُلِّ حَادِثَةٍ لَهَا مِيزَانٌ ﴿٢﴾

وقد ذكرناه فيما تقدم . وذكرناه أيضاً في كتاب «التذكرة» . وقيل : إن الموازين الحجج
والدلائل ؛ قاله عبد العزيز بن يحيى ، واستشهد بقول الشاعر :

قَد كُنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذَا مِرَّةٍ * عِنْدِي لِكُلِّ مُحَاصِمٍ مِيزَانُهُ

ومعنى «عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ» أى عيش مرضى يرضاه صاحبه . وقيل : «عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ» أى
فاعلة للرضا ؛ وهو اللين والانتقاد لأهلها . فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها ؛ وهو
اللين والانتقاد . فالعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة ؛ فهي فاعلة للرضا ؛ كالفرش المرفوعة ،
وأرتفاعها مقدار مائة عام ، فإذا دنا منها ولي الله أتضعت حتى يستوى عليها ثم ترتفع كهيئتها .
ومثل الشجرة فرووعها ، كذلك أيضاً من الارتفاع ، فإذا أشتى ولي الله ثمرتها تدلت إليه
حتى يتناولها ولي الله فاعداً وقائماً ؛ وذلك قوله تعالى : «قَطُوفُهَا دَانِيَةٌ» . وحيث ما مشى
أو ينتقل من مكان إلى مكان ، جرى معه نهر حيث شاء علواً وسفلاً ؛ وذلك قوله تعالى :
«يَفْجُرُونَهَا تَفْجِيرًا» . فيروى في الخبر " إنه يشير بقضيبه فيجرى من غير أخدود حيث
شاء من قصوره وفي مجالسه " . فهذه الأشياء كلها عيشة قد أعطت الرضا من نفسها ؛ فهي

(١) راجع ج ٧ ص ١٦٥ وما بعدها . وج ١١ ص ٦٦ و ص ٢٩٣

(٢) صدر البيت : ملك تقوم الحادثات لعدله *

(٣) راجع ج ١١ ص ٢٩٣ (٤) آية ٢٣ سورة الحاقة . (٥) آية ٦ سورة الإنسان .

فاعلة للرضا، وهي آندلت وأنقادت بدلاً وسماحة . ومعنى (فأمه هاوية) يعني جهنم .
وسمّاها أمّا لأنه ياوى إليها كما ياوى إلى أمه ؛ قاله ابن زيد . ومنه قول أمية بن أبي الصلت :
فالأرض معقلنا وكانت أمّنا * فيها مقابرنا وفيها نُؤلّدُ

وسُميت النار هاويةً لأنه يهوى فيها مع بُعد قعرها . ويروى أن الهاوية اسم الباب الأسفل
من النار . وقال قتادة : معنى « فأمه هاوية » فصيره إلى النار . عكرمة : لأنه يهوى فيها على
أُم رأسه . الأخفش : « أمه » مستقرّه . والمعنى متقارب . وقال الشاعر :

يا عمرو لو نالتك أرماحتنا * كنت كمن تهوى به الهاويه

والهاوية : المهواة . وتقول : هوت أمه فهى هاوية أى ثاكلة ؛ قال كعب بن سعد الغنوي :

هوت أمه ما يبعث الصبحُ غادياً * وماذا يُؤدّي الليلُ حين يؤوب

والمهوى والمهواة ما بين الجبلين ، ونحو ذلك . وتهوى القوم في المهواة إذا سقط بعضهم
في أثر بعض . (وما أدراك ما هي) الأصل « ما هي » فدخلت الهاء للسكت . وقرأ حمزة
والكسائي ويعقوب وابن محيصن « ما هي . نار » بغير هاء في الوصل ؛ ووقفوا بها . وقد مضى
في سورة « الحاقة » ^(١) بيانه . (نارٌ حامية) أى شديدة الحرارة . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة
أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ناركم هذه التي يُوقد ابن آدم جزءاً من سبعين جزءاً من
حز جهنم » قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله . قال : « فإنها فضلت عليها بتسعة
وستين جزءاً كلها مثلُ حزها » . وروى عن أبي بكر رضى الله عنه أنه قال : إنما تُقَل ميزانُ
من تُقَل ميزانه لأنه وُضع فيه الحق ، وحُق لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلاً . وإنما
خَف ميزانُ من خَف ميزانه لأنه وُضع فيه الباطل ، وحُق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون
خفيفاً . وفي الخبر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الموتى يسألون الرجل
ياتيهم عن رجل مات قبله فيقول ذلك مات قبلي أما مرّ بكم فيقولون لا والله فيقول
إن الله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأثم وبئست المرثية » .
وقد ذكرناه بكاله في كتاب « التذكرة » والحمد لله .

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٦٩

تفسير سورة « التكاثر »

وهي مكية، في قول جميع المفسرين . وروى البخاري أنها مدنية . وهي ثمانى آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : **أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾**

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : **(أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ)** « أَلْهَكُم » شغلكم . قال :

* فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مُّغِيلٍ *^(١)

أى شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله حتى مِتُّم ودُفِنْتُم في المقابر . وقيل :
« أَلْهَكُم » أنساكم . « التكاثر » أى من الأموال والأولاد ؛ قاله ابن عباس والحسن . وقال
قتادة : أى التفاحر بالقبائل والعشائر . وقال الضحاك : أى أَلْهَكُم التشاغل بالمعاش والتجارة .
يقال : لَهَيْتُ عَنْ كَذَا (بالكسر) أَلْهَى لَهْيًا وَلَهْيَانًا إِذَا سَلَوْتَ عَنْهُ وَتَرَكْتَ ذِكْرَهُ وَأَضْرَبْتَ عَنْهُ .
وأَلْهَاهُ أَى شَغَلَهُ . وَلَهَاهُ بِهِ تَلْهِيَةً أَى عَلَلَهُ . والتكاثر : المكاثرة . قال مقاتل وقتادة وغيرهما :
نزلت في اليهود حين قالوا : نحن أكثر من بنى فلان ؛ وبنو فلان أكثر من بنى فلان ؛ أَلْهَاهُمْ
ذلك حتى ماتوا ضلّالاً . وقال ابن زيد : نزلت في نِخْدٍ مِنَ الْأَنْصَارِ . وقال ابن عباس ومقاتل
والكلبى : نزلت في حَيِّينَ مِنْ قُرَيْشٍ : بنى عبد مناف ، وبنى سَهْمٍ ؛ تعادوا وتكاثروا بالأسادة
والأشراف في الإسلام ؛ فقال كل حى منهم : نحن أكثر سيّداً ، وأعزّ عزيزاً ، وأعظم نفراً ،
وأكثر عائداً ؛ فَكَثَرَ بَنُو عَبْدِ مَنْفَافٍ سَهْمًا . ثم تكاثروا بالأموال فَكَثَرَتْهُمْ سَهْمٌ ؛ فنزلت

(١) هذا مجزئيت من معلقة امرئ القيس ، صدره :

* فَتَلِكُ حَبِلٌ قَدْ طَرَفَتْ وَمَرْضَعٌ *

ويروى : « تَمَائِمٌ مُّجُولٌ » ؛ أى قد أتى عليه الحول . و « المغيّل » : الذى تؤق أمه وهو نرضه .

«أهلآكم التكاثر» بأحيائكم فلم ترضوا (حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) مفتخرين بالأموات . وروى سعيد عن قتادة قال : كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان ، ونحن أعد من بني فلان ؛ وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم ، والله مازالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم . وعن عمرو بن دينار : حلف أن هذه السورة نزلت في التجار . وعن شيبان عن قتادة قال : نزلت في أهل الكتاب .

قلت : الآية تعم جميع ما ذكر وغيره . وفي صحيح مسلم عن مطرف عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ «أهلآكم التكاثر» قال : «يقول ابن آدم مآلي مآلي وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفريت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت [وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس]^(١) . وروى البخاري عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لو أن لابن آدم وادياً من ذهب لأحب أن يكون له واديان ولن يملا فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب» . قال ثابت عن أنس عن أبي : كما نرى هذا من القرآن حتى نزلت «أهلآكم التكاثر» . قال ابن العربي : وهذا نص صحيح مريح غاب عن أهل التفسير فجعلوا وجهلوا ، والحمد لله على المعرفة . وقال ابن عباس : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم «أهلآكم التكاثر» قال : «تكاثر الأموال جمعها من غير حقها ومنعها من حقها وشدها في الأوعية» .

الثانية - قوله تعالى : (حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) أي حتى أتاكم الموت فصرتم في المقابر . زوارا ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار . يقال لمن مات : قد زار قبره . وقيل : أي أهلآكم التكاثر حتى عدتكم الأموات ؛ على ما تقدم . وقيل : هذا وعيد . أي اشتغلتكم بمفاحرة الدنيا حتى تزوروا القبور فتروا ما ينزل بكم من عذاب الله عز وجل .

الثالثة - قوله تعالى : (الْمَقَابِرَ) جمع مقبرة ومقبرة (بفتح الباء وضمها) . والقبور جمع القبر ؛ قال :

(١) ما بين المربعين من رواية أبي هريرة في سند آخر لا من رواية مطرف (راجع صحيح مسلم) .

أرى أهل القصور إذا أميتوا * بنوا فوق المقابر بالصخور
أبوا إلا مباحة ونخرا * على الفقراء حتى في القبور

وقد جاء في الشعر المَقْبَرُ ؛ قال :

لكل أناس مَقْبَرٌ بِفَنَائِهِمْ * فهم ينقصون والقبور تزيد

وهو المَقْبَرِيُّ والمَقْبَرِيُّ لسعيد المقبري ؛ وكان يسكن المقابر . وقَبَرْتُ الميت أَقْبَرُهُ وَأَقْبَرُهُ قَبْرًا أى دَفَنْتُهُ . وأَقْبَرْتُهُ أى أَمَرْتُ بِأَنْ يُقْبَرَ . وقد مضى في سورة « عبس » القول فيه .
والحمد لله .

الرابعة - لم يأت في التنزيل ذِكْرُ المقابر إلا في هذه السورة . وزيارتها من أعظم
الدواء للقلب القاسى ؛ لأنها تذكر الموت والآخرة . وذلك يحمل على قصر الأمل والزهد في الدنيا
وترك الرغبة فيها . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوا
الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَتَذَكِّرُ الْآخِرَةَ " رواه ابن مسعود ؛ أخرجه ابن ماجه . وفي صحيح
مسلم من حديث أبي هريرة : " فَإِنَّهَا تَذَكِّرُ الْمَوْتَ " . وفي الترمذى عن بُرَيْدَةَ : " فَإِنَّهَا تَذَكِّرُ
الْآخِرَةَ " . قال هذا حديث حسن صحيح . وفيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أمن زقارات القبور . قال : وفي الباب عن ابن عباس وحسان بن ثابت . قال أبو عيسى :
وهذا حديث حسن صحيح . وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي
صلى الله عليه وسلم في زيارة القبور ؛ فلما رخص دخل في رخصته الرجال والنساء . وقال
بعضهم : إنما كره زيارة القبور للنساء لقلّة صبرهن وكثرة جزعهن .

قلت : زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء ، مختلف فيه للنساء . أما الشواب
فحرام عليهن الخروج ، وأما القواعد فباح لهن ذلك . وجائز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج
عن الرجال ؛ ولا يختلف في هذا إن شاء الله . وعلى هذا المعنى يكون قوله : " زوروا القبور " عام .
وأما مَوْضِعُ أو وَقْتُ يُخْشَى فِيهِ الْفِتْنَةُ من اجتماع الرجال والنساء فلا يحل ولا يجوز .

(١) راجع ج ١٩ ص ٢١٧

فبينما الرجلُ يخرج ليعتبر فيقع بصره على امرأة فيفتن وبالعكس ؛ فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور . والله أعلم .

الخامسة - قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القَهْر إلى طاعة ربه، أن يُكثر من ذكر هاذم اللذات^(١)، ومُفَرِّق الجماعات، ومُوتِم البنين والبنات، وبوافظ على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين. فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه ولزمه ذنبه أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعدائه؛ فإن أنتفع بالإكثار من ذكر الموت، وأنجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه واستحكمت فيه دواعي الذنب؛ فإن مشاهدة المحتضرين وزيارة قبور أموات المسلمين تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير. وفي مشاهدة من أخصر وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ومشاهدة؛ فذلك كان أبلغ من الأول؛ قال صلى الله عليه وسلم: "ليس الخبر كالمعاينة". رواه ابن عباس. فاما الاعتبار بحال المحتضرين فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات. وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر. فينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدب بأدائها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداد فقط؛ فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة. ونعوذ بالله من ذلك. بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنب المشي على المقابر والجلوس عليها، ويسلم إذا دخل المقابر، وإذا وصل إلى قبر ميتة الذي يعرفه سلم عليه أيضا، وأتاه من تلقاء وجهه؛ لأنه في زيارته كمخاطبته حيا، ولو خاطبه حيا لكان الأدب استقباله بوجهه؛ فكذلك ها هنا. ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وأنقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ بقاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه. فليتأمل الزائر حال

(١) هاذم (بالذال المعجمة) بمعنى قاطع؛ والمراد الموت؛ إما لأن ذكره يزهدها فيها، وإما لأنه إذا جاء لا يبق من لذائذ الدنيا شيئا.

من مضى من إخوانه ، ودرج من أقرانه الذين بلغوا الآمال وجمعوا الأموال ؛ كيف أنقطعت
 آمالهم ، ولم تُغن عنهم أموالهم ، ومحا التراب محاسن وجوههم ، وأفترقت في القبور أجزاءهم ،
 وترقل من بعدهم نساؤهم ، وشمل ذلُّ اليتم أولادهم ، وأقسم غيرهم طريفهم وتلادهم .
 ولتذكر ترددهم في المآرب ، وحرصهم على نيل المطالب ، وأنخداعهم لمواتاة الأسباب ،
 وركونهم إلى الصحة والشباب . وليعلم أن ميسله إلى اللهو واللعب كليلهم ، وغفلته عما بين
 يديه من الموت الفظيع والهلاك السريع كغفلتهم ، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم ، وليحضر
 بقلبه ذكر من كان مترددا في أغراضه ، وكيف تهدمت رجلاه ، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خوله
 وقد سالت عيناه ، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه ، ويضحك لمواتاة دهره
 وقد أبلت التراب أسنانه ، وليتحقق أن حاله كحالهم ، وماله كمالهم . وعند هذا التذكير والاعتبار
 تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية ، ويُقبل على الأعمال الأخروية ، فيزهد في دنياه ، ويُقبل
 على طاعة مولاه ، ويلين قلبه وتخشع جوارحه .

قوله تعالى : **كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾**

قوله تعالى : **(كَلَّا)** قال الفراء : أى ليس الأمر على ما أتم عليه من النفاخر
 والتكاذب . والتمام على هذا **(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)** أى سوف تعلمون عاقبة هذا . **(ثُمَّ كَلَّا
 سَوْفَ تَعْلَمُونَ)** وعيد بعد وعيد ؛ قاله مجاهد . ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد
 والتغليظ ؛ وهو قول الفراء . وقال ابن عباس : **« كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ »** ما ينزل بكم من
 العذاب في القبر . **« ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ »** في الآخرة إذا حل بكم العذاب . فالأول
 في القبر والثاني في الآخرة ؛ فالتكرار للمخاتين . وقيل : **« كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ »** عند المعاينة
 أن ما دعوتكم إليه حق . **« ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ »** عند البعث أن ما وعدتكم به صدق .
 وروى زر بن حبيش عن علي رضي الله عنه قال : كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت هذه
 السورة ، فأشار إلى أن قوله : **« كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ »** يعنى في القبور . وقيل : **« كَلَّا سَوْفَ**

(١) في نسخة : « تزودم المآرب » .

تَعْلَمُونَ» إذا نزل بكم الموت وجاءتكم رسل لئزع أرواحكم . (ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) إذا دخلتم قبوركم وجاءكم منكر ونكير، وحاط بكم هَوُّ السُّؤال، وانقطع منكم الجواب .

قلت : فتضمنت السورة القول في عذاب القبر . وقد ذكرنا في كتاب « التذكرة » أن الإيمان به واجب والتصديق به لازم؛ حسب ما أخبر به الصادق، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلف في قبره برّد الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليعقل ما يسأل عنه وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أعد له في قبره من كرامة وهوان . وهذا هو مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة . وقد ذكرناه هناك مستوفى والحمد لله . وقيل : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » عند النشور أنكم مبعوثون « ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » في القيامة أنكم معذبون . وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحشر، وسؤال وعرض، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها؛ حسب ما ذكرناه في كتاب « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » . وقال الضحاك : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » يعني الكفار « ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » : قال المؤمنون . وكذلك كان يقرؤها ، الأولى بالثناء والثانية بالياء .

قوله تعالى : كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) أعاد « كَلَّا » وهو زجر وتنبية ، لأنه عقب كل واحد بشيء آخر؛ كأنه قال : لا تفعلوا فإنكم تتدمون، لا تفعلوا فإنكم تستوجبون العقاب . وإضافة العلم إلى اليقين كقوله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ » . وقيل : اليقين ها هنا الموت؛ قاله قتادة . وعنه أيضا البعث؛ لأنه إذا جاء زال الشك . أي لو تعلمون علم البعث . وجواب « لو » محذوف؛ أي لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور ، وأنشقت اللُّحود عن جُثثكم كيف يكون حشركم ؛ لشغلكم ذلك عن التكاثُر بالدنيا . وقيل : « كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ » أي لو قد تطايرت الصحف فشقي وسعيد .

(١) آية ٩٥ سورة الواقعة . (٢) كذا في نسخ الأصل .

وقيل : إن « كلا » في هذه المواضع الثلاثة بمعنى « ألا » قاله ابن أبي حاتم، وقال الفراء :
هي بمعنى « حقا » وقد تقدم الكلام فيها مستوفى .

قوله تعالى : لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) هذا وعيد آخر . وهو على إضمار القسم ؛ أي لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ
في الآخرة . والخطاب للكفار الذين وَجَّبت لهم النار . وقيل : هو عام ؛ كما قال : « وَإِنَّ
مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا »^(١) فهي للكفار دارٌ وللمؤمنين ممرٌ . وفي الصحيح : « فيمتر أولهم كالبرق ثم
كالريح ثم كالطير ... » الحديث . وقد مضى في سورة « مريم » . وقرأ الكسائي وابن عامر
« لَتَرَوُنَّ » بضم التاء من أريته الشيء ؛ أي تحشرون إليها فترونها . وعلى فتح التاء هي قراءة
الجماعة ؛ أي ترون الجحيم بأبصاركم على البعد . (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) أي مشاهدة .
وقيل : هو إخبار عن دوام مقامهم في النار ؛ أي هي رؤية دائمة متصلة . والخطاب على
هذا للكفار . وقيل : معنى « لَو تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ » أي لو تعلمون اليوم في الدنيا علم اليقين
فيها أماكم مما وصفت « لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ » بعيون قلوبكم ؛ فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين
فؤادك ؛ وهو أن تتصور لك تارات القيامة وقطع مسافاتها . « ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ »
أي عند المعاينة بعين الرأس فتراها يقينا لا تغيب عن عينك « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ »
في موقف السؤال والعرض .

قوله تعالى : ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة
قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبي بكر وعمر ؛ فقال :
« ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ » فلا : الجوع يا رسول الله . قال : « وأنا »

(٢) آية ٧١ - سورة مريم .

(١) راجع ج ١١ ص ١٤٧ فابدها .

(٢) راجع ج ١١ ص ١٣٧

والذي نفسى بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوماً“ فقاما معه ، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته ، فلما رآته المرأة قالت : مرحباً وأهلاً . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أين فلان ؟“ قالت : يستعذب لنا من الماء ؛ إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، ثم قال : الحمد لله ! ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني . قال : فانطلق بجفاهم يعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال : كلوا من هذه . وأخذ المذبة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إياك والحلوب “ فذبح لهم فاكلوا من الشاة ومن ذلك العذق ، وشربوا ؛ فلما أن شبعوا ورؤوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : ” والذي نفسى بيده لتسألن عن نعم هذا اليوم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعم “ خرجه الترمذي ، وقال [فيه] : ” هذا والذي نفسى بيده من النعم الذي تسألون عنه يوم القيامة ، ظل بارد ، ورطب طيب ، وماء بارد “ وكفى الرجل الذي من الأنصار فقال : أبو الهيثم بن التيهان . وذكر قصته .

قلت : أسم هذا الرجل الأنصاري مالك بن التيهان ، ويكنى أبا الهيثم . وفي هذه القصة يقول عبد الله بن رباح ، يمدح بها أبا الهيثم بن التيهان :

فلم أرَ كالإسلامِ عزاً لِأُمَّةٍ * ولا مِثْلَ أضيافِ الأرائِ ، معشراً
 نبيٍّ وصديقٍ وفاروقٍ أُمِّيَّةٍ * وخيرِ بني حِوَاءِ فرعاً وعنصراً^(٢)
 فوافوا لِمِيقَاتٍ وَقَدَرِ قَضِيَّةٍ * وكانَ قضاءُ اللهِ قَدراً مَقْدراً^(٣)
 إلى رجلٍ تَجِدُ يَأري بِجُودِهِ * شموِسَ الضُّحَى جُوداً ومَجْداً ومَفخَراً
 وفارِسِ خَلقِ اللهِ في كَلِّ غَارَةٍ * إذا لَيسَ القَومُ الحَديدَ المُسمِراً
 ففدى وحياً ثم أدنى قراهم * فلم يقربهم إلا تميماً ممتراً^(٤)

(١) كذا في جميع نسخ الأصل . (٢) في نسخة من الأصل : « وخير نبي جاء » .

(٣) في نسخة من الأصل : « أمرا » . (٤) المقطع .

وذكر أبو نعيم الحافظ عن أبي عسيب مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً ، فدعاني فخرجت إليه ، ثم مرّ بابي بكر فدعاه فخرج إليه ، ثم مرّ بعمر فدعاه فخرج إليه ، فأنطلق حتى دخل حائطا لبعض الأنصار ، فقال لصاحب الحائط : "أطعمنا بُسْرًا" فجاء بَعْدَق فوضعه فأكلوا ، ثم دعا بماء فشرب فقال : "تسألن عن هذا يوم القيامة" قال : وأخذ عمر العِدْق فضرب به الأرض حتى تناثر البُسْر نحو وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يا رسول الله ، إنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة ؟ قال : "نعم إلا من ثلاث كسرة يسد بها جوعته أو ثوب يستر به عورته أو حجر يأوى إليه من الحز والقر" ، وأختلف أهل التأويل في النعيم المسئول عنه على عشرة أقوال : أحدها - الأيمن والصحة ، قاله ابن مسعود . الثاني - الصحة والفراغ ، قاله سعيد بن جبير . وفي البخاري عنه عليه السلام : "نعمتان مغبون^(١) فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ" . الثالث - الإدراك بحواس السمع والبصر ، قاله ابن عباس . وفي التنزيل : «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ^(٢) عَنْهُ مَسْئُولًا» . وفي الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالًا وَوَلَدًا ... " الحديث . أخرجه الترمذي وقال فيه : حديث حسن صحيح . الرابع - ملاذ المأكل والمشروب ، قاله جابر بن عبد الله الأنصاري . وحديث أبي هريرة يدل عليه . الخامس - أنه الغداء والمشاء ، قاله الحسن . السادس - قول مكحول الشامي - : أنه شبع البطون ، وبارد الشراب ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ، ولذة النوم . ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ" يعني عن شبع البطون ...

فذكره . ذكره الماوردي وقال : وهذا السؤال يعم الكافر والمؤمن ، إلا أن سؤال المؤمن

(١) أي ذو خسران فيهما . والنعمة : ما ينعم به الإنسان ويستلذه . والغبن : أن يشتري بأضغاف الثمن ، أو يبيع بدون ثمن المثل . فن صح بدنه ، ونفرغ من الأشغال العائقة ولم يسع لصلاح آخره فهو كالمغبون في البيع .
والمقصود : بيان أن غالب الناس لا ينتفعون بالصحة والفراغ ، بل يصرفونها في غير محالها . (من شرح سنن ابن ماجه) .
(٢) آية ٣٦ سورة الإسراء .

تبشير بأن يجمع له بين نعم الدنيا ونعيم الآخرة . وسؤال الكافر تفريغ أن قابل نعم الدنيا بالكفر والمعصية . وقال قوم : هذا السؤال من كل نعمة إنما يكون في حق الكفار؛ فقد روى أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله ، أرايت أكلتها معك في بيت أبي الهيثم بن النيثان ، من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب^(١) وماء عذب ؛ أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نُسأل عنه ؟ فقال عليه السلام : ” ذلك للكفار — ثم قرأ : — « وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكُفُورُ^(٢) » . ذكره القشيري أبو نصر . وقال الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار . قال القشيري : والجمع بين الأخبار أن الكل يسألون ، ولكن سؤال الكفار سؤال توبيخ ؛ لأنه قد ترك الشكر . وسؤال المؤمن سؤال تشريف ؛ لأنه شكر . وهذا النعيم في كل نعمة .

قلت : هذا القول حسن ؛ لأن اللفظ يعم . وقد ذكر الفريابي قال : حدثنا ورقاء عن ابن أبي تيجع عن مجاهد في قوله تعالى : « ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » قال : كل شيء من لذة الدنيا . وروى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى ليعتد نعمة على العبد يوم القيامة حتى يعد عليه ما لتي فلانة أن أزوجهكها فيسميها باسمها فزوجتكها » . وفي الترمذي عن أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية « ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » قال الناس : يا رسول الله ، عن أي النعيم نُسأل ؟ وإنما هما الأسودان والعدو حاضر ، وسيوفنا على عواتقنا . قال : « إن ذلك سيكون » . وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ” إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة — يعني العبد — أن يقال له ألم نصبح لك جسمك وزرؤيك من الماء البارد ” قال : حديث غريب . وروى من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده فيوقفه بين يديه فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله ” . والجاه من نعيم الدنيا لا محالة . وقال مالك رحمه الله : إنه صحة البدن وطيب النفس ؛ وهو القول السابع . وقيل : النوم مع الأمن والعافية . وقال سفيان بن عيينة : إن ما سد الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس ، لا يسأل عنه المرء يوم القيامة ، وإنما يسأل عن النعيم . قال : والدليل عليه أن الله تعالى أسكن آدم الجنة (١) أي بدأ فيه الإرتباب . (٢) آية ١٧ سورة سبا ، وهذه قراءة نافع . (٣) الأسودان : التمر والماء .

فقال له : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى » . فكانت هذه الأشياء الأربعة — ما يسد به الجوع ، وما يدفع به العطش ، وما يستكن فيه من الحر ، ويستقر به عورته — لآدم عليه السلام بالإطلاق ، لا حساب عليه فيها ؛ لأنه لا بد له منها .

قلت : ونحو هذا ذكره القشيري أبو نصر قال : إن مما لا يسأل عنه العبد لباساً يوارى سواته ، وطعاماً يُقيم صُلبه ، ومكاناً يُكنه من الحر والبرد .

قلت : وهذا منتزع من قوله عليه السلام : « ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجلف الخبز والماء » أخرجه الترمذي . وقال النضر بن شميل : جلف الخبز ليس معه إدام . وقال محمد بن كعب : النعيم هو ما أنعم الله علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم . وفي التنزيل : « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » .^(٢)

وقال الحسن أيضاً والمفضل : هو تخفيف الشرائع وتيسير القرآن ؛ قال الله تعالى : « وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »^(٣) ، وقال تعالى : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ »^(٤) .

قلت : وكل هذه نعم ، فيسأل العبد عنها هل شكر ذلك أم كفر . والأقوال المتقدمة أظهر . والله أعلم .

تفسير سورة « والعصر »

وهي مكية . وقال قتادة مدنية ؛ وروى عن ابن عباس . وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَالْعَصْرِ ﴿١﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : (وَالْعَصْرِ) أى الدهر ؛ قاله ابن عباس وغيره . فالعصر مثل

الدهر ؛ ومنه قول الشاعر :

سَبِيلُ الْهَوَى وَعَصْرٌ وَبَجْرُ الْهَوَى عَمْرٌ • وَيَوْمُ الْهَوَى شَهْرٌ وَشَهْرُ الْهَوَى دَهْرٌ

(٢) آية ١٦٤ سورة آل عمران .

(٤) آية ١٧ سورة القمر .

(١) آية ١١٨ ، ١١٩ سورة طه .

(٣) آية ٧٨ سورة الحج .

أى عصر أقسم الله به عزَّ وَجَلَّ ؛ لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها ، وما فيها من الدلالة على الصانع . وقيل : المعصر الليل والنهار . قال حميد بن ثور :
 وَلَنْ يَبْتَثَّ الْمَعْصِرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ * إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَا مَا تَجَمَّعَا
 والمعصران أيضا الغداة والعشي . قال :

وَأَمَطُّهُ الْعَصْرَيْنِ حَتَّى يَمَلَّنِي * وَيَرْضَى بِنِصْفِ الدِّينِ وَالْأَنْفِ رَاغِمٌ
 يقول : إذا جاءني أول النهار وَصَدَّتْهُ آخِرُهُ . وقيل : إنه العشي وهو ما بين زوال الشمس وغروبها ؛ قاله الحسن وقتادة . ومنه قول الشاعر :

تَرَوُّحٌ بِنَا يَاعْمُرُوقٌ قَدْ قَصَرَ الْعَصْرُ * وَفِي الرُّوحَةِ الْأُولَى الْغَنِيمَةُ وَالْأَجْرُ

وعن قتادة أيضا : هو آخر ساعة من ساعات النهار . وقيل : هو قسم بصلاة العصر وهي الوسطى ؛ لأنها أفضل الصلوات ؛ قاله مقاتل . يقال : أذن للعصر ؛ أى لصلاة العصر . وصليت العصر ؛ أى صلاة العصر . وفي الخبر الصحيح "الصلاة الوسطى صلاة العصر" . وقد مضى في سورة «البقرة» بيانه . وقيل : هو قسم بعصر النبي صلى الله عليه وسلم لفضله بتجديد النبوة فيه . وقيل : معناه ورب العصر .

الثانية — قال مالك : مَنْ حَلَفَ أَلَّا يَكْتُمَ رَجُلًا عَصْرًا لَمْ يَكْتُمِهِ سَنَةً . قال ابن العربي :
 «إنما حمل مالك يمين الخالف ألا يكتم أمرا عصرا على السنة ؛ لأنه أكثر ما قيل فيه ، وذلك على أصله في تخطيط المعنى في الأيمان . وقال الشافعي : يبرأ بساعة إلا أن تكون له نية ، وبه أقول ؛ إلا أن يكون الخالف عربيا فيقال له : ما أردت ؟ فإذا فسره بما يحتمله قيل منه إلا أن يكون الأقل ويحییء على مذهب مالك أن يحمل على ما يفسر . والله أعلم .»

قوله تعالى : إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٌ خَصِيرٌ ﴿١٠٠﴾

هذا جواب القسم والمراد به الكافر ؛ قاله ابن عباس في رواية أبي صالح . وروى الضحاك عنه قال : يريد جماعة من المشركين الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود

(١) : راجع ج ٣ ص ٢١٠

ابن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى ، والأسود بن عبد يثوث . وقيل : يعنى بالإنسان جنس الناس . (لنّى خُسَيْر) لنّى غبن . وقال الأخفش : هَلَكَة . الفراء : عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا » . ابن زيد : لنّى شَرًّا . وقيل : لنّى نَقْصًا ، والمعنى متقارب . وروى عن سلام « والعصر » بكسر الصاد . وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى الثقفى « خُسَيْر » بضم السين . وروى ذلك هارون عن أبي بكر عن عاصم . والوجه فيهما الإتيان . ويقال : خُسِرَ وخُسِرَ ؛ مثل عُسِرَ وعُسِرَ . وكان على يقرأها « والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان لنّى خسر . وإنه فيه إلى آخر الدهر » . وقال إبراهيم : إن الإنسان إذا عمّر في الدنيا وهَرَمَ ، لنّى نقص وضعف وتراجع ؛ إلا المؤمنين فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم ؛ نظيره قوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » . قال : وقرأتنا « والعصر إن الإنسان لنّى خُسِر وإنه في آخر الدهر » . والصحيح ما عليه الأمة والمصاحف . وقد مضى الرد في مقدمة الكتاب على من خالف مصحف عثمان ، وأن ذلك ليس بقرآن يُتلى ؛ فتأمله هناك .^(٢)

قوله تعالى : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا) استثناء من الإنسان ؛ إذ هو بمعنى الناس على الصحيح . قوله تعالى : (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) أى أدوا الفرائض المفترضة عليهم ؛ وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبى بن كعب : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم « والعصر » ثم قلت : ما تفسيرها يا نبي الله ؟ قال : « « والعصر » قَسَمَ من الله أقسم ربكم بآخر النهار » إن الإنسان لنّى خُسَيْر » أبو جهل « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا » أبو بكر « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » عمر « وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ » عثمان « وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » على ؛ رضى الله عنهم أجمعين . وهكذا خطب

(١) آية ٩ سورة الطلاق . (٢) راجع ج ١ ص ٨٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

أبن عباس على المنبر موقوفا عليه . ومعنى (وتواصوا) أى تحابوا ، أوصى بعضهم بعضاً ، وحث بعضهم بعضاً . (بالحق) أى بالتوحيد ؛ كذا روى الضحاك عن ابن عباس . وقال قتادة : « بالحق » أى القرآن . وقال السدى : الحق هنا هو الله عز وجل . (وتواصوا بالصبر) على طاعة الله عز وجل والصبر عن معاصيه . وقد تقدم^(١) . والله أعلم .

تفسير سورة « الهمزة »

مكية بإجماع . وهى تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَيَلُّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾

قد تقدم القول فى « الويل » فى غير موضع ، ومعناه الخزى والعذاب والهلكة . وقيل : وإي فى جهنم . (لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) قال ابن عباس : هم المشاءون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ،^(٢) الباغون للبراء العيب ؛ فعلى هذا هما بمعنى . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « شرار عباد الله تعالى المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبراء العيب » . وعن ابن عباس أن الهمزة القات ، والهمزة العياب . وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبى رباح : الهمزة الذى يغتاب ويطعن فى وجه الرجل ، والهمزة الذى يغتابه من خلفه إذا غاب ؛ ومنه قول حسان :

هُمَزْتُكَ فَأَخْتَضَعْتَ بَدَلَ نَفْسِ * بِقَافِيَةِ تَاجِجٍ كَالشُّوَاطِظِ^(٤)

(١) راجع ص ٧١ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ٢ ص ٧ طبعة ثانية .

(٣) فى بعض نسخ الأصل « المفقون » . (٤) رواية البيت كما فى ديوانه :

مجللة نعمه شانارا * مضرة تاجج كالشواط

كهمزة ضيغم يحيى عرينا * شديدمقارز الأضلاع خاظي

وأختار هذا القول النحاس، قال: ومنه قوله تعالى « وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ » (١) .
وقال مقاتل ضد هذا الكلام: إن الهمزة الذي يغتاب بالغبية، واللمزة الذي يغتاب في الوجه.
وقال قتادة ومجاهد: الهمزة الطعان في الناس، واللمزة الطعان في أنسابهم. وقال ابن زيد: الهامز
الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم. وقال سفيان الثوري: :
يهمز بلسانه، ويلمز بعينه. وقال ابن كيسان: الهمزة الذي يؤذى جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة
الذي يكسر عينه على جلسه، ويشير بعينه ورأسه وبجانبه. وقال مرة: هما سواء، وهو القنات
الطعان للراء إذا غاب . وقال زياد الأعجم :

تُدلي يودى إذا لاقيتني كذبا * وإن أغيب فانت الهامز اللمزة

وقال آخر :

إذا لقيتك عن شحط تكاشرتني * وإن تغيبت كنت الهامز اللمزة

الشحط: البعد. والهمزة أسم وضع للبالغة في هذا المعنى؛ كما يقال: سخره وصحكه للذي
يسخر ويضحك بالناس. وقرأ أبو جعفر محمد بن علي والأعرج « همزة لمزة » بسكون الميم
فيهما . فإن صح ذلك عنهما فهي في معنى المفعول ، وهو الذي يتعرض للناس حتى يهمزوه
ويضحكوا منه ، ويحملهم على الاغتياب ، وقرأ عبدالله بن مسعود وأبو وائل والنخعي والأعمش
« ويل للهمزة اللمزة » . وأصل الهمز: الكسر والعض على الشيء بعنف ، ومنه همز الحرف .
ويقال : همزت رأسه . وهمزت الجوز بكفى كسرتة . وقيل لأعرابي : أتهمزون الفارة ؟ فقال :
إنما themزها الهرة . الذي في الصحاح : وقيل لأعرابي أتهمز الفارة ؟ فقال السنور يهمزها .
والأول قاله الثعلبي ، وهو يدل على أن الهمز يسمى الهمزة . قال العجاج :

* ومن همزنا رأسه تهشما *

وقيل : أصل الهمز والزز الدفع والضرب . لَمَزَهُ يَلْمِزُهُ لَمَزًا إذا ضربه ودفعه . وكذلك
همزه أي دفعه وضربه . قال الراجز :

ومن همزنا عزه تبركها * على أسننه زوبعة أو زوبما

(١) آية ٥٨ سورة التوبة .

الْبُرْكََةُ : القيام على أربع . وبركته فتبركع ؛ أى صرعه فوقه على آسته ؛ قاله فى الصّاح .
والآية نزلت فى الأخنس بن شريق فيما روى الضحاك عن ابن عباس . وكان يأمز الناس ويميهم
مقبلين ومدبرين . وقال ابن جرير : فى الوليد بن المغيرة ، وكان يغتاب النبي صلى الله عليه
وسلم من ورائه ويقدهح فيه فى وجهه . وقيل : نزلت فى أبى بن خلف . وقيل : فى جميل
ابن عامر الثقفى^(١) . وقيل : إنها مرسلّة على العموم من غير تخصيص ؛ وهو قول الأكثرين .
قال مجاهد : ليست بخاصة لأحد ، بل لكل من كانت هذه صفته . وقال الفراء : يجوز أن
يذكر الشىء العام ويقصد به الخاص قصّد الواحد إذا قال : لا أزورك أبدا . فتقول : من
لم يزرني فليست بزائره ؛ يعنى ذلك القائل .

قوله تعالى : الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٤﴾

أى أعدّه - زعم - لنوائب الدهر ؛ مثل كرم وأكرم . وقيل : أحصى عدده ؛ قاله السدى .
وقال الضحاك : أى أعدّ ماله لمن يرثه من أولاده . وقيل : أى فاخر بعدده وكثرته . والمقصود
الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة . كما قال : «مَنَعَ لِلْخَيْرِ»^(٢) ، وقال : «وَجَمَعَ فَأَوْعَى»^(٣) .
وقراءة الجماعة « جمع » مخفف الميم . وشددها ابن عامر وحمزة والكسائى على التكرير .
وأختره أبو عبيد ؛ لقوله : «وَعَدَّدَهُ» . وقرأ الحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية « جمع » مخففا
« وَعَدَّدَهُ » مخففا أيضا ؛ فأظهروا التضعيف لأن أصله عدّه وهو بعيد ؛ لأنه وقع فى المصحف
بدالين . وقد جاء مثله فى الشعر ؛ لما أبرزوا التضعيف خففوه . قال :

مهلاً أمامة قد جربت من خلقي * أنى أجود لأقوام وإن ضينوا

(١) كذا فى نسخ الأصل . والنسب فى الطبرى : « جميل بن عامر الجمحى » . وفى سيرة ابن هشام (ص ٢٢٩
طبع أوربا) وتاريخ الكامل لابن الأثير (ج ٢ ص ٦٦ طبع أوربا) وبعض كتب التفسير : « جميل بن معمر الجمحى » .
(٢) آية ٢٥ سورة ق ، وآية ١٢ سورة ن . (٣) آية ١٨ سورة المارج .
(٤) فى اللسان وآب سيوبه : « مهلاً أعاذل » . وقد نسباه لقعب بن أم صاحب .

أراد ضنوا ويخلوا ، فأظهر التضعيف ؛ لكن الشعر موضع ضرورة . قال المهدي : من خفف «ومدده» فهو معطوف على المال ؛ أي وجمع مدده فلا يكون فلا على إظهار التضعيف ؛ لأن ذلك لا يستعمل إلا في الشعر .

قوله تعالى : **يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ** ﴿٤﴾ **كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ** ﴿٥﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٦﴾ **نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ** ﴿٧﴾ **الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى**
الْأَفْعِدَةِ ﴿٨﴾

قوله تعالى : **(يَحْسَبُ)** أي يظن **(أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)** أي يقيه حيا لا يموت ؛ قاله السدي . وقال عكرمة : أي يزيد في عمره . وقيل : أحياء فيما مضى ، وهو ما مضى بمعنى المستقبل . يقال : هلك والله فلان ودخل النار ؛ أي يدخل . **(كَلَّا)** رد لما توهمه الكافر ؛ أي لا يخلد ولا يبقى له مال . وقد مضى القول في « كَلَّا » مستوفى . وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة : إذا سمعت الله عز وجل يقول « كَلَّا » فإنه يقول كذبت . **(لَيُنْبَذَنَّ)** أي يطرحن وليقين . وقرأ الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحيد وابن محيصن « لَيُنْبَذَنَّ » بالثنية ؛ أي هو وماله . وعن الحسن أيضا « لَيُنْبَذَنَّ » على معنى لينبذن ماله . وعنه أيضا بالنون « لَنُنْبَذَنَّ » على إخبار الله تعالى عن نفسه ، وأنه ينبذ صاحب المال . وعنه أيضا « لَيُنْبَذَنَّ » بضم الذال ؛ على أن المراد **الهُمَزَةُ وَاللُّزَّةُ وَالْمَالُ** وجامعه . **(فِي الْحُطَمَةِ)** وهي نار الله ؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنها تكسر كل ما يلقى فيها وتحطمه وتهشمه . قال الراجز :

إِنَّا حَطَمْنَا بِالْقَضِيبِ مُضْعَبًا • يَوْمَ كَسَرْنَا أَنْفَهُ لِيَغْضَبَا

وهي الطبقة السادسة من طبقات جهنم ؛ حكاه الماوردي عن الكلبي . وحكى القشيري عنه : « الحطمة » الدركة الثانية من درك النار . وقال الضحاك : هي الدرك الرابع . ابن زيد : اسم من أسماء جهنم . **(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ)** على التعظيم لشأنها والتفخيم لأمرها .

(١) راجع ج ١١ ص ١٤٧

ثم فسرها ما هي فقال : (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَّةُ) أى التى أوقد عليها ألف عام وألف عام وألف عام ، فهى غير خامدة ، أعدّها الله للعصاة . (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ) قال محمد بن كعب : تأكل النار جميع ما فى أجسادهم ، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد خلقوا خلقا جديدا فرجعت تأكلهم . وكذا روى خالد بن أبى عمران عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن النار تأكل أهلها حتى إذا اطّلت على أفئدتهم أنتهت ثم إذا صدروا تعود فذلك قوله تعالى : « نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَّةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ » . " . وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه . أى إنه فى حال من يموت وهم لا يموتون ، كما قال الله تعالى : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا »^(١) فهم إذا أحياء فى معنى الإحياء . وقيل : معنى « تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ » أى تعلم مقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب ؛ وذلك بما استبقاه الله تعالى من الأمانة الدالة عليه . يقال : أطلع فلان على كذا أى علمه . وقد قال الله تعالى : « تَدَّهَوْا مِنْ أَدْبُرٍ وَتَوَلَّى »^(٢) وقال تعالى : « إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهُمْ تَغِيظًا وَزَفِيرًا »^(٣) . فوصفها بهذا فلا يبعد أن توصف بالعلم .

قوله تعالى : **إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ** (٨) **فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ** (٩)

أى مطبقة ؛ قاله الحسن والضحاك . وقد تقدم فى سورة « البلد » القول فيه . وقيل : مغلقة ؛ بلغة قريش . يقولون : أصدت الباب إذا أظقتة ؛ قاله مجاهد . ومنه قول صيد الله ابن قيس الرقيات :

إن فى القصر لو دخلنا غزالا • مُصَفَّقًا مُوَصَّدًا طَيِّبِ الْجَنَابِ

(فى عمَدٍ مُمَدَّدَةٍ) الفاء بمعنى الباء ؛ أى موصدة بعمد مُمَدَّدَةٍ ؛ قاله ابن مسعود ؛ وهى فى فراءته « بِعَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ » وفى حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم " ثم إن الله يبعث إليهم

(١) آية ٧٤ سورة طه . (٢) آية ١٧ سورة المارج . (٣) آية ١٢ سورة الفرقان .

(٤) راجع ص ٧٢ من هذا الجزء . (٥) صفق الباب وأصفقه : أظفه .

ملائكة بأطباق من نار ومسامير من نار وعمد من نار فتطبق عليهم بتلك الأطباق وتشد عليهم بتلك المسامير وتمد بتلك العمد فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه رّوح ولا يخرج منه غم وينسأهم الرحمن على عرشه ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم ولا يستغيثون بعدها أبدا وينقطع الكلام فيكون كلامهم زفيرا وشهيقا فذلك قوله تعالى « إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ » .

وقال قتادة : « عمد » يعذبون بها . واختاره الطبري . وقال ابن عباس : إن العمدة الممددة أغلال في أعناقهم . وقيل : قيود في أرجلهم ؛ قاله أبو صالح . وقال القشيري : والمعظم على أن العمدة أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار . وتشد تلك الأطباق بالأوتاد حتى يرجع عليهم غمها وحرها ، فلا يدخل عليهم رّوح . وقيل : أبواب النار مطبقة عليهم وهم في عمد ؛ أي في سلاسل وأغلال مطولة ، وهي أحكم وأرسخ من القصيرة . وقيل : هم في عمد ممددة ؛ أي في عذابها وآلامها يضربون بها . وقيل : المعنى في دهر ممدود ؛ أي لا أنقطاع له . وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم « فِي عُمَدٍ » بضم العين والميم جمع عمود . وكذلك « عَمَدٌ » أيضا . قال الفراء : والعَمَدُ والعُمَدُ جمعان صحيحان لعمود ؛ مثل أديم وأدم وأدم ، وأفيق وأفق وأفق . أبو عبيدة : عمد جمع عماد ؛ مثل إهاب وأهب . واختار أبو عبيد « عمد » بفتحين . وكذلك أبو حاتم ؛ اعتبارا بقوله تعالى : « رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » وأجمعوا على فتحها . قال الجوهري : العمود عمود البيت ، وجمع القلة أعمدة ، وجمع الكثرة عمد وعمد ؛ وقرئ بهما قوله تعالى : « فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ » . وقال أبو عبيدة : العمود كل مستطيل من خشب أو حديد ، وهو أصل للبناء مثل العباد . عمدتُ الشيء ، فأنعمد ؛ أي أفته بعماد يعتمد عليه . وأعمدته جمعات نحتة عمدا . والله أعلم .

(١) الأديم . الجلد المدبوغ . والأفوق : الجلد الذي لم يدبغ . وقيل : هو الذي لم يتم دباغته .

(٢) آية ٢ سورة الرعد .

تفسير سورة « الفيل »

وهي مكية بإجماع . وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ) أى ألم تُخَبَّر . وقيل : ألم تعلم . وقال ابن عباس : ألم تسمع . واللفظ استفهام والمعنى تقرير . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولكنه عام ؛ أى ألم تَرَوْا ما فعلت بأصحاب الفيل ؛ أى قد رأيتم ذلك وعرفتم موضع منى عليكم ، فما لكم لا تؤمنون . و (كَيْفَ) فى موضع نصب بـ « فَعَلَ رَبُّكَ » لا بـ « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ » من معنى الاستفهام .

الثانية - قوله تعالى : (بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) الفيلُ معروفٌ ، والجمع أفيال وفُيُولٌ وفَيْلَةٌ . قال ابن السكيت : ولا تفل أفيلة . [والأثني فَيْلَةٌ] وصاحبه فَيْالٌ . قال سيويه : يجوز أن يكون أصل فيل فُفلاً فكثير من أجل الياء ؛ كما قالوا : أبيض وبييض . وقال الأخفش : هذا لا يكون فى الواحد إنما يكون فى الجمع . ورجلٌ فيلُ الرأى ، أى ضعيف الرأى . والجمع أفيال . ورجلٌ فائلٌ ؛ أى ضعيف الرأى مخطئ الفراسة . وقد قال الرأى يُفَيْلُ فُيُولَةً ، وقيل رأيه تَفْيِيلًا ؛ أى ضَعْفَهُ ، فهو فيلُ الرأى .

الثالثة - فى قصة أصحاب الفيل ؛ وذلك أن أبرهة بنى القليس بصنعاء ، وهى كنيسة لم يرمثلها فى زمانها بشيء من الأرض ، وكان نصرانيا ، ثم كتب إلى النجاشي أنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْنِ مثلها لملك كان قبلك ، ولستُ بمتته حتى أصرف إليها حج العرب .

(١) من تمة قول ابن السكيت . (٢) فى اللسان : « وصاحبها » .

فلما تحدّثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي^(١) ، غضب رجل من النساء^(٢) ، فخرج حتى أتى الكنيسة فقعدها فيها - أي أحدث - ثم خرج فلحق بأرضه ؛ فأخبر بذلك أبرهة فقال : من صنع هذا ؟ فقيل : صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تمجّع إليه العرب بمكة لما سمع قولك : «أصرف إليها حجّ العرب» غضب بغياء فقعدها فيها. أي لأنها ليست لذلك بأهل . فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه ، وبعث رجلا كان عنده إلى بني كنانة يدعوهم إلى حجّ تلك الكنيسة ؛ فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل ؛ فزاد أبرهة ذلك غضبا وحنقا ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهّزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل ؛ وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به وراوا جهاده حقا عليهم حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام . فخرج إليه رجل من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإحرابه ؛ فأجابه من أجابه إلى ذلك ، ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر قاتلي به أسيرا ؛ فلما أراد قتله قال له ذو نفر : أيها الملك لا تقتلني ، فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيرا لك من قتلى ؛ فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق ، وكان أبرهة رجلا حلما . ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نقيب ابن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم : شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب ؛ فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نقيب أسيرا ؛ فأتى به فلما هم بقتله قال له نقيب : أيها الملك لا تقتلني ، فلانى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداى لك على قبيلتي خثعم شهران وناهس بالسمع والطاعة ؛ فغلى سبيله . وخرج به معه يده ، حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال من ثقيف فقالوا له : أيها الملك ، إنما نحن عبيدك ؛ سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وإيس بيئنا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات^(٣) - إنما تريد البيت الذي بمكة ،

(١) في سيرة ابن هشام : « من النساء أحد بنى فقيم بن عدى ... والنساء : الذين كانوا يفتنون المشركين على العرب في الجاهلية ، فيحلون النهر من أشهر الحرم ويحرمون مكانه النهر من أشهر الحل ، ويؤخرون ذلك الشهر ؛ ففيه أنزل الله تبارك وتعالى : « إنما النسيء زيادة في الكفر » . (راجع سيرة ابن هشام طبع أوربا ص ٢٩) .

(٢) بنو كنانة : قبيلة ذلك الرجل الذي أحدث في الكنيسة .

(٣) في سيرة ابن هشام : « واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة » .

وهم نبعت معك من يدلك طيه ؛ فتجاوز عنهم . وبعثوا معه أبا رِضال حتى أنزله المغمس^(١) ؛ فلما أنزله به مات أبو رِضال هناك فرجحت قبره العرب ؛ فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس ، وفيه يقول الشاعر :

وأرجم قبره في كل عام * كرجم الناس قبر أبي رِضال

فلما نزل أبرهة بالمغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له ، حتى أتتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ؛ فهتت قريش وكثانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ؛ ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك . وبعث أبرهة حناطة الحميري^(٢) إلى مكة وقال له : سل عن سيد هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لي بحرب فلا حاجة لي بدمائكم ؛ فإن هو لم يرد حربى فاتنى به . فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ؛ فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ؛ بغناه فقال له ما أمره به أبرهة ؛ فقال له عبد المطلب : والله ما تريد حربه ، وما لنا بذلك منه طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، أو كما قال ، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته ، وإن يُجَلَّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال له حناطة : فأنتلق إليه فإنه قد أمرنى أن آتية بك ؛ فأنتلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكرا ؛ فسأل عن ذى نقر وكان صديقا له حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له : يا ذا نقر ، هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نقر ؛ وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً وعشيا ! ما عندي غناء فى شيء مما نزل بك ، إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لى فسارسل إليه وأوصيه بك ، وأعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدالك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك ؛ فقال

(١) المغمس : موضع قرب مكة فى طريق الطائف . (٢) كذا فى بعض نسخ الأصل وتفسير الثعلبي

وتاريخ الطبرى (قسم أول ص ٩٣٧ طبع أوربا) وتاريخ ابن الأثير (ص ١ ص ٣٢١ طبع أوربا) .
وفى بعض الأصول وتفسير الطبرى وسيرة ابن هشام (ص ٣٣ طبع أوربا) : « مقصود » بالفاء ، بدل الفاف .
(٣) فى هامش نسخة : « عن سيد هذا البيت » .

حَسْبِي . فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة
ويطعم الناس بالسهل والوحوش في رهوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن
له عليه ، وأنفعه عنده بما استطعت ؛ فقال : أفعل . فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك ،
هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عين مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش
في رهوس الجبال ؛ فأذن له عليك فيكلمك في حاجته . قال : فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه عن
أن يجلسه تحته ؛ فنزل أبرهة عن سريره بجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه . ثم قال
لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان فقال : حاجتي أن يرد علي الملك مائتي
بعير أصابها لي . فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك
ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين
آبائك قد جئت لخدمه لا تكلمني فيه ! . قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن
للبيت رباً سمينه . قال : ما كان ليمنع مني ! قال أنت وذاك ؛ فرد عليه إبله . وأنصرف
عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحيز في شعف الجبال^(١)
والشعاب تخوفاً عليهم^(٢) . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من
قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده فقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة :

لأهم إن العبد يم . • نزع رحله فأمنع حلالك
لا يغلين صليبهم • ومحالم عدوا محالك^(٤)
إن يدخلوا البلد الحرا • م فامر ما بسدالك^(٣)

(١) شعف الجبال : رهوسها . (٢) المعزة الأذى . ومعزة الجحش : أن ينزلوا بقوم فياكلوا من
زروعهم بغير علم . وقيل : وطأتهم من مرورا به من مسلم أو معاهد ، وإصابتهم إياهم في حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم
يؤذن لهم فيه . (٣) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاررون . يريد بهم سكان الحرم .
(٤) « عدوا » بالعين المهملة ؛ ومعناه الاعتداء . وفي اللسان مادة « فدا » : « فداً » بالعين المهملة .
قال : « الفدا أصل الفد ، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك لحذف لانه ولم يستعمل تماماً إلا في الشعر . ولم يرد
عبد المطلب الفد به ، وإنما أراد القريب من الزمان » .

يقول: أى شئ ما بدالك لم تكن تفعله بنا، والحلال جمع حل، والمحال القوّة . وقيل :
إن عبد المطلب لما أخذ بحلقة باب الكعبة قال :

يَارَبِّ لَا أَرْجُو لِمَ سِوَاكَ • يَارَبِّ فَامْنَعْ مِنْهُمْ حِمَاكَ
إِنَّ عَدُوَّ الْبَيْتِ مِنْ حَادَاكَ • إِنَّهُمْ لَنْ يَهْتَرُوا قِوَاكَ

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي :

لَا هُمْ أَنْزَلُ الْأَسْوَدَ بِنَ مَفْصُودٍ • الْإِخْذَ الْمَهْجَمَةَ فِيهَا التَّقْلِيدُ^(١)
بَيْنَ حِرَاءٍ وَثَبِيرٍ فَالْيَيْدُ • يَحْبِسُهَا وَهِيَ أَوْلَاتُ التُّطْرِيدِ^(٢)
فَضَمَّهَا إِلَى طَهَاطِيمِ سُودٍ • [فَدَأْجَمُوا إِلَّا يَكُونُ مَعْبُودِ^(٣)
وَيَهْدِمُوا الْبَيْتَ الْحَرَامَ الْمَعْمُودَ • وَالْمَرْوَتَيْنِ وَالْمَشَاعِرَ السُّودَ]^(٤)
• أَخْفِرُهُ يَارَبِّ وَأَنْتَ مَحْمُودُ^(٥) •

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، ثم انطلق هو ومن معه
من قريش إلى شئف الجبال فتحوزوا فيها يتظفرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها . فلما أصبح
أبرهة تيباً لدخول مكة وهياً فيله وعباً جهشه ، وكان اسم الفيل محموداً ، وأبرهة تجتمع لهدم
البيت ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفييل بن حبيب حتى قام
إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال له : أبرك محمود ، وأرجع راشداً من حيث جئت ، فإنك
في بلد الله الحرام . ثم أرسل أذنه فبرك الفيل . وخرج نفييل بن حبيب يشتم حتى أصعد
في الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى ، فأدخلوا^(٦)

(١) الهجمة : القطعة الضخمة من الإبل . قيل هي ما بين الثلاثين والمائة . وقيل أولها الأربعون . وقيل ما بين
السبعين إلى المائة . (انظر كتب اللغة) . وتقليدها أنه يحمل في صفها شعارهم أنه هدى . (٢) حراء وثبير : جبلان
بمكة . واليد : جمع اليداء ، وهي الفلاة . وتطريد الإبل : تاجها . (٣) الطلطة : الهجمة . قال السهيلي : «طاطم
سود» بنى الطرج . (٤) ما بين المرهين لم يذكره ابن إسحاق في روايته . (٥) أخفروه : أى أقتض عهد
وهزله فلا تقوم . (٦) الطبر (محرّكة) : الفأس من السلاح (محرّكة) . والطبرزين آلة من السلاح تشبه الطبر .
وقيل هو الطبرجة .

مُحَاجِنٌ لَّهُمْ فِي مَرَّاقِهِ فَبَزَغُوهُ بِهَا لِيَقُومَ فَأَبَى ، فَوَجَّهُوهُ رَاجِعًا إِلَى الْيَمِينِ فَقَامَ يُهْرُولُ ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى الشَّامِ ففَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى الْمَشْرِقِ ففَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَوَجَّهُوهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ . وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنَ الْبَحْرِ أَمْثَالَ الْخَطَّاطِيفِ وَالْبَلَّاسَانِ ، مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ : حَجْرٌ فِي مِنتَقَارِهِ وَحَجْرَانِ فِي رِجْلَيْهِ أَمْثَالَ الْحِمْصِ وَالْعَدَسِ لَا تَصِيبُ مِنْهُمُ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ ؛ وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ . وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطَّرِيقَ الَّتِي جَاءُوا مِنْهَا ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلِ بْنِ حَبِيبٍ لِيَدْلَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ إِلَى الْيَمِينِ . فَقَالَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حِينَ رَأَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ مِنْ نِقْمَتِهِ :

أَيْنَ الْمَفْرُ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ * وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ

وقال أيضا :

بِمَدَّتْ اللَّهُ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرًا * وَخَفْتُ حِجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا
فَكُلُّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلٍ * كَأَنْتَ عَلَى اللَّحْبَشَانِ دَيْنًا

نَخْرَجُوا يَتَسَاقَطُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ ، وَيَهْلِكُونَ [بِكُلِّ مَهْلِكٍ] عَلَى كُلِّ سَهْلٍ ، وَأَصِيبُ أِبْرَهَةَ فِي جِسْمِهِ ، وَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ يَسْقُطُ أُنْمَلَةٌ أُنْمَلَةٌ ، كَمَا سَقَطَتْ مِنْهُ أُنْمَلَةٌ أَتْبَعَتْهَا مِنْهُ مِدَّةٌ تَمُثُّ قَيْحًا وَدَمًا ؛ حَتَّى قَدِمُوا بِهِ صَنْعَاءَ وَهُوَ مِثْلُ فَرَخِ الطَّائِرِ ، فَمَا مَاتَ حَتَّى أَنْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ ؛ فَمَا يَزْعُمُونَ .

وقال الكلبي ومقاتل بن سليمان - يزيد أحدهما وينقص - : سبب الفيل ما روى أن فتيحة من قريش خرجوا تجارا إلى أرض النجاشي ، فتزلوا على ساحل البحر إلى بيعة للنصارى تسمى النصارى الهيكل ، فأوقدوا نارا للطعامهم وتركوها وأرتحلوا ؛ فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البيعة نارا فأحترقت ؛ فأتى الصيربخ إلى النجاشي فأخبره ،

(١) المحجن : المصا. المنعطفة الرأس كالصوبجان . (٢) بزغوه : شرطوه . (٣) في اللسان والنهاية مادة (بلس) : «قال عباد بن موسى أظنها الزرازير» . (٤) الأشرم : أبرهة ؛ سمى بذلك لأنه جاءه حجر فشرم أفه فسمى الأشرم . (٥) زيادة عن سيرة ابن هشام . (٦) في سيرة ابن هشام : «منهل» . (٧) أي ينثر جسمه ، والأنملة طرف الأصبع . ويعبر بها عن الصغير من الأشياء . (٨) مث السقاء : ريح .

فامتشاط غضبا . فاتاه أبرهة بن الصباح ومجر بن شرحبيل وأبو يكسوم الكنديون ؛
 وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي مكة . وكان النجاشي هو الملك ، وأبرهة صاحب الجيش .
 وأبو يكسوم نديم الملك . وقيل وزير . ومجر بن شرحبيل من قواده . وقال مجاهد :
 أبو يكسوم هو أبرهة بن الصباح . فساروا ومعهم الفيل . قال الأكثرون : هو فيل واحد .
 وقال الضحاك : هي ثمانية فيلة . ونزلوا بذي المجاز ، وأستاقوا سرح مكة وفيها إبل
 عبد المطلب . وأتى الراعي نذيراً فصعد الصفا فصاح : واصباحاه ! ثم أخبر الناس بجيء الجيش
 والفيل . فخرج عبد المطلب وتوجه إلى أبرهة وسأله في إبله . وأختلف في النجاشي هل كان
 معهم ؛ فقال قوم كان معهم . وقال الأكثرون لم يكن معهم . ونظر أهل مكة بالطير قد أقبلت
 من ناحية البحر ؛ فقال عبد المطلب : إن هذه الطير غريبة بأرضنا ، وما هي بنجدية ولا تهامية
 ولا حجازية ، وإنما أشباه العاسيب ^(١) . وكان في مناقيرها وأرجلها حجارة ؛ فلما أظلت ^(٢) على
 القوم ألقها عليهم حتى هلكوا . قال عطاء بن أبي رباح : جاءت الطير عشيّة فباتت ثم صبحتهم
 بالغداة فرمتهم . وقال الكلبي : في مناقيرها حصي كحصى الخذف ^(٣) ، أمام كل فرقة طائر يقودها
 أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق . فلما جاءت عسكر القوم وتوافقت أهالت ما في مناقيرها
 على من تحتها ، مكتوب على كل حجر أسم صاحبه المقتول به . وقيل : كان على كل حجر مكتوب :
 من أطاع الله نجا ، ومن عصاه غوى . ثم انصاعت راجعة من حيث جاءت . وقال العوفي ^(٤) :
 سألت عنها أبا سعيد الخدري فقال : حمام مكة منها . وقيل : كان يقع الحجر على بيضة أحدهم
 فيخرقها ويقع في دماغه وينحرق الفيل والدابة ، وينيب الحجر في الأرض من شدة وقعه .
 وكان أصحاب الفيل ستين ألفاً ، لم يرجع منهم أحد إلا أميرهم رجع ومعه شزيمة لطيفة . فلما
 أخبروا بما رأوا هلكوا . وقال الواقدي : أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمان رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ، وأبرهة هو الأشرم ^(٥) سُمي بذلك لأنه تفاتن ^(٦) مع أرباط حتى تراحفا ،

(١) الصوب : أمير النحل وذكرها . (٢) في نسخة : « أقبلت » . (٣) الخذف : الرمي

بالحصا الصغار بأطراف الأصابع . (٤) انصاع الرجل : انقل راجعاً ومرّاً . (٥) هي بيضة الحديد .

(٦) التفاتت : اختلاف الناس في الآراء وما يقع بينهم من القتال .

ثم اتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما فمن غلب فله الأمر . فتبارزا - وكان أرباط جسيما عظيما في يده حربة ، وأبرهة قصيرا حاريا حليما ذا دين في النصرانية ، ومع أبرهة وزير له يقال له عتودة - فلما دنوا ضرب أرباط بحرسته رأس أبرهة فوقعت على جبينه فشرمت عينه وأنفه وجبينه وشفته ؛ فلذلك سُمي الأشرم . وحمل عتودة على أرباط فقتله . فاجتمعت الحبشة لأبرهة ؛ فغضب النجاشي وحلف ليجزئ ناصية أبرهة ويطأ بلاده . فجز أبرهة ناصيته وملا مزودا من تراب أرضه وبعث بهما إلى النجاشي وقال : إنما كان عبدك وأنا عبدك ، وأنا أقوم بأمر الحبشة ، وقد جزئت ناصيتي وبعثت إليك بتراب أرضي لتطاه وتبر في يمينك ؛ فرضى عنه النجاشي . ثم بنى أبرهة كنيسة بصنعاء ليصرف إليها حج العرب ؛ على ما تقدم .

الرابعة - قال مقاتل : كان عام الفيل قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة . وقال الكلبي وعبيد بن عمير : كان قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة . والصحيح ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ولدت عام الفيل " . وروي عنه أنه قال : " يوم الفيل " . حكاه الماوردي في التفسير له . وقال في كتاب أعلام النبوة : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول ، وكان بعد الفيل بخمسين يوما . ووافق من شهور الروم العشرين من أسباط في السنة الثانية عشرة من ملك هرمز بن أنوشروان . قال : وحكى أبو جعفر الطبري أن مولده صلى الله عليه وسلم كان لاثنتين وأربعين سنة من ملك أنوشروان . وقد قيل : إنه عليه السلام حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرم ، وولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ؛ فكانت مدة حملها ثمانية أشهر كمالا ويومين من التاسع . وقيل : إنه ولد يوم عاشوراء من شهر المحرم ؛ حكاه ابن شاهين أبو حفص في فضائل يوم عاشوراء له . ابن العربي : « قال ابن وهب عن مالك : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، وقال قيس بن مخرمة : ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل . وقد روى الناس عن مالك أنه قال :

(١) الحادر : المجتمع الخلق . (٢) في نسخة : « شباط » (بالشين المعجمة كغراب) . وورد بالسين المهملة .

(٣) في بعض نسخ الأصل : « أبو شاهين حفص » .

من مروءة الرجل الا يخبر بسنه ؛ لأنه إن كان صغيرا استحقروه وإن كان كبيرا استهرموه . وهذا قول ضعيف ؛ لأن مالكا لا يخبر بسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكتم سنه ؛ وهو من أعظم العلماء قدوة به . فلا بأس بأن يخبر الرجل بسنه كان كبيرا أو صغيرا . وقال عبد الملك ابن مروان لعتاب بن أسيد : أنت أكبر أم النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : النبي صلى الله عليه وسلم أكبر مني وأنا أسن منه ؛ ولد النبي صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس . وقيل لبعض القضاة : كم سنك ؟ قال : سن عتاب ابن أسيد حين ولّاه النبي صلى الله عليه وسلم مكة ؛ وكان سنه يومئذ دون العشرين .

الخامسة — قال علماؤنا : كانت قصة الفيل فيما بعد من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت قبله وقبل التحدي ؛ لأنها كانت توكيدا لأمره وتمهيدا لشأنه . ولما تلا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السورة ، كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة ، ولهذا قال : « ألم تر » . ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس . وقالت عائشة رضي الله عنها مع حدائثة سنها : لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس . وقال أبو صالح : رأيت في بيت أم هانئ بنت أبي طالب نحواً من قفيزين من تلك الحجارة سوداً مخططة بحمرة .

قوله تعالى : **أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ** ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : **(أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)** أي في إبطال وتضييع ؛ لأنهم أرادوا أن يكدوا قريناً بالقتل والسبي ، والبيت بالتخريب والهدم . فحكى عن عبد المطلب أنه بعث ابنه عبد الله على فرس له ، ينظر ما لقوا من تلك الطير ، فإذا القوم مُشدّخين جميعاً ، فرجع يركض فرسه كاشفاً عن نغذه ، فلما رأى ذلك ، أبوه قال : إن أبني هذا أفرس العرب ، وما كشف عن نغذه إلا بشيراً أو نذيراً . فلما دنا من ناديم بحيث يُسمعهم الصوت قالوا : ما ورامك ؟ قال : هلكوا جميعاً . فخرج عبد المطلب وأصحابه فأخذوا أموالهم . وكانت

أموال بني عبد المطلب منها، وبها تكاملت رياسة عبد المطلب؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء، ثم خرج أهل مكة بعده فنبهوا . وقيل : إن عبد المطلب حفر حفرتين فلاحهما من الذهب والجوهر ، ثم قال لأبي مسعود الثقفي - وكان خليلاً لعبد المطلب - : اختر أيهما شئت . ثم أصاب الناس من أموالهم حتى ضاقوا ذرعاً فقال عبد المطلب عند ذلك :

أنت منعت الحبش^(١) والأفبالا * وقد رَعَوَا بِمَكَّةِ الْأَجْبَالَا^(٢)
وقد خَشِينَا مِنْهُمْ الْقِتَالَا * وَكُلُّ أَمْرٍ لَهُمْ مَعْضَالَا^(٣)
* شُكْرًا وَحَمْدًا لَكَ يَا جَلَالَا^(٤) *

قال ابن إسحاق: ولما ردَّ الله الحبشة عن مكة عظمت العربُ قريشاً وقالوا: [هم] أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مئونة عدوهم . وقال عبدالله بن عمرو بن مخزوم في قصة أصحاب الفيل:
أنت الجليل ربنا لم تَدْنِسْ * أنت حبستَ الفيلَ بالمُغَمِّسِ
من بعد ما همَّ بِبَشَرٍ مُبْلِسِ * حبستَه في هيئَةِ الْمُكْرَكْسِ
* وما لهم من فَرَجٍ وَمَنْفَسِ *

والمكرس : المنكوس المطروح .

قوله تعالى : وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٤﴾

قال سعيد بن جبیر : كانت طيراً من السماء لم يرَ قبلها ولا بعدها مثلاً . وروى جُوَيْرٌ عن الضحاك عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إنها طير بين السماء والأرض تُعَشِّشُ وتُفْرَخُ" . وعن ابن عباس : كانت لها خراطيم تكراطم الطير وأكف كأكف الكلاب . وقال عكرمة : كانت طيراً خضراء ، خرجت من البحر ، لها رءوس كراءوس السباع ، ولم تُرَ قبل ذلك ولا بعده . وقالت عائشة رضي الله عنها : هي أشبه شيء بالحطاطيف . وقيل : بل كانت أشباه الوطاويط ، حمراء وسوداء . وعن

(١) الحبش : محرّكة وسكنت للشعر . (٢) في روح المعاني : «الأجبالا» بالخاء . (٣) في روح المعاني : «منهم» بدل «لهم» . (٤) كذا في نسخ الأصل وغيرها من المصادر . (٥) زيادة عن سيرة ابن هشام .

سعيد بن جبير أيضا : هي طير خضر لها مناقير صفر . وقيل : كانت بيضاء . وقال محمد ابن كعب : هي طير سود بحرية ، في مناقيرها وأظفارها الحجارة . وقيل : إنها العنقاء المغرب^(١) التي تُضرب بها الأمثال ؛ قال عكرمة : « أباييل » أي مجتمعة . وقيل : متتابعة بعضها في إثر بعض ؛ قاله ابن عباس ومجاهد . وقيل : مختلفة متفرقة ، تجيء من كل ناحية ، من ها هنا وها هنا ؛ قاله ابن مسعود وابن زيد والأخفش . قال النحاس : وهذه الأقوال متفقة ، وحقيقة المعنى أنها جماعات عظام . يقال : فلان يُؤبِل على فلان ؛ أي يعظم عليه ويكثر ؛ وهو مشتق من الإبل . وأختلف في واحد أباييل ؛ فقال الجوهري : قال الأخفش يقال : جاءت إبلك أباييل ؛ أي فرقا . وطير أباييل . قال : وهذا يجيء في معنى التكثير ، وهو من الجمع الذي لا واحد له . وقال بعضهم : واحده إبول مثل عجول . وقال بعضهم - وهو المبرد - : إبييل مثل سكين . قال : ولم أجد العرب تعريف له واحدا في غير الصحاح . وقيل في واحده إبال . وقال رؤبة بن العجاج في الجمع :

وَلَعِبْتُ طَيْرُ بِهِمُ أَبَايِيلُ * فَصُيروا مِثْلَ كَعَصِفٍ مَاكُولُ

وقال الأعشى :

طَرِيقٌ وَجِبَارٌ رِوَاءُ أَصُولُهُ * عَلَيْهِ أَبَايِيلٌ مِنَ الطَّيْرِ تَنْعَبُ

وقال آخر :

كَادَتْ تَهْدُ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحَتِي * إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَايِيلِ^(٣)

وقال آخر :

تَرَاهُمْ إِلَى الدَّاعِي سَرَاعًا كَأَنَّهُمْ * أَبَايِيلٌ طَيْرٌ تَحْتَ دَجْنٍ مَسْخَنٍ^(٤)

(١) هي التي أغربت في البلاد فئات ولم تحس ولم تر . (٢) الجبار من النخل : ما طال وفات اليد .
(٣) الجرد (بالضم كالجريدة) : خيل لا رجالة فيها . والجرد - أيضا - : قصر شعر الجلد في الفرس ، وهو من الأوصاف المحودة في الخيل . (٤) كذا في نسخ الأصل ، (بالخاء المعجمة والنون) . وفي تفسير الثعلبي : ... تحت دجن مسخر . (بالخاء المهملة والراء) . وقد نسي إلى امرئ القيس ؛ ولم نجد في ديوانه . ولعل صوابه : ... تحت دجن مسخر . (بالخاء المعجمة والراء) .

قال الفراء : لا واحد له من لفظه ، وزعم الرُّؤاسيُّ - وكان ثقة - أنه سمع في وأسنها «إِبالة» مشددة . وحكى الفراء «إِبالة» مخففاً . قال : سمعت بعض العرب يقول : ضغث^(١) على إبالة . يريد خصبا على خصب . قال : ولو قال قائل إيبال كان صوابا ؛ مثل دينار ودنانير . وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل : الأبايل مأخوذ من الإبل المؤبلة ؛ وهي الأفاطيع .

قوله تعالى : تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤١﴾

في الصحاح «حِجَارَةٌ مِّن سِجِّيلٍ» قالوا : حجارة من طين طبخت بنار جهنم ، مكتوب فيها أسماء القوم ؛ لقوله تعالى : «لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُّسَوَّمَةً» . وقال عبد الرحمن ابن أبيزى : «مِن سِجِّيلٍ» من السماء ، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط . وقيل من الجحيم . وهي «سِجِّين» ثم أبدلت اللام نونا ؛ كما قلوا في أصيلان أصيلا . قال ابن مقبل :
• ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سِجِّينًا^(٢) •

وإنما هو سِجِّيلًا . وقال الزجاج : «مِن سِجِّيلٍ» أي مما كُتِبَ عليهم أن يُعَذَّبُوا بِهِ ؛ مشتق من السجل . وقد مضى القول في سِجِّيلٍ في «هود» مستوفى . قال عكرمة : كانت ترميمهم بحجارة معها ، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجُدْرِيُّ لم يُرَقِبْ ذلك اليوم . وكان الحجر كالحصاة وفوق العدسة . وقال ابن عباس : كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِطَ جلده فكان ذلك أول الجُدْرِيِّ . وقراءة العامة «تَرْمِيهِمْ» بالناء لتأنيث جماعة الطير . وقراء الأعرج وطلحة «يَرْمِيهِمْ» بالياء ؛ أي يرميهم الله ؛ دليله قوله تعالى : «وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى»^(٣) ويجوز أن يكون راجعا إلى الطير لخلوها من علامات التأنيث ، ولأن تأنيثها ضرب حقيق .

(١) الضغث : قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس . والإبالة : الحزمة من الحطب . في فرائد الآل :

بضرب لمن حمله مكروها ثم زادك عليه . (٢) آية ٣٣ سورة الذاريات .

(٣) صدر البوت كما في اللسان : • وَرَجَلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ مِنْ مَرَضٍ •

(٤) راجع ج ٩ ص ٨١ . (٥) آية ١٧ سورة الأنفال .

قوله تعالى : فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّا كُولٍ ﴿٥٠﴾

أى جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع ، إذا أكلته الدواب فرمت به من أسفل .
شبهه تقطع أوصالهم بتفريق أجزائه . روى معناه عن ابن زيد وغيره . وقد مضى القول
في العصف في سورة « الرحمن »^(١) . ومما يدل على أنه ورق الزرع قول طقمة :

تَسْقِي مَذَانِبَ قَد مَالَتْ عَصِيفُهَا * حَدُّورُهَا مِنْ أَيْ الْمَاءِ مَطْمُومٌ^(٢)

وقال رؤبة بن العجاج :

وَمَسَّهُمْ مَا مَسَّ أَصْحَابَ الْفَيْلِ * تَرْمِيهِمْ حِجَارَةٌ مِنْ تَجِيلِ

وَلَعِبَتْ طَيْرٌ بِهِمْ أَبَابِيلُ * فَصَيَّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَّا كُولِ

العصف جمع واحدة عصفة وعصافة وعصيفة . وأدخل الكاف في « كعصف » للتشبيه

مع مثل ؛ نحو قوله تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »^(٣) . ومعنى « ما كُولٍ » ما كُول حبه . كما

يقال : فلان حسن ؛ أى حسن وجهه . وقال ابن عباس : « لجعلهم كعصف ما كُولٍ »

أن المراد به قشر البر ، يعنى الغلاف الذى تكون فيه حبة القمح . ويروى أن المجر كان يقع

على أحدهم فيخرج كل ما فى جوفه فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة . وقال ابن

مسعود : لما رمت الطير بالحجارة بعث الله ريحا فضربت الحجارة فزادتها شدة ، فكانت لا تقع

على أحد إلا هلك ، ولم يسلم منهم إلا رجل من كندة ؛ فقال :

فإنك لو رأيت ولم تَرِيهِ^(٤) * لَدَى جَنْبِ الْمُغَمَّسِ مَا لَقِينَا^(٥)

(١) راجع ج ١٧ ص ١٥٦ . (٢) المذانب : مسایل الماء . والعصيفة : الورق المجتمع الذى

يكون فيه السنبل . وحدورها : ما انحدر منها واطمان . والأقنى (كفتى) : الجدول . والمطموم : المملوء بالماء .

(٣) آية ١١ سورة الشورى . (٤) هو تقييل بن حبيب ؛ كما فى تاريخ الطبرى وابن الأثير .

(٥) فى نسخ الأصل : « ولوترانا » وهو تحريف ؛ لأنه يخاطب امرأة . والأبيات كما أوردها الطبرى

(ص ٩٤٢ قسم أول طبع أوربا) وابن الأثير (ج ١ ص ٣٢٢ طبع أوربا) :

ألا حبيت عنا يارديننا * نعمناكم مع الإصباح عينا

أنا قابس منكم عشاء * فلم يقدر لقابسكم لدينا

ردينة لو رأيت ولم تَرِيهِ * لدى جنب المحصب مارأينا

إذا لعدرتى وحدث رأيت * ولم تأمى على ما فات بيننا

حدث الله إذ عابنت طيرا * وخفت حجارة تلقى طينا

فكل القوم يسأل عن تقيل * كأن عليا للهبشان دينا

خَشِيتُ اللَّهَ إِذْ قَدَّ بَتَّ طَيْرًا * وَظَلَّ مَحَابِيَةَ مَرَّتْ عَلَيْنَا
وَبَاتَتْ كُلُّهَا تَدْعُو بِحَقِّي * كَأَنَّ لَهَا عَلَى الْجُبُشَانِ دَيْنًا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم . وقد تقدم أن أميرهم رجم
وشرذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا . فالله أعلم . وقال ابن إسحاق : لما ردَّ
الله الحبشة عن مكة عظمت العرب قريشا وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة
عدوهم ؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم .

تفسير سورة « قريش »

مَكِّيَّةٌ ؛ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ . وَمَدَنِيَّةٌ ؛ فِي قَوْلِ الضُّحَّاكِ وَالْكَلْبِيِّ
وَهِيَ أَرْبَعُ آيَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾

قيل : إن هذه السورة متصلةٌ بالتى قبلها فى المعنى . يقول : أهلك أصحاب الفيل
لإيلاف قريش ؛ أى لتألف ، أو لتتفق قريش ، أو لكى تأمن قريش فتؤلف رحلتها .
ومن عدت السورتين واحدةً أبى بن كعب ، ولا فصل بينهما فى مصحفه . وقال سفيان بن
عيينة : كان لنا إمام لا يفصل بينهما ويقرؤهما معاً . وقال عمرو بن ميمون الأودى : صلينا
المغرب خلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ فقرأ فى الأولى « والتين والزيتون » وفى الثانية
« ألم تر كيف » و « لإيلاف قريش » . وقال الفراء : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى ؛
لأنه ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال : « لإيلاف قريش » أى فعلنا
ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش . وذلك أن قريشا كانت تخرج فى تجارتها ، فلا يزار
عليها ولا تقرب فى الجاهلية . يقولون : هم أهل بيت الله جل وعز ؛ حتى جاء صاحب الفيل
(١) الذى فى كتاب الفراء : « قال بعضهم كانت موصولة بـ « ألم تر كيف فعل ربك » الخ .

ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارتها فيبنى بها بيتاً في اليمن يجمع الناس إليه؛ فأهلكهم الله عز وجل، فذكروهم نعمته. أى بفعل الله ذلك لإيلاف قريش؛ أى ليألفوا الخروج ولا يُجتَرأ عليهم؛ وهو معنى قول مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبيرة عنه. ذكره النحاس: حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمرو بن علي قال حدثني عامر بن إبراهيم — وكان ثقة من خيار الناس — قال حدثني خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة قال حدثني أبي عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس في قوله تعالى: «لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ» قال: نعمتي على قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف. قال: كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف. وعلى هذا القول يجوز الوقف على رءوس الآي وإن لم يكن الكلام تاماً؛ على ما بينه أثناء السورة. وقيل: ليست بمتصلة؛ لأن بين السورتين «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وذلك دليل على انقضاء السورة وافتتاح الأخرى، وأن اللام متعلقة بقوله تعالى: «فَلْيَعْبُدُوا» أى فليعبدوا هؤلاء رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للاختيار. وكذا قال الخليل: ليست متصلة؛ كأنه قال: آلف الله قريشا إيلافا فليعبدوا رب هذا البيت. وعمل ما بعد الفاء فيما قبلها لأنها زائدة غير عاطفة؛ كقولك: زيدا فأضرب. وقيل: اللام في قوله تعالى «لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ» لام التعجب؛ أى اعجبوا لإيلاف قريش؛ قاله الكسائي والأخفش. وقيل: بمعنى إلى. وقرأ ابن عامر: «لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ» مهموزاً مُخْتَلَساً بِلَا يَاءٍ. وقرأ أبو جعفر والأعرج «ليلاف» بلا همز طلباً للتحفة. الباكون «لِإِيْلَافِ» بالياء مهموزاً مُشْبَعاً؛ من آلفت أولف إيلافاً. قال الشاعر:

الْمُنْعِمِينَ إِذَا النُّجُومُ تَغَيَّرَتْ * وَالظَّاعِنِينَ لِرِحْلَةِ الْإِيْلَافِ

ويقال: ألفتها إلفاً وإلفاً. وقرأ أبو جعفر أيضاً: «لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ» وقد جمعتهما من قال:

زَعَمْتُمْ أَنْ إِخْوَانَكُمْ قُرَيْشٌ * لَهُمْ إِفٌّ وَلَيْسَ لَكُمْ إِفٌّ

قال الجوهري: وفلان قد ألف هذا الموضع (بالكسر) يالفه إلفاً، وألفه إياه غيره. ويقال أيضاً: آلفت الموضع أولفه إيلافاً. وكذلك آلفت الموضع أولفه مؤلفة وإلفاً؛

(١) أى جلب الطعام.

(٢) كذا في نسخ الأصل بالرفع على الخبر. وفي اللسان وشرح القاموس: «قريشا» بالنصب على البدل.

فصار صورة أفعَل وفاعل في الماضي واحدة. وقرأ عِكْرمة « لِبَالْف » بفتح اللام على الأمر . وكذلك هو في مصحف ابن مسعود . وفتح لام الأمر لغةً حكاهما ابن مجاهد وغيره . وكان عِكْرمة يعيب على من يقرأ « لإيلاف » . وقرأ بعض أهل مكة « إلاف قريش » وأستشهد بقول أبي طالب بوصى أخاه أبا لهب برسول الله صلى الله عليه وسلم :

فلا تتركه ما حَيَّيتَ لمُعْظِمٍ * وكن رجلاً ذا نجدة وعَفَافٍ

تذود العدا عن عصابة هاشمية * إلافهم في الناس خير إلاف

وأما قريش فهم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر . فكل من كان من ولد النضر فهو قُرَشِيٌّ دون بني كنانة ومن فوقه . وربما قالوا : قُرَيْشِيٌّ ، وهو القياس ؛ قال الشاعر :

* بكل قُرَيْشِيٍّ عليه مهابة ^(١) *

فإن أردت بقريش الحَيَّ صرفته ، وإن أردت به القَبيلة لم تصرفه ؛ قال الشاعر :

* وكفى قريش المعضلات وسادها ^(٢) *

والتقريش الاكتساب ، وتقرشوا أى تجمعوا . وقد كانوا متفرقين في غير الحرم بجمعهم قُصِيٌّ ابن كلاب في الحرم ، حتى اتخذوه مسكناً . قال الشاعر :

أبونا قُصِيٌّ كان يُدعى جُمعاً * به جمع الله القبائل من فِهْرٍ

وقد قيل : إن قريشا بنو فِهْر بن مالك بن النضر . فكل من لم يلبه فِهْرٌ فليس بقُرَشِيٌّ .

والأول أصح وأثبت . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أنا ولد النضر

ابن كنانة لا تقفوا أمنا ولا تلتفني من أبنينا " . وقال وائلة بن الأسقع : قال النبي صلى الله

(١) تمامه : * سريع إلى داعي الندى والتكرم *

(٢) هذا مجزئ بيت لعدي بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك . وصدده كافي اللسان :

* غلب المساميح الوليدُ سماحةً *

(٣) ففا فلان فلانا : إذا فذفه بما ليس فيه ، أى لا تهنها ولا نقدفها ، وقيل : معناه لا تترك النسب إلى الآباء

ونسب إلى الأمهات .

عليه وسلم: "إن الله أصطفى كنانة من ولد إسماعيل وأصطفى من بني كنانة قريشاً وأصطفى من قريش بنى هاشم وأصطفاني من بنى هاشم". صحیح ثابت خرجہ البخاری ومسلم وغيرهما . وأخيلف في تسميتهم قريشاً على أقوال : أحدها - لتجمعهم بعد التفرق . والتقرش : التجمع والالتئام . قال أبو خلدة البشكري :

إخوة قرشوا الذنوب علينا * في حديث من دهرهم وقديم

الثاني - لأنهم كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم . والتقرش : التكبب . وقد قرش يقرش قرشاً إذا كسب وجمع . قال الفراء : وبه سُميت قريش . الثالث - لأنهم كانوا يفتشون الحاج من ذى الخلة فيسدون خلته . والقرش التفتيش ؛ قال الشاعر :

أيها الشامت المقرش عنا * عند عمرو فهل له إبقاء^(٢)

الرابع - ما روى أن معاوية سأل ابن عباس لم سُميت قريش قريشاً ؟ فقال : لدابة في البحر من أقوى دوابه يقال لها القرش ؛ تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تُعلَى . وأنشد قول تبع :

وقريش هي التي تسكن البحر * ربها سُميت قريش قريشاً

تأكل الرث والسمين ولا تت * رك فيها لذي جناحين ريشاً

هكذا في البلاد حتى قريش * يأكلون البلاد أكلا كيشاً^(٣)

ولهم آخر الزمان نبئ * يكثر القتل فيهم والخموشا^(٤)

قوله تعالى : إِيَّاكَ فَهِم رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾

قرأ مجاهد وحُميد « إِيَّاكَ فَهِم » ساكنة اللام بغير ياء . وروى نحوه عن ابن كثير . وكذلك روت أسماء أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ « إِيَّاكَ فَهِم » . وروى عن ابن عباس

(١) الحاج (بالتحفيف) : جمع حاجة . والخلة (بالفتح) : الحاجة والفقير .

(٢) البيت لمحدث بن حلزة البشكري في معلقته . وروايته كما في شرح المعلقات :

أيها الناطق المرشع عنا * عند عمرو وهل لذاك بقاء

قال التبريزي : « المرشع المزين القول بالباطل ليقبل منه الملك باطله . ويقال إنه يخاطب بها عمرو بن كلثوم .

ومعنى « وهل لذاك بقاء » : إن الباطل لا يبق . وعلى هذه الرواية لا شاهد فيه . (٣) أي سريعاً .

(٤) الخموش : (جمع الخمش) وهو مثل الخدش يكون في البدن والوجه .

وغيره . وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حيوة « إلافهم » مهموزاً مختصاً بلاياء .
وقرأ أبو بكر عن عاصم « إئلافهم » بهمزتين ، الأولى مكسورة والثانية ساكنة . والجمع بين
المهمزتين في الكلمتين شاذ . الباقون « إيلافهم » بالمد والهمز ؛ وهو الاختيار ، وهو بدل من
الإيلاف الأول للبيان . وهو مصدر آلف إذا جعلته يآلف . وآلف هو ألقا ؛ على ما تقدم
ذكره من القراءة ؛ أي وما قد ألفوه من رحلة الشتاء والصيف . روى ابن أبي نجیح عن
مجاهد في قوله تعالى : « إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » قال : لا يشق عليهم رحلة شتاء
ولا صيف منة منه على قريش . وقال المروزي وغيره : وكان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة :
هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ؛ بنو عبد مناف . فأما هاشم فإنه كان يؤلف ملك الشام ؛
أي أخذ منه حبلا وعهدا يأمن به في تجارته إلى الشام . وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى
الحبشة . والمطلب إلى اليمن . ونوفل إلى فارس . ومعنى يؤلف يجير . فكان هؤلاء الإخوة
يسمون المجيرين . فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بجبل هؤلاء الإخوة فلا يتعرض
لهم . قال الأزهري : الإيلاف شبه الإجارة بالحفارة ؛ يقال : آلف يؤلف إذا أجار^(١)
الجمائل بالحفارة . والجمائل جمع حمولة^(٢) . قال : والتأويل أن قريشا كانوا سكان الحرم ولم يكن
لهم زرع ولا ضرع ، وكانوا يميرون في الشتاء والصيف آمنين والناس يتخطفون من حولهم ،
فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله ، فلا يتعرض الناس لهم . وذكر
أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره : حدثنا سعيد بن محمد عن بكر بن مهبل
الدمياطي بإسناده إلى ابن عباس في قول الله عز وجل : « لإيلاف قريش » إلفهم رحلة
الشتاء والصيف . وذلك أن قريشا كانوا إذا أصابت واحدا منهم حمولة^(٣) جرى هو وعياله إلى
موضع معروف ، فضربوا على أنفسهم خباء فأتوا ؛ حتى كان عمرو بن عبد مناف وكان سيدا

(١) في بعض نسخ الأصل : « الإجارة والحفارة » ولم نجد هذا في كتاب التهذيب للأزهري ولا في غيره من

كتب اللغة . والإجارة : الإغاثة والحماية . والحفارة (مثلثة الخاء) : الأمان .

(٢) الحمولة (بالفتح) : الإبل التي تحمل .

(٣) الحمولة : الحمولة .

في زمانه ، وله ابن يقال له : أسد ، وكان له رَبٌّ ^(١) من بني مخزوم يحبه ويلعب معه . فقال له : نحن غداً نَتَغَفَّرُ . قال ابن فارس : هذه لفظة في هذا الخبر لا أدري بالدال هي أم بالراء ؛ فإن كانت بالراء فلعلها من العَفَر وهو التراب ، وإن كانت بالدال فما أدري معناها ، وتأويله على ما أظنه : ذهابهم إلى ذلك الخباء وموتهم واحداً بعد واحد . قال : فدخل أسد على أمه يبكي ، وذكر ما قاله رَبُّه . قال : فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشعم ودقيق فعاشوا به أياماً . ثم إن رَبُّه أتاه أيضاً فقال : نحن غداً نَتَغَفَّرُ ، فدخل أسد على أبيه يبكي ، وخبره خبر رَبِّه ، فاشتد ذلك على عمرو بن عبد مناف ، فقام خطيباً في فريش وكانوا يطيعون أمره ؛ فقال : إنكم أحدثتم حديثاً تَقْلُونَ فيه وتَكْثُرُ العرب ، وتَذَلُّون وتِعَزُّ العرب ، وأتم أهل حرم الله جل وعز ، وأشرف ولدِ آدم ، والناسُ لكم تَبَعٌ ، ويكاد هذا الاعتقار يأتي عليكم . فقالوا : نحن لك تَبَعٌ . قال : ابتدئوا بهذا الرجل — يعني أبا رَبِّ أسد — فأغنوه عن الاعتقار ؛ ففعلوا . ثم إنه نحر البُدن وذبح الكباش والمعز ، ثم هَشَمَ الثريد وأطعم الناس ؛ فُسِّمَى هاشمًا . وفيه قال الشاعر :

عَمَّرُوا الَّذِي هَشَمَ الثريد لقومه * ورجال مكة مُسْتِنُونَ عِجَافٌ ^(٢)

ثم جمع كل بني أبي علي رحلين ، في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات ، فما رَجِحَ الغنى قَسَمه بينه وبين الفقير حتى صار فقيرهم كغنيهم ؛ فجاء الإسلام وهم على هذا ، فلم يكن في العرب بنو أبي أكثر مالاً ولا أعز من فريش ؛ وهو قول شاعرهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم * حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم فقال : « فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع » بصنيع هاشم « وآمنهم من خوف » أن تكثر العرب ويقبلوا .

(١) الترب (بالكسر) : اللدة والسن ومن ولد مك . (٢) في اللسان مادة عفا : الاعتقاد أن

ينلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل أحداً حتى يموت جوعاً . (٣) في اللسان : « عمرو اللان ... » .

(٤) مستنون : أي أصحابهم السنة . والسنة : الجذب والقشط .

قوله تعالى : (رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) « رِحْلَةٌ » نصب بالمصدر؛ أى ارتحلهم رِحْلَةً ، أو بوقوع « لإيلافهم » عليه أو على الظرف . ولو جعلتها فى محل الرفع على معنى هما رِحْلَةٌ الشتاء والصيف لحاز . والأقول أولى . والرحلة الأرتحال . وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن فى الشتاء لأنها بلاد حامية ، والرحلة الأخرى فى الصيف إلى الشام لأنها بلاد باردة . وعن ابن عباس أيضا قال : كانوا يشتون بمكة لدفتها ويصيفون بالطائف لهوائها . وهذه من أجل النعم أن يكون للقوم ناحية حر تدفع عنهم برد الشتاء ، وناحية برد تدفع عنهم حر الصيف ؛ فذكرهم الله تعالى هذه النعمة . وقال الشاعر :

نُشِّي بِمَكَّةَ نَعْمَةً * وَمِصِيفَهَا بِالطَّائِفِ

وهنا أربع مسائل :

الأولى — اختار القاضى أبو بكر بن العربى وغيره من العلماء أن قوله تعالى : « لإيلاف » متعلق بما قبله . ولا يجوز أن يكون متعلقا بما بعده ، وهو قوله تعالى : « فليعبدوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » قال : وإذا ثبت أنه متعلق بالسورة الأخرى — وقد قطع عنه بكلام مبتدأ واستئناف بيان وسطر بسم الله الرحمن الرحيم — فقد تبين جواز الوقف فى القراءة للقرءاء قبل تمام الكلام ، وليست المواقف التى ينتزع بها القرءاء شرعا عن النبي صلى الله عليه وسلم مرويا ، وإنما أرادوا به تعليم الطلبة المعانى ، فإذا علموها وقفوا حيث شاموا . فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه ، ولا يُعد ما قبله إذا اعتراك ذلك ، ولكن أبدا من حيث وقف بك نفسك . هذا رأى فيه ، ولا دليل على ما قالوه بحال ، ولكنى أعتد الوقف على التمام كراهية الخروج عنهم .

قلت : ومن الدليل على صحة هذا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ثم يقف . « الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ثم يقف . وقد مضى فى مقدمة الكتاب . وأجمع المسلمون أن

(١) فى ابن العربى : « فى القرآن » . (٢) فى ابن العربى : « تنزع » .

(٣) راجع ج ١ ص ١٠ طبعة ثانية أرنالكة .

الوقف عند قوله : « كَعَصِفٍ مَأْكُولٍ » ليس بقیح . وكيف يقال إنه قبیح وهذه السورة تُقرأ في الركعة الأولى والتي بعدها في الركعة الثانية ، فيتخللها مع قطع القراءة أركان . وليس أحد من العلماء يكره ذلك ، وما كانت العلة فيه إلا أن قوله تعالى : « بِفَعْلِهِمْ كَعَصِفٍ مَأْكُولٍ » انتهاء آية . فالقياس على ذلك ألا يمتنع الوقف عند أعجاز الآيات سواء كان الكلام يتم والغرض يتبى ، أو لا يتم ولا ينتهى . وأيضا فإن الفواصل حلية وزينة للكلام المنظوم ، ولولاها لم يتبين المنظوم من المشور . ولا خفاء أن الكلام المنظوم أحسن ؛ فثبت بذلك أن الفواصل من محاسن الكلام المنظوم ، فمن أظهر فواصله بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنه ، وترك الوقوف يُغنى تلك المحاسن ويُشبه المشور بالمنظوم ؛ وذلك إخلال بحق المقروء .

الثانية - قال مالك : الشتاء نصف السنة والصيف نصفها ، ولم أزل أرى ربيعة ابن أبي عبد الرحمن ومن معه لا يخلعون عمامتهم حتى تَطْلُعُ الثَّريَّا ، وهو يوم التاسع عشر من بشنس ، وهو يوم خمسة وعشرين من عدد الروم أو الفرس . وأراد بطلوع الثريا أن يخرج السعاة ويسير الناس بمواشيهم إلى مياهم ، وأن طلوع الثريا أول الصيف ودبر الشتاء . وهذا مما لا خلاف فيه بين أصحابه عنه . وقال عنه أشهب وحده : إذا سقطت الهقمة نقص الليل ، فلما جعل طلوع الثريا أول الصيف وجب أن يكون له في مطلق السنة ستة أشهر ، ثم يستقبل الشتاء من بعد ذهاب الصيف ستة أشهر . وقد سئل محمد بن عبد الحكم عن حلف ألا يكلم أمرا حتى يدخل الشتاء ؟ فقال : لا يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من هاتور . ولو قال : حتى يدخل الصيف ؛ لم يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من بشنس . قال القرطبي : أما ذكر هذا عن محمد في بشنس فهو سهو ، إنما هو تسعة عشر من بشنس ؛ لأنك إذا حسبت المنازل

(۱) هوربيعة الرأي ، أدرك بعض أصحاب النبي صل الله عليه وسلم والأكابر من التابعين ، وكان صاحب الفتوى

بالمدينة ، وعنه أخذ مالك بن أنس وغيره . توفي سنة ۱۳۶ هـ . (۲) كذا في الأصول وابن العربي .

(۳) كذا في ابن العربي . وفي نسخ الأصل : « وأرى » .

(۴) في ابن العربي : « قيل الصيف » .

(۵) الهقمة : ثلاثة كواكب نيرة قريب بعضها من بعض فوق مكب الجوزاء ، وهي منزل من منازل القمر .

على ما هي عليه من ثلاث عشرة ليلة كل منزلة ، علمت أن ما بين تسع عشرة من هاتين
لا تنقضى منازلها إلا بدخول تسع عشرة من بشنس . والله أعلم .

الثالثة — قال قوم : الزمان أربعة أقسام : شتاء ، وربيع ، وصيف ، وخريف . وقال
قوم : هو شتاء وصيف وقبظ وخريف . والذي قاله مالك أصح ؛ لأن الله قسم الزمان قسمين^(١)
ولم يجعل لهما ثالثاً .

الرابعة — لما آمن الله تعالى على قريش برحلتين ، شتاءً وصيفاً ، على ما تقدم ، كان فيه
دليل على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلين ، يكون حالهما في كل زمان أنعم من^(٢)
الآخر ؛ كالجُلوس في المجلس البحري في الصيف وفي القبلي في الشتاء ، وفي اتخاذ البادهنجات
والخيش للتبريد ، واللبد واليانوسة للدفء .^(٣)

قوله تعالى : فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده لأجل إيلافهم رحلتين . ودخلت الفاء لأجل
ما في الكلام من معنى الشرط ؛ لأن المعنى إما لا فليعبدوه لإيلافهم ؛ على معنى أن قسم الله
تعالى عليهم لا تحصى ؛ فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لشأن هذه الواحدة التي هي نعمة
ظاهرة . والبيت : الكعبة . وفي تعريف نفسه لم بأنه ربُّ هذا البيت وجهان : أحدهما —
لأنه كانت لهم أوثان فيز نفسه عنها . الثاني — لأنهم بالبيت شرفوا على سائر العرب ؛
فذكر لهم ذلك تذكيراً لنعمته . وقيل : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » أي ليالفوا عبادة ربِّ
الكعبة كما كانوا يالفون الرحلتين . قال عكرمة : كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بصرى

(١) في الأصول : « لأن قسم الله للزمان قسمين ، ولم يجعل لهما ثالثاً » وهي غير مستقيمة . وفي ابن العربي :

« لأجل قسمه الله الزمان قسمين ... الخ » .

(٢) في كتاب شفاء الغليل للشهاب الخفاجي : « البادهنج » عرب باد نخون أو باد كبير ، وهو المخذ القوي

يجي منه الريح .

(٣) في ابن العربي : « اليانوس » . ولم نجد في المعاجم هذه المادة .

ورحلة إلى اليمن ، فقيل لهم : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ » (١) أي يقيموا بمكة رحلة الشتاء إلى اليمن ، والصيف إلى الشام .

قوله تعالى : الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

قوله تعالى : (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ) أي بعد جوع . (وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) قال ابن عباس : وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال : « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ » . وقال ابن زيد : كانت العرب يُغير بعضها على بعض ويتسبي بعضها من بعض ، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم — وقرأ — « أَوَلَمْ نَمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْيِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ » . وقيل : شق عليهم السفر في الشتاء والصيف ، فألقى الله في قلوب الحبشة أن يحملوا إليهم طعاماً في السفن فحملوه ، فخافت قريش منهم ، وظنوا أنهم قد دموا لحربهم ، فخرجوا إليهم متحززين فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام وأغاثوهم بالاقوات ، فكان أهل مكة يخرجون إلى جدة بالإبل والحمر ، فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين . وقيل : هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم دعاً عليهم فقال : « اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَيْنًا كَسَيْنِي يَوْسُفَ » فأشدت القحط فقالوا : يا محمد أدع الله لنا فإننا مؤمنون . فدعا فأخصبت بباله وجرش من بلاد اليمن ، فحملوا الطعام إلى مكة وأخصب أهلها . وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان : « وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » أي من خوف الجذام ، لا يصيبهم ببلدهم الجذام . وقال الأعمش : « وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » أي من خوف الحبشة مع الفيل . وقال علي رضي الله عنه : وآمنهم من [خوف] (٤) أن تكون الخلافة إلا فيهم . وقيل : أي كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك . فإله أعلم واللفظ يعم .

(١) يريد : يقيموا بمكة ويتركوا الرحلة ... الخ .

(٢) آية ١٢٦ سورة البقرة .

(٣) آية ٥٧ سورة القصص .

(٤) التكة عن تفسير الخطيب

تفسير سورة «الماعون»

وهي مكية؛ في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس . ومدنية؛ في قول له آخر، وهو قول قتادة وغيره . وهي سبع آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ
الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾
الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ
الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

فيه ست مسائل :

الأولى – قوله تعالى : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ) أي بالجزاء والحساب في الآخرة؛ وقد تقدم في «الفاحة»^(١) . و«أَرَأَيْتَ» بإثبات الهمزة الثانية؛ إذ لا يقال في أَرَأَيْتَ : رَأَيْتَ، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفا؛ ذكره الزجاج . وفي الكلام حذف؛ والمعنى : أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ أم مخطئ . وأختلف فيمن نزل هذا فيه؛ فذكر أبو صالح عن ابن عباس قال : نزلت في العاص بن وائل السهمي؛ وقاله الكلبي ومقاتل . وروى الضحاك عنه قال : نزلت في رجل من المنافقين . وقال السدي : نزلت في الوليد بن المغيرة . وقيل في أبي جهل . الضحاك : في عمرو بن عائذ . قال ابن جريج : نزلت في أبي سفيان ، وكان ينحر في كل أسبوع جزورا ، فطلب منه يتيم شيئا فقرعه بمصاه؛ فانزل الله هذه السورة . و(يَدْعُ) أي يدفع، كما قال : «يَدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا»^(٢) وقد

(٢) آية ١٣ سورة الطور . راجع ج ١٧ ص ٦٤

(١) راجع ج ١ ص ١٤٣

تقدم . وقال الضحاك عن ابن عباس : « فَذَلِكَ الَّذِي يُدْعُ الْيَتِيمَ » أي يدفعه عن حقه .
 قتادة : يقهره ويظلمه . والمعنى متقارب . وقد تقدم في سورة « النساء » أنهم كانوا
 لا يؤزّثون النساء ولا الصغار ويقولون : إنما يحوز المال من بطعن بالسنان ويضرب
 بالحمام . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى
 يَسْتَفِي فَقَدْ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع .

الثانية - قوله تعالى : (وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ) أي لا يأمر به من أجل
 بخله وتكذيبه بالجزاء . وهو مثل قوله تعالى في سورة الحاقة : « وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ
 الْمُسْكِينِ » وقد تقدم . وليس الذم عاقبا حتى يتناول من تركه عجزا ، ولكنهم كانوا يخلون
 ويعتذرون لأنفسهم ويقولون : « أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ » فترلت هذه الآية فيهم ،
 وتوجه الذم إليهم . فيكون معنى الكلام : لا يفعلونه إن قدروا ، ولا يحثون عليه إن عسروا .

الثالثة - قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ) أي عذاب لهم . وقد تقدم في غير
 موضع . (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هو المصلّي
 الذي إن صلى لم يرج لها ثوابا ، وإن تركها لم يخش عليها عقابا . وعنه أيضا : الذين يؤخرونها
 عن أوقاتها . وكذا روى المغيرة عن إبراهيم قال : ساهون بإضاعة الوقت . وعن أبي العالية :
 لا يصلونها لمواقبتها ، ولا يتمون ركوعها ولا سجودها .

قلت : ويدل على هذا قوله تعالى : « نَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ » حسب
 ملتقى بيانه في سورة « مريم » عليها السلام . وروى عن إبراهيم أيضا : أنه الذي إذا سجد
 قام برأسه هكذا ملتفتا . وقال قطرب : هو ألا يقرأ ولا يذكر الله . وفي قراءة عبد الله « الَّذِينَ
 هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » . وقال سعد بن أبي وقاص قال النبي صلى الله عليه وسلم [في قوله] :

(٢) راجع ج ٢ ص ١٤ طبعة ثانية .

(١) راجع ج ٥ ص ٤٦

(٤) آية ٤٧ سورة يس .

(٣) آية ٣٤ راجع ج ١٨ ص ٢٧٢

(٦) راجع ج ١١ ص ١٢١

(٥) راجع ج ٢ ص ٧ طبعة ثانية .

« فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » - قال - « الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها تهاوناً بها ». وعن ابن عباس أيضاً : هم المنافقون يتركون الصلاة سرّاً ويصلونها علانية « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَالاً ^(١) » الآية . ويدل على أنها في المنافقين قوله : « الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ » وقاله ابن وهب عن مالك . قال ابن عباس : ولو قال في صلاتهم ساهون لكانت في المؤمنين . وقال عطاء : الحمد لله الذي قال « عَنْ صَلَاتِهِمْ » ولم يقل في صلاتهم . قال الزمخشري - فإن قلت : أى فرق بين قوله : « عَنْ صَلَاتِهِمْ » وبين قولك : في صلاتهم ؟ قلت : معنى « عن » أنهم ساهون عنها سهواً ترك لها وقلة التفات إليها ، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار ^(٢) من المسلمين . ومعنى « في » أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره ، ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم . قال ابن العربي : لأن السلامة من السهو محال ، وقد سها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاته والصحابة . وكل من لا يسهو في صلاته فذلك رجل لا يتدبرها ولا يعقل قراءتها ، وإنما همه في إعدادها ، وهذا رجل يأكل القشور ويرمي اللب . وما كان النبي صلى الله عليه وسلم يسهو في صلاته إلا لفكرته في أعظم منها ، اللهم إلا أنه قد يسهو في صلاته من يقبل على وسواس الشيطان إذا قال له : اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يكن يذكر حتى يضل الرجل أن يدرى كم صلى .

الرابعة - قوله تعالى : (الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ) أى يرى الناس أنه يصلى طاعة وهو يصلى تقيّة ، كالفاسق يرى أنه يصلى عبادة وهو يصلى ليقال : إنه يصلى . وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة ، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس . وأولها تحسين السمات ، وهو من أجزاء النبوة ، ويريد بذلك الجاه والثناء . وثانيها - الرياء بالثياب القصار والحسنة ، ليأخذ بذلك هيئة

(١) آية ١٤٢ سورة النساء . (٢) في نسخة من الأصل : « الشياطين » . والشطار : جمع شاطر

وهو الذى ترك موافقة أهله وأعيانهم لئلا يخطئوا .

الزهد في الدنيا، وثالثها - الرياء بالقول بإظهار التسخط على أهل الدنيا، وإظهار الوعظ والتأسف على ما يفوت من الخير والطاعة، ورابعها - الرياء بإظهار الصلاة والصدقة، أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس، وذلك يطول وهذا دليله؛ قاله ابن العربي .

قلت : قد تقدم في سورة « النساء وهود وآخر الكهف »^(١) القول في الرياء وأحكامه وحقيقته بما فيه كفاية . والحمد لله .

الخامسة - ولا يكون الرجل مرئياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة؛ فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها، لقوله عليه السلام: « ولا غمّة في فرائض الله »^(٢) لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت؛ فوجب إماطة التهمة بالإظهار. وإن كان تطوعاً فخفه أن يخفى؛ لأنه لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً. وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فتثني عليه بالصالح. وعن بعضهم أنه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدة الشكر فأطالها؛ فقال: ما أحسن هذا لو كان في بيتك. وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة. وقد مضى هذا المعنى في سورة « البقرة »^(٣) عند قوله تعالى: « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ » وفي غير موضع. والحمد لله على ذلك .

السادسة - قوله تعالى: « وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ »^(٤) فيه اثنا عشر قولاً: الأول - أنه زكاة أموالهم . كذا روى الضحاك عن ابن عباس . وروى عن علي رضي الله عنه مثل ذلك، وقاله مالك . والمراد به المنافق يمنعها . وقد روى أبو عمرو بن عبد العزيز عن مالك قال : بلغني أن قول الله تعالى: « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » قال : إن المنافق إذا صلى صلى رياءً، وإن فاتته لم يندم عليه . « وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » الزكاة التي فرض الله عليهم . قال زيد بن أسلم : لو خفيت لهم الصلاة كما خفيت لهم الزكاة ما صلوا . القول الثاني - أن « الماعون » المال بلسان

(١) راجع ج ٥ ص ١٨١ و ج ٩ ص ١٣ و ج ١١ ص ٧٠ (٢) أي لا تستر ولا تخفى فرائضه وإنما تظهر وتعلن ويجهرها . (٣) راجع ج ٣ ص ٣٢٢ (٤) في بعض نسخ الأصل : « أبو عمر » وفي بعضها : « أبو عبد » . وفي ابن العربي : « أبو بكر بن عبد العزيز » .

قريش؛ قاله ابن شهاب وسعيد بن المسيب، وقول ثالث - أنه أسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار وما أشبه ذلك؛ قاله ابن مسعود؛ وروى عن ابن عباس أيضا . قال الأعشى:

بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَاعُونِهِ * إِذَا مَا سَمَّوْهُمْ لَمْ تَغْنَمْ

الرابع - ذكر الزجاج وأبو عبيد والمبرد أن الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة ، حتى الفأس والقدر والدلو والقذاحة ، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير؛ وأنشدوا بيت الأعشى . قالوا : والماعون في الإسلام الطاعة والزكاة ؛ وأنشدوا قول الراعي :

أَخْلِيْفَةَ الرَّحْمَنِ إِنَّا مَعَشَرٌ * حُنْفَاءُ نَسْجُدُ بَكْرَةً وَأَصِيلًا
عَرَبٌ نَرَى لِيهِ مِنْ أَمْوَالِنَا * حَقَّ الزَّكَاةُ مُتْرَلًا تَتْرِيْلًا
قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَنْتَعَمُوا * مَا عُونُهُمْ وَيَضِيْعُوا التَّهْلِيْلًا^(١)

يعنى الزكاة . الخامس - أنه العارية ؛ روى عن ابن عباس أيضا . السادس - أنه المعروف كله الذى يتعاطاه الناس فيما بينهم ؛ قاله محمد بن كعب والكلبي . السابع - أنه الماء والكلاء . الثامن - الماء وحده . قال الفراء : سمعتُ بعض العرب يقول : الماعون الماء ؛ وأنشدنى فيه :

* يَمْجُ صَبِيْرُهُ الْمَاعُوْنَ صَبًا *

الصبير السحاب . التاسع - أنه منع الحق ؛ قاله عبد الله بن عمر . العاشر - أنه المُسْتَفْلُ من منافع الأموال ؛ مأخوذ من المَعْن وهو القليل ؛ حكاه الطبري وابن عباس . قال قُطْرُبُ : أصل الماعون من القلة . والمعن : الشيء القليل ؛ تقول العرب : ماله سَعْنَةٌ ولا مَعْنَةٌ ؛ أى شىء قليل . فسمى الله تعالى الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ماعونا ؛ لأنه قليل من كثير . ومن الناس من قال : الماعون أصله مَعُونَةٌ ، والألف عوض من الهاء ؛ حكاه الجوهري . ابن العربي : الماعون مفعول من أعان يُعِين ، والعون هو الإمداد

(١) في اللسان :

قوم على النزول لما ينعموا * ماعونهم ويبدلوا التزبلا

(٢) كذا في بعض نسخ الأصل . وفي بعضها الآخر : « حكاه الطبري وابن عيسى » .

(٣) هذا مثل يضرب لمن لا مال له . والمعن : الكثير .

بالقوة والآلات والأسباب الميسرة للأمر . الحادي عشر - أنه الطاعة والانقياد . حكى الأخصش عن أعرابي فصيح : لو قد نزلنا لصنعت بناقتك صنيعا تعطيك الماعون ؛ أي تنقاد لك وتطيعك . قال الراجز :

مَتَى تُصَادِفُهُنَّ^(١) فِي الْبُرَيْنِ * يَخْضَعْنَ أَوْ يُعْطَيْنَ بِالْمَاعُونِ^(٢)

وقيل : هو مالا يحل منعه كالماء والملح والنار ؛ لأن عائشة رضوان الله عليها قالت : قلت يا رسول الله ، ما الشيء الذي لا يحل منعه ؟ قال : " الماء والنار والملح " قلت : يا رسول الله ، هذا الماء ، فما بال النار والملح ؟ فقال : " يا عائشة من أعطى نارا فكأنما تصدق بجميع ما طبخ بتلك النار ومن أعطى ملحا فكأنما تصدق بجميع ما طُيب به ذلك الملح . ومن سقى شربة من الماء حيث يوجد الماء فكأنما أعتق ستين نسمة . ومن سقى شربة من الماء حيث لا يوجد فكأنما أحيا نفسا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا " ذكره الثعلبي في تفسيره ، وخزجه ابن ماجه في سننه . وفي إسناده ابن ؛ وهو القول الثاني عشر . الماوردي : ويحتمل أنه المعونة بما خَفَّ فعله وقد ثَقَّلَه الله . والله أعلم . وقيل لعكرمة مولى ابن عباس : من منع شيئا من المتاع كان له الويل ؟ . فقال : لا ، ولكن من جمع ثلاثين فله الويل ؛ يعني ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالماعون .

قلت : كونها في المنافقين أشبه وبهم أخلق ؛ لأنهم جمعوا الأوصاف الثلاثة : ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالمال ؛ قال الله تعالى : « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا^(٣) » ، وقال : « وَلَا يَنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ^(٤) » . وهذه أحوالهم ، ويبعد أن توجد من مسلم محقق ، وإن وجد بعضها فيلحقه جزء من التوبيخ ، وذلك في منع الماعون إذا تعين ؛ كالصلاة والزكاة إذا تركها . والله أعلم . إنما يكون منعها قبيحا في المروءة في غير حال الضرورة . والله أعلم .

(١) في تفسير الثعلبي : * متى تجاهد من * وهي الأوجه . (٢) البرين (بضم الباء وكسرهما) :

جمع بُرَّة ، وهي دنا الحلقة في أنف البعير . وهي أيضا : كل حلقة من سوار وقرط وخلخال . (٣) آية ١٤٢

سورة النساء . (٤) آية ٥٤ سورة التوبة .

تفسير سورة « الكوثر »

وهي مكية ؛ في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل . ومدنية ؛ في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة . وهي ثلاث آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾

فيه مسألتان :

الأولى - قوله تعالى : (إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ) قراءة العامة . « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ » بالعين . وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف « أَنْطَيْنَاكَ » بالنون ؛ وروته أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ هي لغة في العطاء ؛ أنطيته : أعطيته . و« الكوثر » فوعل من الكثرة ؛ مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر . والعرب تسمى كل شيء كثير في العدد والقدر والخطر كوثرًا . قال سفيان : قيل لعجوز رجع أبناها من السفر : بم آب أبناك ؟ قالت بكوثر ؛ أي بمال كثير . والكوثر من الرجال : السيد الكثير الخير . قال الكلبى :

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا بْنَ مَرْوَانَ طَيْبٌ * وَكَانَ أَبُوكَ ابْنَ الْعَقَائِلِ كَوْثَرًا

والكوثر : العدد الكثير من الأصحاب والأشياء . والكوثر من الغبار : الكثير . وقد تكوثر [إذا كثُر] ؛ قال الشاعر :

* وَقَدْ نَارَ نَقَعُ الْمَوْتِ حَتَّى تَكُوْثَرًا^(١) *

الثانية - واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أُعطيَه النبي صلى الله عليه وسلم على ستة عشر قولاً : الأول - أنه نهر في الجنة ؛ رواه البخاري عن أنس والترمذي أيضا

(١) هذا مجزيت لسان بن نُشبة . وصدده كما في اللسان :

* أبوا أن يبيحوا جارهم لعدوم *

وقد ذكرناه في كتاب التذكرة . وروى الترمذى أيضا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الكوثر نهر في الجنة حافاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج " هذا حديث حسن صحيح .
 الثانى - أنه حوض النبي صلى الله عليه وسلم في الموقف ؛ قاله عطاء . وفي صحيح مسلم عن أنس قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أغشى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال " نزلت على آتفا سورة - فقرا - بسم الله الرحمن الرحيم « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » - ثم قال - أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : " فإنه نهر وعدنيهِ رَبِّي عز وجل عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول إنه من أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك " .

والأخبار في حوضه في الموقف كثيرة ذكرناها في كتاب « التذكرة » . وأن على أركانه الأربعة خلفاؤه الأربعة ؛ رضوان الله عليهم . وأن من أبغض واحدا منهم لم يسقيه الآخر . وذكرنا هناك من يطرد عنه . فمن أراد الوقوف على ذلك تأمله هناك . ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر أو الحوض كوثرًا لكثرة الواردة والشاربة من أمة محمد عليه السلام هناك . ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير . الثالث - أن الكوثر النبوة والكتاب ؛ قاله عكرمة . الرابع - القرآن ؛ قاله الحسن . الخامس - الإسلام ؛ حكاه المغيرة . السادس - تيسير القرآن وتخفيف الشرائع ؛ قاله الحسين بن الفضل . السابع - هو كثرة الأصحاب والأمة والأشباع ؛ قاله أبو بكر بن عياش . الثامن . الثامن - أنه الإيثار ؛ قاله ابن كيسان . التاسع - أنه رفعة الذكر ؛ حكاه الماوردي . العاشر - أنه نور في قلبك ذلك على وقطعك عما سواى . وعنه : هو الشفاعة ؛ وهو الحادى عشر . وقيل : معجزات الرب هدى بها أهل الإجابة لدعوتك ؛ حكاه

(١) فى صحيح مسلم طبع الآسنة وبولاق : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا

إذ أغشى ... الحديث . (٢) أى ينزع ويقطع . (٣) فى بعض نسخ الأصل : « تسهيل » .

الثعالبى، وهو الثانى عشر . الثالث عشر - قال هلال بن يساف : هو لا إله إلا الله محمد رسول الله . وقيل : الفقه فى الدين . وقيل : الصلوات الخمس ؛ وهما الرابع عشر والخامس عشر . وقال ابن إسحاق : هو العظيم من الأمر ؛ وذکر بيت لبيد :

وصاحب ملحوبٍ يُفْعِنَا بِفَقْدِهِ * وَعِنْدَ الرِّدَاعِ بَيْتٌ آخَرَ كَكَوْثُرِ
أى عظيم .^(١)

قلت : أصح هذه الأقوال الأول والثانى ؛ لأنه ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم نص فى الكوثر . وسمع أنس قوما يتذاكرون الحوض فقال : ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يمارون فى الحوض ، لقد تركت عجائز خلفى ، ما تصلى امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبى صلى الله عليه وسلم . وفى حوضه يقول الشاعر :

يا صاحب الحوض من يدانيك * وأنت حقاً حبيب باريكا

وجميع ما قيل بعد ذلك فى تفسيره قد أعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيادة على حوضه ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

قوله تعالى : فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (فَصَلِّ) أى أقم الصلاة المفروضة عليك ؛ كذا رواه الضحاك عن ابن عباس . وقال قتادة وعطاء وعكرمة : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ » صلاة العيد يوم النحر « وَأَنْحَرْ » نسكك . وقال أنس : كان النبى صلى الله عليه وسلم يتنحر ثم يصلى ؛ فأمر أن يصلى ثم يتنحر . وقال سعيد بن جبیر أيضاً : صلِّ لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع^(٢) وأنحر البدن بمنى . وقال سعيد بن جبیر أيضاً : نزلت فى الحديبية حين حصر النبى صلى الله عليه وسلم عن البيت ، فأمره الله تعالى أن يصلى وينحر البدن وينصرف ؛ ففعل ذلك . قال ابن العربى : « أما من

(١) ملحوب : ماء لبني أسد بن خزيمه . وصاحبه : عوف بن الأحوص . والرداع (بالكسر) : أسم ماء .

أيضاً . والكوثر أيضاً : السيد الكثير الخير . (٢) جمع : المزدلفة .

قال إن المراد بقوله تعالى : « فَصَّلْ » الصلوات الخمس ؛ فلائها ركن العبادات ، وقاعدة الإسلام ، وأعظم دعائم الدين . وأما من قال : إنها صلاة الصبح بالمزدلفة ؛ فلائها مقرونة بالنحر ، وهو في ذلك اليوم ، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرها ؛ فخصها بالذكر من جملة الصلوات لأقترانها بالنحر .

قلت : وأما من قال إنها صلاة العيد ؛ فذلك بغير مكة ؛ إذ ليس بمكة صلاة عيد بإجماع فيما حكاه ابن عمر . قال ابن العربي : « فأما مالك فقال : ما سمعت فيه شيئا ، والذي يقع في نفسي أن المراد بذلك صلاة يوم النحر ، والنحر بعدها » . وقال علي رضي الله عنه ومحمد بن كعب : المعنى ضع انبني على اليسرى حذاء النحر في الصلاة . وروى عن ابن عباس أيضا . وروى عن علي أيضا : أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره . وكذا قال جعفر بن علي : « فَصَّلْ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ » قال : يرفع يديه أول ما يكبر للإحرام إلى النحر . وعن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت « فَصَّلْ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ » قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : « ما هذه النحية التي أمرني الله بها ؟ » قال : « ليست بنحية ولكنه يأمرك إذا تحزمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع وإن لكل شيء زينة وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة » . وعن أبي صالح عن ابن عباس قال : أستقبل القبلة بنحرك ؛ وقاله الفراء والنكبي وأبو الأحوص . ومنه قول الشاعر :

أبا حَكَمَ ما أنتَ عمُّ مجالِدٍ * وسيدُ أهلِ الأبطحِ المُتَنَاحِرِ

أي المتقابل . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : ما زلنا نتناحر ؛ أي نتقابل نحر هذا بنحر هذا ؛ أي قبائله . وقال ابن الأعرابي : هو انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب ؛ من قولهم : منازلهم تتناحر ؛ أي تتقابل . وروى عن عطاء قال : أمره أن يستوي بين السجدين

(١) الذي في كتاب الفراء : « منازلنا تتناحر هذا أي قبائله » . والذي في اللسان نقلا عن الفراء : « منازلهم

تناحر هذا بنحر هذا أي قبائله » .

جالسا حتى يَبْدُو نحره . وقال سليمان التيمي : يعني وارفع يدك بالدعاء إلى نحره . وقيل : « فَصَلَّ » معناه وأعبد . وقال محمد بن كعب القرظي : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلَّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ » يقول : إن ناسا يصلون لغير الله رينحرون لغير الله ؛ وقد أعطيناك الكوثر ، فلا تكن صلاتك ولا نحره إلا لله . قال ابن العربي : « والذي عندي أنه أراد أعبد ربك وأنحره ، فلا يكن عمرك إلا لمن خصك بالكوثر ، وبالحرى أن يكون جميع العمل يوازي هذه الخصوصية من الكوثر ، وهو الخير الكثير الذي أعطاكه الله ، أو النهر الذي طينه مسك وعدد آياته نجوم السماء ؛ أما أن يوازي هذا صلاة يوم النحر وذبح كبش أو بقرة أو بدنة ، فذلك يبعد في التقدير والتقدير وموازنة الثواب للعبادة » . والله أعلم .

الثانية - قد مضى القول في سورة « الصافات »^(١) في الأُصْحِيَّة وفضلها ووقت ذبحها ؛ فلا معنى لإعادة ذلك . وذكرنا أيضا في سورة « الحج »^(٢) جملة من أحكامها . قال ابن العربي : « ومن عجيب الأمر أن الشافعي قال : إن من ضحى قبل الصلاة أجزاء ، والله تعالى يقول في كتابه : « فَصَلَّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ » فبدأ بالصلاة قبل النحر ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال : « أول ما نبدا به في يومنا هذا أن نصل ثم نرجع فننحر من فعل فقد أصاب نُسْكًا وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلُ فَإِنَّمَا هُوَ لِحْمٍ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ مِنَ النَّسْكِ فِي شَيْءٍ » . وأصحابه ينكرونه ، وحبذا الموافقة » .

الثالثة - وأما ما روى عن علي عليه السلام « فَصَلَّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ » قال : وضع اليمن على الشمال في الصلاة - نحرجه الدارقطني - فقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال : الأول - لا توضع في فريضة ولا نافلة ؛ لأن ذلك من باب الاعتماد . ولا يجوز في الفرض ولا يستحب في النفل . الثاني - لا يفعلها في الفريضة ويفعلها في النافلة استعانة ؛ لأنه موضع ترخص . الثالث - يفعلها في الفريضة والنافلة . وهو الصحيح ؛ لأنه ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل

(٢) راجع ج ١٢ ص ٤٢ وما بعدها .

(١) راجع ج ١٥ ص ١٠٧ وما بعدها .

أبن حجر وغيره . قال ابن المنذر : وبه قال مالك وأحمد وإسحاق ، وحكى ذلك عن الشافعي .
واستحب ذلك أصحابُ الرأي . ورأت جماعةُ إرسالِ اليد . ومن رَوَيْنَا ذلك عنه ابنُ المنذر^(١)
والحسن البصريّ وإبراهيم النَّخَعِيّ .

قلت : وهو مروى أيضا عن مالك . قال ابن عبد البر : إرسال اليدين ووضع اليمنى على
الشمال كل ذلك من سنة الصلاة .

الرابعة - واختلفوا في الموضع الذي توضع عليه اليد؛ فروى عن علي بن أبي طالب
أنه وضعهما على صدره . وقال سعيد بن جبير وأحمد بن حنبل : فوق السرّة . وقال :
لابأس إن كانت تحت السرّة . وقالت طائفة : توضع تحت السرّة . وروى ذلك عن
علي وأبي هريرة والنخعيّ وأبي مجلز . وبه قال سفیان الثوريّ وإسحاق .

الخامسة - وأما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع
والسجود فأختلف في ذلك ؛ فروى الدارقطنيّ من حديث حميد عن أنس قال : كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه إذا دخل في الصلاة ، وإذا ركع ، وإذا رفع رأسه
من الركوع ، وإذا سجد . لم يروه عن حميد مرفوعاً إلا عبد الوهاب الثقفيّ . والصواب
من فعل أنس . وفي الصحيحين من حديث ابن عمر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى تكونا حدّو منكبَيْه ، ثم يكبر ، وكان يفعل ذلك
حين يكبر للركوع ، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع ويقول : سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ .
ولا يفعل ذلك حين يرفع رأسه من السجود . قال ابن المنذر : وهذا قول الليث بن سعد
والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبي ثور . وحكى ابن وهب عن مالك هذا القول . وبه أقول ؛
لأنه الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالت طائفة : يرفع المصليّ يديه حين يفتتح
الصلاة ، ولا يرفع فيما سوى ذلك . هذا قول سفیان الثوريّ وأصحاب الرأي .

(١) في بعض الأصول : « ابن الزبير » .

قلت : وهو المشهور من مذهب مالك ؛ لحديث ابن مسعود ، خرَّجه الدارقُطنيّ من حديث إسحاق بن أبي إسرائيل . قال : حدَّثنا محمد بن جابر عن حماد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : صلَّيتُ مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ومع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ فلم يرفعوا أيديهم إلا أولاً عند التكبير الأولى في افتتاح الصلاة . قال إسحاق : به نأخذ في الصلاة كلها . قال الدارقُطنيّ : تفرد به محمد بن جابر وكان ضعيفاً عن حماد عن إبراهيم . وغير حماد يرويه عن إبراهيم مُرسلاً عن عبد الله من فعله غير مرفوع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وهو الصواب . وقد روى يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن البراء أنه رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم حين افتتح الصلاة رفع يديه حتى يُحاذيَ بهما أُذنيه ، ثم لم يعد إلى شيء من ذلك حتى فرغ من الصلاة . قال الدارقُطنيّ : [وإنما] لَقَنَّ يزيد في آخر عمره : «ثم لم يعد» ؛ فتلقنه وكان قد آخلط . وفي (مختصر ما ليس في المختصر) عن مالك : لا يرفع اليدين في شيء من الصلاة . قال ابن القاسم : ولم أر مالكا يرفع يديه عند الإحرام . قال : وأحبّ إلى ترك رفع اليدين عند الإحرام .

قوله تعالى : **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴿٣٠﴾

أى : فضك ؛ وهو العاص بن وائل . وكانت العرب تُسمي من كان له بنون وبنات ثم مات البنون وبقى البنات أبتراً . فيقال : إن العاص وقف مع النبيّ صلى الله عليه وسلم يكلمه ، فقال له جمع من صناديد قريش : مع من كنت واقفاً ؟ فقال : مع ذلك الأبتراً . وكان قد توفّي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من خديجة ؛ فأنزل الله جلّ شأنه : «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» أى المقطوع ذكره من خير الدنيا والآخرة . وذكر عكرمة عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية إذا مات ابن الرجل قالوا : بُتْر فلان . فلما مات إبراهيم ابن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال : بُتْر محمد ؛ فأنزل الله جلّ ثناؤه :

(١) الزيادة من الدارقُطنيّ .

« إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » يعني بذلك أبا جهل . وقال شمر بن عطية : هو عتبة بن أبي معيط . وقيل : إن قريشا كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده قد بُتر فلان . فلما مات لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه القاسم بمكة ، وإبراهيم بالمدينة قالوا : بُتر محمد ، فليس له من يقوم بأمره من بعده ؛ فنزلت هذه الآية ؛ قاله السدي وآبن زيد . وقيل : إنه جواب لقريش حين قالوا لكعب بن الأشرف لما قدم مكة : نحن أصحاب السقاية والسدانة والحجاجة واللواء وأنت سيد أهل المدينة ، فنحن خير أم هذا الصنير الأبيير من قومه ؟ قال كعب : بل أتم خير ؛ فنزلت في كعب : « أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاتِ وَالطَّاعُوتِ » الآية . ونزلت في قريش : « إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » ؛ قاله ابن عباس أيضا وعكرمة . وقيل : إن الله عز وجل لما أوحى إلى رسوله ودعا قريشا إلى الإيمان قالوا : أبتَرنا منّا محمد ؛ أي خالفنا وأنقطع عنا . فأخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أنهم هم المبتورون ؛ قاله أيضا عكرمة وشهر بن حوشب . قال أهل اللغة : الأبتَر من الرجال الذي لا ولد له ، ومن الدواب الذي لا ذنب له . وكلُّ أمرٍ انقطع من الخير أثره فهو أبتَر . والبتر : القطع . بترتُ الشيء بترًا : قطعتُه قبل الإتمام . والابتار : الانقطاع . والباتر : السيف القاطع . والأبتَر : المقطوع الذنب . تقول منه : بتر (بالكسر) يبتَر بترًا . وفي الحديث « ما هذه البتراء » . وخطب زياد خطبته البترَاء ؛ لأنه لم يحمّد الله فيها ولم يصلّ على النبي صلى الله عليه وسلم . ابن السكيت : الأبتَران العير والعبد ؛ قال : سُميا أبتَرين لقلّة خيرهما . وقد أبتَره الله أي صيره أبتَر . ويقال : رجل أبتَر (بضم المهملة) للذي يقطع رَحِمه . قال الشاعر :

لَئِمَّ نَزَتْ فِي أَنْفِهِ خَزْوَانَةٌ * عَلَى قَطْعِ ذِي الْقُرْبَى أَحَدًا أَبْتَرُ

والبُتْرِيَّةُ : فرقة من الزيدية ؛ نسبوا إلى المغيرة بن سعد ، ولقبه الأبتَر . وأما الصنْبُورُ فلفظ مشترك . قيل : هو النخلة تبقى منفردة ويدق أسفلها ويتقشر ؛ يقال : صنبر أسفل النخلة .

(٢) آية ٥١ سورة النساء .

(١) في نسخة الصنبور . وسيأتي للصف بيان معناه .

وقيل : هو الرجل الفرد الذي لا ولد له ولا أخ . وقيل : هو مشعب الحوض خاصة ؛ حكاة أبو عبيد . وأنشد :

* مَا يَبِينُ صُنْبُورٍ إِلَى الْإِزَاءِ *^(۲)

والصنْبُورُ : قصبة تكون في الإداوة من حديد أو رصاص يُشْرَبُ مِنْهَا . حتى جميعه الجوهري رحمه الله . والله سبحانه وتعالى أعلم .

سورة « الكافرون »

وهي مكّية ؛ في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة . ومدنية ؛ في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك . وهي ست آيات .

وفي الترمذي من حديث أنس أنها تعدل ثلث القرآن . وفي كتاب (الرد لأبي بكر الأنباري) : أخبرنا عبد الله بن ناجية قال : حدثنا يوسف قال حدثنا القعني وأبو نعيم عن موسى بن وردان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » تعدل ربع القرآن . ورواه موقوفاً عن أنس . وخرج الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد عن ابن عمر قال : صلى النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الفجر في سفر فقرأ « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » و « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » ثم قال : « قرأت بكم ثلث القرآن وربعه » . وروى جبير بن مطعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أتحب يا جبير إذا خرجت سفراً أن تكون من أمثل أصحابك هيئة وأكثرهم زاداً » ؟ قلت : نعم . قال : « فأقرأ هذه السور الخمس من أول « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » — إلى — قل أعوذ برب الناس » وأفتح قراءتك بسم الله الرحمن الرحيم » . قال : فوالله لقد كنت غير كثير المال ، إذا سافرت أكون أبدهم هيئة وأقلهم زاداً ، فمذ فرأتهم صرت من أحسنهم هيئة وأكثرهم زاداً حتى أرجع من سفرى ذلك .

(۱) مشعب الحوض : مسيله . (۲) الإزاء : مصب الماء في الحوض .

(۳) الإداوة : إزاء صير من جلد يتخذ للقاء . (۴) بد الهيئة : رثها .

وقال قروة بن نوفل الأشجعي: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني. قال: «اقرأ عند منامك «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» فإنها براءة من الشرك». أخرجه أبو بكر الأنباري وغيره. وقال ابن عباس: ليس في القرآن أشد غيظاً لإبليس منها؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك. وقال الأصمعي: كان يقال: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ»، و«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» المُقَشَّقِشَتَانِ؛ أي إنهما براءتان من النفاق. وقال أبو عبيدة: كما يُقَشَّقِشُ الهِنَاءُ الْجَرَبَ فَيُبْرِئُهُ. وقال ابن السكيت: يقال للقرح والجدري إذا بيس رتتوف، ولجرب في الإبل إذا قفل: قد توسف جلدُه، وتَقَشَّرَ جلدُه، وتَقَشَّقَشَ جلدُه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾

ذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس: أن سبب نزولها أن الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب، وأمية بن خلف؛ لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، ونشرك نحن وأنت في أمرنا كله؛ فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا؛ لقد شاركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه؛ فأنزل الله عز وجل «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» (٣). وقال أبو صالح عن ابن عباس: إنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو استلمت بعض هذه الآلهة لصدقناك؛ فنزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم بهذه السورة، فبئسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه. والألف واللام ترجع إلى معن المعهود

(١) الهناء (بالكسر): القطران. (٢) قفل الجلد: يبس. (٣) اسلم الحجر: لمسه إما بالقبلة أو باليد.

وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفة لأي؛ لأنها مخاطبة لمن سبق في علم الله تعالى أنه سميت على كفره، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم، ونحوه عن الماوردي: نزلت جواباً، وعنى بالكافرين قوماً معينين لا جميع الكافرين؛ لأن منهم من آمن فعبده الله، ومنهم من مات أو قُتل على كفره، وهم المخاطبون بهذا القول، وهم المذكورون. قال أبو بكر بن الأنباري: «وقرأ من طعن في القرآن: قل للذين كفروا «لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» وزعم أن ذلك هو الصواب، وذلك آقراء على رب العالمين، وتضعيف لمعنى هذه السورة، وإبطال ما قصده الله من أن يذلل نبيه للشركين بخطابه إياهم بهذا الخطاب الزري، وإلزامهم ما يأتي منه كل ذي لبٍ وحجماً. وذلك أن الذي يدعيه من اللفظ الباطل قراءتنا تشمل عليه في المعنى، وتزيد تأويلاً ليس عندهم في باطلهم وتحريفهم. فعنى قراءتنا: قل للذين كفروا بإيها الكافرون؛ دليل صحة هذا أن العربي إذا قال لمخاطبه قل لزيد أقبل إلينا، فعناه قل لزيد يا زيد أقبل إلينا. فقد وقعت قراءتنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسن لفظ وأبلغ معنى؛ إذ كان الرسول عليه السلام يعتمدهم في ناديم، فيقول لهم: «يا أيها الكافرون»، وهو يعلم أنهم يفضبون من أن يُنسبوا إلى الكفر ويدخلوا في جملة أهله إلا وهو محروس ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يد، أو تقع به من جهتهم أذية. فن لم يقرأ «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» كما أنزلها الله أسقط آية رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسبيل أهل الإسلام ألا يسارعوا إلى مثلها، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه التي منحه الله إياها وشرفه بها. وأما وجه التكرار فقد قيل إنه للتأكيد في قطع أطاعهم؛ كما تقول: والله لا أفعل كذا ثم والله لا أفعله. قال أكثر أهل المعاني: نزل القرآن بلسان العرب، ومن مذهبهم التكرار لإرادة التأكيد والإفهام، كما أن مذهبهم الاختصار لإرادة التخفيف والإيجاز؛ لأن خروج الخطيب والمتكلم من شيء إلى شيء أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد؛ قال الله تعالى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»، «وَيَلُّوْا يَوْمَئِذٍ لِّلْكَذِّبِينَ»، «كَلَّا سِعَامُونَ» ثم «كَلَّا سِعَامُونَ»، و«فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» كل هذا على التأكيد.

وقد يقول القائل : أَرِمَ أَرِمٌ ، أَعْجَلَ أَعْجَلٌ ؛ ومنه قوله عليه السلام في الحديث الصحيح :
 ” فلا آذَنُ ثم لا آذَنُ إنما فاطمةُ بَضْعَةٌ مِنِّي “^(١) خرجه مسلم . وقال الشاعر :

هَلَا مَأَلَتْ جُمُوعَ كِنْدَةَ * يَوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ آيَتَا

وقال آخر :

يَا بَكْرُ أَنْشُرُوا لِي كَلْبِيَا * يَا بَكْرُ أَيْنَ أَيْنَ الْفِصْرَا^(٢)

وقال آخر :

يَا صَلْقَمَةَ يَا عَلْقَمَةَ يَا عَلْقَمَةَ - خَيْرَ تَمِيمٍ كَلَّهَا وَأَكْرَمَةَ

وقال آخر :

يَا أَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ يَا أَقْرَعُ * إِنَّكَ إِنْ بَصَرَخَ أَخُوكَ أَصْرَعُ^(٣)

وقال آخر :

أَلَا يَا أَسْلَمِي ثُمَّ أَسْلَمِي تُمَّتْ أَسْلَمِي * ثَلَاثُ تَحَبَّاتٍ وَإِنْ لَمْ تَتَكَلَّمْ

ومثله كثير . وقيل : هذا على مطابقة قولهم : تعبد آلهتنا وتعبد إلهك ، ثم تعبد آلهتنا وتعبد إلهك ، ثم تعبد آلهتنا وتعبد إلهك ، فنَجْرِي على هذا أَبَدًا سَنَةً وَسَنَةً . فأجيبوا عن كل ما قالوه بضده ؛ أي إن هذا لا يكون أبدا . قال ابن عباس : قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : نحن نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجل بمكة ، ونزوجهك من شئت ، ونطأ عقبك ؛ أي نَمْشِي خَلْقَكَ ، وتكف عن شتم آلهتنا ، فإن لم تفعل فنحن نعرض عليك خَصْلَةً واحدة هي لنا ولك صلاح ؛ تعبد آلهتنا اللات والعزى سنة ،

(١) لفظ الحديث كما في صحيح مسلم (باب الفضائل) : ” ... أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول : إن بني هشام بن المغيرة استأذفوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فلأنما ابنتي بضعة مني يريني ما رابها ويؤذي ما آذاها “ والبضعة (بالفتح وقد تكسر) : القطعة من اللحم . (٢) البيت من أبيات المهلهل بن ربيعة قالها بعد أن أخذ بن أراخيه كليب (راجع الشاهد العاشر بعد المائة في خزنة الأدب) . (٣) البيت لجرير بن عبد الله البجلي . وقيل لعمرو بن خنيس البجلي . (راجع خزنة الأدب في الشاهد الحادي والثمانين بعد الخمسةائة) .

(١) ونحن نعبد إلهك سنة؛ فنزلت السورة . فكان التكرار في « لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » ؛ لأن القوم كثرُوا عليه مقالهم مرّة بعد مرّة . والله أعلم . وقيل : إنما كثر بمعنى التغليظ . وقيل : أى « لَا أَعْبُدُ » الساعة « مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ » الساعة « مَا أَعْبُدُ » . ثم قال : « وَلَا أَنَا عَابِدٌ » فى المستقبل « مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ » فى المستقبل « عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » قاله الأخفش والمبرد . وقيل : إنهم كانوا يعبدون الأوثان ، فإذا ملوا وثناً وسمّوا العبادة له رفضوه ، ثم أخذوا وثناً غيره بشهوة نفوسهم ، فإذا سرّوا بحجارة تعجبهم ألقوا هذه ورفعوا تلك فعظموها ونصبوها آلهة يعبدونها ؛ فأمر عليه السلام أن يقول لهم : « لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » اليوم من هذه الآلهة التى بين أيديكم . ثم قال : « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » وإنما تعبدون الوثن الذى آتخذتموه ، وهو عندكم الآن . « وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ » أى بالأمس من الآلهة التى رفضتموها وأقبلتم على هذه . (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) فإنى أعبد إلهى . وقيل : إن قوله تعالى : « لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » . « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » فى الاستقبال . وقوله : « وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ » على نفي العبادة منه لما عبدوا فى الماضى . ثم قال : « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » على التكرير فى اللفظ دون المعنى من قبل أن التقابل يوجب أن يكون ولا أنتم عابدون ما عبدت ، فعدل عن لفظ عبدت إلى أعبد ، إشعاراً بأن ما عبد فى الماضى هو الذى يعبد فى المستقبل ، مع أن الماضى والمستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر . واكثر ما يأتى ذلك فى أخبار الله عز وجل . وقال : « مَا أَعْبُدُ » ولم يقل من أعبد ؛ ليقابل به « وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ » وهى أصنام وأوثان ، ولا يصلح فيها إلا « ما » دون « من » فحمل الأول على الثانى ليتقابل الكلام ولا يتنافى . وقد جاءت « ما » لمن يعقل . ومنه قولهم : سبحان ما سخركن لنا . وقيل : إن معنى الآيات وتقديرها : قل يا أيها الكافرون لا أعبد الأصنام التى تعبدونها ، ولا أنتم عابدون الله عز وجل الذى أعبده ؛ لإشراككم به واتخاذكم الأصنام ، فإن زعمتم أنكم تعبدونه فأنتم كاذبون ؛ لأنكم تعبدونه

(١) فى حاشية الجمل نفا من القرطبي : ثم نعبد آلهتنا و نعبد إلهك فنجرى على هذا أبدا سنة وستة فنزلت الخ .

مشركين . فأنا لا أعبد ما عبدتم ، أى مثل عبادتكم ، فـ « بما » مصدرية . وكذلك « وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ » مصدرية أيضا ؛ معناه ولا أتم عابدون مثل عبادتى التى هى توحيد :

قوله تعالى : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿١٠١﴾

فيه معنى التهديد ؛ وهو كقوله تعالى : « لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ » (١) أى إن رضيتم بدينكم فقد رضينا بديننا . وكان هذا قبل الأمر بالقتال فنسخ بآية السيف . وقيل : السورة كلها منسوخة . وقيل : ما نسخ منها شئ لأنها خبر . ومعنى « لَكُمْ دِينُكُمْ » أى جزاء دينكم ولى جزاء دينى . وسمى دينهم ديناً لأنهم اعتقدوه وتولّوه . وقيل : المعنى لكم جزاؤكم ولى جزائى ؛ لأن الدين الجزاء . وفتح الياء من « وَلِيَ دِينِ » نافع ، والبزى عن ابن كثير باختلاف عسده ، وهشام عن ابن عامر ، وحفص عن عاصم . وأثبت الياء فى « دينى » فى الخليل نصر بن عاصم وسلام وبمغوب ؛ قالوا : لأنها اسمٌ مثل الكاف فى دينكم والياء فى فت . الباقون بغير ياء ؛ مثل قوله تعالى : « فَهُوَ يَهْدِينِ » (٢) ، « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا » (٣) ونحوه ، اكنفاء بالكسرة وآتباعاً لخط المصحف ؛ فإنه وقع فيه بغير ياء .

تفسير سورة « النصر »

وهى مدنية بإجماع . وتسمى سورة « التوديع » . رضى ثلاث آيات .
وهى آخر سورة نزلت جميعاً ؛ قاله ابن عباس فى صحيح مسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾

النصر : العون ؛ مأخوذ من قولهم : قد نصر الغيث الأرض ؛ إذا أعان على نباتها ومع من حطها . قال الشاعر (٤) :

إِذَا أَسْلَخَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ فَوَدَعِي * بِلَادَ تَمِيمٍ وَأَنْصِرِي أَرْضَ عَامِرٍ

(٢) آية ٧٨ سورة الشعراء .

(١) آية ٥٥ سورة القصص .

(٤) هو الراعى يخاطب خيلاً . (عن اللسان مادة نصر) .

(٣) آية ٥٠ سورة آل عمران .

ويروى :

إذا دخل الشهر الحرام بفاويزي * بلاد تميم وأنصرى أرض طامير

يقال : نصره على مدوه ينصره نصرا ؛ أى أعانه . والاسم النصره . وأستنصره على مدوه ؛ أى سأل أن ينصره عليه . وتتاصروا : نصر بعضهم بعضا . ثم قيل : المراد بهذا النصر نصر الرسول على قريش ؛ قاله الطبرى . وقيل : نصره على من قاتله من الكفار ؛ فإن ماقبة النصر كانت له . وأما الفتح فهو فتح مكة ؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : هو فتح المدائن والقصور . وقيل : فتح سائر البلاد . وقيل : ما فتحه عليه من العلوم . و « إذا » بمعنى قد ؛ أى قد جاء نصر الله ؛ لأن نزولها بعد الفتح . ويمكن أن يكون معناه : إذا يجيئك .

قوله تعالى : **وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا** ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (**وَرَأَيْتَ النَّاسَ**) أى العرب وغيرهم . (**يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا**) أى جماعات فوجا بعد فوج . وذلك لما فتحت مكة قالت العرب : أما إذا ظفر عهد بأهل الحرم وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان^(١) . فكانوا يسلمون أفواجا أمة أمة . قال الضحاك : والأمة أربعون رجلا . وقال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن . وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين ، بعضهم يؤذنون ، وبعضهم يفرعون القرآن ، وبعضهم يهللون ؛ فسر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وبكى عمرو بن عباس . وروى عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : « **إِنَّا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** » وجاء أهل اليمن رقيقة أفئدتهم ، لينة طباعهم ، تخيفة قلوبهم ، عظيمة خشيتهم ، فدخلوا في دين الله أفواجا . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إِنَّا كُمْ أَهْلُ يَمِينٍ هُمْ أَضْعَفُ قُلُوبًا وَارِقٌ أَفْسَدَةُ الْفِئَةِ يَمَانٍ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّةٌ** » . وروى أنه

(١) أى طاعة .

صلى الله عليه وسلم قال : " إني لأجد نفس^(١) ربكم من قبل اليمن " . وفيه تأويلان : أحدهما - أنه الفرج ؛ اتباع إسلامهم أفواجا . والثاني - معناه أن الله تعالى نفس الكرب عن نبيه صلى الله عليه وسلم بأهل اليمن وهم الأنصار . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا " ذكره الماوردي . ولفظ الثعلبي : وقال أبو عمار حدثني جابر قال : سألت جابر عن حال الناس ، فأخبرته عن حال اختلافهم وفرقتهم ؛ فجعل يبكي ويقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون من دين الله أفواجا " .

قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ ﴾ أي إذا صليت فأكثر من ذلك . وقيل : معنى سبح صل ؛ عن ابن عباس . « بِحَمْدِ رَبِّكَ » أي حامدا له على ما آتاك من الظفر والفتح . « وَأَسْتَغْفِرْهُ » أي سئل الله الغفران . وقيل : « فَسَبِّحْ » المراد به التنزيه ؛ أي تزفه عما لا يجوز عليه مع شكره له . « وَأَسْتَغْفِرْهُ » أي سئل الله الغفران مع مداومة الذكر . والأول أظهر . روى الأئمة واللفظ للبخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » إلا يقول : « سبحانك ربنا وبحمدك اللهم أغفر لي » . وعنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم أغفر لي » يتأول القرآن . وفي غير الصحيح : وقالت أم سلمة كان النبي صلى الله عليه وسلم آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ، ولا يجيء ولا يذهب إلا قال : « سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب »

(١) قال ابن الأثير : « هو مستعار من نفس الهواء الذي يردّه النفس إلى الجوف فيبرد من حرارته وبعدها . أو من نفس الريح الذي ينسفه فيستروح إليه . أو من نفس الروضة وهو طيب روائحها فينفرج به عنه . يقال : أنت في نفس من أمرك ، وأعمل وأنت في نفس من عمرك ؛ أي في سعة وفحة قبل المرض والحرم ونحوهما . »

إليه — قال — فإني أمرت بها — ثم قرأ — « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » إلى آخرها . وقال أبو هريرة : أجهت النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها حتى توڑمت قدماء ، ونحل جسمه ، وقل تبسمه ، وكثر بكأؤه . وقال عكرمة : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قط أشد اجتهادا في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها . وقال مقاتل : لما نزلت قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص ، فقروا واستبشروا وبكى العباس ؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما يبكيك يا عم ؟ » قال : نعت إليك نفسك . قال : « إنه لكما تقول » فعاش بعدها ستين يوماً ما رئي فيها ضاحكاً مستبشراً . وقيل : نزلت في مني بعد أيام التشريق في حجة الوداع ، فبكى عمر والعباس ، فقيل لهما : إن هذا يوم فرح . فقالا : بل فيه نعي النبي صلى الله عليه وسلم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدقتما نعت إلي نفسي » . وفي البخاري وغيره عن ابن عباس قال : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ويأذن لي معهم . قال : فوجد بعضهم من ذلك فقالوا : يأذن لهذا القتي معنا ومن أبنائنا من هو مثله ! فقال لهم عمر : إنه من قد علمتم . قال : فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم ، فسألهم عن هذه السورة « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » فقالوا : أمر الله جل وعز نبيه صلى الله عليه وسلم إذا فتح عليه أن يستغفره وأن يتوب إليه . فقال : ما تقول يا ابن عباس ؟ قلت : ليس كذلك ، ولكن أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم حضور أجله فقال : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » فذلك علامة موتك . « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً » . فقال عمر رضي الله عنه : تلوه ونحني عليه ؟ وفي البخاري فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول . ورواه الترمذي قال : كان عمر يسألني مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عبد الرحمن ابن عوف : أتسأله ولنا بنون مثله ؟ فقال له عمر : إنه من حيث تعلم . فسأله عن هذه الآية « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » . فقلت : إنما هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعلمه إياه ؛ وقرأ السورة إلى آخرها . فقال له عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تعلم . قال : هذا

(۱) الذي في الطبري والكشاف : « ستين » . (۲) أي غضب . (۳) أي من جهة

ذكانه وزيادة معرفته . أو من جهة لرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حديث حسن صحيح . فإن قيل : فإذا يُغْفَرُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يؤمر بالاستغفار؟
 قيل له : كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعائه : « رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي
 وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَا وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي وَكُلَّ
 ذَلِكَ عِنْدِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ أَنْتَ الْمَقْدَمُ وَأَنْتَ
 الْمُؤَخَّرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » . فكان صلى الله عليه وسلم يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله به
 عليه، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنوباً . ويحتمل أن يكون بمعنى : كن متعلقاً به
 سائلاً راغباً ، متضرعاً على رؤية التقصير في أداء الحقوق ، لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال .
 وقيل : الاستغفار تبتدئ به إتياناً للشفرة بل تبتدئاً . وقيل : ذلك تبييه لأئمة لئلا
 يأمروا ويتركوا الاستغفار ، وفي قوله « وَأَسْتَغْفِرُكَ » أو استغفر لأمتك . (وَأِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)
 أى على المسبِّحين والتسبيحين بنوب سبعمائة وستين يوماً . ورواه أبو حمزة الثمالی عن علي بن
 السلام وهو معصوم يؤسر . ثم بعد ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم تكلم من يوم أُسْتُغْفِرُكَ . أسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ
 إِلَيْهِ . قالت : فقلت يا رسول الله ، أراك تكلم من قول « سبحان الله وبحمده ، أسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ
 وَأَتُوبُ إِلَيْهِ » ؟ فقال : « خبرني ربي أنى سار في علامة في أمي فإذا رأيتهما أكثرت من
 قول سبحان الله وبحمده أسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فَقَدْ رَأَيْتَهُمَا » إذا جاء نصر الله والفتح » - فتح
 مكة - « وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ تَعْمِيدَ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ
 تَوَّابًا » . وقال أبو عمر : نزلت هذه السورة بمئى في حجة الوداع ، ثم نزلت « الْيَوْمَ اكْتُمْتُ
 لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » فعاش بعدها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمانين يوماً . ثم
 نزلت آية الكلاله فعاش بعدها خمسين يوماً . ثم نزل « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ » فعاش
 بعدها خمسة وثلاثين يوماً . ثم نزل « وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ » فعاش بعدها أحدًا
 وعشرين يوماً . وقال مقاتل سبعة أيام . وفي غير هذا مما تقدم في « البقرة » بيانه والحمد لله .
 (١) آية ٣ سورة المائدة . (٢) آخر سورة النساء . (٣) آية ١٧ سورة التوبة .
 (٤) آية ٢٨١ سورة البقرة . (٥) راجع ج ٣ ص ٣٧٥ .

سورة « تَبَّتْ »

وهي مَكْتَبَةٌ بإجماع . وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) في الصحيحين وغيرهما واللفظ لمسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت « وَاَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ^(١) ورهطك منهم المخلصين ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا ، فهتف : يا صباحاه ! فقالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا محمد . فأجتمعوا إليه . فقال : « يا بني فلان يا بني فلان يا بني فلان يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب » فأجتمعوا إليه . فقال : « أرايتكم لو أخبرتكم أن خَيْلاً تخرج بسفع هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِيَّ » ؟ قالوا ، ما جربنا عليك كذباً . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تبأ لك ! ، أما جمعنا إلا لهذا ! ثم قام فنزلت هذه السورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدَّتْ » كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة . زاد الحميدى وغيره : فلما سمعت أمراءه ما نزل في زوجها وفيها من القرآن ، أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، وفي يدها ^(٢) فِهْرٌ من حجارة ، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر . فقالت : يا أبا بكر ، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهرفاه ، والله إنى لشاعرة :

مُذَمَّمًا عَصَيْنَا • وَأَمْرَهُ أَيْدِنَا • وَدِينَهُ قُلَيْنَا

(١) آية ٢١٤ سورة الشعراء . (٢) قال النوى في شرح مسلم : « وظاهر هذه العبارة أن قوله ورهطك منهم المخلصين كان قرآناً أنزل ثم نسخت تلاوته » . (٣) الفهر (بالكسر) : الحجر مملء الكف . وفهبل الحجارة مطلقاً .

ثم أنصرفت . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأيتك ؟ قال : « ما رأيتني لقد أخذ الله بصرها عنى » . وكانت قريش إنما تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم مذمماً ؛ يسبونه . وكان يقول : « ألا تعجبون لما صرف الله عنى من أذى قريش ، يسبون ويهجون مذمماً وأنا مجد » . وقيل : إن سبب نزولها ما حكاه عبد الرحمن بن زيد أن أبا لهب أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما ذا أعطى إن آمنت بك يا محمد ؟ فقال : « كما يعطى المسلمون » قال : ما لي عليهم فضل ؟ ! . قال : « وأى شيء تبغى » ؟ قال : تبا لهذا من دين أن أكون أنا وهؤلاء سواء ؛ فأنزل الله تعالى فيه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » . وقول ثالث حكاه عبد الرحمن بن كيسان قال : كان إذا وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وقد أنطلق إليهم أبو لهب ، فيسألونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون له : أنت أعلم به منا . فيقول لهم أبو لهب : إنه كذاب ساحر . فيرجعون عنه ولا يلقونه . فأتى وفد ففعل معهم مثل ذلك فقالوا : لا ننصرف حتى نراه ونسمع كلامه . فقال لهم أبو لهب : إنا لم نزل نعالجه ، فتبأ له وتعباً ؛ فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتتاب لذلك ؛ فأنزل الله تعالى « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » السورة . وقيل : إن أبا لهب أراد أن يرمى النبي صلى الله عليه وسلم بحجر فمنعه الله من ذلك ، وأنزل الله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » لمنع الذي وقع به . ومعنى « تَبَّتْ » خسرت ؛ قاله قتادة . وقيل : خابت ؛ قاله ابن عباس . وقيل : ضلت ؛ قاله عطاء . وقيل : هلكت ؛ قاله ابن جبير . وقال يمان بن رثاب : صيرت من كل خير . حكى الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء أنه لما قتل عثمان رحمه الله سمع الناس هاتفا يقول :

لَقَدْ خَلَوْتُكُمْ وَأَنْصَرَفُوا • فَمَا آبُوا وَلَا رَجَعُوا

وَلَمْ يُوقِفُوا بِنَذِيرِهِمْ • فَيَا تَبًّا لِمَا صَنَعُوا^(١)

وخصَّ البيدين بالتاب لأن العمل أكثر ما يكون بهما ؛ أى خسرتا وخسر هو . وقيل : المراد بالبيدين نفسه . وقد يعبر عن النفس باليد ؛ كما قال الله تعالى : « يَمَّا قَدَّمْتُ يَدَاكَ^(٢) »

(١) في بعض نسخ الأصل : • فَيَا لَلَّذِي صَنَعُوا •

(٢) آية ١٠ سورة الحج .

أى نفسك . وهذا مهيج كلام العرب ؛ تعبر ببعض الشيء عن كله ؛ تقول : أصابته يدُ الدهر ، ويدُ الرزايا والمنايا ؛ أى أصابه كل ذلك . قال الشاعر :

لَمَّا أَكَبَّتْ يَدُ الرِّزَايَا * عَلَيْهِ نَادَى أَلَّا مُجِيرُ

(وتبّ) قال الفراء : التبّ الأول دعاء والثانى خبر ؛ كما يقال : أهلكه الله وقد هلك . وفى قراءة عبد الله وأبى « وقد تب » . وأبو لهب اسمه عبد العزى ، وهو ابن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . وأمراته العوراء أم جميل ، أختُ ابى سفيان بن حرب ، وكلاهما ، كان شديد العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم . قال طارق بن عبد الله المحاربي : إني بسوق ذى الحجاز ، إذ أنا بإنسان يقول : ” يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله فتلحوا “ . وإذا رجل خلفه يرميه ، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول : يا أيها الناس ، إنه كذاب فلا تصدقوه . فقلت من هذا ؟ فقالوا : محمد ، زعم أنه نبي . وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب . وروى عطاء عن ابن عباس قال قال أبو لهب : سحركم محمد ! إن أحدنا لياكل الجذعة ، ويشرب العس من اللبن فلا يشبع ، وإن محمداً قد أشبعكم من فيض شاة ، وأرواكم من عس لبن .

الثانية — قوله تعالى : (أَبِي لَهَبٍ) قيل : سُمِّيَ بِاللَّهَبِ لِحَسَنِهِ وَإِشْرَاقِ وَجْهِهِ . وقد ظن قوم أن فى هذا دليلاً على تكنية المشرك ؛ وهو باطل ، وإنما كناه الله بأبى لهب — عند العلماء — لمعان أربعة : الأول — أنه كان اسمه عبد العزى ، والعزى صنم ، ولم يصف الله فى كتابه العبودية إلى صنم . الثانى — أنه كان يكنيته أشهر منه باسمه ؛ فصريح بها . الثالث — أن الأسم أشرف من الكنية ؛ فخطه الله عز وجل عن الأشرف إلى الأنقص ؛ إذ لم يكن بد من الإخبار عنه ، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم ولم يكن عن أحد منهم . ويدلُّك على شرف الأسم على الكنية أن الله تعالى يُسَمَّى ولا يكنى ، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه ؛ واستحالة نسبة الكنية إليه لتقدسه عنها . الرابع — أن الله تعالى أراد أن

(۱) يقال طريق مهيج : أى واضح واسع بين . (۲) الجذعة : ولد الشاة فى السنة الثانية .

(۳) العس (بالضم) : القدح الكبير .

يحقق نسبه بأن يدخله النار ، فيكون أباً لها ؛ تحقيقاً للنسب ، وإمضاءً للفعال والظيرة التي اختارها لنفسه . وقد قيل : اسمه كُنِيْتُهُ . فكان أهله يُسَمُّونَه أباً لهب لتلهب وجهه وحسنه ؛ فصرفهم الله عن أن يقولوا : أبو النور وأبو الضياء الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه ، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى لهب الذي هو مخصوص بالمكروه المذموم ؛ وهو النار . ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقترنه . وقرأ مجاهد وحُميد وابن كثير وابن مُحَيِّصن . « أَبِي لَهَبٍ » بإسكان الهاء . ولم يختلفوا في « ذَاتَ لَهَبٍ » أنها مفتوحة ؛ لأنهم راعوا فيها رءوس الآي .

الثالثة — قال ابن عباس : لما خلق الله عز وجل القلم قال له اكتب ما هو كائن . وكان فيما كتب « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » . وقال منصور : سئل الحسن عن قوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » هل كان في أم الكتاب ، وهل كان أبو لهب يستطيع ألا يصلّي النار؟ فقال : والله ما كان يستطيع ألا يصلّاها ، وإنما لفي كتاب الله من قبل أن يُخْلَقَ أبو لهب وأبواه . ويؤيده قول موسى لآدم : أنت الذي خلقتك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، خيبت^(١) الناس وأخرجتهم من الجنة . قال آدم : وأنت موسى الذي أصطفاك الله بكلامه وأعطاك التوراة ، تلومني على أمر كتبته الله عليّ قبل أن يخلق الله السموات والأرض . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فحج آدم موسى » ، وقد تقدّم هذا . وفي حديث همام عن أبي هريرة أن آدم قال لموسى : « بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن يخلقني » ؟ قال : « بالفى عام » قال : « فهل وجدت فيها : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى » ؟ قال : « نعم » قال : « أفتلومني على أمر كتب الله عليّ أن أفعله من قبل أن أخلق بالفى عام » . فحج آدم موسى . وفي حديث طاوس وابن هُرْمُزٍ والأعرج عن أبي هريرة : « بأربعين عاما » .

(١) في الأصول : « أغويت » . (٢) أى غلبه بالحجة . (٣) راجع ج ١١ ص ٢٥٦

قوله تعالى : مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢٠﴾

أى ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال ولا ما كسب من جاه . وقال مجاهد : من الولد ؛ وولد الرجل من كسبه . وقرأ الأعمش « وَمَا أَكْتَسَبَ » ورواه عن ابن مسعود . وقال أبو الطَّفِيل : جاء بنو أبي لُهب يَخْتَصِمُونَ عند ابن عباس فاقتلوا ، فقام لِيَحْجُزَ بينهم فدفعه بعضهم فوق علي الفراش ؛ فغضب ابن عباس وقال : أخرجوا عنى الكسب الخبيث ؛ يعنى ولده . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه " . خرجه أبو داود . وقال ابن عباس : لما أُنذِر رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته بالنار ، قال أبو لُهب : إن كان ما يقول ابن أخى حَقًّا فلانى أفدى نفسى بمالى وولدى ؛ فنزل : « مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ » . و « ما » فى قوله : « مَا أَغْنَىٰ » يجوز أن تكون نفيًا ، ويجوز أن تكون استفهامًا ؛ أى أى شىء أغنى [عنه] . و « ما » الثانية يجوز أن تكون بمعنى الذى ، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدرًا ؛ أى ما أغنى عنه ماله وكسبه .

قوله تعالى : سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٢١﴾

أى ذات اشتعال وتلُهب . وقد مضى فى سورة « المرسلات » ^(١) القولُ فيه . وقراءة العامة : « سَيَصْلَىٰ » بفتح الياء . وقرأ أبو رجاء والأعمش بضم الياء . ورواها محبوب عن إسماعيل عن ابن كثير ، وحسين عن أبي بكر عن عاصم ، ورويت عن الحسن . وقرأ أشهب العقيلي وأبو سَمَّال العدوى ومحمد بن السَّمِيقِ « سَيَصْلَىٰ » بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام ؛ ومعناها سَيَصْلَىٰه الله ؛ من قوله : « وَتَصَلَّىٰ بِجَهَنَّمَ » ^(٢) . والثانية من الإصلاء ؛ أى يصلية الله ؛ من قوله : « فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا » ^(٣) . والأولى هى الاختيار ؛ لإجماع الناس عليها ؛ وهى من قوله : « إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ » ^(٤) .

(٢) آية ٩٤ سورة الواقعة .

(١) راجع ج ١٩ ص ١٦٠ .

(٤) آية ١٦٣ سورة الصافات .

(٣) آية ٣٠ سورة النساء .

قوله تعالى : وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : (وَأَمْرَأَتُهُ) أم جميل . وقال ابن العربي : العوراء أم قبيح ، وكانت عوراء . (حَمَّالَةُ الْحَطَبِ) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدِّي : كانت تمشي بالنخلة بين الناس ؛ تقول العرب : فلان يَحْطِبُ على فلان إذا ورش عليه . قال الشاعر :

إِنَّ بَنِي الْأَدْرَمِ حَمَّالُو الْحَطَبِ * هُمُ الْوُشَاةُ فِي الرِّضَا وَفِي الْغَضَبِ

• عَلَيْهِمُ اللَّعْنَةُ تَتَرَى وَالْحَرْبُ ﴿٤٢﴾

وقال آخر :

مِنَ الْبَيْضِ لَمْ تُصَطِّدْ عَلَى ظَهْرٍ لَأَمِيَّةِ * وَلَمْ تَمْسِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ

يعنى لم تمش بالنمائم ، وجعل الحطب رطباً ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر . وقال أكرم بن صيفي لبيته : إياكم والنخلة ! فإنها نارٌ مُحْرِقَةٌ ، وإن النمام ليعمل في ساعة ما لا يعمل الساحر في شهر . أخذه بعض الشعراء فقال :

إِنَّ النَّخْلَةَ نَارٌ وَبِكَ مُحْرِقَةٌ * فَفِرَّ عَنْهَا وَجَانِبٌ مِنْ تَعَاظَاهَا

ولذلك قيل : نار الحقد لا تحبو . وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم : ” لا يدخل الجنة نمام ” . وقال : ” ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً ” . وقال عابيه الصلاة والسلام : ” من شمر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ” . وقال كعب الأحبار : أصاب بني إسرائيل حَقْطٌ ، فخرج بهم موسى عليه السلام ثلاث مرات يستسقون فلم يُسَقَوْا . فقال موسى : ” إلهي عبادك ” فأوحى الله إليه ” إني لا أستجيب لك ولا لمن معك لأن فيهم رجلاً نماماً قد أصر على النخلة ” فقال موسى : ” يا رب من هو حتى نخرجه من بيننا ؟ ” فقال : ” يا موسى أنهاك عن النخلة وأكون نماماً ” . قال : فتأبوا بأجمعهم فسُقُوا . والنخلة من الكجائر ، لا خلاف في ذلك ؛ حتى قال الفضيل بن عياض : ثلاث تهتد العمل الصالح

(١) « حمالة » بالرفع فراءة نافع ، وبها يقرأ المؤلف . (٢) التوريش : التحريش ؛ يقال : ورشت

بين القوم وأرشت . (٣) الحرب (بالتحريك) : نهب مال الانسان وتركه لاشئ له .

ويفطرن الصائم وينقضن الوضوء : الغيبة ، والنميمة ، والكذب . وقال عطاء بن السائب : ذكرتُ للشعبي قول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل الجنة سافك ديم ولا مشاء بنميمة ولا تاجر يري " فقلت : يا أبا عمرو ، قرن التمام بالقاتل وآكل الربا ؟ فقال : وهل تُسفك الدماء وتنتهب الأموال وتُهيج الأمور العظام إلا من أجل النميمة .

وقال قتادة وغيره : كانت تُعير رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر . ثم كانت مع كثرة ما لها تحمل الخطب على ظهرها أشدّة بخلها ، فعُيرت بالبخل . وقال ابن زيد والضحاك : كانت تحمل العضاء والشوك فتطرحه بالليل على طريق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ وقاله ابن عباس . قال الربيع : فكان النبي صلى الله عليه وسلم يطؤه كما يطأ الحرير . وقال مرة الهمداني : كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة^(١) من الحسك فتطرحها على طريق المسلمين ، فبينما هي حاملة ذات يوم حُرمة أُعيت فقعدت على حجر لتستريح ، فخذبها الملك من خلفها فأهلكها . وقال سعيد بن جبير : حاملة الخطايا والذنوب ؛ من قولهم : فلان يحتطب على ظهره ؛ دليله قوله تعالى : « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ » . وقيل : المعنى حاملة الخطب في النار ؛ وفيه بعد . وقراءة الإمامة « حَمَّالَةٌ » بالرفع على أن يكون خبراً « وَأَمْرَاتُهُ » مبتدأ . ويكون « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » جملة في موضع الحال من المضمرفي « حَمَّالَةٌ » . أو خبراً ثانياً . أو يكون « حَمَّالَةُ الْخَطْبِ » نعتاً لامراته . والخبر « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » ؛ فيوقف على هذا على « ذَاتَ لَهَبٍ » . ويجوز أن يكون « وَأَمْرَاتُهُ » معطوفة على المضمرفي « سَيَصَلِّي » فلا يوقف على « ذَاتَ لَهَبٍ » ويوقف على « وَأَمْرَاتُهُ » وتكون « حَمَّالَةُ الْخَطْبِ » خبر ابتداء محذوف . وقرأ عاصم « حَمَّالَةُ الْخَطْبِ » بالنصب على الذم ؛ لأنها اشتهرت بذلك بجفاءات الصفة للذم لا للتخصيص ؛ كقوله تعالى : « مَلْعُونِينَ أَيْمَانًا يُقْفُوا » . وقرأ أبو قلابة « حاملة الخطب » .

(١) الإبالة : الحزمة الكبيرة .

(٢) الحسك ؛ نبات له ثمرة ذات شوك تعلق بأصواف الغنم وهو السعدان .

(٣) آية ٣١ سورة الأنعام . (٤) آية ٦١ سورة الأحزاب .

قوله تعالى : فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (فِي جِيدِهَا) أَي عُنُقِهَا . وَقَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ :

وَجِيدٌ كَيْدِ الرَّيْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ * إِذَا هِيَ نَصَّتَهُ وَلَا بِمَعْطَلٍ^(١)

(حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) أَي مِّن لَيْفٍ ؛ قَالَ النَّابِغَةُ :

مَقْدُوفَةٌ بِدَخِيسِ النَّحِضِ بَازِلُهَا * لَهُ صَرِيْفٌ صَرِيْفٌ الْقَعْوُ بِالْمَسَدِ^(٢)

وَقَالَ آخَرُ :

يَا مَسَدَ الْخُوصِ تَعَوَّذْ مِنِّي * إِنِّي كُنْتُ لَدُنَّا لَيْتًا فَلَانِي

* مَا شِئْتُ مِّنْ أَشْمَطٍ مُّقْسِنٍ^(٣)

وَقَدْ يَكُونُ مِّنْ جُلُودِ الْإِبِلِ أَوْ مِّنْ أَوْبَارِهَا ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

وَمَسَدٍ أَمْرٌ مِّنْ أَيَّانِي * لَيْسَ بِأَيَّابٍ وَلَا حَقَائِقِي^(٤)

وَجَمْعُ الْجِيدِ أَجْيَادٌ . وَالْمَسَدُ أَمْسَادٌ . أَبُو عُبَيْدَةَ : هُوَ حَبْلٌ يَكُونُ مِّنْ صُوفٍ . قَالَ الْحَسَنُ : هِيَ حَبَالٌ مِّنْ شَجَرٍ تَنْبَتُ بِالْيَمَنِ تُسَمَّى الْمَسَدَ ، وَكَانَتْ تُقْتَلُ . قَالَ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ : هَذَا فِي الدُّنْيَا ؛ فَكَانَتْ تُعِيرُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْفَقْرِ وَهِيَ تَحْتَطِبُ فِي حَبْلِ تَجْمَلُهُ فِي جِيدِهَا مِّنْ لَيْفٍ ، فَخَنَقَهَا اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ بِهَافَاهُ لِكَمَا ؛ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ حَبْلٌ مِّنْ نَّارٍ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ

(١) الجيد : العنق . والرَّيْمُ : الظبي الأبيض الخالص البياض . و « نصته » رفعه . والمعطل : الذي لا حل

عليه . وقوله « فاحش » : أي ليس بكريم المنظر .

(٢) قال التبريزي : « مقدوفة » أي مرمية باللحم . والدخيس : الذي قد دخل بعضه في بعض من كثرة .

والنحض : اللحم ، وهو جمع نحضة . والبازل : الكبير . والصريف : الصباح . والقعو : ما يضم البكرة إذا كان خشبا ؛ فإذا كان حديدا فهو خطاب . ويروي : له صريف صريف القعو (بالضم) على البدل ، والنصب أجود .

(٣) الأشمط : من خالط بياض رأسه سواد . والمقسن : الذي قد انتهى في سنه فليس به ضعف كبر ولا قوة

شباب . وقيل : هو الذي في آخر شبابه وأقل كبره . (٤) أمر الحبل : قتله فتلا شديدا . وأيانق : جمع

أيتق ، وأيتق جمع ناقة . والأنياب : جمع ناب وهي الناقة الهرمة . والحقائق : جمع حقة وهي التي دخلت في السنة

الراجعة وليس جلدها بالقوى .

في رواية أبي صالح : « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » قال : سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً -
وقاله مجاهد وعُروة بن الزبير : تدخل من فيها وتخرج من أسفلها، وتُلَوَّى سائرُها على عنقها .
وقال قتادة : « حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » قال : قِلادة من ودع . الودع : خرز بيض تخرج من البحر،
تتفاوت في الصغر والكبر . قال الشاعر :

* وَالْحِلْمُ حِلْمٌ صَبِيٍّ يَمِثُّ الْوَدْعَةَ ^(١) *

والجمع ودعات . الحسن : إنما كان خرزا في عنقها . سعيد بن المسيب : كانت لها قِلادة
فأحرة من جوهر فقالت : وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَا تُفِقَّنَا فِي عداوة محمد . ويكون ذلك عذابا
في جيدها يوم القيامة . وقيل : إن ذلك إشارة إلى الخذلان ؛ يعني أنها مربوطة عن الإيمان
بما سبق لها من الشقاء، كالمربوط في جيدها بحبل من مسدء والمسدء : القتل . يقال : مَسَدَ
حَبْلَهُ يَمْسُدُهُ مَسَدًا أَي أَجَادَ قَتْلَهُ . قال :

* يَمْسُدُ أَعْلَى لِحْمِهِ وَيَأْرِمُهُ *

يقول : إن البقل يقوى ظهر هذا الحمار ويشده . ودابة ممسودة الخلق إذا كانت شديدة
الأسر . قال الشاعر ^(٢) :

وَمَسَدٍ أَمْرَةٍ مِّنْ أَبَانِيْقٍ * صُهْبٍ عِنَاقٍ ذَاتِ مَحْ زَاهِقٍ

* لَيْسَ بِأَنْيَابٍ وَلَا حَقَائِقٍ ^(٤) *

ويروى :

* وَلَا ضَعَايِفٍ مَّحْمُونٍ زَاهِقٍ *

قال الفراء : هو مرفوع والشعر مكفأ . يقول : بل محمّن مكنتز؛ رفعه على الابتداء . قال :
ولا يجوز أن يريد ولاضعاف زاهق محمّن . كما لا يجوز أن تقول : مررت برجل أبوه قائم ؛

(١) مرث الودع يمرنه ويميرنه مرثا : مصه . (٢) هورؤية . (٣) الأسر : الخلق .

(٤) أمرء الحبل : قتله فتلا شديدا . والأيانق : جمع ناقة . والصهب : جمع الأصهب وهو بعير ليس بشديد البياض .

وعناق : جمع عنيق وهو الكريم . وزهق المنع : إذا اكتنز (اجتمع) لحمه ؛ فهو زاهق . (٥) الإكفاء في الشعر :

المخالفة بين ضروب إعراب قوافيه . ومن الإكفاء أيضا المخالفة بين هجاء قوافيه إذا انفارقت مخارج الحروف أو تباعدت .

بالخفض . وقال غيره : الزاهق هنا بمعنى الذاهب ؛ كأنه قال : ولاضعاف ^{مهد} مَحْضُونَ ، ثم رد الزاهق على الضعاف . ورجل مَمْسُودٌ أى مجدول الخلق . وجارية حَسَنَةُ المَسْدِ والعَصَبِ والجَدَلِ والأَرَمِ ؛ وهى مَمْسُودَةٌ ومَمْصُوبَةٌ ومَجْدُولَةٌ ومَأْرُومَةٌ . والمِسادُ على فِعال لغةٌ فى المِسابِ ، وهو نَحْيُ السَّخَنِ وسِقَاءُ العِسلِ . قال جميعه الجوهري . وقد أعترض فقيهل : إن كان ذلك حَبَلَهَا الذى تحتطب به فكيف يبقى فى النار ؟ وأجيب عنه بأن الله عز وجل قادر على تجديده كلما احترق . والحكم ببقاء أبى لهب وأمرأته فى النار مشروط ببقائهما على الكفر إلى المواتة ؛ فلما ماتا على الكفر صدق الإخبار عنهما . ففيه معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم . فأمرأته خنقتها الله بحبلها ، وأبو لهب رماه الله بالعدسة ^(٣) بعد وقعة بدر بسبع ليال ، بعد أن شجته أم الفضل ^(٤) . وذلك لما قدم الحيسمان مكة يُخبر خبر بدر ، قال له أبو لهب : أخبرني خبر الناس . قال : نعم ، والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمحنناهم أكافنا ، يضعون السلاح منا حيث شاءوا ، ومع ذلك ما لمست الناس . لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق ، لا والله ما تبقى منا ؛ يقول : ما تبقى شيئاً . قال أبو رافع : وكنت غلاماً للعباس أنحيت الأقداح فى صفة زمزم ، وعندى أم الفضل جالسة ، وقد سرتنا ما جاءنا من الخبر ، فرفعت طنب الحجر فقلت : تلك والله الملائكة . قال : فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربةً منكراً ، وثاورته ^(٥) وكنت رجلاً ضعيفاً ، فأحتملنى فضرب بى الأرض وبرك على صدرى يضربنى . وتقدمت أم الفضل إلى عمود من عمود الحجرة فتأخذه وتقول : استضعفته أن غاب عنه سيده ! وتضربه بالعمود على رأسه فتلقفه شجرةً منكراً . فقام يجر رجليه ذليلاً ورماه الله بالعدسة فسات ، وأقام ثلاثة أيام لم يُدفن حتى أتت ؛ ثم إن ولده غسلوه بالماء قذفاً من بعيد مخافة عدوى العدسة . وكانت قريش تتقيها كما يتقى الطاعون . ثم احتملوه إلى أعلى مكة فأسندوه إلى جدار ، ثم رَضُّوا ^(٦) عليه الحجارة .

(١) أى مجدولة الخلق . (٢) وقد مزق يقال مساب ، كبير . (٣) العدسة : برة تخرج

بالبدن فتقتل . (٤) هى لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية ، أخت سيوفه أم المؤمنين .

(٥) ثاوره : واثبه . (٦) أى جعلوا الحجارة بعضها على بعض .

سورة «الإخلاص»

مَكِّيَّة ؛ في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر . ومدنيَّة ؛
في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي . وهي اربع آيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ
وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أى الواحد الوتر الذى لا شبيه له ، ولا نظير ولا صاحبة
ولا ولد ولا شريك ، وأصل « أحد » وحَد ؛ قلبت الواو همزة . ومنه قول النابغة :
(١)

• بنى الجليل على مُسْتَأْنِسٍ وَحَدٍ •

وقد تقدم فى سورة « البقرة » الفرق بين واحد وأحد ، وفى « كتاب الأسنى فى شرح أسماء
الله الحسنى » أيضاً مُسْتَوْفَى . والحمد لله . و « أَحَدٌ » مرفوعٌ على معنى هو أحد . وقيل :
المعنى قل الأمر والشأن لله أَحَدٌ . وقيل : « أَحَدٌ » بدلٌ من قوله : « الله » . وقرأ
جماعةٌ « أَحَدُ اللهُ » بلا تنوين طلباً للخفة ، وفرارا من التقاء الساكنين ؛ ومنه قول الشاعر :

(٢)
• ولا ذاكر الله إلا قليلا •

(١) صدر البيت كما فى معلقته :

• كان رحل وقد زال النهار بنا •

و « ذو الجليل » مكان ينبت الجليل ، وهو الهام . والهام : نبت ضعيف قصير لا يطول .

(٢) هذا مجز بيت لأبي الأسود الدؤلى . وصدده .

• فالفية غير مستعجب •

(الله الصمد) أي الذي يُصمد إليه في الحاجات . كذا روى الضحاك عن ابن عباس قال : الذي يُصمد إليه في الحاجات ؛ كما قال عز وجل : « ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ » .
قال أهل اللغة : الصمد السيد الذي يُصمد إليه في النوازل والحوائج . قال :

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدٍ * بَعْمُرِ بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ

وقال قوم : الصمد الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال . وقيل : تفسيره ما بعده « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ » . قال أبي بن كعب : الصمد الذي لا يلد ولا يولد ؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سموت ، وليس شيء يموت إلا يورث . وقال عليّ وأبن عباس أيضا وأبو وائل شقيق بن سلمة وسفيان : الصمد هو السيد الذي قد انتهى سؤدده في أنواع الشرف والسؤدد ؛ ومنه قول الشاعر :

عَلَوْتُهُ بِجُسَامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ * خُذْهَا حُذَيْفَ فَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وقال أبو هريرة : إنه المُستغني عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد . وقال السدي : إنه المقصود في الرغائب ، والمستعان به في المصائب . وقال الحسين بن الفضل : إنه الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . وقال مقاتل : إنه الكامل الذي لا عيب فيه ؛ ومنه قول الزبير بن جبير :
سَيَرُوا جَمِيعًا يَنْصِفُ اللَّيْلَ وَاعْتَمِدُوا * وَلَا رَهِيْنَةَ إِلَّا سَيِّدُ صَمَدٍ
وقال الحسن وعكرمة والضحاك وأبن جبير : الصمد المصمت الذي لا جوف له ؛ قال الشاعر :

شِهَابٌ حُرُوبٍ لَا تَزَالُ جِيَادُهُ * عَوَائِسَ يَعْطُكُنَّ الشُّكِيمَ الْمَصْمَدًا^(٤)

قلت : قد أتينا على هذه الأقوال مُبيّنة في الصمد في (كتاب الأسمى) وأن الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق ؛ وهو القول الأول ، ذكره الخطّابي . وقد أسقط من هذه السورة من أبعده الله وأنزاه وجعل النار مقامه ومثواه وقرأ « الله الواحد الصمد » في الصلاة والناس يستمعون فأسقط « قل هو » وزعم أنه ليس من القرآن . وغير لفظ « أحد » وأدعى أن هذا هو الصواب ،

(١) آية ٥٣ سورة النحل . (٢) ويرى : بخيري . (٣) وهذا لا يجوز على الله تعالى .

(٤) حلت الدابة النجم تملكه (من باب قتل) علكا : لا كته وحركته . والشكيم والشكيمة : الحديد المعترضة

في فم الفرس .

والذى عليه الناس هو الباطل والمحال ، فأبطل معنى الآية ؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صِفْ لَنَا رَبَّكَ ، أَمِنْ ذَهَبٌ هُوَ أَمْ مِنْ نُحَاسٍ أَمْ مِنْ صُفْرٍ؟ فقال الله عز وجل ردًّا عليهم : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » .
 ففى « هو » دلالة على موضع الرد ومكان الجواب ، فإذا سقط بطل معنى الآية وصح الافتراء على الله عز وجل والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم . وروى الترمذى عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ ؛ فأنزل الله عز وجل « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ » . والصمد : الذى لم يلد ولم يولد ؛ لأنه ليس شىء يولد إلا سموت ، وليس شىء يموت إلا سيورث ، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث . (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) قال : لم يكن له شبيهه ولا عدل وليس كمثل شىء . وروى عن أبي العالية أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر آلهتهم فقالوا : انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ . قال : فأتاه جبريل بهذه السورة « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » فذكر نحوه ، ولم يذكر فيه عن أبي بن كعب ، وهذا أصح ؛ قاله الترمذى .

قلت : ففى هذا الحديث إثبات لفظ « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » وتفسير الصمد . وقد تقدم .
 وعن عكرمة نحوه . وقال ابن عباس : « لم يلد » كما ولدت مريم ، ولم يولد كما ولد عيسى وعزير . وهو رد على النصارى وعلى من قال : عزير بن الله . « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » أى لم يكن له مثلاً أحد . وفيه تقديم وتأخير ؛ تقديره : ولم يكن له أحد كفوا ؛ فقدّم خبر كان على اسمها لينساق أو انحر الآى على نظم واحد . وقُرئ « كفوا » بضم الفاء وسكونها . وقد تقدم فى « البقرة » أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوله مضموم فإنه يجوز فى عينه الضم والإسكان ؛ إلا قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْأً »^(١) لِهَلَّة تقدمت . وقرا حفص « كُفُوا » مضموم الفاء غير مهموز . وكلها لغات فصيحة .

(١) فى نسخة من الأصل : « فأسقط آية وأبطل المعنى وصحفت آفراء على الله عز وجل ... الخ .

(٢) بالهمز قراءة نافع ، وهى قراءة المؤلف . (٣) راجع ج ١ ص ٤٤٧ طبعة ثانية أرنالفة .

(٤) آية ١٥ سورة الزمر راجع ج ١٦ ص ٦٩

القول في الأحاديث الواردة في فضل هذه السورة ؛ وفيه ثلاث مسائل : -

الأولى - ثبت في صحيح البخارى عن أبي سعيد الخدرى أن رجلا سمع رجلا يقرأ « قل هو الله أحد » يرددها ؛ فلما أصبح جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقاهما ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسى بيده إنها تعدل ثلث القرآن » . وعنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة » فشق ذلك عليهم وقالوا : أينما يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » نخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء بمعناه . ونخرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن » ^(١) فحشد من حشد ؛ ثم نخرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقرأ « قل هو الله أحد » ثم دخل فقال بعضنا لبعض : إني أرى هذا خيراً جاءه من السماء ، فذاك الذى أدخله . ثم نخرج فقال : « إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا إنها تعدل ثلث القرآن » قال بعض العلماء : إنها عدلت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم الذى هو « الصمد » فإنه لا يوجد في غيرها من السور . وكذلك « أحد » . وقيل : إن القرآن أنزل أثلاثاً ، ثلثاً منه أحكام ، وثلثاً منه وعد ووعد ، وثلثاً منه أسماء وصفات ؛ وقد جمعت « قل هو الله أحد » ^(٢) [أحد] الأثلاث وهو الأسماء والصفات . ودل على هذا التأويل ما فى صحيح مسلم من حديث أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله جل وعز جزأ القرآن ثلاثة أجزاء بفعل « قل هو الله أحد » جزءاً من أجزاء القرآن » . وهذا نص ؛ وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص ، والله أعلم .

الثانية - روى مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سيرة وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ « قل هو الله أحد » ؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى

(١) أى يعتقد أنها قليلة في العمل لا في النقيص . (٢) فى شرح العيني على البخارى فى فضائل القرآن :

« قوله الله الواحد الصمد كناية عن قل هو الله أحد » . (٣) من باب قتل وضرب ، ويستعمل متعدها ولازماً .

(٤) أى اجتمع من اجتمع . (٥) زيادة عن الخطيب .

الله عليه وسلم فقال : ” سلوه لأى شىء يصنع ذلك “ ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، فأنا أحب أن أقرأ بها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أخبروه أن الله عز وجل يحبها “ . وروى الترمذى عن أنس بن مالك قال : كان رجل من الأنصار يؤتمهم في مسجد قباء وكان كلما أفتتح سورة يقرأها لهم في الصلاة فقرأ بها ، افتتح بـ « قل هو الله أحد » ؛ حتى يفرغ منها ، ثم يقرأ بسورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ؛ فكلّمه أصحابه فقالوا : إنك تقرأ بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى ، فلما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى ؟ قال : ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أن أؤتمم بها فعلت ، وإن كرهتم تركتكم ؛ وكانوا يرونه أفضلهم وكرهوا أن يؤتمهم غيره ؛ فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر ، فقال : ” يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة “ ؟ فقال : يا رسول الله ، إني أحبها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن حبها أدخلك الجنة “ قال : حديث حسن غريب صحيح . قال ابن العربي : « فكان هذا دليلاً على أنه يجوز تكرار سورة في كل ركعة . وقد رأيت على باب الأسباط فيما يقرب منه إماماً من جملة الثمانية والعشرين إماماً كان يصلّى فيه التراويح في رمضان بالأتراك ؛ فيقرأ في كل ركعة « الحمد لله » و « قل هو الله أحد » حتى يتم التراويح ؛ تخفيفاً عليه ورغبةً في فضلها . وليس من السنة ختم القرآن في رمضان » .

قلت : هذا نص قول مالك ، قال مالك : وليس ختم القرآن في المساجد بسنة .

الثالثة — روى الترمذى عن أنس بن مالك قال : أقبلت مع النبي صلى الله عليه وسلم فسمع رجلاً يقرأ « قل هو الله أحد » ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” وجبت “ قلت : وما وجبت ؟ قال : ” الجنة “ . قال : هذا حديث حسن صحيح . قال الترمذى :

(١) الرواية في الترمذى عن أبي هريرة .

(٢) في الترمذى : « حسن غريب » .

حدثنا محمد بن مرزوق البصري قال حدثنا حاتم بن ميمون أبو سهل عن ثابت البناني عن أنس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” من قرأ كل يوم مائتي مرة قل هو الله أحد عُحِيَ عنه ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين “ . وبهذا الإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” من أراد أن ينام على فراشه فنام على يمينه ثم قرأ قل هو الله أحد مائة مرة فإذا كان يوم القيامة يقول الرب يا عبدى أدخل على يمينك الجنة “ . قال : هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس . وفي مسند أبي محمد الدارمي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من قرأ قل هو الله أحد خمسين مرة غفرت له ذنوب خمسين سنة “ قال : وحدثنا عبد الله بن يزيد قال حدثنا حيوة قال أخبرني أبو عقيل أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : ” من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بُنِيَ له قصر في الجنة . ومن قرأها عشرين مرة بُنِيَ له بها قصران في الجنة . ومن قرأها ثلاثين مرة بُنِيَ له بها ثلاثة قصور في الجنة “ . فقال عمر بن الخطاب : والله يا رسول الله إذا لتكثرن قصورنا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أوسع من ذلك “ قال أبو محمد : أبو عقيل زهرة بن معبد ، وزعموا أنه كان من الأبدال . وذكر أبو نعيم الحافظ من حديث أبي العلاء يزيد بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من قرأ قل هو الله أحد في مرضه الذي يموت فيه لم يُفْتَن في قبره . وأمين من ضغطة القبر . وحملته الملائكة يوم القيامة بأُكْفَها حتى تُجيزه من الصراط إلى الجنة “ . قال : هذا حديث غريب من حديث يزيد تفرد به نصر بن حماد البجلي . وذكر أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت الحافظ عن عيسى بن أبي فاطمة الرازي قال سمعت مالك بن أنس يقول : إذا نُقِسَ بالناقوس أشد غضبُ الرحمن فتزل الملائكة يأخذون بأقطار الأرض فلا يزالون يقرءون « قل هو الله أحد » حتى يسكن غضبه جل وعز . وخرج من حديث محمد بن خالد الجندي عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من دخل يوم الجمعة المسجد فصلى أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خمسين مرة

فذلك مائتا مرة في أربع ركعات لم يمت حتى يرى منزله في الجنة أو يرى له " . وقال أبو عمر مولى جرير بن عبد الله البجلي عن جرير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ قل هو الله أحد حين يدخل منزله نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل وعن الجيران" . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ قل هو الله أحد مرة بورك عليه ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى جميع جيرانه ومن قرأها اثنتي عشرة مرة بنى الله له اثني عشر قصرا في الجنة وتقول الحفظة انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا فإن قرأها مائة مرة كفر الله عنه ذنوب خمسين سنة ما خلا الدماء والأموال فإن قرأها أربعائة مرة كفر الله عنه ذنوب مائة سنة فإن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه في الجنة أو يرى له " . وعن سهل بن سعد الساعدي قال : شكا رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر وضيق المعيشة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا دخلت البيت فسلم إن كان فيه أحد وإن لم يكن فيه أحد فسلم على واقرا قل هو الله أحد مرة واحدة" ففعل الرجل فأدّر الله عليه الرزق حتى أفاض على جيرانه . وقال أنس : كما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك ، فطلعت الشمس بيضاء لها شعاع ونور ، لم أرها فيما مضى طلعت قط كذلك ، فأتى جبريل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا جبريل مالي أرى الشمس طلعت بيضاء بشعاع لم أرها طلعت كذلك فيما مضى قط" ؟ فقال : "ذلك لأن معاوية بن معاوية اللبثي توفي بالمدينة اليوم فبعث الله سبعين ألف ملك يصلون عليه" . قال : "ويم ذلك" ؟ قال : "كان يكثر قراءة قل هو الله أحد أثناء الليل وأثناء النهار وفي ممشاه وقيامه وقعوده فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض فتصلي عليه" ؟ قال : "نعم" فصلى عليه ثم رجع . ذكره الثعلبي ، والله أعلم .

تفسير سورة « الفلق »

وهي مَكِّيَّة؛ في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنيَّة؛ في أحد قولي
 ابن عباس وقتادة . وهي خمس آيات .

وهذه السورة وسورة « الناس » و « الإخلاص » تعوذ بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين
 سحرته اليهود؛ على ما يأتي . وقيل : إن المعوذتين كان يقال لهما المُقَشِّقِشَتَان ؛ أي تبرئان من
 النفاق . وقد تقدم . وزعم ابن مسعود أنهما دعاء تعوذ به ، وليستا من القرآن ؛ خالف به
 الإجماع من الصحابة وأهل البيت . قال ابن قتيبة : لم يكتب عبد الله بن مسعود في مصحفه
 المعوذتين ؛ لأنه كان يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين - رضی الله
 عنهما - بهما ، فقدّر أنهما بمنزلة : أعيد كما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين
 لاقية . قال أبو بكر الأنباري : وهذا مردود على ابن قتيبة ؛ لأن المعوذتين من كلام رب
 العالمين المعجز لجميع المخلوقين ؛ وأعيد كما بكلمات الله التامة من قول البشريين . وكلام الخالق الذي
 هو آية محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وحجة له باقية على جميع الكافرين ، لا يلتبس بكلام
 الآدميين على مثل عبد الله بن مسعود الفصيح اللسان ، العالم باللغة ، العارف بأجناس الكلام
 وأفانين القول . وقال بعض الناس : لم يكتب عبد الله المعوذتين لأنه أمن عليهما من النسيان
 فأسقطهما وهو يحفظهما ؛ كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه ، وما يُسَكِّ في حفظه وإتقانه
 لها . فردّ هذا القول على قائله ، وأحجج عليه بأنه قد كتب « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » ،
 و « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » ، و « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » وهن يجزى مجزى المعوذتين في أنهن
 غير طوال ، والحفظ إليهن أسرع ، ونسيانهن مأمون ، وكلهن يخالف فاتحة الكتاب ؛
 إذ الصلاة لا تتم إلا بقراءتها . وسبيل كل ركعة أن تكون المقدمة فيها قبل ما يقرأ من بعدها ،
 فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف على معنى الثقة ببقاء حفظها ، والأمن من نسيانها صحيح ،
 وليس من السور ما يجزى في هذا المعنى مجراها ، ولا يسلك به طريقها . وقد مضى هذا
 المعنى في سورة « الفاتحة »^(١) . والحمد لله .

(١) راجع ج ١ ص ١١٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾
وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾
وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى - روى النسائي عن عتبة بن عامر قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو راكب : فوضعت يدي على قدمه ، فقلت : أقرئني سورة [هود] أقرئني سورة يوسف . فقال لي : " ولن تقرأ شيئا أبلغ عند الله من « قل أعوذ برب الفلق » " . وعنه قال : بينا أنا أسير مع النبي صلى الله عليه وسلم بين الجحفة والأبواء ، إذ غشيتنا ريح مظلمة شديدة ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ بـ « أعوذ برب الفلق » و « أعوذ برب الناس » ويقول : " يا عتبة تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما " . قال : وسمعتة يقرأ بهما في الصلاة . وروى النسائي عن عبد الله قال : أصابنا طش وظلمة ، فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج . ثم ذكر كلاما معناه : نخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم [ليصلي بنا] فقال : " قل " . فقلت : ما أقول ؟ قال : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَالْمَعُودَتَيْنِ حِينَ تَمْسِي وَحِينَ تَصْبِحُ ثَلَاثًا يَكْفِيكَ كُلَّ شَيْءٍ " . وعن عتبة بن عامر الجهني قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قل " . قلت : ما أقول ؟ قال قل : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ " - فقراهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال - لم يتعوذ الناس بمثلهن أولا يتعوذ الناس بمثلهن " . وفي حديث ابن عباس « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

(١) زيادة عن سنن النسائي . (٢) الطش (بفتح الطاء وتشديد الشين) : المطر الضعيف .

(٣) الذي في سنن النسائي : « فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصل بنا ثم ذكر ... الخ » .

(٤) زيادة عن سنن النسائي .

الْفَلَقِ وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ « . وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وَيَنْفُثُ ، فلما آشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها . النَّفْثُ : النفخ ليس معه ريق .

الثانية - ثبت في الصحيحين من حديث عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم سحره يهودى من يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى يُحْيِلَ إليه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعله ، فكث كذلك ما شاء الله أن يمكث - في غير الصحيح : بسنة - ثم قال :
 ” يا عائشة أشعرت أن الله أفنانى فيما استفتيته فيه . أتانى ملكان بغلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلي فقال [الذى عند رأسى للذى عند رجلي] ما شأن الرجل قال مطبوب قال^(٢)
 ومن طبه قال لبيد بن الأعصم قال فيما ذا قال فى مُشَطٍّ ومشاطة وجف طلعة ذكرك تحت^(٣)
 راعوفة فى بئر ذى أروان^(٤) . بجاء البئر واستخرجه . انتهى الصحيح . وقال ابن عباس :
 ” أما شعرت يا عائشة أن الله تعالى أخبرنى بدائى ” . ثم بعث علياً والزبير وعمار بن ياسر
 فترحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة وهى الراعوفة - صخرة ترك أسفل
 البئر يقوم عليها المائح^(٥) ، وأخرجوا الجف فإذا مشافة رأس إنسان ، وأمنان من مشط وإذا
 وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر ، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين ، وهما
 إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد ، وأمر أن يتعوذ بهما ، بفعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ،
 ووجد النبي صلى الله عليه وسلم خفة ، حتى انحلت العقدة الأخيرة فكأنما أنشط من عقال ،
 وقام ليس به بأس . وجعل جبريل يرقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : ” بأسم الله

(١) زيادة عن الصحيحين . (٢) المطبوب : المسحور . (٣) فى بعض نسخ الأصل وبعض كتب

الحديث : «ومشافة» بالفاء بدل الطاء ، وهو ما يستخرج من الكتان . والمشط : الآلة التى يمشط بها الشعر .

(٤) الجف (بضم الجيم وتشديد الفاء) : الغشاء الذى يكون على الطلع ويطلق على الذكر والأُنثى ؛ فلذا قيده

بقوله « ذكر » . (٥) الراعوفة : حجر نائق على رأس البئر لا يستطاع قلعه يقوم عليه المستقي . وقيل هو

فى أسفلها . (٦) ويقال : «بئر ذروان» وهى بئر بالمدينة فى بستان بنى زريق . (٧) أى فى روايته .

(٨) فى بعض نسخ الأصل : « المائح » بالياء المثناة من فوق ، وهو المستقي من البئر بالدلو من أعلى البئر .

أما المائح بالهمزة فهو الذى يكون فى أسفل البئر بملاء الدلو .

أَرَقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ مِنْ شَرِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ وَاللَّهُ يَشْفِيكَ ” . فقالوا : يا رسول الله ، ألا نقتل الخبيث . فقال : ” أما أنا فقد شفاني الله وأكره أن أثير على الناس شراً ” . وذكر القشيري في تفسيره أنه ورد في الصحاح أن غلاماً من اليهود كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم ، فدنت إليه اليهود ، ولم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي صلى الله عليه وسلم . والمشاطة (بضم الميم) ما يسقط من الشعر عند المشط . وأخذ عدة من أسنان مشطه فأعطاه اليهود فسحروه فيها ، وكان الذي تولى ذلك لبيد بن الأعصم اليهودي . وذكر نحو ما تقدم عن ابن عباس .

الثالثة — تقدم في البقرة القول في السحر وحقيقته وما ينشأ عنه من الآلام والمفاسد، وحكم الساحر؛ فلا معنى لإعادته^(٢) .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ اختلف فيه ؛ فقيل : سَجْنٌ فِي جَهَنَّمَ ؛ قاله ابن عباس . وقال أبي بن كعب : بيت في جهنم إذا فتح صاح أهل النار من حره . وقال الحُبَلِيُّ أبو عبد الرحمن : هو آسم من أسماء جهنم . وقال الكلبي : واد في جهنم . وقال عبد الله ابن عمر : شجرة في النار . سعيد بن جبير : جُبٌّ فِي النَّارِ . النحاس : يقال لما اطمأن من الأرض فَلَاقَ ؛ فعلى هذا يصح هذا القول . وقال جابر بن عبد الله والحسن وسعيد بن جبير أيضاً ومجاهد وقتادة والقُرَظِيُّ وأبن زيد : الفَلَقُ ، الصبح . وقاله ابن عباس . تقول العرب : هو أين من فَلَاقَ الصبح وِفَرَقَ الصبح . وقال الشاعر :

يَا لَيْلَةً لَمْ أَنْهَاهَا بِتُّ مَرْتَفِقًا * أَرْعَى النُّجُومَ إِلَى أَنْ نَوَّرَ الْفَلَاقُ

وقيل : الفلق : الجبال والصخور تنفلق بالمياه ؛ أي تتشقق . وقيل : هو التفلق بين الجبال والصخور ؛ لأنها تتشقق من خوف الله عز وجل . قال زهير :

مَا زِلْتُ أَرْمُقُهُمْ حَتَّى إِذَا هَبَّطْتُ * أَيْدِي الرِّكَابِ بِهِمْ مِنْ رَاكِبٍ فَلَقًا

(٢) راجع ج ٢ ص ٤٣ فابعدا طبعة ثانية .

(١) في نسخة : فدست .

(٤) المرتفق : المنكى صل مرضق يده .

(٣) هو عبد الله بن يزيد المعافري .

الراكس : بطن الوادى . وكذلك هو في قول النابغة :

* أَنَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضُّوَاَجِعُ ^(١) *

والراكس أيضا : الهادى ، وهو الثور وسط البيدر تدور عليه الثيران في الدياسة . وقيل : الرحم تنفلق بالحيوان . وقيل : إنه كل ما انفلق عن جميع ما خلق من الحيوان والصبح والحب والنوى ، وكل شيء من نبات وغيره ، قاله الحسن وغيره . قال الضحاك : الفلق الخلق كله ؛ قال :

وَسَوْسَ يَدْعُو مُخْلِصًا رَبَّ الْفَلَقِ * سَرًّا وَقَدْ أَوَّنَ تَأْوِينَ الْعُقُقِ ^(٢)

قلت : هذا القول يشهد له الاشتقاق ؛ فإن الفلق الشق . فلقت الشيء فلقتا أى شققته . والتفليق مثله . يقال : فلقته فأنفلق وتفلق . فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونوى وماء فهو فلق ؛ قال الله تعالى : « فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ^(٤) » وقال : « فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ^(٥) » . وقال ذو الرمة يصف الثور الوحشى :

حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَى ^(٦) عَنْ وَجْهِهِ فَلَاقَ * هَادِيَهُ فِي أُخْرِيَاتِ اللَّيْلِ مُتَّصِبٌ

يعنى بالفلق هنا الصبح بعينه . والفلق أيضا المطمئن من الأرض بين الربوتين ، وجمعه فُلُقَانٌ ؛ مثلُ خَلَقَ وَخُلُقَانٌ . وربما قالوا : كان ذلك بفالق كذا وكذا ؛ يريدون المكان المنحدر

(١) صدر البيت : * وعيد أبى قابوس في غير كنهه * والضواجع جمع ضاجعة وهى منحى الوادى .
 (٢) البيدر : الموضع الذى يداس فيه الحبوب . (٣) ورد هذا البيت فى الأصول محرفا . وهو من أرجوزة روبة بن العجاج التى مطلعها : * وفانم الأعماق خاوى المنحرق *
 وقوله : « أَوَّنَ » أى أكل وشرب حتى امتلأ بطنه . والعقق : جمع عقوق كرسول ورسول وهى التى تكامل حملها وقرب ولادها . وصف مائدا لما أحس بالصيد — وهى الآن التى رردت الماء فشربت حتى امتلأت خواصرها — وأراد رميه وسوس نفسه بالدعاء حذر الحية . (٤) آية ٩٦ سورة الأنعام . (٥) آية ٩٥ سورة الأنعام .
 (٦) كذا فى الأصول واللان . والذى فى الديوان : « ماجلا » . وقال ابن برى : الرواية الصحيحة : * حتى إذا ما جلا عن وجهه شفق * وقوله : « هاديه » أى أوله ؛ مأخوذ من الهادى وهو مقدم العنق .

بين الرُّبُوتَيْن . والفلق أيضا مِقْطَرَةُ السَّجَانِ (١) فَمَا الْفَلَقُ (بالكسر) فَالِدَاهِيَةُ وَالْأَمْرُ الْعَجَبُ ؛
تَقُولُ مِنْهُ : أَفْلَقَ الرَّجُلُ وَأَفْتَلَقَ . وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ ، وَقَدْ جَاءَ بِالْفَلَقِ [أَيْ بِالِدَاهِيَةِ] . وَالْفَلَقُ
أَيْضًا الْقَضِيبُ يُسَّقَى بِأَثْنَيْنِ فَيَعْمَلُ مِنْهُ قَوْسَانٌ ؛ يُقَالُ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا فُلُقٌ ، وَقَوْلُهُمْ : جَاءَ
بُعْلَقَ فُلُقٍ ؛ وَهِيَ الدَاهِيَةُ ؛ لَا يَجْرِي [مَجْرَى عَمْرٍ] (٢) . يُقَالُ مِنْهُ : أَعْلَقَتْ وَأَفْلَقَتْ ؛ أَيْ جِئْتُ
بُعْلَقَ فُلُقٍ . وَمَرَّتْ يَفْتَلِقُ فِي عَدُوِّهِ ؛ أَيْ يَأْتِي بِالْعَجَبِ مِنْ شِدَّتِهِ .

وقوله تعالى : (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) قِيلَ : هُوَ إبليس وذريته . وقيل جهنم . وقيل :
هو عام ؛ أَيْ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

الخامسة - قوله تعالى : (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) اختلف فيه ؛ فقيل : هو
الليل . والغسق : أول ظلمة الليل ؛ يقال منه : غَسَقَ اللَّيْلُ يَغْسِقُ أَيْ أَظْلَمَ . قَالَ قَيْسُ
الرُّقَيْتَاتِ :

إِنَّ هَذَا اللَّيْلَ قَدْ غَسَقَا * وَاشْتَكَيْتُ الْهَمَّ وَالْأَرْقَا

وقال آخر :

يَا طَيْفَ هِنْدٍ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِي أَرْقَا * إِذْ جِئْتَنَا طَارِقًا وَاللَّيْلُ قَدْ غَسَقَا

هذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسُّدِّيِّ وغيرهم . و« وَقَبَ » على هذا التفسير
أَظْلَمَ ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . الضَّحَّاكُ : دَخَلَ . قَتَادَةُ : ذَهَبَ . يَمَّانُ بْنُ رِثَابٍ : سَكَنَ .
وقيل : نَزَلَ ؛ يُقَالُ : وَقَبَ الْعَذَابُ عَلَى الْكَافِرِينَ ؛ نَزَلَ . قَالَ الشَّاعِرُ :

وَقَبَ الْعَذَابُ عَلَيْهِمْ فَكَانَهُمْ * لِحَقَّتْهُمْ نَارُ السَّمُومِ فَأُحْصِدُوا

وقال الزجاج : قيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار . والغاسق : البارد . والغسق البرد ؛
ولأن في الليل تخرج السباع من آجامها والهوام من أماكنها ، وينبعث أهل الشر على العيث

(١) المِقْطَرَةُ (بكسر الميم) : خشبة فيها خروق كل خرق على قدر سعة الساق يدخل فيها أرجل المهبوسين ؛ مشتق
من فطار الإبل . (٢) زيادة من اللسان مادة (علق) يفتنضها السباق . وفي الأساس مادة (فلق) :

« وجاء بعلق فلق » على التركيب تكمة عشر .

والفساد . وقيل : الغاسق الثُّرَيَّا ؛ وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت أرتفع ذلك ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد . وقيل : هو الشمس إذا غربت ؛ قاله ابن شهاب . وقيل : هو القمر . قال القُتَيْبِيُّ : « إِذَا وَقَبَ » القمرُ إذا دخل في سَاهُورِهِ ، وهو كالغلاف له وذلك إذا خسف به . وكل شيء أسود فهو غَسَقٌ . وقال قتادة : « إِذَا وَقَبَ » إذا غاب . وهو أصح ؛ لأن في الترمذى عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى القمر فقال : « يَا عَائِشَةُ اسْتَعِيذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ » . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وقال أحمد بن يحيى ثعلب عن ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الرِّيبِ يتحيمون وجبة القمر . وأنشد :

أَرَاخِي اللَّهَ مِنْ أَشْيَاءَ أَكْرَهُهَا * مِنْهَا الْعَجُوزُ وَمِنْهَا الْكَاثِبُ وَالْقَمَرُ
هَذَا يَبُوحُ وَهَذَا يُسْتَضَاءُ بِهِ * وَهَذِهِ ضَمْرٌ قَوَامَةٌ السَّحْرِ^(١)

وقيل : الغاسق الحية إذا لدغت . وكأن الغاسق نأبها ؛ لأن السم يغسق منه ؛ أي يسيل . ووقب نأبها إذا دخل في اللدغ . وقيل : الغاسق كل هاجم يضر ، كأننا ما كان ؛ من قولهم : غسقت القرحة إذا جرى صديدها .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ يعني الساحرات اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقن عليها . شبه النفخ كما يعمل من يرقى . قال الشاعر :
أَعْوَدُ بِرَبِّي مِنَ النَّافِثَا * ت فِي عِضِّهِ الْعَاضِهِ الْمُعْضِضِ^(٢)
وقال ميمون بن نويرة :

نَفَثَتْ فِي الْخَيْطِ شَيْبَةَ الرَّقِيِّ * مِنْ خَشْيَةِ الْجِنَّةِ وَالْحَاسِدِ

وقال عنتره :

فَإِنْ يَبْرَأُ فَلَمْ أَنْفِثْ عَلَيْهِ * وَإِنْ يَفْقَدُ حَقُّ لَهُ الْفُقُودُ

(١) الضمرز (كزبرج) : الناقة المسنة . ومن النساء الغليظة . وقد وردت هذه الكلمة في نسخ الأصل بحرفة ، ففي بعضها « صمود » وفي البعض الآخر : « ضمور » وهو تحريف . وفي البيت إقواء ؛ وهو اختلاف حركات الروي .
(٢) العضه (كعنب) : الكذب والسحر والبهتان . والعاضة : الساحر .

السابعة - روى النسائي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 " من عقد عُقْدَةً ثم نَفَثَ فيها فقد سَحَّرَ ومن سَحَّرَ فقد أشرك ومن تعلق شيئاً ^(١) وكل إليه " .
 وَأَخْتَلَفَ في النَّفْثِ عند الرُّقِيِّ ؛ فمنعه قوم وأجازوه آخرون . قال عكرمة : لا ينبغي للراقي أن
 يَنْفُثَ ولا يمسح ولا يَعْقِدُ . وقال إبراهيم : كانوا يكرهون النفث في الرقي . وقال بعضهم :
 دخلتُ على الضحاك وهو وَجِيعٌ ، فقلت : ألا أعوذك يا أبا محمد؟ قال : بلى ، ولكن لا تنفث ؛
 فعوذته بالمعوذتين . وقال ابن جريج قلت لعطاء : القرآن يُنْفَخُ به أو يُنْفَثُ ؟ قال :
 لا شيء من ذلك ولكن تفرؤه هكذا . ثم قال بعدُ : أنْفِثْ إن شئت . وسئل محمد بن سيرين
 عن الرُّقِيَةِ يُنْفَثُ فيها فقال : لا أعلم بها بأساً ، وإذا اختلفوا فالحاكم بينهم السنة . روت
 عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يَنْفُثُ في الرقية ؛ رواه الأئمة ، وقد ذكرناه أول
 السورة وفي (سبحان) ^(٢) . وعن محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتت به أمه النبي صلى الله
 عليه وسلم ، فجعل ينفث عليها ويتكلم بكلام ؛ زعم أنه لم يحفظه . وقال محمد بن الأشعث :
 ذهب بي إلى عائشة رضي الله عنها وفي عيني سوء ، فرقتني ونفثت .

وأما ما روى عن عكرمة من قوله : لا ينبغي للراقي أن ينفث ؛ فكأنه ذهب فيه إلى أن
 الله تعالى جعل النفث في العُقْدِ مما يُسْتَعَاذُ به ، فلا يكون بنفسه عوذة . وليس هذا هكذا ؛
 لأن النفث في العُقْدِ إذا كان مذموماً لم يجب أن يكون النفث بلا عقد مذموماً . ولأن
 النفث في العُقْدِ إنما أريد به السحر المضر بالأرواح ؛ وهذا النفث لأستصلاح الأبدان فلا
 يقاس ما ينفع بما يضر . وأما كراهة عكرمة المسح بخلاف السنة . قال علي رضي الله عنه :
 اشتكيت فدخل علي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أقول : اللهم إن كان أجلى قد حضر
 فأرحني ، وإن كان متأخراً فأشفني وعافني ، وإن كان بلاءً فصبرني . فقال النبي صلى الله عليه

(١) أي من علق شيئاً من الزواجر والتائم معتقداً أنها تجلب إليه نفعاً أو تدفع عنه ضرراً . وقيل : المراد
 تائم الجاهلية مثل الخرزات وأطمار السباع . أما ما يكون من القرآن والأسماء الإلهية فهو خارج عن هذا الحكم .
 (شرح سنن النسائي) . (٢) راجع ج ١٠ ص ٣١٥ فما بعدها .

وسلم : « كيف قلت ؟ فقلت له . فمسحني بيده ثم قال : « اللَّهُمَّ آشفه » فما عاد ذلك الوجع بعد . وقرأ عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر ورويس عن يعقوب « ومن شر النافثات » في وزن فاعلات . ورويت عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما . وروى أن نساء سحرن النبي صلى الله عليه وسلم في إحدى عشرة عقدة ، فأنزله الله المعوذتين إحدى عشرة آية . قال ابن زيد : كثر من اليهود ، يعني السواحر المذكورات . وقيل : هن بنات لبيد بن الأعصم .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ؛ فقد تقدم في سورة « النساء » معنى الحسد ، وأنه تمنى زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثاها ، والمنافسة هي تمنى مثاها وإن لم تزل . فالحسد شر مذموم . والمنافسة مباحة وهي الغبطة . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن يغبط والمنافق يحسد » . وفي الصحيحين : « لا حسد إلا في اثنتين » يريد لا غبطة . وقد مضى في سورة « النساء » والحمد لله .

قلت : قال العلماء : الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول ، وذلك بأن يجهله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود فيتبع مساوئه ويطلب عثراته . قال صلى الله عليه وسلم : « إذا حسدت فلا تبغ ... » الحديث . وقد تقدم . والحسد أول ذنب عصي الله به في السماء ، وأول ذنب عصي به في الأرض ، لحسد إبليس آدم ، وحسد قابيل هابيل . والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون . ولقد أحسن من قال :

قل للحسود إذا تنفس طعنة * يا ظالما وكأنه مظلوم

التاسعة - هذه سورة دالة على أن الله سبحانه خالق كل شر ، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ من جميع الشرور . فقال : « مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » . وجعل خاتمة ذلك الحسد .

(١) معنى الحسد تقدم في سورة البقرة ج ٢ ص ٧١ طبعة ثانية . وراجع أيضا سورة النساء ج ٥ ص ٢٥١ .

(٢) هذا مذكور في سورة البقرة لا في سورة النساء . فليراجع .

تنبيهاً على عظمه وكثرة ضرره ، والحاسد عدو نعمة الله . قال بعض الحكماء : بارز الحاسدُ ربّه من خمسة أوجه : أحدها — أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره . وثانيها — أنه ساخط لقسمة ربه ، كأنه يقول : لم قسمت هذه القسمة ؟ وثالثها — أنه ضاد فعل الله ، أي إن فضل الله يؤتیه من يشاء ، وهو يخل بفضل الله . ورابعها — أنه خذل أولياء الله أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم . وخامسها — أنه أعان عدوه إبليس . وقيل : الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة ، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاء ، ولا ينال في الخلوة إلا جرمًا وعمًا ، ولا ينال في الآخرة إلا حرنا واحتراقًا ، ولا ينال من الله إلا بُعدًا ومقتًا . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاث لا يستجاب دعائهنّ أكل الحرام ومكث الغيبة ومن كان في قلبه غلّ أو حسد للمسلمين " . والله سبحانه وتعالى أعلم .

سورة « الناس »

مثل « الفلق » لأنها إحدى المعوذتين . وروى الترمذي عن عُقبة بن عامر الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قد أنزل الله على آيات لم ير مثلهن « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » إلى آخر السورة و « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » إلى آخر السورة " . قال : هذا حديث حسن صحيح . ورواه مسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِهِ النَّاسِ ﴿٣﴾

قوله تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) أي مالِكهم ومُصْلِح أمورهم . وإنما ذكر أنه ربّ الناس ، وإن كان رباً لجميع الخلق لأمرين : أحدهما — لأن الناس معظّمون ، فأعلم بذكركم أنه ربّ لهم وإن عظموا . الثاني — لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم ، فأعلم بذكركم

أنه هو الذي يُعبد منهم . وإنما قال : (مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ) لأن في الناس ملوكا فذكر أنه ملكهم ، وفي الناس من يعبد غيره فذكر أنه إلههم ومعبودهم ، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به ويُلبأ إليه دون الملوك والعظماء .

قوله تعالى : مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤١﴾

يعنى من شر الشيطان . والمعنى : من شر ذى الوسواس ؛ فحذف المضاف ؛ قاله الفراء . وهو (بفتح الواو) بمعنى الأسم ؛ أى الوَسْوَسُ . و (بكسر الواو) المصدر ؛ يعنى الوسوسة . وكذا الزَّلْزَالُ والزَّلْزَالُ . والوَسْوَسَةُ : حديثُ النَّفْسِ . يقال : وَسَّسَتْ إِلَيْهِ نَفْسَهُ وَسْوَسَتْهُ وَوَسَّسَتْهُ (بكسر الواو) . ويقال لهُمَّسِ الصَّائِدِ وَالْكَلَابِ وَأَصْوَاتِ الْحَلِيِّ : وَسْوَسَ . قال ذو الرمة :

فَبَاتَ يُشِيرُهُ نَادٌ وَيَسِيرُهُ * تَذْوِبُ الرِّيحُ وَالْوَسْوَسُ وَالْهَضْبُ^(١)

وقال الأعشى :

تَسْمَعُ لِلْحَلِيِّ وَسْوَسًا إِذَا أَنْصَرَفَتْ * كَمَا أَسْتَعَانُ بِرِيحِ عَشْرِقٍ زَجَلٍ^(٢)

وقيل : إن الوسواس الخناس ابن إبليس ، جاء به إلى حواء ووضع بين يديها وقال : آكفليه . فجاء آدم [عليه السلام] فقال ما هذا [يا حواء]^(٣) ! قالت : جاء عدونا بهذا وقال لي : آكفليه . فقال : ألم أقل لك لا تطيعه في شيء هو الذي غرانا حتى وقعنا في المعصية ، وعمد إلى الولد فقطعه أربعة أرباع ، وعلق كل ربيع على شجرة غيظا له ؛ فجاء إبليس فقال : يا حواء ، أين أبني ؟ فأخبرته بما صنع به آدم [عليه السلام] فقال : يا خناس ، فخي فأجابه . فجاء به إلى حواء وقال : آكفليه ؛ فجاء آدم [عليه السلام] فخرقه بالنار وذثر رماده في البحر ؛ فجاء إبليس [عليه اللعنة] فقال : يا حواء ، أين أبني ؟ فأخبرته بفعل آدم إياه ؛ فذهب

(١) شتر الرجل : قلق من مرض أو هم . والناد : الندى والقمر والأمر القبيح . وتذوب الريح : هوبها من

كل وجه ، وهو مأخوذ من خداع الذئب . والهضب (بكسر الهاء) : الأمطار .

(٢) العشريق (كزبرج) : نبت له ورق فإذا يس طار . ونبت زجل : صوت فيه الريح .

(٣) زيادة عن نواتر الأصول للترمذى الحكيم .

إلى البحر فقال: يا خناس، فخيّ فأجابه . بجاء به إلى حواء الثالثة وقال: اكفليه . فنظر؛ إليه آدم فذبجه وشواه وأكله جميعا . بجاء إبليس فسألها فأخبرته [حواء]^(١) . فقال: يا خناس، فخيّ فأجابه [بجاء به] من جوف آدم وحواء . فقال إبليس : هذا الذي أردت، وهذا مسكك في صدر ولد آدم؛ فهو ملتقم قلب ابن آدم مادام غافلا يوسوس، فإذا ذكر الله لفظ قلبه وانخنس . ذكر هذا الخبر الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد عن وهب بن منبه . وما أظنه يصح، والله تعالى أعلم . ووُصِف بالخناس لأنه كثير الاختفاء؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ^(٢) » يعني النجوم لاختفائها بعد ظهورها . وقيل : لأنه يخنس إذا ذكر العبد الله؛ أي يتأخر . وفي الخبر "إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا غفل وسوس وإذا ذكر الله خنس" أي تأخر وأقصر . وقال قتادة : « الخناس » الشيطان له خرطوم نخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا غفل الإنسان وسوس له، وإذا ذكر العبد ربه خنس . يقول : خنسته نخنس؛ أي أخرته فتأخر . وأخنسته أيضا . ومنه قول أبي العلاء الخضرى - أنشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم - :

وَإِنْ دَحَسُوا بِالشَّرِّ فَأَعْفُ تَكْرَمًا * وَإِنْ خَنَسُوا عِنْدَ الْحَدِيثِ فَلَا تَسَلَّ^(٤)

الدَّحْسُ : الإفساد . وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإذا نسي الله التقم قلبه فوسوس" . وقال ابن عباس : إذا ذكر الله العبد خنس من قلبه فذهب ، وإذا غفل التقم قلبه فخذته ومناه . وقال إبراهيم التيمي : أول ما يبدو الوسواس من قبل الوضوء . وقيل : سُمِّيَ خناسا لأنه يرجع إذا غفل العبد عن ذكر الله . والخنس : الرجوع . وقال الرازي :

وَصَاحِبٌ يَمْتَعِسُ امْتِعَاسًا * يَزْدَادُ إِنْ حَيِيَّتَهُ خِنَاسًا^(٥)

(١) زبادة عن الترمذي الحكيم . (٢) آية ١٥ سورة التكوير .

(٣) في نسخة من الأصل : « ابن آدم » . (٤) في اللسان : « عنك » .

(٥) يمتعس : يتحرك . (٦) في بعض الأصول « جنته » وبعضها « جنته » وفي بعضها بدون اجماع .

وقد روى ابن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: «الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ» وجهين: أحدهما - أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى - الثاني - أنه الخارج بالوسوسة من اليقين .

قوله تعالى: الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿١٠٠﴾

قال مقاتل: إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، سلطه الله على ذلك؛ فذلك قوله تعالى: «الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ» . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» . وهذا يصحح ما قاله مقاتل . وروى شهر بن حوشب عن أبي ثعلبة الخشني قال: سألت الله أن يريني الشيطان ومكانه من ابن آدم فرأيتَه، يدها في يديه، ورجلاه في رجليه، ومشاعبه في جسده؛ غير أن له خطماً تكظم الكلب، فإذا ذكر الله خنس ونكس، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه . فعلى ما وصف أبو ثعلبة أنه متشعب في الجسد؛ أي في كل عضو منه شعبة . وروى عن عبد الرحمن بن الأسود أو غيره من التابعين أنه قال - وقد كبر سنه - : ما أمنت الزنى وما يؤمنني أن يدخل الشيطان ذكره فيوتده ! فهذا القول يثبتك أنه متشعب في الجسد، وهذا معنى قول مقاتل . ووسوسته هو الدعاء لطاعته بكلام خفي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت .

قوله تعالى: مِنْ أَلْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿١٠١﴾

أخبر أن المَوسوس قد يكون من الناس . قال الحسن: هما شيطانان؛ أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية . وقال قتادة: إن من الجن شياطين وإن من الإنس شياطين؛ فتعوذ بالله من شياطين الإنس والجن . وروى عن أبي ذر أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أو من الإنس شياطين؟ قال: نعم؛ لقوله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» الآية . وذهب قوم إلى أن الناس هنا يراد به الجن . ثموا ناسا كما سمو رجالا في قوله: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنْ

(١) آية ١١٢ سورة الأنعام .

الإنس يُعَوِّدُونَ رِجَالَ مَنِ الْجِنِّ» ^(١) — وَقَوْمًا وَنَفَرًا ^(٢) . فعلى هذا يكون « وَالنَّاسِ » عطفاً على « الْجِنَّةِ » ويكون التكرير لاختلاف اللفظين . وذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يتحدث : جاء قوم من الجن فوقفوا . فقيل : من أتم ؟ فقالوا : ناس من الجن . وهو معنى قول الفراء . وقيل : الوسواس هو الشيطان . وقوله : « مَنِ الْجِنَّةِ » بيان أنه من الجن « وَالنَّاسِ » معطوف على الوسواس . والمعنى : قل أعوذ برب الناس من شر الوسواس الذي هو من الجنة ومن شر الناس . فعلى هذا أمر بأن يستعبد بالله من شر الإنس والجن . والجنة جمع جنى ؛ كما يقال : إنس وإنسي . والهاء لتأنيث الجماعة . وقيل : إن إبليس يوسوس في صدور الجن كما يوسوس في صدور الناس . فعلى هذا يكون « في صدور الناس » عاماً في الجميع . و« من الجنة والناس » بيان لما يوسوس في صدره . وقيل : معنى « مَنِ شَرِّ الْوَسْوَاسِ » أي الوسوسة التي تكون من الجنة والناس ، وهو حديث النفس . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به » . رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . فالله تعالى أعلم بالمراد من ذلك .

(١) آية ٦ سورة الجن . (٢) وذلك في قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ... » آية ٢٩ سورة الأحقاف .

+ +

بعون الله وتوفيقه ، تم تصحيح هذا الكتاب " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي في يوم ٢٦ من شهر رمضان سنة ١٣٦٩ هـ الموافق ١١ من شهر يوليو سنة ١٩٥٠ م . وذلك في عهد صاحب الجلالة مولانا " الفاروق العظيم " راعي العلم والعلماء . وكان رئيس المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية معالي الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بك ، وزير المعارف العمومية . والأستاذ أمين مرسى قنديل المدير العام لها . هذا . ونسأل الله تعالى دوام التوفيق للدار فيما تبذله من جهود في نشر العلم والثقافة . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ما

أحمد عبد العليم البردوني
بالقسم الأدبي

إصلاح خطأ

صواب	خطأ	ج	ص	س
الذى تثنى	الذى تثنى	۱	۱۳۵	۱۱
لاهم رب	لاهم رب	۱	۳۶۸	۶
في قوله « من يتخذ »	في قوله « ومن يتخذ »	۲	۲۰۴	۷
على علاته هريماً	على علاته هريماً	۲	۲۴۲	۱۸
كثير أبو صخر	كثير بن صخر	۲	۳۰۵	۱۵
للذين يقاتلون	للذين يقاتلون	۲	۳۴۷	۱۳
لما رجعوا من	لما رجوا من	۳	۲۳۲	۱۶
« نضاعفها » بنون العظمة	« يضاعفها » بنون العظمة	۵	۱۹۵	۱۵
ج ۵	ج ۴	۶	۷۹	۲۱
عتاب بن أسيد	عتاب بن أسيد	۶	۲۳۲	۲۰
يتوفى الأنفس	يتوفى الأنفس	۷	۷	۱۲
تطيف به شد	تطيف شد	۷	۱۳۶	۲
هذا وليكم	هذا وليكم	۱۰	۱۲۲	۲
نشر الله الميت فنشر	نشر الله الميت فنشر	۱۱	۲۷۸	۱۶
لى خمسة أسماء	الى خمسة أسماء	۱۴	۲۰۰	۴
« تكون قريباً »	« تكون قريباً »	۱۴	۲۴۸	۱۰

صواب	خطأ	س	ص	ج
فمن الرفق به أن يتحلله	فمن الرفق به أن يتحلله	۷	۴۳	۱۶
وانما خالف بينها	وانما خالف بينهما	۸	۱۶۴	۱۶
ويردون الثواب	ويرون الثواب	۱۵	۱۷۲	۱۶
صدر بيت للراعى ، وعجزه	عجز بيت للراعى ، وصدرة	۱۸	۱۸۴	۱۶
فتماريا حتى ارتفعت	فتماديا حتى ارتفعت	۱۹	۳۰۰	۱۶
الصوت الذى [لا] يتأذى به	الصوت الذى يتأذى به	۱۶	۳۰۷	۱۶
على قنطاردين	على قنطار دین	۱۶	۳۱۲	۱۶
اللهم ربّ السموات... وربّ...	اللهم ربّ السموات... وربّ...	۹	۱۷۵	۱۸
نخرج مخرج الإذلال	نخرج مخرج الإذلال	۵	۲۷۶	۱۸
قوما صالحين بين آدم ونوح	قوما صالحين من آدم ونوح	۵	۳۰۸	۱۸
وأصل اللّم	وأصل اللّم	۴	۵۳	۲۰

